تاريخ المصريين

تاريخ أهل الذمّة

في مصر الإسلامية

(من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي)

تأليف

د. فاطمة مصطفى عامر

الجزء الأول



الهيئة المصرية العامة للكتاب

السياسيه والاجتماعية والاقتصادية ، مما جعلنا نعتمد عليه كثيرا في جميع أبواب الرسالة .

ومن المصادر التاريخية القديمة الأساسية لهذه الرسالة ، كتاب سعيد بن بطريق ، المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ، والذى عاصر أول الأمراء الاخشيديين فى مصر . وهذا الكتاب باسم « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » وقد صنف ابن بطريق هذا الكتاب لاخيه عيسى بن بطريق ، وذكر فيه التواريخ كلها من عهد آدم حتى سنه ٣٢٦ هـ . وهذا الكتاب يضم روايات متنوعة سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية ودينية . وقد اعتمدنا عليه كثيرا فى دراستنا لتاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية ، وفى توضيح دورهم فى مختلف النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية وفى علاقة الكنيسة القبطية بغيرها من الكنائس منذ الفتح العربى حتى عصر الأمير محمد بن طغج الاخشيد .

ومنها أيضا ، كتاب يحيى بن سعيد الأنطاكى ، الذى نسب اليه ، كما عرف هذا الكتاب ، باسم « صلة تاريخ ابن بطريق » أو « صلة تاريخ أوتيخا » . وقد بدأ ابن سعيد كتابه من حيث انتهى ابن بطريق ، فى كتابه السابق ذكره ، أى أنه بدأه بذكر حوادث وأخبار سنة ٣٢٦ هـ فى عهد الخليفة العباسى الراضى . وقد راعى ابن سعيد ، فيه الاختصار فى ذكر الحوادث والأخبار ، وانتهى به الى سنة ٤٢٥ هـ . وعنى بذكر أسماء الملوك والخلفاء والبطاركة فى الاسكندرية وأنطاكيا وبيت المقدس ، والقسطنطينية ، ومدة عهد كل منهم ، وأهم الأحداث فى هذه السنين . وقد أفادنا هذا الكتاب كثيرا ، وخاصة عند دراسة دور أهل الذمة فى عهد الخليفتين الفاطميين الحاكم بأمر الله ، والظاهر لاعزاز دين الله ، فى مختلف

النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وما صدر بشأن أهل الذمة من المراسيم والمنشورات آنذاك .

الى جانب هذه المصادر الأساسية المصرية المسيحية ، اعتمدنا على كثير من المصادر المصرية الاسلامية ، نذكر فى مقدمتها ، كتاب ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ) وهو « فتوح مصر وأخبارها » ويعد أول كتاب لمؤرخ مصرى مسلم . وكان هذا الكتاب من أهم مصادر دراستنا لموقف القبط واليهود من الفاتحين العرب . وأيضا أفادنا كثيرا عند دراستنا للجزية والخراج وغيرها من الشروط التى التزم بها المصريون الذميون فى مصر آنذاك ، وأيضا فى دراسة بعض نواحى الحياة الاجتماعية .

أما الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى ، ت ٣٥٠ هـ) فكتابه « الولاة والقضاة » ، وقد اعتمدنا عليه فى دراسة موقف القبط واليهود من الفتح العربى ، ومعرفة السياسة التى انتهجها بعض الولاة المسلمين نحو أهل الذمة ، وموقف القضاة المسلمين منهم . هذا فضلا عن أهمية هذا المصدر فى دراسة ثورات القبط وامتناعهم عن أداء الخراج ومقاومة الولاة المسلمين لهذه الثورات ، وأيضا دراسة موقف بعض الأمراء المسلمين من احتفالات أهل الذمة بأعيادهم كما عثرنا فيه على اشارات طفيفة جدا الى ملابس اليهود فى هذا العصر .

ونذكر أيضا من المصادر المصرية الاسلامية الأساسية فى هذه الدراسة كتاب ابن الصيرفى (أمين الدين تاج الرياسة أبى القاسم على بن منجب بن سليمان الشهير بابن الصيرفى المصرى ، المتوفى سنة ٥٤٢ هـ) وعنوانه « الاشارة الى من نال الوزارة » وقد أفادنا كثيرا فى دراسة موقف الخلفاء الفاطميين من القبط واليهود وما اشتهر

به هؤلاء الخلفاء من انتهاج سياسة التوسع فى استخدام هؤلاء الذميين فى الدواوين وأعمال الحكومة وخاصة فى الوزارة وموقف هؤلاء المستخدمين الذميين من اخوانهم فى الدين .

كما استعنا كثيرا ، فى هذا الموضوع ، بكتاب ابن ميسر « أخبار مصر » الجزء الثانى . وقد عاش ابن ميسر (محمد بن على ابن يوسف بن راغب ت ٦٧٧ هـ) فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) . وكتابه دراسة تاريخية محايدة لتاريخ مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين ، وموقف هؤلاء من استخدام أهل الذمة . وبالرغم من ان ابن ميسر قد عاش فى عصر الأيوبيين والمماليك ، فانه لم يحاول ، اطلاقا ، الاساءة الى الفاطميين والحط من شأنهم ، لارضاء الأيوبيين والمماليك ، الذين رغبوا فى التشهير بالفاطميين ونقدهم ..

ومن أبرز المؤرخين المصريين المسلمين ، الذين اعتمدنا على مصادرهم ، المقريزى (تقى الدين المتوفى سنة ٨٤٥ هـ) وخاصة كتابه « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » الذى يعد موسوعة عامة فى تاريخ مصر الاسلامية ، وجغرافيتها ، والحضارات التى قامت فى وادى النيل ، وما اشتهر به المصريون من العلوم الدينية والاجتماعية والفلسفية التى ازدهرت فى العالم الاسلامى . وقد اعتمد المقريزى فى تصنيف كتابه هذا على مصادر مختلفة . وكثيرا ما تكون هذه المصادر معاصرة للأحداث . وهذا الكتاب غنى بالروايات والحقائق التاريخية التى تعد مصدرا أساسيا فى دراستنا لموضوع تاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية ، من النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

ومن مصنفات هذا المؤرخ التى أفادتنا كثيرا فى هذا البحث العلمى كتاب « اتعاظ الحنفا فى أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء »

الجزء الأول ، وكتاب « النقود الاسلامية » ، الذى تحدث فيه عن النقود القديمة فى بلاد العرب والعراق والشام ومصر قبل الاسلام . كما تحدث فيه عن النقود الاسلامية ، وعقد فصلا خاصا عن النقود فى مصر حتى عصره .

هذا الى جانب عديد من المصادر المصرية الاسلامية للسيوطى ، وأبى المحاسن وابن مماتى ، وغيرهم كما يتضح فى ثبت المصادر فى نهاية الرسالة . وهناك أيضا مصادر عامة منها كتاب البلاذرى (أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادى ت ٢٧٩ هـ) وعنوانه « فتوح البلدان » ويتناول فيه ما فتحه العرب من الأقاليم والأقطار ومنها مصر والعلاقات بين الفاتحين وسكان البلاد . ونذكر أيضا كتاب الطبرى (ت ٣١٠ هـ) « تاريخ الأمم والملوك » الذى زودنا بالروايات التاريخية ذات الأهمية البالغة بشأن فتح العرب لمصر وما تم بينهم وبين المصريين من صلح . كما حفل المصدر بأخبار سياسة الخلفاء نحو أهل الذمة .

ومن مصادر التاريخ الاسلامى العامة التى اعتمدنا عليها كثيرا فى دراستنا هذه كتاب الشابستى (أبو الحسن على بن محمد ت ٣٨٨ هـ) عن (الديارات) ، وكتاب القلقشندى (أبو العباس أحمد) « صبح الاعشى فى صناعة الانشا » وخاصة الأجزاء ، ٥ ، ١١ ، ١٣ . وكتاب النويرى « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، وخاصة الجزء الأول فى الفصول التى عقدها لدراسة أعياد القبط واليهود هذا الى جانب العديد من المصادر التاريخية العامة القديمة ، وقد تضمنها ثبت المصادر فى نهاية الرسالة .

وقد اعتمدنا فى هذه الرسالة على كثير من كتب الفقه والتشريع الاسلامى وخاصة عند دراستنا لأحكام أهل الذمة فى الاسلام ،

ومدى تطبيقها فى مصر منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى . ونذكر من هذه المصادر كتاب الخراج لأبى يوسف (يعقوب بن ابراهيم ت ١٨٢ هـ) والذى صنف هذا الكتاب للخليفة هارون الرشيد ، وكتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٢ هـ) ، وكتاب « الأموال » لأبى عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) وكتاب الجهاد وكتاب الجزية وأحكام المحاربين من كتاب « اختلاف الفقهاء » لابن جرير الطبرى . وكتاب « الأحكام السلطانية » للماوردى (أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى ، ت ٤٥٠ هـ) ، وغيرها من كتب الفقه والخراج والنظم الاسلامية .

وكانت كتب الرحالة والجغرافيين العرب ، من بين مصادر هذه الرسالة وخاصة عند دراستنا للجزية والخراج وتطور جباية مصر طوال التاريخ الاسلامى وما اشتهرت به الديار المصرية من صناعات وما قام فيها من أسواق تجارية ، الى غير ذلك من وجوه نشاط السكان فهناك كتاب « البلدان » لليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب ابن واضح ت ٢٨٤ هـ) وهو كتاب جغرافى فى وصف البلدان وأقسامها والمسافات بينها وأوجه نشاط سكانها ، وأخلاقهم وعاداتهم وان كان يتميز بشىء من الاختصار . وكتاب « الأعلاق النفيسة » لابن رسته (أبو على أحمد بن عمر) ويتضمن دراسة جغرافية اقليمية للعالم . ويبدأ بدراسة الفلك والأرض . ويدرس كل اقليم وأنهاره وما يشتهر به ، وأوجه نشاط السكان ومبلغ خراجه وارتفاع جبايته .

ونذكر أيضا كتاب ابن حوقل (أبو القاسم ، الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى) وزار مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين . وكتابه هو « صورة الأرض » وكان مصدرا مهما لنا فى معرفة خراج مصر وجبايتها ، ووجوه نشاط سكانها ودور أهل الذمة

فى هذا النشـــاط وارتباط الزراعة بفيضان النيل بالشـــهور القبطيـــة .

ومن أهم الرحالة الذين عنوا بوصف مصر ، ناصر خسرو ، الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى ، وزار مصر فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله . وعليه كان مصدرا له شأنه فى دراسة دور أهل الذمة فى النشاطين الصناعى والتجارى فى مصر آنذاك كما أشار ، عند وصفه لمصر ، الى ثراء بعض القبط بها . كما رجعنا الى كتب غير هؤلاء من الرحالة والجغرافيين .

وكان من بين المصادر الأساسية لهذه الرسالة ، أيضا ، بعض الكتابات التاريخية القديمة التى كتبت أصلا باللغة القبطية أو العربية ، وترجمت فى العصـــور الحديثة الى اللغـــات الأجنبية الانجليزية والفرنسية . ويأتى فى مقدمة هذه المصادر ، تاريخ حنا النقيوسى Chronique de Jean, Eveque de Nikiou, Paris.
وقد عاش فى القرن الأول الهجرى ، السابع الميلادي ، وقد عنى بنشره (زوتنبرج) باللغة الفرنسية ويعد هذا الكتاب من أهم وأدق بل وأصدق المصادر التاريخية القديمـــة الخاصـــة بدراسة الفتح العربى لمصر ، وموقف القبط خاصة من هذا الفتح ، وما تم بينهم من عهود ، كما أفادنا هذا المصدر فى دراسة أحوال القبط واليهود قبيل الفتح العربى لمصر .

ونذكر ، أيضا ، من هذه المصادر ، تراجم حياة بعض الآباء والقديسين القبط ، التى عنى بنشرها وترجمتها الى الفرنســـية اميلينو ، والتى أفادتنا كثيرا فى دراسة أحوال القبط قبيل الفتح العربى ، وما قاسوه من اضطهاد ، وما كان لذلك كله من أثر فعال فى نجاح الفتح العربى لمصر . ومن هذه التراجم :
Uu Eveque de Keft au VII^{e} siecle, Le Caire, 1889.

وتراجم الأب شنودة والاب صمويل القلمونى فى ،

Monuments pour servir a l'histoire de l'Egypte Chrétienne aux IV[e] - VII[e] siecles. (Memoires de la mission Archeologique Français, au Caire, T. 4, 1885-1886).

وأيضا ترجمة البطرك الأب بنيامين فى ،

Fragments Coptes pour servir à l'histoire de la conquêt de l'Egypte par les Arabes (Le Journal Asiatique, 1888).

وترجمة حيـــاة البطرك الأب اسحق الذى عاصر أمير مصر عبد العزيز بن مروان ،

Histoire du Patriarche Copte Isaac, Paris, 1890.

وهذه الترجمة الأخيرة تفيد كثيرا ، فى توضيح العلاقة بين بطاركة القبط خاصة ورجال الدين المسيحى عامة ، وبين ولاة مصر المســلمين ، كمــا أنهــا تفيد فى دراســة بعض النــواحى الاجتماعية لهذه الفئة من سكان مصر الاسلامية ، وما اعتاد القبط عليه فى الاحتفال بتنصيب البطاركة .

واعتمدنا أيضا على كتاب ميخائيل السريانى وخاصــة فى توضيح بعض جوانب العلاقة بين الكنيسة المصرية وكنيسة أنطاكيا . وأيضا فى تعبيره عن وجهة نظره فى الفاتحين العرب وموقف المصريين منهم ، ووصف قبط مدينة تنيس وما يؤدونه من الجزية .

ومن هذه المصادر الأساسية أيضا رحلة بنيامين التوديلى . واستفدنا منها عند دراستنا لأحوال اليهود ودورهم فى المجتمع المصرى ، ولعله كان المصدر القديم الوحيد اليهودى وقد نشر فى

مجلدين ، الأول ترجمة للرحلة نفسها والثانى نقد وتعليق ونشر بالغتين الانجليزية والفرنسية .

Benjamin : The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, 2 Volumes, London, Berlin, 1840.

وكان من أهم مصادر دراستنا في هذه الرسالة أوراق البردى العربية واليونانية ، وخاصة عند دراستنا للضرائب المفروضة على أهل الذمة وأثرها فى مالية البلاد • فقد أمدتنا هذه الأوراق بالكثير من المعلومات عن مقدار هذه الضرائب ، وكيفية جبايتها وموقف أهل الذمة من أداء هذه الضرائب ، وما نتج عن زيادتها من مقاومة سلبية من جانب الذميين ، وما كان من وضع ولاة مصر حدا لهذه المقاومة ، وخاصة فى القرن الأول الهجرى • وقد عنى كل من جروهمان وبل ، بنشر هذه الأوراق :

جروهمان : أوراق البردى العربية . وقد ترجمها الى العربية حسن ابراهيم حسن وعبد الحميد حسن و

Bell (H. I.) : Translation of the Greek Aphrodito Papyri in the British Museum. (Der Islam, Strassburge, 1911).

هذا الى جانب عديد من المراجع الحديثة العربية والافرنجية وكتب الآثار التى أفادتنا كثيرا فى دراستنا لجميع أجزاء الرسالة ، واستنرنا برأى مؤلفيها فى كثير من الأحيان وهذه المراجع قد تضمنها ثبت المصادر فى نهاية الرسالة .

أما الصعوبات التى واجهتنا فى دراستنا هذه ، فكان أهمها قلة ما عثرنا عليه من الروايات والأخبار التاريخية عن جماعة اليهود فى مصر ، فى هذه الحقبة الزمنية من التاريخ الاسلامى لمصر . فلم

نجد من المصادر القديمة التى تهتم باليهود ســوى رحلة بنيامين التوديلى ، الى جانب ما كتبه كل من يعقــوب مان Jacob Mann وموريس فارجون Maurice Fargon عنهم . ونلاحظ أن الأخير معتمد فى كتــابه على الأول الذى اعتمد بدوره على ما جاء فى الـ Cairo Geniza الى جانب بعض الأخبار القليلة المحدودة التى تضمنتها المصادر الأخرى القديمة والحديثة عن اليهود ، ونلاحظ أيضـــا أن معظم هذه الروايات التاريخية تهتم باليهود فى العصر الفاطمى .

ومن الصعوبات التى واجهتنا أيضا ، فى هذه الدراسة تعدد الروايات التاريخية بشأن الحدث الواحد ، وتضارب هذه الروايات وتناقضها أحيانا مما قد يؤدى الى الغموض واللبس أحيانا .. وقد حاولنا جاهدين ، أخذ الأقرب الى الصدق منها . وهذه الظاهرة تبدو واضحة بصفة خاصة فى الفصل الأول من الباب الأول ، والذى تناولنا فيه دراسة موقف القبط واليهود من الفتح العربى .

وتتضمن هذه الرسالة خمسة أبواب رئيسية ، كل باب منها مقسم الى فصول هذا الى جانب التمهيد وهو دراسة موجزة لأحوال القبط واليهود قبيل الفتح العربى . وقد درسنا فى الباب الأول دور أهل الذمة فى الحياة السياسية فى مصر الاسلامية منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى . وقسمناه الى أربعة فصول .

ناقشنا فى الفصل الأول موقف القبط واليهـــود من الفتح العربى . وقد بذلنا قصارى الجهد فى توضيح موقف هؤلاء المصريين من العرب الفاتحين ، ومدى مساعدتهم لهم فى اتمام الفتح . وأشرنا أيضا الى الروايات التاريخية المتعددة ، والمتضاربة أحيانا بشأن أحداث الفتح وموقف القبط ، بصفة خاصـــة من العرب ومدى

مساعدتهم لهم فى اتمام فتح مصر . وختمنا هذا القسم بايضاح رأينا الخاص فى هذه الموضوعات وتدعيمها بالروايات التاريخية .

أما الفصل الثانى فهو دراسة مفصلة لدور أهل الذمة فى الحياة السياسية فى عصر الولاة (فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين) ، وبينا فيه أبعاد استخدام ولاة مصر أهل الذمة فى شئون الحكم والادارة ، فكان منهم الكتاب وعمال الدواوين وحكام الأقاليم ورؤساء القرى . ودرسنا موقف هؤلاء الموظفين الذميين من اخوانهم فى الدين . كما تحدثنا فى هذا الفصل عن موقف الولاة المسلمين من تعيين البطاركة القبط وكيف كانت موافقتهم ضرورية لاتمام مراسيم تعيينهم . كما درسنا موقف الولاة من كل من القبط والملكانيين ، كما ذكرنا ما تعرض له أهل الذمة فى عصر الولاة من مضايقات مادية واجتماعية .

ويدرس الفصل الثالث دور أهل الذمة فى عصر الدولتين الطولونية والاخشيدية ، ومدى استفادة الأمراء من الذميين فى الدواوين وجباية الخراج وأعمال الكتابة . كما رسمنا صورة واضحة كاملة لحياة أهل الذمة فى العصرين الطولونى والاخشيدى .

ثم درسنا فى الفصل الرابع ، موقف الخلفاء الفاطميين من أهل الذمة ، وبينا كيف توسع معظم هؤلاء الخلفاء فى استخدامهم والاعتماد عليهم فى شئون الحكم والادارة . فكان منهم معظم الكتاب والوزراء وعمال الدواوين ، وحكام الأقاليم وجباة الضرائب ، مما أدى الى ارتفاع شأن القبط واليهود ، عما كان عليه فى العصور السالفة . وأشرنا أيضا الى ما كان بين كثير من الخلفاء الفاطميين والبطاركة من مودة وصداقة ، وما كان لذلك من أثر فى سياسة التسامح التى تمتع بها أهل الذمة فى حياتهم الدينية والاجتماعية . ودرسنا موقف

الخلفاء الفاطميين من تنصيب البطاركة القبط ، وما كان يجب على هؤلاء البطاركة نحو الخلفاء ووزرائهم وانتهينا الى دراسة ما تعرض له أهل الذمة من مضايقات في هذا العصر .

أما الباب الثانى ، فهو دراسة اجتماعية فحواها توضيح دور أهل الذمة فى المجتمع المصرى . وقد قسمناه الى أربعة فصول أيضا . أما الفصل الأول فيضم دراسة عامة لأحكام أهل الذمة فى الاسلام ومدى تطبيق هذه الأحكام فى مصر ، مع توضيح أن هذه الأحكام لم ترد الاشارة الى تطبيقها والالتزام بها الا فى بعض الفترات المحدودة ، وهى الفترات التى تعرض فيها أهل الذمة لبعض الشدائد والمضايقات .

والفصل الثانى هو دراسة تفصيلية لاحتفالات أهل الذمة بأعيادهم الدينية والقومية . وقد بدأنا هذا الفصل بدراسة طوائف أهل الذمة فى مصر الاسلامية وتنظيمات كل طائفة مع ايضاح خاص للوظائف الدينية عند كل من القبط واليهود ، ودور عبادة كل منهم . وأشرنا الى موقف المسلمين من هذه الاحتفالات الدينية ، وموقف الحكام المسلمين ومدى مشاركتهم للقبط بصفة خاصة فى احتفالاتهم مع توضيح ما جرت به عادة القبط واليهود فى احتفالاتهم بأعيادهم ودرسنا مدى تمتعهم بالحرية الدينية والاجتماعية فى تطبيق هذه العادات والتقاليد .

أما الفصل الثالث من هذا الباب ، فهو دراسة لأخلاق كل من القبط واليهود وما ساد بينهم من العادات والتقاليد ، ووصف الملابس التى ميزت كل طائفة من طوائفهم . ثم درسنا فى الفصل الرابع والأخير من هذا الباب ، العلاقات بين أهل الذمة وسائر عناصر المجتمع المصرى . وبينا فى أول هذا الفصل العلاقات بين الطوائف

المسيحية ، وخاصة ما كان بين القبط والملكانيين ، ثم درسنا العلاقات بين القبط واليهود . ثم درسنا ما كان يسود بين أهل الذمة وبين عامة المسلمين من علاقات الود والوئام • وأشرنا الى أن عامة المسلمين لم يثوروا ، ولم يعترضوا حياة الذميين الا في فترات محدودة ، حينما كانوا يستنكرون تسلط أهل الذمة على الوظائف الحكومية والادارية والمالية . ومبالغة أمراء مصر وخلفائها في سياسة التسامح معهم ، الى جانب توالى انتصارات الروم على المسلمين في بلاد الشام . ثم ناقشنا العلاقات الطيبة التى كانت تسود فى الغالب ، بين أهل الذمة جميعا وبين حكام مصر المسلمين الذين كانوا يتصدون للدفاع عن حقوقهم وحريتهم فى المجتمع ، ويحققــون لهم الأمن والسلام ، فى معظم الأحيان ، بل ويقتصون لهم من المسلمين • كما كان أمراء مصر وخلفاؤها يتخذون الأديرة القبطية ، أماكن للتنزه والصيد ، ويقدمون لرهبانها ـ فى مقابل ذلك ـ كثيرا من الاعانات الماليـــة .

وخصصنا البـاب الثالث لدراسة دور أهل الذمة فى الحياة الاقتصادية ، وقسمناه الى أربعة فصول . تحدثنا فى الفصل الأول منها ، عن الضرائب المفروضة على أهل الذمة وأثرها فى مالية مصر ، وكيف كانت الجزية والخراج فى مقدمة هذه الضرائب ، وذكرنا أنه الى جانب الضرائب المعتادة ، كانت هناك ضرائب أخرى عددناها . وأشرنا الى ما استفدناه من أوراق البردى المتنوعة فى تفهم كيفية ووسائل جباية هذه الضرائب والقائمين بجبايتها ، وأوامر الولاة المسلمين بتوخى العدل فى تقدير هذه الضرائب وفى تحصيلها . كما تحدثنا عن المقاومة السلبية (حركة الآبقين) والمقاومة الايجابية (الثورات) التى قام بها القبط ، وما كان من ردع الولاة المسلمين لها • وناقشنا أيضا تطور مقدار الجزية والخراج فى مصر الاسلامية فى هذا العصر .

وخصصنا الفصل الثانى لدراسة دور أهل الذمة فى النشاط الزراعى ، فتحدثنا بايجاز عن ملكية الأراضى الزراعية ونظم الزراعه والرى . ثم أشرنا الى مدى عناية المصريين بالجسور وحفر الترع والقنوات واقامة السدود وبناء مقاييس النيل ودور أهل الذمة فى ذلك كله . وما كان من ارتباط الزراعة بالشهور القبطية ، ونظام ايجار الأراضى وكيفية أداء الخراج عنها فى حالة ايجارها .

أما الفصل الثالث فهو دراســـة توضيح دور أهل الذمة فى النشاط الصناعى ، وما اشتهر به القبط خاصة من الصـــناعات المتعددة ومراكز هذه الصناعات مع الاشارة الى بعض الآثار الموضحة لدور القبط فى هذا الميدان . وشرحنا فى الفصل الرابع دور أهل الذمة فى النشاط التجارى فى داخل الأراضى المصرية وخارجها . وأشرنا الى النقود المتداولة والى الموازين والمكاييل .

ويدرس الباب الرابع دور أهل الذمة فى الحياة الفكرية ، وهو ثلاثة فصول ، الأول منها دراسة مفصلة لانتشار الاسلام واللغة العربية والعوامل المساعدة على ذلك حتى صار الاسلام دين الأغلبية العظمى فى مصر . كمـا أصبحت للغـة العربية الســيادة اللغوية أيضا ، فصارت لغة التخاطب ولغة العلم ولغة الكتابة وخصصنا الفصل الثانى لدراسة النشاط الفكرى لأهل الذمة فى دور العبادة ومشاركتهم فى نهضة الثقافة العربية . وذكرنا كيف كانت الكنائس والأديرة غنية بمكتباتها ، وأن أهم ما كان يعنى به الذميون هو الدراسات الدينية ، الى جانب بعض الدراسات الانسانية والعلمية . أما الفصل الأخير من هذا الباب فقد أشرنا فيه الى بعض المفكرين والأطباء من أهل الذمة الذين اشتهروا فى مصر الاسلامية فى ذلك العصر .

وكان الباب الخامس والأخير عبارة عن دراسة موجزة للعلاقات بين الكنيسة القبطية وبين كنائس كل من الحبشة والنوبة وأنطاكيا . وقسمناه الى فصلين يدرس الأول منهما تطور العلاقة بين كنيستا الاسكندرية وكنيستي الحبشة والنوبة . أما الفصل الثانى فهو دراسة للعلاقات بين كنيستي أنطاكيا والإسكندرية . وتنتهي الرسالة بخاتمة موجزة تليها الملاحق وثبت المصادر ثم الصور والخرائط .

تمهيـــد

أحوال القبط واليهود قبيل الفتح العربى

يجدر بنا قبل أن نخوض في البحث فى ناريخ أهل الذمة - أو بعبارة أخرى تاريخ القبط واليهود - فى مصر الاسلامية من الفتح العربي الى نهاية العصر الفاطمى ، أن ندرس أحوالهم فى مصر قبيل الفتح ، وخاصة في عهد الامبراطور البيزنطى هرقل ، خلال السنوات الثلاثين السابقة للفتح العربى - أى من سنة ٦١٠ م ، الى سنة ٦٤٠ م على وجه التقريب ، وذلك من النواحى الدينية والسياسية والادارية ، والاقتصادية والثقافية والاجتماعية .

أما من النواحي الدينية والسياسية ، فنجد أن مصر كانت ولاية رومانية ثم بيزنطية منذ انتصار أغسطس قيصر على كليوباترة فى موقعة أكتيوم سنة ٣١ ق٠م واستيلائه على مصر ، والقضاء نهائيا على دولة البطالمة فيها (١) . وبذل الرومان كل وسيلة لاستغلال موارد البلاد المصرية الى أقصى درجة ممكنة ولم يختلف الوضع فى العهد البيزنطى (٢٨٤ - ٦٤٠ م) عما كان عليه فى العهد الرومانى (٣١ ق٠م - ٢٨٤ م) (٢) .

وكانت مصر فى مقدمة البلاد التى وصلت اليها المسيحية فى القرن الأول الميلادى ، ثم أخذت فى الانتشار تدريجيا فى جميع أنحاء مصر منذ القرن الثانى الميلادى وناصب الأباطرة الوثنيون المسيحية العداء (٣) ، حتى اعترف الامبراطور قسطنطين الأول (٣٢٣ - ٣٣٧ م) بالدين المسيحى (٤) . وفى سنة ٣٨٠ م أصدر الامبراطور تيودوسيوس الأول مرسوما يقضى بأن تكون المسيحية الدين الرسمى للامبراطورية (٥) .

وبالرغم من ذلك لم تنعم مصر بالأمن والهدوء ، اذ سرعان ما د
النزاع بين المسيحيين أنفسهم حول طبيعة المسيح ، وتدخل الأباطر
فى هذا النزاع ، وعقدوا المجامع الدينية من أجل انهـاء ذلك
الخلاف (٦) . وبلغ النزاع الدينى بين كنيستى الاسكندر
والقسطنطينية أقصاه حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى ، حين
اختلفت الكنيستان حول طبيعة المسيح . فذهبت الكنيسة المصر
الى القول بأن للمسيح طبيعة واحدة ، ولذلك سميت باسم
المونوفيزت Monophysite أى أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة ؛
أما كنيسة القسطنطينية فقالت ان للمسيح طبيعتين ، ولذلك أطلق
عليها اسم الدوفيزت Duophysite أى أصحاب مذهب الطبيعتين.
وكانت الغالبية العظمى من مسيحيى مصر من أتباع مذهب الطبيع
الواحدة ، فخالفوا بذلك مذهب كنيسة الامبراطورية الذى أقر
مجمع خلقدونية (٧) .

رفض مسيحيو مصر ما أقره مجمع خلقدونية ، وأطلقوا ع
أنفسهم اسم « الأرثوذكسيين » — أى أتباع الديانة الصحيحة (٨)
فوقع المصريون نتيجة لذلك تحت اضطهاد الأباطرة . ويرى أح
الكتاب الأوربيين أن حرمان البطرك ديسقورس وطرده من الكنيس
فى مجمع خلقدونية ، كان فاتحة لمأساة عظيمة ، لعبت أدوارها ف
منتصف القرن السابع الميلادى ، وانتهت بزوال المسيحية ف
مصر (٩) . ومما لا شك فيه أنه يعنى بذلك زوال الدولة البيزنط
المسيحية وقيام حكم العرب المسلمين فى مصر .

يشير المقريزى (١٠) الى أن معظم سكان مصر عند الفتح العربى
كانوا من المسيحيين وكان هؤلاء المسيحيون ينقسمون الى فريقين
يختلفان فى العنصر وجوهر العقيدة . أحدهما الرومان ، وهم الطبقة

الحاكمة ، صاحبة السيادة ويدينون بمذهب الامبراطورية وعددهم يزيد على ثلاثمائة ألف رومانى . أما الفريق الآخر من المسيحيين فيتألف من عامة سكان مصر ، ويسمون القبط (١١) . وهم خليط من أجناس متعددة فمنهم الأحباش والنوبيون وغيرهم الى جـانب المصريين ، وكلهم على المذهب اليعقوبى (١٢) ومن بينهم نجد الكتاب والتجار وأرباب المهن والحرف المختلفة ، وكانوا على عداء مع الفريق الأول ، مما حال دون الامتزاج الاجتماعى وخاصة فى الزواج . وكان عدد هؤلاء القبط يزيد على عشرة آلاف .

ونجد من بين سكان مصر أيضا اليهود . والواقع أنهم كانوا يتركزون بصفة خاصة منذ العصر البطلمى ، فى مدينة الاسكندرية . وكان لهم جاليات أخرى فى بعض مدن مصر السفلى ، وكذلك فى الفيوم ، كما كان فى البهنسا (١٣) ، وخاصة فى العصر الرومانى جالية يهودية كبيرة ، وكانت تقيم فى حى خاص بها (١٤) .

وتحول كثير من اليهود الى الدين المسيحى ، مع احتفاظهم بأسمائهم القديمة . وتشير بعض أوراق البردى الى أن كثيرا من اليهود فى العصر البيزنطى كانوا يشـتغلون بالتجـارة (١٥) . ونلاحظ أن المصادر التاريخية القديمة والحديثة قلما تشير الى اليهود فى مصر فى ذلك العصر . ونرى أن ذلك راجع الى ما ساد هذا العصر من الخلافات المذهبية الدينية والسياسية : ومما لا شك فيه أن اليهود كانوا حريصين على أن يبتعـدوا عن هذه الخـلافات ، ليمارسوا حياتهم الدينية ، ونشاطهم الاقتصادى فى هدوء . ولذلك سنجد أن هذا التمهيد يكاد يركز الدراسة على أحوال القبط .

وقد تأثرت أحوال المصريين قبيل الفتح ، بالثورة التى أعلنها هرقل ضد الامبراطور فوقاس سنة ٦٠٩ م (١٦) . وكانت الظروف

المحيطة بالامبراطورية هى التى ساعدت هرقل فى ثورته ، وانتزاع منصب الامبراطور من فوقاس ، فقد أدت عدم كفــاءة فوقاس السياسية ، وقسوته الشـــديدة الى جانب سياسة الارهاب التى اتبعها بونوس ، نائبه فى مصر ، الى اشتداد روح المعارضة فى البلاد المصرية (١٧) فلم يكد المصريون يعلمون بثورة هرقل ، حتى انضموا اليه ضد الامبراطور . اذ كان المصريون ــ كما يذكر أحد الكتاب المحدثين ــ على أهبة الاستعداد للتمرد والثورة ضد الحكم الممقوت ، باستثناء بعض الموظفين المصريين (١٨) .

أسند هرقل الى القائد نيقتاس ، مهمة الاستيلاء على مصر ، وقد نجح هذا القائد فى دخول الاسكندرية . وأعلنت معظم المدن المصرية ولاءها لهرقل . وقدم معظم المصريين كل مساعدة ممكنة الى قواده الذين نجحوا فى السيطرة على القطر المصرى ولاذ بونوس ــ نائب فوقاس فى مصر ــ بالفرار (١٩) .

وهكذا تخلص المصريون من حـــكم فوقاس ، ورحبوا بحكم الامبراطور هرقل ، مستبشرين به خيرا ، فقد يخلصهم مما عانوه من العسف والظلم ، وأملوا فى حياة هادئة مستقرة . ويرى البعض أن المصريين شاركوا فى الثورة ضد فوقاس ، حيث كانوا يأملون خيرا فى الحكم الجديد ، ولكنهم ما لبثوا أن شعروا بخيبة الأمل بعد قليل (٢٠) . فلم تكن نهـــاية حكم فوقاس ، نهاية لسياسة الاضطهاد وسفك الدماء . فبعد فترة قصيرة من حكم هرقل ، دب الخلاف الدينى الذى أنهك قـوى البــلاد ، وجعلها عرضة للأخطار الخارجية ، وأصبح القبط لا يكترثون بما تتعرض له البلاد من هذه الأخطار الخارجية (٢١) .

ونلاحظ أن المؤرخ القبطى حنا النقيوسى ـ وهو أقدم المؤرخين المصريين وقد عاش فى القرن السابع الميلادى ـ لم يذكر شيئا عن الخلافات الدينية فى بداية عهد هرقل فى مصر ولم يتعرض فى كتابه لوصف أى اضطهاد أو ظالم ، بل أشاد بحكم نيقتاس نائب هرقل فى مصر ٠

تولى نيقتاس حكم مصر ، نائبا عن هرقل الذى بدأ عهده بالتودد الى القبط معترفا لهم بالجميل ، لمساعدتهم فى قتال قوات فوقاس فى مصر ، والذا أحسن معاملتهم ٠ وبادر بوضع حد للنزاع بين الأحزاب السياسية المتعارضة وحاول بث السلام بينها ٠ كما عين حكاما على مختلف الأقاليم المصرية ، لتوفير الأمن والاستقرار ورفع الضرائب عن المصريين ثلاث سنوات متتالية ، فنال محبة المصريين ورضاهم (٢٢) ٠

وفى الحقيقة كان من الضرورى أن يسعى نيقتاس لكسب محبة المصريين ، وبدا هذا واضحا فى اقامة البطرك الملكانى (٢٣) الذى طلب من الحكومة البيزنطية تنصيبه وكانت توليته ترضى مشاعر المصريين (٢٤) ٠ وكان هذا البطرك يسمى حنا الرحوم ، لما اشتهر به من فعل الاحسان والخير ٠ فكان له أتباع يجوبون أرجاء البلاد ، ليأتوا اليه بخبر « سادته ومساعديه » ولما سئل عما يقصده بهذا التعبير قال : « أقصد من تسمونهم أنتم الفقراء والمساكين ، وأسميهم أنا السادة والمساعدين ، لأنهم فى الحق يساعدوننا ويمنحوننا ملكوت السموات » ، وقد أثار احسانه وخيراته الواسعة دهشة نيقتاس (٢٥) ٠

أما البطرك اليعقوبى فكان حينئذ يسمى أندرونيكو ٠ وكان لا يقل شهرة عن البطرك الملكانى من حيث الاحسان الى شعبه ٠ وكان مقره الاسكندرية وهو من أسرة عريقة . وصفه ساويرس (٢٦)

ـ أسقف الأشمونين بأنه كان « غنيا ، يحب الصدقة ، مقدما فى الشعب ، محبا للرحمة ، لا يفتر من الاعطاء . وكان أهله مقدمى المدينة ، حتى انهم ولوا ابن عمه ديوان الاسكندرية . ومن أجل قوة سلطانه وتقدمته ، لم يقدروا الهراطقة يخرجوه من الاسكندرية الى الديارات ... » .

واستمر الشعب فى مصر منقسما الى طائفتين ، لكل طائفة رئيسها الدينى الذى يدبر شئون كنيستها ، ويرعى أحوال رعيته ، مستقلا عن الآخر ، ومما لا شك فيه أن الرئيس الملكانى ، كانت تؤيده الحكومة البيزنطية ، وتشد أزره على حين يحدث عكس ذلك بالنسبة للرئيس اليعقوبى .

وكان نيقتاس عازما على المضى فى طريق الاصلاح ، واسترضاء المصريين ، ولكنه فوجىء بالغزو الفارسى (٢٧) . فانصدع الحكم البيزنطى فى مصر ، ولم ينعم المصريون طويلا بالراحة والهدوء بل انقلب أمنهم الى خوف .

نجح الفرس فى غزو أراضى الامبراطورية البيزنطية ، وأصبح الطريق أمامهم مفتوحا لغزو مصر فى سنة ٦١٩ م . ومما لاشك فيه أن نقص القوات الحربية البيزنطية وعدم الاتفاق بين الرؤساء ، قد مكن الفرس من هذا الغزو دون بذل مجهود يذكر (٢٨) . ولنا أن نتساءل ، كيف نجح الفرس فى غزو مصر ؟ وهل واجهوا مقاومة من القبط ؟؟

تقدم الفرس نحو الأراضى المصرية عن طريق ساحل البحر المتوسط ، وفتحوا مدينة الفرما (٢٩) Peluse عند الحدود المصرية الشرقية (٣٠) ثم تقدموا فى الأراضى المصرية كالسيل الجارف ،

يخربون الأديرة والكنائس ، ثم زحفوا الى الاسكندرية عن طريق نقيوس (٣١) ٠

كانت الاسكندرية مدينة قوية منيعة فحاصرها الفرس وألحقوا التدمير والخراب بالقرى والأراضى المجاورة لها ، وخاصة الأديرة والكنائس ٠ والفرس فى الحقيقة يشفون غليلهم لاخفاقهم فى اقتحام الاسكندرية والاستيلاء عليها ٠ وقد ذكر ساويرس (٣٢)، أنه كان بها حينئذ ستمائة دير بهاناطون (٣٣) ، تعج بالحياة والرخاء ٠ واقتحم الفرس هذه الأديرة وأعملوا بالقتل فيمن فيها ، ونهبوا متاعها ، ثم خربوها ٠

علم أهل الاسكندرية بما أقدم الفرس عليه ، من أعمال التخريب والتدمير مما أثار ذعر الأهالى والحكام على السواء ٠ فأسرع الحاكم نيقتاس ، والبطرك الملكانى حنا الرحوم بالخروج من الاسكندرية ، واتجه نيقتاس الى القسطنطينية فى حين ذهب البطرك الى قبرص حيث توفى هناك فى نوفمبر سنة ٦١٧ م (٣٤) ٠

أما أهالى الاسكندرية فقد فتحوا أبواب مدينتهم ، فدخلها الفرس، وأمر قائدهم السلار، جنوده بالمحافظة على المدينة ومبانيها، ولكنه أوصاهم فى نفس الوقت بقتل أهلها لأنهم منافقون (٣٥) ٠ وروى ساويرس (٣٦) أن السلار ـ القائد الفارسى ـ دعا رجال المدينة الذين تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة عشرة والخمسين للخروج منها ، ووعد بمنح كل منهم عشرين دينارا ٠ فسجل أسماءهم ، وبلغ عددهم ثمانين ألفا ثم أمر القائد بقتل الجميع بالسيف ٠

وقد انفرد ساويرس بذكر هذه القصة ، وربما كانت من صنع خيال هذا المؤرخ القبطى الذى أراد الاساءة الى المسيحيين الملكانيين

الذين كانوا يمثلون غالبية سكان الاسكندرية • ويذهب بتلر (٣٧) الى نفس الرأى ، فيذكر أنه يمكننا أن نلمس من سياق القصة ميل المؤرخ لمذهب المونوفيزت ، وما كان يختلج فى قلبه من السرور ، اذ كان يفكر فى مذبحة تهلك أهل المدينة ، وهم من أتبـاع المذهب الملكانى •

أقدم الفرس على قتل كثير من أهل الاسكندرية ، كما استولوا على أملاك الكنائس الغنية ، وأملاك كبار الملاك بالمدينة • وبعثوا هذه الغنائم مع الأسرة الى الدولة الفارسية (٣٧ م) • وقد أثار تغلغل الفرس فى الأراضى المصرية ، ذعر الناس جميعا ، وخاصة الرهبان والقسس والأسـاقفة (٣٨) • فقـد ألحق الفرس كثيرا من الأذى بالمصريين ورجال الدين فى الوجهين البحرى والقبلى (٣٩) •

ويرى هاردى (٤٠) ــ Hardy أن القبط المنشقين على كنيسة الدولة ، كانوا متحدين أو متحالفين مع الفرس • فقد حدث فى سـوريا أن تعاون الأرمن والسريان اليعاقبة معهم ، مثلمـا تعاون النسطوريون معهم أيضا بالعراق ، وان كانت الكتب القبطية تشير الى أن الفرس عاشـوا فى مصر كغزاة ، فخربوا الأديرة والقرى وقتلوا كثيرا من الرهبان وامتد تخريبهم الى صعيد مصر •

ومن العسير علينا قبول الرأى القائل ان القبط قد رحبوا بالفرس أو تعاونوا معهم • ونسـتند فى ذلك على بعض الحقائق التاريخية • فقد أقدم الفرس الغزاة على قتل الرهبان وجلهم من الأقباط (٤١) وأنزلوا الرعب فى قلوب من بقى منهم ، حتى اضطروا الى اللجوء الى الأماكن المهجورة والجبال النائية (٤٢) • كما أن الفرس سلبوا الكنائس ممتلكاتها ، وانتهكوا حرمتها ، واستولوا على أوانى الكنيسة المقدسة ، وأساءوا استعمالها (٤٣) فأنى للقبط اذن أن يرحبوا بهم ، ويجدوا فيهم الخلاص من الحكم البيزنطى •

استمر حكم الفرس لمصر عشر سنوات . ويكاد يجمع المؤرخون على أن أحوال القبط وكنيستهم فى مصر ، كانت فى عهد الفرس أحسن حالا مما كانت عليه فى عهد البيزنطيين ، اذ نعموا غالبا بالهدوء ، وتمتعوا بحرية العقيدة على عكس ما كان سائدا فى عهد البيزنطيين وأبقى الفرس بعد أن استقر لهم الأمر فى البلاد ، على كبار موظفى الدولة ، تحقيقا لاستقرار الحكم (٤٤) .

وفى خلال الحكم الفارسى ، توفى البطرك اليعقوبى أندرونيكو سنة ٦٢٣ م . وأقيم من بعده الأب بنيامين بطركا . وقد أحسن الفرس الى اليعاقبة على حين أساءوا الى الملكانيين لاتفاقهم مع الرومان فى المذهب الدينى . وكان البطرك بنيامين يقيم فى مدينة الاسكندرية (٤٥) .

وبدأ الأب بنيامين بتطهير الكنيسة مما لحق بها خلال فترات الاضطراب . كما عمل على اعادة وحدة الكنيسة القبطية ، وبذل أقصى جهده ليعيد اليها الاطمئنان والاستقرار بعد الظروف العصيبة التى مرت بها البلاد فى هذا الوقت (٤٦) . وتولى بنيامين منصبه ست سنوات فى عهد الفرس حتى استعاد الرومان مصر ثانية (٤٧) .

وفرض الفرس غالبا على الكنائس جزية تؤديها لهم ، واستصفوا أحيانا ما كان للكنائس الملكانية من أوقاف وأرزاق . فى حين تركوا الأبنية والعمائر الأهلية لأصحابها دون المساس بها (٤٨) . وما لبث أن نهض الامبراطور هرقل لقتال الفرس ونجح فى استرداد ممتلكات الامبراطورية البيزنطية فى الشرق ، كما استعاد مصر أيضا فى سنة ٦٢٩ م (٤٩) .

حرص هرقل عقب ذلك على تحقيق الوحدة السياسية والدينية بين شعوب الامبراطورية ولما كان يدرك أن القبط يتمسكون تماما

بعقيدتهم ومذهبهم المنوفيزتى ، ويتحملون العذاب فى سبيله ، راى أنه من الحكمة أن يكسب رضاهم ، حتى تنعم الدولة بالهدوء وتتحقق الوحدة المرغوبة ٠

دعا هرقل من أجـل ازالة الخلافات الدينيـة ـ أثناسيوس بطرك أنطاكيـا ، وسرجيوس بطرك القسطنطينية وكيرس أسقف فاسيس ـ فى بلاد القوقاز ـ لبحث تحقيق هذا الهدف ، والاتفاق على ما يرضى هذه الطوائف الدينية المختلفة ، فاجتمعوا فى هيرابولس Hiérapolis فى آسـيا الصـغرى ـ فى سنة ٦٣١ م ٠ وقرروا مشروعا دينيـا سمى مشروع الاتحـاد Monothelisme واتفقوا فيه على عدم ذكر قرارات مجمع خلقدونية (٥٠) ٠ ويسمى البعض هذا المشروع أيضا باسم صـورة توفيق Monothalma ويقضى هذا المشروع بأن يمتنع الناس عن الكلام فى طبيعة السيد المسيح وصفته ويدعو الجميع للاعتراف بأن للمسيح ارادة واحدة (٥١) ٠

ويرى الشـماس منسى القمص (٥٢) أن هذا المشروع الذى أراده الامبراطور عاد بالضرر على الدولة ، ولم يحقق الهدف منه ٠ وقد رفض المصريون مشروع هرقل كما كان من العسر ارغامهم على قبوله (٥٣) ٠

ومما زاد الأمر سوءا ، أن هرقل أساء اختيار نائبه فى حكم مصر الذى عهد اليه بتنفيذ مشروعه ٠ فقد اختار رجلا يصفه كثير من المؤرخين بأنه سيئ الخلق ، فظ الطباع وهو الأسقف كيرس Cyrus الذى شهد الفتح العربى لمصر ، والذى عقد معاهدة الصلح مع عمرو بن العـاص ، ويسـميه المؤرخـون المسـلمون المقوقس Mukaukes (٥٤) وهو الاسم الذى سنطلقه عليه فى بحثنا هذا ٠

أسند هرقل الى نائبه المقوقس الرئاستين السياسية والدينية ، اذ جعله بطركا للكنيسة الملكانية في مصر ، إلى جانب كونه حاكما عاما للبلاد . يقول ساويرس (٥٥) ان هرقل « أنفذ واليا الى أرض مصر ، يدعى قيرس ، ليكون بطركا وواليا معا » .

كان بطرك اليعاقبة عند وصول المقوقس الى مصر ، هو الأب بنيامين الذى ولى البطركية بعد الأب أندرونيكو فى عهد الفرس . وكان الأب بنيامين محبوبا من المصريين اذ نظم الكنيسة وأصلح أحوالها ، ورفض المشروع الدينى الجديد . وينسب ساويرس رفضه الى رؤيا صادقة أمر فيها بترك الاسكندرية عند قدوم المقوقس اليها ، والاختفاء طوال عشر سنوات ، حتى تتغير الأوضاع وينصلح الحـــال (٥٦) .

ولكننا نرى أن بنيامين رأى أنه من الخكمة والايمان أن يرحل عن الاسكندرية بعد قدوم المقوقس ، بل طلب أيضا من الأساقفة مغادرتها . فقد أدرك بنيامين أن الشعب المصرى سيقف فى وجه تنفيذ مشروع هرقل ، وتوقع ما ينتج عن هذا الرفض من الاضطهاد والظلم . فكتب بنيامين الى جميع الأساقفـة ، يطلب منهم النجاة بأنفسهم محافظة على عقيدتهم ، وحرصا على سلامة مذهبهم ، ووحدة كنيستهم . ثم خرج بنيامين من الاسكندرية الى الصعيد حيث أقام مختفيا فى دير صغير طوال عهد المقوقس (٥٧) . ونستخلص من هذه الروايات التاريخية القديمة أنه لم يحدث أى لقاء بين الأب بنيامين البطرك اليعقوبى ، وبين المقوقس البطرك الملكانى . والواضح أن الأب بنيامين خرج من الاسكندرية عند وصول المقوقس اليها .

فى حين ذهب بعض المؤرخين المحدثين الى أن المقوقس حاول اقناع البطرك القبطى بنيامين بقبول المشروع الجديد الذى أراد به

هرقل تحقيق الوحدة الدينية التى قد تؤدى الى الوحدة السياسية • الا أن الأب بنيامين رفض المشروع ، وذهب الى أنه لا يقبل قرارا دينيا يصدره الامبراطور ، لأنه ليس من مهمته وضع الشرائع اللاهوتية • وتعرض بنيامين نتيجة لموقفه لكثير من الأخطار ، مما جعله هو وبعض أساقفة الاسكندرية يلتجئون الى الجبال والصحارى • ثم انتهى الأمر بنفى البطرك بنيامين الى دير حقير فى مصر الوسطى (٥٨) • هذا هو موقف البطرك بنيامين من المقوقس ومذهبه ، ولنا أن نتساءل عن موقف كل من القبط والملكانيين ؟؟

يعتقد بعض المؤرخين المحدثين أن المقوقس اتبع فى أول الأمر سياسة سلمية وأنه حاول أن يقنع شعب مصر بالمذهب المونوثيلى (٥٩) الذى يهدف الى القضاء على الخلافات الدينية (٦٠) • ولكن هذا المشروع واجه معارضة شديدة من الملكانيين واليعاقبة على السواء فقد اعتقد بعض الملكانيين أن هذا المشروع مناقض تماما للمذهب الخلقدونى (٦١) • وكان على رأس هذا الفريق المعارض صفرونيوس ، الذى حاول أن يثنى المقوقس عن تنفيذ المشروع تارة بالحجة ، وتارة أخرى بالتوسل والرجاء ، فطلب منه المقوقس الرجوع الى البطرك سرجيوس – بطرك القسطنطينية – ومهما كان الأمر فقد وضع المشروع الجديد موضع التنفيذ ، وتعرض من يرفضه الى أشد أنواع العذاب (٦٢) •

أبدى جميع القبط سخطهم على المشروع وتمسكوا بمذهبهم المونوفيزتى • ورأى المقوقس أنه من العسير استمالة القبط اليه • فرأى هرقل أن يبذل محاولة أخرى ليحقق غرضه وهو توحيد المذاهب الدينية ، واعتمد فى ذلك على البطرك سرجيوس الذى اقترح بأن يعترف الناس بأن للمسيح ارادة واحدة ، وأما مسألة نفاذ تلك الارادة بالفعل الواحد ، وهل ذلك الفعل واحد أم مزدوج

فيرجأ القول فيه ، ويمنع الناس من الكلام فى هذا الأمر وأرسل قرارا بذلك الى جميع أرجاء الامبراطورية البيزنطية بما فيها مصر (٦٣) ٠

ولا نجد أية اشارة لهذا المشروع أو غيره من محاولات التوفيق بين المذاهب الدينية المختلفة فى المصادر المصرية القديمة المسيحية أو الاسلامية ٠ فلم يشر الى ذلك حنا النقيوسى فى ديوانه ، أو ساويرس فى كتابه سير الآباء البطاركة ، أو ابن عبد الحكم فى كتابه فتوح مصر وأخبارها ، أو غيرهم من المؤرخين المصريين ٠ وذكر ساويرس (٦٤) أن المقوقس - الحاكم والبطرك الجديد فى مصر بعد خروج الفرس - كان يخير المصريين بين قبول المذهب الخلقدونى أو التعذيب أو القتل ٠

والحقيقة أن المصريين ، وان تخلصوا من مظالم الفرس وارهابهم ، فقد تعرضوا بعد عودة الحكم الرومانى الى الاضطهاد الدينى ٠ فقد كان الفرس الغزاة لا يحولون بين القبط وبين التدين بما يشاءون من المذاهب المسيحية ، فى حين عمل المقوقس على أن يحرمهم من هذه الميزة الكبرى ٠ ويمدنا ساويرس بعدة صور لما لحق بالمصريين من الضغط والارهاب ، وان كان المقوقس قد لجأ أحيانا الى وسائل الترغيب والاغراء ، باغداق الهدايا ، واضفاء صفات التشريف فقبل بعض القبط مشروعه (٦٥) ٠ ونجح المقوقس أيضا فى استمالة بعض الأساقفة وجذبهم الى مشروعه مثل أسقفى نقيوس والفيوم وغيرهما ممن خالف العقيدة الأرثوذكسية وقبل المشروع الذى يدعو اليه المقوقس (٦٦) ٠ فى حين تمسك أساقفة وقسس آخرون بعقيدتهم ولم ينثنوا عن مذهبهم ، رغم ما حل بهم من صنوف العذاب والارهاب ٠ وفى مقدمة هؤلاء الأب مينا والبطرك بنيامين (٦٧) ٠ والقس يوسف الذى أمر المقوقس بجلده جلدا

شديدا (٦٨) . والأب صمويل القلمونى الذى أمر المقوقس بطرده من الدير بعد أن ضاق به الأمر (٦٩) . وفى الوقت نفسه كان بعض القسس يتخفون فى ملابس العلمانيين حتى يتمكنوا من مباشرة مهمتهم الدينية بين القبط (٧٠) .

عدد مارسيل Marcel (٧١) أعمال الجور والطغيان التى عانى القبط منها فى عهد المقوقس . فقد تعرض القسس والأساقفة المعارضون للحبس والنفى ، وفرض الغرامات المالية عليهم ، وللمصادرة واغلاق الكنائس ونهب الأديرة ، وقتل من فيها . واستمرت الحكومة البيزنطية فى اتباع سياسة الارهاب ، لاخضاع القبط لكنيسة الدولة .

وكان من الطبيعى أن ينحاز الامبراطور هرقل الى جانب الملكانيين فى مصر ، فعين منهم الأساقفة فى جميع الأقاليم المصرية ، فى حين أنزل بأهل مصر التاودوسيين الكثير من العذاب (٧٢) .

فكر بعض المصريين فى تدبير مؤامرة تخلصهم من حكم المقوقس ، فاجتمع أصحاب المذهب الجايانى (٧٣) فى كنيسة دفاشير ـ Defâchire بالقرب من مريوط ـ واتفقوا على قتل المقوقس . وعلم ضابط رومانى يدعى أودقيانوس بهذه المؤامرة ، وكان عدوا شديدا للقبط . فبعث بجنده لقتل المتآمرين ، وبذلك أخفقت المؤامرة ونجا المقوقس (٧٤) . واستمر اضطهاد القبط ومعاملتهم بالشدة والقسوة طوال حكم المقوقس فى مصر منذ توليه فى سنة ٦٣١ م . حتى الفتح العربى لمصر (فى سنة ٦٤٠/٦٤١) ولم يتحول المقوقس عن هذه السياسة طوال حكمه (٧٥) .

لقد كانت الحياة الدينية فى مصر هى التى تشكل أوضاع القبط ، وتحدد مدى استقرارهم وأمنهم . وقد أثر الخلاف الدينى

بين الدولة البيزنطية وقبط مصر فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعيـــة ٠

واذا انتقلنا الى الحديث عن النظم الادارية فى مصر قبيـــل الفتح العربى ، ومدى مشـــاركة المصريين فيها ، نجد أن النظام الادارى السائد ، هو النظام نفسه الذى كان فى عهد الامبراطور جستنيان ٠ فقد كانت البلاد مقســـمة اداريا الى خمس مقاطعات كبرى هى : مصر ، وليبيا ، ومصر العليا ، واوجستمنيكا أو أتريب ، وأركاديا أو اقليم الفيوم ٠ وكان يحكم كل مقاطعة دوق له سلطات مدنيـــة وحربيـــة (٧٦) ٠

وكان تحت امرة كل دوق قوة عسكرية خاصة به ٠ وقد دلت أوراق البردى على اشتراك المصريين فى الجيش البيزنطى قبيـــل الفتح العربى ٠« والواقع أن الحكام البيزنطيين قد اعتمدوا على هؤلاء المصريين فى مســـاعدة الموظفين فى أعمالهم ، وفى جمع الضرائب والقضاء على قطاع الطرق ، واخماد الثورات الدينية » (٧٧) ٠

وقسمت كل مقاطعة من المقاطعات الخمس الى مديريات ، يحكمها حاكم مدنى ٠وكل مديرية كانت مقسمة بدورها الى عدة أقسام ادارية ، فكانت هناك الأقاليم والمدن ذات الادارة المحليـــة والضياع الأتوبراجية (٧٨) ٠ وكانت المدينة هى الوحدة الأساسية للادارة المحلية ولشئون جمع الضرائب ، وتتكون الادارة المحليـــة للمدينـــة من عـــدد من الموظفين وملاك الأراضى ، ورجـــال الدين ، والأعيان ٠ ويقوم هؤلاء بانتخاب موظف يسمى جابيا أو محصلا ، ويكون مسئولا عن الشئون المالية (٧٩) ٠ أما القرى فكانت صورة مصغرة لما كانت عليه المدينة ويحكمها رئيس القرية (٨٠) ٠

وكانت الظاهرة الشائعة فى ذلك العصر هى تركز النفوذ السياسى والاقتصادى فى أيدى فئة قليلة من الأسر الرومانية ، الذين كانوا الى جانب امتلاكهم للأراضى الواسعة أو الأبعاديات يشغلون وظائف رؤساء المقاطعات ورؤساء المديرين ورؤساء الأقاليم (٨١) • على حين نجد سكان البلاد يخدمون فى أملاكهم ، وعليهم أن يحققوا لهؤلاء الاقطاعيين ، وسائل المعيشة ، الى جانب مهمتهم فى المجتمع من المحافظة على النظام والأمن (٨٢) •

أما من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، فنجد أن مصر قد أصبحت مخزنا لقمح القسطنطينية ، كما تدهورت أحوال الزراعة والصناعة والتجارة ، وأيضا تدهورت قيمة العملة الى حد كبير • ومن ثم ساد القحط القرى والمدن المصرية العامرة (٨٣) • وعليه اتسعت الهوة بين ملاك الأراضى واصحاب الاقطاعات من الرومان وبين القبط (٨٤) •

وعانى المصريون كثيرا من الضرائب الباهظة المفروضة على الرءوس والصناعات والأراضى والماشية ، والمادة والسفن ، وزوجات الجنود ، وأثاث المنازل بل على الموتى أيضا • وكان القبط ــ الى جانب ذلك ــ ملزمين بايواء من يمر بهم من الموظفين المدنيين والعسكريين البيزنطيين وتوفير حاجاتهم وأيضا تقديم الغذاء للجنود (٨٥) •

ويصف دانيل دينيت (٨٦) كيفية تقدير الضرائب وجبايتها فى مصر البيزنطية آنذاك ، ففى شهر يوليو أو أغسطس من كل عام، يصدر حاكم الشرق منشورا ، محددا فيه تقدير الضرائب النقدية وما يترك للنفقات المحلية ، وما يرسل الى خزانة الدولة وخزانة الحاكم العام • ويصدر هذا المنشور الى حكام المديريات ، وهؤلاء

بدورهم يذيعون المنشور فى سبتمبر أو أكتوبر • وكان لهم السلطة المباشرة على الضياع الأتوبراجيـة •

كان حاكم الاقليم هو المسئول عن الأموال المطلوبة من المدن والقرى ، فكان يرسل الى موظف كل مدينـة ، ورئيس كل قرية بحصصهم من الضرائب • وكان مراقب جمع الضرائب ومعاونوه يجمعون الضرائب من السكان داخل المدينة ، كما يجمعون أيضا ضرائب الأرض التى يملكونها خارج المدينة • أما رؤساء القرى فيجمعون ما عليهم من الضرائب ، ويؤدونهـا مباشرة الى حـاكم الاقليم (٨٧) •

نستخلص من ذلك أنه كانت هناك ضريبتان فى ذلك العصر ، ضريبة على الأفراد وتجمع من المدن والقرى ، وضريبة على الأرض التى يملكها سـكان هذه الأقسـام كلها • وكان حاكم المقاطعـة أو الدوق يزود القـائمين بجمع الضرائب بقوة عسـكرية لضمان تحصيل الضرائب كلها (٨٨) • وكان هناك ضرائب عينية مثـل ضريبة الملح ، وكانت ترسل مباشرة الى القسطنطينية ، والمسئول عن ذلك حاكما أتريب ومصر العليا • فكانا يرسـلان المسـاحين لفحص الأرض وحالة الرى ودرجة الخصوبة من أجل تقدير هذه الضريبة (٨٩) •

وأمام هذه الضرائب الفادحة والقسوة فى تحصيلها ، اضطر كثير من المصريين الى ترك أراضيهم ، وأعمالهم والهروب الى الأديرة والكنائس ، أو وضع أنفسهم تحت حماية ملاك الأراضى وأصحاب الضياع (٩٠) • ولكنه كان فى الواقع كالمستجير من النار بالرمضاء فبمضى الزمن كانت تصبح أرضه ملكا للكبير الذى وضـع نفسه تحت حمايتـه ويتحول الفـلاح الصغير الى مجرد عامل أجير لهذا المالك الكبير (٩١) •

أهل الذمة جـ١ ص ٤٩

ويمكن وصف نظام الضرائب في مصر في العصر البيزنطي ، بأنه « نظام معقد ، شديد الوطأة ، غير عادل في واقعه ، وغير كفء في منهاجه ، موزع المسئولية ، يسيطر عليه بطء الروتين ، وعجزه عن التنفيذ ، ولم يسعد بهذا النظام سوى طبقة واحدة من السكان هم ملاك الضياع الأتوبراجية من ذوى الجاه والنفوذ السياسى » (٩٢) ٠

أما من الناحية الثقافية ، فكان يسود مصر في ذلك العصر اللغة اليونانية واللغة القبطية (٩٣) ٠ وكانت اللغة اليونانية حتى الفتح العربى هى اللغة الرسمية للحكومة والكنيسة ــ والتجارة ، والعلاقات الخارجية (٩٤) ٠ أما اللغة القبطية فقد تفرعت الى لهجات متعددة ويتكلم بها غالبية المصريين القبط الذين كانوا يعملون ــ فى الغالب ــ في الزراعة ويجهلون اللغة اليونانية ، ولم يكن معظم المصريين على جانب من العلم ٠ فى حين نجد مراكز النشاط الفكرى في الأديرة القبطية وأشهرها : الدير الأبيض بسوهاج ودير سنت ميخائيل بالفيوم ، ودير سنت مقار فى وادى النطرون (٩٥) ٠

وكانت هذه الأديرة وغيرها تضم مكتبات عظيمة ، تحتوى على الكتب الدينية بصفة خاصة ، الى جانب مؤلفات فى الطب والفلسفة والتاريخ وغيرها من العلوم ٠ وكان الرهبان يقومون بترجمة الكتب اليونانية الى القبطية ، الى جانب كتابتهم فى التاريخ وجغرافية بلادهم ، والأدوية الطبية وسير القديسين والبطاركة ومؤسسى المذاهب الدينية والقواعد الديرية وغيرها من نواحى النشاط الفكرى (٩٦) ٠

والى جانب النشاط الفكرى للقبط ، كان هناك النشاط الفكرى للرومان ، حتى أصبحت مصر من أهم مراكز الثقافة فى

الشرق قبيل الفتح العربى ، وخاصة فى ميادين المسفة والعلوم الدينية والفلك ، والأدب وغيرها من العلوم (٩٧) ·

هذه هى أحوال القبط واليهود فى مصر قبيل الفتح العربى من النواحى الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وان كانت دراستنا ـ فى الحقيقة ـ تتركز معظمها على القبط دون اليهود ، فهذا لأننا لم نجد فى المصادر التاريخية الكثير عن حياة يهود مصر قبيل الفتح العربى · ويبدو أنهم كانوا يعيشون فى هدوء بعيدا عن الخلافات الدينية المذهبية ، ويمارسون نشاطهم الاقتصادى والدينى ـ كما ذكرنا من قبل ·

ويمكننا أن نقول ان شعور الكراهية والعداوة التى أبداها المصريون نحو البيزنطيين ، كان يتزايد يوما بعد يوم ، نتيجة سياسة البيزنطيين الدينية والسياسية والاقتصادية · وربما كان أبرز دوافع الكراهية هو الخلاف الدينى ، ونظام الضرائب الظالم (٩٨) وخاصة أن الموظفين قد اتبعوا سياسة ارهابية فى تحصيل الضرائب حتى يحققوا ثراء شخصيا · كما اعتبر الأباطرة مصر مخزنا للغلال ، يتزودون منه بحاجاتهم دون مراعاة مصالح المصريين أنفسهم · هذا الى جانب سخط المصريين على سياسة الأباطرة وموقفهم من أكليروس الاسكندرية ، واضطهادهم للبطاركة القبط، وتدخلهم فى العقائد الدينية ورغبتهم فى ضم القبط لكنيسة الدولة ، وما نتج عن ذلك من مذابح واضطهاد (٩٩) ·

والحقيقة التاريخية أن المصريين ، وان سخطوا على هذه الأوضاع ، الا أنهم لم يثوروا ضد الدولة البيزنطية ، ولم يتطلعوا الى منقذ ينقذهم من هذه الأوضاع الظالمة · وهكذا كانت الظروف مهيأة لنجاح الفتح العربى لمصر ، اذ كانت نفوس المصريين معبأة

بالكراهيــة الشــديدة والعــداوة العظيمة للبيزنطيين • وان كان الفريقان يتفقان فى العقيدة الواحدة ، الا أن الخلاف المذهبى كان من العوامل الرئيسية للعداء بينهما • ومما لا شك فيه أن المصريين رأوا فى الفتح العربى مخلصا لهم من اضطهاد البيزنطيين ، ومحققا لهم الأمن والسكينة ، حتى يستطيعوا مباشرة نشاطهم الدينى فى حرية وســلام •

الهــــوامش

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١ . على حسنى الخربوطلى . مصر العربية الإسلامية ، ص ٧ .

(٢) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١

(٣) Munier : L'Egypte Byzantine, p. 8.

اضطهد الأباطرة المسيحيين فى مصر ، وبلغ هذا الاضطهاد أقصاه فى عهد الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) وليس أدل على ذلك الاضطهاد من أن الكنيسة القبطية فى مصر بدأت تقويمها الذى أسمته تقويم الشهداء بالسنة الأولى من حكم هذا الامبراطور ـ سنة ٢٨٤ م ـ إنظر ، سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٣ .

(٤) Munier : L'Egypt Byzantine, p. 80.

(٥) Ibid., pp. 38-39.

(٦) ويسمى المجمع الدينى ـ Oecumenical Council ويرأسه الامبراطور ويدعو اليه الأساقفة من جميع انحاء العالم المسيحى أو من ينوب عنهم من رجال الدين . وكانت قراراته نافذة فى جميع انحاء العالم المسيحى . وقد عقدت سبعة مجامع دينية الأول فى عهد قسطنطين الأول فى نيقية سنة ٣٢٥ م والثانى هو مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ م والثالث مجمع افسس سنة ٤٣١ م . والرابع هو مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م . والخامس مجمع القسطنطينية الثانى سنة ٥٥٣ م . أما السادس والسابع فكانا بعد الفتح العربى لمصر وهما : مجمع القسطنطينية الثالث سنة ٦٨٠ م ومجمع نيقية الثانى سنة ٧٨٧ م . انظر نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية ، حاشية ص ٩٨ .

(٧) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ٤ ـ على ابراهيم حسن · مصر فى العصور الوسطى ، ص ٣٤ · ومجمع خلقدونية : دعا اليه الامبراطور مرقيـــان Marcian (٤٥٠ ـ ٤٥٧ م) فى سنة ٤٥١ م ، وقد عقـد المجمع باسيا الصغرى فى مدينة خلقدونية وأقر هذا المرجع مذهب الطبيعتين ، وذهب الى أن مذهب الطبيعة الواحدة كفر وخروج على الدين الصحيح · كما قرر حرمان ديسقورس بطرك الاسكندرية من الكنيسة ، انظر : سيده كاشف مصر فى فجر الاسلام ، ص ٤ ·

(٨) سيدة كاشف : المصدر نفسه ، ص ٥ ·

(٩) المصدر السابق ، ص ٥ ـ ٦ ·

(١٠) الخطط : جـ ٤ ، ص ٣٩٣ ·

(١١) كلمة قبط Kibt يقال انها التسمية العربية لأهل مصر ، نسبة الى ملك مصر القديم ، قبط بن نوح بن سام · ويعتقد بعض الأوربيين أن كلمة قبـط مشتقـة من كلمـة Coptos اسم احـدى المدن المصريـة · واسـم القبط ـ فى الواقع ـ يطلق على أهل مصر من المسيحيين اليعاقبة · انظر .
The Encyclopedia of Islam, V. 2, Art. Kibt, p. 990.
وتشير بعض المراجع الى أن مصر كانت تعرف بين الشعوب السامية المجـاورة لها قديما باسم مصر ـ ومعناه فى اللغـات السامية الحـد ـ ومصرين بالآرامية ، ومصرايم بالعبرية كما عرفها العرب باسم مصر وقد سمى القبط مصر باسم كيمى بمعنى أرض السواد · وقد عرفها الأشوريون باسم ميكوبتاه ، وهو الاسم الذى يطلقه المصريون على عاصمة ملكهم القديمة منف ، ومعنـاها « بيت ـ روح ـ بتاح » وقد سمع اليونان منذ أقدم العصور هذا الاسم فأخذوه عنهم ، وأسموا مصر باسم ايجبتوس ـ وقد ورد هذا الاسم كثيرا فى شعر هومير ـ فاذا حذفت علامة الرفع (وس) ثم الحركة الاولى التى ظنها العرب حرف استهلال ، خلص لنا بعد ذلك اسم قبط · اى أن العرب قد حرفوا الاسم بعـد ذلك الى قبط ، وصار هذا الاسم مميزا لسـكان مصر من المسيحيين اليعاقبة · انظر : مراد كامل : ط فى ركب الحضارة ، ص ٩ ، « رسالة مارمينا سنة ١٩٥٤ م » ·

(١٢) وقد اختلفت الآراء فى سبب هذه التسميـة التى أطلقت على أتبـاع ك ديسقورس بطرك الاسكندرية الثامن فقيل انهم سموا بذلك لأن هذا البطرك كان اسمه فى العلمانية يعقوب وقيل انهم سموا بذلك نسبة لأحد تلامذة هذا البطرك الذى كان يسمى يعقوب · وقيل أيضا نسبة الى أحد تلامذة البطرك ساويرس بطرك أنطاكية الذى كان يرسله الى أصحابه ليثبتوا على رأى بطرك

الاسكندرية المذكور فنسبوا اليه · كما قيل انهم نسبوا الى يعقوب البردغانى تلميذ ساويرس بطرك انطاكية وكان راهبا فى القسطنطينية وكان يطوف بالبـلاد ، ويدعو الى مذهب ديسقورس · انظر القلقشندى صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٧٨ والشائع أن اليعاقبة نسبة الى يعقوب البرادعى Jacob Baradeus أسقف مدينة الرها الذى كان يذهب مذهب الطبيعة الواحدة وقد زار مصر وبلاد المشرق ينظم الكنائس المنوفيزيتية بها · انظر : سيدة كاشف : مصر فجر الاسـلام ، ص ٥ ·

على ابراهيم حسن · مصر فى العصور الوسطى ، ص ٣٤ ·

(١٣) البهنسا مدينة فى أول الصعيد ، غربى النيل ، وهى منطقة عامرة ، كثيرة الدخل · ويقـال ان المسيح وأمه أقاما بها سبع سنوات · انظر ياقوت الحموى · معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥١٦ ـ ٥١٧ ·

(١٤) The Jewish Encyclopedia, Volume, V., p. 60.

(١٥) Ibid., p. 60.

(١٦) Hardy : Christian Egypt ; Church and People, p. 179.

وكان هرقل حاكما لأفريقيـا واستطاع أن ينال محبة الشعب الرومانى · ولذا اتصلت به الأحزاب فى العاصمة البيزنطية ، من أجل تنظيم الثورة ضد الامبراطور القائم آنذاك « فوقاس » فاستجاب هرقل لدعوتها · كما اتصل بكبار الملاك فى مصر وحرضهم على الثورة وقد أعلن الشـعب المصرى مشاركته فى هذه الثورة ، وحالوا دون تصدير الحبوب الى العاصمة البيزنطية · انظر أيضا : أسد رستم : تاريخ الروم ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ ·

(١٧) Hardy : Christian Egypt., p. 179.

ويبدو أن بونوس كان كل همه جمع الأموال · ويشـير حنـا النقيوسى ، الى أنه كان يلجأ الى وسائل التعذيب والارهاب فى جمع الضرائب · ولذلك رحب الشعب المصرى بثورة هرقل ، واستولى على أملاك الحكومة وخزائن القمح والأموال العامة ، انظر : Chronique de Jean, p. 423.

(١٨) Deihl : L'Egypte Chrétienne et Byzantine, p. 536.

(١٩) Chronique de Jean, pp. 421-427 et, Hardy : Christian Egypt, pp. 179-180.

(٢٠) بتلر · فتح العرب لمصر ، ص ٤٣ ·

(٢١) علي ابراهيم حسن · مصر في العصور الوسطى ، ص ٢٤ . ويقول ملن Milne بشأن الخلاف الديني انه في السنوات الست الأولى من حكم هرقل لم يكن هناك سلام بين الكنائس المسيحية المتخاصمة - يعني بذلك كنيسة الامبراطورية والكنيسة القبطية · انظر :

A History of Egypt Under Roman Rule, p. 114.

(٢٢) Chronique de Jean, p. 430.

(٢٣) يقول القلقشندى - في كتابه صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٧٦ - ان الملكانية هم أتباع ملكان الذى ظهر ببلاد الرومان ، وكان يدعو الى مذهب الطبيعتين · وقيل انهم سموا بذلك نسبة الى مركان احد قياصرة الرومان لأنه كان يقوم بنصرة مذهبهم فقيل لهم مركانية ثم عرب الاسم الى ملكانية · ومن ثم عرف أتباع الكنيسة البيزنطية باسم الملكانيين وذلك بعد الفتح العربي لمصر · ويقال ان العرب اطلقوا عليهم هذا الاسم لاتباع أصحابه مذهب الامبراطور · وان هذا الاسم مشتق من كلمة ملك العربية ·

انظر سيدة كاشف · مصر في فجر الاسلام ، ص ٥ ·

(٢٤) بتلر · فتح العرب لمصر ، ص ٤٤ .

(٢٥) المصدر السابق ، ص ٤٤ - ٤٥ ·

(٢٦) سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٣ - ويسميه المقريزي اذراسيلون الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٣ ·

(٢٧) Milne : A History of Egypt Under Roman Rule, p. 114.

(٢٨) Deihl : L'Egypte Chrétienne et Byzantine, p. 539.

وقيل ان غزو الفرس لمصر كان سنة ٦١٥ م · وقيل سنة ٦١٦ م · انظر بتلر · فتح العرب لمصر ، ص ٦٣ و

Amélineau : Un Evéque de Koft au VII Siecle, p. 264.

(٢٩) هي التسمية العربية للمنطقة واسمها القبطي برمون · وهي قريبة من البحر ولها مرفأ لعله متصل بالمدينة بخليج يجرى من البحر · والفرما مدينة قديمة منيعة الحصون بها كثير من الآثار المصرية القديمة كما ان بها كنائس وأديرة - وكانت مفتاح مصر من الشرق ·

انظر ، بتلر فتح العرب لمصر ، ص ١٨٥ - ١٨١ ·

(٣٠) Munier : L'Egypte Byzantine, p. 67.

(٣١) بتلر : المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٣٢) سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

(٣٣) منطقة الهاماطون لها اكثر من اسم قبطي . واسم هذا المكان في اليونانية « اناتون » ويترجم في اللاتينية الى Enratum ومعناها التاسع . ويقال ان هذا المكان كان على بعد تسعة اميال من غرب الاسكندرية . وأن به كنيسة تسمى هاناطون ، وكانت مكرسة باسم مار جرجس . وفي الحقيقة ، يبدو أن الاسم مأخوذ من رقم البريد . وكان ذلك هو النظام المتبع في القسطنطينية ومصر أيضا . انظر ، بتلر : فتح العرب لمصر ، حاشية ، ص ٤٧ .

(٣٤) Hardy : Christian Egypt, p. 181, and Deihl : L'Egypte Chrétienne et Byzantine, p. 539.

(٣٥) ساويرس ، سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٣ . ويشير هذا المؤرخ الى أن السلان رأى في منامه شخصا يقول له : « سلمت هذه المدينة لك ، وبناءها وكل ما فيها ، فاياك أن تؤذيها بل لا تبق أهلها فيها لأنهم منافقون » والواقع أن المدينة سلمت اثر خيانة بعض أفرادها عقب خروج نيقتاس والبطرك منها في يونيو سنة ٦١٩ م . نلاحظ هنا اضطراب التواريخ — وأن الذي قام بهذه الخيانة شخص يسمى بطرس ، قدم من البحرين الى الاسكندرية طلبا للعلم . انظر ، بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٧٠ — ٧١ و
Sylvestre Chauleur : Histoire des Coptes d'Egypte, p. 76.

(٣٦) سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٣ — ١٠٤ .

(٣٧) فتح العرب لمصر ، ص ٦٨ .

(٣٧م) Sylvestre Chauleur : Histoires des Coptes, p. 76. et Deihe : L'Egypte Chrétienne et Byzantine, p. 539.

(٣٨) Amélineau : Un Evéque de Koft au VII Siecle, p. 299.

ويذكر أميلينو من هؤلاء الأساقفة : الاسقف بيزنتيوس Pisentios ، الذي رأى أنه من الأفضل أن يأوى الى الجبال بعيدا عن أعين الفرس . فنظم شئون أسقفيته بمدينة قفط . ووزع كل ممتلكاته على الفقراء والمحتاجين وترك أهله وخرج في صحبة تلميذه حنا ، ولاذ بجبل جيمي Gûmi .

(٣٩) ساويرس · سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٤ · ويذكر أن الفرس علموا وهم فى الطريق الى الصعيد انه يوجد فى الجبال والمقابر حوالى سبعمائة راهب يعيشون فى بذخ وترف فأرسل اليهم القائد الفارسى جيشا أحاط بهم وقتلهم جميعا ·

(٤٠) Hardy : Christian Egypt, pp. 181-182.

(٤١) ساويرس : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ ·

(٤٢) Amélineau : Un Evéque de Koft, p. 299.

(٤٣) Amélineau : Un Evéque de koft, p. 300.

وقد أجمل أحد القديسين ـ وهو الأب شنودة الذى عاش قبيل الغزو الفارسى ـ تنبؤاته بما سوف ينزله الفرس بالمصريين عند استيلائهم على البلاد فنراه يقول · « وينزلون الى مصر ، وتكون فيهم مقتلة عظيمة وينهبون أموال المصريين · ويبيعون أولادهم بالذهب ، لشدة الاضطهاد الذى للفرس وعسفهم · وكثيرون من السادات يصيرون عبيدا ، وعبيد كثيرون يصيرون سادات الويل لمصر من أهل الفرس ، لأنهم يأخذون أوانى البيع ويشربون بها الخمر امام المذبح بغير خوف ولا جزع أيضا ، ويفضحون النساء امام بعولهن ، وتكون شدة عظيمة وضيق · وان الذين يبقون يموت ثلثهم بالحزن والكآبة ، ثم بعد قليل ينصرفون الفرس عن مصر » انظر :

Amélineau : Monuments pour servir à l'histoire de l'Egypte, p. 340.

(٤٤) ساويرس : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٣ ، بتلر · فتح العرب لمصر ، ص ٧٣ ويشير الى ما يدل على ذلك ، وهو استمرار سلطان بعض أقرباء البطرك اندرونيكو فى ديوان الاسكندرية ·

(٤٥) Sylvestre Chauleur : Histoire des Coptes, p. 77. et,
Amélineau : Monuments pour servir à l'histoire de l'Egypte, tine, p. 68.

والأب بنيامين من ضيعة تسمى برشوط ـ فى اقليم البحيرة ـ ولما شب رغب فى النسك وزهد فيما تركه والداه وكل ما يملك ، وفضل حياة الرهبانية ، فلجأ الى الشيخ تاونا بدير يسمى دير قيريوس فالبسه هذا الشيخ اسكيم الرهبنة ورباه على خوف الله وحفظ الكتب المقدسة ، ثم رسمه البطرك اندرونيكو قسيسا ، وجعله مساعدا له فى أعمال الكنيسة ، وأوصى بأن يكون هو البطرك من بعده · انظر : ساويرس · سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ ·

(٤٦) انظر ترجمة البطرك بنيامين ، وتوضح هذه الترجمة جوانب مهمة عن مدى اهتمامه بالكنيسة القبطية والقبط فى ذلك الوقت فى :

Amélineau : Fragments Coptes pour servir à l'histoire de la Conquêt de l'Egypte par les Arabes, p. 368.

(٤٧) ساويرس : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٥ ·

(٤٨) بتلر · فتح العرب لمصر ، ص ٨٠ ·

(٤٩) المصدر السابق ، ص ١٠٤ ، هـ· ايدرس بل ، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص ٢٥٥ ·

(٥٠) بتشر : تاريخ الأمة القبطية ، م ٢ ، ص ١١٦ ــ ١١٧ ·

Sylvestre Chauleur : Histoire des Coptes, p. 78, et Deihl : و L'Egypte Chrétienne et Byzantine, pp. 541-542.

(٥١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٦ ، على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٣٥ ، على حسنى الخربوطلى : مصر العربية الاسلامية ، ص ١٠ ·

(٥٢) تاريخ الكنيسة القبطية ، ص ٣٩٨ ·

(٥٣) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٥٥ ·

(٥٤) Sylvestre Chaulear : Histoire des Coptes, pp. 78-80.

ويسمى أيضا le Caucasien وهو أسقف مدينة فاسيس فى أمرينا ببلاد القوقاز كما ذكرنا ·

(٥٥) سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٦ ·

(٥٦) ساويرس : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٦ ويقول : « فلما وصل الى الاسكندرية ــ يعنى المقوقس ــ أعلم الأب بنيامين ملاك الرب به ، وأمره أن يهرب · فقال له الملاك : اهرب أنت ومن معك هاهنا ، لأن شدائد عظيمة تنزل عليكم ، لكن تعزى ، فما يقيم هنا الجهاد الا عشرة سنين ، وأكتب الى جميع الأساقفة الذين فى كرسيك يلختفوا حتى يجوز غضب الرب » ·

(٥٧) ساويرس : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٦ ·

(٥٨) بتشر · تاريخ الأمة القبطية ، م ٢ ، ص ١١٨ ، الشماس منسى القمص ، تاريخ الكنيسة القبطية ، ص ٣٩٨ ــ ٣٩٩ ·

(٥٩) وهو المذهب الذى اقره الامبراطور هرقل والأساقفة المجتمعون فى سنة ٦٣١ م فى هيرابوليس والذى يقضى بأن يمتنع الناس عن الكلام فى طبيعة المسيح وصفته ، والإعتراف بأن للمسيح ارادة واحدة - كما ذكرنا -

(٦٠) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٥٨ - ١٥٩ .

(٦١) وهو المذهب الذى اقره المجمع الدينى المنعقد فى سنة ٤٥١ م بخلقدونية فى آسيا الصغرى والذى يذهب الى أن للمسيح طبيعتين ، ويعتبر من يقول بأن له طبيعة واحدة كافرا .

(٦٢) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٥٩ .

(٦٣) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٦٤) سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٦ ويشير الى أن هرقل قد أوصى المقوقس : « ان قال احد ان مجمع خلقدونية حق خلوه ، ومن قال انه ضلال وكذب أغرقوه فى البحر » .

(٦٥) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٦٦) نفس المصدر السابق ، ص ١٠٦

(٦٧) نفس المصدر السابق ، ص ١٠٦ - ١٠٧ . ويذكر أن المقوقس امر باشعال النيران فى الأب مينا كما أمر بقلع أسنانه وإضراسه وضربه ضربا شديدا قاسيا . ثم أمر بوضعه فى جوال ، مسك بطرفيه وهو فى البحر ، وعرض عليه الاعتراف بمذهب خلقدونية ثلاث مرات ولكن رفضه وأصر على رأيه . فألقى به فى البحر .

(٦٨) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٦٣ .

(٦٩) Amélineau : Monuments pour servir à l'histoire de l'Egypte pp. 774-777.

وتتضمن ترجمة حياة هذا الأب ، وصفا جليا لما أنزله المقوقس بالقبط من الاضطهاد والقسوة . فقد رفض الأب صمويل المشروع الجديد ، ودعا رهبان ديره الى عدم قبوله ، والهروب من وجه المقوقس . فاشتد غيظ المقوقس لذلك ، واستدعى اليه الأب صمويل مقيدا فى سلاسل حديد ، وأمر بضربه ضربا شديدا . ورغم ما نزل به من تعذيب رفض دعوة المقوقس وتمسك بالعقيدة الارثوذكسية فاشتد غيظ المقوقس لذلك ، وكاد جنده يقتلون الأب صمويل لولا تدخل حاكم الفيوم آنذاك .

. ثم أمر المقوقس بطرده من جبل نكلون Niklône ويسمى فى العربية النقلون ويقع على مسافة ساعتين الى الجنوب الغربى من الفيوم ، انظر بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٦٥)

(٧٠) ساويرس : سير الآباء البطاركة م ١ ، ج ١ ، ص ١١٢ . ويذكر من الأمثلة على ذلك القس أغاثو الذى كان يقيم بالاسكندرية ، ويرتدى ملابس العلمانيين ليلا ، ويطوف بالأرثوذكسيين الذين اختفوا فى منازلهم ، فيقضى لهم حاجاتهم ، ويزيدهم من المعلومات الدينية . على حين كان بالنهر يحمل على كتفه آلات نجارة ويتظاهر بأنه نجار ، حتى لا يتعرض له أتباع المذهب الخلقدونى ، فيتمكن بذلك من دخول المنازل القبط ، ويزيدهم من العلوم الدينية ، ويقوى صبرهم . واستمر اغاثو على هذا الوضع حتى الفتح العربى .

(٧١) Egypte depuis la Conquete des Arabes jusqu'à la domination Français, p. 12.

(٧٢) ساويرس : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٧ . والتاودوسيون نسبة الى البطرك تيودوسيوس أو تاودوسيوس الذى كان يعتقد أن جسم المسيح كجسم البشر ، وخالف بذلك أحد شمامسة القبط ويدعى جايان أو غايان الذى كان يعتقد أن جسد المسيح لا يفنى ولا يفسد . وتنازع الاثنان على كرسى البطركية — فى القرن السادس الميلادى — ورفضت الغالبية العظمى من القبط رأى جايان وغلب عليهم ما ذهب اليه تاودوسيوس . وكان توقيع البطرك « خيل » السادس والأربعين هو « خيل بمشيئة الله مطران الاسكندرية وطائفة التيودوسيين » وذلك فى القرن الثامن الميلادى . وأيضا توقيعات الكتب القبطية كانت على هذه الصورة فى القرن السابع الميلادى . ولذلك أشار ساويرس الى أن قبط مصر هم التاودوسيون . انظر ، ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، حاشية ص ٨٣ ، بتلر : فتح العرب لمصر ، حاشية ص ٢٧ .

(٧٣) ويسمون أيضا « الغايانيون » Gaianites نسبة الى شماس قبطى يسمى غايانس Gaianus نازع البطرك وتاودوسيوس الأول كرسى الاسكندرية فى سنة ٥٣٥ م ، ونفاه القيصر بسطانيانس الأول الى جزيرة سردينيا . وانتشر حزبه فى الأراضى المصرية . وفى سنة ٥٤٩ م ، انضمت شيعته الى شيعة يوليان الخيالى ، وأقاموا لهم رئيسا واحدا باسم بطرق فيما زعموا ، فعرفوا بالغايانيين والخياليين . وقد تمكن الأب يونس البطرك فى سنة ٧١٣ م ، من هداية أكثرهم الى الكنيسة القبطية انظر : ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، حاشية ، ص ٨٣ .

(٧٤) Chronique de Jean, p. 446. وبتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .

(٧٥) Chronique de Jean, p. 446. ويقول هذا المؤرخ : « ان كيرس ظل الى ما بعد موت الامبراطور هرقل ـ عندما عاد الى مصر ـ ولم يذهب عنه حقده عن عباد الله ولم يمتنع عن اضطهادهم ، بل زاد قسوة على قسوة » ومما لا شك فيه أنه يقصد بعبارة « عباد الله » القبط .

(٧٦) دانيل دينيت : الجزية والاسلام : ص ١١٥ .

ويذكر البعض أسماء مختلفة للأقسام الادارية في مصر في ذلك العصر وهي : الاسكندرية ويقيم فيها الحاكم البيزنطي ، وغربي الدلتا ، ومصر العليا ، وشرق الدلتا ، ومصر الوسطى ، انظر سيدة كاشف · مصر في عصر الولاة ، ص ١٣ ـ على حسني الخربوطلي : مصر العربية الاسلامية ، ص ٨ .

(٧٧) سيدة كاشف . مصر في عصر الولاة ، ص ١٣ ـ على حسني الخربوطلي مصر العربية الاسلامية ، ص ٨ ـ ٩ .

(٧٨) دانيل دينيت : الجزية والاسلام ، ص ١١٥ . والضياع الاتوبراجية هي الابعاديات التي تتمتع بحق دفع الضرائب مباشرة للحاكم العام دون تدخل المشرفين على الادارة المحلية في المدينة .

(٧٩) المصدر السابق ، ص ١١٥ ـ ١١٦ .

(٨٠) المصدر السابق ، ص ١١٦

(٨١) المصدر السابق ، ص ١١٦

Milne : A History of Egypt Under Roman Rule, p. 118.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك أن دوقية مصر العليا The baid كانت وراثية في أسرة أبيون Apion كما كان أبيون الأول حاكما عاما للبلاد في سنة ٥١٨ م وكان ابنه حاكما لمصر سنة ٥٢٣ م . ثم وزيرا للمالية من ٥٣٣ الى ٥٣٨ م . كما شغل أفراد آخرون منهم عددا عظيما من الوظائف المهمة في مصر والقسطنطينية ، انظر المصادر نفسها والصفحات .

(٨٢) Milne : A History of Egypt Under Roman Rule, p. 118.

(٨٣) Munier : L'Egypte Byzantine, pp. 92-93.

(٨٤) Milne : A History of Egypt Under Roman Rule, p. 119.

(٨٥) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ، ج ١ ، ص ٢٩٩ ـ على حسنى الخربوطلى . مصر العربية الاسلامية ، ص ٩ .

(٨٦) الجزية والاسلام ، ص ١١٧ .

(٨٧) المصدر السابق ، ص ١١٧ ـ ١١٨ .

(٨٨) نفس المصدر السابق ، ص ١١٨ .

(٨٩) المصدر السابق ، ص ١١٩ .

(٩٠) Munier : L'Egypte Byzantine, p. 93.

(٩١) سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ١٢ .

(٩٢) دانيل دينيت : الجزية والاسلام ، ص ١١٩ .

(٩٣) Munier : L'Egypte Byzantine, p. 87.

(٩٤) Ibid., p. 89.

(٩٥) Ibid., p. 87.

(٩٦) Munier : L'Egypte Byzantine, pp. 87-89.

(٩٧) انظر : Ibid., p. 89.

(٩٨) انظر : Ibid., p. 92.

(٩٩) انظر Ibid., pp. 92-93.

البـــاب الأول

دور أهل الذمة فى الحياة السياسية فى مصر
من الفتح العربى الى نهاية العصر الفاطمى

١ ـ موقف القبـط واليهود من الفتـــح العربى •

٢ ـ دور أهل الذمة فى الحياة السياسية فى عصر الولاة •

٣ ـ أهل الذمة فى عصر الدولتين الطولونية والاخشيدية •

٤ ـ موقف الدولة الفـــاطمية من أهـــل الذمة •

١ ـ موقف القبط واليهود من الفتح العربى

لمسنا من دراستنا لأحوال القبط واليهود السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية قبيل الفتح العربى ، أن الظروف كانت مهيأة لقدوم العرب الفاتحين • وفى الحقيقة كان الفتح العربى لمصر هو حلقة من حلقات سلسلة الفتوحات العربية الاسلامية ، من أجل تحقيق عالمية الدين الاسلامى • ويرتبط موقف الأهالى فى مصر من الفتح العربى ، بموقف الدولة الرومانية من الدعوة الإسلامية ومن الدولة العربية الاسلامية التى قامت فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، بعد الهجرة ، فى المدينة ، وما لبثت أن اتسعت فى أواخر عهد الرسول فشملت كل أرجاء الجزيرة العربية •

بعد البعثة النبوية ، دعا محمد صلى الله عليه وسلم ، الى الاسلام فى شبه الجزيرة العربية سرا ، ثم جهرا ، وانتقلت الدعوة من مكة الى المدينة بعد الهجرة اليها • وبعد عقد الرسول لصلح الحديبية ، وتوقيع هدنة مع قريش ، رأى الرسول أن يبدأ الخطوة الأولى نحو تحقيق عالمية الدعوة الاسلامية فيدعو ملوك وأمراء الدول المعاصرة • فبعث الرسول اليهم كتبا يدعوهم فيها الى الاسلام ، ومن هؤلاء الملوك والأمراء ، هرقل امبراطور الدولة الرومانية ، والمقوقس حاكم مصر والاسكندرية (١) •

بعث الرسول الى الامبراطور هرقل ، دحيه بن خليفة الكلبى فى سنة ٦ هـ · وقد أوصاه ، بأن يعطى الكتاب لعظيم بصرى ، ليسلمه الى هرقل الذى كان حينئذ بمدينة حمص بالشام (٢) · وجاء فى خطاب الرسول عليه الصلاة والسلام الى هرقل : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ، الى هرقل عظيم الروم ، السلام على من اتبع الهدى · أما بعد ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وان تتول ، فان اثم الأكارين عليك » (٣) ·

وتعددت روايات المؤرخين عن موقف هرقل من كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقول ابن سعد (٤) : ان هرقل لما قرأ الكتاب ، جمع كبار الرومان فى دسكرة (٥) له بحمص ، ودعاهم الى الايمان بالنبى العربى ، واعتناق الاسلام · الا انهم اعترضوا وغضبوا ، فلما رأى هرقل ذلك « يئس من اسلامهم ، وخاف منهم على نفسه وملكه » فسكن من روعهم قائلا : انه أراد أن يختبر ايمانهم بالمسيح ، وأنه سر منهم لتمسكهم بعقيدتهم ، ورفضهم الدين الاسلامى الجديد ·

وتحدث أحد الأساقفة النصارى ــ فى عهد الخليفة عبد الملك ابن مروان ــ الى بعض العلماء ، عما كان من موقف هرقل من كتاب رسول الله · فقال انه بعد أن تسلم هرقل الكتاب ، كتب الى بعض أصحابه ممن يقرأ العبرانية بشأن النبى المنتظر ونصحه بأن يتبعه ويصدق دعوته (٦) ·

فلما علم هرقل بذلك ، جمع عظماء الرومان فى دسكرة ، وأخبرهم بكتاب النبى الذى يدعوه فيه الى الاسلام ، وذكر لهم أن هذا النبى هو الذى نجد الاشارة اليه فى كتبهم ، فمن الخير أن يصدقوا بما جاء به ، حتى يأمنوا جانب قومه العرب (٧) ·

غضب الرومان من حديث الامبراطور هرقل ، وأسرعوا بالخروج من الدسكرة ولكنها كانت مغلقة عليهم ، فأعادهم هرقل ، وقال لهم : « يا معشر الروم ، انى قد قلت لكم المقالة التى قلت ، لأنظر كيف صلابتكم على دينكم لهذا الأمر الذى قد حدث ، وقد رأيت منكم الذى أسر به » (٨) ٠

وتشير رواية ثالثة الى ترحيب هرقل برسول النبى صلى الله عليه وسلم ، وتذكر أن هرقل رحب بدحية ، وأخبره أنه يعلم تماما أن النبى العربى ، هو النبى المنتظر ، وهو الذى يجد اسمه في كتبهم ٠ ثم قال هرقل : « ولكنى أخاف الروم على نفسى ، ولولا ذلك لاتبعته » وطلب من دحية أن يذهب الى الأسقف « ضغاطر » ويخبره بأمر النبي (٩) ٠ وذهب دحية الى هذا الأسقف وأعلمه بما دار بينه وبين هرقل حول النبى صلى الله عليه وسلم ٠ وأبدى الأسقف « ضغاطر » سروره ، وخلع ثيابه السوداء ، وارتدى رداء أبيض اللون وأمسك عصاه بيده ، وخرج الى الكنيسة ، وقال لمن كان بها من الرومان : « يا معشر الروم ، انه قد جاء كتاب من أحمد يدعونا فيه الى الله عز وجل ، وانى أشهد أن لا اله الا الله ، وأن أحمد عبده ورسوله » ورفض الرومان هذه الدعوة وقتلوا الأسقف (١٠) ٠

نستخلص من الروايات التاريخية السابقة أن هرقل كان يميل الى اعتناق الاسلام وأنه دعا الرومان الى اعتناقه ، ولكنهم رفضوا الدعوة ٠ فنزل هرقل عند رغبتهم ، خوفا منهم على نفسه وعلى ملكه ، وزعم أنه كان يريد اختبار مدى تمسكهم بعقيدتهم ، خوفا منهم وأنه اطمأن لما لمسه فيهم من الصلابة والتمسك بدينهم ٠

كان العرب المسلمون قد أصبحوا وحدة سياسية واجتماعية قوية فضلا عن كونهم وحدة دينية ٠ وكان هرقل يدرك أن الدولة

العربية الاسلامية التى قامت فى المدينة آخذة فى القوة والاتساع ، مما يهدد المصالح الرومانية ، كما رأى هرقل تجنب الصدام العسكرى مع هذه الدولة الاسلامية الجديدة ، فى وقت أنهك الجيش الرومانى قواه فى حروبه مع الدولة الفارسية .

ويروى الطبرى (١١) أن هرقل جمع بعد ذلك كبار الشخصيات الرومانية وعرض عليهم الايمان بالنبى الجديد ، ولكنهم رفضوا دعوته فى شدة وقالوا مستنكرين حديثه : « نحن نكون تحت العرب ، ونحن أعظم الناس ملكا ، وأكثرهم رجالا ، وأفضلهم بلدا » . ويروى الطبرى أيضا أن هرقل عرض على هؤلاء الرومان ـ بعد رفضهم اعتناق الاسلام ـ أن يدفع سنويا الجزية للعرب ونبيهم ، حتى يأمن جانبهم . فرفض الرومان دفع الجزية أيضا وقالوا : انهم أكثر عددا من العرب ، وأعظم ملكا منهم ، وأوسع أرضا . فعرض عليهم هرقل أن يتنازل للعرب عن سوريا ، فرفض الرومان ذلك أيضا .

ورواية الطبرى هذه تبين أن الامبراطور هرقل لم يكن راغبا فى الاسلام عن ايمان وعقيدة وانما كان يهدف من وراء ذلك الى غرض سياسى وهو المحافظة على عرشه . لذلك عرض على قومه الرومان كسب جانب العرب ونبيهم بأية وسيلة ممكنة ، ولكن الرومان رفضوا الرضوخ لرغبته ، فآثر هرقل الاحتفاظ بدينه المسيحى . ويتضح موقف هرقل فى غضبه على المقوقس ـ حاكم مصر ـ حينما عقد معاهدة الصلح مع عمرو بن العاص ـ كما سنرى فى هذا الفصل وعليه نرى أنه من العسير علينا أن نؤيد جميع ما جاء فى الرواية العربية ، ولاسيما أن هرقل فى ذلك العصر ، كانت تحيط به الأخطار الخارجية ، وخاصة الخطر الفارسى .

واذا كان هذا هو موقف الامبراطور هرقل وقومه الرومان من النبى صلى الله عليه وسلم ومن الدعوة الاسلامية ، فماذا كان موقف المقوقس حاكم مصر ؟ وكيف استقبل رسول النبى (ﷺ) ؟

بعث النبى عليه الصلاة والسلام ، حاطب بن أبى بلتعة اللخمى ، الى المقوقس حاكم مصر وكان يقيم فى الاسكندرية • فسلمه حاطب كتاب النبى ، وقد جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى • فأما بعد ، فانى أدعوك بدعاية الاسلام فأسلم تسلم ، وأسلم **يؤتك الله أجرك مرتين ، يا أهل الكتاب** تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » (١٢) •

وحفظت الروايات التاريخية العربية ما دار من حديث بين المقوقس وحاطب بن أبى بلتعة • وهى تشير الى أن المقوقس لما قرأ كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، سأل حاطب : ما منعه أن يدعو على اذا كان نبيا ؟ فأجاب حاطب قائلا : « انه كان من قبل رجل زعم أنه الرب الأعلى ، فانتقم الله به ، ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك •• وان لك دينا لن تدعه الا لما هو خير منه وهو الاسلام ، والكافى الله به ، فقد ما سواه • وما بشارة موسى بعيسى الا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا الى القرآن الا كدعاء أهل التوراة الى الانجيل ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به » (١٣) •

ويجمع المؤرخون على حسن استقبال المقوقس حاكم مصر والاسكندرية لحاطب بن أبى بلتعة ، رسول النبى عليه الصلاة والسلام ، واكرامه له • ويشير ابن عبد الحكم (١٤) الى ما دار

بينهما من حديث بشأن النبى وصفاته · ونستنتج من هذا الحديث مدى المام المقوقس بصفات النبى ، وأنه كان يعلم مسبقا بظهور نبى جديد ، ولكنه كان ينتظر ظهور دعوته في بلاد الشام لا فى شبه الجزيرة العربية ·

وأعلن المقوقس لحاطب ، ترحيبه باعتناق الاسلام ، الا أنه كان يخشى معارضة القبط لهذه الدعوة ، ثم طلب منه أن لا يخبر أحدا من أهل مصر بما دار بينهما من حديث وألا يشير الى رغبة المقوقس فى الاسلام (١٥) ·

وهكذا تذكر الروايات العربية أن كلا من الامبراطور هرقل والمقوقس ، قد رغبا فى اعتناق الاسلام ، ليس عن ايمان حقيقى ، وانما كان الدافع لهما هو مصالحهما السياسية فكلاهما يخاف على عرشه أو حكمه · وانتهى الأمر بأن رضخ كلاهما لمعارضة قومه لهذه الدعوة الجديدة · ويبدو هذا واضحا فى قول النبى عليه الصلاة والسلام ، عندما تسلم كتاب المقوقس ، فقد قال : « ضن الخبيث بملكه ، ولا بقاء لملكه » (١٦) ·

بعث المقوقس كتابا الى النبى ، ردا على كتابه إليه ، جاء فيه : « لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام ، أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت ، وما تدعو اليه وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام · وقد أكرمت رسولك ، وبعثت اليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت اليك بغلة لتركبها والسلام » (١٧) ·

وكان من أثر حسن استقبال المقوقس لحاطب بن أبى بلتعة ، والهدايا التى بعث بها الى رسول الله ، والتى كان من بينها مارية

القبطية التى انجبت للرسول ابنه ابراهيم ، أن آثنى النبى على أهل مصر من القبط ، واوصى بهم خيرا (١٨) • ونذكر فى هذا المجال آيضا أن هاجر أم اسماعيل ، وزوج ابراهيم عليه السلام ، كانت مصرية (١٩) •

بشر الرسول عليه الصلاة والسلام المسلمين بفتح مصر ، وأوصاهم بقبط مصر خيرا ، وهناك آحاديث ، كثيرة ، ذكرها كتاب الحديث والمؤرخون ، ومنها أن النبى قال : « انكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا ، فان لهم ذمة ورحما » (٢٠) وقال أيضا : « انكم ستكونون آجنادا ، وان خير أجنادكم ، أهل المغرب منكم ، فاتقوا الله فى القبط ، لا تآكلوهم أكل الخضر » (٢١) وقال الرسول عليه الصلاة والسلام آيضا : « الله ، الله ، فى أهل الذمة أهل المدرة السوداء ، السحم الجعاد ، فان لهم نسبا وصهرا » (٢٢) •

بعد أن أشرنا الى موقف كل من هرقل والمقوقس من الدعوة الاسلامية ، نعرض لأهم أحداث الفتح العربى لمصر ، وموقف القبط واليهود من الفتح •

بعث الخليفة عمر بن الخطاب ، عمرو بن العاص على رأس الجيش العربى الاسلامى لفتح مصر ، بعد أن انتهى من فتوحات الشام فى سنة ١٨ هـ (٢٣) • وتعددت الروايات التاريخية حول خروج الجيش الاسلامى بقيادة عمرو بن العاص الى مصر ، فمنها ما يشير الى أن عمرو بن العاص استأذن الخليفة عمر بن الخطاب فى فتح مصر وأغراه بسهولة الفتح وكثرة خيرات مصر • وتذكر بعض الروايات أن الخليفة هو الذى أمر عمرو بن العاص بالسير على رأس الجند لفتح مصر • وتذهب روايات أخرى الى أن عمرو بن العاص خرج لفتح مصر على رأس الجيش دون استئذان الخليفة (٢٤) •

بلغ المقوقس حاكم مصر ، خبر قدوم عمرو بن العاص على رأس الجيش الاسلامى لفتح مصر ، فأسرع بالتوجه الى بابليون ، وأخذ يعد العدة ، ويجهز الجيوش لمواجهة عمرو بن العاص وجنده ، وكان حاكم حصن بابليون (٢٥) من الرومان ويسمى الأعيرج (٢٦) . وأراد المقوقس الا تبلغ المصريين أخبار انتصارات العرب فى الشام وتخاذل الرومان أمام الفاتحين فبعث رسلا الى الحدود المصرية لمنع دخول القادمين من بلاد الشام سواء من الرومان أو من غيرهم ، حتى لا ينقلوا أخبار انتصارات العرب وتخاذل الرومان الى سكان مصر فيثيروا مخاوفهم (٢٧) .

يشير المؤرخون الى أن أولى المناطق التى دار فيها القتال بين العرب الفاتحين وبين المصريين ، كانت مدينة الفرما (٢٨) . وقد استمر القتال بين الفريقين شهرا تقريبا ، وانتهى بانتصار المسلمين ، وهزيمة الجيش الرومانى . وتم بذلك للمسلمين الاستيلاء على المدينة (٢٩) .

وتشير بعض الروايات التاريخية الى مساعدة قبط الفرما لعمرو بن العاص . وتذكر أنه كان بالاسكندرية أسقف للقبط يسمى أبو ميامين ، ولما بلغته أخبار قدوم عمرو بن العاص على رأس الجند المسلمين الى مصر ، كتب الى القبط يبشرهم بقرب زوال دولة الرومان ، وانتهاء حكمهم فى مصر . وطلب من القبط مساعدة العرب وقائدهم عمرو بن العاص (٣٠) . الواقع أن أبو ميامين هذا ، هو الأب بنيامين بطرك القبط اليعاقبة فى مصر ، الذى بادر بالخروج من الاسكندرية عند قدوم المقوقس اليها حاكما لمصر وبطركا للملكانيين فيها ، وقد لجأ هذا البطرك ـ كما ذكرنا فى التمهيد ـ الى بعض أديرة الصعيد .

ونستخلص من كتابات المؤرخين عن أول مواقع الفتح العربى ، أن المقوقس لم يبادر بارسال نجدة لأهل الفرما ، عندما علم بحصار العرب لها ، بل تركهم يلاقون مصيرهم • ويصور بعض الكتاب المحدثين موقف المقوقس بأنه أول خيانة ارتكبها فى حق دولته ، ويذهب الى أنه كان يرمى الى فصل الاسكندرية عن القسطنطينية بالاتفاق مع العرب المسلمين ، ومساعدتهم ضد دولة الرومان (٣١) وسنرى أنه أيضا لم يسرع بارسال نجدة الى ابنته أرمانوسة فى بلبيس ، لتشد من أزرها أمام العرب ، بل تخاذل عنها حتى تم للعرب فتح بلبيس •

تقدم عمرو بن العاص وجنده فى الأراضى المصرية ، دون أية مقاومة حتى وصل الى بلبيس (٣٢) ، حيث دار القتال لمدة شهر تقريبا ، ونجح المسلمون فى الاستيلاء عليها (٣٣) • وينفرد الواقدى (٣٤) بالاشارة الى تقدم يوقنا صاحب حلب على رأس بعض الجند ، جيش عمرو بن العاص ، حتى وصل بلبيس ، حيث أرمانوسة ابنة المقوقس ، التى ما لبثت أن أدركت حقيقة أمره ، وأعدت العدة لقتاله • وفى الوقت نفسه بعثت بكتاب الى أبيها المقوقس تعلمه بما حدث ، وتخبره بتقدم جند العرب فى الأراضى المصرية ، وسألته الاستعداد للقائهم • وارسال قوة لنصرتها عليهم • فجمع المقوقس كبار رجال دولته ، وسألهم المشورة ، فاقترحوا عليه ارسال جيش الى أرمانوسة لمساعدتها ضد العرب ، الى جانب الاستنجاد بجيرانه لنصرته عليهم ، وجمع الجيوش من جميع البلاد المصرية ، استعدادا لمواجهة هؤلاء القوم المسلمين • ولكن المقوقس أبى ذلك ، وأعلم الحاضرين بأنه مهما استعد ، فلن يقوى على هؤلاء العرب ، وأنه من الحكمة أن يرسل الى ابنته كتابا يطلب فيه منها التلطف فى معاملة يوقنا ومن معه من الجند العرب ، ومنحهم الأمان، وارسالهم اليه لتطييب خاطرهم (٣٥) •

فلما علمت بذلك أرمانوسة أرسلت الى يوقنا تخبره بما كتب أبوها اليها · وفى الوقت نفسه وصله رسول من قبل عمرو بن العاص ليخبره باقتراب عمرو منه ، فبعث اليــه يعلمه بما حدث ويستعجله فى الوصول اليه فى بلبيس · عند ذلك أسرع عمرو باللحاق بيوقنا ودار القتال بين الجيش الاسلامى وجيش أرمانوسة ، وانتهى الأمر بهزيمة أرمانوسة وأسر المسلمين لها · وأحسن عمرو ابن العاص اليها ، ثم أرسلها مكرمة الى أبيها المقوقس فى صحبة قيس بن ســعد ، الذى قال للمقوقس فى حديث طويل له معــه : « أيها الملك لابد لنا منكم ، ولا ينجيكم منــا الا الاسلام أو الجزية أو القتال » فوعده المقوقس بعرض هذه الامور على قومه ، مع الاشارة أنه واثق من عدم استجابتهم لأى أمر من هذه الأمـــور الثلاثة ، لانهم قوم عناد ، ولأن « قلوبهم قاسية من أكل الحرام » (٣٦) ·

ثم مضى عمرو بن العاص على رأس جنده ، دون مقاومة تذكر حتى وصل الى قرية أم دنين (٣٧) ، حيث اشتد القتال ، وواجه عمرو مقاومة عنيفة ، مما اضطره الى طلب المدد من الخليفة عمر بن الخطاب ، الذى أسرع بنجدته (٣٨) · وتدل هذه المقاومة على أن الرومان ـ خاصة ـ أدركوا خطورة الموقف ، وأعدوا العدة ، لمواجهة المسلمين مهما كلفهم ذلك من جهد ·

ومما يدل على حرج الموقف فى أم دنين ، أن عمرو بن العاص قسم جنده الى مجموعتين : ترك احداهما فى حصار أم دنين ، وقاد الأخرى بنفسه الى مدينة أون (٣٩) وكتب يطلب المدد من الخليفة عمر بن الخطاب الذى بادر بارســال أربعة آلاف بقيادة الزبير بن العوام (٤٠) · فقسم عمرو حينئذ جنده الى ثلاث فرق ، حاصرت احداها أم دنين واتجهت الأخرى الى شمال حصن بابليون ، واحتفظ عمرو بالفرقة الثالثة فى مدينة أون (٤١) ·

وفي الحقيقة كان عمرو ، سياسيا قديرا ، ومحاربا محنكا ، حين قسم جنده الى ثلاث فرق ، حتى يوهم عدوه بكثرة جنده ، حتى انه جعلها تحارب في ميادين ثلاثة وحمى الوطيس في أم دنين ، وهزم عمرو الرومان ومن معهم من القبط شر هزيمة . وتمكن بعض الرومان وقوادهم من الفرار الى حصن بابليون ، في حين هلك كثير منهم . وعليه نجح عمرو بن العاص في الاستيلاء على أم دنين . أما الرومان وقوادهم الذين لجئوا الى حصن بابليون ، فما لبثوا أن تركوه ، لاجئين الى مدينـة نقيوس ، فرارا من مذبحـة قد تحـل بهـم (٤٢) .

وتذكر بعض الروايات التاريخية القبطية ، أن فتح الفيوم ، كان بعد حصار أم دنين وقبل فتح حصن بابليون ، كما تشير الى أن عمرو بن العاص قد قام بمحاولة لفتح اقليم الفيوم قبل اتمام فتـح أم دنين ، ولكنه لم يحالفه التوفيق ، حتى وصـله المدد من الخليفة ، فتمكن من الاستيلاء على أم دنين ، ثم وجه جهوده لاتمام الاستيلاء على اقليم الفيوم . وتولى الدفاع عن الفيوم ، قائد الحامية ويدعى (يوحنـا) ، كما أقام الرومان أيضـا حاميـة في مدينة اللاهون (٤٣) ، لتتابع تحركات القوات العربية ، وتنقل أخبارها الى يوحنـا وجنده المقيمين بالقرب من شـاطيء النهر . وأرسل الرومان سرية من الرماة والفرسان لتحول بين المسلمين الفاتحين وبين تقدمهم نحو الفيوم (٤٤) . وهكذا بذلت القوات الرومانية كل الجهود العسكرية لمواجهة الفتح العربي . واضطر المسلمون أمام هذه الاستحكامات الرومانية الى الزحف في الصحراء ، وواصلوا تقدمهم حتى وصلوا الى البهنسا ، وقضوا على حاميتها الرومانية . ثم اتجهوا لقتال حامية يوحنا التي لجأت الى مدينة أبويط (٤٥) . ولكن القوات العربيـة حاصرتها وقضـت عليها (٤٦) . وعلـم تيودوسيوس ــ حاكم اقليم الفيوم ــ وانسـتاس حـاكم مدينـة

الاسكندرية ـ بانتصارات العرب ، فسارعا بالفرار الى حصن بابليون ، حيث لحق بهما بعض القواد من أبويط ، وأخبراهم ومن معهم من القوات المحتشدة بخطورة الموقف (٤٧) .

وبعد نجاح عمرو بن العاص ، وجنده المسلمين فى الاستيلاء على أم دنين والحاق الهزيمة بالرومان ، أعد العدة لاتمام فتح اقليم الفيوم . وكان حاكم مدينة الفيوم ـ ويسمى دومنتيانوس ـ قد أصابه الذعر ، عندما علم بانتصارات العرب الساحقة على الرومان فاسرع بالفرار الى مدينة نقيوس دون أن يعلم بقراره أحد ، تاركا مدينة الفيوم وشأنها فعلم بذلك عمرو بن العاص ، واشتد ساعده ، وأرسل فرقة من جنده نجحت فى الاستيلاء على مدينة الفيوم ومدينة أبويط . وهكذا تم للمسلمين فتح اقليم الفيوم وباءت جهود الرومان بالفشل (٤٨) .

هذه هى الروايات القبطية التى تتحدث عن فتح العرب لاقليم الفيوم . ولكن المؤرخين المسلمين يجمعون على أن فتح الفيوم كان بعد فتح حصن بابليون ، وليس قبله كما يذهب المؤرخ القبطى حنا النقيوسى . كما أن الروايات الاسلامية تذكر أن الذى قام بفتح أقليم الفيوم أحد قواد عمرو . وتشير بعض هذه المصادر العربية الى أن العرب الفاتحين ظلوا يجهلون مكان اقليم الفيوم ، بعد فتح الحصن بعام كامل ، حتى دلهم اليه بعض الأشخاص ، فأرسل عمرو بن العاص ، أحد قواده لفتح الفيوم (٤٩) .

ويبدو أن أهل مصر ، من القبط بصفة خاصة ، بدءوا يقدمون المساعدات الفعالة للعرب ، ويتعاونون معهم ، بعد استيلائهم على اقليم الفيوم . فقد طلب عمرو، من أبا كيرى (٥٠) حاكم دلاص (٥١)، أن يبعث الى القوات العربية فى الفيوم بعض السفن لينتقلوا بها من

الجانب الغربى للنيل الى الجانب الشرقى ، للسيطرة على ضفتى النيل (٥٢) . كما طلب عمرو أيضا من جورج حاكم ـ اقليم مصر ـ أن يبنى « كوبرى » على قناة مدينة قليوب حتى يتمكن من فتح المدن المصرية · ونجح عمرو فى فتح مدينة أتريب ومنوف بمساعدة القبط له (٥٣) ·

وعاون القبط أيضا العرب فى اقامة كوبرى ضخم عند بابليون، لمنع السفن من الذهاب الى نقيوس والاسكندرية ومصر العليا من جهة ، ولتيسير عبور الفرسان العرب النيل من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية من جهة أخرى · وأصبح القبط فى الحقيقة ، أعوانا للمسلمين ، يقدمون لهم العون والمساعدة (٥٤) ·

ويحاول المؤرخ القبطى حنا النقيوسى (٥٥) ، الاساءة الى عمرو ، فيذكر أنه أمر باحضار الحكام الرومان ، مقيدين بالأغلال ، فى أقفاص من الخشب · كما أخذ من الأهالى كثيرا من الأموال ، وضاعف الجزية عليهم ، وأرغمهم على حمل الكلأ والعليق لخيول المسلمين · ولكننا نرى أنها مبالغات واضحة بغرض النيل من العرب ـ فقد اشتهر عمرو بالتسامح مع المصريين ، وخاصة أنه كان فى حاجة الى استمالتهم حتى لا يقفوا الى جانب الرومان · وقد رأينا كيف قدم المصريون ألوانا مختلفة من المساعدة للعرب على حين كان من البديهى أن يقف عمرو من الحكام الرومان موقفا حاسما ، فقد أصروا على مقاومة الفتح العربى ·

كان الحكام الرومان ، قد تركوا مدينة نقيوس الى حصن بابليون ، حتى اذا علموا بانتصارات المسلمين فى اقليم مصر ، ومساعدة بعض المصريين لهم ، بادروا بالخروج الى الاسكندرية ، وتركوا فى نقيوس حامية صغيرة بقيادة دومنتيانوس ، للدفاع عن المدينة كما بعثوا الى حاكم سمنود (٥٦) (دارس) يحثونه على

الدفاع عن الأراضى الواقعة بين فرعى النيل (٥٧) . فى حين ترك بعض القبط دينهم ، واعتنقوا الاسلام ، واستولوا على املاك المسيحيين الذين هربوا من وجه المسلمين ، مؤثرين التمسك بدينهم (٥٨ ، ٥٩) .

وبعد أن انتهى القواد المسلمون من فتح اقليم الفيوم ، شدد عمرو بن العاص الحصار على حصن بابليون . وقد تعددت الروايات التاريخية ، حول حصار الحصن وموقف القبط والرومان منه . ويجدر بنا الاشارة الى هذه الروايات ومناقشتها ، حتى يتضح لنا موقف أهل مصر من الفاتحين العرب .

شدد عمرو ، وجنده الحصار على الحصن ، حتى طلب الرومان والقبط المتحصنون بالحصن ، التفاوض من أجل الصلح ، ومنح الأمان للمصريين . فأجابهم عمرو الى طلبهم على أن يؤدى كل واحد منهم للمسلمين « دينارا وجبة وبرنسا وعمامة وخفين » (٦٠) .

استضاف الرومان والقبط ـ عقب هذا الصلح ـ جند عمرو ابن العاص، فقدموا عليهم وقد ارتدوا البرود (٦١) . ثم استضاف عمرو الرومان ومن معهم من القبط ، وصنع لهم الثريد (٦٢) والعراق (٦٣) ، وأمر أصحابه بلبس الأكسبية (٦٤) ، واشتمال الصماء (٦٥) ، والقعود على الركب وجلس العرب الى جانب الرومان (٦٦) ، مما يدل دلالة واضحة على تسامح العرب ، وميلهم الى السلام الذى هو من أسس الاسلام .

وتشيد بعض المصادر التاريخية بجهود الرومان التى بذلوها للدفاع عن الحصن ومقاومة الفتح العربى . فقد أقاموا حول الحصن الخنادق ، والتحصينات المنيعة (٦٧) . ولكن المسلمين استمروا

فى الحصار رغم قلة عددهم . ووضع عمرو خطة حربية ناجحة ، فقد وزع جنده المسلمين حول أسوار الحصن ، حتى يتوهم العدو أنهم أكثر عددا . الا أن الرومان أدركوا حقيقة الأمر ، وعلموا قلة عدد جند عمرو بالنسبة لعددهم . ولكن هذا لم يضعف من عزيمة عمرو وجنده المسلمين (٦٨) .

واستمر حصار عمرو لحصن بابليون سبعة أشهر (٦٩) . انتهت بتسلق جماعة من المسلمين بقيادة الزبير بن العوام أسوار الحصن ، ونجحوا فى اقتحامه ، وفتحوا الأبواب لسائر الجند المسلمين وحينئذ اضطر المقوقس الى طلب الصلح من عمرو مقابل دفع الجزية للمسلمين . فوافق عمرو على طلبه (٧٠) .

هذا فى حين تذهب بعض الروايات التاريخية الأخرى الى أنه بعد حصار عمرو لحصن بابليون بشهر تقريبا ، أسرع المقوقس وعدد من كبار الرومان والقبط بالخروج من الحصن الى جزيرة الروضة . وأمر بقطع الجسر الذى يصل بين شاطئى النيل ، وقد لحق به الأعيرج حاكم الحصن عندما لمس شدة الموقف (٧١) .

وهذه الروايات تثبت وجود المقوقس داخل الحصن عند حصار المسلمين له وتوضح تخاذله اذ غادر الحصن سرا فى أثناء الحصار الى جزيرة الروضة حيث يأمن قتال المسلمين . كما توضح أن بعض القبط اشتركوا مع الرومان فى الدفاع عن الحصن ، اذ ان هذه الرواية تشير الى خروج كبار القبط من الحصن مع المقوقس .

وتذكر بعض المصادر أيضا ، أن المقوقس قال لمن معه من الرومان والقبط : « ان العرب قد جاءهم نجدة، وليس لنا بهم طاقة، ولا نأمن منهم أن يفتحوا القصر فيقتلونا ولكن نسد أبواب الحصن،

ونصير عليها مقاتلة ، ونخرج من القصر الى الجزيرة ونتحص
بالبحر » (٧٢) ، ومما لا شك فيه أن هذه الرواية تؤكد خي
المقوقس للدولة الرومانية ورغبته الأكيدة فى مصالحة ال
والتوقف عن قتالهم .

وبدأ المقوقس — من جزيرة الروضة — المفاوضات مع ع
من أجل الصلح وعقد العهد والأمان . فأرسل الى عمرو بن الع
يقول : ان عدد الجند المسلمين قليل ، ينقصه العدة والآلات على
أن عدد الجند الرومان ، ومن معهم من القبط ، عظيم وهم مز
بالسلاح والعدة ، وقال له أيضا : « وانما أنتم أسارى فى أيد
فابعثوا الينا رجالا منكم ، نسمع من كلامهم ، فلعل أن يأتي
فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم
القتال ، قبل أن تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ، ولا
عليه . ولعلكم أن تندموا ان كان الأمر مخالفا لطلبكم ورجا ئ
فابعثوا الينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهـ
من شيء » (٧٣) .

وهكذا أراد المقوقس أن يوقع الرعب فى نفوس المسـ
المحاصرين لهم ، حتى يدفعهم الى قبول المفاوضة من أجل الصل
وان كانت الحقيقة هي أن المقوقس وقومه هم الذين سيطر :
الفزع والخوف ، فأرادوا وضع حد لهذا الحصار ومصالحة المس
المحاصرين .

احتجز عمرو بن العاص رسل المقوقس يومين ، وقال ل
ليس أمامكم الا اختيار أمر من أمور ثلاثة . الاسلام أو ال
أو القتال (٧٤) . فلما عاد رسل المقوقس ، أشادوا بصفات الع
وما يتميزون به من القوة والتفانى فى الجهاد فى سبيل الله
جانب التواضع ، والخشونة والعبادة (٧٥) .

وأدرك المقوقس ما عليه المسلمون من القوة والعزم على الجهاد ، وأقنع قومه بضرورة الاتفاق معهم على رأى يرضى به الطرفان . فأرسل يطلب من عمرو مندوبين عنه للتفاوض معهم فأرسل عمرو اليه عشرة من المسلمين ، من بينهم عبادة بن الصامت وأمره أن يكون هو المتحدث باسمهم ، وأن يخير المقوقس بين الاسلام أو الجزية أو القتال (٧٦) .

وأخبر عبادة المقوقس بأن المسلمين لا يبغون من الدنيا الا رضاء ربهم ، والجهاد في سبيله والفوز بنعيم الآخرة ، ولا يطمعون فى حياتهم الا فيما يسد رمقهم ويستر عورتهم (٧٧) ، وحاول المقوقس أن يثير مخاوف عبادة بن الصامت وصحبه فأخبرهم بقدوم جموع غفيرة من الروم لمحاربتهم ، وأن المسلمين لن يقووا على مواجهتهم ، وذكرهم بما لاقوه من ضيق شديد طوال حصار الحصن الذى إستمر سبعة أشهر ، وتظاهر بأنه يشفق عليهم ويرأف بحالهم . ثم عرض عليهم الصلح ، وأن يؤدي أربعة دنانير لكل مسلم ، ويدفع مائة دينار للأمير ، وألف دينار للخليفة ، مقابل جلاء العرب من البلاد (٧٨) . وهكذا لم يفطن المقوقس الى الأهداف الدينية السامية ، التى قدم العرب المسلمون من أجلها ، وهى نشر دعوة الحق ، وظن أنهم انما قدموا من أجل عرض الدنيا الزائل ، ولم يفطن الى أن العرب المسلمين هم قوم الموت أحب اليهم من الحياة ، وهدفهم الجهاد فى سبيل الله . فقال عبادة للمقوقس ، انهم لا يهابون أية قوة مهما كانت ، وانهم لا يبغون الا الغلبة عليهم ، فتعظم بذلك غنيمة الدنيا لهم . أو الاستشهاد فيحسن لهم جزاء الآخرة . واستشهد فى ذلك بقوله تعالى : (كم من فئة قليلة ، غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين) . وعرض عليه أمورا ثلاثة ، ليختار المقوقس وقومه الاسلام أو الجزية أو القتال (٧٩) .

رفض الرومان والقبط ، اعتناق الاسلام أو دفع الجزية ، وأصروا على القتال ، وحاول المقوقس جاهدا ، اقناعهم بقبول دفع الجزية للمسلمين • الا أنهم أصروا على موقفهم وأمروا بقطع الجسر بين الحصن وجزيرة الروضة • واشتد القتال بين الفريقين ، وتحقق النصر للمسلمين وعند ذلك لم يجد الرومان والقبط بدا من قبول دفع الجزية وعقد الصلح مع المسلمين (٨٠) •

وكتب المقوقس الى عمرو بن العاص ، بأنه مازال حريصا على اجابته الى واحد من الأمور الثلاثة التى عرضها عليه ، وأن قومه اقتنعوا برأيه واستجابوا لرغبته • ومن ثم عادت المفاوضات بين الطرفين (٨١) • وتم عقد الصلح بين عمرو والمقوقس بالشروط التاليـــة :

١ ـ يفرض على جميع من بمصر ، أعلاها وأسفلها ، من القبط ديناران ، يتساوى فى ذلك الرفيع والوضيع ، ومن بلغ الحلم منهم دون النساء والأطفال والشيوخ •

٢ ـ ضيافة القبط للمسلمين النازلين عليهم ثلاثة أيام •

٣ ـ للقبط أرضهم ، وأموالهم ، لا يتعرض لهم فى شىء منها (٨٢) •

واشترط المقوقس على عمرو ، أن يترك للرومان حرية الموافقة على هذه الشروط ومن رفضها منهم ، فله الحرية فى الخروج من مصر الى الدولة الرومانية • وأرسل المقوقس شروط هذا الصلح الى الامبراطور هرقل (٨٣) • وهذه الرواية التاريخية التى ذكرناها تشير الى أن هذا الصلح كان ينطبق على جميع أهالى مصر • فى حين نجد بعض المؤرخين يذهب الى أنه كان هناك صلحان ، أحدهما يختص بحصن بابليون ، والثانى يختص بجميع الأراضى المصرية الأخرى •

فيذكر البلاذرى (٨٤) أنه بعد أن اقتحم الزبير بن العوام والمسلمون الحصن طلب صاحب الحصن من عمرو بن العاص ، أن يعاملهم كما عامل المسلمون أهل الشام عند فتح بلادهم • فقد فرضوا الجزية على الرءوس ، والخراج على الأرض مع بقائها فى أيدى أصحابها • ويتضح من هذه الرواية أن الذى طلب عقد الصلح مع المسلمين هو صاحب الحصن وليس المقوقس حاكم مصر ، وقد عقد عمرو الصلح مع صاحب الحصن ويتضمن الشروط الآتية :

١ ـ يفرض على كل بالغ ديناران مع اعفاء الفقراء من ذلك •

٢ ـ يدفع كل واحد من ملاك الأراضى ، الى جانب الدينارين ، ثلاثة أرادب حنطة ، وقسطى زيت ، وقسطى عسل ، وقسطى خل رزقا للمسلمين ، تجمع فى دار الرزق وتقسم بينهم •

٣ ـ يتم احصاء جميع المسلمين ، ويجب على أهالى مصر أن يقدموا لكل مسلم جبة صوف وبرنسا أو عمامة وسراويل ، وخفين فى كل عام ، أو عدل الجبة الصوف ، ثوبا قبطيا •

٤ ـ اذا نفذ المصريون الشروط السابقة ، لا يسبى العرب النساء والذرارى ، ويسمح العرب للمصريين بالاحتفاظ بأموالهم ومتاعهم (٨٥) • ويروى البلاذرى (٨٦) أيضا ، أن عمرو بن العاص طبق شروط هذا الصلح ـ الذى عقده مع حامية بابليون ، على جميع أهالى مصر ، وهكذا كانت هناك مرحلتان لعقد الصلح •

وهكذا نجح عمرو والمسلمون فى فتح حصن بابليون • ويجدر بنا الاشارة الى نص كتاب الأمان الذى منحه عمرو بن العاص للمصريين ، فهو يرسم الأبعاد التى حددها العرب المسلمون لمعاملة أهالى مصر ، وقد جاء فى هذا الأمان :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، وصلبهم ، وبرهم ، وبحرهم ، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ، ولا ينتقض ، ولا تساكنهم النوبة • وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية ، إذا اجتمعوا على هذا الصلح ، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف ، وعليهم ما جنى لصوتهم فان أبى أحد منهم أن يجيب ، رفع عنهم الجزية بقدرهم ، وذمتنا ممن أبى بريئة • وإن نقص نهرهم من غايته اذا انتهى ، رفع عنهم بقدر ذلك • ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة ، فله مثل ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبى منهم ، واختار الذهاب ، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا • عليهم ما عليهم أثلاثا ، فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم ، على ما فى هذا الكتاب ، عهد الله وذمة رسوله ، وذمة الخليفة أمير المؤمنين ، وذمم المؤمنين • وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا ، وكذا وكذا فرسا على ألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة » ودخل فى ذلك أهالى مصر كلهم وقبلوا الصلح » (٨٧) •

ونستخلص من هذا النص أن الصلح الذى عقده عمرو بن العاص مع المقوقس عقب الاستيلاء على الحصن :

١ ـ كان خاصا بأهالى مصر جميعا فى الوجهين البحرى والقبلى • ويؤكد ذلك ما ذكر فى هذا العهد من مبلغ الجزية وهو مبلغ كبير ، ولكنه يفيدنا فى أن هذا الصلح كان خاصا بجميع البلاد المصرية •

٢ ـ يمنح العرب ، القبط الأمان على أرواحهم وعقائدهم وأموالهم وكنائسهم •

٣ ـ يفرض العرب الجزية على المصريين ، ويزاد قدرها أو ينتقص تبعا لأحوال الفيضان فى كل عام . وكانت تدفع على ثلاثة أقساط فى السنة . وترتب على هذا الصلح أن أصبح المصريون أهل ذمة .

٤ ـ يطبق العرب شروط هذا الصلح على الرومان والنوبيين اذا شاءوا ذلك ، واذا رفضوها ، فلهم حرية مغادرة البلاد الى حيث يريدون . ويقصد بالنوبيين هنا النوبيون المقيمون فى الأراضى المصرية وليست بلاد النوبة .

وبعد عقد الصلح ـ (فى سنة ٢٠ هـ ـ ٦٤١ م) ـ أمر عمرو بن العاص الجند الرومان بمغادرة الحصن ، على أن يحملوا معهم بعض أموالهم ، وأعطى لهم مهلة ثلاثة أيام يغادرون بعدها الأراضى المصرية (٨٨) . ورفض عمرو بن العاص تسليم السبايا حتى يستشير الخليفة عمر بن الخطاب . وقد أمر الخليفة برد السبايا (٨٩) .

ومن العسير أن نقبل الرأى القائل بأن عقد الصلح اشترط فيه اقرار الامبراطور هرقل له حتى يسرى تنفيذه ، وتعهد المقوقس أن يرسل شروط الصلح الى الامبراطور كما اتفق على أن تظل الأوضاع كما هى ، وأن يبقى الحصن بيد الرومان حتى يقر الامبراطور الصلح (٩٠) . ونستند فى هذا الرأى على الرواية التى تشير الى أن اشتراط اقرار الامبراطور للصلح كان خاصا بنفاذه على الرومان دون القبط الذين رحبوا به جميعا (٩١) ، وأن الحصن تسلمه العرب عقب الفتح مباشرة حين تم الصلح ـ كما ذكر حنا النقيوسى أقدم المؤرخين المصريين ، والذى عاش فى القرن الأول الهجرى (الموافق القرن السابع الميلادى) ، وأن تجلو الجنود الرومان من الحصن فى خلال ثلاثة أيام من يوم الفتح كما ذكرنا آنفا .

غضب هرقل عندما بلغه عقد الصلح مع العرب الفاتحين ، وكتب الى المقوقس يوبخه على ذلك ، ويقول له ان الجند العرب أقلية بالنسبة لعدد القبط ٠ وأنه اذا كان قبط مصر قد رحبوا بالعرب ، وقبلوا أداء الجزية ، فان عدد الرومان بمصر يزيد على مائة ألف ومعهم السلاح والعدة ٠ وطلب من المقوقس أن ينهض مع الرومان لقتال العرب ٠ وكتب هرقل أيضا رسالة مشابهة الى الرومان بمصر (٩٢) ٠

أما المقوقس ، فكان مقتنعا بالموقف الذى اتخذه من عمرو بن العاص والمسلمين ومتمسكا بعقد الصلح ٠ وحاول اقناع الرومان بقبوله فقال لهم : « واعلموا معشر الرومان ، والله انى لا اخرج مما دخلت فيه ، ولا مما صالحت العرب عليه ٠ وانى لأعلم أنكم سترجعون غدا الى قولى ورأيى ، وتتمنون أن لو كنتم أطعتمونى ٠ وذلك انى قد عاينت ورأيت وعرفت ما لم يعاين الملك . ولم يره ، ولم يعرفه ويحكم ، أما يرضى أحدكم أن يكون آمنا فى دهره على نفسه وماله وولده بدينارين فى السنة » (٩٣) ٠

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أخبر المقوقس ، عمرو بن العاص ، برفض الامبراطور للصلح وأنه كتب اليه والى جماعة الرومان بمصر ينقض الصلح ومواصلة القتال ٠ وأكد المقوقس لعمرو أنه هو والقبط متمسكون بالصلح وبتنفيذ شروطه ٠ ثم طلب من عمرو الموافقة على أمور ثلاثة : أولها احترام عهوده للقبط واعتباره واحدا منهم ، وثانيها ألا يقدم عمرو على مصالحة الرومان حتى يصبحوا أرقاء وفيئا للمسلمين ، وثالثها ، أن يأمر عمرو عند وفاة المقوقس بدفن جثمانه فى كنيسة أبى يحنس بالاسكندرية (٩٤) ٠

ووافق عمرو على ما طلبه المقوقس ، فى مقابل مساعدة القبط له ضد الرومان ، خلال زحفه الى الاسكندرية ، فيضمنون له سلامة الجسور على النيل ، ويقدمون المأوى والضيافة للجند المسلمين،وقدم القبط كل المساعدات الممكنة للجيش الاسلامى (٩٥) ٠

وبعد هذه الانتصارات الرائعة التى حازها الجيش العربى، وبعد نجاحه فى فتح بابليون ، لنا أن نتساءل : هل تلقى العرب مساعدة من القبط أو الرومان في أثناء الخصار ؟

ساعد بعض القبط عمرو بن العاص فى أثناء حصاره للحصن ، فقد تقدم اليه فريقان ــ على التوالى ــ أحدهما بقيادة شخص يدعى ميناس ، والآخر بقيادة كزماس بن صمويل ٠ وقد قدموا على عمرو، من الشاطىء الغربى للنيل ، وكان هدفهم الكيد للرومان ، وهم من أهالى اقليم الفيوم ، ويتصفون بالجسارة والاقدام (٩٦) ٠ وكانت المعاونات التى يقدمها القبط للجيش العربى تدعم جهوده ، وتضعف من مقاومة الرومان ، وتحرج موقفهم ، وتقلل من هيبتهم ٠

واتخـذت المسـاعدات التى قدمها القبط المصريون للجيش العربى صورا عديدة نذكر بعضها ٠ ففى أثناء حصار حصن بابليون، جمع القائد الرومانى تيودور جيشه بين فرعى النيل ، فلما علم عمرو بذلك ، أسرع بالزحف بكتيبة من الجند محاذيا الفرع الشرقى للنيل ٠ وفى الوقت نفسه بعث تيودور قائدين من قواده (٩٧) الى سمنود لمناهضة العرب ، وطلب من الجند المقيمين بها مساعدتهما ضد العرب ، الا أنهم أبوا قتال العرب (٩٨) ٠ ومما لاشك فيه أن معظم هؤلاء الجند كانوا من القبط الذين كرهوا الحكم الرومانى ، ورأوا فى العرب مخلصا مما هم فيــه ٠

ويشير أحد المؤرخين القبط الى مساعدة بعض قواد عمرو بن العاص والمسلمين ، ولكننا نرى أنها لم تكن مساعدا عن اقتناع ، بل كان الغرض منها المنفعة الشخصية بدل عادوا ثانية الى عدائهم القديم للعرب ، وانضموا الى الرومانية • حينما أدركوا أن تأييدهم للعرب لم يحقق لهم ذ الذاتية • ومن هؤلاء القواد الرومان ، نذكر القائد كلادجى i والقائد سبندس Sabendis (٩٩) •

ويرى بعض المؤرخين أن استيلاء المسلمين على الحصن خير انتقام للقبط من الرومان ، الذين لم يراعوا حرمة عيد فأخرجوا فى هذا اليوم القبط الأرثوذكس الذين كانوا فى الحصن - لرفضهم اتباع مذهب الامبراطور الدينى - معاملتهم ، فانهالوا عليهم ضربا بالسياط ، وقطعوا أيديهم وفى الحقيقة كان هذا الاضطهاد هو حلقة فى سلسلة طويلة القبط المصريون منها طويلا ، عبر الحكم البيزنطى • ولاش هذه الاضطهادات المتكررة كانت من العوامل التى دفعت القبط الى كراهية الحكم البيزنطى ، وتقديم المعاونات ا العرب •

بعد استيلاء عمرو بن العاص على حصن بابليون ، فتح مدينة الاسكندرية فقد رفض الامبراطور هرقل الصلح عقده المقوقس مع عمرو ، وبعث قوات رومانية كبيرة أغلقت الاسكندرية ، وتأهبوا للقتال (١٠١) • وخلال زحف ع العاص الى الاسكندرية ، لقى كثيرا من المساعدات والمعاونا قدمها القبط المصريون ، فقد أصلحوا الطرق ، وأقاموا ال والأسواق • ولم يلق عمرو أية مقاومة على طول الطريق من بابليون الى الاسكندرية حتى بلغ ترنوط (١٠٢) حيث

بالرومان وثار القتال بين الفريقين ، وتحقق النصر لعمرو (١٠٣) .
ثم تم فتح مدن نقيوس (١٠٤) ، وصنا (١٠٥) ، وسلطيس (١٠٦) ، والكريون (١٠٧) في طريقهم الى الاسكندرية وأسرعت الحاميات الرومانية في هذه المدن المصرية ، بالفرار الى الاسكندرية معتصمة بها .

كانت الاسكندرية ، مدينة منيعة ، ذات حصون عظيمة ، وقد عسكر الجند المسلمون بالقرب منها ، وكان يصحبهم رؤساء القبط الذين كانوا يقدمون الطعام للجند المسلمين ، والعلف لخيولهم . كما كانوا يدلونهم الى الطرق والمسالك المؤدية الى المدينة (١٠٨) والحقيقة أن أهل المدن المصرية المجاورة للاسكندرية انقسموا الى فريقين فريق مع القائد العام الروماني نيودور ، والآخر يؤيد الجيش العربي . وسادت البلاد حرب أهلية ، فكان أتباع كل فريق ينقض على أتباع الفريق الآخر . وفي الوقت نفسه تمكن سكان الاسكندرية من منع الجند المسلمين من اقتحام أسوار مدينتهم (١٠٩) .

وفي الاسكندرية كان هناك بعض الحكام والقواد الرومان ، الذين لاذوا بالفرار الى العاصمة البيزنطية ، الى جانب بعض أهالي الدلتا من القبط والرومان الذين تركوا ديارهم ولجئوا الى الاسكندرية . وحينما كان عمرو بن العاص والمسلمون يغزون مدن الدلتا كان يسود الاسكندرية جو من الاضطراب والفتنة . وقد تنازع الرؤساء والحكام والقواد كما انقسم سكان الاسكندرية والمهاجرون اليها ، الى فريقين متخاصمين ، ونشب القتال بينهما ، وراحت ضحيته أعداد هائلة (١١٠) . ويتضح لنا من هذه الرواية التاريخية أن ذلك النزاع قد نتج عن عداء شخصي وتنافس سياسي الى جانب الخلافات الدينية سواء أكان ذلك الخلاف بين الملكانيين

وبين اليعاقبة ، أم بين المسيحيين بصفة عامة وبين اليهود • وان كان يبـدو من الروايات التاريخية السابقـة ، أن اليهود كانوا مسالمين طوال سنوات الفتح ، اذ لم يرد لهم أى ذكر فى المصادر التاريخية •

تعددت الروايات التاريخية حول اتمام فتح الاسكندرية • وتجمع هذه الروايات على حصار المسلمين لهذه المدينة، وان اختلفت فى مدة هذا الحصار (١١١) • وقد تحصن الرومان بالاسكندرية ، وكانت تصلهم الامدادات من الامبراطور هرقل ، الذى كان حريصا أشد الحرص على الاحتفاظ بالاسكندرية ويقول : « لئن غلبوا على الاسكندرية فقد هلكت الرومان ، وانقطع ملكهم » • وأخذ يعد العدة للخروج بنفسه للدفاع عنها ، الا أن الموت وافاه فى سنة ١٩ هـ • (أو سنة ٢٠هـ) فكسر الله بموته شوكة الرومان (١١٢) •

اشتد ساعد العرب ، وازداد حماسهم فى القتال على أثر وفاة هرقل « واستأسدت العرب عند ذلك ، وألحت بالقتال على أهل الاسكندرية ، فقاتلوهم قتالا شديدا » (١١٣) •

وتذكر بعض المصـادر التاريخية أن المقوقس طلب من عمرو ابن العاص ، فى أثناء حصـــار الاسكندرية ، الصلح والمهادنة لمدة معينة ، فرفض عمرو • ثم تقول هذه المصادر : « الا أن القبط فى ذلك يحبون الموادعة »(١١٤) وقد تدل هذه العبارة على أن المقوقس والقبط المعتصمين بالاسكندرية ، أرادوا الصلح والمهادنة ، فى حين أصر الرومان على مواصلة القتال • ولا نستطيع تأييد هذه الروايات التى تذهب الى وجود المقوقس فى مدينة الاسكندرية • فقد حدثتنا الروايات الموثوق فيها عن تواجد المقوقس فى حصن بابلون، فى أثناء حصار العرب للحصن ، وأنه عقد الصلح مع عمرو بن العاص ، بل

انحاز الى جانب القبط فى موقفهم من المسلمين ضد الرومان ، مما يجعلنا نشك فى وجوده بالاسكندرية خلال حصارها • والحقيقة اننا عانينا الكثير نتيجة اضطراب وتناقض الروايات التاريخية حول الفتح العربى لمصر ، وأخذنا بالروايات الأكثر تواردا والموثوق فيها •

نجح العرب فى فتح الاسكندرية وسارع الرومان الى الفرار ، برا وبحرا ، وترك عمرو بن العاص ، فرقة من جنده لحراسة المدينة ، وأسرع بقواته لتتبع الفارين برا • ولكن الرومان الذين هربوا عن طريق البحر ، رأوا أن الفرصة مواتية ، لاستعادة الاسكندرية • فعادوا اليها وقتلوا من بها من المسلمين • وعلم عمرو بذلك ، فعاد الى الاسكندرية وقاتل هؤلاء الرومان وأجلاهم (١١٥) •

هذا فى حين يذكر الطبرى (١١٦) أن فتح الاسكندرية قد تم صلحا ليس عنوة فعندما وصل المسلمون الى بلهيب ، كتب اليهم صاحب الاسكندرية ـ ولم يذكر الطبرى اسمه ـ يطلب الأمان من عمرو مقابل دفع الجزية ورد سباياهم • وكتب عمرو الى الخليفة عمر بن الخطاب يستشيره • فأمر عمر قائده بأن يخير السبايا بين اعتناق الاسلام ، أو دفع الجزية اذا أرادوا الاحتفاظ بعقائدهم ، كما أوضح تعذر رد السبايا التى تم توزيعها كغنائم فى مكة والمدينة واليمن •

هذا ويزودنا المؤرخ القبطى حنا النقيوسى بتفاصيل قيمة عن صلح الاسكندرية وما تتضمنه من شروط • ويبدو أن المقوقس حاكم مصر ، وبطرك الملكانيين بها ، كان قد استدعاه الامبراطور هرقل القسطنطينية عندما علم بعقده الصلح مع المسلمين عند فتحهم حصن بابليون . فلما تولى هرقل الثانى منصب الامبراطور ، رأى

اعادة المقوقس الى مصر ، لتحقيق السلام مع المسلمين ، وعقد الصلح معهم (١١٧) .

والواقع أنه لم يكن المقوقس الشخص الوحيد الذي رغب في السلام مع المسلمين بل شاركه في ذلك ، الشعب والحكام والقواد . ومن أجل ذلك اجتمع المقوقس مع الحكام الرومان في مصر — الذين كانوا قد لاذوا بالاسكندرية — من أجل الاتفاق على عقد الصلح مع المسلمين (١١٨) . ثم رحل المقوقس الى بابليون لمقابلة عمرو بن العاص والقادة المسلمين ، وعرض عليهم الصلح مقابل دفع الجزية . وقد أحسن عمرو استقباله ، ورحب به . وقال المقوقس له : « ان الله قد أعطاكم هذه الأرض ، فلا تتدخلوا بعد اليوم في حرب مع الرومان » (١١٩) . وانتهى هذا الاجتماع بعقد صلح الاسكندرية ، الذي تضمن الشروط التاليـة :

١ — يدفع الجزية كل من دخل في العقـد .

٢ — يبقى المسلمون في أماكنهم دون تدخل في أي عمل أو تعديل أي وضع حتى يجلو الجند الرومان .

٣ — يجلو الجند الرومان عن الاسكندرية خلال أحد عشر شهراً ويحملون معهم ممتلكاتهم ومتاعهم . ومن أراد منهم الرحيل عن طريق البر ، يدفع جزية شهرية ، حتى يتم رحيله من أرض مصر .

٤ — يأخذ المســلمون رهائن ، مائة وخمسين من العسـكريين ، وخمسين من المدنيين .

٥ — لا تعود القوات الرومانية ثانية الى الاسكندرية .

٦ — يسود السلام ، ويوقف القتال بين المسلمين والرومان .

٧ ـ يتعهد المسلمون بحماية كنائس المسيحيين وبمنحهم الحرية الدينية .

٨ ـ يسمح لليهود بالاقامة فى الاسكندرية (١٢٠) .

انفرد المؤرخ حنا النقيوسى ، بذكر شروط هذا الصلح ، دون غيره من المؤرخين القدماء . ومما لاشك فيه أن سماح عمرو بن العاص لليهود ، بالاقامة فى الاسكندرية ـ أهم مراكز نشاطهم ـ كان مكافأة لهم ، لعدم تدخلهم فى قتال المسلمين ، والتزامهم الحياد طوال أحداث الفتح ، كما رأينا . وقد ذكر عمرو فى كتابة للخليفة عمر ابن الخطاب أن عدد اليهود بالاسكندرية حوالى أربعين ألفا ، وهم يؤدون الجزية (١٢١) .

وتذكر بعض المصادر أنه قد رحل حوالى سبعين الف يهودي ، من الاسكندرية عند دخول عمرو بن العاص فيها (١٢٢) . ولم يشر هذا المصدر الى سبب رحيلهم من الاسكندرية . ولا الى أي جهة ذهبوا . وقد يكون بعضهم قد ترك الاسكندرية الى غيرها من المدن المصرية ، وقد يكونون قد غادروا الأراضي المصرية . ونحن نرجح أنهم إنتشروا من الاسكندرية الى غيرها من المدن المصرية ، ذلك لأن موقفهم من الفتح كان موقف حياد ، وأنهم لم يقوموا بأية مقاومة أو عمل عدائى ضد العرب الفاتحين حتى يخشوا بطشهم ، بل وعلى العكس من ذلك كانوا يكرهون الحكم الرومانى . وعليه ، فقد فضل هؤلاء اليهود ، الاقامة فى غير الاسكندرية من المدن المصرية حتى تتسع دائرة نشاطهم فى ظل الحكم العربى الجديد .

واذا ناقشنا شروط صلح الاسكندرية ، نجد أن الشرط الأول قد جعل أهالى الاسكندرية أهل ذمة ، يؤدون الجزية فى مقابل الدفاع عنهم ، وتأمينهم على أنفسهم ، وعلى مصالحهم ، وممتلكاتهم . وكان

هذا الشرط أيضا أحد شروط صلح بابليون • ومن الشروط المشتركة بين الصلحين ، حماية المسلمين لكنائس القبط وغيرهم من المسيحيين ، وعدم التدخل فى شئونهم الدينية • أما فيما عدا ذلك فهى شروط خاصة بمدينة الأسكندرية وشعبها ، مما يميز هذا الصلح عن صلح بابليون •

بعد عقد هذا الصلح عاد المقوقس الى الاسكندرية ، وأخبر الحكام والقواد ، وكبار رجال المدينة من الرومان ، بما تم بينه وبين عمرو بن العاص ، وبما تضمنه الصلح مع المسلمين فى حين لم يعلم سائر أهالى الاسكندرية شيئا عن هذا الصلح : فلما قدم بعض المسلمين الى الاسكندرية لحمل الجزية المقررة فى الصلح ، أراد بعض سكان المدينة مقاومتهم ، الا أن الجيش الرومانى حال دون ذلك ، فثار الشعب ، وانتشرت الفوضى فى جميع أرجاء المدينة ، بل أرادوا قتل المقوقس ورجمه بالحجارة ، تعبيرا عن سخطهم عليه لعقده الصلح مع المسلمين (١٢٣) • وخرج المقوقس الى الثائرين ، لتهدئة روعهم وتوضيح حقيقة الموقف ، فذكر أنه أقدم على هذه التسوية من أجل خدمتهم ، وانقاذهم وانقاذ أطفالهم ، وتوسل اليهم قبول الصلح • وسلم سكان الاسكندرية بقبول الصلح وحصلوا كثيرا من الأموال الى المقوقس ليدفع الجزية المقررة عليهم للمسلمين • ومما تجدر الاشارة اليه أن المقوقس حمل الجزية بنفسه الى عمرو بن العاص (١٢٤) •

كان من الطبيعى أن يقضى فتح الاسكندرية على أى أمل فى عودة الحكم الرومانى الى مصر ، وفترت الحماسة للقتال ، ورأى معظم أهالى مصر الدخول فيما دخل فيه سائر الناس من العهد • ومن ثم تم فتح كثير من مدن الدلتا صلحا ، بعهد بين حاكمها وبين المسلمين ، ومن هذه المدن اخنا ورشيد والبرلس • وفرض العرب

عليهم في الصلح « دينارين على كل انسان جزية ، وأرزاق المسلمين، الى جانب شروط ستة لا يخرجون من ديارهم ، ولا تنتزع نساؤهم ولا كنوزهم ولا أراضيهم ، ولا يزاد عليهم » (١٢٥) .

وتشير بعض الروايات الى أن الجزية المفروضة على هذه المناطق ، لم تكن محددة بدليل أن طلما صاحب اخنا ، قدم الى عمرو بن العاص ، وسأله عما عليهم من جزية ، فأجابه عمرو وهو يشير الى ركن كنيسة : « لو أعطيتنى من الأرض الى السقف ، ما أخبرتك بما عليك ، انما أنتم خزانة لنا ، ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف عنا ، خففنا عنكم (١٢٦) » وحاول طلما حشد بعض الجند الرومان ، ولكن العرب هزموه وأسروه (١٢٧) .

نجح العرب فى فتح دمياط (١٢٨) ، وتنيس (١٢٩) ، وتونسة ودمبرة وشطا ودقهلة وبنا وبوصير ، فتم لهم اخضاعها جميعا بصلح يشبه صلح بابليون (١٣٠) .

وهكذا تم للعرب المسلمين فتح البلاد المصرية ، واستقرت الأمور لهم فيها . الا أن الاسكندرية ما لبثت أن نقضت الصلح (سنة ٢٣ وقيل ٢٥ هـ) (١٣١) ولا شك أن الرومان هم الذين نقضوه ، وليس القبط المصريين . ذلك أن عمرو بن العاص ، كان ولى عبد الله بن حذافة بن قيس حكم الاسكندرية وعاد عمرو الى الفسطاط ، فانتهز الرومان هذه الفرصة ، وكتبوا الى الامبراطور البيزنطى قسطنطين بن هرقل ، يخبرونه برحيل عمرو عن الاسكندرية ، وقلة عدد جند الحامية العربية بالاسكندرية . كما شكوا له اضطرارهم الى أداء الجزية للمسلمين . فرأى الامبراطور أن الفرصة سانحة لاستعادة الاسكندرية من أيدى المسلمين ، فأرسل

ثلاثمـــائة سفينة ، تحمل قـــوات رومانية ، بقيـــادة مانويل الخصى (١٣٢) .

قدم مانويل الى الاسكندرية ، وقتل بعض الجند المسلمين ، ونجا البعض الآخر بأرواحهم (١٣٣) وانحاز الرومان بالاسكندرية الى جانب مانويل ، فى حين لزم المقوقس والقبط الحياد ، واحتفظوا بعهدهـــم مع المسلمين . ورفض عمرو بن العـاص الذهـاب الى الاسكندرية لمواجهة مانويل وصحبه وقال : « لا ولكن أدعهم حتى يسيروا الى ، فانهم يصـيبون من مروا به ، فيخزى الله بعضـهم ببعض » (١٣٤) . فقد كان عمرو يتوقع أن ينزل الجند الرومـان سخطهم على أهالى المدن والقرى التى يمرون بها فى زحفهم لقتال الجيش الاسـلامى ، وتحقق ظن عمرو ، فقد كان الجنـد الروما‌ن يقتحمون القرى ، ويشربون خمورها ، ويأكلون أطعمتها ، ويسلبون وينهبون حتى بلغوا مدينة نقيوس حيث تصدى لهم عمرو (١٣٥) ، واضطرهـم الى التقهقر نحـو الاسـكندرية وتتبعهم حتى تم له وللمسلمين استعادة الاسكندرية والقضاء على الثورة ، وقتل كثيرا من الرومان ، كما سبى أعدادا كبيرة منهم (١٣٦) .

ومما لاشك فيه أن عمرو بن العاص كان يلقى المســـاعدات والعون – فى طريقه – من القرى التى نزل بها ، ومما لاشك فيه أيضا أن موقف القبط وبطركهم بنيامين كان موقف تأييد للعرب ، اذ كانوا يشدون أزرهم ويقدمون لهم كل عون ممكن ، ويظهرون لهم الود ويحافظون على عهـــدهم الذى تعـــاهدوا به فى صـلح الاسكندرية . ذلك أنه لم يكن من العقل والحكمة أن يساعد القبط الروما‌ن فى هذه المرة ، لأنهم لم يكونوا يأملون خيرا فى عودة حكمهم للبلاد . اذ ان ذكريات المقوقس ، وعســـفه بهم كانت ما تزال منقوشة فى قلوبهم ، وأنهم شعروا بالطمأنينة على دينهم ودنياهم

فى ظل حكم العرب لهم • والواقع أن ذلك لم يكن يتحقق لهم اذا عاد اليهم حكم الرومان • ولقد صدق بتلر حين قال : « ولو فعلوا غير ذلك لكانوا أحمق الناس وأجهلهم ، كأنهم يسعون الى وضع أيديهم فى أغلال الروم ، وكشف أجسامهم لجلد سياطهم » (١٣٧) • ولما تم لعمرو بن العاص القضاء على مانويل وثورته ، شكا اليه المصريون من أهالى القرى المجاورة مما أصابهم من جند مانويل ، وما نهبه الرومان من قراهم • فأعاد عمرو اليهم كل ما كان مانويل قد أخذه منهم (١٣٨) •

وبعد هذه الدراسة لأحداث الفتح العربى لمصر ، وموقف كل من القبط والرومان واليهود منه ، نلمس تعدد الروايات العربية وغير العربية التى أوردها المؤرخون المسلمون وغير المسلمين ، وتناقضها أحيانا، واختلافها فى التفصيلات أحيانا أخرى وان كانت جميعها تتفق فى أن المصريين قد صاروا أهل ذمة (١٣٩) • ويرى بعض المؤرخين أن مصر فتحت عنوة ويرى آخرون أنها فتحت صلحا، وهناك من يذهب الى أن بعض المناطق قد فتحت عنوة والبعض الآخر قد فتح صلحا (١٤٠) • ويمكن القول ، ان روايات هؤلاء المؤرخين يكمل بعضها البعض ، ولابد من الاعتماد عليها جميعا ، حتى يمكننا تكوين صورة كاملة متكاملة لأحداث الفتح العربى لمصر •

واذا تركنا هذه الروايات العربية التى حفلت بها المصادر التاريخية القديمة ، يجدر بنا الاشارة الى آراء المؤرخين المحدثين حول موقف قبط مصر من العرب الفاتحين ، ومدى ترحيبهم بهم ، ومدى تقديم المساعدات لهم • وكان من الطبيعى أن ينقسم هؤلاء المؤرخون المحدثون الى فريقين ، أحدهما يبرز ترحيب القبط بالفتح العربى ، وفريق آخر ينفى هذا الرأى •

ينسب توماس أرنولد (١٤١) ، النجاح السريع الذى أحرزه الفاتحون العرب الى ما وجدوه من ترحيب المصريين بهم ، الذين كرهوا الحكم البيزنطى الظالم ، ولما أضمروه من حقد مرير على علمـــاء اللاهوت. فان اليعاقبة ــ وهم يكونون السواد الأعظم من المصريين ــ قد عوملوا معاملة مجحفــة من أتبـــــاع المذهب الملكانى التابعين للامبراطور .

ومما لاشك فيه أن بعض القبط وقفوا موقف الحياد ، لأن ترحيبهم بالعرب ، معناه انتقالهم من تبعية الى أخرى ، وهم بذلك لن يتمكنوا من اجلاء العرب والبيزنطيين معا وفى وقت واحد ، كما أن فريقا من القبط حــارب الى جانب الرومان البيزنطيين ، اذ كانوا يتوقعون انتصار الرومان على العرب (١٤٢) .

فى حين يرى أحد المؤرخين المحدثين أنه لما قدم العرب الى مصر فاتحين ، احتاجوا الى ما يشد أزرهم ، فوجدوا فى القبط خير معين، وان كان ليس هناك ما يدل دلالة واضحة على مساعدة القبط للعرب فى تقدمهم من العريش حتى فتح حصن بابليون ، الا أنه من الثابت أنهم لم يساعدوا الرومان ضد العرب ، بل أمدوا العرب بالعلوفة والمؤن وغيرها (١٤٣) .

ويرى هــاردى (١٤٤) Hardy أن القبط نظــروا الى الفاتحين العرب على أنهم منقذون ومحررون لهم مما كانوا يلاقونه ويعانونه ، فقد كانوا يبغضون الرومان بغضا شديدا ، لما قاسوه على يد المقوقس. وقد أدرك المســــلمون حقيقة مشــاعر القبط ، مما جعلهم أكثر جرأة وجسارة فى القتال .

والحقيقة أن المصريين ، رحبوا بالفتح العربى الذى يقضى على الأوضـــاع القائمة الظالمة ، والدليـــل على ذلك تمرد بعض القواد

وعصيان بعض الحاميات ورفضها قتال المسلمين (١٤٥) . ويذكر سيلفستر شـولير (١٤٦) Sylvestre Chauleur ـ أن القبط لم يرتكبوا خيانة فى حق الدولة الرومانية ، فقد كانوا من قبل ساخطين على فساد الادارة ، وسياسة الامبراطور الدينيـة ، ولذا كان من الطبيعى أن يخضع القبط ، ويسـلموا للعرب الفاتحين تخلصا من طغيان الرومان واستبدادهم . ويؤكد المؤرخ رأيه برواية تذكر أن الرهبان قد تركوا أديرتهم ، وانضموا الى الجند المسلمين ضد الرومان . كما أنه عندما حاول البيزنطيون غزو مصر ثانية ، كان موقف القبط أكثر وضوحا ، وقد انحازوا الى جانب المسلمين وقدموا اليهم كل مسـاعدة ممكنة .

ويذهب مؤرخون محدثون آخرون ، مذهبا مخالفا ، فينفون الآراء التى تذهب الى أن القبط رحبوا بالفاتحين العرب ، وقدموا لهم العون والمساعدة . وهؤلاء المؤرخون يستندون فى آرائهم على أن المسلمين أخفقوا فى فتح بعض المناطق ، ووجدوا كثيرا من الصعوبات والعقبات فى فتحها (١٤٧) .

ويقف بعض المؤرخين المحدثين موقفا وسطا ، فيذكرون أن القبط قد انقسموا الى فريقين متميزين فى موقفهم ، فقد انحاز فريق منهم الى الرومان ، فى حين أبدى فريق آخر ترحيبه بالعرب (١٤٨) .

وبعد هذا العرض لآراء المؤرخين المحدثين حول موقف القبط من الفاتحين العرب ، يمكننا أن نقول ، انه مما لاشك فيه أن كثيرا من القبط قد ساعدوا العرب فى تقدمهم فى الأراضى المصرية ، وقدموا لهم كل مســاعدة ، وكل تأييد ممكن . وكان ذلك نتيجة طبيعية لما قاسوه من الاضطهاد والعسف لمدة عشر سنوات . ونستند فى ذلك على أقوال المؤرخين القدماء .

فقد كتب أسقف القبط بالاسكندرية (أبو ميامين) عند قدوم الجيش العربى لمصر ، الى القبط ، يشير عليهم بالترحيب بالعرب . فلن تكون للرومان دولة . كما قدم قبط الفرما كثيرا من المساعدات للجيش العربى (١٤٩) ، مما فتح الطريق أمام العرب . وكتاب هرقل الى المقوقس يوضح حقيقة موقف القبط . وكراهيتهم للقتال، واستعدادهم لدفع الجزية ، وقد جاء فى هذا الكتاب : « . . . انما أتاك من العرب اثنا عشر ألفا ، وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى ، فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا ، فان عندك من بمصر من الروم وبالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف » (١٥٠) . ومن الروايات القديمة التى تثبت ترحيب القبط بالعرب، وتقديم المعاونات لهم ، هذه الرواية : « ان عمرو بن العاص ، قد خرج بالمسلمين حين أمكنهم الخروج من حصن بابليون ومعه جماعة من رؤساء القبط . وقد أصلحوا لهم الطرق ، وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصار لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الرومان » (١٥١) ، وأشار بعض المؤرخين القدماء صراحة الى أن مساعدة القبط للعرب الفاتحين ظهرت بوضوح بعد فتح العرب لاقليم الفيوم (١٥٢) .

والحقيقة أن العامل الرئيسى لنجاح الفتح العربى لمصر ، ولنهاية الحكم الرومانى ، هو السياسة التى انتهجها الامبراطور هرقل ، والمعاملة التى عامل المقوقس بها القبط الأرثوذكس ، وما لقيه ؤلاء القبط من بطرك الملكانيين . وقد رأى بعض المصريين أنهم خسرون شيئا اذا تقبلوا الحكم العربى بدلا من الحكم الرومانى ، من الحكمين بالنسبة لهم حكم أجنبى ، وقد خبروا حكم رومان سنوات طويلة ، وعانوا من فساده ومظالمه ، وتوقعوا أن يكون الحكم العربى أخف وطأة ، أو أكثر تسامحا ، وخاصة أن العرب يدينون بعقيدة تخالف عقيدة المصريين المسيحية ، فتنتهى

بذلك الخلافات الطائفية التى سادت دهرا ، وأدت الى اضطهاد القبط . كما كان كثير من القبط قد سمعوا بسياسة التسامح التى اتبعها العرب الفاتحون نحو المسيحيين فى بلاد الشام .

كما أن الجزية التى فرضها العرب ، وقبلها القبط ، كانت تتضاءل كثيرا اذا قارنوها بالضرائب الباهظة التى كان يؤديها المصريون للدولة الرومانية ، وقد أثقلت كواهلهم ، وأدت الى كثير من المساوىء الاقتصادية . ولمس قبط مصر تواضع العرب وبساطتهم ، مما شجعهم على الخلاص من سياسة التفرقة العنصرية التى اتبعها الرومان فى حكم مصر .

أما يهود الاسكندرية ، فقد كانوا قد استقروا دهرا طويلا فى هذه العاصمة وامتزجوا بأهلها من القبط المصريين ، وشاركوهم ظاهريا ، مشاعرهم وكراهيتهم للحكم الرومانى وهؤلاء اليهود وان كانوا فى الحقيقة يبغضون الطائفتين المسيحيتين ، على السواء ، لاختلافهم معهم فى العقيدة ، الا أنهم آثروا اخفاء بغضهم ، حرصا منهم على مصالحهم المادية ونشاطهم الاقتصادى .

وكان الفتح العربى مفاجأة ليهود الاسكندرية ، وقد جعل موقفهم حرجا ، فقد كانوا فى الحقيقة لا يريدون اقحام أنفسهم فى معارك حربية أو خلاف سياسى ، أو نزاع طائفى ، ويريدون التفرغ التام لنشاطهم الاقتصادى الواسع النطاق الذى يمارسونه منذ سنوات طويلة فى الاسكندرية ، وجعلهم يسيطرون على كثير من المرافق الاقتصادية . وقد خشوا نتائج مساعدتهم السلطات الرومانية الحاكمة ، فقد يتحقق النصر للعرب . كما تحرجوا من تأييد الفتح العربى ، فقد يكون النصر للرومان ، مما يعرضهم لسخطهم واضطهادهم . كما كان هؤلاء اليهود يدركون حقيقة مشاعر القبط العدائية نحو الرومان .

ولهذه الأسباب كلهـا ، آثر اليهود انتهاج سياسـا التـام ، والوقوف موقفـا سلبيا تجاه الأحداث الدائرة في الاسكندرية وخارجها • وفى الحقيقة لم يكن العرب الفات حاجة الى معاونة هؤلاء اليهود . فعددهم قليل اذا قارناه القبط الذين يمثلون غالبية سكان مصر ، كما أن اليهود لم قوة عسكرية بل اتجه كل اهتمامهم الى الشئون الاقتصادية قـدر العرب لهؤلاء اليهود موقفهم • فسـمحوا لهم بالبقـ الاسكندرية •

وفى رأينـا أن العرب الفاتحين كانوا على جانب الفطنة والذكاء ، حينما اتخذوا هذا الموقف من اليهود • هؤلاء اليهود فى الاسكندرية هم عصب النشاط الاقتصاد جلاؤهـم من المدينـة يوقف هذا النشـاط ، فى وقت يريا الفاتحون تحقيق الاسـتقرار • ولاشك أن الاقتصـاد هو الاستقرار السياسى والادارى والاجتماعى • كمـا أن العرب أن يثبتوا لجميع أهالى مصر أنهم يكافئون كل من لم يقف عدائيـا • كما كان العرب يخشون من محاولة الرومان اس الاسكندرية ، ولذا رأوا أن يضمنوا حياد اليهود مرة أخرى

وفضلا عن ذلك ، أن هذه السياسة التى انتهجها ا المسلمون نحو اليهود هى جزء من سياسة التسامح الاسلا أهل الذمة ــ أهل الكتاب ــ فى كل مكان •

٢ ـ دور أهل الذمة فى الحياة السياسية فى عصر الولاة

درسنا فى الفصل السابق ، موقف القبط واليهود من الفتح . ونبحث فى هذا الفصل ، الدور الذى قاموا به فى الحياة السياسية فى عصر الولاة (٢٠ ــ ٢٥٤ هـ = ٦٤١ ــ ٨٦٨ م) ، الذين حكموا مصر فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ، وفى العصر العباسى حتى قيام الدول المستقلة .

وقد أصبح يطلق على القبط واليهود ، فى مصر ــ شأنها شأن غيرها من البلاد الاسلامية ــ (أهل الذمة) . والذمة فى اللغة العهد والأمان والضمان ، والمنتفعون بهذا العهد يسمون أهل الذمة أو « الذميون » (١٥٣) . وأهل الذمة هم المستوطنون فى الأقطار الاسلامية من غير المسلمين الذين صاروا سادة البلاد وحكامها(١٥٤) . وهم أهل الكتاب . أى أصحاب الكتابين السماويين التوراة والانجيل ، وهم اليهود والمسيحيون ومن فى حكمهم ممن لا كتاب سماوى لهم ، وهم المجوس والسامرية والصابئة (١٥٥) . ولهذه الطبقة أحكام خاصة فى الاسلام سنتحدث عنها وعن مدى تطبيقها فى مصر فى الفصل الأول من الباب الثانى .

أما القبط ، فنجد فى المصادر التاريخية الكثير من أخبارهم ومواقفهم ، أما بالنسبة لليهود فى مصر ، فقد أغلقت المصادر التاريخية الحديث عن دورهم فى الحياة السياسية فى هذا العصر وربما كان ذلك الاغفال ، لانهم كانوا أقلية بالنسبة للقبط فى ذلك العصر • ويبدو أن عمرو بن العاص قد ترك اليهود وشئونهم الخاصة ، كما أن بعضهم كان قد احتكر سك النقود ومارسوا نشاطا اقتصاديا واسعا • والحقيقة أنهم تمتعوا فى ظل حكومة العرب بالتسامح والعدل ، وكانت لهم جالية بالفسطاط الى جانب جاليتهم الكبيرة فى الاسكندرية (١٥٦) •

والواقع أن تاريخ اليهود منذ الفتح العربى لمصر حتى قيام الدولة الفاطمية يعتريه الغموض ، ولكن الثابت تاريخيا أن اليهود عوملوا كغيرهم من غير المسلمين ، فكانوا يؤدون الجزية ويسمون بأهل الذمة (١٥٧) •

كان كثير من المصريين ، فى أثناء تقدم عمرو بن العاص فى الأراضى المصرية ، قد غادروا مدنهم وأراضيهم ، وبادروا بالفرار الى مدينة الاسكندرية ، لعلهم يجدون الحماية والأمن • فلما تم لعمرو والمسلمين فتح جميع المدن المصرية بما فيها الاسكندرية ، رأى هؤلاء النازحون العودة الى ديارهم وأراضيهم ، وطلبوا من المقوقس أن يطلب من عمرو السماح لهم بالعودة (١٥٨) • وفاوض المقوقس عمرو ، من أجل تحقيق رغبات المصريين فى العودة حتى يكسب رضاءهم ، فيتناسوا سياسة الاضطهاد التى اتبعها قبل الفتح العربى، الا أن عمرو بن العاص رفض تحقيق رغبة المقوقس مما أثار ألمه واستياءه (١٥٩) • وبذلك أخفقت مساعيه فى كسب رضاء المصريين والتكفير عما ارتكبه فى حقهم •

تم لعمرو بن العاص فتح جميع المدن المصرية ، وأبقى النظم الادارية على ما كانت عليه من قبل ، كما أبقى عمرو بعض الحكام المصريين فى مناصبهم التى كانوا يتولونها قبيل الفتح . نذكر منهم ميناس الذى كان يحكم مصر السفلى . وكان هذا الحاكم مغرورا جاهلا ويمقت القبط مقتا شديدا . ومن هؤلاء الحكام أيضا شنودة حاكم اقليم الريف ، وفيلوخينوس حاكم اقليم الفيوم . وكان هؤلاء الثلاثة يكرهون القبط كراهية شديدة ، ويحملونهم كثيرا من الأعباء (١٦٠) .

وتذهب الرواية القبطية الى أنه كان على المصريين أن يقدموا للعرب الفاتحين العلف لدوابهم ، وبعض الأطعمية ـ كالعسل واللبن والفواكه والخضر وغيرها ـ الى جانب أداء الجزية وخراج الأرض . كما تذهب الرواية القبطية أيضا الى أن خوف القبط من حكامهم ـ كان من دوافع أدائهم هذه الضرائب (١٦١) . ومن مزاعم هذه الرواية القبطية أيضا أن المصريين قد سخروا لاعادة حفر قناة تراجان لتصل المياه من بابليون الى البحر الأحمر ـ وتبالغ الرواية القبطية فى تحاملها ضد العرب ، حتى انها تشبه معاملة العرب الفاتحين للمصريين بمعاملة فرعون مصر لبنى اسرائيل (١٦٢) ولكن هذه الرواية وغيرها من الروايات القبطية كانت متحاملة على عمرو ابن العاص والعرب تحاملا شديدا ، بحيث انها تعبر عن العصبية الدينية . والأحداث التاريخية تنفى تماما ما ذهبت اليه هذه الروايات من أن عمرو كان يعامل المصريين بدون رحمة ولا شفقة ، وأنه لم يراع شروط العهد الذى منحه اياهم (١٦٣) .

وفى الحقيقة أن عمرو بن العاص ، لم يبق هؤلاء الحكام فى مناصبهم من أجل اتباع سياسة الشدة فى معاملة المصريين . ولكنه رأى الاحتفاظ بكبار الحكام فى مصر عند الفتح العربى لأنهم أعلم بنظم

الحكم في مصر ، وأدرى بشئونها الادارية . فقد أبقى عمرو النظم الحكومية والادارية الموجودة في مصر ، ولم يغير شيئا منها ، حتى تستقر الأمور ، وتهدأ الأحوال فيتمكن عند ذلك من تغيير ما يرى تغييره .

ونحن نتفق مع بتلر في أن المقوقس لم يكن هو الوحيد الذي تخلى عن ولائه للامبراطورية الرومانية ، بل شاركه في ذلك، هؤلاء الحكام الثلاثة الذين أسرعوا باعلان ولائهم للدولة العربية . وقد ظن هؤلاء الحكام الرومان ، أن خير مظهر يعبرون به عن ولائهم للعرب هو معاملة القبط معاملة حازمة ، وقد تنصف أحيانا بالشدة، لكسب رضاء العرب عنهم من جهة ، وللتعبير عن كراهيتهم القديمة للقبط نتيجة الخلاف المذهبي والطائفي من جهة أخرى (١٦٤) .

توفى المقوقس حاكم مصر الروماني ، الذى عقد الصلح مع عمرو ، في ٢١ مارس سنة ٦٤٢ م وكان دائما يعبر عن آلامه لوقوع مصر في أيدى العرب ، ولما أصاب الامبراطورية الرومانية من انحلال داخلي (١٦٥) . وبعد وفاة المقوقس بحوالي ثلاثة أشهر ، اختير الشماس بطرس بطركا للملكانيين في مصر ، في عيد القديس تيودور (١٦٦) ، في شهر يوليو من السنة نفسها (١٦٧) .

ويبدو أن تأخير اختيار البطرك الملكاني ، ربما كان راجعا الى رغبة الملكانيين في استشارة القسطنطينية فيمن يتولى هذا المنصب ، والى ما كان يسود القسطنطينية حينئذ من اضطرابات داخلية . أو لعل هذا التأخير كان ناتجا عن تردد الكثيرين في قبول هذا المنصب ، بعد أن انفصلت الأمور الدينية في مصر عن السلطة الدينية في القسطنطينية وانعدام الأمل في العودة الى حوزة الامبراطورية البيزنطية .

ولما انتهت الهدنة المتفق عليها فى صلح الإسكندرية ، غادر القائد الرومانى تيودور وأصحابه المدينة ، وفى صحبتهم ما كان بيد المسلمين من الرهائن المدنية والعسكرية . كما رحل عن المدينة كثير من الموظفين وكبار الشخصيات الرومانية بها ، فتحمل أعباء الضرائب من بقى بالمدينة وغيرهم من سكان مصر آنذاك . ودخل عمرو الاسكندرية حيث رحب به أهلها (١٦٨) .

وهكذا انتصر العرب انتصارا حاسما شاملا ، وخرج الرومان من مصر الى الأبد وبدأ العرب الفاتحون يتقربون من القبط ، حتى يضمنوا ولاءهم واخلاصهم لهم ، وحتى يتمكنوا من توطيد أقدامهم فى البلاد . وخير دليل على ذلك موقف عمرو بن العاص من البطرك اليعقوبى بنيامين .

أخبر الدوق سنانوتيوس (١٦٩) عمرو بن العاص ، بقصة هروب البطرك بنيامين عند قدوم المقوقس الى مصر ، حاكما لها وبطركا للملكانيين بها . فكتب عمرو أمانا لهذا البطرك . ويبدو أنه لم يكن أحد يعرف المكان الذى كان يقيم فيه البطرك طوال عهد المقوقس . وقد جاء فى أمان عمرو للبطرك بنيامين : « الموضع الذى يكون فيه بنيامين ، بطرك النصارى القبط ، له العهد والأمان ، والسلام من الله ،فليحضر آمنا مطمئنا ، ويدبر حال بيعته ، وسياسة طائفته » (١٧٠) .

وعلم الأب بنيامين بهذا الأمان ، فعاد الى الاسكندرية ، بعد غيبة استمرت ثلاث عشرة سنة ، قضى منها عشر سنوات خلال حكم الامبراطور هرقل ونائبه المقوقس وثلاث سنوات منذ بدء الفتح العربى لمصر (١٧١) . فلما علم عمرو بن العاص بظهور هذا البطرك استدعاه اليه معززا مكرما . فقدم الأب بنيامين على عمرو ، فأحسن استقباله ، وأشاد بحسن مظهره وقال انه لم ير فى جميع الكور

المصرية رجلا يشبه هذا البطرك . ثم عهد عمرو الى هذا البطرك بشئون الكنيسة القبطية ، ورعاية مصالح القبط (١٧٢) .

أخذ الأب بنيامين يدبر شئون الكنيسة القبطية فى أمن وسلام ، وحرص على أن يعيد اليها وحدتها ، وهداية من ضل فى عهد الامبراطور هرقل ، وحاد عن العقيدة الأرثوذكسية . فجذب اليه معظم القبط الذين استجابوا لدعوة هرقل ونائبه المقوقس ـ المخالفين لهم فى المذهب الدينى ـ باتباع وسائل الوعظ والارشاد (١٧٣) .

كما عاد كثير من القبط الأرثوذكس الى أراضيهم ، بعد أن علموا بعودة بطركهم الأب بنيامين وبعد أن انقضى عهد الظلم والقسوة . فى حين بقى البعض على ما صاروا اليه حتى لا يشتهر أمرهم ، بأنهم مخالفون للمذهب الأرثوذكسى (١٧٤) .

كان مركز عمرو بن العاص فى مصر يتدعم يوما بعد يوم ، ويبدأ فى تحصيل الضرائب التى اشترطها على المصريين فى عقد الصلح ، الا أنه لم يمس أملاك الكنيسة ، بل أعلن حمايته ورعايته لها ، وظلت الكنيسة محتفظة بأموالها وأملاكها (١٧٥) . وتمتع القبط فى مصر فى ظل الحكم العربى الاسلامى بالحرية الدينية ، واستمروا فى نشاطهم الاجتماعى والاقتصادى فى أمن وسلام .

وقدم الى الاسكندرية عند قدوم عمرو اليها ، أحد زعماء القبط ويسمى يوحنا الدمياطى وكان قد أعلن ترحيبه بالفتح العربى ، واشتهر بعطفه على فقراء القبط ، ورثائه لحالهم ، لما لاقوه من اضطهاد خلال الحكم الرومانى . وقد ولاه عمرو بن العاص حكم اقليم مصر السفلى بدلا من الحاكم ميناس ـ السابق الاشارة اليه ـ

الذى زاد الضرائب كثيرا عن المقدار المشروط. وكان القبط المصريون قد عانوا الكثير من مظالم ميناس حتى انهم كانوا يقدمون أولادهم ، بدلا من الضرائب الباهظة المفروضة عليهم شهريا (١٧٦) وهذا يدل دلالة واضحة على أن عمرو بن العاص ، كان يتدخل دائما لحماية مصالح القبط ، وكان اذا علم باجحاف بعض موظفيه بالقبط وتحميلهم القبط أكثر مما يطيقون ، كان يعزل هؤلاء الموظفين من مناصبهم ، ويولى بدلهم ممن يثق فى عدلهم وانصافهم . وهذه السياسة هى فى الحقيقة جزء من السياسة العامة التى انتهجها عمرو بن العاص من أجل كسب مودة قبط مصر ، وتوفير العدل والأمن لهم ، فى ظل الحكم العربى الجديد .

ويرى بعض المحدثين أن القبط قد أصبحوا بعد الفتح العربى فى غبطة وسرور لتخلصهم من عسف الرومان واضطهادهم لهم لمخالفتهم اياهم فى المذهب الدينى ويذكر أن أكبر دليل على ذلك ، الخطبة التى ألقاها باسيل ـ أسقف مدينة نقيوس ـ بدير مقاريوس. وما كان من رد البطرك بنيامين عليه بقوله : « لقد وجدت فى مدينة الاسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما بعد الاضطهادات والمظالم التى قام بتمثيلها الظلمة المارقون » والواقع أنه من هذه العبارات التى قالها البطرك يتضح مدى الطمأنينة التى شعر بها المصريون فى عهد عمرو بن العاص (١٧٧) .

وكان عمرو بن العاص يتنكر ، ويتجول فى الأحياء المصرية ليقف على أحوال القبط والمصريين ، وسياسة الحكام والموظفين فيهم ، وليتبين مشاعر الشعب المصرى نحو الحكم الاسلامى (١٧٨) .

لم يكن عمرو بن العاص ـ أول ولاة مصر الاسلامية ـ هو وحده الذى أحسن معاملة القبط وغيرهم من أهل الذمة ، بل كان

الخليفة عمر بن الخطاب ، يوصى دائما ولاته بحسن معاملة أهل الذمة ، ويمنع الاساءة اليهم ، حتى ولو اقتضى الأمر ، الاقتصاص لهم ، من عماله ومن أولادهم كما حدث عندما اقتص لأحد قبط مصر من واليها عمرو وابنه عبد الله على مرأى من الناس (١٧٩) .

ويشيد الجميع بسماحة الخليفة عمر مع أهل الذمة فى مصر ، فقد أقرهم فى أراضيهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية عقائدهم . بل ومنحهم حرية الاقامة فى مصر أو الخروج منها (١٨٠) . والحقيقة أن أهل الذمة فى مصر قد نعموا بالهدوء والأمن طوال عصر الخلفاء الراشدين الذين كانوا يوصون دائما ولاتهم بأهل الذمة خيرا . فنجد الخليفة عمر عند وفاته يوصى من يلى الخلافة بعده : « أوصى الخليفة بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خيرا ، أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفون فوق طاقتهم ــ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه » (١٨١) .

واتبع الخليفة عثمان بن عفان ــ من بعده ــ سياسة سمحاء ازاء أهل الذمة فى جميع أرجاء الدولة الاسلامية ، وأوصى عماله برعاية شئونهم ، وعدم الاجحاف بهم فى جمع الضرائب فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم داعيا وراعيا لقومه ولم يكن جابيا (١٨٢) .

كذلك أحسن على بن أبى طالب ، معاملة الذميين ، فأوصى عماله فى جميع أنحاء الدولة الاسلامية بهم خيرا ، وأمر بمراعاة عهودهم ، والدفاع عنهم ، وعدم الاجحاف بهم (١٨٣) . وقد أوصى عامله محمد بن أبى بكر بأهل الذمة حين قدم مصر واليا عليها من قبله فى سنة ٣٦ هـ . وجاء فى عهد ولايته : « بسم الله الرحمن

الرحيم ، هذا ما عهد عبد الله على ، أمير المؤمنين الى محمد بن أبى بكر ، حين ولاه مصر ، وأمره بتقوى الله فى السر والعلانيــة ٠٠ وبالعدل على أهل الذمة ، وبانصاف المظلوم ، وبالشدة على الظالم ٠٠ وأمره أن يجبى خراج الأرض على ماكانت عليه من قبل لا ينتقص منه ولا يبتدع فيه ٠٠٠ » (١٨٤) ٠

والواقع أن العرب حينما وطدوا أقدامهم فى البلاد ، أبقوا النظام الادارى ، كما كان عليــه قبــل الفتــح العربى ، كما أنهم استخدموا الموظفين المصريين الذين لم يهربوا عند قدوم العرب الى البلاد المصرية (١٨٥) ٠ وهكذا لعب المصريون دورا لا يستهان به فى ادارة البلاد فى عصر ولاة الخلفاء الراشدين وتشير بعض أوراق البردى الى أســـماء حكام أقاليم وموظفين من القبط ـ الى جانب ما ذكرنا آنفــا ـ منذ السنوات الأولى للحــكم العربى فى مصر ٠ ويرجع تاريخ هذه الأوراق الى سـنة ٢٢ هـ ـ ٦٤٢ م وتذكــر أن خريســتوفور وتيودوراكس ابنى قيرس ، كانا حـــاكمين لاقليم هيراكليوبولس ـ Héracliopolis (١٨٦) ٠

وكما قام أهل الذمة بدور فى الحياة السياسية فى عصر ولاة الخلفــاء الراشدين ، فقد اســتمروا فى أداء هذا الدور فى عصر الولاة الأمويين والعباسيين ٠ فاذا كانت روح الاسلام الحقة هى التى دفعت بالعرب الى اتبـــاع سـياسة التســامح الدينى نحو المصريين ، فاننا نجد أيضا أنه كان للعوامل السياسية أكبر الأثر فى حمل العرب على ترك مقاليد الأمور فى أيدى أهل مصر من القبط خاصة ، محتفظين لأنفسهم بالسيادة العليا وتنفيذ أحكام الدين ٠ أى أن القبط صاروا يتمتعون بحريتهــم الدينية الى جانب قيامهم بنصيب كبير فى ادارة بلادهم ٠ ولاشك فى أن القبط قد حلوا محل الرومان الذين غــادروا مصر ، والذين كانوا يشــــغلون كثيرا من الأعمال فيها (١٨٧) ٠

ونبحث فيما يلي دور أهل الذمة ، وخاصة القبط منهم في الادارة والحكومة ، اذ كان منهم الكتاب وعمال الدواوين ، وحكام الأقاليم بل وأيضا عمال الخراج . ثم ما كان من تدخل الولاة المسلمين في اختيار البطرك ، وانتصار هؤلاء الولاة لليعاقبة على الملكانيين . وأخيرا ما تعرض له الذميون من مضايقات خلال هذا العصر (٤٠ ـ ٢٥٤ هـ) ومما تجدر الاشارة اليه ، أن وضع أهل الذمة فى العصر العباسى لم يختلف عما كان عليه في العصر الأموي كما سنرى .

عهد الخليفة يزيد بن معاوية (٦٠ ـ ٦٤ هـ = ٦٨٢ ـ ٦٨٤ م) بولاية اقليم الاسكندرية والبحيرة ومريوط ، وما يليها لأحد المسيحيين الملكانيين ، ويسمى تيودوسيوس (١٨٨) . ووقف تيودوسيوس موقفا عدائيا من القبط الأرثوذكس ، وبطركهم الأب اغاثو . وساعده في ذلك ما صار له من سلطان بفضل مرسوم الخليفة . فقد طلب من البطرك اغاثو جزية سنوية على تلاميذه مقدارها ستة وثلاثون دينار . كما كان يلزمه بكل ما يحتاجه من نفقات على الأسطول والنوتية . كما طالبه بزيادة على خراج كنائسه، وقدرها سبعة آلاف دينار (١٨٩) . وفى الحقيقة كان موقف هذا الحاكم من البطرك اغاثو يمثل انتقاما من القبط اليعاقبة وبطركهم، ورغبة في اضعاف شأنهم ، وعودة سيادة الملكانيين عليهم ، كما كان الحال في العهد البيزنطي ، وخاصة أن هذا الحاكم كان يمارس سلطات واسعة فى دائرة حكمه ، فكان يفرض ضرائب جديدة ، ويزيد مقدار الضرائب المفروضة فعلا .

ثم أمر تيودوسيوس ، أصحابه برجم البطرك اغاثو بالحجارة وقتله : فكان هذا البطرك لا يخرج من قلايته (١٩٠) ليلا ولا نهارا . ولما توفى البطرك اغاثو حجر تيودوسيوس على كل أمواله ، وعلى

جميع أموال الكنائس القبطية فى الاسكندرية وختم عليها، فانتشرت المجاعة فى المدينة واستمر الحال على ذلك حتى توفى تيودوسيوس (١٩١) .

ويشيد المؤرخون المسلمون وغير المسلمين بدور القبط الواضح فى الادارة والحكومة فى ولاية عبد العزيز بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ) الذى اتخذ له كاتبين أرثوذكسيين هما : أثناسيوس (١٩٢) وأصله من مدينة الرها ، والثانى يسمى اسحق من أهل شبرا (١٩٣) .

خدم هذان الكاتبان مصالح القبط ، ومصالح بطركهم يوحنا (١٩٤) ، وعملا على تحقيق كل آمالهم ورغباتهم بشأن الكنائس وغيرها . وكان حاكم الاسكندرية تيودوسيوس ـ كما ذكرنا ـ قد حجر على أموال الكنائس وأملاكها بعد وفاة البطرك أغاثو ، فلما أقيم يوحنا بطركا ، بعث لأثناسيوس وزميله اسحق يعلمهما بما أصاب القبط على يد حاكم الاسكندرية وما حل ببيعهم آنذاك . وتمكن هذان الكاتبان بما لهما من نفوذ وسلطان أن ينهيا هذا الحجر ، فعادت جميع أملاك وأموال الكنائس القبطية الى البطرك يوحنا (١٩٥) .

ويبدو أن أثناسيوس قد تولى ديوان الخراج فى عهد الوالى عبد العزيز بن مروان . واستمر فى اهتمامه بمصالح القبط والكنيسة القبطية طوال عهده . فلما توفى البطرك سيمون (١٩٦) (فى سنة ٦٩١ م) وأصبحت الكنيسة بدون راع لها ، طلب أثناسيوس ومن معه من الكتاب القبط من الوالى عبد العزيز بن مروان ، أن يرسل الأسقف اغريفوريس الى الاسكندرية للتحفظ على أموال الكنائس ورعاية شئونها (١٩٧) وأجاب عبد العزيز بن مروان الكتاب القبط الى طلبهم ، وأنفذ اغريفوريس الى الاسكندرية وكتب

له سجلا ، يفوضه التصرف فى أموال الكنائس ، وعهد ا
شئونها ، وقام اغريفوريس بهذه المهام نحو ثلاث سنوات

وكان أثناسيوس ينعت فى المكاتبات الرسمية بالكا
ويضم ديوانه عشرين كاتبا ، ثم زاد عددهم حتى
كاتبا (١٩٩) • وزادت ايرادات أثناسيوس وأولاده • ف
دينار عن كل جندى فى مصر ، الى جانب ما كان يحصد
أثناسيوس من الهدايا والأموال العظيمة من الوالى عبد
مروان (٢٠٠)• حتى يلغ ما يتقاضاه ستين ألف دينار سنو
وصارت كل شئون البلاد المصرية فى ولاية عبد العزيز بن
تحت تصرف كاتبه أثناسيوس (٢٠٢) • وأثرى أثناسيو
ذلك كله ثراء كبيرا ، واتسعت أملاكه • فقيل انه
أربعة آلاف عبد ، الى جانب عدد لا يحصى من الضيا
والحدائق ، ومقدار عظيم من الذهب والفضة (٢٠٣
أثناسيوس غيورا على دينه ، متحمسا لمذهبه ، فشيد
الكنائس بمصر خاصة فى الفسطاط ، ومنها كنيسة مار
وكنيسة أبى قير (٢٠٤) •

ولم يكن أثناسيوس واسحق هما الموظفان الوحيدان
الذمة فى حكومة عبد العزيز بن مروان ، اذ كان هناك
الكتاب القبط (٢٠٥) ، الى جانب بعض حكام الأقاليم
بطرس حاكم الصعيد ، الذى أسلم فى نهاية حكم عبد
مروان (٢٠٦) • وأيضا كان حاكم مريوط مسيحيا الا أنه
أتباع المذهب الملكانى (٢٠٧) • وهكذا تغلغل الذميون من
خاصه فى الأعمال الادارية والحكومية المختلفة .

ولذا فانه من العسير علينا أن نقبل ما ذهب الي
الكتاب المحدثين ، من وصفهم سياسة عبد العزيز بن مر

أهل الذمة عامة والقبط خاصة بالظلم والجور (٢٠٨) وقد رأينا كيف أشرك عبد العزيز بن مروان القبط فى ادارة البلاد ، وكيف عمل على تحقيق مطالبهم المختلفة الى جانب السماح لهم ببناء الكنائس فى مدينته الجديدة حلوان (٢٠٩) .

ومن صور التسامح العربى الاسلامى ، وتغلغل الذميين فى شئون الادارة والحكم ما نلمسه فى عصر قرة بن شريك (٩٠ - ٩٦هـ) فقد كان يتولى ديوان الاسكندرية رجل من أهل الذمة ، من المسيحيين الملكانيين ويسمى تادرس (٢١٠) . وكان هذا الحاكم على عداء شديد مع البطرك القبطى الاسكندروس (٢١١) .

وكان جباة الضرائب ، وحكام الكورات أيضا فى عصر هذا الوالى من القبط (٢١٢) . وقد عهد قرة بن شريك الى أحد القبط ويدعى يونس بجباية الخراج من الرهبان والأساقفة وكان يونس يتمتع بمكانة عظيمة لدى قرة وكبار رجال الحكومة المصرية فى ذلك العصر . وقد قال قرة بن شريك : « يجب أن تعلم أن الرهبان والأساقفة الذين فى سائر الأماكن قد ثقل عليهم الخراج . وها هنا أمر سهل منهم من هو مكثر ومنهم من لا يقدر على قوته . ونحن نعرف حال سائر النصارى فان رأيت أن توليني أمرهم واستخرج الخراجات » فولاه قرة بن شريك أمر خراج الرهبان والأساقفة وان كان الواضح من هذه الرواية أنه ولاه أمر الجزية والخراج عامة ، ويؤكد ذلك أن قرة بن شريك قد أوصى يونس أن يضاعف الجزية على غير القبط (٢١٣) وهكذا رأينا أن العرب تركوا معظم وظائف الدولة فى أيدى الذميين . على أن هذا النظام لم يكن من مميزات حكومة قرة بن شريك أو العهد الأموى ، وانما كان من مميزات النظام المالى نفسه الذى تركه البيزنطيون لخلفائهم العرب (٢١٤) .

وفى الوقت الذى نجد فيه بعض الولاة فى مصر يستخدمون الذميين فى شئون الحكم والادارة نجد بعض الخلفاء الأمويين، يعارضون هذه السياسة ، وينهون ولاتهم فى مختلف الأقاليم الاسلامية عن استخدام أهل الذمة ، والاعتماد على المسلمين بدلا منهم . ومن هؤلاء الخلفاء عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) فقد كره هذا الخليفة — كما كره الخليفة العباسى المتوكل بعد ذلك — استعمال الذميين فى الادارة وأعمال الدواوين . وتعددت روايات المؤرخين حول تفسير سياسته واتجاهاته ولكن كتبه العديدة التى وجهها الى عماله فى مختلف الأقاليم الاسلامية ، جاء فيها توصيات بعدم استخدام أهل الذمة ، واحلال المسلمين محلهم . ويجدر بنا الاشارة الى بعض هذه الكتب ومنها : « أما بعد ، فان المشركين نجس حين جعلهم الله جند الشيطان ، وجعلهم الأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فأولئك لعمرى مما تجب عليهم لعنة الله ، ولعنة اللاعنين . ان المسلمين كانوا فيما مضى ، اذا قدموا بلدة فيها أهل الشرك ، يستعينون بهم لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير ، فكانت لهم فى ذلك مدة ، فقد قضاها الله .. فلا أعلم كاتبا ولا عاملا فى شيء من عملك ، على غير دين الاسلام الا عزلت واستبدلت مكانه رجلا مسلما . فان محق أعمالهم محق أديانهم ، فان أولى بهم انزالهم منزلتهم ، التى أنزلهم الله بها من الذل والصغار ، فافعل ذلك ، واكتب الى كيف فعلت » (٢١٥) .

وهكذا أمر هذا الخليفة عماله باستخدام المسلمين ، فان لم يكن فيهم خير ، فغيرهم من الذميين أولى ألا يكون فيهم خير أيضا (٢١٦) . وكان والى مصر آنذاك حيان بن شريح ، الذى احتج لدى الخليفة بأن هذا الاجراء ، سيؤدى الى اعتناق معظم أهل الذمة فى مصر الاسلام ، مما ينتج عنه قلة الجباية ، مما يضر بموارد

الخزانة العامة (٢١٧) . وكان معظم الولاة حريصين على المحافظة على مستوى الايرادات .

وأبدى عمر بن عبد العزيز سخطه على آراء واليه ، وبعث برسول ، وأمره بضرب حيان ثلاثين سوطا . كما أرسل اليه يأمره برفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة ، وتمنى أن يسلم جميعهم على يديه « فان الله بعث محمدا داعيا ، لا جابيا » (٢١٨) .

واستجاب والى مصر لأوامر الخليفة ، فعزل الموظفين من أهل الذمة من مختلف الأعمال واستبدل بهم غيرهم من المسلمين ، كما أبعد أهل الذمة عن العمل فى المواريث ، كما نزع منهم رئاسة الكور المختلفة (٢١٩) .

وتشير الرواية القبطية الى أن عمر بن عبد العزيز كتب الى عامله بمصر « من أراد أن يقيم فى حاله وبلاده ، فيكون على دين محمد مثله ، ومن لا يريد يخرج من أعمالى ». فعزل القبط وغيرهم من الذميين من وظائفهم ، وجعل مكانهم المسلمين « ودخلت اليد على النصارى من الولاة والمتصرفين المسلمين فى كل مكان كبيرهم وصغيرهم ، غنيهم وفقيرهم » (٢٢٠) .

ولنا أن نتساءل بعد ذلك ، هل استمر الخلفاء والولاة ، بعد عصر عمر بن عبد العزيز فى انتهاج سياسة اقصاء الذميين عن المناصب الحكومية والادارية ؟

وفى الحقيقة أن الأوضاع قد عادت الى ما كانت عليه قبل خلافة عمر بن عبد العزيز واستمرت سياسة استخدام الذميين فى الادارة وأعمال الدواوين ، فكان من بينهم الكتاب ورؤساء الأقاليم

وغير ذلك من الأعمال طوال عصر الولاة الأمويين فى مصر ، بل وفى عصر الولاة العباسيين ، بتأييد من الخلفاء أنفسهم الا فى حالات نادرة كما سنرى ٠

أحسن الخليفة العباسى المأمون (١٩٧ ـ ٢١٨ هـ = ٨١٣ ـ ٨٣٣ م) معاملة أهل الذمة وخاصة القبط فى مصر ٠ فقد قدم الى مصر فى سنة ٢١٧ هـ ٠ وتقدم اليه أحد كبار رجال القبط ويسمى بكام ، وطلب من الخليفة أن يوليه كورة بورة (٢٢١) فعرض عليه المأمون اعتناق الاسلام حتى يمكن له أن يعهد اليه بهذه الولاية ٠ ولكن بكام كان متمسكا بدينه فى الوقت نفسه الذى كان فيه شديد الحرص على الولاية ، فقال للخليفة المأمون : « لأمير المؤمنين عشرة آلاف مولى مسلم ، أفلا يكون له مولى واحد نصرانى »٠ وعند ذلك عهد اليه المأمون بكورة بورة وما حولها (٢٢٢) ٠

أحسن بكام معاملة القبط ، كما أحسن معاملة المسلمين ، على حد سواء ، ولم يتحيز لاخوانه فى العقيدة المسيحية ، فكسب بذلك محبة وود سكان الكورة على اختلاف مذاهبهم الدينية (٢٢٣) ٠

وفى عهد الخليفة المأمون أيضا ، كان يلى الديوان فى مصر ، أحد القبط ويسمى اسحق بن أندونة ، ينتسب الى أسرة عريقة تشتهر بالثراء ٠ وكان قد أمل فى البطركية الا أن قانون البيعة قد حال بينه وبين تحقيق آماله (٢٢٤) ٠

وتشير بعض الروايات التاريخية الى أن المأمون حينما قدم الى مصر شكا اليه المسلمون من تسلط الذميين عليهم ، وأن الخليفة سأل أحد أصحابه ، ويسمى ، عمرو بن عبد الله الشيبانى عن أصل قبط مصر ، فأجابه بأن أصلهم يرجع الى فراعنة مصر القدماء وذكره

بأن الخليفة عمر بن الخطاب كان قد نهى عن استخدامهم فى أعمال الحكومة والكتابة . ثم قرأ عليه قصيدة لخالد بن صفوان ، مدح فيها عمرو بن العاص ، كما حرضه فيها ضد القبط وأغراه بهم ، وفيها يقول خالد بن صفوان :

ياعمرو قد ملكت يمينك مصرنا　　وبسطت فينا العدل والأقساطا

فاقتل بسيفك من تعدى طوره　　واجعل فتوح سيوفك الأقباطا

فيهم أقيم الجـــور فى جنباتها　　ورأى الأنام البغى والافراطا (٢٢٥)

فلما عاد الخليفة المأمون الى بغداد أمر بعزل جميع الذميين من وظائفهم وسجن الكثير منهم (٢٢٦) . وان كنا لا نجد فى المصادر المصرية اشارة الى نهيه استخدام الذميين فى شئون الادارة والحكم .

استمر ولاة مصر فى العصر العباسى ، يستخدمون الذميين فى أعمالهم ، ويعتمدون عليهم فى ادارة البلاد . فقد قام كل من مقـارة بن يوسف ــ وكان يتولى شـئون بيت المال واسـتخراج الأموال ــ وابراهيم بن ساويرس ، بدور عظيم فى سياسة البلاد ، وذلك فى أثناء ولاية عبد الواحد بن يحيى الوزير (٢٣٦ ــ ٢٣٨ هـ = ٨٥١ ــ ٨٥٢ م) ــ وكان هذان الموظفان من القبط ، يرفعان من شأن اخوانهم فى العقيدة ، ويحققان لبطركهم رغباته بقدر المستطاع . وظهر هذا واضحا حينما أساء والى الاسكندرية ، أحمد بن دينار ، الى البطرك اليعقوبى قزمان (٢٢٧) . فقد تقدم مقارة بن يوسف ، وابراهيم بن ساويرس الى الوالى عبد الواحد ، يطلبان منه استدعاء البطرك قزمان الى الفسطاط بحجة أنه ولى البطركية حديثا ، ولا علم له بما على كنائسه من خراج (٢٢٨) .

واستجاب عبد الواحد لطلب هذين القبطيين ، وأرسل من يستدعى البطرك من الاسكندرية • فلما قدم الى الفسطاط ، استقر الأمر على أن يسكن مدينة دميرة (٢٢٩) ، وجميع سكانها من القبط، كما اهتم هذان القبطيـان بأمور البيعة وتعهدا بضـمان الخراج المفروض عليها (٢٣٠) • وهكذا نجح الموظفان القبطيان فى انقـاذ البطرك القبطى من يد والى الاسكندرية •

وظهر فى العصر العباسى بعض الكارهين لاستخدام الذميين فى المصالح الحكومية — كما حدث فى العصر الأموى من قبل — فقد حاد الخليفة العباسى المتوكل (٢٢٣ ـ ٢٤٧ = ٨٤٨ ـ ٨٦١ م) عن سياسة التسامح التى اتبعها معظم الخلفاء العباسيين فعانى أهل الذمة فى عصره من بعض المضايقات • فقد نهى المتوكل عن استخدام أهل الذمة فى دواوين الحكومة التى ترتبط بمصـالح المسلمين (٢٣١) •

تعددت روايات المؤرخين حول سـياسة المتوكل نحو أهل الذمة ، وكتبه الى عماله بضرورة اتباعها ، واقصـاء الذميين عن مختلف الأعمال • وهناك كتاب للمتوكل فى هذا الشأن وفيه يوصى عماله فى مختلف الأقاليم الاسلامية ، بأن يكون موظفوهم من أهل الأمانة والنصح ، وهو يرى أن هذه الخصائص لا تتوافر عند أهل الذمة ، فنراه فى هذا الكتاب يقول : « فأما الأمانة ، فليس أحد منهم مأمونا على أموال الفىء وأمور المسلمين ، لأنهم عداة الدين ونعاته • وأما النصـيحة ، فغير موجودة عند من كان مقـامه بين ظهرانى المسلمين على •• قهر وذلة وصغار » (٢٣٢) •

ونهى المتوكل فى كتابه هذا ، عن استخدام الذميين فى شىء من أمور المسلمين ، وأموالهم وتدبير خراجهم ، فلا يكون منهم فى

الدواوين الخاصة والعامة فى العاصمة والنواحى ، وأعمال الجهبذة ، والمعادن والبريد وسائر الأعمال (٢٣٣) .

وفى الوقت نفسه حدد المتوكل فى كتابه ، بعض الحالات التى يمكن استخدام المسلمين لأهل الذمة فيها فكتب : « من كان متقلدا لعمل من خاص أعمال أمير المؤمنين ونفقاته ، ولا يد له ، ولا سلطان على المسلمين . فان اقراره فى ذلك العمل ، ريث ما يؤخذ بما جرى على يده ، ويجار لمكان غيره من المسلمين ثم يصرف عنه ، وخلا من استعان به مستعين فى قهرمته ، وخاصة نفقات منزله وحشمه » (٢٣٤) .

كما هدد المتوكل عماله ، اذا تهاونوا فى تنفيذ ما جاء فى هذا الكتاب ، أو حاولوا الاغضاء عن أحد من أهل الذمة ، باخفاء أمره تحت اسم غيره من المسلمين (٢٣٥) . ونرى أن كل ما كتبه المؤرخون الأقدمون عن سياسة المتوكل ازاء أهل الذمة ، كانت كتابات عامة ، ولا نجد كتابات مفصلة — الا نزرا يسيرا — عن الاجراءات التنفيذية التى اتخذت فى هذا العصر فى مختلف الأقاليم الاسلامية .

ولى الخليفة المتوكل على مصر ، رجلا فارسيا مسلما يسمى عبد المسيح بن اسحق وجعل له الولاية والخراج ، وأمره أن ينتهج سياسة نحو القبط وكنائسهم مثل سياسته نحو النصارى فى بغداد والمشرق . فأنزل عبد المسيح بالقبط كثيرا من الاضطهاد ، وأخرجهم من الديوان ومن كثير من المصالح الحكومية ، وولى مكانهم موظفين من المسلمين (٢٣٦) .

ثم أمر المتوكل واليه على مصر ، ببناء المقياس الهاشمى للنيل ، وبمنع القبط من تولى أمره ، وأن يعهد بذلك الى المسلمين (٢٣٧) . ولكن هذه السياسة التى انتهجها المتوكل ، لم تدم طويلا ، وعاد ولاة مصر الى استخدام الذميين فى أعمالهم ، وفى ادارة البلاد .

وتشير بعض أوراق البردى الى استخدام القبط بصفة خاصة فى تحصيل الجزية والخراج ، سواء أكان ذلك قبل عصر الخليفة المتوكل أم بعده • فنجد ورقة بردية ، يرجع تاريخها الى ١٣ طوبة سنة ٢٣٣ هـ (١٠ سبتمبر سنه ٨٤٧ م) جاء فيها أن القسطال (٢٣٨) لكورتى الأشمونين وأسفل انصنا وقوص ، كان قبطيا ويسمى مينا بن ابراهيم (٢٣٩) • وهناك بردية أخرى مؤرخة فى سنة ٢٤٩ هـ (٨٦٣ / ٨٦٤ م) وفيها أن القسطال كان قبطيا ويسمى ابن ابهيوه (٢٤٠) • كما تشير بعض أوراق البردى الى أن رؤساء القرى فى القرن الثانى الهجرى والثامن الميلادى ، كان كلهم من القبط تقريبا (٢٤١) •

والحقيقة أن القبط بصفة خاصة ، دون غيرهم من أهل الذمة ، كان لهم دور واضح فى ادارة البلاد المصرية ــ كما ذكرنا ــ فكان منهم الكتاب وعمال الدواوين وحكام الأقاليم وعمال ديوان الخراج • وكانوا يستفيدون دائما من مناصبهم فى خدمة أخوانهم القبط ورعاية كنائسهم ، وتوفير كل سبل الراحة لبطركهم • ونبحث فيما يلى موقف ولاة مصر المسلمين فى ذلك العصر ، من اقامة البطاركة •

كان والى مصر له حق الاشراف على اختيار بطرك القبط ، باعتبار الوالى نائب الخليفة ، ورئيس الحكومة فى مصر • ويبدو من النصوص التاريخية أن الأساقفة كانوا يستشيرون الوالى فى اختيار البطرك الجديد ، كما أنهم كانوا يقدمون من الاسكندرية الى العاصمة الاسلامية ــ الفسطاط ــ بعد اختيارهم للبطرك ، لمقابلة والى مصر ، وتقديم واجب التحية له • وكانت موافقة الوالى على البطرك الجديد ، شرطا ضروريا لاتمام رسامته بطركا .

وهناك أمثلة عديدة ، منها ، ما حدث فى ولاية عبد العزيز بن مروان ، عندما توفى البطرك يوحنا (٦٧ هـ ــ ٦٨٦ م) فقد اجتمع

الأســـاقفه والكهنة والقبط بالاسـكندريه واتفقوا فيما بينهم على ترشيح الشماس جرجه ، بطركا دون مشورة الوالى عبد العزيز بن مروان كالعادة ، وأنه اذا اعترض على ذلك ، يخبرونه بأن البطرك يوحنا كان قد أوصى به أن يكون بطركا من بعده ، وأنه لا يمكن مخالفة هذه الوصـية • وبالفعل عينوا جرجه في درجة قسيس ، والبسوه الثياب الخاصة بذلك وقرروا رسامته بطركا فى غد ذلك اليوم (٢٤٢) •

ومن محاسن الصدف ، أن اليـوم الذى تقرر تنصيب القس جرجه فيه بطركا ، لم يكن يوم أحد ، وقد جرت العادة بين القبط على أن يتـم تعيين بطاركتهم فى يوم الأحـد دون غيره من أيـام الأسبوع • وقد أدرك ذلك أرش دياقن (٢٣٤) المدينة ، ويسمى مرقص ، فمنعهم من تنفيذ رغبتهم في رسامة جرجه بطركا ، فى غير يوم الأحد ، حتى لا يخالف القوانين الكنسية التي جرت العادة بمراعاتها واتباعها (٢٤٤) • وفى ذلك اليوم قدم الى الاسكندرية رسل الوالى عبد العزيز بن مروان ، وطلبوا من الأساقفة والكهنة وبطركهم المرشـح ، الرحيـل معهـــم الى الفسطاط لمقابلة الوالى عبد العزيز ، ولكن ما لبث أن اكتشفت حقيقة الأمر ، وفطن الجميع الى أن جرجه ، ليس هو الذى أوصى به البطرك يوحنا ، ليكون خلفا له ، وانما الأب اسحق • فغضب عبد العزيز بن مروان لذلك أشد الغضب ، وأبطل تعيين جرجه ، وأمر باقامة الأب اسحق بطركا بدله (٢٤٥) •

وبعد وفاة البطرك اسحق ، حـدث خـلاف بين الأســـاقفة والكهنة والشعب القبطى على من يصـبح بطركا بعـد وفاة الأب اسحق • فرأى قوم منهم ، أحقية يوحنا ، وكان راهبا بدير الزجاج ، كما كان رجلا عالما كاتبا • فى حين اختار الآخرون الأب بقطر ، وكان

أيضا ممن اشتهروا بالفضل والعلم (٢٤٦) . ورجحت كفة الفريق الأول ، فقد كان من بينهم أعضاء الكنيسة الانجيلية التى تضم مائة وأربعين كاهنا . فكتب حاكم مدينة الاسكندرية تادرس الى والى عبد العزيز بن مروان ، يخبره باتفاق القوم على اختيار الأب يوحنا بطركا لهم (٢٤٧) . مما يسبب ضرورة موافقه والى مصر على تنصيب البطرك الجديد . وتوجه تادرس وفى صحبته البطرك المرشح وبعض الكهنة الى الفسطاط — كما جرت العادة — للقاء الوالى وتقديم الولاء والتحية له . ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، فقد اعترض أحد الأساقفة على اقامة يوحنا بطركا ، مما أصاب الجميع بذهول عظيم . فلما سأل الأمير هذا الأسقف ، عمن يصلح لهذا المنصب ، رشح الأب سيمون (٢٤٨) .

علم عبد العزيز بن مروان أن الأب سيمون هذا ، من أصل سريانى ، من أهل المشرق . فقال للأساقفة المجتمعين : « فما تقدروا انتم أن تقيموا واحدا من بلادكم » فأعلموه أنه لا يوجد أفضل من يوحنا ، وأنهم يختارونه بطركا لهم ، وأن الأمر لله وللوالى . وسأل عبد العزيز سيمون عن رأيه فى الأب يوحنا ، فأجابه : « ما يوجد فى كورة مصر ، ولا فى المشرق من يستحق مثل هذا ، وهو أبى الروحانى ، وربانى من صغرى ، وسيرته سيرة الملائكة » . وانتهى الأمر باتفاق الأساقفة والكهنة وغيرهم من الحاضرين على اقامة سيمون بطركا لهم ، ووافق الوالى عبد العزيز على رأيهم (٢٤٩) .

وكان قد حدث بعد وفاة الأب سيمون (٨٢ هـ = ٨٠١ م) أن خلا كرسى البطركية ثلاث سنوات ، وتولى شئون الكنيسة خلالها الأسقف اغريفوريس . وفى ختام هذه السنوات الثلاث ، اتفق الأساقفة والكهنة على ترشيح القس الاكسندروس بطركا ، وكان راهبا بدير الزجاج ، عالما بالكتب . وطبقا للعادة المتبعة ، قدم القوم

معه الى الوالى عبد العزيز بن مروان الذى أجابهم الى رغبتهم ، ووافق على اختيارهم ، وأقيم هذا القس بطركا فى عيد القديس مارى مرقص فى (٨٦ = ٧٠٥ م = ٤٢٠ ش) (٢٥٠) .

وتحفظ لنا النصوص التاريخية مثلا آخر ، لتدخل الولاة فى اختيار البطرك ، وضرورة موافقتهم على اقامة البطرك الجديد . فلما تولى حفص بن الوليد حكم مصر — للمرة الثانية — (١٢٥ هـ = ٧٤٣ م) — فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك — اجتمع اليه الأساقفة والكهنة من جميع أرجاء مصر ، وسألوه أن يأذن لهم فى اقامة البطرك . فأذن لهم حفص ، بترشيح من يرونه يصلح لهذا المنصب ، واشترط عليهم أن يلقاه قبل أن يتم تعيينه بطركا . ولكن حدث بين الأساقفة والكهنة ، اختلاف فى الرأى كاد يودى بالكنيسة القبطية (٢٥١) .

وانتهى الأمر ، باختيار القس خايال — ويسمى أيضا كييل — ليكون بطركا . وكان قسا فى بيعة القديس أبى مقار . وبادر المجتمعون الى حفص بن الوليد ليعلموه بما تم بينهم ، وأعطاهم كتابا ، يطلب فيه من شيوخ وكهنة وادى هبيب ، تسليم القس خايال اليهم . ثم أذن لهم باقامته بطركا بعد قدومهم به اليه (٢٥٢) .

وهكذا كان لوالى مصر حق التدخل فى اقامة البطرك الجديد طوال العصر الأموى . وذكرنا من الأمثلة ما يوضح ذلك ويؤكده . ونجد فى العصر العباسى أيضا من الأمثلة ما يؤكد استمرار هذا الحق لولاة مصر .

لما توفى البطرك يوحنا فى ولاية الليث بن الفضل على مصر (١٨٢ — ١٨٧ هـ = ٧٩٨ — ٨٠٣ م) — فى عهد الخليفة هارون

الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ = ٧٨٦ ـ ٨٠٩ م) اجتمع الأساقفة والكهنة الأرثوذكس بالاسكندرية ، واتفقوا على ترشيح القس مرقص بطركا ،وكتبوا بذلك الى الأب خايال أسقف مصر (٢٥٣) ٠

ثم قدم انبا خايال علي الوالى وفى صحبته جميع الرؤساء القبط ليخبره بما حدث ، ويلتمس منه الموافقة علي اقامة القس مرقص بطركا ٠ فأمر الوالى بكتابة اسمه فى الديوان وأذن لهم فى قسمته بطركا لهم (٢٥٤) ٠

وتذكر المصادر التاريخية ، مثلا آخر ، لدور الولاة العباسيين فى اقامة البطرك الجديد ٠ فبعد وفاة الأب سيمون الثانى (٢١٥ / ٢١٦ هـ = ٨٣٠ / ٨٣١ م) بدأ أهالى الاسكندرية يفكرون فيمن يتولى البطركية بعده ٠ وطمع فى البطركية صاحب ديوان مصر اسحق السيد بن اندونة ، وكان فاحش الثراء ، ووعد حاكم الاسكندرية عبد الله بن زيد بألف دينار ، اذ ساعده فى اقامته بطركا للقبط (٢٥٥) ٠

وكانت اقامة اسحق بطركا ، أمرا يخالف قانون الكنيسة القبطية فى ذلك الوقت لأنه كان علمانيا ، ومتزوجا ٠ فرفض الأساقفة تنصيبه ، واستقر رأيهم على ترشيح القس يوساب ـ أحد رهبان دير أبى مقار ـ وطلبوا من عبد الله بن زيد حاكم الاسكندرية الموافقة على تنصيبه بطركا ، الا أنه رفض ذلك طمعا فيما وعده به اسحاق من منحه ألف دينار (٢٥٦) ٠

وغضب الأساقفة من موقف عبد الله بن زيد منهم ، وهددوه بالرحيل الى والى مصر بالفسطاط ، ليحقق لهم رغبتهم ٠ وانتهى الأمر بموافقة والى الاسكندرية على اقامة الأب يوساب بطركا فى

٢١ هاتور سـنة ٥٤٧ ش (٢٥٧) = (٢١٦ هـ ـ ٨٣١ م) .
ونستخلص من هذه الرواية أن والى الاسكندرية كان يحل محل والى مصر فى الموافقة على اقامة البطرك وان كنا لم نلمس ذلك فى عصر الولاة الأمويين . ونستخلص أيضا أن الوالى المسلم فى هذا العصر لم يكن يشترط رؤية الشخص المرشح للبطركية قبل قسمته ، كما كان الحال فى العصر الأموى .

وبعد أن تحدثنا عن دور القبط ـ بصفة خاصة ـ فى أعمال الحكومة والادارة ، وما كان من دور ولاة مصر المسلمين فى اختيار بطركهم ، نتساءل عن موقف الولاة المسلمين من كل من المذهبين المسيحيين فى مصر ، الملكانى واليعقوبى ؟ وهل كان هؤلاء الولاة ينتصرون لليعاقبة دون الملكانيين ؟ أم كانوا يعدلون بين الفريقين ؟

كان عمرو بن العاص ـ عقب فتح مصر ـ قد كتب أمانا للبطرك اليعقوبى بنيامين فعاد الى كرسيه ، بعد أن غاب عنه ثلاث عشرة سنة . ويصف المقريزى (٢٥٨) أثر ذلك فيقول : « فغلبت اليعاقبة على كنائس مصر ، ودياراتها كلها ، وانفردوا بها ، دون الملكانيين » .

ومما لاشك فيه ان القبط اليعاقبة كانوا قد تنفسوا الصعداء بعد زوال حكم الرومان ، وقيام الحكم الاسلامى فى مصر ، نتيجة لما قاسوه من الاضطهاد والظلم فى عهد الرومان . وكان طبيعيا أن يتقرب القبط من الحاكم العربى ، حتى يقوى أمرهم على الملكانيين ، خصومهم فى المذهب ، فقد جاء الوقت لتكون فيه كفتهم هى الراجحة .

وكان أكثر سكان مصر آنذاك من القبط اليعاقبة ، وقد أحسن عمرو والمسلمون اليهم كثيرا ، وتوددوا اليهم أكثر من الملكانيين أتباع كنيسة القسطنطينية وهم أقلية قليلة ، وقد ضعف أمرهم

بزوال حكم الرومان فى مصر · وقد سار خلفاء عمرو بن العاص على نفس منوال هذه السياسة · فنرى مسلمة بن مخلد يأذن للقبط ببناء كنيســة لهم فى الفسطاط – العاصمة الاسلاميــة – كما أن عبد العزيز بن مروان لما نقل عاصمته الى حلوان ، اختار دير طمويه للاقامة فيه فترة من الوقت للاستشفاء ، ودفع لرهبان الدير عشرين ألف دينار مقابل ذلك (٢٥٩) ·

وانتصر المسلمون غالبا للقبط اليعاقبة على الملكانيين · وأخذ القبط كثيرا من الكنائس والأديرة التى كانت فى يـد خصـومهم الملكانيين · كما انتهزوا فرصة حسن علاقاتهم بالمسلمين لكى يجذبوا بعض الملكانيين الى مذهبهم (٢٦٠) · ثم حدث فى ولاية قرة بن شريك على مصر ، أن فرضت على الملكانيين جزية مضاعفــة · ذلك أن قرة بن شريك عهـد الى أحـد القبط ويسمى يونس ، بتحصيل الخراج من الرهبان والأساقفة · فلما سأل يونس ، قرة بن شريك عما يفعله بشأن المسيحيين غير اليعاقبة ، قال له قرة : « افعل بهم بناموس النصارى – أى القبط – وأضعف الجزية عليهم » (٢٦١) ·

ومع ذلك احتفظ بعض الأساقفــة الملكانيين بمذهبهم حتى وفاتهم ، دون تدخل فى حياتهم أو ايذاء · وبالرغم من أن بعض البطاركة الأرثوذكس كان يستحيل النـاس الى مذهبهم بالدهـاء والاقناع ، فان عددا من المصريين ظلوا على المذهب الملكانى (٢٦٢) وان كان ذلك لا يعنى أن كلا من الفريقين ، قد تمتع بنفس الميزات ، فقد تأرجحت الكفتان تبعا للظروف وسياسة الولاة · ولم يكن احتفاظ الأساقفة الملكانيين وبعض المصريين بمذهبهم ، يدل على أن الولاة المسلمين كانوا مناصرين للملكانيين · ويمكن أن نقول ، بصـفة عامة ان الولاة المسـلمين قد منحوا كلا من الفريقين الحرية الدينيـــة ·

كان الملكانيون فى مصر ، طوال عصر الولاة ، ليس لهم بطرك الا فى فترات محدودة بعكس ما كان عليه الحال بالنسبة للقبط اليعاقبة . ونذكر فيما يلى الفترات التى تمتع فيها بعض الملكانيين بالحرية ، وبعض النفوذ والسلطان .

استطاع تاوضوسيو ، أحد الملكانيين الخلقدونيين – فى خلافة يزيد بن معاوية – أن يستصدر من الخليفة سجلا يمنحه السلطة والحكم على الاسكندرية ومريوط وما يليهما ، بحيث لا يكون لوالى مصر ، سلطان عليه ، وقد توصل الى ذلك بعد ان أدى مبلغا عظيما من المال للخليفة يزيد . فتسلط هذا الحاكم الملكانى على القبط وبطركهم أغاتو وفرض عليه الغرامات المالية ، ثم حجر على أموال الكنيسة القبطية وأملاكها بعد وفاة البطرك أغاتو (٢٦٣) .

كما اتخذ عبد العزيز بن مروان – فى أثناء ولايته على مصر – فراشين له من الملكانيين . ولما انتقل من الفسطاط الى حلوان ، واتخذها عاصمة له ، سمح لهؤلاء الملكانيين ببناء كنيسة لهم فى هذه العاصمة الجديدة (٢٦٤) .

وتمكن الملكانيون فى خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٨ – ٩٦ هـ = ٧٠٧ – ٧١٥ م) من أن يقيموا بطركا ملكانيا لهم ، يسمى أنوسين ، وكان يعمل طبيبا . ويبدو أنه لم يبق فى منصبه طويلا فقد تمكن أحد الملكانيين ويدعى نسطاسيوس ، من أن يتولى بطركية الملكانيين فى مصر ، بعد أن دفع مبلغا عظيما من الأموال لوالى مصر قرة بن شريك . الا أنه فى نهاية الأمر ترك مذهبه الملكانى وتحول الى المذهب اليعقوبى وصار أسقفا للقبط (٢٦٥) .

كذلك نجد الخليفة هشام بن عبد الملك ، بعد أن تم الاتفاق بينه وبين الامبراطور البيزنطى (٢٦٦) ، يسمح للملكانيين فى

مصر ، باقامة بطرك لهم · وتم اختيارهم للأب قزما ، الذى أقام فى كرسى البطركية الملكانية ثمانى وعشرين سنة (٢٦٧) . وكان قزما أميا لا يعرف القراءة ، ولا الكتابة ، ويعمل فى صناعة الأبر · ولما ولى البطركية للملكانيين خرج من الاسكندرية وقصد الخليفة هشام فى دمشق ، وطلب منه ان يعيد للملكانيين الكنائس التى استولى عليها اليعقوبيون فى مصر · فعهد الى واليه بمصر عبيد الله ابن الحبحاب ، أن يسلم للبطرك قزما ، كل ما بيد اليعاقبة القبط من الكنائس الملكانية (٢٦٨) ·

ووقع خلاف بين الملكانيين واليعاقبة فى مصر ، فى خلافة مروان بن محمد (١٢٧ ـ ١٣٢ هـ = ٧٤٥ ـ ٧٥٠ م) ـ آخر الخلفاء الأمويين ـ وكان يتولى حكم مصر آنذاك عبد الملك بن مروان · وكان هذا الخلاف حول أحقية كل فريق منهما ، فى ملكية كنيسة أبى مينا بمريوط · وتولى عبد الله الفصل بينهما فى هذا الخصام ، وكان بطرك القبط فى ذلك الوقت هو الأب خايال ، فى حين كان بطرك الملكانيين الأب قزما (٢٦٩) ·

قضى كل من الفريقين ، اليعاقبة والملكانيين ، صوم الأربعين ، وهم يترددون على قصر الوالى عبد الملك ، كل يوم من الصباح الى آخر النهار ، حتى يفصل بينهم ، ويحكم بأحقية أى فريق منهما للكنيسة دون الفريق الآخر ، وانتهى الأمر بأن عهد عبد الملك الى صاحب الديوان ويسمى يسا بن يمن ، أن يحكم بين الفريقين ، ويدرس حجج كل منهما (٢٧٠) ·

أمر يسا ، صاحب الديوان ، كل فريق بكتابة حججه وآرائه فى أحقيته فى ملكية الكنيسة الا أن الملكانيين أغدقوا عليه الهدايا والأموال ، طمعا فى أن يحكم لهم يسا ، بأحقيتهم للكنيسة على حين

تقدم البطرك خايال ، بالحجج التى تبرر أحقينه للكنينسة ، وتحدث عن تاريخ بنائها ، وكان كتابه الى صاحب الديوان ، باللغتين العربية والقبطية • واستمر التحكيم بين الفريقين شهرا كاملا دون الوصول الى قرار حاسم (٢٧١) •

فلما ولى الديوان القاضى أبو الحسين وتولى التحكيم بين المتخاصمين ، نيابة عن الوالى • سأل كل فريق عن رئيسه الدينى ، وأصل عقيدته ، واطلع على الكتب التى قدموها ، لسلفه الذى كان يتولى التحكيم بينهم • ويبدو أنه أدرك عدم أحقية الملكانيين فى الكنيسة ، لأنه طلب من الفريقين ، تقديم حجج وأسانيد أخرى (٢٧٢) • وحاول الملكانيون ، وفى مقدمتهم البطرك قزما ، أن يتفقوا مع اليعاقبة ، على ما يرضى كلا من الفريقين • كما تحول بعض الملكانيين ، ومنهم قسطنطين أسقف مصر الملكانى ، الى المذهب اليعقوبى (٢٧٣) •

ثم جمع القاضى أبو الحسين ، الفريقين المتخاصمين ، وحضر الاجتماع أصحاب الدواوين والكتاب ووجوه القوم ، ليصدر القاضى حكمه النهائى فى هذا الخصام • فطلب من البطركين أن يقسم كل منهما بأحقيته فى الكنيسة • فرفض ذلك أنبا خايال ، فى حين أقسم الأب قزما • ثم سأل كليهما عن شهودهما • فأجاب الأب خايال ، أن هذه البيعة ، بنيت منذ ثلاثمائة وخمسين سنة، وأن القائمين على بنائها ، هما تاوفيلس وطيماتاوس واسمهما مكتوب على الكنيسة • فلما تأكد القاضى من صدق البطرك خايال ، وضع حدا لهذه الخصومة ، وحكم بأحقية القبط اليعاقبة فى كنيسة أبى مينا بمريوط دون الملكانيين (٢٧٤) • وهكذا انتصر اليعاقبة وتسلموا بيعتهم ، وهم فرحون ، مسرورون •

ثم كان العصر العباسى ، وفى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور (١٣٦ ــ ١٥٨ هـ = ٧٥٣ ــ ٧٧٥ م) ، أصبح بلطيان بطركا على الملكانيين . وكان طبيبــا حاذقا ، وتولى كرسى البطركية ستــنا وأربعين ســنة . وعظــم نفوذه فى عهد الخليفــة هارون الرشيد واسترد كثيرا من الكنائس الملكانية ، بأمر من الخليفة نفسه (٢٧٥) .

كان والى مصر عبيد الله بن المهدى (١٧٩ ــ ١٨٠ هـ = ٧٩٥ ــ ٧٩٦ م) قد أهدى الخليفة هارون الرشيد ، جارية مصريــة . فمرضت ، وطلب الخليفة أحد أطبــاء مصر لعلاجها ، فبعث اليه عبيد الله ، بلطيان البطرك الملكانى المعروف بمهارته فى الطب ، ونجح هذا البطرك فى علاج جارية الخليفة . فسر لذلك الرشيد ، وأعطى بلطيان كثيرا من الأموال والهدايا ، كما كتب له منشورا ، يحــق له بمقتضــاه ، اســترداد الكنائس الملكانيــة من أيدى اليعاقبــة (٢٧٦) .

ولما توفى البطرك الملكانى بلطيان ، أقيم مكانه الأب أسطات ، بطركا للملكانيين فى مصر . ثم خلفه ، خرسطوفور ، الذى تولى منصبه ، اثنتين وثلاثين سنة (٢٧٧) .

ولنا أن نتساءل بعد ذلك ، هل كان الذميون يعيشون فى أمن وسلام ، طوال عصر الولاة ؟ وللاجابة على هذا التساؤل نقول انهم تعرضوا ، أحيانا لبعض المضايقات فى عهد بعض الولاة الأمويين أو الولاة العباسيين .

ويرى بعض الكتاب المحدثين أن الشروط التى اشترطها عمر ابن الخطاب ، فى العهد الذى منحه لأهل الذمة ، كانت نــواة هذه المضايقات ، وأساسا اعتمد عليه بعض الخلفاء والولاة فى التشديد

على الذميين ، والتضييق عليهم . فالخليفة عمر بن الخطاب ، هو أول من وضعهم فى مرتبة أدنى من مرتبة المسلمين فأمر أن تختم رقاب أهل الذمة بالرصاص ، ويظهروا مناطقهم ، ويجزوا نواصيهم ، ويركبوا على الأكف عرضا ، مما أدى أحيانا الى تعرض أهل الذمة الى بعض المضايقات (٢٧٨) .

والحقيقة أن عمر بن الخطاب قد اشترط على أهل الذمة بعض الشروط ، التى تتضمن تحديد شكل الملابس . وطريقة الركوب ، فقد اشترط عليهم لبس الزنار ، ونهاهم عن التشبه بالمسلمين فى ثيابهم ، وسروجهم ، ونعالهم ، وأن تكون قلانسهم مضربة ، ومنع نساءهم من ركوب الرحائل (٢٧٩) . ولكننا نرى أن الخليفة أراد بذلك سهولة التمييز بين أهل الذمة والمسلمين فيكون لكل من الفريقين زى خاص ، كما أراد تشجيع أهل الذمة على اعتناق الاسلام . كما أن قرارات عمر بن الخطاب هى فى الحقيقة تتناول مسائل شكلية ، فى حين أطلق عمر الحرية الدينية لأهل الذمة ، وأمر بحمايتهم ، والتخفيف عنهم .

ويمكن القول أيضا أن هذه الشروط لم تكن أساسا لما تعرض له الذميون من مضايقات فى جميع الأحوال . بل كانت هناك بعض الظروف والأحداث العرضية التى قد تسبب سوء التفاهم ، بين بعض الولاة والذميين . فقد كانت العادة المتبعة فى ذلك العصر ، أن يخرج البطرك لتهنئة الوالى الجديد ، كما جرى العرف أن يخرج البطرك لاستقبال الوالى اذا قدم الى مدينة الاسكندرية . واذا أهمل البطرك القيام بهذه الواجبات ، بدأت السعايات ، للايقاع بين الوالى والبطرك ، وينعكس ســـوء العلاقات بين الرجلين على ســـائر أهل الذمة .

وهناك أمثلة كثيرة على هذه الأحداث العرضية ، نذكر منها : ما حدث فى ولاية عبد العزيز بن مروان ، حينما قدم الى الاسكندرية ، ولم يخرج البطرك يوحنا لاستقباله والسلام عليه : وعند ذلك سعى به قوم من الملكانيين ، وأوغروا صدر عبد العزيز ، اذ زعموا له أن البطرك لم يخرج للقائه ، لتكبره ، وجبروته ، ولاتساع ثرائه (٢٨٠) ٠

وغضب عبد العزيز على البطرك أشد الغضب ، واستدعاه ، وعنفه ، وفرض عليه غرامة مالية قدرها مائة ألف دينار ٠ وعهد به الى رجل يدعى « سمد » ويشتهر بالقسوة حتى يعذبه ، حتى الموت ليرغمه على أداء الاموال للوالى ٠ وهدد سمد البطرك يوحنا ، اذا لم يدفع المبلغ المطلوب منه ، بأنه يلبسه ملابس يهودى ، ويلطخ وجهه بالرماد ، ويطوف به أنحاء المدينة ٠ وانتهى الأمر بقبول البطرك يوحنا دفع مبلغ عشرة آلاف دينار (٢٨١) ٠

علم الكتاب والمتصرفون القبط بالاسكندرية ، بأن الغرامة المالية المفروضة على البطرك يوحنا قد خفضت الى عشرة آلاف دينار ،فأبدوا سرورهم ، وطمأنوا البطرك بأن الأساقفة وكتاب الدواوين سيتحملون سدادها ، وتعهدوا للوالى عبد العزيز بن مروان بذلك ، فأطلق سراح البطرك يوحنا ، وعم الفرح والسرور قلوب القبط الأرثوذكس (٢٨٢) ٠

صار للبطرك يوحنا منذ ذلك الحين ، مكانة عظيمة عند والى مصر عبد العزيز بن مروان ، الذى أمر « أن لا يخاطب أحد البطرك ، الا بالخطاب الحسن ، ولا يذكر فيه كلمة سوء ، ولا يعترضه أحد فيما يريده ، ولا فى خروج ولا فى دخول فى المدينة » ٠ وأدى البطرك بمساعدة الكتاب والرؤساء القبط ، المبلغ المطلوب منه ، كما ساعده

عبد العزيز ، فى بناء كثير من الكنائس ، وبناء طاحون كعك ، ومعصرة زيت ، ودور كثيرة جعلها لبيعة القديس مرقص (٢٨٣) ·

تعرض القبط وبطركهم مرة أخرى في ولاية عبد العزيز بن مروان ، لبعض الأذى والضيق فقد كانت كنيستا الحبشة والنوبة تابعتين للكنيسة القبطية بالاسكندرية ، فلما وقع سوء التفاهم بين ملكى البلدين ، رأى البطرك القبطى اسحق ، أن يكتب اليهما ليزيل ما بينهما من سوء تفاهم · فسعى قوم بالبطرك لدى عبد العزيز ، فاشتد غضبه ، وأمر باحضار البطرك ليقتله حتى يحول بينه وبين الاتفاق مع ملكى دولتين أجنبيتين ، مما يضر بمصالح مصر (٢٨٤) ·

وبادر الكتاب القبط ، بتحرير كتب أخرى ، غير التى كتبها البطرك ، وأعطوها للرسل المبعوثين الى ملكى الحبشة والنوبة ، واستردوا الكتب الأولى التى كتبها البطرك ثم أخبروا الأمير عبد العزيز ، بأنهم استدعوا رسل البطرك واستردوا منهم الكتب التى كانوا يحملونها الى ملكى الحبشة والنوبة ، وقرأ عبد العزيز الكتب ، فلم يجد فيها شيئا يضر مصالح البلاد ، فهدأت ثورته وأطلق سراح البطرك (٢٨٥) ·

وتذكر الرواية القبطية أن الوالى عبد العزيز بن مروان ، قد أساء ــ آنذاك ــ الى القبط وبطركهم، اذ أمر بكسر جميع الصلبان فى كور مصر ، سواء أكانت من الذهب أم الفضة كما كتب عدة رقاع ، جعلها على أبواب كنائس مصر جميعها ، وفيها : « محمد الرسول الكبير الذى لله وعيسى أيضا رسول الله ، وان الله لم يلد ولم يولد » (٢٨٦) ·

وكان الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، يلى كثيرا من أمور مصر فى ولاية أبيه . وكان يحوذ طاعة الجميع . الا أنه كان مبغضا أشد البغض للقبط ، ينزل بهم كل أذى ممكن . وقد احتضن شماسا يسمى بنيامين ، وكان يظهر للأصبغ جميع أسرار القبط ، كما ترجم له الانجيل وكتب القيامة وغيرها من الكتب الدينية الخاصة بالقبط الى اللغة العربية . وكان الأصبغ يحرص أشد الحرص على قراءتها ، ليقف على ما جاء فيها عن الاسلام والمسلمين . واستمر الأصبغ على موقفه العدائى من القبط (٢٨٧) .

وجد الملكانيون المخالفون للعقيدة الارثوذكسية الفرصة سانحة أمامهم للايقاع بخصومهم فقدموا كل مساعدة ممكنة للأصبغ للايقاع بالقبط ، وحرضوه على رهبانهم ، وذهبوا الى أنهم يمتلكون أموالا وأملاكا كثيرة . فأمر الأصبغ باحصاء الرهبان فى جميع أنحاء البلاد المصرية ، وفرض عليهم الجزية لأول مرة فى مصر الاسلامية ، ومنع الأديرة من قبول رهبان جدد . كما ألزم الأساقفة فى مختلف الأقاليم بدفع ألفى دينار ، زيادة عن خراج وساياهم . وساعد الأصبغ فى تنفيذ سياسته نحو القبط ، الراهب بنيامين الذى كان أكثر عداء للقبط من الأصبغ . وأمام هذه الشدائد اضطر كثير من القبط ، الى ترك دينهم المسيحى واعتناق الاسلام (٢٨٨) .

وتعرض القبط أيضا لبعض المضايقات فى ولاية عبد الله بن عبد الملك الذى ولى مصر بعد عبد العزيز بن مروان (٨٦ ـ ٩٠ هـ = ٧٠٥ ـ ٧٠٩ م) فقد انتهج هذا الوالى سياسة اضطهاد القبط ، ولجأ أحيانا الى وسائل التعذيب ، والى القتل أحيانا أخرى (٢٨٩) . وتصف بتشر (٢٩٠) فترة حكم هذا الوالى ، بأنها فترة شؤم ، عانى القبط منها ، فى حين كانوا ينتظرون منه العدل والانصاف ، ولكنه خيب ظنهم .

جرت العادة - كما ذكرنا - على أن يخرج البطرك من الاسكندرية ، الى الفسطاط ، المسلام على الوالى الجديد وتهنئته • فلما ولى عبد الله ولاية مصر ، خرج اليه البطرك الاكسندروس لتهنئته بامارة مصر والسلام عليه . ففرض عبد الله على البطرك غرامة مالية قدرها ثلاثة آلاف دينار ، وسلمه لأحد حجابه ، وأمره باهانته والتضييق عليه ، حتى يسدد هذه الغرامة (٢٩١) • وحاول القبط تخفيض مقدار هذه الغرامة ، ولكن دون جدوى • وانتشر القلق بين عامة القبط والرهبان والأساقفة ، حتى اضطر أحد الشمامسة أن يطلب من الوالى عبد الله ، أن يسلمه البطرك ، ليتجول به فى مدن الوجه البحرى لجمع المبلغ المطلوب من القبط ورؤسائهم فى هذه البلاد واستجاب الوالى لطلب الشماس وانتهى الأمر ، بأن سدد البطرك الغرامة المالية (٢٩٢) •

وكان عبد الله يأمر أعوانه ، بأن يجمعوا له الأساقفة والرهبان، فيسخر منهم ، ويسمعهم ما لا يحبون . وكان يقول لهم : « أنتم عندى مثل الرومان ، ومن قتل منكم واحدا ، غفر الله له ، لأنكم أعداء الله » (٢٩٣) •

وبعد عبد الله ، تولى حكم مصر ، من هو أشد منه قسوة ، فقاسى القبط فى عهده كثيرا من الشدائد ، وهو الوالى قرة بن شريك (٩٠ - ٩٦ هـ = ٧٠٩ - ٧١٥ م) الذى أساء معاملة أصحاب عبد الله ، والقبط ، والمسلمين ، على حد سواء • وسجن كثيرا منهم ، كما ضيق على البيع والرهبان (٢٩٤) •

حدث عندما قدم قرة بن شريك الى مصر ، أن خرج البطرك الاكسندروس - كما جرت العادة - للسلام عليه وتهنئته • ولكن قرة بن شريك ألزمه بدفع غرامة مالية قدرها ثلاثة آلاف دينار ،

كما دفع من قبل لسلفه عبد الله . وأصر قرة على طلبه ، على الرغم من أن البطرك أكد له ، أنه لا يمتلك منهـا شيئا ، بل انه لا يقدر على أداء خراج الكنائس ، وأنه انمـا جمع المبلغ الذى دفعه لسلفه من عامة القبط وغيرهـم (٢٩٥) .

اضطر البطرك أمام اصرار والى مصر على دفع الغرامة التى حددها ، الى التجول ثانية فى مدن وقرى الصعيد ، ليجمع من القبط ما يقدرون على دفعه اليه . وقد رحب به شعب الصعيد ترحيبا كبيرا ، لأنه البطرك الوحيد الذى زار الصعيد منذ عهد بنيامين وتمكن البطرك من دفع ألف دينار لقرة بن شريك ، بعد سنتين ، لحقه فيها كثير من الضيق (٢٩٦) .

ولم تنته المضـايقات التى سـببها والى مصر قرة بن شريك للبطرك القبطى الاكسندروس عند هذا الحد . اذ ما لبث أن أوقع بعض المغرضين بالبطرك ، فقد أبلغوا قرة بن شريك بأن لدى هذا البطرك من يضربون له الدنانير . فقبض قرة على البطرك وأغلق البطركية ، وعاقب البطرك وأصحابه أشد عقوبة . ولما ثبت بطلان هذه السعاية وكذبها، أطلق سراحهم، وأمر بفتح البطركية (٢٩٧) .

ثم حدث بعد ذلك ، أن ثار كهنـة الاسـكندرية وقبطها على البطرك ، وألزموه بدفع رسوم مالية لهم ، الا أنه لم يكن لديه الأموال الكافية للاستجابة لطلبهم ، فأساءوا اليه وأهانوه ، وحاول البطرك الدفاع عن نفسه ، فقال لهم ، ان أموال الكنائس قد نهبها الوالى قرة بن شريك ، حتى انهم أصبحوا فى القداس يستخدمون كاسات من الزجاج بدلا من الكاسات الذهبية والفضية (٢٩٨) .

وكان الوالى أسـامة بن زيـد (٩٦ ـ ٩٩ هـ = ٧١٥ ـ ٧١٨ م) أشد قسوة ممن سبقه من ولاة مصر فى العصر الأموى ،

كما كان أبغضهم للقبط خاصة . فقد أمر بعدم ترهب أى راهب جديد، وأحصى الرهبان فى مصر ، وأمر أن يوسم كل واحد منهم بحلقة حديدية ، توضع فى يده اليسرى ، وعليها اسم بيعته وديره ، وألا ينقش الصليب على هذه الحلقة وأن يكون التاريخ المسجل على الحلقة هو التاريخ الهجرى (سنة ٩٦ هـ) وعاقب الوالى الرهبان الذين خالفوا هذه الأوامر ، عقابا شديدا ، وصل الى حد القتل أحيانا (٢٩٩) .

وكان أسامة بن زيد ، مثله مثل بعض الولاة ، حريصا على جمع المال بأية وسيلة فأمر عماله بالاستيلاء على بعض الممتلكات . وكان يقول لعماله : « سلمت لكم أنفس الناس ، فاحملوا القماش والمال والبهائم ، وكل ما تجدونه لهم ، ولا تراعوا أحدا ، وأى موضع نزلتموه ، فانهبوه » (٣٠٠) .

وطلب أسامة من الرهبان ألف دينار ، وأغلق أبواب البيع . كما طلب من رؤسائهم دينارا عن كل واحد منهم ، وعذبهم فى سبيل أداء ذلك . وهددهم بهدم جميع الكنائس والأديرة فى مصر . وانتهت هذه المظالم بنهاية عهد أسامة ، فقد توفى الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك ، وولى الخلافة عمر بن عبد العزيز الذى عزل أسامة عن حكم مصر (٣٠١) (فى سنة ٩٩ هـ = ٧١٨ م) .

ورغم ما نعرفه من تسامح وعدل عمر بن عبد العزيز ، فان أهل الذمة عامة ، والقبط منهم خاصة ، تعرضوا فى عهده لبعض المضايقات . فقد نهى عن استخدامهم فى الادارة وأعمال الحكومة — كما ذكرنا آنفا — وكتب الى ولاته ، أن من أراد أن يستمر فى الاقامة فى الأمصار الاسلامية ، فعليه اعتناق الاسلام (٣٠٢) . كما شدد عليهم فى الملبس والركوب ، مما سنفصل الحديث عنه فى الباب التالى .

وأبدى ساويرس حيرته ، من أوامر عمر بن عبد العزيز ، فهو يأمر دائما ولاته بالعدل والرحمة والتسامح ، وقام بكثير من الاصلاحات التى عادت بالفائدة على المسلمين والذميين ورفع الخراج عن الكنيسة والأساقفة • ولكن الخليفة فى الوقت نفسه يدعو أهل الذمة الى اعتناق الاسلام ، ويشجع على اعتناقه برفع الجزية عمن أسلم من الذميين • وعليه يشبهه ساويرس بالدجال ، ويقول : ذلك لأنه يصنع خيرا كثيرا أمام الناس ويفعل السوء أمام الله (٣٠٣) •

ثم ولى الخلافة يزيد بن عبد الملك بعد وفاة عمر بن عبد العزيز (١٠١ ـ ١٠٥ هـ = ٧١٩ ـ ٧٢٣ م) وكان شديد العداء للذميين ، وخاصة القبط ، الذين عانوا الكثير من الشدائد فى عهده • وأمر يزيد (فى سنة ١٠٤ هـ) بكسر الصلبان ، وازالة الصور من البيع فى مختلف أرجاء الدولة الاسلامية (٣٠٤) •

أما الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٦ هـ = ٧٢٣ ـ ٧٤٤ م) فقد أبدى عطفه ، وبسط رعايته على القبط الأرثوذكس فى مصر • وكان يحرص على أن يراعى فى معاملتهم شروط العهد الذى منحها عمرو بن العاص للقبط بعد الفتح العربى • وولى الخليفة عبيد الله بن الحبحاب على خراج مصر ، وأوصاه بالقبط وغيرهم من المصريين (٣٠٥) • ولكن هذا الوالى ، لم ينفذ أوامر الخليفة ووصاياه • فحينما قدم عبيد الله الى مصر ، أوقع الظلم على القبط وغيرهم من أهل الذمة فى مصر • وأمر بوسم جميع القبط على أيديهم ، بعلامة صورة الأسد ، وقطع يد من لم ينفذ هذا الأمر • الا أن البطرك الاكسندروس امتنع عن ذلك ، وأصر على الخروج الى الفسطاط لمقابلة والى مصر ، لعله يعفيه من الوسم • ولكن عبيد الله أصر على ضرورة وسمه أسوة بجميع قبط مصر • وأصر البطرك على موقفه ، ولم ينقذه من تنفيذ الأمر سوى وفاته (٣٠٦) •

وألزم هذا الوالى أنبا صمول أسقف وسيم (٣٠٧) ، بدفع ألف دينار غرامة لبيت المال الا أنه كان فقيرا ، ولا يصل الى قوت يومه • والتمس من الوالى اعفاءه من الغرامة ، فأمر الوالى الشرطة بالقبض عليه ، وسلمته الشرطة لنفر من البربر ، ألحقوا به صنوفا مختلفة من العذاب ، حتى جمع له القبط ، ثلاثمائة دينار ، قدمها للوالى ، فأفرج عنه ، بعد أن أوشك على الموت (٣٠٨) •

والحقيقة التاريخية ، أن المسلمين نالوا من مظالم هذا الوالى الأموى ، ما ناله القبط أيضا وكان عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج (١٠٥ ـ ١١٦ هـ) يتبع سياسة ظالمة نحو أهالى مصر على اختلاف أديانهم • وتقدم بعض المسلمين ، بشكواهم الى الخليفة هشام بن عبد الملك الذى بادر بعزله عن خراج مصر ، وجعل مكانه ابنه القاسم عبيد الله، الذى كان أكثر ظلما وقسوة من أبيه (٣٠٩) •

وتعرض القبط والبطرك أنبا خايال أيضا فى ولاية حفص ابن الوليد ، لكثير من المضايقات ورأى بعض القبط الأرثوذكس الخلاص منها ، اما بالهجرة من القطر المصرى أو باعتناق الاسلام • وبلغ عدد من من اعتنق الاسلام منهم ، أربعة وعشرين ألف قبطى • وأبدى البطرك ألمه وأسفه لهذه الأحداث • ولكن هذه المضايقات ، انتهت بنهاية ولاية حفص بن الوليد (٣١٠) •

نعمت مصر ، بعد ذلك ، بالهدوء والأمن فى ولاية حسان بن عتاهية (سنة ١٢٧ هـ ـ ٧٤٥ م) الذى بسط رعايته وحمايته على البيع والأساقفة والرهبان • وكان دائما على علاقة طيبة مع البطرك أنبا خايال • وقد انتهج من جاء بعده من الولاة هذه السياسة نفسها ، حتى اذا ولى حكم مصر عبد الملك بن مروان فى (سنة ١٣٢ هـ ـ ٧٥١ م) ـ فى عهد الخليفة مروان بن محمد آخر

الخلفاء الأمويين - عانى القبط من كثير من المضايقـــات ، ذلك أن عبد الملك كان شديد الكراهية للقبط . وتفرغ عبد الملك لجمع أكبر قدر من الذهب والفضة وغيرهما ، ليبعثها الى الخليفة (٣١١) .

واعتقـل عبد الملك البطرك ، وبعض الأسـاقفة ، وأسـاء معاملتهم ، كما اعتقل أيضا ثلاثمائة رجل وامرأة ، وألقاهم جميعا فى السجن (٣١٢) . وبعـد عدة أيام ، استدعى عبد الملك اليـه البطرك ، وطلب منه دفع خراج البيع ، وشدد فى التضييق عليه ، فطلب البطرك من الوالى اطلاق سبيله ، ليتجول فى مدن وقرى الصـعيد ، ليجمع الأموال المطلوبة منـه ، فكان ذلك . ثم أطلق عبد الملك سراح البطرك بعـد أن قدم له الأموال التى جمعها من القبط (٣١٣) .

وحدث أن اعتقل عبد الملك البطرك مرة ثانيـــة ، مما أثار غضب ملك النوبة كرياكوس وجهز فرقة من الجند ، ليتقدم بها الى مصر ، لقتـال عبـد الملك ، وليرغمه على أن يطلق سراح البطرك ، مما أثار مخاوف عبد الملك ، فأطلق سراح البطرك ، وعهد اليـه بتحسين العلاقة بينه وبين ملك النوبة (٣١٤) .

تعرض القبط أيضا لبعض المضايقات ، فى أثناء الصراع بين الأمويين والعباسـيين . فلما فر مروان بن محمد - آخر الخلفـاء الأمويين - الى مصر ، عاث جنده فى البلاد فسادا ، ونهبوا رؤساء القبط ، وسبوا النساء والأطفال ، واستولوا على الأموال . كما هرب كثير من القسس والرهبان خوفا من بطش مروان وجنده (٣١٥) .

واعتقـل مروان البطرك اليعقوبى أنبـا خـايال ، والبطرك الملكانى قزما . ودفع قزما مبلغا من المال ، فأطلق مروان سراحه ،

في حين بقي أنبا خايال في معتقله يقاسي العذاب ، وتردد مروان في قتله . ثم قال : « ما فائدتنا في قتل هذا الشيخ ، وقد كان منع البشامرة عن قتالنا ، وكتب اليهم فما قبلوا منه . لكن نحمله معنا الى رشيد ، ونجعله أيضا يكتب لهم ، ويقول : ان كل ما حل به لاجلكم » (٣١٦) .

ولما وصل جيش أبي مسلم الخراساني الى مصر ، هرب جند مروان الى الصعيد . وهناك قتلوا كثيرا من القبط ، ونهبوا أموالهم ، وسبوا نساءهم وأطفالهم ، وأحرقوا الديارات بمن فيها من الرهبان والراهبات (٣١٧) . ويشير بعض المؤرخين الى أن جند مروان كانت تترك مدن الصعيد ، فتقتل كثيرا من أهلها ، وتهدم ما بها من الكنائس (٣١٨) .

وفي الحقيقة تعرض القبط جميعا وبطركهم أنبا خايال ، خلال تواجد مروان بن محمد في مصر ، لشدائد عظيمة ، فقد أراد مروان قتل البطرك عدة مرات ، ولكنه كان في كل مرة يتراجع عن قتله وقد انتقل مروان وبعض جنده الى الجيزة عندما وصل الجيش العباسي ، ومروا في أثناء ذلك على دير راهبات ، فأسروهن جميعا (٣١٩) .

ولما تغلب العباسيون على الخليفة مروان بن محمد في مصر ، وقامت الخلافة العباسية ، أطلق العباسيون سراح البطرك ، ومن معه من المعتقلين . وقد أحسن الجند العباسيون للقبط وبطركهم ، وطلبوا من كل قبطي أن يعلق صليبا من الذهب أو الفضة أو النحاس على جبهته وعلى ثوبه بل وعلى باب بيته ، حتى يمكن التعرف عليهم دون غيرهم من المصريين ، لتوفير الحماية لهم (٣٢٠) . ومع ذلك ما لبث أن ضوعفت الجزية والخراج على المصريين . فلما تقدم

البطرك بالشكوى ، قيل له : ان هذا أمر من الخليفة لأنه علم أن أهل مصر اذا وجدوا راحة سنة واحدة ، نافقوا وحاربوا ، كما حارب البشامرة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين (٣٢١) .

والواقع ، أنه كما تعرض أهل الذمة ـ وخاصة القبط ـ لبعض المضايقات فى فترات معينة طوال العصر الأموى ، تعرضوا أيضا لبعض الشدائد فى عهد الخلافة العباسية فى بعض الفترات . نذكر منها ، فترة النزاع بين الأمين والمأمون على الخلافة ، بعد وفاة أبيهما هارون الرشيد (١٩٣ هـ ـ ٨٠٩ م) وما صاحب ذلك من تنافس بين الزعماء على الرئاسة ومناطق النفوذ فى مصر وانقسمت البلاد المصرية بين الزعماء المتنافسين ، فصار لعبد العزيز الجروى شرقى الدلتا ، فى حين ساد نفوذ السرى بن الحكم من مصر الى أسوان . أما قبيلتا لخم وجذام ، فقد سيطرتا على غربى مصر ، والاسكندرية ومريوط والبحيرة وأعمالها ، وضيقتا على أهالى الاسكندرية (٣٢٢) .

وخلال هذه الاضطرابات نزلت جماعة من الأندلسيين فى مدينة الاسكندرية ، وجاءوا بأعداد ضخمة من الرقيق والسبى ، وكانوا يبيعونهم فى أسواق الاسكندرية ، واشترى منهم البطرك اليعقوبى مرقص ، حوالى ستة آلاف ، من بينهم رهبان وقسس وشمامسة ونساء وأطفال ، وقد أعتقهم البطرك مرقص ، وجعل لهم حرية البقاء فى مصر أو الخروج الى بلادهم فاذا اختاروا مغادرة البلاد ، كان يدفع لهم نفقات الرحيل حتى يبلغوا بلادهم (٣٢٣) . ويبدو أن الأندلسيين ، كانوا يطردون سكان الاسكندرية من ديارهم ، سواء من القبط أو اليهود ـ ويسكنون فيها (٣٢٤) .

طمع الأندلسيون فى السيطرة على مدينة الاسكندرية . فحاربوا قبيلتى لخم وجذام وقتل فى أثناء ذلك كثير من أهالى

الاسكندرية ، سواء من القبط أو اليهود أو المسلمين . كما أحرقت معظم أحياء المدينة ، وكثير من الكنائس . وعاث الأندلسيون فى المدينة نهبا وسلبا وقتلا وتخريبا ، مما اضطر البطرك مرقص الى مغادرة الاسكندرية . وقضى خمس سنوات فى ضيق وعذاب (٣٢٥) . وتمكن أحد رؤساء القبط ويسمى مقارة بن ثابت النبراوى ـ من أهل سمنود ـ من الحصول ، من عبد العزيز الجروى على تصريح ، يسمح فيه للبطرك ، بالقدوم الى مقارة فى أبى ويشلام (٣٢٦) . وبالرغم من ذلك واصل البطرك اهتمامه ببيع الإسكندرية ، وببيعة أبى مينا بمريوط (٣٢٧) .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد تعرض الرهبان فى برية شيهات (٣٢٨) ، لكثير من الأذى والارهاب ، من العرب القاطنين فى الصحراء . وقد أسر هؤلاء العرب ، الرهبان وهدموا البيع والقلالى ، فى حين تمكن بعض الرهبان والقسس من الفرار من وجه هؤلاء العرب ، وتشتتوا فى كل موضع من البلاد المصرية (٣٢٩) .

ويصف أحد المؤرخين هذه الشدائد التى تعرض لها القبط فى مصر عقب وفاة هارون الرشيد اذ اختلف أولاده ، وقامت الخوارج وتغلبوا على الاسكندرية ـ يقصد بالخوارج الأندلسيين ـ وقتلوا الكثير ، ونهبوا البلاد ، وخرج البطرك مرقص من المدينة ، وبقى غائبا عنها خمس سنوات وثار المغاربة ، وأحرقوا الديارات بوادى هبيب ، ونهبوها ، ولم يبق بها من الرهبان الا نفر قليل (٣٣٠) .

وتعرض القبط وبطركهم الأب يوساب ، أيضا لبعض الشدائد فى خلافة المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ = ٨٣٧ ـ ٨٤٢ م) عندما دفع أحد القبط الطامعين فى أسقفية وسيم ، ويسمى تادرس ، مبلغا كبيرا من المال ، ليأمر البطرك يوساب ، بتعيينه أسقفا ، الا أن البطرك رفض ذلك ، مما أثار حنق الوالى وغضبه . فهدد البطرك بهدم كل كنائس مصر ، وبدأ بهدم كنائس الفسطاط (٣٣١) .

وألزم هذا الوالى أيضا البطرك بدفع غرامة مالية قدرها ، ثلاثة آلاف دينار ، حتى يوقف عملية التخريب والهدم فأقلق ذلك القبط ، الا أنهم ـ وخاصة الكتاب والرؤساء منهم ـ طمأنوا البطرك، ووعدوا الوالى بسداد المبلغ ، مما خفف من حدة غضبه (٣٣٢) ٠

تآمر أسقف مصرينة مع القاضى محمد بن عبد الله ضد البطرك يوساب ، للحط من شأنه واضعاف أمره ٠ وكان يساعدهما فى ذلك بعض الأساقفة المغرضين ٠ فكان القاضى يستدعى البطرك ـ وهؤلاء القوم مجتمعون عنده ـ ويسمعه كلاما مهينا ، الا أن البطرك يوساب ، كان يجيب على كلامه فى قوة وشجاعة ، ويستشهد فى حديثه بعبارات من الكتـــاب المقدس (٣٣٣) . كما أظهر البطرك يوساب ، للقاضى وأعوانه ســـجلات من الخلفاء بتأييد حقه فى البطركية ، وتنصيبه بطركا للقبط فى مصر ، السجل الذى منحه اياه الخليفة هارون الرشيد ، ثم السجل الذى منحه اياه الخليفة المأمون عندما قدم الى مصر ، والسجل الآخر كان من الخليفة المعتصم أخى الخليفة هارون الرشيد ، ثم السجل الذى منحه اياه الخليفة المأمون الواقع ، وصرف البطرك مكرما ، معززا (٣٣٤) ٠

وكان هذا القاضى ، يأخذ غلمان البطرك يوساب ، القادمين اليه ، كهدايا من أفريقية والحبشة والنوبة ، ويضطرهم الى اعتناق الاسلام ، وترك خدمة البطرك يوساب وكنيسته وكان يعاونه فى ذلك بعض الأساقفة ، وخاصة أسقف مصرينه (٣٣٥) .

وكانت أشد الفترات قسوة بالنسبة لأهل الذمة ، فى العصر العباسى ، هو عصر المتوكل على الله ، الذى ضـــيق على الذميـــين جميعـــا ـــ المسيحيين على اختـــلاف مذاهبهم واليهود ـــ وظهر هذا واضحا فى تحديد أشكال الملبس والمسكن ، ومنع الخليفة إستخدام

أهل الذمة فى الوظائف ، كما منعهم من بناء الكنائس ، وأمر بهدم المستحدث منها (٣٣٦) ٠

وكان والى مصر آنذاك — عبد المسيح بن اسحق — يمقت أهل الذمة من القبط واليهود مقتا شديدا ، الا أنه « بدأ بالنصارى ، وأنزل عليهم بلايا ، وأذلهم جدا ، بأحزان شتى » ٠ فأمر بمحو علامة الصليب ، وكسر الموجود منه ، وألزمهم بأداء الصلاة والطقوس الدينية بصوت خفى ٠ كما منعهم من الصلاة على أمواتهم ، ومن ضرب الناقوس ٠ وحرم النبيذ فى جميع أنحاء مصر ، فصار القبط يبلون عيدان النرجون بالماء ، ويعصرونها ، ويجعلونها محل النبيذ فى القربان وعمل القداس (٣٣٧) ٠

أنزل هذا الوالى ، كل ظلم ممكن بأهل الذمة ، فأبعدهم عن أعمال الحكومة والدواوين واضطرهم الى صنع ثيابهم ، حتى لا يتشبهوا بالمسلمين ٠ وأمرهم بأن يضعوا على أبواب دورهم صورا مفزعة تمثل الشياطين ، كما منعهم من ركوب الخيل ، ولذا رأى كثير منهم اعتناق الإسلام (٣٣٨) ٠

وما لبث أن عزل الخليفة المتوكل ، هذا الوالى ، وجعل ابنه مكانه ، ولكنه انتهج سياسة أبيه فى معاملة أهل الذمة ، بالقسوة والارهاب (٣٣٩) ٠ وسخر القبط فى اصلاح مراكب الأسطول : مقابل اطعامهم ، وبدون أجر (٣٤٠) ٠

كما أمر هذا الوالى باحصاء عام للمدن والقرى : وفرض على كل ضيعة ، تقديم عدد من الرجال للعمل فى الأسطول ٠ وكان على القبط أن يشتروا من أموالهم ، الأدوات والعدة اللازمة لذلك ، ومن خالف هذه الأوامر ، فرضت عليه غرامة مالية ٠ وكان الوالى يجند

أحيانا لهذا العمل الضعفاء الذين ليس لهم قدرة على السير، ولا يعرفون صنعة البحر، فيضطر هؤلاء بدورهم أن ينيبوا عنهم من يقوم بذلك بدلهم، نظير دفع مبلغ من المال لهم. وضج القبط من هذه الأوامر، مما اضطر الوالى الى أن يأمر بصرف دينارين لكل قبطى من الذين يعملون فى الأسطول (٣٤١).

وفى الحقيقة أن الخليفة المتوكل - فى أواخر عصره - رأى أن يعدل عن سياسة الاجحاف بالقبط، وغيرهم من أهل الذمة، بعد أن أدرك مدى ما تعرض له الذميون فى مصر من الظلم والقسوة وما لحق بهم من الشدائد فى عصره. فعهد بولاية مصر الى يزيد ابن عبد الله (٢٤٢ - ٢٥٣ هـ = ٨٥٦ - ٨٦٧ م) وقد أحسن هذا الوالى الجديد معاملة القبط، وغيرهم من سكان مصر، وعم الرخاء، وهدأت النفوس، ونشطت التجارة، وعاد الى مصر من تركها من القبط أثناء الاضطهاد والشدة (٣٤٢).

ولما ولى المنتصر بن المتوكل الخلافة (سنة ٢٤٧ هـ - ٨٦١ م) جعل على خراج مصر أحمد بن مدبر، الذى اشتهر بالقسوة والشدة، وحبه لجمع المال، فأحزن ذلك الأب شنوده بطرك القبط (٣٤٣). ولما قدم ابن مدبر الى مصر، وضع يده على أموال المسلمين، والقبط، واليهود، وضاعف عليهم الجزية والخراج. وأمر باحصاء الرهبان فى جميع ارجاء مصر، وألزمهم بدفع الجزية والخراج (٣٤٤).

وقرر ابن مدبر أن يصحب معه البطرك شنودة الى وادى هبيب، ليضمن له ما على أديرته من جزية وخراج، وطبق ابن مدبر هذه القرارات أيضا على باقى أديرة وبيع مصر كلها ورأى الأب شنودة، الهرب نجاة بنفسه من هذه المضايقات، كما هرب كثير من الأساقفة (٣٤٥).

أنفذ ابن مدبر نوابا عنه ، الى مختلف الأقاليم المصرية ، فسلبوا من الأديرة والكنائس ما بها من الآلات والأدوات الخاصة بالقداس ، وألزموا القومة (٣٤٦) بدفع ديارية الأساقفة وحملوا كل ذلك الى الديوان . كما أمر ابن مدبر باغلاق جميع الكنائس في مصر الا كنيسة واحدة ، ليقدموا فيها القربان (٣٤٧) وأنزل نواب ابن مدبر ، المظالم بالأساقفة والرهبان ، وكانوا يحملونهم مقيدين بالحديد الى مصر ، حتى يؤدوا ما عليهم للديوان ، واستمر البطرك مختفيا نحو ستة أشهر ، في حين كان شعبه القبطي في أشد حالات الحزن والألم ، لما أنزله ابن مدبر ونوابه بهم جميعا (٣٤٨) .

ورأى البطرك شنودة أن يعاود الظهور من مكمنه ، ويسلم نفسه لابن مدبر . فكتب يلتمس منه الأمان ، فوعده ابن مدبر بذلك ، اذا قدم قبل أن يقبض عليه أحد عماله ، أما اذا قبض عليه قبل أن يسلم نفسه ، فان ابن مدبر سينزل به وبالكنائس والأساقفة أشد أنواع العذاب (٣٤٩) . فسلم البطرك شنودة نفسه لابن مدبر ، الذى ما لبث أن طالبه بما عليه من خراج بلغ سبعة آلاف دينار . وقد تعاون جميع الأساقفة بمصر مع البطرك في تسديدها « وكانت كورة مصر في ضيق عظيم ، وافتقر الأساقفة والرهبان ، وكل واحد ، من أجل الغرامات التى رتبها هذا الانسان المخوف ، أكثر من جميع من تقدمه » (٣٥٠) .

بعد وفاة الخليفة المنتصر ، وقع نزاع بين المتنافسين على الخلافة (المستعين والمعتز) واستمر هذا النزاع ثلاث سنوات (حتى سنة ٢٥٢ هـ = ٨٦٦ م) وانتهى بتولية المعتز الخلافة . وفى أثناء هذا النزاع ، كسدت التجارة بين مصر والمشرق ، واستمر ابن مدبر عامل الخراج في مصر ، في تشدده على أهل الذمة وغيرهم في مصر (٣٥١) .

وعاث العرب ، القاطنون فى الجبال والبرارى فى أرض مصر ، فسادا ونهبا ، وخاصة فى الصعيد ، ونهبوا كثيرا من الأديرة ، وقتلوا من بها من الرهبــان والراهبات . عند ذلك قرر الكاتبان القبطيان ابراهيم وساويرس البيفر الى بغداد ، العاصمة العباسية ، وتقديم شكواهم الى الخليفة المعتز ، ورحب الخليفة بمقدمهما ، وكتب لهما سجلا ، يسمح للقبط باعادة بناء الكنائس فى مصر ، وضمان سلامتها . وثبت السجل فى الديوان ، الا أنه توفى قبل أن يوقع عليه (٣٥٢) . فلما ولى المستعين الخلافــة ، وعلم بهذا السجل ، بادر الى توقيعه . وزاد عليه بأن قرر أن يحتفظ القبط بما فى أيديهم دون تعرض لهم ، وأن يعاد اليهم جميع ما نهب منهم من أموال وآنية وأرض وغير ذلك مما كان بأيديهم (٣٥٣) .

ابتهج البطرك شنودة والقبط فى مصر ، وقاموا باعادة بناء الكنائس فى كل مكان من أسوان الى الفرما وعم الفرح والسرور فى البلاد (٣٥٤) . ولكن ما لبث أن انقلب ابتهاجهــم الى حزن ، فقد ثار بعض المسلمين فى الاسكندرية ، وانضم اليهم العربان ، وعاثوا فى البلاد نهبا وســلبا ، وأحرقوا الأديرة بمن فيها ، ثم حاصروا الاسكندرية ، ومنعوا وصول المؤن والمياه اليها . فساءت أحوال السكان داخل المدينة ، وحرمت الكنائس من اقامة القربان ، لعدم توفر الغلة والخمر « فأواس البيع قد ملكها هؤلاء القوم ، ونهبت مخازنها وأموالها وتقووا بها على محاصرة الاسكندرية » (٣٥٥) .

حزن البطرك شنودة لذلك أشد الحزن ، واستقر به المقام فى مدينة المحلة الكبرى وكان يدفع للتجار الأموال ، ليشتروا بها تجاراتهم ، فاذا دخلوا مدينة الاســكندرية سلموا هذه الأموال للمسئول عن الكنائس بها ــ ويسمى الأقنوم ــ لينفق منهــا على البيــع وبهذه الوسيلة اســتقامت أحوال كنائس الاســكندرية .

واستمر العربان ومن معهم ، ينهبون الاديرة والقلالى ، والرهبان صابرون على ما حل بهم من ضيق وشدة (٣٥٦) .

فلما ولى مصر مزاحم بن خاقان (٢٥٣ ــ ٢٥٤ هـ = ٨٦٧ ــ ٨٦٨ م) ، صحب معه الى مصر قوما من الأتراك الأقوياء ، وأعد العدة لقتال القوم الثائرين بمدينة الاسكندرية وحاربهم فى البر والبحر ، حتى تمكن من اخماد ثورتهم والقضـــاء عليهم ، واسترداد ما نهبوه من المتاع والأموال ، فأمنت مصر من شرهم ، وعاد اليها الأمن والهدوء (٣٥٧) .

ونستخلص من دراستنا هذه ، لدور أهل الذمة فى الحياة السياسية فى عصر الولاة (٢٠ ــ ٢٥٤ هـ = ٢٤٠ ــ ٨٦٨ م) ، أن القبط بصفة خاصة كان لهم دور لا يستهان به ، فقد قاموا بنصيب كبير فى ادارة شئون البلاد وحكمها . كما كانوا دائما يحرصون على كسب رضا حكام مصر المسلمين ، الذين كانت موافقتهم ضرورية على تعيين البطاركة الجدد كما كانوا يحرصون على أن نسود العلاقات الطيبة بين ولاة مصر المسلمين وبين بطاركتهـم القبط . على حين تلاحظ أن اليهود لم يكن لهم شأن فى سياسة البلاد فى ذلك العصر ، ولم تشر المصادر التاريخية الى ذلك من قريب أو بعيد .

ويمكننا القول بصفة عامة ان القبط واليهود وغيرهم من أهل الذمة ، قد تمتعوا بحرياتهم الدينية والاجتماعية فى ذلك العصر ، اللــهم الا بعض الفترات المحـــدودة التى تعرضـوا فيها لبعض المضايقات ، وخاصـــة القبط وبطركهم . ونلاحظ أن انقــلاب ولاة مصر ضد القبط وبطركهم أحيـانا ، كان يحدث فى الغالب نتيجة سعاية بعضهم ببعض والوشـــاية بهم لدى الولاة . وان كنا نلمس فى الوقت نفسه أن الموظفين القبط كانوا يحرصون أشد الحرص

على رعاية شئون اخوانهم القبط ، وتوفير الأمن لبطركهم ، والعمل على تحقيق رغباتهم جميعا . وكان لهؤلاء الموظفين - فى الغالب - مكانة كبيرة لدى ولاة مصر المسلمين . واستمر القبط خاصة دون غيرهم من أهل الذمة ، يلعبون دورا كبيرا فى الحياة السياسية حتى فى عصر الدول المستقلة ، وهذا ما نقوم ببحثه فى الفصول التالية والتي تتضمن دور أهـــل الذمة فى عهد الدولتين الطولونية والاخشيدية ثم موقف الخلفاء الفاطميين من أهل الذمة .

٣ - أهل الذمة فى عصر الدولتين الطولونيـة والاخشيدية

شهد مطلع العصر العباسى الثانى ، ازدياد نفوذ الأتراك ، واستئثارهم بالمناصب الكبرى ، وأصبح يلى الحكم فى مصر ، غالبا ولاة من الأتراك . واعتاد معظم هؤلاء الولاة البقـاء فى العاصمة العباسية ، للتمتع بمباهج الحياة فى هذه العاصمة ، وأنابوا عنهم من يثقون فيهم لحكم مصر (٣٥٨) . وبهذه الوسيلة قدم أحمد بن طولون (٣٥٩) الى مصر ، فقد أناب عن الواليين التركيين باكباك ويارجوخ (٣٦٠) فى حكم مصر . ولمس ابن طولون ضعف الدولة العباسية ، ووقوع خلفائها تحت سيطرة الأتراك وعجز السلطة المركزية عن السيطرة على ولايات الدولة ، ولذا رأى أن يحكم مصر حكما ذاتيا مستقلا ، وعمل على انشـاء دولة طولونية ، يتوارث أبناؤه الحكم فيهـا ، مع الاعتراف بتبعية رسـمية شـكلية للدولة العباسية وبذلك دخلت مصر فى دور تاريخى جديد متميز ، وهو عهد الدول المستقلة ، وانتهى بذلك عصر الولاة . كما دخل أهل الذمة فى دور آخر له خصائصه واتجاهاته . فقد كان عصر ابن طولون تحولا رئيسيا فى حياة أهل الذمة فى مصر .

كانت أعمال مصر عند دخول أحمد بن طولون ــ نيابة عن باكباك التركى (٢٥٤ هـ ــ ٨٦٨ م) ــ مقسمة بين عدة أشخاص ٠ فكان يلى مدينة الاسكندرية اسحاق بن دينار ، ويتولى القضاء بكار ابن قتيبة ، ويقوم بشئون الخراج أحمد بن مدبر (٣٦١) ٠ وكان توزيع السلطات على هذا النحو يحول بين استئثار أحدهم بحكم مصر أو الطمع فى الاستقلال عن الدولة العباسية ٠ ولذلك لم يكن الطريق ممهدا أمام أحمد بن طولون ، الذى كان يعمل على انشاء دولة مستقلة فى مصر ، فقد كان عليه الخلاص من منافسيه ، وتركيز السلطات المختلفة فى يده ٠ وكان أشد المنافسين خطورة على أطماعه وآماله ، عامل الخراج ابن مدبر ، الذى عانى المصريون ، وخاصة أهل الذمة ، فى عهده من الضرائب الباهظة التى فرضها عليهم ، كما أساء ابن مدبر معاملة الرهبان والأساقفة ، والبطرك القبطى ، مما أثار مشاعر المصريين جميعا ضده ٠

ولى مصر بعد باكباك ، يارجوخ صهر أحمد بن طولون ، فأبقى أحمد بن طولون نائبا عنه فى حكم مصر ، وكتب اليه « تسلم من نفسك لنفسك » (٣٦٢) وما لبث أن زاد سلطان أحمد بن طولون واتسعت دائرة نفوذه . فقد أرسل الخليفة المعتمد اليه كتابا « بأن يتسلم جميع كورة مصر ، وأن يكون جميع الولاة من تحت يده » (٣٦٣) ٠ فتولى حكم مدينة الاسكندرية بدلا من واليها اسحاق ابن دينار وكان ذلك يخالف ما جرت به العادة ، فقد كان للاسكندرية دائما واليها الخاص بها ، المستقل بحكمها عن والى مصر ، ولم يكن أحدهما يتدخل فى شئون الآخر ٠ وكان استئثار أحمد بن طولون بحكم الاسكندرية فى سنة ٢٥٧ هـ (٣٦٤) ٠

ثم بعث الخليفة المعتمد يطلب الخراج من ابن طولون ، ويستحثه فى جمع الأموال فكتب اليه ابن طولون : « لست أطيق

ذلك ، والخراج بيد غيرى » ، عند ذلك قلد الخليفة أحمد بن طولون خراج مصر (٣٦٥) • وهكذا صار أمر البلاد المصرية كلها بيد أحمد ابن طولون ، فقويت شوكته وعظم أمره بديار مصر •

نعم أهل الذمة فى عصر الدولة الطولونية بالهدوء والاستقرار ، فتحسنت أحوالهم ، وباشروا طقوسهم الدينية فى حرية تامة • وأحسن الأمراء الطولونيون معاملة أهل الذمة وخاصة القبط منهم • وكان أحمد بن طولون لا يتوانى عن الدفاع عن حقوقهم والاقتصاص لهم من عماله وقواده ، وهو ما فعله الخليفة عمر بن الخطاب مع واليه على مصر عمرو بن العاص حين اقتص منه لأحد القبط فى مصر •

ويشير البلوى (٣٦٦) الى رواية نستدل منها على معاملة ابن طولون لأهل الذمة وخاصة القبط ، فقد روى أن ابن طولون بعث أحد قواده ، الى بعض جهات الريف لاصلاح أحوالها • فلما انتهى القائد من مهمته ، وشى بعض القبط من الضيعة براهب ، وأرادوا الانتقام منه ، وأخبروا القائد بأن الراهب ، عثر على كنز عظيم • فاستدعى القائد هذا الراهب ، وطلب منه خمسمائة دينار • وتقدم الراهب بشكواه الى دار الامارة ، فاستدعى ابن طولون القائد واعتقله ، كما استدعى الراهب ، وأحسن لقاءه وأرضاه •

ومما تجدر الاشارة اليه ، أن المصادر التاريخية القديمة ، لم تذكر شيئا عن تاريخ اليهود فى مصر ، ودورهم فى الحياة السياسية فى هذا العصر ، كما كان شأنهم فى عصر الولاة • ويبدو أن اليهود كانوا مسالمين ، منصرفين الى شئونهم الخاصة ، ويباشرون أعمالهم فى هدوء وسلام ولا شأن لهم بأمور السياسة والحكم ، ولا علاقة لهم أيضا بالحكام •

يقول موريس فارجون (٣٦٧) **Maurice Fargon** انه بالرغم من قلة الوثائق التي وصلتنا عن هذا العصر ، فان الجالية اليهودية في مصر ، كانت على جانب عظيم من الأهمية . وكان أكثرية اليهود يمتازون بالثراء ، ومن بينهم أكبر رجال الأعمال ، وان كنا نجهل دور اليهود في الادارة في هذا العصر . ومما يدل على ثراء اليهود في هذا العصر ، أنه حينما ألزم أحمد بن طولون بطرك القبط أنبا خايال ، بدفع غرامة مالية قدرها عشرون ألف دينار ، اضطر الى بيع بعض أملاك الكنائس القبطية في مصر ، فاشترى اليهود أوقاف بعض الكنائس وأرض الحبش ، ظاهر الفسطاط ، كما اشتروا كنيسة بجوار الكنيسة المعلقة بقصر الشمع (٣٦٨) ٠

وفي الحقيقة تمتع اليهود في ذلك العصر بالحرية الدينية والاجتماعية والاقتصادية فباشروا طقوسهم الدينية في أمن وهدوء، واستمروا في مزاولة المهن المختلفة واقتناء الضياع والاشتغال بالتجارة وخاصة تجارة العملة ، كما اشتغلوا بالعلوم والطب (٣٦٩) ٠

هذا في حين قام القبط بدور لا يستهان به ، في ادارة البلاد ، وهو الدور نفسه الذي قاموا به أيضا في عصر الولاة ، فكان منهم عمال الخراج ، وكتاب الدواوين ، بل شاركوا في أعمال الشرطة والمحافظة على الأمن والنظام في البلاد ٠ وتشير أوراق البردى الى أسماء كثير من القبط الذين كانوا يقومون بجباية الخراج ، وجمع الضرائب الأخرى ٠ فنجدهم يشغلون وظيفتي القسطال والجهبذ (٣٧٠) ٠ ونجد من بين هذه الأوراق البردية ، ما يتضمن ايصالا خاصا بدفع الخراج ، ومؤرخ في ٣٠ طوبة ٠ سنة ٢٦٦ هـ ــ ٢٥ يناير ٨٧٥ م ٠ ويدل على أن القسطال كان قبطيا ويسمى بقام ابن بقطر (٣٧١) ٠ وهناك بردية أخرى تتضمن ايصالا يرجع

تاريخه الى سنة ٢٧٨ هـ ـ ٨٩١ م • يشير الى أن عامل الخراج كان قبطيا ويدعى بلوتة بن أبى قرا (٣٧٢) • وهناك بردية ثالثة مؤرخة فى سنة ٢٨٧ هـ ـ ٩٠٠ م • وفيها اسم الجهبذين من القبط هما : (بهيوه بن ماعة ، والثانى منيا بن شنودة) (٣٧٣) •

ومن بين القبط اتخذ أحمد بن طولون ووزراؤه بعض الكتاب • فكان لابن طولون كاتبان قبطيان ، هما يوحنا وابراهيم ابنا موسى ـ ويسميهم ساويرس أيضا بسوس وابرام كما كان لوزير ابن طولون أحمد بن المادرانى ، كاتب قبطى يسمى يوحنا ـ أو يوانس (٣٧٤) •

وكان هؤلاء الكتاب يعملون على رعاية مصالح اخوانهم من القبط ، وحماية بطركهم فلما تعرض البطرك انبا خايال لتضييق أحمد بن طولون ، حينما فرض عليه غرامة مالية كبيرة حاول هؤلاء الكتاب مساعدة بطركهم، وبذلوا قصارى جهدهم فى انقاذه واخراجه من الحبس واستعان هؤلاء الكتاب بالوزير ابن المادرانى ، الذى تمكن من اقناع ابن طولون ، باطلاق سراح البطرك فى مقابل أدائه عشرين ألف دينار (٣٧٥) •

وكان ابن طولون ، أيضا ، يتخذ بعض مواليه من القبط • ومن هؤلاء أندونة الذى نسبت اليه قرية أندونة (٣٧٦) • وكان ابن طولون قد فصله من عمله وفرض عليه غرامة مالية قدرها خمسون ألف دينار (٣٧٧) • ومما لاشك فيه أن أندونة هذا شخص غير الراهب أندونة الذى كان يأنس اليه أحمد بن طولون فى دير القصير ، ويلتمس منه النصح والارشاد •

كان أحمد بن طولون يتردد كثيرا على رهبان دير القصير ، الذين قالوا عنه : « كان كثيرا ما يطرقنا الأمير أحمد بن طولون ،

ويخلو فى بعض قلالينا يفكر • وكان يأنس براهب منا ، يقال له أندونة » (٣٧٨) كما ظفر أحد القبط ويسمى ابن أبى ذؤيب بنفوذ عظيم فى عهد أحمد بن طولون • فكان من بين حجاب القصر ، وكثيرا ما سعى بالكتاب ، والعاملين بالدولة • وكان يلازم ابن طولون كظله فكان يأكل معه ويجالسه وينادمه • وكان ابن طولون يطمئن اليه ، ويستشيره فى كثير من الأمور (٣٧٩) •

- كما ان أحمد بن طولون كان يعتمد على المهندسين القبط فى البناء والتعمير • فعهد الى أحد القبط ويسمى سعيد بن كاتب الفرغانى فى بناء عين ماء له • وبعد الفراغ من بناء العين رأى سعيد ابن كاتب الفرغانى ، أن موضع العين يحتاج الى قصرية جير وأربع طوبات ، فعملها ولسوء حظ هذا القبطى ، أن فرس ابن طولون عثر به عند هذا الموضع مما جعل ابن طولون يشك أن ذلك المكروه أراده القبطى له • فبدلا من مكافأته ، قبض عليه ، وأمر بجلده وحبسه (٣٨٠) •

ولما أراد أحمد بن طولون بناء جامع يحمل اسمه ، قدر له أن هذا الجامع يحتاج الى ثلاثمائة عمود (٣٨١) • فأشار عليه بعض أصحابه ، بأن يأخذ ما يلزمه من الأعمدة من أعمدة الكنائس بالضياع والقرى • ولكنه رفض هذا العرض ، وحجته فى ذلك ، أن هذه الأعمدة نجسة، وأنه يريد أن يكون بناء الجامع من المال الحلال(٣٨٢) • فلما علم سعيد بن كاتب الفرغانى وهو فى سجنه بذلك أرسل الى ابن طولون يخبره ، بأنه يستطيع أن يقيم له الجامع الذى يريده ، بدون أعمدة الا عمودى القبلة (٣٨٣) ، مما يغنيه عن أخذ أعمدة الكنائس ، ولعله أراد بذلك ارضاء الأمير ابن طولون من ناحية ، والا تمتد يد التخريب والتدمير الى كنائس القبط بأخذ أعمدتها من ناحية أخرى •

فأخرج أحمد بن طولون المهندس القبطى من سجنه ، وطلب منه توضيح ما ذكره فرسم له صورة للمسجد ، أعجبت الأمير ، فأذن له بالبناء ، وجعل تحت تصرفه مائة ألف دينار للانفاق منها على بناء الجامع · وقد أحسن القبطى البناء ، وأحكم الصنعة ، وخرج الجامع فى أجمل وأحسن صورة ممكنة · ولما تمم المهندس القبطى البناء ، خشى غدر ابن طولون له ـ كما فعل به بعد فراغه من بناء عين الماء ـ ولكن ابن طولون أمنه ، وكافأه ، وأمر بصرف عشرة آلاف دينار له ، وخلع عليه ، كما أجرى عليه رزقا واسعا (٣٨٤) ·

ويبدو أن بعض الأمراء الطولونيين كانوا يتخذون وزراء لهم من القبط ، فيذكر أحد المؤرخين ، أن خمارويه بن أحمد بن طولون ، كان له وزير قبطى ، وأن بنان الحمال بن محمد بن حمدان اضطر هذا الوزير الى النزول عن دابته ، وقال له : « لا تركب الخيل ، ويلزمك ما هو مأخوذ عليكم فى ملتكم » · فلما علم بذلك خمارويه غضب أشد الغضب ، وأمر بمعاقبة هذا الحمال ، لاهانته لوزيره القبطى (٣٨٥) ·

كما كان خمارويه ، يعتمد على بعض القبط فى المحافظة على الأمن والنظام فى بعض البلاد المصرية ، وفى الدفاع عن حدود بلاده · وتشير الرواية القبطية الى أن أسقف طما ويسمى أنبا بخوم ، كان له حوالى ثلاثمائة غلام ، وكان يعتمد عليهم فى حفظ الأمن فى بلاده ، كما أتقن الكثير منهم الرمى بالنشاب · وكان أنبا بخوم يتمتع بمكانة عظيمة لدى الأمير خمارويه ، كما أحب هذا الأمير ، غلمان الأسقف ، وقربهم اليه · كما اعتمد عليهم فى حفظ الأمن والنظام ، وفى تفقد أحوال تلك البلاد ، وحراسة حدود البلاد الغربية ، لأنه كان يخشى الفاطميين فى المغرب ، وكان لهذا الأسقف وغلمانه من ينقل اليهم أخبارهم ، ثم يخبرون بها الأمير خمارويه (٣٨٦) ·

وقد لمسنا في أثنـاء دراستنا لدور أهل الذمة في الحياة السياسية في هذا العصر ان الأمراء الطولونيين ، كانوا يقربون اليهم القبط اليعاقبة ، ويعتمدون عليهم في شئون الادارة وأعمال الحكومة دون خصومهم في المذهب الديني - أي الملكانيين - بل حدث في بعض الأحيان أنهم كانوا يمكنون القبط من الملكانيين :

نذكر من الأمثلة على ذلك أن الأمير خمارويه ، كان يقرب اليه أنبا بخوم أسقف طما ، وأنه طلب منه ألا يخفى عنه شيئا من أخبار البلاد • وقد انتهز الأسـقف أنبا بخوم هذه الفرصـة ، للايقاع بالملكانيين وبطركهم • فحمل كثيرا من الأموال والهدايا الى خمارويه ، وأقام عنده بضعة أيام • وأخبره بأن الملكانيين في الاسكندرية قد أقاموا بطركا لهم ، وأن هذا البطرك عين للرومان في بلادنا • فكتب خمارويه سجلا ، الى عامل الاسـكندرية ، وأمره فيه بتنفيذ كل ما يشير اليه الأسقف أنبا بخوم •

وقد سر لذلك أنبا بخوم ، وأمر بالقبض على بطرك الملكانيين وقطع الأصابع التي يصلب بها من يده اليمنى • كما أهانه وأهان من وجده عنده من الأساقفة الملكانيين (٣٨٧) •

وهكذا نجح القبـــط واليهود وغيرهم من أهل الذمة في أن يعيشوا في هـدوء وسـلام في عهد الأمراء الطولونيين ، وتمتعوا بقسط وافر من الحرية • ولا تتحدث المصادر التاريخية عن أي مضايقات ، أو عسف ، تعرض لها أهـل الذمة في ذلك العصر • اللهم الا ما أشارت اليه الرواية القبطية من فرض أحمد بن طولون غرامة مالية على بطرك القبط أنبا خايال ، وقد كان ذلك نتيجة لسعاية بعض القبط بالبطرك •

فقد حنق أسقف سخا على البطرك أنبا خايال ، فأوقع به عند ابن طولون ، وأغراه به ، وأخبر الأمير أحمد بن طولون ، أن البطرك يمتلك أموالا لا تعد ولا تحصى (٣٨٨) — وكان ابن طولون فى أشد الحاجة الى الأموال فى ذلك الوقت ، لأنه كان يعد العدة للقتال فى بلاد الشام — فاستدعى ابن طولون البطرك أنبا خايال ، وطلب منه مساعدته فى هذه الظروف العصيبة ، واعطاءه ما عنده من الأموال ليجهز بها الجيوش ، فيحظى البطرك بذلك ، برضاء الأمير ابن طولون ، ورضاء الخليفة أيضا عنه (٣٨٩) .

وأعلم البطرك ابن طولون ، أنه لا يمتلك ذهبا ولا فضة ، مما أغضب ابن طولون ، وجعله يندم على اكرامه للبطرك ، وحسن معاملته اياه ، وقال عند ذلك للبطرك : ان كل من هو على دين مخالف للاسلام « اذا أكرم ، لا يعرف الاكرام » وأمر بحبسه عقابا له على رفضه تقديم الأموال للأمير (٣٩٠) .

ولعل هذا الحدث ، هو الذى جعل بعض الكتاب المحدثين ، يذهبون الى أن أحمد بن طولون ، كان يعتبر بطرك القبط خصمه ، وانه عدو له ، يخشى بطشه . ولذلك فكر فى عدة وسائل يتبعها لأخذ أموال القبط ، وأنه بالرغم من عدم فرضه ضرائب جديدة الا أنه ألزم البطرك أنبا خايال بدفع غرامة مالية كبيرة (٣٩١) .

ورأى الكتاب القبط فى دار الامارة ، وفى دار الوزارة أن يستعينوا بالوزير لكى يتوسط لهم لدى أحمد بن طولون ، حتى يطلق سراح البطرك أنبا خايال (٣٩٢) . وقد أبدى الوزير شعورا طيبا نحو الكتاب ووعدهم بمساعدتهم ، فى الافراج عن البطرك . ومضى الوزير كعادته الى أحمد بن طولون وبعد أن أخبره بأحوال البلاد ، حدثه بشأن البطرك ، والتمس منه اطلاق سراحه ، مقابل

فرض غرامة مالية عليه • فوافق ابن طولون على التماسه ، بعد أن كان مصرا على قتل البطرك • واتفق على أن تدفع الغرامة ، وقدرها عشرون ألف دينار ، على قسطين ، القسط الأول بعد شهر والقسط الثانى بعد أربعة أشهر (٣٩٣) • وهكذا كان الكتاب والموظفون القبط ، بما لهم من مكانة لدى حكام ووزراء مصر من المسلمين ، يعملون جاهدين على توفير الراحة لاخوانهم من القبط وبطركهم وتوفير الأمن والطمأنينة لهم ، ونلمس ذلك واضحا طوال تاريخ مصر الاسلامية •

كان الضامن للبطرك عند ابن طولون ، الكاتب يوحنا وابنه مقار ، وتعهدا للأمير بدفع المبلغ المطلوب من البطرك فى الميعاد المحدد • ثم صحبا البطرك الى كنيسة السيدة العذراء بقصر الشمع حيث أقام البطرك أنبا خايال • ولم يكن البطرك يملك شيئا يدفع منه ما فرض عليه من غرامة • ولذلك فكر فى أن تكون اقامة الأساقفة الجدد مقابل أداء مبلغ معين من المال ، وبهذه الوسيلة يتمكن من تسديد ما عليه من أموال فى الوقت المحدد (٣٩٤) •

وتمكن البطرك من جمع القسط الأول من الأساقفة الجدد ، الى جانب ما دفعه الكاتب يوحنا وابنه مقار • كما اقترض من الوزير ألف دينار ، واقترض أيضا من المسلمين مبالغ عظيمة وحمل يوحنا وابنه ما جمعه الى ابن طولون ، وأخبراه بطريقة جمع هذه الأموال ، وكتب ابن طولون ، ايصالا جديدا ، وقع عليه أربعة من الكتاب القبط والأساقفة ، وضمان تسديد المبلغ الباقى بعد أربعة أشهر من تاريخ تسديد القسط الأول (٣٩٥) •

وظل البطرك فى ضيق شديد ، فقد كان يدرك عجزه عن سداد باقى الغرامة المفروضة عليه . وهداه تفكيره الى التجول فى

بعض مدن الوجه البحرى ، لجمع الصدقات من القبط ، وحتى يتسنى له جمع بقية الغرامة (٣٩٦) • وفى الوقت نفسه حدث أن خرج أحمد بن طولون الى دمشق ، وبعد بضعة أيام لازمه المرض ، مما اضطره الى العودة الى مصر ، حيث توفى بعد أيام من عودته • وولى حكم مصر بعده ابنه خمارويه الذى أعفى البطرك أنبا خايال من باقى الغرامة المالية ومزق الايصال الخاص بها • فلما علم البطرك بذلك هدأت نفسه وبدأ يراعى شئون الكنيسة (٣٩٧) •

وفى الواقع ، قد أحسن خمارويه معاملة أهل الذمة جميعا ، وخاصة القبط ، وكان يراعى أحوالهم، وخاصة الأساقفة والرهبان• ولم تشر المصادر التاريخية الى أنه أقدم على اساءة أحد منهم ، أو تعرض لكنائسهم وأديرتهم بسوء (٣٩٨) • وبعد وفاة هذا الأمير الطولونى لم يذكر المؤرخون لنا شيئا عن دور القبط واليهود فى تاريخ مصر السياسى • وفى سنة ٢٩٢ هـ ، تمكن قواد الخليفة العباسى ، المكتفى ، من القضاء على آخر الأمراء الطولونيين فى مصر ، وحملوهم أسرى الى بغداد (٣٩٩) •

وهكذا سقطت الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ ـ ٩٠٥ م • بعد أن حكمت مصر حوالى ثمان وثلاثين سنة • وتعرضت البلاد بعد ذلك لاضطرابات شديدة ، اذ تنافس الولاة العباسيون وعمال الخراج على الانفراد بالسلطة والنفوذ فى مصر • فمنذ زوال حكم الأمراء الطولونيين حتى ولاية محمد بن طغج الاخشيد سنة ٣٢٣ هـ ـ ٩٣٥ م ، توالى على حكم مصر ، ما يقرب من أربعة عشر واليا • كما تعرضت البلاد للخطر الخارجى ، اذ حاول الفاطميون غزو مصر ، بعد أن أسسوا دولتهم فى شمال أفريقية سنة ٢٩٦ هـ (٤٠٠) •

أما عن دور أهل الذمة فى هذه الفترة الانتقالية بين سقوط الدولة الطولونية وقيام الدولة الاخشيدية ، فلم يكن واضحا ، ولم

نلمس فى كتابات المؤرخين القدماء ، ما يشير الى هذا الدور صراحة ويبدو أنهم ـ أى أهل الذمة ـ كانوا بعيدين عن المنازعات بين المتنافسين ، ولعل قصر فترة حكم الوالى ، وتعاقب عزله وتعيينه ، شغلت المؤرخين عن الحديث عن دور أهل الذمة فى الحياة السياسية آنذاك ، اللهم الا بعض الاشارات القليلة .

فبعد أن تغلب محمد بن على الخلنجى على عيسى النوشرى ، واستأثر بولاية مصر فى سنة ٢٢٩ هـ ـ ٩٠٥ م ، تقرب الى القبط خاصة ، دون غيرهم من أهل الذمة . واستعان بهم فى شئون الحكم والادارة ، فجعل يوحنا بن موسى ، مستشارا له ووزيرا ، كما قلد أخاه ابراهيم خراج مصر (٤٠١) .

ويبدو أنه منذ ذلك الحين ، قد علا شأن القبط ، وصار منهم أكثر الكتاب ، حتى ضج المسلمون ، من تسلط هؤلاء الكتاب القبط على مصالحهم ، وقدم المسلمون شكواهم فى ذلك الى الخليفة المقتدر سنة ٢٩٦ هـ . « ففهم فيهم ، بنحو ما كان عهد به المتوكل من رفضهم واطراحهم واسقاطهم من الخدمة . ثم لم يدم ذلك فيهم » (٤٠٢) . ونستخلص من هذه الرواية أن الخليفة العباسى المقتدر ، لما بلغته شكوى المسلمين من تسلط أهل الذمة عليهم فى شئون الحكم والادارة رأى أن يسلك السبيل نفسه الذى سلكه الخليفة العباسى المتوكل من قبل ، وهو ابعاد أهل الذمة عن شئون الحكم وعدم استخدامهم فى أعمال الحكومة ، مهما كان الأمر ، واحلال المسلمين محلهم الا أن هذه السياسة لم تستمر طويلا فلم يلبث الولاة المسلمون أن انتهجوا سياسة استخدام أهل الذمة فى أعمال الكتابة وادارة شئون البلاد .

أمر الخليفة المقتدر ، ولاته ، بعزل الكتاب والعمال . من أهل الذمة ، وعدم استخدامهم ، واحلال المسلمين محلهم . وكتب الى

عماله ، فى مختلف أرجاء الدولة الاسلامية ، كتابا جاء فيه « عوائد الله عند أمير المؤمنين ، توفى على غاية رضاه ، ونهاية أمانيه ، وليس أحد يظهر عصيانه ، الا جعله الله عظة للأنام ، وبادره بعاجل الاصطلام (والله عزيز ذو انتقام) فمن نكث وطغى ، وبغى ، وخالف أمير المؤمنين، وخالف محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسعى فى افساد دولة أمير المؤمنين ، عاجله أمير المؤمنين بسطوته ، وطهر من رجسه دولته (العاقبة للمتقين) ٠ وقد أمر أمير المؤمنين بترك الاستعانة بأحد من أهل الذمة فليحذر العمال تجاوز أوامر أمير المؤمنين ونواهيه » (٤٠٣) ونرى فى هذا الكتاب ان الخليفة أراد ، أن يبث الخوف والرهبة فى نفوس عماله حتى لا يخالفوا ، ما أمرهم به من نبذ استخدام الذميين ، وعدم الاستعانة بهم فى أى شأن من شئون البلاد ٠

ويبدو أن الخليفة المقتدر قد نهى عن استخدام أهل الذمة فى بعض المجالات ، وسمح باستخدامهم ، فى مجالات أخرى ٠ فيروى أبو المحاسن (٤٠٤) ، أن الخليفة المقتدر أمر عماله فى البلاد الاسلامية بعدم استخدام أحد من الذميين سواء القبط أو اليهود الا فى مجالات الطب والجهبذة ٠ ونجد فى أوراق البردى ، ما يؤيد ما ذهب اليه المؤرخ أبو المحاسن ، اذ كان جهابذة مصر والمتصرفون بها من أهل الذمة وخاصة القبط ٠

فهناك ورقة بردية ، تتضمن ايصال دفع خراج ، ويرجع تاريخها الى ٨ بئونة سنة ٢٩٣ هـ ـ ٣ مايو سنة ٩٠٦ م ٠ ونجد فيها اسم جهبذين من القبط ، هما ، مينا بن شنودة ، وساويرس ابن زكريا (٤٠٥) ٠ ونلاحظ أن ذلك كان قبل قرار الخليفة المقتدر بحوالى ثلاث سنوات ، ولكن هذه الظاهرة استمرت بعد قرار الخليفة بسنوات كثيرة ٠ فنجد برديتين ، تتضمن كل منهما ايصالا عن دفع

الخراج ، ويرجع تاريخ احداهما الى سنة ٣١٢ هـ ـ ٩٢٤ م ٠ والأخرى ترجع الى شوال سنة ٣١٣ هـ ـ يناير ٩٢٦ م ٠ وفيهما أن الجهبذ كان قبطيا ويسمى يحنس بن مينا (٤٠٦) ٠

وهناك بردية أخرى ، وفيها أن عامل الخراج كان قبطيا ، ويسمى مرقورة بن شنودة وتذكر هذه البردية آن خضر بن شبيب أدى ما عليه من الجزية سنة ٣١٨ هـ ـ ٩٣٠ م وكتب له ايصالا بذلك ، على يد مرقورة بن شنودة الجهبذ (٤٠٧) ٠ ولا نجد فى المصادر التاريخية المصرية وغير المصرية ، الاسلامية وغير الاسلامية، أية اشارة الى كتاب أو أصحاب دواوين من القبط أو غيرهم من أهل الذمة ، فى هذه الفترة الانتقالية ما بين سقوط الدولة الطولونية وقيام الدولة الاخشيدية ، اللهم الا ما ذكرنا آنفا فى ولاية محمد ابن على الخلنجى وحتى سنة٢٩٦ هـ ٠

ومؤسس الدولة الاخشيدية فى مصر ، هو محمد بن طغج بن جف الفرغانى الملقب بالاخشيد (٤٠٨) وقد ولى مصر ، بعهد من الخليفة العباسى ، الراضى بالله فى سنة ٣٢٣ هـ ـ ٩٣٥ م ٠ فقدم الى مصر فى رمضان من السنة نفسها (٤٠٩) ٠ واستمرت الدولة الاخشيدية قائمة فى مصر ، حوالى خمس وثلاثين سنة ، حتى تمكن الفاطميون من فتح البلاد المصرية والقضاء على الدولة الاخشيدية سنة ٣٥٨ هـ ٠

ولنا أن نتساءل عن دور أهل الذمة فى الحياة السياسية فى هذا العصر ، هل كان منهم كتاب وأصحاب دواوين ؟ أم أن استخدامهم كان قاصرا على أعمال الجهبذة وجباية الضرائب ؟ ونتساءل أيضا عن سياسة الأمراء الاخشيديين ازاء هؤلاء الذميين ؟ وهل نعم أهل الذمة بالهدوء والسلام فى هذا العصر ، كما كان

الحال فى العصر الطولونى ؟ أم تعرضـوا للمضـايقات وعسـف الحكام المسلمين بهم ؟

اقتصر اسـتخدام الذميين فى هذا العصر غالبا ، على جباية الخراج ، والأعمال المالية المختلفة . والدليل على ذلك ما جاء فى الأوراق البردية ، من الاشارة الى الجهابذة وعمال الخراج القبط . وتضم مجموعة الأرشـيدوق ريتر فى فينا ، وثيقة من البردى ، تتضمن ايصالا مؤرخا من سنة ٢٣٥ هـ ـ ٩٤٢ م ، ويشير الى أن بكام بن دانيال ، دفع الجزية المقررة عليه ، وقدرها ثلث دينار ، وثلثا قيراط ، فى حضـور أبى الحسن بن عيسى لعـامل الجباية تيودور بن خاييل (٤١٠) .

وجاء فى بردية أخرى ، وثيقة تتضمن صكا صادرا ، عن أحد جباة الخراج ، ومؤرخا فى شهر طوبة ـ سنة ٣٤٦ هـ = يناير ٩٥٨م. وفيه أن عيسى بن الحسن اللبان ، قد قبض من البو جميل مرقورة ابن مينا الجهبذ ثلاثة وعشرين دينارا معسولة (٤١١) الى أن كتب له بها سفنجة (٤١٢) فى النصف من طوبة لخراج سنة ٣٤٦ هـ ، وكتب جريح بن قوريل بأمره (٤١٣) .

كان من بين الموظفين القبط ، الذين أشرفوا على الشئون المالية فى هذا العصر ابن عيسى بقطر بن شفا ، وتذكر بعض الروايات أنه تولى خراج مصر للأمراء الاخشيديين (٤١٤) ومنهم أيضا ابراهيم ابن مروان فى عهد أونوجور ، وكذلك جرير بن الحصان (٤١٥) .

ونلاحظ أن استخدام القبط واليهـود فى أواخر عصر الأمراء الاخشيديين ، لم يكن قاصرا على جباية الخراج ، وتحصيل الضرائب، وما يرتبط بذلك من الأعمال الماليـة . فتذكر الرواية القبطية أن

كافور الاخشيدى (٤١٦) ، كان له وزير من القبط يسمى أبو اليمن قزمان بن مينـا ، وتضيف الرواية القبطية إلى ذلك أنه ولى خراج مصر ، ودبر أمورها بعد وفاة كافور ، حتى استقر الأمر للخلفاء بالفاطميين سنة ٣٥٨ . فلما لمسوا فى أبى اليمن قزما بن مينا ، الثقة والأمانة ، أبقوه فى مكانه ناظراً فى كورة مصر (٤١٧) .

كما نلاحظ فى هذا العصر ، ظاهرة لم نلمسـها من قبل فى تاريخ مصر الاسلامية ، وهى استخدام اليهود ، الى جانب القبط فى شئون الادارة وأعمال الحكومة . اذ كان يعقوب بن كلس اليهودى من مستشـارى كافور ، ومن أقرب النـاس اليـه . يقول ابن الصيرفى (٤١٨) : « كان يهوديا ، كاتبا ، صائنا لنفسه ، محافظا على دينه ، جميل المعاملة مع التجار فيما يتولاه ، واتصل بخدمة كافور الاخشيدى ، فحمد خدمته ، ورد اليه زمام ديوانه بالشام ومصر ، فضبطه على حسب ارادته » .

كان كافور يستشير ابن كلس فى كل أموره ، حتى بلغ به الأمر ، أنه أمر جميع رؤساء الدواوين بألا يصرف درهم أو دينار الا بتوقيـع ابن كلس . وقد اتخـذ كافور هذا القرار فى سـنة ٣٥٦ هـ (٤١٩) . وبلغ من شدة اعجاب كافور بابن كلس أنه رغب أن يوليه الوزارة ولكن حال دون ذلك دينه اليهودى ، ولذلك قال كافور : « لو كان مسلما ، لصح أن يكون وزيرا » (٤٢٠) فلما سمع يعقوب بن كلس بذلك ، طمع فى الوزارة ، واعتنق الاسـلام فى شعبان سنة ٣٥٦ هـ . فتضاعف حب كافور وتقديره له . ولكن يعقوب بن كلس ما لبث أن رحل الى بلاد المغرب وغادر مصر (٤٢١) .

والواضح من النصوص التاريخية أن أهل الذمة عاشوا فى هدوء وسلام طوال عصر الأمراء الاخشيديين ، كما كان حالهم فى عصر الأمراء الطولونيين ، لم نسمع عن اضطهادات أو عسف نزل

بأهل الذمة فى ذلك العصر . والحقيقة أن سوء المعاملة التى كان أهل الذمة يشكون منها فى بعض الأحيان لم تكن موجهة اليهم بصفتهم الطائفية وانما كان الأمراء الاخشيديون ـ وخاصة محمد ابن طغج الاخشيد ـ يصادرون أموالهم أحيانا، مثلما كانوا يصادرون أموال المسلمين ، فى ذلك العصر ، على حد سواء . وكان الخلاف والنزاع بين صفوف القبط ينتهى أمره أحيانا الى الأمير الاخشيدى فيفصل فيه ، وقد ينتهز الأمير الفرصة ، ليستحوذ لنفسه شيئا من أموال الكنيسة وكنوزها .

فقد حدث فى امارة محمد بن طغج الاخشيد ، انشقاق بين البطرك الملكانى سعيد بن بطريق ـ الذى ولى كرسى البطركية للملكانيين بمصر فى سنة ٣٢١ هـ . وسمى افتيشيوس (٤٢٢) ـ وبين رعاياه من الملكانيين . وانقسموا الى فريقين، فريق مع البطرك، وفريق عليه ويتزعمه أسقف تنيس ابن النخيلى ، وأسقف الفرما ابن بليحا . وحاول البطرك جاهدا أن يصلح أحوال الملكانيين .

وتوفى أسقف تنيس ، ابن النخيلى فأقام بدله تاوفيلا بن الشقى ، الا أن شعب تنيس ظل منقسما على نفسه الى فريقين ، أحدهما مع البطرك ، والثانى عليه (٤٢٣) .

ويروى ابن سعيد الأنطاكى (٤٢٤) أن الأسقف الجديد قد حاول تهدئة النفوس ، واصلاح الأحوال ، ومع ذلك استمر الخصام بين الفريقين ، حتى لجأ خصوم البطرك الى محمد بن طغج الاخشيد وحرضوه على البطرك ، ثم وصف ابن سعيد الاخشيد قائلا : « وكان رجلا ظالما ، كثيرا ما يصغى لسماع السعايات وقبولها ، ويهلك المسعى به ، والمتنصح فيه ، ويأتى عليه » .

وأرسل محمد بن طغج الاخشيد أحد قواده على رأس جماعة من الجند ، الى مدينة تنيس فختم على الكنائس الملكانية بها ، وحجر

على جميع ما بها من الآلات والآنية ، وملأ بها كثيرا من الصناديق وحملها الى محمد بن طغج الاخشيد (٤٢٥) . فلما علم الأسقف تاوفيلا بن الشقى بذلك ، طلب من الكتاب القبط أن يتوسطوا لهم لدى الأمير ، لتصفية الجو ، والعفو عن البطرك الملكانى . فتم له ما أراد ، وأعيدت اليهم ممتلكات الكنائس الملكانية ، مقابل دفع خمسة آلاف دينار للأمير (٤٢٦) . ونلمس من هذه الرواية أن الموظفين القبط ، كانوا لا يتأخرون عن الأخذ بيد اخوانهم فى الدين المسيحى أى الملكانيين ، بالرغم من اختلافهم معهم فى المذهب لديني ، والتوسط لدى الأمراء المسلمين ، من أجل اصلاح أحوالهم والعفو عن معصياتهم .

وكان لهذا الحدث وموقف الاخشيد منه ، أثره فى نفس مسيحيى مصر فى مختلف المدن المصرية ، فيقول ابن سعيد الأنطاكى (٤٢٧) : « هرب جماعة من منازلهم ، خوفا من المصادرة والعزم ، ولما شاهد النصارى تفاقم الحال والهلاك الواقع لوقف تنيس ، عدل بعضهم بعضا ، واتفقت كلمتهم ، ورجعوا الى كنيسة واحدة ، الا أن نفوس أكثر أهل تنيس ، لم تزل مستوحشة من الأسقف تاوفيلا بن الشقى » .

ونستخلص من هذه الروايات التاريخية أن طائفة المسيحيين الملكانيين فى مصر ، كان لها شأن فى ذلك العصر ، وأن أمورهم كانت مستقيمة ، اذ كان لهم بطركهم وأيضا أساقفتهم ، شأنهم فى ذلك شأن القبط اليعاقبة . وهكذا قام أهل الذمة جميعا ـ سواء القبط أم اليهود ـ بدور ، له شأنه فى الحياة السياسية فى عصر الأمراء الاخشيديين ، وشغل اليهود لأول مرة فى تاريخ مصر بعض المراكز المهمة فى البلاد ، وتمتع جميع أهل الذمة بالحرية الدينية ، وعاش الجميع فى أمن وسلام .

٤ ـ موقف الدولة الفاطمية من أهل الذمة

بعد دراستنا لتاريخ أهل الذمة السياسى فى عصر الولاة ، ثم فى عصر الدولتين الطولونية والاخشيدية ، يمكن ان نقول ان عصر الدولة الفاطمية ، كان العصر الذهبى لأهل الذمة ، سواء القبط أم اليهود ، فقد تمتعوا خلاله بالهدوء والاستقرار ، وشغلوا أعلى المناصب الادارية والمالية ، فى جميع عهود الخلفاء الفاطميين ، بل فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله أيضا ، الذى يصفه المؤرخون غالبا ، بالتعسف ضد أهل الذمة ، والتضييق عليهم .

ويدرس هذا الفصل دور أهل الذمة فى شئون الادارة والحكم ، فقد كان منهم الوزراء والكتاب ، وعمال الدواوين ، وحكام الأقاليم ، وخدام القصر ، وعمال الخراج . ثم يدرس الفصل أيضا دور الخلفاء الفاطميين ووزرائهم فى اختيار البطرك القبطى ، واقامته على كرسى البطركية وموقف الخلفاء أيضا من البطرك الملكانى ، ثم يدرس ما تعرض له أهل الذمة من المضايقات فى بعض العهود ، وخاصة فى عهد الحاكم بأمر الله (٣٨٦ ـ ٤١١ هـ = ٩٩٦ ـ ١٠٢١ م) .

أما عن دور أهل الذمة فى شئون الادارة والحكم ، فقد تميز عصر الخلفاء الفاطميين بالتوسع فى استخدام الموظفين الذميين ،

فنجد منهم فى هذا العصر ، الوزراء والكتاب وعمال الدواوين وجباة الخراج وغير ذلك من ميادين العمل • ولا غرو فى أن ذلك كان نتيجة طبيعية لاختلاف الفاطميين الشيعة مع المصريين السنيين ـ أتباع مذهب الخلفاء العباسيين ـ فى المذهب • ومن ثم كان هدف الفاطميين ، عندما قدموا الى مصر ، هو بذل قصارى جهدهم من أجل نشر المذهب الشيعى ، وانتهاج سياسة تحقق لهم هذا الهدف فى جميع البلاد المصرية وغيرها من البلاد التى كانت تحت حكمهم (٤٢٨) •

ومن ثم لم يعتمد الفاطميون ـ فى شئون الادارة وأعمال الحكومة ـ على المصريين السنيين لمخالفتهم لهم فى المذهب ، ورأوا استخدام الذميين من القبط أو اليهود ، والاعتماد عليهم فى ادارة البلاد المصرية وجباية خراجها ، لأنهم بعيدون عن التعصب لهذا المذهب أو ذاك • وهكذا ارتفع شأن أهل الذمة فى هذا العصر ، وتمكنوا من البلاد ، وصار لهم فى معظم الأحيان ، السيادة على المسلمين، مما كان يؤدى أحيانا الى تذمر المسلمين، واثارة مشاعرهم ضد الذميين • ومهما كان الأمر ، فان حكام مصر المسلمين بصفة عامة ـ كما يذهب بعض الكتاب المحدثين ـ السابقين للفاطميين أو اللاحقين لهم ، أدركوا أنه ليس فى الإستطاعة ، الاستغناء عن استخدام أهل الذمة ، وقد أدى الى ضرورة هذه السياسة الواقع العملى فى الادارة المصرية فى العصور الوسطى ، اذ كانت الادارة فى حاجة الى كفايات خاصة فى دواوين الانشاء والمال ، وغيرها من نواحى الادارة ، لا يقوم بها الا أهل الذمة من سكان البلاد (٤٢٩) •

وكان القبط بصفة خاصة ، أكثر دراية ، بالأعمال الكتابية والحسابية ، وتحرير الرسائل ومن ثم توسع الخلفاء الفاطميون فى استخدامهم فى كافة فروع الادارة ، وتدرجوا فى المناصب حتى

أسندت اليهم الوزراة . ولقد حازت هذه السياسة القبول من الناحية العملية ، الا أنه قد دبت الكراهية لهم فى النفوس ، عندما أصبح منهم، كل جباة الضرائب والقائمون على أموال الدولة(٤٣٠) .

ونلاحظ خلال دراستنا للعصر الفاطمى ، أن بعض الذميين ، كانوا يعتنقون الاسلام ويتركون دينهم المسيحى أو اليهودى فى سبيل تولى الوزارة أو غيرها من الوظائف الادارية . ونذكر من **هؤلاء أبا الفرج يعقوب بن يوسف بن طرون بن داود بن كلس(٤٣١)**، الذى لعب دورا بارزا ، فى خلافة المعز لدين الله ، وولده العزيز — اذ ارتفع شأنه ، وذاع صيته . وفى المحرم سنة ٣٦٣ هـ ، عهد اليه المعز ، بولاية الخراج وجميع وجوه الأموال الحسبية ، والسواحل والأعشار ، والجوالى والأحباس ، والمواريث ، والشرطتين (٤٣٢) وجميع ما يزيد على ذلك فى مصر من سائر الأعمال وأشرك معه فى هذه الولاية ، عسلوج بن الحسن ، وكتب لهما الخليفة ، سجلا بذلك (٤٣٣) .

وكان يعقوب بن كلس ، وعسلوج بن الحسن ، يجلسان فى دار الامارة ، بجامع أحمد بن طولون للنداء على الضياع ، وسائر وجوه الأموال . ويحضر الناس للقبالات (٤٣٤) ويطالبان الناس ببقايا الأموال ، مما على المالكين للأرض أو المتقبلين أو العمال . واستقصيا فى الطلب ، ونظرا فى المظالم . ونتج عن ذلك ، توافر الأموال ، وزيادة الضياع ، وحسنت أحوال الناس (٤٣٥) .

انشغل ابن كلس بعد ذلك ، فى سنة ٣٦٥ هـ . عن حضور ديوان الخراج ، وما يرتبط به من أعمال ، وانفرد بالاشراف على أمور المعز لدين الله الخاصة فى قصره ، وفى غيره من الدور(٤٣٦) . وقد عظم شأن ابن كلس بعد وفاة المعز ، وولاية ابنه العزيز بالله ،

الذى عهد اليه بالنظر فى سائر أموره ، كما جعل له الوزارة ، فى المحرم سنة ٣٦٧ هـ كما خلع عليه (سنة ٣٦٨ هـ = ٩٧٩ م) ومنحه لقب الوزير الأجل ، وأمر ألا يخاطبه أحد ، أو يكاتبه الا بهذا اللقب (٤٣٧) ٠

ويصف ابن القلانسى (٤٣٨) ، يعقوب بن كلس بأنه كان « كبير الهمة ، قوى النفس والمنة ، عظيم الهيبة فاستولى على أمر العزيز ، وقام به واستنصحه ، فعول عليه ، وفوض أموره اليه ، وكانت أموره مستقيمة بتدبيره » وقد عظمت مكانة ابن كلس على مر السنين ، وظهر هذا واضحا فى سنة ٣٧٠ هـ ٠ حينما انتهج الخليفة العزيز ، سياسة الخلاص من نفوذ الكتاميين والاعتماد على الأتراك ٠ كما كان الخليفة ، يستشيره فى كل الأمور (٤٣٩) ٠ ولكن فى سنة ٣٧٣ هـ ، غضب العزيز بالله على وزيره ابن كلس واعتقله فترة ، ولكن ما لبث أن أطلق سراحه فى العام التالى ٠ ورد اليه كل ما كان بيده من مهام الدولة ، وشئون البلاد ، وكتب له سجلا بذلك ، الى جانب منحه هدية ، تتألف من عدد عظيم من العبيد الترك والمغاربة (٤٤٠) ٠

وفى الواقع ، اتسعت دائرة أعمال ابن كلس ، وعظم نفوذه فى كل ميدان ، حتى ان اسمه كان يكتب على الطراز وفى الكتب ٠ وكان يجلس فى داره ، لتصريف شئون الدولة ، ولتوقيع الرقاع التى ترفع اليه ، ويقضى الحاجيات ٠ وعين فى داره ، الحجاب ، وأجلسهم على مراتب ، وألبسهم الديباج وقلدهم السيوف والمناطق ٠ كما رتب فى داره الدواوين ٠ وكان كل ديوان يضم عددا كبيرا من الكتاب (٤٤١) ٠ واستمر ابن كلس ، يتولى منصب الوزارة ، وأصبح الساعد الأيمن ، للخليفة العزيز بالله (٤٤٢) ٠

ولما مرض ابن كلس ، حزن عليه العزيز بالله ، حزنا شديدا ، اذ كان يكن له حبا شخصيا عظيما • وزاره فى داره ، وسأله أن يفضى اليه بوصيته • الا أن ابن كلس قال له : « أما ما يخصنى ، يا أمير المؤمنين فلا ، لأنك أرعى بحقى ، من أن أسترعيك اياه ، وأرأف على من استخلفه من أن أوصيك به ، لكننى أنصح لك فيما يتعلق بدولتك » فلما سأل العزيز بالله ، وزيره عما ينصحه به فى شئون دولته ، أجابه : مسالمة الرومان ، وقبول الدعوة من بنى حمدان ، الى جانب ذكرهم اسم الخليفة الفاطمى على السكة ، وقتل المفرج بن دغفل بن الجراح (٤٤٣) •

ولما توفى ابن كلس فى سنة ٣٨٠ هـ ، حزن عليه العزيز بالله أشد الحزن ، وأمر بتعطيل الدواوين والأعمال ، عدة أيام حدادا على وفاته (٤٤٤) • ويعدد ابن الصيرفى (٤٤٥) تركة ابن كلس ، فيقول : « كان له فى اقطاعه ، مائة ألف دينار ، وأربعمائة ألف غلام ، وأن الطائفة التى تسمى العزيزية منسوبة اليه وله من الجواهر ، ما قيمته أربعمائة ألف دينار ، كما كان له من كل صنف من البز ما قيمته خمسمائة ألف دينار ، وكان عليه للتجار ، ستة عشر ألف دينار فقضاها العزيز عنه من بيت المال •

ومما لاشك فيه أن يعقوب بن كلس — رغم اعتناقه الاسلام — كان يخدم اليهود ويراعى مصالحهم ، كما كان يتخذ أصدقاءه ، وغلمانه — فى الغالب — من اليهود أيضا • فكان أعز صديق له فى خلافة المعز لدين الله ، موسى اليهودى ، وكان كثيرا ما يقوى جانبه ويرفع من شأنه عند الخليفة المعز (٤٤٦) • فكان من الطبيعى أن يغضب المسلمون لذلك ويحنقوا على ابن كلس لاستئثاره بشئون البلاد ، وقيامه وحده على أمورها • ومن ثم نجد بعض الشعراء يهجون ابن كلس فى أكثر من قصيدة شعر ، فقال الشاعر ، الحسن ابن بشر الدمشقى :

قل لأبى نصر (٤٤٧) صاحب القصر
والمتـــأتى انقـض ذا الأمـــر

انقض عرا الملك للوزير تفز
منــه بحسن الثنـاء والذكر

وأعط وامنـــع ، ولا تخـف أحـــدا
فصــــاحب القصر ليس فى القصر

وليس يـــدرى ماذا يراد بـــه
وهو اذا مادرى فمـــا يدرى (٤٤٨)

ومن هذه الأبيات نستخلص ، مدى اتساع نفوذ الوزير ابن كلس ، وتنفيذ أبى نصر ، كاتب الانشاء لأوامره — دون أن يدرك الخليفة ، خطورة تسلط هذا اليهودى الأصل على المسلمين ، وبلغ الحال ، حدا ، جعل الشعراء يندون بهذا الوضع . فقال ابن بشر الدمشقى أيضـــا :

تنصر فالتنصر ديـــن حـــق
عليـــه زماننـــا هذا يـــدل

وقـــل بثـــلاثة عـــزوا وجـــلوا
وعطـــل ما سواهـــم فهو عطـــل

فيعقـــوب الوزير أب ، وهـــذا الـ
عزيز ابن ، وروح القدس فضـــل (٤٤٩)

وغضب ابن كلس عند سماعــه هذه الأبيــات ، وكان كثيرا ما يشكو الشاعر الى الخليفة العزيز بالله وقال له : « لم يبـــق للعفو عن هذا معنى ، وفيـــه غض من السـياسة ، ونقص لهيبة

الملك » • وأضاف الى ذلك أن هذا الشاعر ، هجاه ، أيضا هو ونديمه ابن زبارج قائلا :

زبــارجى نديـــم ، وكلس وزيـــر

نعم على قدر الكلب ، يصلح الساجور (٤٥٠)

وغضب العزيز بالله عند سماعه هذا الهجاء ، أشد الغضب ، وأمر بالقبض على الشاعر ، الا أن ابن كلس دس له من قتله ، وحمل رأسه الى الخليفة (٤٥١) •

ونذكر من الذميين ، الذين اعتنقوا الاسلام ، وتقلدوا الوزارة فى عصر الدولة الفاطمية أيضا ، الوزير(أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى) • وكان يهوديا ، ثم اعتنق الاسلام ، وولى الوزارة للخليفة المستنصر بالله فى سنة ٤٣٦ هـ • ومنحه الخليفة لقب « الوزير الأجل ، تاج الرياسة ، فخر الملك وصفى أمير المؤمنين » • واستمر وزيرا ، حتى قبض عليه ، وقتل فى سنة ٤٣٩ هـ (٤٥٢) • وكان لأبى سعد ابراهيم ، ولأخيــه أبى نصر هارون ابنى سهل التسترى اليهوديين ، دور عظيم فى تقليــد أبى منصور صدقة الوزارة (٤٥٣) • كما كان لأبى سعد دور عظيم فى وزارة أبى منصور صدقة • فقد عظم شأن أبى سعد بن سهل التسترى وتدرج فى المراتب ، حتى صار ناظرا فى جميع أمور الدولة « فلا يخرج شىء عما يرسمه ، ولا يعمل الوزير الا بما يحده له ، ويمثله » وهكذا كان الوزير ، أبو نصر صدقة ، ينفذ كل ما يمليه عليه أبو سعد وليس له أمر ولا نهى سوى التنفيذ (٤٥٤) • لذلك فكر الوزير فى مكيدة يتخلص بها من أبى سعد ، ونجح فى التخلص منه ، بمساعدة بعض الأتراك • فغضبت أم الخليفة لذلك ، وحنقت على أبى نصر صدقة ومازالت به حتى صرفته عن الوزارة ، وأمرت بقتله • على حين

ولى المستنصر ، أبا نصر هارون بن سهل التسترى ، خزانة الخاص ، كما عهد الى ابن أبى سعد التسترى بالنظر فى آحد الدواوين(٤٥٥) ·

وكان من وزراء الخليفة المستنصر ، اليهود الأصل ، الذين اعتنقوا الاسلام ، العميد علم الكفاة ، أبو سعد على الحسن بن أبى سعد ابراهيم بن سهل التسترى — وكان يهوديا ثم اعتنق الاسلام ، وحفظ القرآن ، وكان يتولى ادارة بيت المال ، قبل توليه الوزارة (٤٥٦) ·

ومما لاشك فيه أن هؤلاء الوزراء ، كانوا يخدمون اخوانهم اليهود ، ويراعون شئونهم ويحققون لهم رغباتهم فى مختلف الميادين ، حتى ولو تعارض ذلك مع رغبات المسلمين ومصالحهم · على الرغم من اعتناق هؤلاء الوزراء للاسلام · وبلغ الأمر أن ضج المسلمون من تسلط اليهود وغيرهم من الذميين على أمورهم ، وتغنى الشعراء بذلك ، بل دعوا الى التهود — فى أشعارهم — حتى يصلوا الى أكبر المناصب ، وأعلى المراتب فى البلاد · من ذلك ما قاله الرضى ابن البواب :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم ، وقد ملكوا

العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك

يا أهل مصر انى نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك (٤٥٧)

والى جانب هؤلاء الوزراء الفاطميين ، الذين كانوا يهودا قبل اسلامهم ، نجد أيضا وزراء فاطميين آخرين ، تخلوا عن دينهم المسيحى ، واعتنقوا الاسلام ، وتقلدوا الوزارة · وخدموا أيضا اخوانهم القبط ، كما فعل الوزراء الذين كانوا يهودا قبل اسلامهم · ونذكر منهم ابن زنبور أبا سعد منصور بن أبى اليمن سورس بن مكراوة ، ناظر الريف ، وكان قبطيا ، ثم اعتنق الاسلام بعد توليه

الوزارة ، فانكر القبط اسلامه ، ولقب : « الأجل الأوحد ، المكين ، السيد الأفضل ، الأمير شرف الكفاة ، عميد الخلافة ، محب أمير المؤمنين » وقد حدث أن طالبه الجند بأرزاقهم ، فوعدهم بتحقيق رغباتهم ، واجابتهم الى ما يرمون اليه ، الا أنه ما لبث أن هرب مع اللواتيين ، وانتهى بذلك أمره فى الوزارة (٤٥٨) ٠

والى جانب هؤلاء الذميين ، الذين تركوا دينهم اليهودى أو المسيحى ، واعتنقوا الاسلام ، من أجل تقلد الوزارة ، نجد من بين اليهود والقبط من احتفظ بدينه ، وتولى الوزارة وغيرها من الوظائف الادارية والمالية فى البلاد المصرية فى عصر الدولة الفاطمية ٠

حينما تم لجوهر الصقلى ـ القائد الفاطمى ـ فتح مصر فى سنة ٥٣٨ هـ ، كان يشرف على أمور مصر ، أحد القبط ، ويسمى أبو اليمن قزمان بن مينا ٠ فلما أدرك جوهر الصقلى ، ما يشتهر به هذا القبطى من الأمانة والثقة « أبقاه على حاله ، ناظرا فى كورة مصر » (٤٥٩) وعندما دخل المعز لدين الله البلاد المصرية فى رمضان سنة ٦٣٢ هـ ، قرب قزمان بن مينا اليه ، وكان يأخذ برأيه ، ويسمع مشورته ، لما كان يتمتع به من السمعة الطيبة ، والأخلاق الحميدة ٠ وبعد فترة عهد المعز اليه بالاشراف على استخراج أموال مصر (٤٦٠) ٠

ولما أدرك يعقوب بن كلس ، ما صار لأبى اليمن قزمان ، من مكانة عظيمة ومحبة لدى الخليفة المعز ، حنق عليه ، وحسده ، وخشى منه على مكانته فى الدولة ٠ وعند ذلك فكر فى حيلة يبعد بها أبا اليمن عن البلاد المصرية ، فأشار على المعز لدين الله ، بأن يوليه أعمال فلسطين ، فاستجاب له ٠ وتخلص ابن كلس بذلك من منافسه (٤٦١) ٠

وقد ترك ابن قزمان – عند خروجه الى فلسطين لتولى أعمالها – مبلغ تسعين ألف دينار ، مع البطرك القبطى أنبا أفراهام ، وأمره بصرفها على البيع والفقراء والأسرى ، اذا توفى ولم يعد الى مصر . فلما قدم ابن قزمان مصر ، ثانية ، بعد هزيمة القرامطة ، سأل البطرك عما تم من أمر أمواله ، فأجابه البطرك ، بأنه قد صرفها فى الأبواب نفسها التى حددها له عند خروجه الى فلسطين ، خشية أن يعلم بها الخليفة ، ويطلبها منه (٤٦٢) .

اشتهر الخليفة العزيز بالله (٣٦٥ – ٣٨٦ هـ = ٩٧٥ – ٩٩٦ م) بعطفه الشديد على المسيحيين الملكانيين ، والقبط اليعاقبة، على حد سواء . وامتازت سياسته معهم جميعا بتسامح عظيم . ولا غرو فى أن السبب الذى انتهج من أجله هذا الخليفة هذه السياسة ، أنه كان متزوجا ، من امرأة مسيحية رومانية الأصل ملكانية المذهب . وكان لهذه الزوجة أخوان : الأول يسمى ارستس، وقد جعله العزيز بالله ، بطركا للملكانيين فى بيت المقدس . أما الثانى فيسمى أرمانوس ، وقد صار مطرانا على القاهرة ومصر (٤٦٣) . ويسميه ساويرس (٤٦٤) أرسان ، ويشير الى اقامته بطركا للملكانيين بالديار المصرية تحت تأثير أخته زوجة العزيز بالله « لأن السلطان كان لها » ، على حد قول هذا المؤرخ – ومن ثم أحسن العزيز الى كل من الملكانيين والقبط اليعاقبة ، وتمتع الجميع فى عهده ، بكامل حرياتهم الدينية والمدنية .

شغل أهل الذمة ، فى عهد الخليفة العزيز ، أعلى المناصب الادارية وأجلها فى البلاد المصرية ، فكان منهم جل الكتاب (٤٦٥) ، كما استوزر ، العزيز بالله ، عيسى بن نسطورس القبطى بعد وفاة وزيره ، ابن كلس اليهودى الأصل بمدة (٤٦٦) . فيروى المقريزى (٤٦٧) : أنه فى سنة ٣٨٤ هـ تسلم عيسى بن نسطورس ،

سائر الدواوين « ونظر فى جميعها ، وأمر ونهى ، وخاطب سائر الكتاب عن العزيز وخاطب سائر الأولياء وكافة الناس فى مهماتهم، وتوقيعـاتهم » ٠

وتميز ابن نسطورس بالمهارة ، والكفاية فى ضبط الأمور ، وفى جمع الأموال ووفر كثيرا من الخراج ، ومال اليه اخوانه من القبط ، فأحسن معاملتهم وأكرمهم ، واستعان بهم فى أعمال الدولة دون المسلمين (٤٦٨) ٠ واشتد ساعد عيسى بن نسطورس ، وقوى مركزه ، وصار يخاطب بسيدنا الأجل (٤٦٩) ٠ ووصفه مان (٤٧٠) Mann ـ بأنه كان قويا ، شديدا ، قبض على كل عمل مربح لنفسه، وزاد الضرائب زيادة كبيرة ، وحابى اخوانه فى الدين ، وولاهم أهم وظائف الدولة ، بدلا من المسلمين ، مما أثـار سخط المسلمين ، الذين كانوا يكرهون تسلط الذميين عليهم ، وتوليهم أمور بلادهم ٠

كما استناب الخليفة العزيز بالله ، بالشام ، يهوديا يسمى منشا بن الفرار ٠ فسلك مع اليهود مسلك عيسى بن نسطورس نفسه مع القبط فى مصر (٤٧١) ٠ وهكذا تسـلط القبط واليهود على شئون المسلمين فى مصر والشام ، وغضب المسلمون فى مصر ، وقدموا للعزيز بالله ، رقعة تتضمن شكواهم من تسلط الذميين عليهم ، ونفاذ أمرهم فى شئونهم (٤٧٢) ٠

لما تسلم العزيز بالله هذه الرقعـة ، ووقف على ما قصـده المسلمون ، سأل فى هذا الشأن ـ أحد المقربين اليه ، وهو قاضى القضاة أبو عبد الله محمد بن النعمان فقال للخليفة : « مولانا أعرف بوجه الرأى والتدبير » وفطن العزيز بالله الى ما صار اليه حال المسلمين مع الذميين (٤٧٣) ٠ وأمر بالقبض على عيسى بن نسطورس

وسائر الكتاب القبط وأن يحل المسلمون محلهم ، كما كتب الى نائبه بالشام بالقبض على منشا ، واقصاء اليهود عن الوظائف ، واقامة المسلمين مكانهم (٤٧٤) ٠ وصادر من أموال عيسى بن نسطورس ثلاثمائة ألف دينار (٤٧٥) ٠

ولكن عيسى بن نسطورس ما لبث أن عاد الى ممارسة مهامه ، التى عهد بها اليه الخليفة من قبل ، واشترط العزيز بالله عليه ، استخدام المسلمين فى الدواوين والأعمال ٠ وقد توسط لعيسى ، عند الخليفة ، ابنته ست الملك ، فقد كانت على علاقة طيبة مع ابن نسطورس ، اذ كان يكن لهـا ، كل حب وتقدير ، ولا يرفض لهـا طلبا ، ولا يرد لها قولا (٤٧٦) ٠ واستمر ابن نسطورس وزيرا فى خلافة الحاكم بأمر الله ، حتى قتله الحسن بن عمار الكتامى (٤٧٧) الذى عهد اليه الحاكم بأمر الله ، بالنظر فى الأموال ، وتدبير الأمور ، ولقب بأمين الدولة فى شوال سنة ٣٨٦ هـ ٠ وكان ابن نسطورس قد رسم رسوما جائرة ، وأحدث مكوسا ، تزيد على ما جرى الرسم بأخذه ، فألغى ابن عمار ذلك ورد الأمور الى ما كانت عليه ، وقبض على ابن نسطورس وقتله فى صفر سنة ٣٨٧ هـ (٤٧٨) ٠

وحتى عصر الحـاكم بأمر الله ، الذى يتهمـه المؤرخـون ، بالتعصب الشديد لمذهب الشيعة واضطهاده لأهل الذمة من القبط واليهود ، نجد أن أهل الذمة كانـوا يلعبون دورا مهما فى ادارة البلاد المصرية وسياستها ٠ فنجد من بينهم وزراء الحاكم بأمر الله ، وكتابه ، بل وأيضا عمال الخراج وغيرها من شئون الحكم والادارة ٠

ونلاحظ أن أغلب هؤلاء الموظفين الذميين فى خلافة الحاكم بأمر الله — كانوا من القبط دون اليهود ٠ ونذكر منهم أبا العلاء فهد بن ابراهيم ، وهو أحـد القبط البارزين فى ذلك العصر ، فقد

ولى الوزارة للحاكم ، وكان قبل توليه الوزارة كاتبا لبرجوان الذى تولى الوصاية على الحكم فى أول خلافتـه سنة ٣٨٧ هـ . ولقب أبو العلاء بالرئيس ، فى جمادى الأولى سنة ٣٨٨ هـ (٤٧٩) . فلما زال أمر برجوان ، واستقل الحاكم بأمر الخلافة ، استوزر أبا العلاء فهدا (٤٨٠) . وطلب احضار جميع الكتاب والمستخدمين وأوصاهم بطاعة فهد ، واحترامه ، وبرعاية الأعمال ، والحرص على الأموال ، فأجابوه بالسمع والطاعة ثم قال الحاكم لفهد : « أنا حامد لك ، وراض عنـك ، وهؤلاء الكتاب خدمى فـاعرف حقـوقهم ، وأجمل معاملتهم ، واحفظ حرمتهـم ، وزد فى راتب من يستحق الزيادة بكفايته وأمانتـه » (٤٨١) .

واستمر أبو العلاء فهد بن ابراهيم ، يتمتع بنفوذه العظيم ، وسلطانه الواسع ، حتى زال أمره، وقتل فى سنة ٣٩٣ هـ (٤٨٢). فقد تآمر عليـه اثنان من عمال الحاكم بأمر الله وهما أبو طاهر محمود بن محمد النحوى البغدادى ، وكان يتولى ديوان الحجاز ، وابن العـداس المصرى ، متولى ديوان الخراج . فقـد نجحا فى السعاية والوشاية به عند الخليفة ، واقترحا عليه القيام بالمهام التى يقوم بها فهد ، ونصحاه بالخلاص منه وقتله . وقالا له : « نكتب خطوطا لك ، بأننا نكفيك أمرك ، ونقوم بتصفيتها على مرادك، ونقـيم لك وجـه المال الذى ضمنـا استخراجه لك وتوفيره من الأعمال » (٤٨٣) . فأمر الحاكم بأمر الله بقتل فهد ، والقبض على أخيه أبى غالب . على حين أحسن الى أولاد فهد ، وخلع عليهم ، وكتب لهم سجلا بالأمان ، وبحماية دورهم ، وعدم التعرض لهم (٤٨٤) .

كان من بين الوزراء القبط فى عهد الحـاكم ، منصـور بن عبدون ، وقد ولى الوزارة بعد على بن صالح الروذبارى . وكان ابن عبدون يتميز بالمكر والشدة . وكان بينه وبين أبى القاسم الحسن

ابن علي المغربي وأبيه أبي الحسن عداء قديم • فبدأ كل واحد منهما محاولة الايقاع بالآخر • وأكثر أبو القاسم من السعاية بالكتاب القبط ، حتى أمر الحاكم بأمر الله بالقبض على جماعة منهم ، وضربهم خمسمائة سوط ، فاذا مات أحد منهم رموا بجثته للكلاب ، وان لم يمت أعيد ضربه ، « فبذل جماعة منهم مالا عظيما ، على أن يستبقوا ، فلم يقبل منهم ، واستمرت الشحناء بينهم » (٤٨٥) •

استمر الخلاف والخصام بين منصور بن عبدون الناظر فى الدواوين بمصر ، وبين بنى المغربى ، وقتل كثير منهم • ولكن ما لبث أن تغير الخليفة الحاكم على ابن عبدون ، وقتله – وكانت هذه هى سياسة الخليفة الحاكم دائما ، يقرب اليه الأشخاص ، ويكثر من الهدايا اليهم ، ويجعلهم فى أعلى مناصب الدولة ثم ما يلبث أن يحنق عليهم ، فيقتلهم ، ويصادر أموالهم وأملاكهم – ويبدو أن ابن عبدون كان كاتبا قبل توليه الوزارة ، وبعد أن تولاها لقب بالكافى • وقد استوزر الحاكم بأمر الله بعده ، زرعة بن نسطورس ولقبه بالشافى ، فى سنة ٣٩٧ هـ (٤٨٦) •

وكان من بين القبط المقربين الى الخليفة الحاكم ، أيضا ، صاعد ابن عيسى بن نسطورس الذى اصطنعه الحاكم فى سنة ٤٠٩ هـ ، ورفع من شأنه ، وخلع عليه ، وكتب له سجلا ، صار بمقتضاه « قسيم الخلافة » الا أنه ما لبث أن تعرض لانقلاب الحاكم عليه ، وغدره به اذ أمر بقتله فى ذى الحجة من السنة نفسها ، وبذلك زال أمره (٤٨٧) • وتشير الرواية القبطية الى أن والى الاسكندرية ، فى بداية خلافة الحاكم بأمر الله ، كان من القبط ، ويسمى أبو مليح ابن قوطية (٤٨٨) • وفى الواقع أنه كان يلى حكم الاسكندرية منذ خلافة العزيز بالله واستمر فى منصبه حتى خلافة ابنه الحاكم بأمر الله •

ونستخلص من الأوراق البردية التى ترجع الى هذا العصر ، أن القبط كانوا يعملون فى جباية الخراج وأعمال الجهبذة ، نذكر منها بردية ، يرجع تاريخها الى سنة ٤٠٥ هـ ، وتتضمن ايصالا عن دفع الخراج عن كورة الأشمونين ، وفيها أن الجهبذ ، كان قبطيا ويسمى بقام بن شنودة (٤٨٩) ٠

وبرز أهل الذمة ، أيضا ، فى عهد الخليفة المستنصر بالله ، اذ كان يحبهم ، ويكثر من مجاملتهم واعتمد على كثير منهم فى ادارة شئون البلاد وتنظيمها ٠ وقد ذكرنا أن بعض الذميين وأكثرهم من اليهود كانوا قد تركوا دينهم ، واعتنقوا الاسلام فى سبيل الاحتفاظ ببعض وظائفهم ٠ والى جانب هؤلاء نجد أن كثيرا من الذميين ، قد شغلوا أعلى الوظائف فى البلاد ، ولعبوا دورا مهما فى سياستها ، مع احتفاظهم بدينهم ٠ ونذكر من هؤلاء الشيخ أبو زكريا يحيى بن مقارة ، وكان يتولى ديوان النفقات (٤٩٠) ٠ ومنهم أيضا أبو السرور يوحنا بن يوسف الأيح ، وكان كاتب سر الخليفة ، ويتمتع بمكانة عظيمة لديه حتى انه عهد اليه بأمر مصر وأعمالها ، « وما كان فوق يده ، يد ، الا يد الخليفة » (٤٩١) ونستخلص من كتابات المؤرخين المختلفة ، أنه كان يقوم بمهام الوزير ٠

كان ابن الأيح كريم الخلق ، يحسن الى القبط والمسلمين على حد سواء ، ويقضى حوائج الجميع دون أدنى محاولة لنصرة القبطى على المسلم ، كما كان يفعل غيره من القبط عندما يستخدمهم الخليفة ٠ كما كان يحاول ــ على قدر استطاعته ــ ازالة الضيم والجوز عن الجميع على اختلاف أديانهم ولذلك أحبه القبط والمسلمون على حد سواء (٤٩٢) ٠

وتمتع أبو السرور بن الأبح ، بمكانة عظيمة عند الخليفة المستنصر ، فكان ساعده الأيمن فى تصريف أموال دولته ، وكثيرا ما كان يقول للأمراء المسلمين ، وحجاب القصر ، وكبار رجال الدولة : « هذا النصرانى ، هو حركة دولتى ، وبغيره ما كان ينتظم للمملكة حال » • وكان بذلك يثير حقد بعض الأمراء على ابن الأبح ، حتى حاول أحدهم الايقاع به عند الخليفة ، فقال له : « انه قبطى لا يؤمن جانبه » وأكثر هذا الأمير من السعاية ضد الوزير القبطى ، أمام الحاضرين فى مجلس الخليفة المستنصر من الأمراء المسلمين وكبار رجال الدولة (٤٩٣)• وغضب المستنصر من هذا الأمير — ويسمى سهم الدولة — وأمر وزيره ، وكاتم سره القبطى ، بالحجز على جميع أموال هذا الأمير وأملاكه والختم عليها ، وأن يبيع منها ما يحب بيعه ، ويحمل أموالها الى بيت المال ، ويسجل الباقى فى ديوان المال • كما أمر الخليفة — فى الوقت نفسه — بالقبض على الأمير المسلم ، الناقم على وزيره ، ووضعه فى السجن (٤٩٤) •

كان أبو السرور يوحنا طيب القلب ، حسن النية ، ولذا حزن لما حل بالأمير سهم الدولة ، كما خشى اجتماع الأمراء المسلمين عليه، انتقاما لما حل بزميلهم ، فاتصل بهم ، وطيب خاطرهم ، وطلب منهم التعاون معه فى التماس الصفح والعفو من الخليفة لسهم الدولة ، ونجح فى مساعيه ، وأطلق سراح سهم الدولة ، وأعيدت اليه أمواله وأملاكه (٤٩٥) •

وبالرغم من ذلك استمر سهم الدولة ، يكن كل حقد وكراهية للوزير القبطى : فلما كانت سنة ٤٦٥ هـ ، حاول الافرنج غزو دمياط ، فخرج المستنصر بجنوده لردهم على أعقابهم • فرأى سهم الدولة انتهاز الفرصة لتدبير مكيدة ، ضد أبى السرور ، بالاتفاق مع غلام كان يعمل فى خدمته ثم طرده ، فحنق عليه واتصل

بسهم الدولة ، وكتب سهم الدولة كتابا على لســان أبى السرور للافرنج ، ذكر فيه دلائل وأمورا ، يستعينون بها فى هزيمة المسلمين وهلاكهم • ورسم لهم فى كتابه خطة المسلمين ، وأمر الغلام بحمل الخطاب الى الافرنج فى طريق جند الخليفة (٤٩٦) •

وقبض الجند المسلمون على الغــلام ، وقدموه للمستنصر ، فأخذ الكتاب منه ، وقرأه ، وعلم منه أن سيده كاتب سر الخليفة أبى السرور هو الذى أمره بتوصيل الكتاب الى الافرنج ، فغضب الخليفــة أشد الغضب ، وأحضر أبا السرور وقال له : « ويلك يا ملعون يا نجس ، أيش كنت تريد تكون فى دولة الافرنج ، هل وصل أحد لما وصلت أنت فى الجاه فى أيامى ، أنت الخليفة، أنت هو صاحب البــــلاد ، لعن الله من يلبس النصارى ثوب العز » وأمر بالقبض عليه وقتله ، ومصادرة كل أمواله وأملاكه • وقد نجا أبو السررو من القتل ، اذ شفع له لدى الخليفة ، أحد الأمراء المسلمين اكتفاء بتعذيبه ومصادرة أمواله (٤٩٧) •

وبعد أن تم للمســـلمين الغلبـــة على الافرنج ، واستعادة دمياط ، وتنظيم أمورها ، طلب الخليفة شنق أبى السرور يوحنا ، عقابا له على ما كان يريده بالمسلمين ودولتهم • ولكن الخليفة سرعان ما فطن الى المكيدة التى دبرها سهم الدولة بالاتفاق مع الغلام (٤٩٨)• فأمر المستنصر بشنق الغلام ، وسجن الأمير سهم الدولة ، ومصادرة كل أمواله وأملاكه ، على حين يرد الى أبى السرور يوحنا كل ما أخذ منه من الأموال • ولكنه رفضها قائلا للمستنصر : « يا مولانا ، من مالك قدمت لك ، وكل ما أنا فيه من نعمتك ، وحصل لى من جاهك ، وعندى كثير من انعامك ، وصدقاتك مما لا أستحقه » • فاستحسن الخليفة ذلك منه • ثم طلب أبو السرور من الخليفة ، أن يأذن له فى بناء كنيسة فكان له ما أراد (٤٩٩) •

ولما توفى أبو السرور يوحنا ، حزن عليه المستنصر أشد الحزن ، وقال للأمراء المسلمين : « والله يا أمراء هذا كان نعم الوزير، ونعم المشير ، وكنت مستبارك برأيه ومشورته ، ومهما سألته عنه ، أجابنى من ظاهر قلبه من غير دفتر » (٥٠٠) • وأمر الخليفة باحضار ابن أبى السرور اليه وسلم اليه ديوان أبيه ، كما عين له بعض الكتاب المعلمين لتعليمه ، فتعلم فى أقل من سنة أصول الحساب والخط العربى والنحو ، وبذلك واصل القيام بمهام أبيه بعهد من الخليفة المستنصر (٥٠١) •

كما نجد أيضا ، كثيرا من المستخدمين القبط فى الدواوين المختلفة فى خلافة المستنصر ، ومنهم الشيخ أبو الفضل يحيى بن ابراهيم ، وكان يتولى ديوان الأبواب وديوان الصناعة (٥٠٢) وقد تولى هذا الديوان فى سنة ٤٧٨ هـ الشيخ الأثير نجيب الدولة ومكينها أبو مليح مينا بن زكريا ، فى وزارة أمير الجيوش بدر الجمالى (٥٠٣) •

أما ديوان المجلس (٥٠٤) فكان يتولاه فى ذلك العصر، الشيخ أبو الطيب سهلون بن كيل ، وكان يجلس فى قبة الخراج بالقصر• وكان شديد الظلم بالناس ، فصادر أموالهم واشتد فى عقوبتهم • وكان يساعده فى هذه السياسة الظالمة كاتب الخزانة أبو الحارث • وامتد ظلمه وقسوته الى المسلمين والقبط اخوانه فى الدين — على حد سواء — وممن حلت بهم عقوبتهما موهوب بن مفرج الاسكندرانى، وأبو الخير بن أبى السرور بن الأيح ، وأبو الفتح بن روفائيل الكاتب • وكان يطالبهم كما يطالب غيرهم بدفع مبالغ اضافية من الأموال (٥٠٥) •

وامتد هذا التعنت والظلم الى جميع أنحاء البلاد المصرية • فلما علم الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى بهذه المظالم أمر بالقبض

على سهلون بن كيل وأبى الحارث ، وطيف بهما ، ثم صلبا على باب النصر وقتلا رميا بالنشاب (٥٠٦) ٠

ومن المستخدمين القبط أيضا فى ذلك العصر ، أبو المليح منصور ، ويعرف بابن العلمى، وكان يتولى امر الاسكندرية (٥٠٧) ٠ وهكذا قام الذميون ، وخاصه القبط منهم ، بدور عظيم فى شئون مصر السياسيه والاداريه فى خلافه المستنصر ، الذى اشتهر بحبه وبحسن معاملته لهم ٠ واستمر الذميون يقومون بالدور نفسه حتى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله ، الذى كان جل اعتماده عليهم ، فكان منهم الكتاب وعمـال الدواوين دون الوزراء ٠ ذلك أنه منذ وزارة بدر الجمالى - فى خلافة المستنصر بالله - وحتى خلافة الحافظ لدين الله الذى استوزر بهرام الارمنى ، لم يتخذ الخلفاء وزراء من أهل الذمة ، وكان استخدامهم قاصرا على أعمال الكتابة ومختلف الدواوين ٠ ونلاحظ ذلك أيضا بعد زوال امر بهرام الأرمنى وانتهاء عمله فى الوزارة للخليفة الفاطمى الحافظ ٠

ويصف بعض المؤرخين استخدام القبط ، خاصة فى خلافـة الآمر بأحكام الله ، فيقولون : « فى أيام الآمر بأحكام الله ، بالديار المصرية ، امتدت أيدى النصارى وبسطوا أيديهم بالخيانة ، وتفننوا فى أذى المسلمين ، وأيضا المضرة اليهم » (٥٠٨) ٠ ونلاحظ فى هذا العصر ، أن معاملة الموظفين القبط السيئة ، امتـدت الى المسلمين ، والى اليهود أيضـا ٠

ونذكر من المستخدمين القبط فى ذلك العصر ، الشيخ أبو الفضل بن الأسقف ، وكان يتولى ديوان المجلس ، والنظر فى جميع الدواوين وأعمال الدولة (٥٠٩) ٠ وكان مثله مثـل سـائر كبار المستخدمين القبط فى رعاية مصالح اخوانهم فى الدين ، وتسهيل

أمورهم وتحقيق رغباتهم ٠ ولذا نجد ابن الأسقف يطلب من الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش اعفاء البطرك أنبا مقارة ، من الرسوم التى جرت العادة بدفعها لوالى الاسكندرية والمستخدمين هناك ، وأخبره أنه لا يتمكن من ذلك ، لأنه راهب لا يمتلك شيئا ٠ كما التمس منه استدعاءه اليه وتطييب خاطره ، وتدعيم مركزه (٥١٠) ٠

واستجاب الأفضل ، لطلب ابن الأسقف ، وأمر بكتابة منشور الى والى الاسكندرية وغيرها من الأقاليم التى يمر بها البطرك فى طريقه، يأمرهم فيه باعزازه واكرامه، واعفائه من الرسوم ومساعدته ومعاضدته فى كل ما يحتاج اليه (٥١١) ٠

وكان من بين المستخدمين القبط فى ذلك العصر ، أبو اليمن وزير متولى ديوان أسفل الأرض ، وكان يشترك مع ابن الأسقف فى السعاية بالموظفين اليهود ، لحقدهم الشديد عليهم ، لما تمتعوا به فى ذلك العصر من المكانة العظيمة لدى الخلفاء ، والعمل على استخدامهم فى بعض الوظائف ٠ وكانت دسائس كل من ابن الأسقف وأبى اليمن وزير تثير المشاعر ضد اليهود فى كل البلاد المصرية (٥١٢) ٠ ونلمس من كتابات المؤرخين المختلفة ، اعـ . . ذكر الموظفين اليهود ، الا عددا قليلا جدا منهم ، ولعل ذلك راجع الى أن معظمهم كان يعمل بالتجارة ويبتعدون عن السياسة والحكم ، التى كان يقوم القبط بالجانب الأكبر منها ٠

ونذكر من المستخدمين اليهود فى ذلك العصر أبا المنجى بن شيه الذى عهد اليه الأفضل بالاشراف على شئون الزراعة ٠ فقام بحفر قناة تبدأ من النيل ، وتخدم أراضى الدلتا وقد نسبت هذه القناة اليه وسميت باسمه ٠ كما قام أبو المنجى ، بخدمات عظيمة فى الحياة الزراعية فى ذلك العصر ، ولكن ما لبث أن وشى به ، الدى الأفضل ، بعض الحاسدين عليه ، فأمر بسجنه (٥١٣) ٠

واشتهر من كتاب الدواوين آنذاك : أبو العلاء بن تريك وكان محبا للعلم ، ويعمل فى ديوان المكاتبات (٥١٤) ، ثم عمل فى بيت المال (٥١٥) . ولما استحدث الأفضل ديوان التحقيق فى سنة ٥٠١ هـ ، عهد به الى الشـــيخ أبى البركات يوحنا بن أبى الليث (٥١٦) . ولما توفى ابن الاسقف ، جعل كل المهام التى كان يقوم بها ، الى الشيخ أبى البركات . فتسلم النظر فى الدواوين والأموال والمصالح فى جميع أنحاء البلاد المصرية ، واستمر يتولاها حتى قتل فى سنة ٥١٨ هـ (٥١٧) . كما استخدم الأفضل أيضا القبط فى الديوان الخاص ، فقد وليه منهم آنذاك ، أبو الفضل جعفر بن عبد المنعم المعروف بابن أبى قيراط (٥١٨) .

ويذكر يعقوب مان (٥١٩) Mann أن بعض الوثائق تشـــير الى أن الأفضل كان يقرب اليـــه القبط أكثر من اليهود . وأنه فى وزارته ، فى عهد الخليفة الآمر ، تعرض اليهود للأخطار وخاصة بعد وفاة ناجد اليهود ميبوراك Meborak الذى كان له شأن فى تاريخ مصر السـياسى ، كما كان على علاقة طيبـة بالأفضـــل . ويضيف مان ، الى ذلك أن المستخدمين القبط هم الذيـن كانـــوا يسيئون لليهود ، ويوقعون بهم لدى كبار رجال الدولة . وكان أول ما فعله الشيخ أبو البركات يوحنا ، عزل الموظفين اليهود من الوظائف التى كانوا يشغلونها فى ذلك العصر . ولكن بعد وفاته « صار لأعداء اليهود اليد العليا فى البلاد » وقد حاول اليهود الانتقام من الشيخ أبى البركات ، فاتهموه بمراسلة الافرنج فى بلاد الشام ، والتعامل معهم ضد المسلمين . وهكذا كان فريقا أهل الذمة فى مصر على عداء فيوقع كل فريق بالآخر .

ومن القبط الذين اشتهر أمرهم فى عهد الخليفة الآمر ، الراهب أبو نجاح بن مينا ، وكان يعمل فى خدمة الشـــيخ أبى

البركات يوحنا بن أبى الليث (٥٢٠) ثم دخل فى خدمة الخليفة فى سنة ٥٢٠ هـ ـ بعد انتهاء أمر الشيخ ابى البركات ـ وكتب اليه يشكو المستخدمين القبط ونهبهم الأموال وعدم صلاحيتهم ، وقال له : « انهم قد أخذوا أموال الدولة واستولوا عليها » (٥٢١) فسمح الخليفة له بمصادرة أموالهم (٥٢٢) ، كما أمر الخليفة باطلاق يد الراهب فى الدواوين والحسابات (٥٢٣) • واتخذ الراهب لقب : « الأب القديس ، الروحانى النفيس ، أب الآباء ، وسيد الرؤساء ، مقدم دين النصرانية ، وسيد البتركية (لعلها البطركية) صفى الرب ، ومختاره ، وثالث عشر الحواريين » (٥٢٤) •

وكان الراهب ، فى أول عهده ، جوادا ، كريما ، وأكثر من فعل الخير ، فعم الرخاء البلاد وتنشطت اقتصاديات مصر ، وزادت الايرادات ، ولكنه ما لبث أن استبد بالسلطة وحده ، وقبض على الكتاب وكبار رجال الدولة (٥٢٥) • وارتفع شأن الراهب ، فكانت تنسج له فى تنيس ودمياط ، ملابس خاصة من الصوف الأبيض المحلاة بالذهب وكان يرتدى فوقها غفارة (٥٢٦) ديباج ، ويتطيب بعدة مثاقيل (٥٢٧) مسك • وكان يركب الدواب بالسروج المحلاة بالذهب والفضة ، ويجلس فى قاعة الخطابة ، فى جامع عمرو بن العاص ، حيث يستدعى الناس للمصادرة (٥٢٨) •

سيطر الراهب على الدواوين ومصالح الحكومة ، وبدأ بمصادرة أموال القبط ، وقبض على الكثير منهم • وبعد أن أنزل الكثير من الشدائد باخوانه القبط ، تحول الى المسلمين ، وأنزل بهم الوانا من الأضرار (٥٢٩) • ويقول ابن النقاش (٥٣٠) عنه : « فصادر اللعين عامة من بالديار المصرية من كاتب وحاكم وجندى ، وعامل وتاجر ، وامتدت يده الى الناس على اختلاف طبقاتهم » •

وهكذا أساء الراهب استعمال سلطانه ، والحق الأذى بكل المصريين من القبط والمسلمين ، على اختلاف مراكزهم فى الدولة . فلما تمادى فى استبداده ، حاول بعض شيوخ الكتاب نصيحته حتى يعدل عن سياسته « وأشاروا عليه بترك ما يكون سببا فى هلاكه » . وأفهموه أن عاقبة ذلك ستكون سيئة (٥٣١) . ولكن الراهب أجابهم قائلا : « نحن ملاك هذه الديار ، حرثا وخراجا ، ملكها المسلمون منا ، وتغلبوا عليها ، وغصبوها ، واستملكوها من أيدينا ، فنحن مهما فعلنا بالمسلمين ، فهو قبالة ما فعلوا بنا ، ولا يكون له نسبة الى من قتل من رؤسائنا وملوكنا ، فى أيام الفتوح فجميع ما نأخذه من أموال المسلمين وأموال ملوكهم ، وخلفائهم حل لنا ، وهو بعض ما نستحقه عليهم . فاذا حملنا لهم مالا كانت المنة لنا عليهم »(٥٣٢) . أى ان الراهب أراد بتصرفاته هذه ، الانتقام لقبط مصر من العرب المسلمين ، فى حين أن جميع المصادر التاريخية تؤكد أن العرب المسلمين ، قد أحسنوا معاملة القبط فى أثناء فتح مصر ، وطوال العصر الاسلامى .

كما أنشد الراهب هذين البيتين ، وهما فى الواقع يعبران عن مشاعره وسياسته نحو المسلمين :

بنتي كرم يتموهـا أمها وأهانوها فديست بالقـدم
ثم عادوا حكموها بينهم ويلهم من فعل مظلوم حكم

(٥٣٣)

وعلم الخليفة الآمر ، بمقالة الراهب ، فغضب أشد الغضب ، وقرر الانتقام منه ومن غيره من الذميين . يقول القلقشندى (٥٣٤) : « ثم انتبه من رقدته، وافاق من سكرته ، وأدركته الحمية الاسلامية والغيرة المحمدية ، فغضب لله غضبة ناصر للدين ، وثائر للمسلمين، فألبس أهل الذمة الغيار ، وانزلهم بالمنزلة التى أمر الله أن ينزلوا بها من الذل والصغار ، وأمر أن لا يولوا شيئا من أعمال الاسلام ،

وأن ينشأ فى ذلك كتاب يقف عليه الخاص والعام » · سنذكر نص هذا الكتاب ، فى نهاية الرسالة ضمن الملاحق ·

استدعى الخليفة الآمر ، الراهب ، وسأله عن حقيقة ما سمعه، فلم يجبه بشيء ، فأمر والي مصر ، بتسليمه الى الشرطة ، وضربه بالنعال حتى يموت (٥٣٥) · وعلى أثر ذلك غضب الخليفة على كل الذميين ، وقرر عدم استخدامهم ، وتطبيق الأحكام الاسلامية عليهم، والتشديد عليهم فى الالتزام بها ·

الا أن هذه السياسة - سياسة عدم استخدام الذميين في شئون الحكم والادارة - لم تدم طويلا ، ذلك أنه عندما تولى الخلافة الحافظ لدين الله (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ = ١١٣٨ - ١١٤٩ م) استوزر أحد الذميين ، وهو بهرام الأرمنى فى سنة ٥٢٩ هـ ، وظل يتولى الوزارة حتى ربيع الآخر سنة ٥٣١ هـ (٥٣٦) ، وعظم أمر هذا الوزير الذمى عند الخليفة الحافظ ، حتى كثر كلام المسلمين فيه لأجل مذهبه وحسدوه لأجل محبة الخليفة له · وكونه أعلى كلمته عليهم · وكان للنصارى فى أيام دولته ، نفاذ كلمة ، وعزة نفس ، وكل تصرف جليل من الدواوين الكبار الذى للخليفة والوزراء ، فى أيديهم · وكان منهم النظار والمشارفون فى جميع أرض مصر ، قبليها وبحريها وثغورها » (٥٣٧) ونرى من ذلك ان استخدام الخلفاء الفاطميين لأهل الذمة ، لم يكن قاصرا على القبط واليهود من المصريين ، بل استخدم بعضهم ، بعض الأجانب من غير المسلمين ، ومنحوهم كثيرا من السلطات ، وكان هؤلاء يحابون القبط المصريين ، فاتسع نفوذهم جميعا ·

وكان يتولى ديوان التحقيق فى وزارة بهرام الأرمنى ، الشيخ أبو زكريا بن يحيى بن بولس الكاتب النصرانى ، وقد خلع عليه الخليفة دراعة (٥٣٨) · وأقام داخل القصر ، فى موضع أفرده له · وقد استخدم معه اثنى عشر كاتبا قبطيا (سنة ٥٣٠ هـ) (٥٣٩) ·

وهكذا انبسطت أيدى أهل الذمة ، وخاصة المسيحيين اليعاقبة منهم ، فى مختلف شئون الحكم ، وصار لهم النفوذ والسيادة على المسلمين .

وغضب المسلمون ، لعلو شأن القبط وغيرهم من المسيحيين . وتسلطهم عليهم ، ورأوا التخلص من نفوذهم وسلطانهم فى البلاد ، وذلك بالقضاء على عهد بهرام الأرمنى . فاجتمع نفر من الأمراء والجند والشعب عامة ، واستصرخوا برضوان بن ولخشى ، وكان الحافظ يحبه ، ويلقبه بلقب « فحل الأمراء » فاستنجدوا به وقالوا له : « وما للمسلمين من ينقذهم من اهانة الأرمن غيرك ، فان قووا أكثر من هذا ، تنصر كثير من المسلمين » . فحشد ابن ولخشى الجند ورفع المصاحف على أسنة الرماح (٥٤٠) . ورفض بهرام قتال المسلمين ، وقال لأصحابه ، انه قرر لقاء أخيه الباساك والسفر الى بلاد الأرمن ، وترك البلاد لأصحابها وأمرهم بحمل ما يمكنهم حمله من الأموال والمتاع كما قال لهم : « ومملكة هذه الديار ، قد جعلها الله للمسلمين ، فما يجوز ، ولا يحل لى من الله أن أقاتل القوم على مملكتهم ، وأنتزع منهم حقهم . ولو لم يستعن بى الخليفة، على ما جرى عليه من ولده ، ورضى بى ، بما فعلته من خدمته ، وطاعته، ما ابتدعت شيئا من نفسى » (٥٤١) وذهب بهرام الى قوص، فوجد أهلها ، قد ثاروا ، ضد واليها الباساك وقتلوه . فلجأ بعد ذلك الى الديارات ، حيث عكف على العبادة ، وترك الأمور الدنيوية (٥٤٢) .

أما رضوان بن ولخشى فقد استوزره الخليفة الحافظ فى سنة ٥٣١ هـ . وأمر ابن ولخشى بنهب الكنائس . وأحرق المسلمون دير الأرمن، وقتلوا بطركهم ، وكل من وجدوه معه من الرهبان . كما أمر بعدم استخدام أهل الذمة ، وخاصة القبط وغيرهم من

المسيحيين ، في الدواوين ... كما أمر بأن يشد أهل الذمة الزنار في أوساطهم ، وألا يركبوا الخيل ، كما ضاعف الجزية عليهم (٥٤٣) .
وكان ابن ولخشى ، أول وزير ، يأمر بالتضييق على أهل الذمة ، وينهى عن استخدام • ومما تجدر الاشارة اليه انه بعد زوال وزارة بهرام الأرمني ، في خلافة الحافظ ، لم يتول أحد من الذميين الوزارة حتى سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية في سنة ٥٦٧ هـ (١١٦٩ م) •

لمسنا من دراستنا ، لدور أهل الذمة في ادارة مصر في ذلك العصر ، كيف كان منهم الوزراء ، والكتاب ، وعمال الدواوين ، وكيف كان الكثير منهم يحظى برضاء الخليفة أكثر مما كان يناله المسلمون ، ولمسنا تسلط الذميين غالبا على المسلمين ، ومحاباتهم لاخوانهم في الدين • ويذكر جوتن (٥٤٤) Goiten أن كثيرا من القبط واليهود ، قد شغلوا أكبر مناصب الحكومة في عهد الخلفاء الفاطميين ، وعلى حين احتفظ الكثير منهم بدينهم الأصلي ، نجد أن بعضهم اعتنق الاسلام ، وان حافظوا على علاقاتهم الطيبة مع اخوانهم في الدين ، واهتموا برعاية مصالحهم •

ويرى أوليرى (٥٤٥) O'Leary أن النظم الادارية في الشرق الاسلامي ، قد أتاحت الفرصة ، لاظهار ما انطوت عليه نفوس الذميين من الظلم والخيانة ، تلك العواطف التي لم يقدروا على كبح جماحها ، حتى قام الدليل على صحة ما اتهموا به • ومع أن استخدام أهل الذمة في الوظائف المدنية كانت عادة منتشرة في البلاد الاسلامية ، الا أن الخلفاء الفاطميين أنفسهم قد بالغوا في استخدام أهل الذمة في الوظائف المدنية كانت عادة منتشرة في دراستنا لهذا العصر • والواقع أن أهل الذمة بصفة عامة ، كان لهم شأن عظيم في ذلك العصر ، فتقلد الكثير منهم الوزارة وقويت شوكتهم في الدولة (٥٤٦) •

لمسنا من دراستنا لدور أهل الذمة فى الحياة السياسية فى مصر فى عصر الولاة ، ثم فى عصر الدولتين الطولونية والاخشيدية ، موقف الولاة والأمراء المسلمين من اختيار البطرك واقامته على كرسى البطركية . وكيف كانت موافقتهم ضرورية لتمام اقامة البطرك الجديد . ونلاحظ أن هذه الظاهرة ، استمرت فى عصر الخلفاء الفاطميين ، الا أن الوزراء فى هذا العصر كان لهم دورهم الواضح أيضا فى اختيار البطرك ، وتعيينه . كما كان من الضرورى أن يتوجه البطرك بعد تعيينه للسلام على الخليفة ووزيره ، وكسب رضاهما ، ونذكر بعض الأمثلة على ذلك فيما يلى :

لما توفى البطرك أنبا زخارياس (٥٤٧) فى خلافة الظاهر لاعزاز دين الله ، بدأ القبط وأساقفتهم يفكرون فى تعيين بطرك جديد لهم . وطمع البعض فى هذا المنصب عن طريق اتصالهم بالخليفة ووزرائه . ولكن فريقا منهم أسرع الى الوزير على بن أحمد. وحدثوه فى هذا الأمر . وكان هذا الوزير يحب القبط ويميل اليهم ، فأخبرهم ، باعفاء البطرك الجديد من الرسوم التى كان مقررا دفعها عند اقامته ، ومقدارها ثلاثة آلاف دينار . ودعاهم الى اختيار بطركهم واقامته ، وأشار عليهم باتباع الطريقة السائدة فى بغداد عند اختيار المسيحيين هناك لبطركهم ، وهى طريقة القرعة (٥٤٨) .

واجتمع الأساقفة ورؤساء وادى هبيب من أجل ذلك ، واستقر رأيهم على اقامة القس شنودة بطركا لهم (٥٤٩) .

وكان من العادات المتبعة فى ذلك العصر ، أن يتوجه البطرك بعد اقامته الى قصر الخليفة ، ودار الوزير للسلام عليهما ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، نذكر منها ما حدث فى عهد الخليفة المستنصر بالله.

ووزيره أمير الجيوش بدر الجمالى . فبعد أن تمت مراسيم اقامة الأب كيرلص بطركا خرج من الاسكندرية قاصدا القاهرة ، للسلام على الخليفة ووزيره . فلما وصل الى جزيرة الروضة أرسل الأب يعقوب ، أسقف مصر ، الى الشيخ أبى الفضل يحيى بن ابراهيم ، صاحب ديوان الأبواب ، وأعلمه بوصول البطرك الجديد (٥٥٠) .

بادر الشيخ أبو الفضل يحيى، بارسال المراكب لنقل البطرك ومن كان فى صحبته من الأساقفة والكهنة ، الى مصر ، واجتمع عن الشاطىء عدد غفير من الشعب ، وسار البطرك بعد ذلك فى موكب عظيم حتى بلغ القصر ، ودخل البطرك الى مجلس المستنصر ، حيث كانت معه أمه وأخته . ورحب الخليفة والحاضرون بالمجلس ، بالبطرك الأب كيرلص ، وطلبوا منه البركة والدعاء لهم ، وقالوا له : « جعلك الله مباركا علينا وعلى دولتنا » وأمر الأسقف بطرس أسقف دميرة — أن يقرأ الدعاء للخليفة ، أمام باب القاعة التى يجلس فيها (٥٥١) .

غادر البطرك قصر الخليفة ، وتوجه الى دار الوزير ، أمير الجيوش بدر الجمالى ، وبين يديه القرآن . وأحسن الوزير لقاء البطرك وأكرمه ، ودعا البطرك له كثيرا . وقد أمر الوزير بدر الجمالى ، والى مصر ، بمرافقة البطرك الى أى مكان يريد الذهاب اليه « وأن يراعيه ويخدمه ، ويقضى حوائجه مادام بمصر » (٥٥٢) .

وهناك أمثلة أخرى توضح دور الخليفة فى اقامة البطرك الجديد فى ذلك العصر منها ما حدث فى خلافة الحافظ ، عندما توفى الأب غبريال بن تريك . واتفق القبط على اقامة ميخائيل بن دنشترى بطركا لهم . « ولما اتفقت الجماعة على الرضا به ، كرزوه شماسا ، ثم قسا ، وفى ثالث يوم كرزوه قمصا فى الكنيسة المعلقة بمصر ، بعد استئذان الخليفة يومئذ ، وخروج أمره بتقدمته . وكتب له سجلا بذلك » (٥٥٣) .

وتوفى البطرك الأب ميخائيل (فى جمعة عيد الفصح فى ٢ برمودة سنة ٨٦٣ ش) وتجدد النزاع حول كرسى البطركية : واتفق رأى رؤساء القبط والأساقفة على اقامة يونس بن أبى الفتح ـ أحد رهبان دير أبى يحنس ـ بطركا لهم ، وتسميته باسم يوحنا . فاستدعوه الى القاهرة ونصبوه قسا ثم قمصا بكنيسة المعلقة . ولكن يونس بن كدران ، طمع فى تنصيبه بطركا ، واتصل بالخليفة وموظفيه ، ينشد مساعدتهم له . فأمر الخليفة بعقد مجلس للبحث فى المرشحين لهذا المنصب واختيار أحدهم (٥٥٤) . وحضر هذا المجلس الأساقفة وخواص الدولة ، وقاضى القضاة ، وصاحب ديوان الانشاء ، وغيرهم من كبار رجال الدولة . وجرت بين الجميع ، مناقشات وحوار ، وأصر الأساقفة على اقامة يونس بن أبى الفتح بطركا دون ابن كدران ، الذى كان يطمع فى معاونة الخليفة وأصحاب السلطان له ، واستشهد الأساقفة ببعض المزامير ، لتأييد وجهة نظرهم (٥٥٥) .

ثم استقر الرأى ، على عقد مؤتمر آخر بالاسكندرية ، يحضره كبار رجال القبط والأساقفة والكهنة ، حتى يتم الاتفاق على اختيار أحد المرشحين . وحضر حاكم الاسكندرية هذا المجلس ، كما حضره القاضى والموظفون القبط ، والتجار والأساقفة من أهالى الفسطاط والقاهرة . وافتتح والى الاسكندرية هذا المجلس قائلا : « قد أمر مولانا ، سلام الله عليه ، آن الذى ترغبون فيه من هذين الرجلين ، قدموه عليكم ، فاتفقوا على من ترضون به منهما » واستقر رأى الجميع على يونس بن أبى الفتح ، فتم تكريزه بالاسكندرية (يوم الأحد وفى سنة ٨٦٣ ش) ثم عاد الى مصر حيث استقبله القبط أحسن استقبال ، وسار فى موكب عظيم حتى كنيسة أبى مرقورة ، مقر اقامته ومسكنه (٥٥٦) .

ولنا أن نتساءل بعد ذلك عن موقف الخلفاء الفاطميين من البطرك الملكانى ، وما موقفهم من كل من الملكانيين واليعاقبة ؟؟ والحقيقة أننا لا نجد فى المصادر التاريخية الا اشارات يسيرة الى البطرك الملكانى فى ذلك العصر . ويبدو أنه كان يعيش مع اخوانه الملكانيين فى هدوء وسلام ، يؤدون ما عليهم من التزامات دون معارضة . وتذكر الزواية القبطية أن الخليفة الفاطمى العزيز بالله ، كان له دوره الواضح فى اقامة البطرك الملكانى فى عصره ، وهذا البطرك هو الأب أرسانى ، أخو زوجته الملكانية المذهب ، وأمر الخليفة العزيز برد الكنائس اليه بعد انتزاعها من اليعاقبة (٥٥٧) .

ولما توفى البطرك أرسانيوس - كما يسميه ابن سعيد الأنطاكى - فى أثناء موجة سخط الحاكم بأمر الله ، ضد أهل الذمة جميعا ، ظل الملكانيون بدون بطرك ، حتى أذن الخليفة الحاكم لأهل الذمة جميعا بعمارة الكنائس ، وأمر برد أوقافها اليها ، فرأى الملكانيون اقامة بطرك لهم . واتفق الجميع على اقامة الأب جرجس (جرجيوس) بطركا ، وهو من أهل دمياط ، وقد ترهب بدير طور سيناء . كما أقاموا سنة ٤١١ هـ ، أساقفة ملكانيين لدمياط ومصر ، وبدءوا فى تعمير كنائسهم وأديرتهم . وكان يعاونه فى تحقيق ذلك كله ، أخت الحاكم بأمر الله (٥٥٨) . ومما لاشك فيه أن هذه السيدة هى ابنة زوجة الخليفة العزيز بالله ، المسيحية الملكانية ، الرومانية الأصل . ولذلك كانت تساعد الملكانيين ، وتعمل على تحقيق رغباتهم ، وبلوغ آمالهم ، مما يوفر لهم كل أمن وسلام .

ونستخلص من هذه الدراسة ، أن أهل الذمة كانوا يتمتعون بالحرية فى حياتهم الدينية والدنيوية ، وكانت اقامة البطرك القبطى أو الملكانى تتم فى هدوء وسلام دون اعتراض من جانب الخلفاء الفاطميين ، الذين اشتهروا بحبهم للذميين ، وتقريبهم لهم ،

والاعتماد عليهم فى شئونهم وشئون دولتهم ، ويمكننا أن نقول ان العصر الفاطمى كان من أزهى العصور التاريخية بالنسبة لأهل الذمة فى تاريخ مصر الاسلامية ، وان كان لم يخل أحيانا من بعض الفترات المحدودة التى عانى أهل الذمة منها ، وخاصة فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، الذى اشتهر بالتقلب والتغير السريع ، وشملت مظالمه أحيانا الذميين والمسلمين ، على حد سواء .

كان عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ ـ ٤١١ هـ) أسوأ الفترات التى شهدها أهل الذمة . وكان يتولى البطركية حينئذ الأب زخارياس ، الذى أقامه اليعاقبة بطركا لهم (سنة ٣١٣ هـ ـ ١٠٠٤ م ـ ٧١٦ ش) واستمر يتولى منصبه ثمانى وعشرين سنة . منها تسع سنوات ، حفلت بالشدائد ، نتيجة سياسة الخليفة الحاكم بأمر الله نحو أهل الذمة (٥٥٩) ويقول المقريزى (٥٦٠) : « وفى بطركيته نزل بالنصارى شدائد لم يعهدوا مثلها . وذلك أن كثيرا منهم ، كان قد تمكن فى أعمال الدولة حتى صاروا كالوزراء ، وتعاظموا لاتساع أحوالهم وكثرة أموالهم ، فاشتد بأسهم ، وتزايد ضررهم ومكايدتهم للمسلمين ، فأغضب الحاكم بأمر الله ذلك ، وكان لا يملك نفسه اذا غضب » .

ونرى أن سياسة الحاكم لم تكن موجهة ضد القبط فحسب ، بل نحو اليهود والمسلمين أيضا . فقد اشتهر الحاكم بحدة الطباع فى معاملته لخاصته وقواده ، وبقسوته أحيانا فى معاملة رعاياه ، وتقلب سياسته ، حتى انه تنكر لوصيه ومربيه برجوان (٥٦١) . وتشير بعض المصادر الى أن الحاكم كان قد أنقذ حوالى مائتى ألف يهودى ، من أيدى جماعة من المغتصبين كادوا يفتكون بهم فى يناير سنة ١٠١٢ . وتمتدح هذه المصادر سياسة هذا الخليفة الفاطمى

ولكن هذه السياسة العادلة المتسامحة ، لم تكن تستمر طويلا ، اذ لم يلبث أن عاد الحاكم الى سياسة أخرى ، تتصف بالاضطهاد والظلــم (٥٦٢) ٠

استدعى الحاكم ، عشرة من مقدمى الأراخنة والكتاب القبط، وهددهــم بالقتل ، والتعذيب ، ان لم يعتنقوا الدين الاسلامى ٠ ونذكر من هؤلاء أبا نجاح ، وكان قبطيا أرثوذكسيا فحاول الخليفة أن يجذبه الى الاسلام ، ويجبره على التخلى عن الدين المسيحى فقال له : « أريد أن تتخلى عن دينك ، وتعود الى دينى ، فأجعلك وزيرى ، وتدبر أمور مملكتى » فطلب أبو نجاح منه أن يمهله الى اليوم التالى، فمضى أبو نجاح الى أهله ، وأصدقائه ، ودعاهم الى الايمان الصادق والتمسك بدين المسيح مهما كان الأمر ٠ وعاد الى الحاكم ، وأعلمه بتمسكه بدينه مهما تعرض للتعذيب ٠ وعند ذلك أمر الحاكم بضربه الف سوط حتى لقى حتفه » (٥٦٣) ٠

وتذكر الرواية القبطية أنه كان من بين هؤلاء القبط الرئيس فهد بن ابراهيم الذى قدمه الخليفة الحاكم على جميع الكتــاب وأصحاب الدواوين وقد قال له الحاكم : « أنت تعلم أننى اصطفيتك، وقدمتك على كل من فى دولتى ، فاسمع منى ، وكن معى فى دينى، فأرفعك أكثر مما أنت فيه ، وتكون لى مثل أخ » ولكنه أصر على تمسكه بالدين المسيحى ، فأمر الحاكم بضرب عنقه فى الحال (٥٦٤) ٠

وأصر باقى الأقباط العشرة على التمسك بعقيدتهم المسيحية ٠ فأمر الحاكم بتعذيبهم وضربهم بالسياط ، ولما اشتد بهم التعذيب والضرب ، أعلن أربعة منهم اعتناقهم الاسلام (٥٦٥) وينفرد ساويرس ــ دون غيره من المؤرخين القدماء ــ بذكر هذه الرواية القبطية التى تتهم الخليفة الحاكم بأنه عذب القبط وأمر بضربهم بالسياط حتى يعتنقوا الاسلام ٠

ويرى بعض الكتاب المحدثين أن الخليفة الحاكم بأمر الله ، أراد بذلك تحويل أرباب الوظائف من القبط الى الاسلام ، بدلا من طردهم . ذلك لأنه كان يعتقد ـ كما كان يعتقد غيره من الخلفاء الفاطميين أو حكام مصر قبل عصرهم ـ أنه لا يمكن الاستغناء عن الموظفين القبط فى ادارة البلاد ، وجباية أموالها (٥٦٦) .

وقد تتابعت أوامر الخليفة الحاكم بأمر الله ، التى عانى الذميون منها سواء من القبط أو اليهود . فقد تشدد فى تطبيق أشد الأحكام وأعنفها ، وتدخل فى حياتهم العامة والخاصة وفى هيئتهم وركوبهم . ونراه يبدأ بكتابة سجلات الى سائر الأنحاء المصرية ، يأمر فيها بألا يشرب أحد النبيذ ، وبكسر جميع الأوعية التى يحفظ فيها النبيذ فى كل مكان (٥٦٧) كما أمر بالتشديد عليهم فى منعهم من ضرب النواقيس . ثم أمر بنزع الصلبان من فوق قباب الكنائس وبمحو الصلبان المرسومة على أيدى القبط (٥٦٨) .

ورأى الحاكم بأمر الله ، ضرورة التمييز بين المسلمين وبين أهل الذمة فى الملبس والركوب . ففى المحرم سنة ٣٩٥ هـ ، ألزمهم بشد الزنار فى أوساطهم ، ولبس الغيار ، وأن يلبسوا العمائم السود على رءوسهم (٥٦٩) . ثم أمر فى سنة ٤٠١ هـ أن يغير النصارى واليهود الزنانير الملونة التى يلبسونها ، وأن يقتصروا على وضع الزنانير السود فقط دون غيرها من الألوان ، واستعمال العمائم السود أيضا (٥٧٠) .

وفى سنة ٤٠٣ هـ ، منع الحاكم بأمر الله ، أهل الذمة من ركوب الخيل ، وأمر بأن يقتصر ركوبهم على البغال والحمير بسروج، وألجم [illegible] محلاة بالذهب والفضة [illegible] (٥٧١) . وأن تكون ركب سروجهم من الخشب [illegible] (٥٧٢) [illegible]

أمر الخليفة الحاكم بأمر الله ، بألا يركب أحد من الذميين مع مكارين أو نوتية من المسلمين (٥٧٣) ثم أمر القبط بأن يحملوا فى أعناقهم صلبانا خشبية طولها شبر ، ثم أمر أن يكون طولها ذراعا ونصفا ٠ أما اليهود فيحملون كبة خشب على شكل رأس العجل الذى عبدوه فى البرية ٠ وما لبث أن أمر الحاكم بأن تكون زنة كل صليب خمسة أرطال وأن تكون الصلبان كلها مختومة بخاتم رصاص عليه اسم الخليفة ، وتعلق فى رقاب القبط وغيرهم بحبال من ليف ٠ وأمر الحكام بعقاب كل من يخالف هذه الأوامر عقابا شديدا (٥٧٤) ٠

وأمر الخليفة الحاكم بأمر الله بمنع الذميين ، من دخول حمامات المسلمين ، وجعل لهم حمامات خاصة بهم ٠ وميز حمامات القبط بصلبان خشبية ، وميز حمامات اليهود بقرم من الخشب (٥٧٥) وأمر بأن يكون فى أعناق القبط عند دخولهم الحمامات الصلبان ، وفى أعناق اليهود الجلاجل ، لتمييز الذميين من المسلمين (٥٧٦) ٠

واضطر كثير من أهل الذمة أمام هذه المضايقات المتنوعة الى اعتناق الاسلام ليأمنوا على أرواحهم ، ولتستقر حياتهم (٥٧٧) ٠ ويقول ابن سعيد الأنطاكى (٥٧٨) عن الحاكم انه « يتهدد النصارى ويفزعهم ، وكثرت الأراجيف ، والشفاعات فيهم ، فأسلم كثير من شيوخ الكتاب المتصرفين وغيرهم من النصارى ، وتبعهم خلق كثير من عوامهم ، وأسلمت أيضا جماعة من اليهود » ويذكر ابن سعيد أيضا ، أن دور أهل الذمة قد نهبت حتى اضطر البعض ازاء هذه المضايقات جميعا الى اعتناق الاسلام حتى تناقص عدد القبط كثيرا ، فى حين تمسك أكثر اليهود بدينهم ولم يعتنق الاسلام منهم غير نفر يسير ٠

ويشير يعقوب مان (٥٧٩) الى اسلام بعض اليهود ، تجنبا لهذه المضايقات ، على حين تمسك آخرون بدينهم ، وفضلوا مغادرة البلاد

المصرية الى اليمن والدولة البيزنطية ، ويشير الى أن بعض الوثائق التى وجدت بالفسطاط ويرجع تاريخها الى سنتى ١٠١٦ ، ١٠١٨ م، تتضمن أن رئيس الجالية اليهودية ويسمى ابرايم بن شماريا Ephraim b. Shemary أصر أمام الحاكم على تمسكه بدينه « وأعلن .. أنهم يهود » . كما تتضمن هذه الوثائق أن يعقوب بن يوسف متولى بيت الدين ترك مصر فى أثناء هذا الاضطهاد ، وخرج الى الشام حيث أقام فى مدينة حلب .

ونتيجة عسف الحاكم بأمر الله ، اضطر بعض الذميين الى كتابة الرقاع المتضمنة السب للخليفة الحاكم ، ولأسلافه ، وصنعوا تمثالا لامرأة من الورق ، وألبسوها خفا وازارا ، ونصبوها فى الطريق ، وجعلوا فى يدها رقعة فيها شتم قبيح للحاكم بأمر الله . فلما قرأها الخليفة الحاكم ثار غضبه ، وأمر بحرق مصر ، وقتل كل من فيها (٥٨٠) .

ويشير المقريزى (٥٨١) الى أن اليهود كانوا يسكنون فى حى من أحياء مصر ، ويسمى حارة الجودرية ــ نسبة الى احدى طوائف العسكر فى خلافة الحاكم بأمر الله ، وتسمى طائفة الجودرية ــ وعلم الحاكم أن يهود هذه الحارة ، يجتمعون للسمر فى أوقات فراغهم ويتغنون :

وأمة قد ضلوا ودينهم معتل ... قال لهم نبيهم نعم الأدام الخل

ويسخرون من الحاكم ويقولون ما لاينبغى قوله وسماعه ، فأمر الحاكم عند ذلك باحراق الحارة بمن فيها من اليهود .

كما كتب الخليفة الحاكم بأمر الله ، الى جميع عمال الأقاليم ، بتمكين المسلمين من هدم الكنائس والديارات ، ونهب ما فيها . فعم

الهدم كنائس مصر من سنة ٤٠٣ الى سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٣ — ١٠١٥ م) فهدمت الكنائس التى بظاهر مدينة الفسطاط ، وتخربت كنائس المقس خارج القاهرة ، وأباح الحاكم ما فيها للعامة ، فنهبوا منها الكثير (٥٨٢) • كما أمر الحاكم بأمر الله بهدم دير القصير ، ونهبت العامة ما فيه (٥٨٣) • واستولى الخليفة أيضا على جميع ما بهذه الكنائس من الأمتعة والأوانى الذهبية والفضية • ونلاحظ أن الخليفة لم يميز فى قراراته هذه بين القبط اليعاقبة وبين الملكانيين ، فالجميع أصابه الكثير من الأذى ، وتعرضت أديرتهم وكنائسهم للتدمير والخراب على حد سواء •

ويذكر يعقوب مان (٥٨٤) اعتمادا على ما جاء فى بعض الوثائق اليهودية ، أن معابد اليهود فى مصر لم تتعرض لأى تخريب أو هدم حتى سنة ١٠١٣ م حينما أصدر الحاكم بأمر الله أوامره بهدم جميع معابد اليهود ، وخاصة معبدهم الكبير بالفسطاط • ونستخلص من الروايات التاريخية المختلفة أن عصر الحاكم شهد فى مختلف أنحاء البلاد المصرية ، تخريب جميع الكنائس والأديرة والمعابد المسيحية واليهودية على حد سواء ، ونهب محتوياتها •

واضطر كثير من القبط اليعاقبة والملكانيين الى خلع الغيار والزنار والصليب وغيرها وتشبهوا بالمسلمين فى لباسهم ، فلم يكتشف أحد حقيقتهم ، وظنت عامة الناس أنهم قد أسلموا (٥٨٥) • على حين تمسك بعض القبط بعقيدتهم علانية • ونذكر من هؤلاء الشماس بقيرة • وكان يعمل فى الديوان ، ثم ترك الخدمة فيه ، وحمل الصليب ، وذهب الى قصر الحاكم بأمر الله ، وصاح قائلا : « المسيح ابن الله » وحاول الحاكم اقناعه باعتناق الاسلام ، ولكنه أصر على التمسك بعقيدته ، فكان — كما وصفه ابن المقفع — كالصخرة القوية التى لا تضطرب (٥٨٦)

وسخط الحاكم على بقيرة الشماس ، وأمر بقيده بالحديد ووضعه فى السجن ، ولكنه ما لبث بعد فترة قصيرة أن أمر باطلاق سراحه ، وكتب له سجلا ، جاء فيه « أن لا يعترض أحد بقيرة الرشيدى فى بيع ولا شراء ، ولا فى أمر من الأمور » وفرح بقيرة بذلك ، وطاف على جميع القبط وطمأنهم (٥٨٧)٠

وتشير بعض المصادر التاريخية الى أن الحاكم بأمر الله ، أمر أهل الذمة من القبط واليهود ، بالخروج من مصر الى بلاد الرومان ٠ ولكنهم اجتمعوا أمام قصره ، وسألوه العفو ، والسماح لهم بالبقاء فى الأراضى المصرية ، فأذن لهم بذلك ، وعفا عنهم (٥٨٨) وتشير بعض الوثائق الى وجود اليهود بالفسطاط سنة ١٠١٦ م ٠ حيث كانوا يقيمون فى حى خاص بهم فى قصر الشمع (٥٨٩) ، مما يدل عدول الحاكم عن نفى الذميين عن مصر ٠

ولم يكن القبط من الموظفين وعامة الناس هم الذين يتعرضون وحدهم لمضايقات الحاكم بأمر الله ، وأوامره ، بل عانى أيضا بطركهم الأب زخارياس من بعض الشدائد اذ أمر الحاكم بسجنه ثلاثة شهور ٠ وكان السبب فى ذلك طمع أحد القسس ، ويسمى يونس فى الأسقفية ولم يكن له حق فى تولى هذا المنصب الدينى ، كما كانت الأسقفية تشترى ، حينئذ بالمال (٥٩٠) ٠ فلما لم يحقق البطرك له هدفه ، رأى يونس أن يستعين بالخليفة للانتقام من البطرك ، فرحل الى القاهرة ، وكتب رقعة ، قدمها للخليفة الحاكم بأمر الله ، جاء فيها : « أنت ملك الأرض ، لكن للنصارى ملك لا يرضى بك لكثرة ما قد كنز من الأموال الجزيلة ، لأنه يبيع الأسقفية بالمال ، ولا يفعل ما يرضى الله تعالى » واتهم يونس البطرك باتهامات عديدة ، مما أثار غضب الخليفة ، وأمر فى الحال باغلاق جميع البيع ، واستدعاء البطرك اليه ، وأمر باعتقاله لمدة ثلاثة شهور (٥٩١) ٠

عانى البطرك الكثير فى سجنه ، وهدده القائمون على حراسته بالتعذيب ان لم يعتنق الاسلام ثم اتبعوا معه وسائل الترغيب ، فقالوا له : « ان أجبت الى ذلك نلت مجدا عظيما ، ويجعلك الحاكم قاضى القضاة » • ولكن البطرك أصر على تمسكه بدينه (٥٩٢) •

وحدث أن قبطيا ، اعتقلتــه الحكومة ، لأنه مدين لها بثلاثة آلاف دينار • وكان له صديق من العرب ، يدعى ماضى بن مفرب ، وكان له مكانة عظيمة عند الخليفة الحاكم بأمر الله ، فطلب القبطى منه أن يتوسط له وللبطرك عند الخليفة لاطلاق سراحهما ، واستجاب الخليفة لهذه الوساطة وأفرج عنهما (٥٩٣) • وهكذا نجا البطرك من الحبس وفرح قبط مصر لاطلاق سراحه ، ونصحوه بالاقامة فى أديرة وادى هبيب ، فأقام بها تسع سنوات (٥٩٤) • وهى السنوات التى تعرض القبط فيها للمضايقات والشدائد فى خلافة الحاكم بأمر الله •

ويروى ابن المقفع (٥٩٥) أن عامة الناس من المسلمين ، قد نهجوا ، نهج الخليفة فى ايذاء أهل الذمة ، فنراه يقول : « وكان على النصارى فى هذه التسع سنين ، ضيق عظيم ، وطرد وشتم ، ولعن من المسلمين ، ويبصقون فى وجوههــم • وكان أكثــر ذلك بمدينة تنيس وأعمالها ، واذا جاز نصرانى عليهم يشتموه ، ويقولوا له ، اكسر هذا الصليب ، وادخل فى الدين الواسع • وان نسى نصرانى صليبه ومشى بلا صليب لقى هوانا كثيرا » •

ويصف ابن الراهب (٥٩٦) سياسة الخليفة الحاكم بأمر الله ازاء أهل الذمة فيقول عنه : « وكان قد شدد على النصارى واليهود ، ونكل بهم ، وأخرب كنائسهم ، وقتل أكابرهم ، وعاقبهم ، وأسلم منهم خلق كثير » • ويبدو أن الدوافع التى دفعت بالحاكم الى هذا المسلك ازاء الذميين هو ضغط الرأى العام الاسلامى ، الذى أثارته

محاباة الخلفاء الفاطميين ، أسلاف الحاكم ، لغير المسلمين ، واستخدامهم فى شئون الادارة والحكم ، وحسن معاملتهم ، وتمتعهم فى ذلك العصر بالحرية الدينية ، مما أوغر صدور بعض المسلمين عليهم (٥٩٧) ٠

وهناك رواية قبطية تتحدث عن تمسك القبط بعقيدتهم ، بالرغم مما تعرضوا له من شدائد ومضايقات ، وحرصهم على القيام بطقوسهم الدينية، مهما كلفهم ذلك من مشاق فكانوا يؤدون الصلاة ويباشرون طقوسهم الدينية سرا بين أطلال الكنائس التى أصابها الخراب والهدم ٠ واذا فطن الولاة والحكام الى ذلك ، تقدم القبط لهم بالرشوة ، ليغضوا الطرف عنهم (٥٩٨) ٠

ثم تقول هذه الرواية القبطية ، « وبعدها بثلاثين سنة أخرى ، بدءوا يعمرون الكنائس فى البيوت ، ويكرزونها سرا ، ويصلون فيها ، ويتقربون » وحاول بعض المسلمين الايقاع بهم ، فسعوا بهم عند الحاكم ، وأخبروه بأن القبط قد بنوا الكنائس فى المنازل وفى الريف ، وأنهم يقدمون فيها القربان ٠ فى حين كان الحاكم بأمر الله لا يحفل بذلك ، وفضل التغافل عما يفعله هؤلاء القبط (٥٩٩) ٠

وفى سنة ٤١١ هـ (٧٦٣ ش) أصدر الحاكم بأمر الله سجلا سمح فيه لأهل الذمة ، بعمارة الكنائس ، وأعفاهم من لبس الغيار ، وحمل الصليب وسمح لهم أيضا بضرب النواقيس فى كل مكان ، كما كانوا يفعلون من قبل ، فعم الفرح والسرور بين جميع القبط (٦٠٠) ٠ ورغبت جماعة من القبط الذين اضطرهم الحاكم بأمر الله الى اعتناق الاسلام ، فى العودة الى دينهم المسيحى ، فأذن لهم الحاكم بذلك ، وأمرهم بلبس الغيار وشد الزنار ، ولبس السواد ، وحمل الصلبان (٦٠١) ٠

ويقول ابن زولاق ، انه فى سنة ٤١١ هـ (١٠٢٠ م) ارتد أكثر من سبعة آلاف يهودى الى دينهم القديم فى يوم واحد . كما عاد الى مصر كثير ممن كانوا قد تركوا الديار المصرية الى غيرها من البلاد (٦٠٢) . وشك كثير من القبط فى نوايا الحاكم بأمر الله ، وظنوا أن فى الأمر خدعة ، وأنه أراد الوقوف على ما فى ضمائرهم ، ثم ينزل بهم العقاب . وتقدم الأب سلمون رئيس دير طور سيناء الى الخليفة وأفصح له عن مخاوف القبط ، فكتب لهم سجلا ، منحهم فيه الأمان (٦٠٣) . وسنذكر نص هذا السجل فى الملاحق ، فى نهاية الرسالة . وهكذا تسامح الحاكم بأمر الله ، فى نهاية حكمه ، مع الذميين وترك لهم حريتهم الدينية، كما سمح لهم بتعمير كنائسهم ومعابدهم وكتب لهم سجلاته تخول لهم الحق فى ذلك .

ثم تولى الخلافة الظاهر لاعزاز دين الله ، فى شوال سنة ٤١١ هـ . بعد وفاة أبيه الحاكم ، فأصدر سجلا قرىء على الناس ، وفيه منح أهل الذمة الأمان على أرواحهم وأموالهم وأملاكهم ، وأولادهم ، وترك الحرية الدينية لهم (٦٠٤) . وعاشوا طوال عهد الخليفة الظاهر فى هدوء وسلام ، كما كانوا يعيشون قبل عهد الخليفة الحاكم بأمر الله .

ومن الفترات التى تعرض فيها أهل الذمة ، وخاصة القبط ، لبعض المضايقات عهد الخليفة المستنصر بالله ، ووزيره اليازورى الحسن بن عبد الله ، حين كان يتولى البطركية الأب اخرسطودلوس (٦٠٥) . ومن العوامل الرئيسية لهذه المضايقات ، موقف أبى الحسين عبد الوهاب بن على السيرفى ، الذى تولى القضاء فترة فى الاسكندرية ، وكان يبغض القبط أشد البغض، فلما زار مدينة دمروا (أو دميرة) حيث يقيم البطرك أخرسطودلوس، لم يوفه البطرك حقه فى الاحترام ، مما جعله يسخط عليه ، وعزم

على ايذائه ، هو واخوانه في العقيدة ، فسعى بهم عند الوزير ، فكان مما قال : « ان هذه دمروا ، هي القسطنطينية الثانية ، وفيها سبع عشرة بيعة ، أكثرها مستجد ، وأنه قد استجد في غيرها من النواحي بيع كثيرة . وان هذا الموضع ، قد عمر فيه موضع لسكناه، ونقش على باب الكفر ، وأهان الاسلام وأهله » ثم أشار على الوزير بأن يأمر بغلق جميع الكنائس وهدم ما استحدث منها ، وأن يفرض على المسئولين عنها أموالا كثيرة (٦٠٦) .

وقد أثار هذا الكلام حنق الوزير على القبط ، واشتد غضبه عليهم ، فكتب الى القاضي المذكور بأن يستوثق مما كتبه بحضور بعض الشهود معه . فسار أبو الحسين في صحبة بعض الموظفين الى دمروا ، ودخل منزل البطرك ، فوجد على باب المنزل نقش « باسم الأب والابن والروح القدس ، الاله الواحد » فأمر بازالته (٦٠٧) . وهكذا بدأت العاصفة ضد القبط ، اذ أمر الوزير ، عقب ذلك ، بغلق جميع البيع والكنائس في كافة أنحاء مصر (في ٥ بئونة سنة ٤٤٦ هـ = ٧٧٣ ش) وكان يعاون الوزير ، في تنفيذ هذه السياسة ، أبو الفرج البابلي ، وكان من متقدمي الدولة وأصحاب الدواوين ، وناصر الدولة بن حمدان والى الريف بالشرقية والغربية ، والذى أسرع بالقبض على البطرك والأساقفة ، وطالبهم بغرامة مالية قدرها سبعون ألف دينار (٦٠٨) ، كما قام ناصر الدولة بتعذيب ثلاثة من الأساقفة ، حتى لقوا حتفهم ، وهم : أبو اسحق وتادرس وأبو حرجة (٦٠٩) .

وبالرغم مما ألحقه اليازورى ، وأعوانه بالقبط وبطركهم من الشدائد ، كان يوجد بالبلاد المصرية في ذلك العصر ، من يعطفون عليهم ، ويشملونهم بالحماية ، ونذكر منهم ، حاكم الاسكندرية الأمير المؤيد حصن الدولة أبو تراب حيدرة بن ميروا الكتامي

الدمشقي ، الذى تصدى لحماية القبط ، ورعاية كنائسهم ، ولذا رفض تنفيذ أوامر اليازورى بغلق جميع البيع ، وبمطالبة قبط الاسكندرية بعشرة آلاف دينار ، ونصح القبط باخفاء جميع أوانى الكنائس وممتلكاتها وأموالها (٦١٠) .

وبعد تفاهم الأمير حصن الدولة مع قبط الإسكندرية ، بدأ تنفيذ أوامر الوزير اليازورى ، فاستدعى قاضى القضاة والشهود ، ومتولى الترتيب ، وأعلمهم بما جاء فى كتاب الوزير ، وعهد اليهم بتنفيذ ما جاء فيه ، من غلق الكنائس ، ونهب جميع ما فيها من الأوانى والذهب والفضة . ولكن هؤلاء — المكلفين بتنفيذ أوامر الوزير — لم يجدوا شيئا فى الكنائس سوى الحصير ومصايد الفئران ، فلما أخبروا الأمير حصن الدولة بذلك قال لهم : « اذا كان هذا موجودا فى كنائسهم ، وبيعتهم الكبيرة ، فكيف يكون حال هؤلاء النصارى ومن أين لهم هذا المال الملتمس منهم ؟! » (٦١١) .

ومهما كان الأمر ، فقد أغلقت جميع كنائس الاسكندرية ، سواء الكنائس اليعقوبية أو الكنائس الملكانية . وكتب الأمير حصن الدولة بذلك الى اليازورى ، ووضح له سوء أحوال القبط المالية ، وعدم مقدرتهم على دفع المبلغ المطلوب منهم . ومازال به ، يشكو له حال المسيحيين فى مدينته ، حتى خفض المبلغ المفروض عليهم الى ألفى دينار . عند ذلك بادر الأمير حصن الدولة بابلاغ القبط بذلك ، وجعل ألف دينار على القبط ، اليعاقبة والألف الآخر على الملكانيين (٦١٢) .

واستمر عطف الأمير حصن الدولة على القبط ، فكان يمد يده اليهم دائما بالمساعدات المالية ، فتذكر بعض الروايات ، أنه استدعى بعض القبط ومنحهم مائتى دينار ، وقال لهم : « هذه أخذتها

لكم من نصـــارى رشـــيد ، وأتكو ، والحديدية ، ومحلة الأمير . فيخذوها عوضا مما قمتم به » فشكروه ، واشتروا بهذه الأموال ثيابا وقمحا ، ووزعوا هذه الأشياء على الضعفاء والمحتاجين من اخوانهم القبط (٦١٣) .

وتعرض القبط مرة أخرى ، لبعض الشدائد ، فى عهد الخليفة المستنصر ، وذلك عندما نجح المشارقة والأتراك فى مصر ، فى اثارة سخط الخليفة المستنصر على ناصر الدولة بن حمدان وصحبه . وقامت الحروب بين الفريقين ، وتقهقر ناصر الدولة ومن معه الى الاسكندرية ، حيث حالفوا قبائل قيس ولواته (٦١٤) . وخرج ضد الخليفة المستنصر لمتابعتهم ومحاربتهم ، ولكن تحقق النصر لناصر الدولة ورجاله ، وملكوا كثيرا من المدن والقرى ، وعاثوا فيها نهبا وسلبا ، واستولوا على جميع ما فى الكنائس والأديرة من الأوانى الذهبية والفضية والأموال ، والحقوا بها الخراب والتدمير وأزالوا جميع ما فيها من الصور . وقبض اللواتيون على البطرك ، واستولوا على ما فى قلايتــه ، من الأمـــوال ، كمـــا الحقوا به كثيرا من العذاب (٦١٥) .

وكاد اللواتيون يفتـــكون بالبطرك القبطى لولا تدخل ناصر الدولة بن حمدان ، الذى أنقذه من أيديهم ، مقابل دفع ثلاثة آلاف دينار لهم . وأدى أبو الطيب بن يحنس الرواوى منها ألف دينار ، وبقى على البطرك تدبير باقى المبلغ . فرحل البطرك الى الاسكندرية وتنزل ببيعة أبى سرجة ، وطلب من أولاده وتلاميذه ، مساعدته فى تدبير هذا المبلغ ، فاعتذر اليه بعضهم ، واحتجوا فى ذلك بما هم فيه من غلاء ، وقسوة العيش . فغضب البطرك أشد الغضب ، وهددهم ، باقتراض المبلغ من القاضى ومن المسلمين ، فاستجابوا له ، وأدوا له المال المطلوب (٦١٦) .

وتعرض القبط أيضـــا دون غيرهم من أهـــل الذمة لبعض المضايقات ، فى عهد الخليفة الحافظ . ذلك أنه عندما ثار ابنه الحسن عليه ، قبض على البطرك الأب غبريال وسجنه وصادر أمواله . وغضب الكتاب القبط والعامة لذلك ، وجمعوا مبلغ ألف دينار ، قدموها للأمير الحسن للافراج عن بطركهم (٦١٧) .

كما تعرض رهبـــان وادى هبيب فى هذا العصر ، لبعض الشدائد ، وكان غضب الحافظ عليهم ، وانزال جنده الشدائد بهم ، نتيجة سعاية ، حلوش ، أحد رهبان دير لبوكا بهم (٦١٨) . فأراد الخليفة الحافظ ، التحقق من اتهامات هذا الراهب ، فأرسله مع بعض حجابه وجنده الى أديرة وادى هبيب . وألحق حلوش وجند الخليفة الأذى بالرهبان ، ونهبوا الأديرة ، وأحرقوا الكثير منها « وحل بهم منه شدة عظيمة ، وأخذ منهم قوما من شيوخهم ، ودخل بهم القاهرة » فلما التقى الحافظ بهم ، سألهم عن حقيقة أمرهم ، ومدى صدق اتهامات الراهب حلوش . فنفوا هذه الاتهامات . ولما تبين الحافظ الحقيقة ، أحسن اليهم ، وأكرمهم ، وسمح لهم بالعودة الى دياراتهم آمنين مطمئنين (٦١٩) .

وقاسى القبط وبطركهم بعض الشدائد ، فى خلافة الظافر أبى منصور بن اسماعيل الذى ولى الخلافة بعد أبيه الحافظ فى سنة ٥٤٤ هـ . وقد استوزر ، العادل بن السلار ، وقد ضيق هذا الوزير ، على القبط فى هيئتهم وملابسهم ، وألزمهم بشد الزنار ، وخلع الطيالسة من على رءوسهم . ولكن هذا التضييق على القبط لم يدم أكثر من ثلاثة أيام (٦٢٠) .

وتذكر الرواية القبطية أن هذا التضييق، كان نتيجة تحريض بعض الفقهاء الكارهين للقبط ، والى مصر آنذاك ، ناصر الدين نصر

ابن عباس ، بهم ، ليحصل منهم على كثير من الأموال . ووضح له أنه اذا اشتد فى معاملة القبط ، وألزمهم بشد الزنار فى أوساطهم ، ولبس الغيار ، اضطروا الى رشوته بالمال ليعدل عن ذلك القرار . وطمع ابن عباس فى أموال القبط ، وأمرهم بهذه الأوامر ، ولكن مضت ثلاثة أيام دون أن يتقدم القبط بالشكوى ، فألغى هذا الأمر فى اليوم الرابع (٦٢١) .

وفى ذلك العصر أيضا قبض الوزير ابن السلار ، على البطرك يوحنا ، واعتقله فى سجن دار الوزارة ، حيث عانى الكثير من ألوان العذاب ، وظل البطرك معتقلا حتى زال أمر ابن السلار (٦٢٢) . وكان سبب اعتقال الوزير للبطرك أن ملك الحبشة ، كان قد سخط على المطران الموجود فى بلاده ، لأنه اعترض على طريقة تولى هذا الملك . وبعث الملك بكتابين الى مصر ، أحدهما الى الوزير العادل ابن السلار ، والثانى للبطرك يوحنا ، يطلب فيهما تعيين مطران جديد للحبشة بدلا من مطرانها أنبا ميخائيل . وأراد ابن السلار الاستجابة لرغبة ملك الحبشة ، فى حين امتنع عن ذلك البطرك يوحنا ، وقال لابن السلار : « ما فى شريعتنا أن نخول انسانا رتبة الكهنوت ونرجع نعزله منها حتى يموت . فاذا مات ولينا غيره ، لأن رتبة الكهنوت سمائية ، ما هى أرضية » . فغضب ابن السلار وقبض على البطرك واعتقله (٦٢٣) .

وتعرض القبط أيضا لبعض الشدائد فى السنوات الأخيرة من عهد الدولة الفاطمية . ففى بداية خلافة العاضد عبد الله بن يوسف ابن الحافظ سنة ٥٥٥ هـ ، وفى عهد وزيره الصالح طلائع بن رزيك ، نزلت بالبطرك يوحنا شدة عظيمة ، نتيجة خلاف حول مسائل دينية مسيحية بينه وبين رهبان دير أبى مقار ، وامتناع هؤلاء الرهبان عن تنفيذ أوامر البطرك (٦٢٤) ، مما أدى الى توتر العلاقات

بينهم وبين البطرك ، فسعوا به عند الوزير الصالح طلائع بن رزيك ، وحرضوه على الاستيلاء على أموال البطرك ، فعقد الوزير مجلسا ، للنظر في الخلافات الدينية القائمة ، وهو فى الحقيقة يريد ثغرة ، ينفذ منها للوصول الى أموال البطرك . وانتصر الوزير للرهبان ، وزجر البطرك ، ثم أمر بسجنه . ثم امتد ايذاء الوزير الى عدد من الأساقفة من أنصار البطرك (٦٢٥) .

واستمر البطرك يوحنا فى سجنه ، حتى زال أمر ابن رزيك ، فتم الافراج عن البطرك وكل من كان معه فى الحبس من الأساقفة (٦٢٦) . وتوضح هذه الروايات المختلفة كيف كان القبط يوقعون بالبطرك ، وباخوانهم فى العقيدة ، لدى أولياء الأمور فى البلاد وأدت هذه الخلافات الى تدخل السلطات الحاكمة ، وانعكست على أحوال أهل الذمة وأدت أحيانا الى الاضرار بهم . واستفاد بعض الحكام أيضا من هذه الخلافات ، فى الوصول الى ما يستطيعون الحصول عليه من أموال الذميين .

وفى أثناء النزاع بين شاور وضرغام على الوزارة — فى عهد الخليفة العاضد — وما كان من استنجاد شاور ، بنور الدين زنكى أمير دمشق ، نزل بالقبط شدائد وأضرار عظيمة . فكان جند نور الدين يقتلونهم أو يبيعونهم رقيقا ، بأثمان زهيدة ، لا تزيد عن عشرين درهما للقبطى . كما عرض هؤلاء الجند ، الاسلام على القبط ، ومن بينهم الراهب ، شنوفة ، وهو من رهبان دير أبى مقار ، ولكنه تمسك بدينه المسيحى ، فقتله الجند ، وأشعلوا النار فى جثته (٦٢٧) .

ولما ولى الخليفة العاضد ، أسد الدين شيركوه الوزارة فى سنة ٥٦٤ هـ ، تشدد فى معاملة أهل الذمة ، فأمرهم بشد الزنار ، كما أمر اليهود بأن يكون فى عمائمهم خرقة صفراء تمييزا

إليهم عن القبط (٦٢٨) • وهكذا أمر شيركوه بضرورة مراعاة التمييز بين المسلمين وأهل الذمة فى أزيائهم .

ويشير أحد الكتاب المحدثين من القبط ، الى أنه عقب صدور ، أوامر أسد الدين شيركوه ، بشأن الذميين ، رفع اليه أحد الكتاب القبط ، ويدعى زكريا بن أبى مليح مماتى ، رقعة يلتمس فيها منه ، السماح للقبط بارخاء العذبة — أى طرف العمامة — على مؤخرة الرأس وجاء فى هذه الرقعة :

يا أســـد الدين ، ومن عدله   يحفظ فينا سنة المصطفى

كفى غيارا شد أوســاطنا   فما الذى أوجب كشف القفا

(٦٢٩)

ولم يعد الذميون ، يتولون ، الوظائف الحكومية والدواوين فى ذلك العصر ، وخاصـة حينما تولى صـلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب الوزارة ، فى عهد الخليفة الفاطمى العاضد والذى ينسب اليه بعض المؤرخين ، بغضه لأهل الذمة ومنعهم من تولى المنـاصب الحكومية • والحقيقـة ان صلاح الدين ، كان فى هذه السياسة ، يطبق الأحكام الاسلامية التى سادت فى العصور المبكرة من التاريخ الاسلامى• وأصدر صلاح الدين أمرا بمنع تولى النصارى الشئون المالية فى الحكومة ، واستمرت هذه السياسة فى عهد خلفائه من الأيوبيين (٦٣٠) •

وكان هذا نقيض السياسة التى سـادت فى معظم فترات العصر الفاطمى ، فقـد كان من بين أهـل الذمة ، الوزراء وعمال الدواوين ، وحكام الأقاليم ، والكتاب ، كما كان من بينهم عمال الخراج والجهابذة • والحقيقة ، أن الحد من استخدام الذميين وخاصة القبط منهم ، بدأ فى عهد الخليفة الآمر ، حينما أدرك مدى تسلط

القبط على ادارة البلاد ، وتحكمهم فى مصالح المسلمين . كما انتهج هذه السياسة أيضا الوزير رضوان بن ولخش فى خلافة الحافظ ، عندما أدرك سيطرة القبط على شئون الدولة ، وتسلطهم هم وغيرهم من المسيحيين على أمور المسلمين • فأصدر ابن ولخش أوامره ، بعدم استخدام أهل الذمة ، وأمر أيضا بضرورة التمييز بينهم وبين المسلمين فى الملبس • فلما تولى صلاح الدين الوزارة ، جدد هذه الأوامر ، واستمرت هذه السياسة بعد سقوط الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧ هـ •

ورغم ما عاناه أهل الذمة فى بعض فترات العصر الفاطمى ، فان هذا العصر كان فى الحقيقة العصر الذهبى بالنسبة لأهل الذمة من القبط واليهود فى مصر • ولأول مرة فى تاريخ مصر الاسلامية ، تولى اليهود شئون الادارة والحكم - وان كان كافور الاخشيد استخدم يعقوب بن كلس اليهودى - بعد أن كان ولاة مصر وأمراؤها ، يقصرون استخدامهم على القبط وحدهم دون اليهود • وسطع نجم اليهود فى العصر الفاطمى ، وعلا شأنهم ، واستخدمهم الخلفاء الفاطميون ، كما استخدموا القبط ، وظهرت هذه السياسة واضحة فى عهدى المعز والعزيز ، ثم فى خلافة المستنصر بالله والآمر بأحكام الله •

وعاش أهل الذمة غالبا فى هدوء وسلام فى ظل الفاطميين ، كما تمتعوا غالبا أيضا بحرياتهم الدينية والدنيوية ، فشهد هذا العصر تعمير الكثير من الكنائس والأديرة ومارس الذميون طقوسهم الدينية فى أمن وسلام ، باستثناء عهد الخليفة الحاكم بأمر الله • وفى الواقع لم يكن الحاكم مجحفا بهم ، ولا ظالما لهم ، فقد اشتهر بسرعة التقلب والتغير • ولم تكن سياسته المتقلبة ازاء أهل الذمة فحسب ، بل بالنسبة للمسلمين أيضا وخاصة السنيين منهم • فنراه يذم الصحابة ، ويأمر بلعن أبى بكر ، وعمر بن الخطاب ،

وعثمان بن عفان ، ثم لا يلبث أن يتوقف عن هذه السياسة . وكان هذا هو شأنه أيضا مع أهل الذمة ، فقد استخدم كثيرا منهم فى الوزارة وأعمال الدواوين والكتابة والخراج . ولكنه كان سرعان ما يتغير عليهم ويأمر بقتلهم ومصادرة أموالهم .

وتشدد الحاكم غالبا ، فى تطبيق أحكام الاسلام على الذميين ، والزمهم بضرورة التمييز بينهم وبين المسلمين فى الملابس ، والركوب ، والمسكن ، والحمامات ، وأفرد لهم حمامات خاصة بهم ، جعل لها علامات مميزة . الى جانب التضييق عليهم فى ممارسة الطقوس الدينية وما كان من أوامره بهدم الكنائس والأديرة ومعابد اليهود ، ونهب جميع ما فيها . ثم نراه بعد ذلك يعدل عن هذه السياسة ، ويسمح لهم بتعمير الكنائس ، ويطلق حرياتهم فى ممارسة الطقوس الدينية ، بل أصدر سجلات تخول لهم الحق فى كل ذلك ، وتضمن لهم الأمان على أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم وأملاكهم . وصار يأنس الى بعض الرهبان والقسس ويتردد اليهم فى الأديرة .

فلما كانت خلافة الظاهر ، أصدر منشورا ، زاد فيه من اطمئنان أهل الذمة وأمانهم ، وترك لهم الحرية الدينية . واذا كان أهل الذمة قد تعرضوا لبعض الشدائد فى فترات أخرى ، فانها كانت سريعا ما تزول ، ويعود لهم الأمن والسلام .

ونلاحظ أنه بينما كان استخدام الخلفاء الفاطميين لأهل الذمة على نطاق واسع حتى أواخر عصر الخليفة الآمر ، نجد تضاؤل هذه السياسة المتسامحة بعد عصر هذا الخليفة وحتى سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ . فقد تتابعت المنشورات والأوامر بالنهى عن استخدام أهل الذمة فى شئون الحكم والادارة وجباية الأموال . وبسقوط الدولة الفاطمية ، دخل تاريخ أهل الذمة فى مصر فى دور جديد متميز .

الهـــــوامش

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٣ ، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٤١ ، وتشير الرواية التاريخية العربية الى انه لما رجع النبى صلى الله عليه وسلم ، من الحديبية فى شهر ذى الحجة سنة ٦ هـ ، عرض على أصحابه انفاذ رسل من قبله الى ملوك العجم يدعوهم الى الاسلام ، فكتب اليهم • فقيل له : ان الملوك لا يقرءون كتابا ، الا مختوما • فاتخذ رسول الله عليه الصلاة والسلام خاتما فضة ، ونقش عليه « محمد رسول الله » وختم به الكتب • فخرج من قبل النبى فى المحرم سنة ٧ هـ ، ستة رسل ، كل واحد منهم يتكلم بلسان الأمة التى بعث اليها • ومن هؤلاء عمرو بن أمية الضمرى الى نجاشى الحبشة ودحية بن خليفة الى قيصر الرومان ، وحاطب بن ابى بلتعـة الى المقوقس حاكم مصر والاسكندرية ، وعبد الله بن حذافة السهمى الى كسرى فارس ، وشجاع بن وهب الأسدى الى الحارث بن أبى شمر الغسانى ، وسليط بن عمرو العامرى الى هوذة بن على الحنفى • انظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٣ ، ص ٢٥٨ ـ ٢٦٢ •

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٣ ، ص ٢٥٩ • وبصرى اسم يطلق على مكانين : احدهما بالشـام ، وهو قصبة كورة حوران ، والآخر بالعراق ، من قرى بغداد بالقرب من عكبراء ، والمقصود هنا بصرى الشـام • انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٤١ •

(٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ٢ ، ص ٢٩١ •

(٤) الطبقات الكبرى ، ج ٣ ، ص ٢٥٩ •

(٥) الدسكرة كلمة معناها الأرض المستوية ، وتطلق على القرية العظيمة ، كما تطلق على بناء يشبه القصر تحيط به بيوت الأعاجم ، ويكون هذا البناء للملوك ، حيث يقومون فيه بالشرب واللهو • انظر : الوسيط : ج ١ ، ص ٢٨٣ •

(٦) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢ .

(٧) نفس المصدر والصفحة .

(٨) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢ .

(٩) نفس المصدر والصفحة .

(١٠) نفس المصدر ، ص ٢٩٣ .

(١١) نفس المصدر السابق والصفحة .

(١٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(١٣) نفس المصدر ، ص ٤١ ، ٤٢ ويقول ابن سعد ـ الطبقات الكبرى ، جـ ٣ ، ص ٢٦٠ ، أن المقوقس لما وصله كتاب النبى ، قرأه ، ثم وضعه فى حق من عاج وختم عليه ، وطلب من بعض جواريه أن تحفظه له . وقال لحاطب : خيرا .

(١٤) فتوح مصر وأخبارها ، ص ٤٢ .

(١٥) نفس المصدر والصفحة .

(١٦) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٣ ، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١ .

(١٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٤٣ . احدى هاتين الجاريتين هى مارية القبطية والثانية سيرين التى وهبها النبى ، لشاعره حسان ابن ثابت . كما كان من بين الهدايا ثياب قبطية وبغلة بيضاء ، وحمار أشهب ومال وصدقة . انظر ابن سعد : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٦٠ ، ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

(١٨) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ، جـ ١ ، ص ٢٠٧ .

(١٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١ ـ ٢ .

(٢٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٢ .

(٢١) نفس المصدر ، ص ٢ ـ ٣ .

(٢٢) نفس المصدر ، ص ٣ .

(٢٣) نفس المصدر ، ص ٤٩ . وقيل كان خروج عمرو على رأس الجيش الاسلامى فى سنة ١٦ هـ . وقيل سنة ١٩ هـ وقيل سنة ٢٠ هـ . انظر الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٧ .

البلاذرى . فتوح البلدان ، ص ٢١٤ . ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ ١٥ ، ص ٢١٢ .

ابن الاثير . الكامل ، ج ٢ ، ص ٣٦٤ .

(٢٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥١ ــ ٥٢ . الواقدى : فتوح الشام ، ج ٢ ، ص ٥٨ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢١٤ . الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ٦ ، ص ١٦٥ ، ابن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ص ٢٠ ــ ٢٢ . الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٧ ــ ٨ ، معروف بن محمد : عجائب الأخبار عن مصر الامصار ورقة ٣٠ ب ، مخطوط . وتشير هذه المصادر الى الكتاب الذى ارسله الخليفة الى عمرو ، يأمره فيه بالعودة اذا لم يكن قد اجتاز الأراضى المصرية ، أما اذا كان قد اجتازها ، فليسر على بركة الله ، يعنى ذلك تردد الخليفة فى فتح مصر وخوفه من عاقبة هذا الفتح ، ولما تستقر بعد اقدام الفاتحين العرب فى بلاد الشام .

(٢٥) تذكر بعض الروايات أن لفظ (بابليون) يطلق على دير صغير الى الجنوب من الحصن ، فى حين كان اسم الحصن « قصر الشمع » وتذكر روايات اخرى أن اسم الحصن فى زمن الفتح كان (بابليون – أن خيمى) ومعناها (بابليون مصر) ولذلك سهل تحريف الاسم فى اللغة العربية الى بابليون . وقد دلت الأخبار على وجود هيكل للنار فى الحصن القديم ، وأن الفرس قد بنوا هيكلا آخر فى القرن السابع الميلادى . وكان على الهيكل منائر توجد فيها النيران ليلا ونهارا . فنشأ عن ذلك اسم « قصر الشمع » ومهما كان أمر التسمية فقد استمر كتاب أوربا فى العصور الوسطى يطلقون على ذلك الموضع اسم بابليون وليس مصر . انظر بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢١٥ ــ ٢١٦ ، وحاشية ص ٢١٦ .

أما المؤرخون المسلمون فيسمون الحصن أحيانا باب اليون ، انظر تاريخ الطبرى ، ج ٣ ، ص ١٩٧ . ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٥٦ ، ٥٩ ويسميه البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢١٤ ــ اليونة .

(٢٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٥٣ ، ويسميه الكندى ــ الولاة والقضاة ص ٨ ــ المندقور . كما يشير الى أنه كان يقال له الاعرج .

وبالرغم من هذه الرواية ، لم ينشط المقوقس لمساعدة جيش الفرما أو بلبيس أو غيرهما من المدن المصرية ضد الجيش الاسلامى كما سنرى والواضح أنه كان يقيم الاستحكامات والاستعدادات فى حصن بابليون فقط حيث نزل فيه .

(٢٧) الواقدى : فتوح الشام ، ج ٢ ، ص ٦٤ . وينفرد الواقدى بهذه الرواية دون غيره من المؤرخين المسلمين أو القبط .

(٢٨) وكان يسكنها قوم من العرب الموالين للرومان والذين كانوا يؤدون الأموال الى المقوقس وكان واليها من قبل المقوقس يسمى الرندبان ، انظر الواقدى ، فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ٦٣ ـ ٦٤ ٠

(٢٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ص ٥٣ ٠ البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢١٤ ، الكندى الولاة والقضاة ، ص ٨ ، ابن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ص ٢٥ ٠ ويذكر ياقوت الحموى ـ معجم البلدان ، جـ ١٥ ، ص ٢٦٢ ـ ان القتال استمر شهرين بمدينة الفرما ٠ ويسرد الواقدى بالاشارة الى أن يوقنا ـ صاحب حلب ـ كان قد اعتنق الاسلام ، وانضم الى جنود المسلمين ٠ وسأل عمرو بن العاص فى أن يتقدمه فى الأراضى المصرية حتى يستطلع له الاخبار ويمهد له الامور ٠ فاجابه عمرو بن العاص الى ذلك ٠ فدخل يوقنا وصحبه الأراضى المصرية ـ فى زى الرومان ـ ولم يعلم بما أراده أحد : وسأل عن أرمانوسة ابنة المقوقس ـ التى اعدها ابوها للذهاب الى قسطنطين ابن هرقل ، ولكن خوفها من العرب منعها من مواصلة الطريق فأقامت فى بلبيس وأرسلت الى الفرما ألفى فارس لحراستها ـ فلما علم يوقنا بوجود أرمانوسة فى بلبيس ، سار اليها حتى يوهمها بانه قادم من قبل قسطنطين ليحملها اليه فى القسطنطينية بعد فراره اليها ٠ وهو فى الوقت نفسه يريد خداعها ، وتمهيد الامور لجند عمرو بن العاص ٠ وقد أحسنت أرمانوسة الى يوقنا وصحبه فى بادىء الأمر ، ولكنها ما لبثت أن علمت بالخديعة التى أرادها ، فتوجهت اليه على رأس جيشها لتهديده وقتاله ٠ الا أن يوقنا اشتد فى حديثه معها ، ومن بين ما قاله لها : « ٠٠ جئناكم لنجاهدكم ، اما الاسلام ، واما الجزية ، واما القتال » ، وأرسلت أرمانوسة كتابا لأبيها المقوقس تعلمه فيه بما حدث ، انظر : فتوح الشام جـ ٢ ، ص ٦٤ ـ ٦٦ ٠ والواضح أنه فى أثناء ذلك كان عمر بن العاص ، قد تقدم فى الأراضى المصرية وتم له فتح الفرما ، وأصبح على مقربة من بلبيس حيث قائده يوقنا ٠

(٣٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ص ٥٢ ، ٥٣ ، الاستبصار فى عجائب الأمصار ، ص ٧٩ ٠

(٣١) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ ٠

(٣٢) **بلبيس** Belbéis بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام ٠ انظر ٠ ياقوت الحموى ٠ معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٤٧٩ ٠

(٣٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٤ ، الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٨ ٠

(٣٤) فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ٦٦ ٠

(٣٥) الواقدى ٠ فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ٦٦ ـ ٦٧ ٠ وهذا نص ما قاله **المقوقس للحاضرين** : « يا أهل دين النصرانية ، اعلموا أن الملك محتاج الى سياسه ، ومن ملك عقله ، ملك رأيه ومن ملك رأيه أمن من حوادث دهره ٠ وليست الغلبة بالكثرة ، وانما هى بحسن التدبير ٠ والله لقد كان قيصر اكثر منى جندا ، وأوسع بلادا ، وأعظم عدة ٠ وقد جمع من بلاد الروم الى اليونانية ، ومن اقاليمه ومن القسطنطينية ومن سائر البلاد ومن بلاد الأندلس واستنصر بنا وبغيرنا ، فما أغنى عنه جمعه شيئا ولا قدر أن يرد القضاء والقدر عنه ٠ واعلموا أن العقل أساس الآدمى المخاطب ، المكلف المفضل به على سائر ما خلق على الأرض فمن ملك عقله ، ملك أمره ٠ ومن لم يجد منه حظا كان بجهله أرضى ٠ ولن تنال الحكمة الا بالعقل ٠ قال الحكيم ماسوس : ان الحكمة مرمى جليل وطالبها نبيل وتاركها ذليل لانها غذاء الأرواح ، وقوت القلوب ، واعلموا انى لست أتكلم الا بالصدق ، وأنتم تعلمون أن محمدا فى أيامه بعث الينا يدعونا الى دينه ٠ فاستدللت على صدق قوله بكتابه ، وما ظهرت من معجزاته ٠ وقد سمعتم انه لما بعث ، ما سمع أحد بذكره الا وخاف منه ٠ وقد سمعت أن القمر انشق له ، والذراع المسموم كلمه ، وقال يا رسول الله انى مسموم فلا تأكلنى ٠ وقد كلمه العنب والحجر والشجر والمدر ، وعرج به الى السماء وركب أوج الماء ٠ وأول من تغلب عليه قومه ، وحاربه عشيرته حين أنكروا قوله وفعله ، فنصر عليهم وقهرهم ٠ وقد تبين لهم الحق فاتبعوه ونصروه وهم هؤلاء الذين فتحوا الشام ٠ وما أنكرت من أمرهم شيئا ، فانهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون حدود الله التى أمر بها ٠ وما فى كتابهم شىء الا وفى الانجيل مثله ٠ وقد أضلكم بولس وأغواكم حين غرر بكم ، وبدل شرعكم ، وسماكم باسم لا يليق بكم ٠ وكيف وقد عاد بكم من الطريق الواضح وأحل لكم جميع ما حرم عليكم من قبل ٠ وهذا هو عين المحال وداعية العمى أن تتعدوا ما قاله نبيكم ٠ وكيف ينبغى لروح الله عيسى ابن مريم أن يكلمكم بما لا أرسله الله اليكم ٠ ثم ان بولص قال لكم انه أحل لكم الخنزير وشرب الخمر وارتكاب المعاصى ، ما ظهر منها وما بطن ، فأطعتم أمره ، وصدقتم قوله ، وحاشا المسيح أن يفعل ذلك ٠ وما كان أحد من الأنبياء الا على ما جاء به محمد ٠ وهؤلاء الحكماء الأولون ما منهم

إلا من يتكلم بوحدانية الله تعالى . وهذا الحكيم دمونا الذى وضع فى برارى الجحيم وصادا ، وجعلها مثلا للامم الاتين وذكر فيها من ياتى من الأمم والأجيال الى اخر الزمان . أو صور الحكماء منفردة به » والنسر يعد رأس الحمل ، والنسر يقيم فى كل برج ثلاث الاف سنة كما قدر بالمقدار الحكيمى . وكان قد صوره صورة وكتب على راسها بقلم اليونانية أربعة اسطر : الأول من خاف الوعيد سلم مما يريد . الثانى من خاف ما بين يديه ، صان دموعه بما فى يديه . الثالث ان كنت تريد الجزيل فلا تنم ولا تقيل . والرابع بادر قبل نزول ما تحاذر . فمن كان هذا كلامهم ، فكيف صنع سواهم . وهذه فريضة هؤلاء القوم المحمديين » .

(٣٦) الواقدى . فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ٦٧ — ٧٠ .

(٣٧) أم دنين ، قرية بمصر بين القاهرة والنيل ، اختلطت بمنازل القاهرة . انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٢٥١ . ويسميها حنا النقيوس تندونياس Tendoûnyas ولعل ذلك هو اسمها عند الفتح العربى . انظر : Chronique de Jean, p. 437. ومكانها الآن حديقة الأزبكية .

(٣٨) ابن عبد الحكم . فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٤ ، الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٨ .

وينفرد الواقدى برواية تذهب الى أن عمرو بن العاص سار من بلبيس الى قليوب حين أحسن الى أهلها . ويروى أيضا أن أرسطوليس بن المقوقس بعث الى المسلمين رسولا يطلب مفاوضة عمرو بن العاص ، فاستجاب عمرو لدعوته ، وخرج بنفسه للقائه والتفاوض معه . وخير عمرو أرسطوليس بين الاسلام أو الجزية أو القتال . وكان أرسطوليس يتكلم اليونانية ولم يكن عمرو بن العاص ملما بها ، وانما كان مولاه وردان يعلمها جيدا كلاما وترجمة ؛ أدرك أرسطوليس ومن معه أن المتكلم معهم هذا هو عمرو بن العاص قائد الجند المسلمين ولكن وردان عندما فهم ذلك ، أعلمهم بخطأ ظنهم وأخبرهم بأنه أقل واحد بين المسلمين وتمكن عمرو من الخروج من عند أرسطوليس بعد أن وعده بإحضار وفد من عشرة أنفار للتفاوض معه . ولا يوجد فى المصادر التاريخية المصرية ما يؤكد هذه الرواية ويبدو أن الأمر قد اختلط على الواقدى ، فهناك حادثة مشابهة أشار اليها المؤرخون عند فتح الاسكندرية ، وسنذكرها فى مكانها من البحث .

ثم حدث بعد ذلك أن وضع الرومان ومن انضم اليهم من القبط كمينا لعمرو وجنده المسلمين فى أثناء صلاتهم الجمعة ، الا أن المسلمين نجحوا فى قتل هؤلاء المتامرين ، ويسمى هذا اليوم ، « بحر الحصى » انظر فتوح الشام ، ج ٢ ، ص ٧١ ـ ٧٤ ٠

(٣٩) تسمى مدينة أون Aoûn أيضا باسم عين شمس ٠ وبينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ ومدينة أون هى قصبة كورة أتريب فى شرق مصر ٠ ويوجد فى الصعيد بلد يسمى ايضا باسم عين شمس ٠ انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ١٤ ، ص ١٧٨ ـ ١٧٩ ٠

(٤٠) Chronique de Jean, p. 437. ٠ ويذكر المؤرخون المسلمون أن المدد الذى بعث به الخليفة الى عمرو بن العاص كان اثنى عشر الف مقاتل ، ويذكر بعضهم أيضا أنه كان عشرة آلاف فقط ٠ انظر : ابن عبد الحكم . فتوح مصر واخبارها ، ص ٥٦ ٠

البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢١٤ ٠ الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٨ ٠ ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج ١٥ ، ص ٢٦٢ ٠

(٤١) Chronique de Jean, p. 437.

(٤٢) Ibid., p. 438. ٠ وتقع مدينة نقيوس فى الطريق بين الفسطاط والاسكندرية ، انظر ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج ١٩ ، ص ٣٠٣ ٠

(٤٣) وتقع مدينة اللاهون Lahoûnn على بحر يوسف على بعد عشرة أميال من مدينة الفيوم ، وكانت لها أهمية كبيرة فى الدفاع عن الاقليم ٠ انظر المسعودى : مروج الذهب ، ج ٠٠٠ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ ٠

(٤٤) انظر ٠ Chronique de Jean, p. 434.

(٤٥) وتسمى ايضا بويط ٠ وهو اسم لقريتين بالصعيد ، احداهما بالقرب من بوصير والاخرى قرية فى كورة أسيوط ٠ انظر : ياقوت الحموى معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥١٣ ٠

ولا شك أن المقصود هنا القرية التى بالقرب من بوصير ٠

(٤٦) Chronique de Jean, p. 435.

(٤٧) Ibid pp. 435-436.

(٤٨) Ibid., p. 439.

(٤٩) يدعى هذا القائد ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصرفى . وفى رواية أخرى أن قيس بن الحارث الذى عهد اليه عمرو أيضا بفتح بلاد الصعيد . وانه قد لحق به ربيعة بن حبيش عند مدينة القيس (والقيس اسم كورة وقيل اسم قرية وليس كورة . وقيل انها سميت بذلك نسبة الى القائد قيس بن الحارث المرادى . وتقع غربى النيل بعد الجيزة . ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ١٦ ، ص ٤٢٢) وانهما اشتركا معا فى فتح اقليم الفيوم . انظر ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٧ ، ص ٢٢٨ . فى حين يذكر البلاذرى ـ فتوح البلدان ، ص ٢١٨ ـ أن عمرو بن العاص لما فتح حصن بابليون أرسل خارجة ابن حذافة العدوى لفتح الفيوم وقرى الصعيد ، فغلب عليها .

(٥٠) Abakiri والحقيقة أنه أبو قيرس وذلك اعتمادا على ما كشف من وثائق « قرة باسك » Papyrus Erzherzog Rainer : Fuhrer durch die Ausstellung. فالوثيقة رقم ٥٥٨ منها مكتوبة باليونانية والعربية بتاريخ أبريل ٦٤٣ م . وتتضمن كتابا من عبد الله بن جابر الى كريستوفوروس وتيودوراكس ابنى قيرس . وهذه أقدم وثيقة فى مصر . والوثيقة رقم ٥٥١ وتتضمن كتابا من خارجة بن حذافة الى أبى قيرس حاكم هرقليوبولس . وتذكر الوثيقة رقم ٥٥٤ هذا الاسم أيضا . انظر . بتلر . فتح العرب لمصر ، حاشية ص ٢٠٦ .

(٥١) Délas تقع على الضفة الغربية للنيل فى جنوب ممفيس الى الشرق من مدينة الفيوم وتسمى بالقبطية تيلوج ، واسمها باليونانية نيلوبولس . انظر .
Amélineau : La géographie de l'Egypte à l'époque Copte, p. 136.

(٥٢) Chronique de Jean, p. 439.

(٥٣) Ibid., p. 439.

(٥٤) Ibid., pp. 439-440.

(٥٥) Chronique de Jean, p. 440.

(٥٦) سمنود . تقع على ضفة النيل ، جهة دمياط . بينها وبين المحلة ميلان . انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ١١ ، ص ٢٥٤ .

(٥٧) Chronique de Jean, p. 440.

(٥٨ ، ٥٩) ل Ibid., p. 440.

(٦٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٥ ، ويذهب بعض المؤرخين المحدثين الى أن هرقل لما علم بقدوم عمرو بن العاص والمسلمين الى مصر ، طلب من المقوقس أن يعرض على عمرو إنسحاب المسلمين من الأراضي المصرية مقابل دفع مبلغ معين من المال · وكان ذلك عند بدء حصار حصن بابليون · كما عرض المقوقس على عمرو أنه بعد جلاء العرب من مصر سيتزوج هرقل من ابنة الخليفة عمر بن الخطاب · ولكن عمرو رفض هذه العروض · انظر : يتّشى تاريخ الأمة القبطية وكنيستها ، م ٢ ، ص ١٣٠ – ١٣١ · ولا نجد فى المصادر المصرية الاسلامية وغير الاسلامية ما يشير الى ذلك من قريب أو بعيد .

(٦١) البرود ، جمع البرد · ومعناها كساء مخطط يلتحف به · ويجمع على ابراد وأبرد وبرود · الوسيط ، ج ١ ، ص ٤٧ ·

(٦٢) الثريد ، هو ما يثرد من الخبز ثردا ، أى فته ثم بله بمرق · الوسية ج ١ ، ص ٩٤ ·

(٦٣) العراق هو العظم الذى أكل لحمه · الوسيط ، ج ٢ ، ص ٦٠٢ ·

(٦٤) الأكسية جمع الكساء ، وتعنى اللباس · الوسيط ، ج ٢ ، ص ٧٩٤ ·

(٦٥) جمع صم · ومعناها الأرض الغليظة أو الداهية الشديدة · المنجد ص ٤٤٨ ·

(٦٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٥ ·

(٦٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٦ · ابن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ص ٢٢ ·

(٦٨) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ص ٥٦ – ٥٧ ذكرنا من قبل أن هذه كانت سياسة عمرو بن العاص عندما اشتد عليه الأمر فى أم دنين ، فقسم جنده فريقين ، كما أنه لما وصله المدد من الخليفة وزع جنده بين ثلاث فرق ، وجه كل منها الى جهة معينة ·

(٦٩) تذكر بعض المصادر المصرية أنه حدث فى أثناء هذا الحصار ، أن دخل عمرو بن العاص الى داخل الحصن للتفاوض مع الحاكم الرومانى ، الذى أوصى حارسه بقتل عمرو عند خروجه · الا أن عمرو فطن الى هذه المؤامرة عندما قال له بعض الحاضرين · « قد دخلت فانظر كيف تخرج » عند ذلك تعهد عمرو لصاحب

الحصن بأن يحضر له نفرا من أصحابه للتفاوض معه . ففضل صاحب الحصن قتل الجماعة على قتل فرد واحد وبذلك نجا عمرو من القتل . ومما لا شك فيه أن الحاكم الرومانى لم يكن يعرف شخصية عمرو ولو كان يعرفه لقتله . انظر : ابن عبد الحكم ، ص ٥٧ .

(٧٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٨ . ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ١٥ ، ص ٢٦٢ . والأخير يشير الى أن المقوقس وكبار القبط والرومان كانوا فى جزيرة الروضة عند صعود الزبير الى أعلى الحصن . وأنه من هذه الجزيرة طلب مفاوضة عمرو بن العاص من أجل الصلح . وهذا عكس ما تشير اليه رواية ابن عبد الحكم من أن المقوقس كان موجودا داخل الحصن عند اقتحام المسلمين له بقيادة الزبير . ومما لا شك فيه أن ذلك ينتج عنه خلط بين الروايات مما يبعدنا أحيانا عن الحقيقة .

هذا فى حين يشير بعض المؤرخين المسلمين الآخرين الى أن الحصن قد تم فتحه عنوة ، وأن أهله صاروا ذمة للمسلمين ، وفرض العرب عليهم الجزية على رءوسهم ، والخراج على أراضيهم . ويروى أن الزبير بن العوام صعد الى أعلى الحصن ، وهو مجرد من السيف وتبعه المسلمون ، وتم فتح الحصن عنوة . واستباح المسلمون ما فيه . وأقر عمرو أهله على أنهم ذمة ، فوضع الجزية فى رقابهم ، والخراج فى أرضهم . انظر : البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢١٥ .

(٧١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٨ .

(٧٢) ابن بطريق التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ص ٢٢ . ولعل قول المقوقس هذا هو الذى جعل ابن بطريق يعتبر يعقوبيا وليس ملكانيا . ويشير الى أن المقوقس كان يكره الرومان . وانه كان يخفى مذهبه اليعقوبى حرصا على مركزه السياسى وخوفا من أن يقتله الرومان . ويقول ابن بطريق : انه لجأ الى هذه الحيلة — وهى الخروج من الحصن والاقامة فى جزيرة الروضة — لأنه كان قد إستأثر لنفسه بأموال مصر ، منذ حاصر كسرى القسطنطينية . ولذلك كان يخشى أن ينتصر الرومان على العرب ، ويقع فى يد هرقل ، فيقتص منه ويطالبه بهذه الأموال . ونحن نرى انه لو كان يعقوبيا لما اختاره هرقل حاكما لمصر ، وبطركا للمسيحيين الملكانيين بها فى سنة ٦٣١ م . ولا اضطهد قبط مصر اليعاقبة .

(٧٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٥٩ .
ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٢٢ .

(٧٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ص ٦٠ ٠

(٧٥) نفس المصدر ، ص ٦٠ ٠ وهذا نص ما قاله رسل المقوقس عن العرب : « رأينا قوما ، الموت أحب اليهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة ٠ ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، وانما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد ٠ واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد منهم يغسلون أطرافهم بالماء ، ويتخشعون فى صلاتهم » ٠

(٧٦) نفس المصدر ، ص ٦٠ ٠ وكان عبادة بن الصامت ، شديد السواد ، فظ المنظر حتى خاف منه المقوقس ، وطلب من الوفد المصاحب له أن يعهدوا الى شخص آخر منهم ليتحدث اليه بدلا من عبادة ٠ الا أنهم رفضوا ذلك ، وأعلموا المقوقس أن عبادة أفضلهم جميعا فى الرأى والعلم ، وأن قائدهم قد أمره هو بالكلام وأوصانا الا نخالف أمره ٠ وأن هذا الأسود واحد من ألف رجل أشد سوادا من عبادة ، وأفظع منظرا منه ٠

انظر المصدر نفسه ، ص ٦٠ ـ ٦١ ٠

(٧٧) المصدر نفسه ، ص ٦١ ٠

(٧٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ص ٦١ ٠ ويذكر ميخائيل السريانى أنه لما قدم العرب Taiyaye بقيادة عمرو بن العاص لفتح مصر ، خرج اليهم أسقف الاسكندرية المقوقس وعرض عليهم جزية سنوية قدرها مائتا ألف دينار ، وينصرفون عن البلاد المصرية فقبل عمرو ذلك ـ ونحن نشك فى صحة هذا الخبر لأن هذا المؤرخ لم يكن مصريا ، كما أنه لم يذكر لنا المكان الذى التقى فيه المقوقس مع عمرو والمسلمين ـ ثم يشير هذا المؤرخ الى وشاية بعض المصريين بالمقوقس لدى الامبراطور هرقل ، وعزل الأخير للمقوقس ، وتوليته مانويل الأرمنى بدلا منه على مصر ـ ونحن نرى أنه ليس بين المصادر المصرية وغير المصرية ما يشير الى ذلك ٠ كما أن تلك الرواية تؤدى الى خلط الحوادث والأخبار ولعل الأمر قد التبس على هذا المؤرخ ، مما أوقعه فى الخطأ عند ذكر الحوادث ٠ وتجمع المصادر على أن مانويل هذا قد أرسله الامبرطور قسطنطين بعد تمام فتح مصر ، لاستعادة الاسكندرية سنة ٢٥ وكما سنرى ٠

ويضيف ميخائيل فيذكر أنه لما قدم رسل العرب الى بابليون لأخذ الجزية المقررة رفض مانويل تأديتها لهم ٠ وأخبرهم أنه مستعد لقتالهم مهما كلفه ذلك من جهد فقدم عمرو على رأس الجند المسلمين لفتح مصر ٠ وانتهى الأمر بهزيمة

مانويل ومن معه من الرومان · وتم للعرب الاستيلاء على مصر · فلما علم هرقل بذلك ، استدعى المقوقس ثانية وطلب منه مساومة العرب على أن ينسحبوا من مصر مقابل دفع مبلغ من المال ضعف ما كانوا يأخذونه من قبل ، الا أن عمرو بن العاص رفض ذلك وأخبره بأنه لن يخرج هذه المرة من الأراضى المصرية ·

انظر : Chronique de Michel le Syrien, T. 11, fase. 3, 420.

ويناقش بتلر ــ فى كتابه فتح العرب لمصر ، ص ١٨٣ ــ ١٨٥ ما كتبه بعض المؤرخين اليونان عن فتح مصر ، وخاصة ما يدعونه من أن المقوقس قد نجح فى صرف عمرو والمسلمين عن مصر مقابل جزية سنوية · ونحن نتفق مع بتلر فى عدم تأييد هذه الرواية ، وانه من العسير قبولها ، اذ لم يشر اليها أحد من مؤرخى مصر أو المشرق ، باستثناء المؤرخ ميخائيل السريانى كما ذكرنا آنفــا ·

(٧٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ص ٦١ ــ ٦٢ ·

(٨٠) المصدر نفسه ، ص ٦٢ ــ ٦٣ ·

(٨١) المصدر نفسه ، ص ٦٣ ·

(٨٢) المصدر نفسه ، ص ٦٣ ــ ٦٤ ·

(٨٣) المصدر نفسه ، ص ٦٤ ، ياقوت الحموى : معظم البلدان ، جـ ١٥ ، ص ٢٦٣ ·

(٨٤) فتوح البلدان ، ص ٢١٦ ·

(٨٥) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢١٦ ·

(٨٦) المصدر نفسه ، ص ٢١٦ ــ ٢١٧ · ويروى الواقدى أن المسلمين لما حاصروا الحصن ، كان به أرسطوليس بن المقوقس ، وأرجــانوس بن راعيــل أخ المقوقس ، الذى طلب من عمرو ابن العاص الصلح والأمان فى مقابل اداء الجزية ، وسلم عمرو مفاتيح الحصن ، وقال له عمرو : « قد أمناكم على أنفسكم وأولادكم وحريمكم منة منا عليكم · وقد وضعت عنكم الجزية هذه الســنة ، وفى السنة الآتية ، نأخذ منكم من كل محتلم أربعة دنانير ، ومن أسلم قبلنــاه ، وينفرد هذا المؤرخ بذكره هذه الرواية دون غيره من المؤرخين ، ويضيف ن أرجانوس اعتنق الاسلام عقب الفتح كما أسلم عدد كبير من القبط وحول عمرو بن العاص الكنيسة الموجودة الى جامع · انظر : فتوح الشام : جـ ٢ ، ص ٨٣ ــ ٨٤ ·

ويذكر بعض المؤرخين رواية أخرى عن فتح بابليون ، تشير الى أن المقوقس

أرسل جاثيلق مصر (أبو مريم) وأسقفها (أبو مريام) للتفاوض مع عمرو ، فدعاهم الى أحد أمور ثلاثة الاسلام أو الجزية أو القتال ، فوعده أبو مريم وأبو مريام بعرض الأمر على المصريين والرد عليه بعد بضعة أيام ، فمال المقوقس الى قبول أحد أمرين الاسلام أو الجزية ، فاعترض على ذلك أحد القواد الرومان ويسمى أرطبون ، وأصر على قتال المسلمين ، الا أن عمرو بن العاص شدد الحصار على الحصن ، وقتل أرطبون وجنده ، عند ذلك عرض القبط على المقوقس مصالحة المسلمين الذين هزموا من قبل الفرس والرومان فى العراق وبلاد الشام ، ولكن المقوقس أصر من جانبه على مواصلة الدفاع عن الحصن حتى غلبه المسلمون وتم لعمرو فتح الحصن ، وعقد صلحا مع المقوقس ، ونرى أن هذه الرواية تشيد بموقف المقوقس ، وتصميمه على قتال المسلمين ، ورفضه رغبة القبط فى مصالحة عمرو والمسلمين ، انظر ، الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٣ ، ص ١٩٧ ـ ١٩٩ ، ابن الأثير : الكامل ج ٢ ، ص ٣٩٥ ، تحصيل الاستيفاء فى مغازى (المصطفى) ورقة ١٠٨ ب ، ١٠٩ أ مخطوط بدار الكتب رقم ٢٠١٦ تاريخ .

(٨٧) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ٣ ، ص ١١٩ ـ ٢٠٠ ، أبو المحاسن النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٤ ـ ٢٥ ، تحصيل الاستيفاء فى مغازى المصطفى ، ورقة ١٠٩ أ ، ١٠٩ ب .

القلقشندى صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٢٤ ، ويقول جمال الشيال ـ فى كتابه تاريخ مصر الاسلامية ، ج ١ ، ص ٢٣ ـ ان صاحب الحصن عقد صلحا مع عمرو يتضمن الشروط الآتية :

١ ـ خروج الجند من الحصن فى مدى ثلاثة أيام .

٢ ـ أن يرحلوا عن طريق النهر ويحملوا معهم ما يكفيهم لبضعة أيام .

٣ ـ أن يستولى العرب على ما فى الحصن من ذخائر وآلات . وقد أشار حنا النقيوسى فى ديوانه pp. 446-447 الى ما اعتبره هذا المؤرخ الحديث شرطا أول ، فروى أن عمرو أمر الجند الرومان بالخروج من الحصن وترك لهم مهلة ثلاثة أيام من يوم فتح الحصن . أما ما يعتبره جمال شرطا ثانيا فلا نجده واضحا فى المصادر القديمة ، وكل ما هنالك أن حنا النقيوسى ذكر أن عمرو سمح للجند الرومان بحمل قليل من الأموال عند خروجهم من الحصن . أما الشرط الثالث فكان أمرا طبيعيا أن يستولى العرب على ما فى الحصن من الأموال والمتاع .

(٨٨) Chronique de Jean, pp. 446-447.

(٨٩) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ٣ ، ص ١٩٩ ــ ٢٠٠ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٢ ، ص ٣٩٦ ، تحصيل الاستيفاء فى مغازى المصطفى ، ورقة ١٠٩ ب ٠

(٩٠) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢٢٩ ٠

(٩١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٤ ٠

(٩٢) المصدر نفسه ، ص ٦٤ ــ ٦٥ ٠ وهذا نص كتاب هرقل للمقوقس : « انما أتاك من العرب اثنا عشر ألفا ، وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا ، فان عندك من بمصر من الرومان وبالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم السلاح والعدة والقوة ، والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت ، فعجزت عن قتالهم ، ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الرومان فى حال القبط أذلاء ، ألا تقاتلهم أنت ومن معك من الرومان حتى تموت أو تظهر عليهم ، فانهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم ، كأكلة ٠ فناهضهم القتال ولا يكن لك رأى غير ذلك » ٠

(٩٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٥ ٠

(٩٤) المصدر نفسه والصفحة ٠ وانظر أيضا : البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢١٧ ، ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٢٤ ٠

(٩٥) ابن عبد الحكم . فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٥ ، ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٢٤ ٠ وكان ذلك تحقيقا لما جاء فى حديث الرسول عليه الصلاة والسلم : « الله الله فى قبط مصر فانكم ستظهرون عليهم ، ويكونون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله » ابن عبد الحكم فتوح مصر ، ص ٣ ٠

(٩٦) Chronique de Jean, p. 448.

(٩٧) القائدان هما : ياكبرى Yekburi وساتفرى Satfari ٠

(٩٨) Chronique de Jean, p. 440

(٩٩) Ibid., p. 441. ويروى أنه قد انضم القائد كلاجى الى صفوف المسلمين لمساعدتهم فى القتال فلما علم بذلك تيودور ، بذل أقصى جهده فى الاتصال به حتى تحقق له ذلك وطلب من كلاجى العودة الى جانب الرومان ٠ وأجاب كلاجى الى ذلك على ألا تتعرض زوجته وأسرته بالاسكندرية لأى أذى ٠ ومن ثم لحق بجند تيودور ثم أرسله الأخير الى نقيوس لمساعدة القائد دونتيانوس ٠

أما القائد سيندس ـ الذى غضب من قائد الحامية فى دمياط ويسمى حنا ـ لأنه أهانه وصفعه على وجهه رغم كبر سنه ومركزه ـ فقد انضم هو الآخر الى جانب المسلمين ، ثم ما لبث أن تخلى عنهم ، كما فعل كلاجى ، وذهب الى الاسكندرية ، واعترف بما ارتكبه من جرم فى حق دولتـه ٠

(١٠٠) Chronique de Jean, p. 447.

(١٠١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٦ ٠

(١٠٢) اسم لقرية بين الاسكندرية ومصر ٠ وبها أسواق وكنيسة كبيرة ، وبها معاصر للسكر ، وبساتين واسعة وأكثر فواكه الاسكندرية منها ٠ انظر ، ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ٢٧ ٠

(١٠٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٢٦ ٠

(١٠٤) وكانت أهم الحصون فى الطريق الى الاسكندرية ٠ وقد أسرع قائد حاميتها لائذا بالفرار ـ عندما علم بقدوم العرب اليه ـ الى الاسكندرية ، وتشبه به فى ذلك جنود الحامية حتى اذا وصل العرب المدينة ـ أى نقيوس ـ وجدوها خالية من الجنود ، وتم لهم فتحها بسهولة ٠ انظر :
Chronique de Jean, p. 448.

(١٠٥) Sâ اسمها القديم سايس ، وتقع شمال دمنهور ٠ بتلر . فتح العرب لمصر ، حاشية ، ص ٢٤٨ ٠

(١٠٦) وفيها اشتد القتال بين المسلمين والرومان ، ونجح المسلمون فى فتح المدينة وأصبح الطريق أمامهم مفتوحا ، للتقدم نحو الاسكندرية ٠ انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٧ ، ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٢٤ ويسمى هذا الموضع سلطس ٠ ويقول بتلر ان الاسم الصحيح لهذا الموضع هو سنطيس ، وتقع بين كريون وكوم شريك ٠ انظر : فتح العرب لمصر ، حاشية ، ص ٢٥٠ ٠

(١٠٧) ويقال أن كريون اسم لنهر بمصر يأخذ من النيل ٠ ولذلك شبهه غيرها بالسفن ذات القلوع ـ انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ ١٦ ، ص ٤٥٨ ٠

ويشهد المؤرخون المسلمون باستبسال الرومان فى هذه الموقعة ، ويشيرون الى أن القتال استمر على أشده بضعة عشر يوما بين المسلمين والرومان ٠ وأن الرومان قد وصلتهم امدادات من سخا وبلهيث والخيس وسلطيس ، وقدموا كل

مساعدة ممكنة للرومان ضد المسلمين • والحقيقة أنه يبدو أن الرومان أرادوا الاحتفاظ بالاسكندرية دون وقوعها فى أيدى العرب الفاتحين • وعاونهم فى ذلك سكان المدن والقرى المجاورة ولكن خاب أملهم ، وألحق بهم العرب هزيمة ساحقة فى هذه المدن • انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٧ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٢٢ •

وتقع سخا بين فرعى النيل على نحو عشرين ميلا ، شمال غرب سمنود • أما بلهيث أو بلهيب ، فتقع على الجانب الغربى للنيل • ولعل هذا الاسم القديم كان يطلق على مكان القرية التى تسمى دبى • أما الخيس فتقع بجوار دمياط • انظر : بتلر : فتح العرب لمصر ، حاشية ، ص ٢٥٢ •

(١٠٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٧ •

(١٠٩) Chronique de Jean, pp. 449-450.

ويذكر هذا المؤرخ أنه لما تعذر الفتح على عمرو بن العاص فى بادىء الأمر ، رأى أن ينزل الرعب فى قلوب أهالى الاسكندرية فهاجم بعض مدن وقرى الدلتا • وبلغ مدينة سخا : الا أنه لم يتمكن من فتحها • ثم تقدم نحو مدينة طوخ ــ Toukho (وهو اسم يطلق على عدة أماكن منها طوخ فى صعيد مصر غربى النيل ، وطوخ الخيل أيضا فى الصعيد ويقال لها طوه ، وطوخ بالحوف الغربى وتسمى طوخ فريد ــ وهى المقصودة هنا ــ وطوخ فى الدقهلية وطوخ بلقطة وطوخ طنبشة فى المنوفية ، وطوخ الملك فى القليوبية • انظر : ياقوت الحموى ، ج ١٣ ، ص ٤٦ ، بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢٥٩ وحاشية ص ٢٥٩) ــ ومن طوخ سار عمرو الى دمسيس ، على بعد تسعة أميال الى الشرق من طوخ فريد • بتلر : فتوح العرب لمصر ، حاشية ، ص ٢٥٩ وقد أخفق عمرو فى فتح هذه المدن • ثم عبر عمرو وجنده الى الضفة الشرقية قاصدين دمياط ، ولكنهم لم يتمكنوا من دخولها أيضا • انظر :
Chronique de Jean, pp. 441-442.

ومما لا شك فيه أن اخفاق عمرو وجنده فى فتح بعض مدن الدلتا هو الذى جعل بعض المؤرخين المحدثين يذهبون الى معارضة الرأى القائل بأن مصر أذعنت للعرب دون قتال ، وان المصريين رحبوا بالفاتحين ورأوا فيهم الخلاص والنجاة مما هم فيه •

انظر بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢٥٩ •

ونحن نرى أنه كان بين أهالي مصر من قدم المساعدة للجند المسلمين ، ورحب بهم ، كما اتضح لنا من روايات المؤرخين القدماء ، ومنهم من عارضهم وقاومهم بجانب الرومان ·

(١١٠) Chronique de Jean, pp. 450-451.

(١١١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٢ ، ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٢٦ ·

الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٩ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٢٢ · ص ٢٢٢ ؛

(١١٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٩ · ويقول حنا النقيوسى – ص ٤٤٣ – ان هرقل مات فى فبراير سنة ٦٤١ م ؛ متأثرا بحزنه الشديد لهزيمة الرومان وموت قوادهم ·

(١١٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٩ ·

وتذكر بعض الروايات التاريخية أنه قد حدث أن أسر الرومان عمرو بن العاص مع ثلاثة آخرين – من بينهم مولاه وردان – فى أثناء حصار الاسكندرية · واختلفت الأقوال فيما حدث لهم داخل الحصن · فيرى البعض أنهم أفلتوا من الأسر بعد نجاح أحدهم فى مبارزة بعض الرومان وتغلبه عليهم · ويرى آخرون أنه قد أدرك بعض الرومان الحاقدين أن عمرو بن العاص بين المأسورين ، وذلك حين قال لهم : عليهم أن يختاروا أحد ثلاثة الاسلام أو الجزية أو القتال · فلما فهم ذلك وردان – مولى عمرو – لكم عمرو على فمه قائلا : « ما لك وذا الكلام بين الرؤساء ، وليس فى المعسكر أدنى منك ، ولا أقل ، فاترك غيرك يتكلم » ودخلت هذه الحيلة على الرومان · وأطلقوا سراحهم ؛ بعد أن وعدوهم سؤال أميرهم عمرو ارسال بعض مندوبين من المسلمين للتفاوض معهم · انظر المصدر نفسه ، ص ٧٠ – ٧١ · ابن بطريق : التاريخ المجموع ص ٢٥ ، ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٢٩ – ٣٠ وقيل ما يشبه ذلك فى حصار حصن بابليون مما يؤدى الى اضطراب الروايات التاريخية بشأن الفتح ·

(١١٤) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٢٢ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٢ ، ص ٣٩٧ ·

(١١٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٢ ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٢٦ وتذكر بعض الروايات ان الذى ساعد عمرا والمسلمين على فتح الاسكندرية رجل يسمى ابن بسامة ، وكان على أحد أبواب المدينة

وقد طلب الأمان من عمرو بن العاص على نفسه وأرضه وأهل بيته ، على أن يفتح له باب المدينة ، فأجابه عمرو الى ذلك • ودخل عمرو والمسلمون من جهة القنطرة التى يقال لها قنطرة سليمان • انظر : ابن عبد الحكم : المصدر نفسه ، ص ٧٣ • ابن اياس . بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢٢ •

(١١٦) تاريخ الأمم والملوك ، ج ٣ ، ص ١٩٦ • ووصف هذا المؤرخ ما حدث فى أثناء عرض الاسلام أو الجزية على السبايا من الرومان والقبط • فيقول انه اذا قبل أحدهم الاسلام ، كان المسلمون يكبرون تكبيرة أشد من تكبيرتهم عند فتح مدينة ، ويحوزونه اليهم « واذا اختار النصرانية ، نخرت النصارى ثم حازوه اليهم ، ووضعنا عليه الجزية ، وجزعنا من ذلك » ويشير أيضا الى ما حدث لأحد السبايا ويسمى أبو مريم عبد الله بن عبد الرحمن الذى أسلم فوثب عليه أهله يريدون قتله ، وشقوا عليه ثيابه •

انظر . المصدر نفسه ، ص ١٩٦ ـ ١٩٧ •

(١١٧) Chronique de Jean, p. 452.

(١١٨) Ibid., p. 453.

(١١٩) Ibid., p. 455.

(١٢٠) Chronique de Jean, p. 455.

(١٢١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٤ • ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٢٦ • ابن العميد تاريخ المسلمين ، ص ٣٠ ، على حين تشير رواية أخرى الى أنه كان يوجد بالاسكندرية نحو ستمائة الف يهودى وأن كثيرا منهم هرب الى بلاد الرومان فبلغ عدد من بقى منهم ويؤدون الجزية نحو خمسين الف يهودى • انظر : ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢٢ • ويكاد يقتصر ما كتبه المؤرخون بشأن اليهود آنذاك على هذه الرواية وسنرى أنهم بدءوا يبرزون فى التاريخ ، ويكتب عن بعض شخصياتهم ومكانتهم فى مصر الاسلامية بصورة واضحة فى العصر الفاطمى •

(١٢٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٢٢ •

(١٢٣) انظر : Chronique de Jean, p. 456.

(١٢٤) انظر : Ibid, p. 456.

وفى أثناء حصار الاسكندرية ، حمل عمرو بن العاص كثيرا من الغنائم والاسرى من المدن والقرى المجاورة لها الى حصن بابليون • كما قام بعض الجند المسلمين بعدة فتوحات فى بلاد الصعيد ، ساعدهم فى ذلك ضعف الجنود الرومان ، وما ساد من شعور الكراهية للرومان بين المصريين الأرثوذكسيين ، لما نزل بهم من الاضطهاد والعسف على يد المقوقس والحكام الرومان فى جميع أرجاء البلاد • وقد أراد سكان بعض مدن الصعيد قتال المسلمين ، ولكن حكامهم الرومان رفضوا الصمود بجانبهم ، بل وبادروا بالفرار الى الاسكندرية وهم يحملون ما تمكنوا حمله من الاموال والمتاع ، لشعورهم بعدم قدرتهم على مواجهة المسلمين • ونحن نرى أن فرار جميع الحكام الى الاسكندريه ، لم يكن بغرض الدفاع عن العاصمة الرومانيه وانما ليسهل لهم ، الخروج من الاراضى المصريه بحرا الى القسطنطينية – وصار أهالى الفيوم يقتلون كل من يجدونه من الرومان • ويمكن القول بصفة عامة ، ان سكان الصعيد جميعا كانوا يبغضون حكومه هرقل ، أشد البغض ويكرهون الجند الرومان • ولذلك فضلوا حكم المسلمين على حكم الرومان المسيحيين المخالفين لهم فى المذهب الدينى ، انظر .
Chronique de Jean, pp. 442-443.

(١٢٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٧٧، ويسمى اخنا « اجنا » • أبو عبيد : الأموال ، ص ١٤١ •
ياقوت : معجم البلدان ، ج ١٥ ، ص ٣٦٤ •

ويقول عن اخنا ان البعض يقول : اخنو ، ووجدت فى غير نسخة من كتاب فتح مصر بالجيم والجميع يعرفها بالخاء •

ويقول القضاعى وهو يعدد كور الحوف الغربى ، وكورنا اخنا ورشيد والبحيرة ، وكلها بالقرب من الاسكندرية • المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٢٤ •

(١٢٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٠٧ ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٢٤ •

(١٢٧) ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٢٤ • ويذكر بعض المؤرخين المحدثين أن طلما لما عرض عليه شروط الصلح التى صالح عليها عمرو بن العاص المقوقس ، سأل عن مقدار الجزية ، فأجابه عمرو بما ذكرنا فى المتن ، فغضب طلما اشد الغضب ، وعزم على عدم الاذعان للمسلمين ، ولكنهم أرغموه على التسليم وحملوا من بلاده كثيرا من الأسرى • انظر : بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣٠٢ •

(١٢٨) دمياط كلمة سريانية أصلها دمط . قال الرسول في تسميتها ان ادريس لما نزل عليه الصحف ، كان أول ما أنزله الله فيها . انما الله ذو الجبروت ، أنا مدبر المدبرين بأمرى وصنعي ، أجمع بين العذب والمالح والثلج والنار كل ذلك بعلمى ، ليتم بذلك الدال والميم والطاء . وأشار الرسول الى فتح المسلمين لدمياط . سيفتح لكم ثغر هو بلد القدرة ، يسكن فيه الأولون من أمتى . رباط ليلة فيه خير من عبادة ألف شهر . فسأله أنس بن مالك عن بلد القدرة ، فأجابه : بلد الميم والدال والطاء . وقال عليه الصلاة والسلام . « . . اسمه بالعربية دمياط ، وفي التوراة البيضاء ، وفي الانجيل الخضراء ، وفي الزبور الهزامة أو الهرومة . . » انظر ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٥ ، ص ٨٠ . المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٤٥ .

وتشير بعض الروايات الى امتناع حاكم دمياط الهاموك عن التسليم للمسلمين والاذعان الى عقد الصلح فعهد عمرو بن العاص الى المقداد بن الأسود ، بقتاله . ومما تجدر الاشارة اليه أن أحد أبناء الهاموك قد انحاز الى جانب المسلمين ، ودلهم على عورات ومسالك بلاده . وتشير أيضا هذه الرواية الى أن احد حكماء دمياط قال للهاموك . « أيها الملك ، ان جوهر العقل لا قيمة له ، وما استغنى به أحد الا هداه الى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك . وهؤلاء العرب من بدء أمرهم ، لم ترد لهم راية ، وقد فتحوا البلاد وأذلوا العباد ولما لأحد عليهم قدرة ، ولسنا بأشد من جيوش الشام ، ولا أعز ولا أمنع : وان القوم قد أيدوا بالنصر والظفر ، والرأى أن تعقد مع القوم صلحا ، تنال به الأمن ، وحقن الدماء ، وصيانة الحرم . فما انت بأكثر رجالا من المقوس » الا أنه أمر على محاربة العرب والتصدى لهم وانتهى الأمر بفوز المسلمين ، وتم لهم فتح دمياط .

انظر المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٤٥ ويقول ابن دقماق : ان فتح دمياط تم فى سنة ٢١ وفى قول آخر سنة ٢٢ هـ . والانتصار لواسطة عقد الأمصار ص ٨٠ .

(١٢٩) بعد فتح دمياط سار المسلمون لفتح تنيس . وكان حاكمها رجلا عربيا نصرانيا يسمى ابو طور أو أبو ثور . وقد تصدى لقتال المسلمين وخرج للقائهم فى عشرين الفا من أصحابه اكثرهم من العرب النصرانيين والبعض من القبط الرومان ، وانتهى الأمر بقتل أبى ثور وفتح مدينة تنيس . وأشار المقريزى الى الدور الذى قام به شطا بن الهاموك فى مساعدة المسلمين فى هذا الفتح . انظر الخطط جـ ١ ، ص ٣٤٥ و ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ .

Quatremere : Memoires géographiques et historiques sur l'Egypte T. I. p. 307.

(١٣٠) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢١٨ .

(١٣١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٢٣ .

(١٣٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(١٣٣) نفس المصدر ، ص ٢٢٣ .

(١٣٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

(١٣٥) المصدر نفسه ، ص ٢٣٦ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٢٣ .

(١٣٦) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٢٣ . ويقول ابن عبد الحكم ان عمرو بن العاص قد أقسم اذا أظهره الله على الرومان ، ليهدمن سور الاسكندرية وينزل بها الخراب ويقتل أهلها . انظر فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٣٥ .

(١٣٧) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٤١٠ .

(١٣٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٧ .

(١٣٩) Antoine Fattal : Le Statut legal des non-Musulmans en pays de Islam, p. 53.

(١٤٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ص ٧٦ — ٨٢ .

(١٤١) الدعوة الى الاسلام ، ص ١٢٣ سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٨٤ — ١٨٦ .

(١٤٢) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٨٦ .

(١٤٣) على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٤٨ . ويشبه ترحيب القبط بالعرب الفاتحين ، بترحيبهم بالفرس من قبل .

(١٤٤) Christian Egypt, p. 187.

(١٤٥) The Encyclopedia of Islam, Art Kibt, Vol. 2, p. 990.

(١٤٦) Histoire des Coptes, pp. 93-94.

أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ٢٥٢ .

(١٤٧) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢٥٩ — ٣٠٩ .

(١٤٨) أسد رستم : الروم ج ١ ، ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

(١٤٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٣ ــ ٥٤ ·

(١٥٠) المصدر نفسه ، ص ٦٤ ·

(١٥١) المصدر نفسه ، ص ٦٦ ·

(١٥٢) Chronique de Jean, pp. 439-448.

(١٥٣) انظر . القوامة العربية ·

(١٥٤) Antoine Fattal : Le Statut legal des non-Musulms en pays d'Islam, p. 72.

جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ، جـ ٤ ، ص ١٥٣ ، على حسنى الخربوطلى : الحضارة العربية الإسلامية ، ص ١٣٦ ، الاسلام وأهل الذمة ، ص ٦٥ ·

(١٥٥) الماوردى : الاحكام السلطانية ، ص ١٣٨ ، ابن القرار : الأحكام السلطانية ، ص ١٣٨ ، الشعرانى : الميزان ، جـ ٢ ، ص ١٤٠ ، ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٤ ·

(١٥٦) Mourice Fargon : Les Juifs en Egypte, pp. 113-114.

(١٥٧) Main : The Jews., Vol. 3, p. 13.

ويشير الى بعض الأخبار القليلة عن اليهود فى ذلك العصر ، منها سماح عمرو لهم بالاقامة فى الاسكندرية · كما يبدو انه كان ينظر الى ملابس اليهود ، نظرة احتقار بدليل أن حاكم الاسكندرية سمد Samad هدد البطرك يوحنا بارتداء ملابس يهودى ·

(١٥٨) Chronique de Jean, p. 457.

(١٥٩) Ibid., p. 463.

(١٦٠) Ibid., p. 457.

(١٦١) Ibid., p. 457.

(١٦٢) Chronique de Jean, pp. 457-458.

(١٦٣) Ibid., p. 458. ويرى احد المؤرخين المحدثين ان وصف الروايات القبطية لعمرو أو العرب بأنهم من الهمج والبربر ، وما ذهبت اليه من أن عمرا عامل المصريين بشدة وقسوة ، له أهمية من ناحيتين : اولا أن هؤلاء الحكام الثلاثة ــ ميناس وشنوده وفيلوخينوس ــ كانوا ابرز حكام مصر

بعد المقوقس وكانوا من الرومان - اتباع المذهب الملكانى - وكانوا شديدى القسوة فى معاملة القبط . ثانيا : أنه قد ثبت أن عمرا كان يعامل المصريين أشد المعاملة قبل فتح الاسكندرية وبعدها . ويستشهد بذلك فى تأييد رأيه فى أن المصريين لم يرحبوا بالعرب . وقد ناقشنا ذلك من قبل فى الفصل الأول ، أنظر :

بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣١٤ - ٣١٥ .

(١٦٤) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣١٣ .

(١٦٥) Chronique de Jean, pp. 462, 485. كانت أخبار القسطنطينية لا تبشر بالخير . فقد زال أمر الامبراطورة مارتينة وضربها المؤيد للمقوقس وأعيد فلاجريوس من منفاه ، وكان عدوا للمقوقس . وحاول فلنتين الثورة ففشل وأظهر أنه كان يعد لمحاربة العرب ، وأظهر ولاءه للامبراطور بالايقاع بكل من كان يوالى مارتينة وأنصارها مما أثار مخاوف المقوقس ، وخشى على نفسه من النفى أو القتل . انظر المصدر نفسه ، ص ٤٦٢ .

(١٦٦) Ibid., p. 463. ويوافق هذا اليوم عيد الصليب .

(١٦٧) بتلر فتح العرب لمصر ، ص ٣١٥ ، وحاشية الصفحة نفسها .

(١٦٨) Chronique de Jean, p. 463. ويشير بتلر فى فتح العرب لمصر ، ص ٣١٧ الى تاريخ رحيلهم فى ١٧ سبتمبر ٦٤٢ م .

(١٦٩) كان عيدا للقبط عند دخول العرب مصر ، فقد تولى شئون الكنيسة فى أثناء اختفاء الأب بنيامين فأحسن ادارتها وجمع كلمة الأمة بعد أن كانت الحوادث قد جعلتها أشتاتا . انظر : سيدة كاشف . مصر فى فجر الاسلام ، حاشية ، ص ١٨٧ .

(١٧٠) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ج ١ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ . ويذكر أبو صالح الأرمنى - ص ١٠٢ أن نص الامان « فليظهر الشيخ البطريرك مطمئنا على نفسه وعلى طائفته القبط جميعهم التى بالديار المصرية وغيرها آمنين على نفوسهم من كل مكروه » .

(١٧١) ساويرس : سير الآباء البطاركة ، ص ١٠٩ .
Chronique de Jean, p. 464.

(١٧٢) ساويرس : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٠٩ .
Sylvestre Ghauleur : Histoire des Copties, pp. 106-107.

(١٧٣) ساويرس : سير الآباء البطاركة ، م ١ ج ١ ، ص ١٠٩ .

(١٧٤) المصدر نفسه ، ص ١٠٩ — ١١٠ .

(١٧٥) Chronique de Jean, p. 464.

(١٧٦) Ibid., pp. 464-465. مثلا كانت الضرائب المقررة على مدينة الاسكندرية ٢٢ الف دينار الا أن ميناس اجحف بالقبط ، وزاد عليهم الضرائب كثيرا عن هذا الحد ، حتى بلغ مقدار جباية الاسكندرية ٣٢٫٧٥٠ دينار ، وذلك رغبة منه فى التقرب من عمرو بن العاص عن طريق زيادة ما يقدمه اليه من الأموال ، فعزله عمرو من منصبه ارضاء للقبط .

انظر . المصدر نفسه ، ص ٤٦٥ .

(١٧٧) حسن ابراهيم حسن . تاريخ الاسلام السياسى ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

(١٧٨) ابن الداية : المكافاة ، ص ٨٧ — ٨٨ . ويروى أن عمرا كان يتنكر فى زى عامة الناس ويخرج وحده ، ليرى ما عليه القبط من النية للمسلمين . وفى يوم ما وصل به السير الى طرف من أطراف الفسطاط ، فرأى جماعة قد التأمت على سوء فيه ، فقال لها : اعملوا بى كل ما تؤثرونه من السوء ، ولا تردونى الى يد الأمير ، فانى هربت منه . فقال بعضهم : ردوه الى يد الأمير ليقتله ، ويكن لكم بذلك عارفة عند الأمير . فساقوه الى دار الامارة ، حتى قرب إلى الدار ، فقام اليه الشرطة ، فأمرهم بقتل هؤلاء القوم عن آخرهم . ولم يعاود عمرو بن العاص التنكر بعد ذلك .

(١٧٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ٢٢٥ — ٢٢٦ . ويشير الى أن عمر لم يكتف بضرب القبطى لعمرو وقال له . « منذ كم تعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا » .

انظر ايضا جورجى زيدان . تاريخ التمدن الاسلامى ، ج ٤ ، ص ١٠٨ — ١٠٩ . الشماس منسى القمص : تاريخ الكنيسة القبطية ، ص ٢٠٦ .

(١٨٠) توفيق الطويل . قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والاسلام ، ص ١٦٨ .

(١٨١) ابو يوسف : الخراج ، ص ١٢٥ ، محمد ضياء الدين الريس . الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ، ١٧٢ .

(١٨٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ — ٣٠٧ .

(١٨٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ١٠٩ ٠
على حسنى الخربوطلى . الحضارة الاسلامية ، ص ١٤٨ ٠

(١٨٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٣ ، ص ٥٥٦ ٠

(١٨٥) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٩ ٠

(١٨٦) وهى اهناسيا ٠

Sylvestre Chauieur : Histoire des Coptes, p. 98.

(١٨٧) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٨٩ ٠

(١٨٨) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ويسميه تاوضوسيوا ، وفى موضع آخر ص ١٢٤ تادرس ٠ انظر أيضا ، السنكسار ، ج ١ ، ص ١٢٧ ، ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٢٢ ٠ ويذكر هؤلاء أن تيودوسيوس ذهب الى الخليفة المذكور بدمشق وقدم له هدايا وأموالا عظيمة وطلب منه أن يوليه حكم الاسكندريه وما يجاورها ، وأن يكتب الخليفة له سجلا بذلك ٠ فكتب الخليفة يزيد لتيودوسيوس سجلا يحق له به حكم الاسكندرية والبحيرة ومريوط ٠ كما أشار الخليفة فى هذا السجل الى أن والى مصر ليس له سلطان على هذ الحاكم ٠

(١٨٩) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ، السنكسار ، ج ١ ، ص ١٢٧ ٠ وأصل البطرك أغاثو من مريوط ٠ وكان قسا فى الكنيسة فى بطريركية الأب بنيامين ٠ وشهد اضطهادات المقوقس وتحدى مذهبه الذى كان يدعو اليه القبط ٠ فكان ليلا يتزيا بزى العلمانيين ، ونهارا يتنكر فى زى نجار ــ يحمل آلات النجارة ــ كما ذكرنا آنفا فى التمهيد ــ وعاد الى الظهور بعد الفتح العربى وعودة البطرك بنيامين الذى عهد اليه بتدبير أمور البيعة ، وولى البطركية من بعده ٠ انظر ابن المقفع : المصدر السابق ، ص ١١٢ ٠

(١٩٠) القلاية جمعها قلالى ، وهى مقابر منفردة للمتوحدين المنعزلين عن السكن بين الناس ٠ وهى تعد أصلا لسكنى الرهبان ويقوم الرهبان بحفرها فى الصحراء أو مقابر الجبال أو بنائها من الطوب ٠ انظر عبد المسيح البرموس : تحفة السائلين ، ص ١٧ ٠ حكيم أمين : دراسات فى تاريخ الرهبانية ، ص ١٣٨ ٠ والمقصود هنا البناء الذى يسكنه البطرك ويكون فيه أقامته طوال توليه كرسى البطركية ٠

(١٩١) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ، ص ١٢٤ ٠

(١٩٢) ويسميه أحد المؤرخين السريان اثناسيوس بن غومايه Athnasius Ben Gaumaye ويقول انه كان يشتهر بالنبل ، والذكاء ، وكان متبحرا فى العلوم الكنسية والدنيوية ٠ وذاعت شهرته حتى بلغت أخباره الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان الذى عهد اليه بتعليم أخيه عبد العزيز بن مروان الذى ولى أمرة مصر ٠٠

Chronique de Michel le Syrien, T. 2, fasc. 3, p. 475.

(١٩٣) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ٠

Amélineur : Histoire du Patriarche Copte Isaac, p. 43.

(١٩٤) أصله من سمنود ، وترهب بدير أبى مقار ٠ وكان كاتبا للبطريرك اغاثو وولى البطركية من بعده ، الأنبا ايسيذوروس : المزيدة النفسية ، ج ٢ ، ص ١٢١ ٠

(١٩٥) ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، م ١ ج ٢ ، ص ٢٥ ٠

(١٩٦) أصله من أهل المشرق ، جاء به والده منذ صباه الى الاسكندرية ٠ ثم صار قسا فى بطركية اغاثو ٠ وبعد وفاة البطرك اسحق ، وقع اختيار القبط على الأب سيمون ليكون بطركا لهم ٠ وحاول بعض الكهنة دس السم له الا أنهم فشلوا ٠ وحارب البطرك سيمون ظاهرة التسرى بين الأساقفة والقبط ٠ وتعرض لكثير من المحن ٠ انظر : ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ١ ، ج ٢ ، ص ١٣٣ ـ ١٤٢ ٠

(١٩٧) ابن المقفع : المصدر السابق ، ص ١٤٢ ٠

(١٩٨) ابن المقفع ٠ سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ٠

(١٩٩) ترتون ٠ أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٢١ ٠

(٢٠٠) Chronique de Michel .., T. 2 fasc. 3, p. 475.

وبلغ عدد جند مصر ثلاثين الف جندى واستمر هذا العطاء احدى وعشرين سنة ، حتى صار اثناسيوس فاحش الثراء ٠

(٢٠١) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٢١ ٠

(٢٠٢) Chronique de Michel ..., T. 2, fasc 3, p. 475.

(٢٠٣) Ibid., p. 475.

(٢٠٤) انظر : Ibid., p. 476.

وابن بطريق · التاريخ المجموع ، ص ٤١ ·

وقد سعى بالثناسيوس احد الملكانيين ويسمى سرجيوس بن منصور ، عند الخليفة عبد الملك بن مروان فى دمشق ، واتهمه أمامـه بنهب أموال مصر ، وحملها معه الى الشام بعد وفاة عبد العزيز بن مروان · فاستدعى عبد الملك اثناسيوس ، وقد تمكن الأخير من ارضاء الخليفـة وقدم له مبلغـا عظيما من الأموال · انظر : Chronique de Michel, T. 2, fars. 3, p. 477 ويقال ان عبد الملك قبض على اثناسيوس واهله وأخذ منهم كل ما جمعوه من الأموال · ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ١٤٤ ·

(٢٠٥) ابن المقفع · سير الآباء البطاركة ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ١٣١ ·

(٢٠٦) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ ·

(٢٠٧) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ ·

(٢٠٨) بتشر : تاريخ الأمة القبطية ، م ٢ ، ص ١٦٣ ــ الراهب البراموسى : حسن السلوك فى تاريخ البطاركة والملوك ، جـ ١ ، ص ٤٣١ ــ الأنبا أيسيندوس المزيدة النفيسة ، جـ ٢ ، ص ١١١ ·

(٢٠٩) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٤١ ــ أبو صالح الارمنى ، ص ٦٧ ·

(٢١٠) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ١٤٥ · ويقول ترتون ، ص ٢٢ ــ ٢٣ ان اسمه تيودور ، وانه كان يلقب فى الكتب الرسمية باسم اجستاليس Augustales وكان هذا لقب حاكم الاسكندرية فى العصر البيزنطى ·

(٢١١) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ١ ، جـ ٢ ، ص ١٤٠ · وقد ولى الاسكندروس البطركية بعد ثلاث سنوات من وفاة البـطرك سـيمون · وكان متواضعا ، انظر المصدر نفسه ، ص ١٤٢ ·

(٢١٢) سيدة كاشف · مصر فى فجر الاسلام ، ص ٢٢٦ ــ ٢٢٧ ·

(٢١٣) ابن المقفع سير الآباء البطاركة ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ١٤٨ ·

(٢١٤) Lammans : Un Gouverneur Omaiyade, p. 115.

(٢١٥) عبد الله بن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٣٥ — ١٣٦ · ابن النقاش · الذمة فى استعمال أهل الذمة ورقة ٨٣ ، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٥٢ تاريخ · ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ص ٢١٢ — ٢١٣ ويزيد فى النهاية هذا الكتاب « وأمر بمنع اليهود والنصارى من الركوب على السروج الا على الأكف · وليكتب كل منكم بما فعله من عمله » ·

(٢١٦) ابن كثير . عمر بن عبد العزيز ، ص ٩١ · ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن هذا الخليفة كره أن يكون للذمى سلطان على المسلمين ، وأن بعض كتبه الى ولاته فى هذا الشأن يعد رسالة تعليمية ، جاء فيها « أما بعد ، فان الله عز وجل · اكرم بالاسلام أهله ، وشرفهم وأعزهم ، وضرب الذل والصغار على من خالفهم ، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس · فلا تولين أمور المسلمين أحدا من أهل الذمة ، فتبسط أيديهم والسنتهم ، وتذلهم بعد أن أعزهم الله ، ونهينهم بعد أن أكرمهم الله تعالى · فان الله عز وجل يقول · (يأيها الذين أمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ، لا يالونكم خبالا ، ودوا ما عنتم · قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر · قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون) · ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٢٣ ·

(٢١٧) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢١٣ ·

(٢١٨) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢١٣ ·

(٢١٩) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٦٩ أبو المحاسن · النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٣٨ ·

(٢٢٠) ابن المقفع سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٥٢ — ١٥٣ ·

(٢٢١) بورة مدينة على ساحل النيل ، بالقرب من دمياط · وتنسب اليها العمائم البورية والسمك البورى ·

انظر . ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٦٠٥ ·

(٢٢٢) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٥٨ · ترتون · أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٢٤ ·

(٢٢٣) ابن بطريق : المصدر السابق ، ص ٥٨ ، ترتون · المصدر السابق ، ص ٢٤ — ٢٥ ·

فاذن للقبط ببناء كثير من الكنائس · كما سمح للمسلمين ببناء مسجد آخر غير المسجد الموجود ·

(٢٢٤) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ ٠

(٢٢٥) ابن النقاش : الذمة فى استعمال أهل الذمة ورقة ٨٦ ـ ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢١٧ ـ ٢١٨ ٠ ويزيد بيتا رابعا جاء فيه :

عبدوا الصليب وثلثوا معبودهم ‏ ‏ وتوازروا ونقدوا الأشراطا

(٢٢٦) ابن النقاش . الذمة فى استعمال أهل الذمة ورقة ٨٦ ـ ٨٧ ٠ ويقول ان الامام على بن حمزة الكسائى كان يقرأ القرآن على الخليفة بعد عودته الى بغداد ، فلما وصل الى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ٠٠) قال الكسائى للخليفة . انك تقرأ كتاب الله ولا تعمل بما جاء فيه ٠ ولذلك أمر بعزل الذميين من أعمالهم ، واستخدم المسلمين بدلا منهم ٠

(٢٢٧) ويسمى أيضا قسما وقد جلس على كرسى البطركية بعد وفاة أنبا خايال ٠ وكان شماسا فى بيعة القديس أبى مقار ٠ وأصله من سمنود ٠ انظر : ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ١ ، ص ٢ ٠

(٢٢٨) المصدر ، نفسه ، ص ٣ ٠

(٢٢٩) قرية كبيرة بمصر بالقرب من دمياط انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ ٨ ، ص ٤٧٢ ٠

(٢٣٠) ابن المقفع : المصدر السابق ، م ٢ جـ ١ ، ص ٣ ٠ ويعلق على عناية الموظفين القبط باخوانهم وبطركهم فيقول : « وكان من نعمة الله أن جماعة من المؤمنين متولين ديوان السلطان ، وجميعهم يبذلون أنفسهم مع البيعة شهوة واجتهادا عن أمانتهم ، وأزاحوا البطرك والبيعة والمؤمنين وصاروا تحت هدوء وسلام ولا يوجد موضع واحد فيه اضطراب فى تلك الأيام » ٠

(٢٣١) ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ١ ، ص ٤ ٠ الطبرى . تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ، ص ٣٥٥ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٢٨٥ ٠ ويروى أن السبب الذى دفع المتوكل الى اتباع هذه السياسة ، انه عندما كان يؤدى فريضة الحج ، شكا اليه بعض الناس من استطالة أهل الذمة على المسلمين ، وسلطانهم عليهم ٠ فأثار ذلك من سخطه وغضبه على أهل الذمة ، مما جعله يسلك هذا السبيل ٠ انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٣ ، ص ٣٦٦ ٠

ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ ٠

(٢٣٢) ابن زبر القاضى : شروط النصـارى ورقة ١٦ ، مخطـوط بدار الكتب .

(٢٣٣) المصدر نفسه ، ورقة ١٧ .

(٢٣٤) المصدر نفسه ، ورقة ١٧ ، ١٨ .

(٢٣٥) المصدر نفسه ، ورقة ١٨ . ويذكر القلقشندى كتابا للمتوكل جاء فيه « وقد انتهى الى امير المؤمنين ان اناسا لا راى لهم ، ولا ردية ، يستعينون بأهل الذمة فى اعمالهم ، ويتخذونهم بطانة من دون المسلمين ، ويسلطونهم على الرعية ، فيعسفونهم ، وينبسطون أيديهم الى ظلمهم وغشهم ، والعدوان عليهم ، فأعظم أمير المؤمنين ذلك ، وأنكره ... وتبرأ منه ، وأحب التقرب الى الله بحسمه والنهى عنـه . ورأى أن يكتب الى عمـاله على الكور والأمصـار ، وولاة الثغور والأجناد فى ترك استعمالهم لأهل الذمة فى شىء من أعمالهم وأمورهم ، والاشراك لهم فى أماناتهم وما قلـدهم أمير المؤمنين واستحفـظهم اياه ... » وأشار الخليفة فى كتابه هذا الى ما يتميز به المسلمون دون الذميين من الثقة والأمانة والدقة وغير ذلك .

انظر : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٨ .

(٢٣٦) ابن المقفع - سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٤ ـ ٥ .

ويصف هذا المؤرخ ما صارت عليه أحوال القبط الموظفين منهم وغير الموظفين والبطرك على النحو التالى : « فأما الكتاب المؤمنون الذين تقدم ذكرهم ، فكانوا تحت ضيقة عظيمة ، وصعوبة ، من هذا الذى ليس بانسان . ومن قوة أمانتهم ، لما صرفوا من أشغالهم ، توكلوا على رحمة الله تعـالى ذكره وسالوا أن لا ينساهم . فأما أبونا البطرك ، لما شاهد الاراخنة وما نالهم من الصعوبة من ذلك الشيطان والبطالة ، وقطع معايشهم ، وأنهم الذين كانوا يهتمون بامور البيعـة ، كان حزينا جدا وقد أحملت كتب المؤمنين الى الأب البطرك ، يسألونه الدعاء لهم . وكانوا أيضا يكاتبون الاباء الصالحين المنقطعين الى الله فى الجبـال والديارات بمواصلة الدعاء لهم وللمؤمنين بالمسيح ، أن يكشف الله عنهم هذه الغمة ، ولا ينساهم ، ولا يدعهم تحت رجزه وغضبه » ، المصدر نفسه ، ص ٦ .

(٢٣٧) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢٠٣ .

(٢٣٨) ويكتبها البعض بالجيم بدلا من القاف . والقسطال لقب يطلق على الموظف المشرف على مالية الكورة ، أو بمعنى آخر مندوب ديوان الخـراج والأموال . ويرى جاستون فيت G. Wiet أن كلمة جسطال تقابل الكلمة البيزنطية أوجستاليوس . انظر سيدة كاشف . مصر فى فجر الاسلام ، ص ٢٦ .

(٢٣٩) جروهمان : أوراق البردى ، ج ١ ، ص ١٣٤ ، ١٤٠ .

(٢٤٠) المصدر نفسه ، ص ١٤٥ ، واسم القرية التى كان يقوم بتحصيل خراجها غير واضح .

(٢٤١) المصدر نفسه ، ص ٧٠ .

(٢٤٢) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٣٠ و
Amélineau : Histoire de Patriarche Copte Isaac, p. 44.

(٢٤٣) Archdeacon وهو رئيس الشمامسة ويكون مسئولا عن نظام الكنيسة ونظافتها . كما يكون من مهامه الاشراف على أملاك الكنائس ومساعدة الأسقف فى أعماله كما يكون حريصا على مراعاة العادات والتقاليد والقوانين الكنسية . انظر :
The Oxford Dictionary of Christian Church, p. 79.

(٢٤٤) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٣٠ ، ويقول . « وهذا أمر من الله ، ليقدم من اصطفاه ، أولا وهو الأب اسحق الراهب ، وكان من أهل شبرا » انظر أيضا :
Amélineau : Hist, du P. Isaac. pp. 444-5.

(٢٤٥) ابن المقفع : المصدر السابق ، ص ١٣٠ - ١٣١ و
Ibid., pp. 45-47.

(٢٤٦) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٢٤٧) المصدر نفسه ، ص ١٣٢ .

(٢٤٦) المصدر نفسه ، ص ١٣٣ كان والدا الأب سيمون قد حضرا به الى الاسكندرية ، حيث قدماه قربانا للبيعة لأجل جسد القديس ساويرس . فأخذ تادرس سيمون فى بطركية الأب اغاثو ، وعهد الى الأب يوحنا - وكان شماسا - ليعلمه قوة الكتابة وفضول الكتب فتعلم سيمون الكتابة القديمة ، وكثيرا من الحديثة فى زمن يسير . ولما أدرك البطرك أغاثو صلاحيته ، أوسمه قسا . وكان يلى الأب يوحنا فى الدرجة فى دير الزجاج . انظر المصدر نفسه ، ص ١٣٢ ، البسنكسار ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ .

(٢٤٩) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٣٣ .

(٢٥٠) ابن المقفع ، سير الآباء البطاركة ، م ١ ج ٢ ، ص ١٤٢ .

(٢٥١) المصدر نفسه ، ص ١٦٨ ـ ١٧٠ ، وكانت الكنيسة القبطية بدون بطرك منذ وفاة الأب تادرس فى ولاية القاسم بن عبيد الله الحراني (١١٦ ـ ١٢٥ هـ = ٧٣٤ ـ ٧٤٣ م) حتى ذلك الوقت الذى تمت فيه اقامة أنبا خايال بطركا فى ولاية حفص بن الوليد ، انظر المصدر نفسه ، ص ١٦١ .

(٢٥٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٩ ، وتشير الرواية القبطية الى أن الفريق الذاهب الى وادى هبيب لاحضار أنبا خايال تقابل مع وحضر شيوخ ورهبان هذا الوادى وكان من بينهم أنبا خايال ، وكان هذا الوفد قادما لتهنئة حفص ابن الوليد بالولاية ، وليلتمس منه ازالة الظلم الذى نزل بهم فى ولاية سلفه ـ القاسم بن عبيد الله ـ وبعد عودة وفد الأساقفة ومعهم أنبا خايال ، أخبروا الوالي حفص بن الوليد بما حدث مما أثار دهشته وإعجابه ، المصدر نفسه والصفحة .

(٢٥٣) ابن المقفع ، سير الآباء البطاركة م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ ، وجاء فى هذا الكتاب ... هكذا نقول ، ابوتك تعلم ما جرى علينا من اليتم فى مضى ابونا الطوبانى أنبا يوحنا الى الرب فى هذا الزمان الصعب وتقلب الملوك وابوتك تعلم أن قطيع خراف بغير راع يدخله الذئب فيبيته وكل مدينة بغير سور العدو يهلكها . ولأجل هذا اجتمعنا فى البيعة العظمى بالاسكندرية والآباء والأساقفة فقد كتبنا نقول ، واحد منا طلب به قلبنا على القس مرقص أن يكون لنا أبا » .

(٢٥٤) المصدر نفسه ، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ ، ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ١٢٢ .

(٢٥٥) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٢٥٦) المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ . والقس يوساب أصله من منوف العليا ، وأبواه من كبار رجال القبط ، وقد خدم تادرس حاكم الاسكندرية ثم خرج الى وادى هبيب ، ثم أقامه البطرك مرقص شماسا ثم قسا . المصدر نفسه ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ .

(٢٥٧) المصدر نفسه ، ص ٢٧٤ .

(٢٥٨) الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤ .

(٢٥٩) Stanley Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle ages, p. 26.

(٢٦٠) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ١٩٦ الراهب البراموسى : حسن السلوك فى تاريخ البطاركة والملوك ، ج ١ ، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ، ستانلى لين بول :سيرة القاهرة ، ص ٧١ ٠

(٢٦١) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٤٨ ٠

(٢٦٢) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩ ٠

(٢٦٣) ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ، ١٢٤ ، السنكسار ، ج ١ ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ٠

(٢٦٤) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٤١ ، أبو صالح الأرمنى ، ص ٦٧ ٠

(٢٦٥) ابن المقفع : المصدر السابق ، ص ١٥٠ ، السنكسار ، ج ٣ ، ص ٦٦٦ ، ترتون : أهل الذمة في الاسلام ، ص ٨٢ ٠

(٢٦٦) قيل انه حدث فى سنة ١٠٧ هـ ـ ٧٢٥ م أن أرسل الامبراطور البيزنطى لاون ، هدية الى الخليفة هشام فاتت هذه الهدية أكلها ، وتمكن الخلقدونيون فى مصر من اقامة بطرك لهم ٠ انظر : ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٨٢ ، ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر القديمة والحديثة ، ج ٢ ، ص ١٢٤ ٠

(٢٦٧) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٤٥ ٠ ويذكر أن الملكانيين كانوا بدون بطرك منذ هروب بطركهم الى القسطنطينية فى السنة الثالثة من خلافة عمر بن الخطاب الى أن أقيم قزمان هذا بطركا ، وغلبت اليعاقبة على جميع الكنائس بمصر ٠ انظر ، المصدر نفسه ، ص ٤٥ ـ ٤٦ ٠ فى حين أشار ساويرس الى أن الملكانيين كان لهم بطرك فى خلافة الوليد بن عبد الملك وولاية قرة بن شريك على مصر ٠ وان كان لم يبق فى كرسيه طويلا ، وتحول الى المذهب اليعقوبى ٠ ثم يشير فى موضع أخر الى اقامة بطرك لهم فى ولاية القاسم بن عبيد الله وليس أبيه عبيد الله بن الحبحاب ٠ انظر : سير الآباء البطاركة م ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٧ ٠

(٢٦٨) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٤٥ ٠ ويسمى هذا الوالى عبد الله بن الجيحان السكوى ٠

(٢٦٩) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٧٤ ٠

(٢٧٠) المصدر نفسه ، ص ١٧٤ ـ ١٧٥ ٠

(٢٧١) المصدر نفسه ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦ • وقد اشار بعض الأرثوذكسيين على الأسقف أنبا موسيس أن يشير على البطرك خايال بدفع مبلغ من المال لصاحب الديوان كما فعل الملكانيون ، حتى ينصفهم ولكنه رفض ذلك وقال ان هذا التصرف لا يليق بالقبط المؤمنين ، وعليهم جميعا الصبر وان الله لن يتخلى عنهم •

(٢٧٢) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٧٦ ـ ١٧٧ •

(٢٧٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٧ ـ ١٧٩ • وجرت مناظرات بين البطرك خايال والبطرك قزما عن الاتحاد ، وكتب الأب خايال : « أنه لا يجب أن يقال ان فى المسيح طبيعتين ، متفرقتين بعد الاتحاد ، ولا اثنين ولا شخصين » انظر ايضا السنكسار ، ج ٢ ، ص ٣٥ •

(٢٧٤) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٧٩ ـ ١٩٠ •

(٢٧٥) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٤٩ ، ٥٢ •

(٢٧٦) المصدر نفسه ، ص ٥١ ـ ٥٢ المقريزى : الخطط ج ٤ ، ص ٣٩٦ و
Le R. P. Antefage : Les Coptes, pp. 23-24.

(٢٧٧) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٥٢ • وكان اسطات يعمل فى صناعة الكتان ثم ترهب فى دير القصر وصار رئيس الدير • وبنى كنيسة الأبوسطلين ، وبنى بها قلاية للأساقفة • أما خرسطوفور ، فيبدو أنه كان لا يقدر على المشى ، فكان يحمل على الايادى ، وجعل الأسقف الملكانى بطرس ، ينوب عنه فى اقامة الأساقفة • انظر المصدر نفسه والصفحة •

(٢٧٨) توفيق الطويل : قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والاسلام ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ •

(٢٧٩) على حسنى الخربوطلى : الحضارة العربية الاسلامية ، ص ١٤٣ •

(٢٨٠) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٦ • واصل يوحنا من سمنود ، وقد ولى البطركية بعد وفاة الأب أغاثو • المصدر نفسه ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ ، السنكسار ، ج ١ ، ص ١٢٨ •

(٢٨١) ابن المقفع : المصدر السابق ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ • ويروى أن يوحنا قال لسعد : ليس حتى معى مائة درهم فما شئت ان تفعل بجسدى فافعل ، فنفسى وجسدى معا بين يدى المسيح • فغضب لذلك سعد ، وامر بقصرية

نحاس مملوءة جمر نار ، وتجعل رجلاه فيها حتى يقبل دفع المطلوب منه . ويشير ساويرس الى أن زوجة عبد العزيز بن مروان ، تعرضت فى هذا اليوم لشدائد عظيمة ، وبعثت الى سيدها تأمره ألا يلحق أى أذى بالبطرك . كما قال الوالى نفسه لسمد . « اياك أن تمس جسده لاجل ما نالنا فى هذه الليلة بسببه . ولكن مهما قدرت عليه خذه منه بلطف . والا فلا تقربه بسوء ، لأن الله قد أظهر لى أنه عبده » . كما أشار ساويرس الى أن البطرك يوحنا ، قال لسمد ، لما هدده بلباس يهودى . « ان لم يخلصنى الرب الهى من يديك ، والا فما لك قدرة أن تفعل بى شيئا الا بأمره » .

(٢٨٢) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ . ويشير الى أن عبد العزيز بن مروان لما أحضر البطرك للاتفاق معه على دفع عشرة الاف دينار ، أمر باحضار وسادة كبيرة ليجلس عليها البطرك ، وقال له أما تعلم أن السلطان لا يقاوم ؟ فأجاب البطرك : السلطان نسمع منه أمره فيما يجب ، ونخالف أمره فيما يغضب الله . فقد قال ربنا فى الانجيل ، لا تخافوا ممن يقتل الجسد ، وليس له سلطان على النفس ، ولكن خافوا ممن يقدر يهلك النفس والجسد جميعا ، يعنى الله القادر على ذلك وحده . عند ذلك قال له الأمير : الهك يحب الصدق والحق . فأجاب يوحنا : الهى حق كله ، ليس فيه كذب ، بل يهلك كل من ينطق بالكذب . فقال له الأمير : انك صادق وثقة . وان ما يدفعه لك القبط بسبب مطالبتى لك بالأموال ، ادفعه لى ولا أطلب منك أكثر من ذلك . وبذلك أطلق سراح يوحنا وخرج من دار الامارة فى موكب حافل بالقراءة والترتيل حتى بلغ الكنيسة وقدس مع شعبه .

(٢٨٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ . ويذكر أنه لما عاد الوالى الى الفسطاط من الاسكندرية ، علم بمرض البطرك يوحنا ، فحزن عليه أشد الحزن ، وبعث الكتاب ليفتقدوه ، وخبروا الأمير بحالته .

(٢٨٤) المصدر نفسه ، ص ١٣٠ .

(٢٨٥) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٣١ .

(٢٨٦) المصدر نفسه ، ص ١٣١ .

(٢٨٧) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ .

(٢٨٨) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ .

(٢٨٩) المصدر نفسه ، ص ١٤٤ .

(٢٩٠) تاريخ الامة القبطية ، م ٢ ، ص ١٧٢ .

(٢٩١) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

(٢٩٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٥ .

(٢٩٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٥ .

(٢٩٤) المصدر نفسه ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

(٢٩٥) المصدر نفسه ، ص ١٤٦ . ويذكر ساويرس أن البطرك الاكسندروس قال لقرة بن شريك عندما طالبه بالمال : « شرعنا يأمرنا أن لا يكون لنا قنية ، ولا نكثر ذهب ولا فضة ، بل تصرف حاجة يوم بيوم ، لما نحتاجه من الكلف للفقراء والمحتاجين . وانما فعل بى عبد الله ما فعل بسعاية الناس السوء ، حتى كلفنى والزمنى ثلاثة آلاف دينار ولم يوجد معى منها شيء ، حتى اخرجتنى الى البلاد كالمدين اتصدق ، حتى وفق الله لى ، ما طيب به نفسى ، على الى الآن خمسمائة دينار ، فمن أين يكون معى شيء » . وامتنع البطرك أن يقسم على الا يوجد عنده أموال .

(٢٩٦) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٤٦ ـ ١٤٧ . ويقص أنه من سوء حظ هذا البطرك ان عثر راهبان ، على خمسه كيزان نحاس مملوءة مالا من سكة الرومان . فاخفيا واحدا منها لهما ، واعطيا الاربعة الاخرى لابيهما . وقد بادر بدوره الى ارسال هذه الاموال الى البطرك ليدفع منها الغرامة المطلوبة منه ، فتسلمها وكيل البطرك الاكسندروس وكاتبه نيابة عنه فى أثناء تغيبه فى بلاد الصعيد .

وحدث بعد ذلك أن ترك الراهبان الرهبنة ، ولبسا لباسا فاجرا ، مما لفت اليهما الأنظار . واضطر احدهما الى الاعتراف بحقيقة الأمر . فوصل الخبر الى الوالى قرة بن شريك فأمر بغلق الابسقوبية ـ الدار البطركية ـ والاستيلاء على ما فيها وفى غيرها من البيع من الأوانى والذهب والفضة والكتب . وأساء الى أصحاب البطرك ، فأخذ أربعة الكيزان المذكورة . كما أحضر البطرك من الصعيد ، وأراد قتله ، الا انه طرحه فى السجن وهو مكبل بالحديد . وبعد سبعة أيام افرج عنه ، وألزمه فى الوقت نفسه بدفع الغرامة المطلوبة منه .

(٢٩٧) المصدر نفسه ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

(٢٩٨) المصدر نفسه ، ص ١٤٨ .

(٢٩٩) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٥١ .
ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص [illegible] .
المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٥ .

(٣٠٠) ابن المقفع : المصدر السابق ، ص ١٥١ • ابن العميد ، المصدر السابق ، ص ٦٩ ويقول ابن المقفع : المصدر نفسه والصفحة – ان عماله كانوا تنفيذا لأوامره يقلعون الأعمدة والأخشاب • ويبيعون ما يساوى عشرة دنانير بدينار •

(٣٠١) ابن المقفع • سير الاباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٥٢ ، ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٦٩ •

(٣٠٢) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٥٢

(٣٠٣) المصدر نفسه ، ص ١٥٣ •

(٣٠٤) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٥٣ • ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٧٠ ، المقريزى • الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٥ • ويجدر بنا الاشارة الى أن الامبراطور البيزنطى ليو الأيسورى ، أصدر قرارا بحظر الصور والتماثيل الدينية ، كما فعل الخليفة يزيد بن عبد الملك ، ولكن قرار الامبراطور كان فى سنة ١٠٨ هـ = ٧٢٦ م ولعل الدولة البيزنطية كانت متأثرة فى ذلك بالدولة الإسلامية • انظر سيدة كاشف . مصر فى فجر الاسلام ، ص ٢٠٢ •

ويشير المقريزى – الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٧ – الى انه فى بطركية قسما أمر امبراطور الرومان توفيل بن خائيل سنة ٢٤٤ هـ بمحو الصور من الكنائس ، لانه سمع أن قيم كنيسة عمل فى صورة مريم شبه ثدى ، يخرج منه لبن فى يوم عيدها • واتخذ ذلك وسيلة لجمع المال • فقتل هذا القيم ، وأمر بمحو الصور من الكنائس ، وكتب ذلك الى قسما بطريرك القبط فى مصر ، ولكنه ما لبث أن سمح باعادة الصور الى الكنائس ثانية •

(٣٠٥) ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٧٠ • ويقول انه ولى عبد الله ابن صفوان • فى حين يسميه ساويرس عبيد الله ، فقط ، انظر : سير الاباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٥٤ • ويقول المقريزى : ان الوالى المذكور هو حنظلة بن صفوان • الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٥ – ونرى أن الأصح هو عبيد الله بن الحبحاب الذى ولاه الخليفة على خراج مصر (١٠٥ – ١١٦ هـ = ٧٢٣ – ٧٣٤ م) فى حين كان حنظلة بن صفوان يلى أمرة مصر منذ سنة ١٠٢ هـ = ٧٢٠ م ، ثم عزله هشام وجعل مكانه محمد بن عبد الملك ، فى سنة ١٠٥ هـ = ٧٢٣ م • انظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٣٧٠ (جدول بأسماء الولاة

وعمال الخراج) ويذكر ساويرس ـ ص ١٥٣ ـ ١٥٤ أن الخليفة هشام كان ينتهج السياسة نفسها بالنسبة للمسيحيين الأرثوذكس فى بلاد الشام ، وكان يقرب اليه بطركهم اثناسيوس · كما كان يقدم له الكثير من الأموال للكنائس والأديرة ·

(٣٠٦) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ ·

(٣٠٧) أوسيم قرية على بعد ميل من الفسطاط فى الطريق الى الجيزة · انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٢٠ ، ص ٢٧٧ ·

(٣٠٨) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ · ويذكر أن سبب ذلك هو اتهام أنبا صمويل بتحريضه البطرك على الا يقبل الوسم ، واشار عليه بالهروب الى الاسكندرية · وعليه طلب من عبيد الله مهلة ثلاثة أيام حتى يفكر فى الامر ، وبذلك يتمكن من الخروج الى الاسكندرية سرا · ولكن البطرك مات فى الطريق قبل وصوله الاسكندرية ·

(٣٠٩) المصدر نفسه ، ص ١٥٩ ، ١٦٢ ·

ويشبه ساويرس ذلك بما جاء فى الانجيل « ان كل شجرة رديئة تثمر ثمرة رديئة » ·

(٣١٠) المصدر نفسه ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ · السنكسار ، ج ٢ ، ص ٣٤ ·

(٣١١) المصدر نفسه ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤ ·

(٣١٢) ابن المقفع . سير الآباء ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٨١ ، السنكسار ، ج ٢ ، ص ٣٤ ـ ٣٥ · ونلاحظ اضطراب الرواية التاريخية بشأن هذا الحديث · يذكر ساويرس (ص ١٧٣) أن رسول الخليفة قبض على حفص بن الوليد وأحرقه بالنار ، وأعيدت مصر الى حسان بن عتاهية ، وبعد حسان ولى امرة مصر عبد الملك (ص ١٧٤) ونراه يقول (ص ١٨١) ان حفص بن الوليد اعتقل البطرك أنبا خائال · فى حين نجد فى السنكسار أن عبد الملك هو الذى قام باعتقال البطرك المذكور واسمه عبد الملك بن مروان · ونحن نرجح الرواية الأخيرة ·

(٣١٣) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٨٣ ·

(٣١٤) السنكسار ، ج ٢ ، ص ٣٥ ·

Quatrèmere : Mémoire Géographiques et histoiriques sur l'Egypte, T. 2, pp. 56-57. et Fowler : Christian Egypt, p. 61. and, Stanley Lane-Poole : A history of Egypt in the Middle ages, p. 27.

(٣١٥) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

(٣١٦) المصدر نفسه ، ص ١٩٢ – ١٩٣ .

(٣١٧) المصدر نفسه ، ص ١٩٣ – ١٩٤ . ابن العميد . تاريخ المسلمين ، ص ٩٩ .

المقريزى . الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٥ .

(٣١٨) أبو صالح الارمنى ، ص ٩٨ .

ويذكر من بين هذه المدن مدينة طما ويبلغ عدد سكانها خمسة عشر الف قبطى ، وليس بينهم يهودى واحد . وكان لهم ست وثلاثون كنيسة . وقد أرسل مروان بن محمد فرقه من الجند . قتلت الكثير من اهل طما ، وشردت آخرين . كما هدمت الكنائس ما عدا كنيسة ابى مينا ، فى نظير تأدية ثلاثة آلاف دينار . فلم يتمكن القبط الا من اداء الفى دينار ، فاصبح ثلث الكنيسة مسجدا للمسلمين .

(٣١٩) ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، ص ١٩٥ – ٢٠٢ ، ابن العميد تاريخ المسلمين ، ص ٩٩ .

(٣٢٠) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ – ٢٠٥ .

(٣٢١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٥ – ٢٠٦ .

(٣٢٢) المصدر نفسه ، ص ٢٤٨ .

(٣٢٣) Chronique de Michel Le Syrien, T. 3, fasc. I, pp. 23-24.

(٣٢٤) ابن المقفع سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ .

(٣٢٥) Chronic de Michel, T. 3, fasc. I, p. 60.

(٣٢٦) ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ – ٢٥٢ .

(٣٢٧) المصدر نفسه ، ص ٢٥١ . حاول عبد العزيز الجروى أن يتدخل فى تعيين البطرك الجديد بعد وفاة الأب مرقص ورفض القبط هذا التدخل ، وعينوا البطرك يعقوب . فغضب لذلك عبد العزيز الجروى ، واقسم بضرورة قتل الأساقفة ، وتخريب ما بقى من كنائس مصر اذا لم يسلم يعقوب نفسه . ولكنه توفى قبل أن يصله البطرك يعقوب . انظر بتشر : تاريخ الأمة القبطية ، م ٢ ، ص ٢٢٠ . وذكر ساويرس أن سبب العداء بين البطرك يعقوب وبين عبد العزيز الجروى ، أن الأخير طلب من البطرك تعيين أحد الأشخاص أسقفا فرفض البطرك

لمخالفة ذلك للقوانين الكنسية . فغضب عبد العزيز وطلب البطرك اليه ، وهدده اذا رفض مقابلته . ولكن لم يتم ذلك لوفاة عبد العزيز الجروى . انظر : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ٢٦٢ .

(٣٢٨) برية شيهات هو الاسم القبطى لمنطقة أديرة وادى النطرون ، ومعناه ميزان القلوب ، لأنه مكان عبادة ونسك واصلاح السريرة . كما تسمى هذه المنطقة باسم الاسقيط أى الناسك أو النساك أو محل النسك وتسمى أيضاً باسم وادى هبيب . انظر الخطط ، جـ ٤ ، ص ٤١٥ ، عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ، ص ٣٩ ، عبد المسيح البراموسى : تحفة السائلين ، ص ٤٤ .

(٣٢٩) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ٢٥٣ .

(٣٣٠) ابن العميد . تاريخ المسلمين ، ص ١٢٣ .

(٣٣١) ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٣٣٢) المصدر نفسه ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ٢٩٠ .

(٣٣٣) المصدر نفسه ، ص ٢٩١ ــ ٢٩٢ .

(٣٣٤) المصدر نفسه ، ص ٢٩٢ .

(٣٣٥) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢ ــ ٢٩٣ .

(٣٣٦) المصدر نفسه ، م ٢ ، جـ ١ ، ص ٤ .

(٣٣٧) المصدر نفسه ، م ٢ ، جـ ١ ، ص ٤ ــ ٥ . وكان القبط يقولون « انك أسلمتنا فى يد أعداء آثمة منافقين ماردين ، وبيد ملك ظالم ، أشر من كل من على وجه الأرض . والآن لا نقدر أن نفتح فانا ، لأن حزنا وعارا ، صار لعبيدك ، والذين يعبدونك ، ولا تسلمنا لاجل اسمك » .

(٣٣٨) المصدر نفسه ، م ٢ ، جـ ١ ، ص ٥ ــ ٦ . وكان من بين القبط الذين اعتنقوا الاسلام ، قبطى يسمى اصطفن بن أندونه وأهله . وصار يذكر القبط بكل سوء . ويقول انهم كانوا يلبسون ثيابا بدون أكمام مثل الرهبان فى ذلك العصر .

(٣٣٩) المصدر نفسه ، ص ٨ . ويقص لنا بعض العجائب التى هى فى الواقع من صنع الخيال ، فلا يعقل مثلا أن تنزف صور مرسومة دما ولا يسيل من عيونها دموع . ويروى هنا المؤرخ أن سكان وادى هبيب ، شاهدوا الدم يتزف من جنب صورة السيد المسيح فى بيعة القديس ساويرس ، واستعمل هذا الدم فى شفاء المرضى . وفى رواية أخرى أن جميع صور أديرة وادى هبيب كانت تسيل

الدموع من عيونها ، بسبب ما أنزله ولاة مصر من ظلم بالقبط ٠ انظر المصدر نفسه ، ص ٩ ٠

(٣٤٠) المصدر نفسه ، ص ٩ ٠

(٣٤١) المصدر نفسه ، ص ٩ ـ ١٠ ٠

(٣٤٢) المصدر نفسه ، ص ١٠ ـ ١١ ٠

(٣٤٣) المصدر نفسه ، ص ٢١ ٠ ويشير الى أن ابن مدبر أنزل كثيرا من البلايا بأهل فلسطين قبل قدومه أما البطرك شنودة فأصله من قرية إلبتنون ، وعمل فى خدمة البطرك يوساب ثم عين أقنوما لبيعة القديس أبى مقار ٠ وقد أقيم بطركا بعد وفاة البطرك قسما ٠

(٣٤٤) ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٤ ٠

(٣٤٥) المصدر نفسه ، ص ٢٤ ـ ٢٥ ٠

(٣٤٦) القومة جمع قيم وهو الشماس ٠ انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٧٤ ٠ ويقومون بخدمة الكنيسة ومساعدة الأساقفة والقسس فى تقديم القداس ٠ انظر :

Autefag-s : Les Copts, p. 33.

(٣٤٧) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٥ ٠

(٣٤٨) المصدر نفسه ، ص ٢٥ ـ ٢٦ ٠

(٣٤٩) المصدر نفسه ، ص ٢٦ ـ ٢٧ ٠ وذكر هذا المؤرخ أن ابن مدبر كان يكتب على ما محمعه من الأموال ، هذا ما كان يسرقه من تقدمتى ، المصدر نفسه ص ٢٨ ٠

(٣٥٠) ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٧ ٠

(٣٥١) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣٠ ـ ٣٢ ٠ كان المتوكل ، قد أوصى بولاية أولاده الخلافة من بعده ٠ فلما ولى بعده المنتصر ، اعتقل أخويه المعتز والمؤيد ، فلما ولى المستعين الخلافة (فى سنة ٢٤٨ هـ ـ ٨٦٢ م) أطلق سراحهما ، الا أن المعتز حاربه من أجل الخلافة ، فكان ما ذكرنا فى المتن ٠

(٣٥٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢ ٠

(٣٥٣) المصدر نفسه ، ص ٣٣ ٠

(٣٥٤) المصدر نفسه ، ص ٣٣ ٠

(٣٥٥) المصدر نفسه ، ص ٣٩ ـ ٤٠ ·

(٣٥٦) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ١ ، ص ٤٠ ـ ٤٢ ·

(٣٥٧) المصدر نفسه ، ص ٤٢ ـ ٤٣ · وكان ذلك وابن المدبر مازال على خراج مصر ·

(٣٥٨) كثر الأتراك في مختلف أنحاء الدولة الاسلامية منذ خلافة المعتصم سنة ٢١٨ هـ ، وعلا أمرهم فى البلاد ؛ فقد ضاق المعتصم من استئثار الفرس بالنفوذ كما ضاق بتيارات الشعوبية التى ثارت بين الفرس والعرب · كما كانت أم الخليفة تركية فاعتمد الخليفه على الاتراك ، واتخذ منهم حرسا خاصا له ، كما أسند اليهم مناصب الدولة ، ومن ثم أصبح ولاة مصر معظمهم من الاتراك وكانوا يقيمون فى مقر الخلافة فى بغداد ، يرسلون الى مصر ، من ينوب عنهم فى حكم البلاد باسمهم ، فيدعون لهم على المنابر ، وينقشون أسماءهم على السكة · انظر .. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ، جـ ٣ ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ ··

Stanley Lane-Poole : History of Egypt, pp. 59-61.

(٣٥٩) هو أحمد بن طولون الأمير أبو العباس التركى ـ وطولون معناها البدر الكامل ـ وابوه طولون كان مولى نوح بن أسد بن سامان عامل بخارى وخراسان ، اهداه (نوح) فى جملة مماليك الى الخليفة المأمون فصار من جملة امرائه · وولد له ابنه أحمد فى سنة ٢٢٠ هـ · وفوض اليه الخليفة المتوكل ما كان لأبيه من سلطان · ثم تنقلت به الاحوال الى أن ولى أمره الثغور وامرة دمشق ، ثم الديار المصرية · انظر أبو المحاسن النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ١ ـ ٥ ، ٦ ··

(٣٦٠) هكذا يسميه الطبرى (جـ ٨ ، ص ١٠) والكندى (ص ٢١٦) فى حين يسميه ابن الأثير (جـ ٥ ، ص ٣٦٧) (ياركوج) ·

(٣٦١) حسن ابراهيم حسن · تاريخ الاسلام السياسى ، جـ ٣ ، ص ١٢٧ ·

(٣٦٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الأسلام السياسى ، جـ ٣ ، ص ١٢٧ ·
Stanley Lane-Poole : History of Egypt, p. 62.

(٣٦٣) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ١ ، ص ٥٩ ·

(٣٦٤) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢١٦ · ويقول أبو المحاسن ـ النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ٧ ·· فى سنة ٢٥٦ هـ ·

(٣٦٥) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢١٧ • أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٧ •

وتذكر الرواية القبطية انه بعد وفاة مزاحم بن خاقان ، تولى امرة مصر ، رجل قوى شجاع اثار خوف جميع عمال مصر ، ومنهم القاضى والوالى وصاحب الديوان • وهو ابن طولون الذى عزل ابن المدبر وولى بدله عاملا آخر معروفا بمراعاة احكام الاسلام ، وتضيف الرواية القبطية الى ذلك انه بعد عزل ابن المدبر عن ولاية خراج مصر وضع فى السجن وعانى من الكثير من الاهانات والتعذيب ما يقرب من شهر • انظر (ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٤٥ ـ ٤٦ •

(٣٦٦) سيرة ابن طولون ، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ •

(٣٦٧) Les Juifs en Egypte depuis les Afrisuis les Arigines Jusque à ce jour, p. 114. Et Zaky, M. Hassan : Les Tulunides pp. 219-220.

(٣٦٨) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٧ ، ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر ج ٢ ، ص ٢٣٣ •

Mann : The Jews in Egypt, Vol. I, p. 14. Et Maurice Fargon :Les Juifs, p. 114, Et Zaky Hassan, Op. Cit., p. 220.

(٣٦٩) على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٥١٣ •

(٣٧٠) الجهبذ هو الذى يقوم بجباية الخراج ، ويضطلع بتسليم وتحرير دفع الخراج والاعفاء منه كما يشرف على الضرائب الأخرى • انظر ، جروهمان : أوراق البردى ، ج ٣ ، ص ١٥٤ •

(٣٧١) جروهمان : أوراق البردى ، ج ٣ ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨ •

(٣٧٢) المصدر نفسه ، ص ١٥١ ـ ١٥٢ •

(٣٧٣) المصدر نفسه ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ •

(٣٧٤) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٧٢ ، السنكسار ، ج ٢ ، ص ٤٩ •

(٣٧٥) ابن المقفع : المصدر السابق ، ص ٧٣ ـ ٧٥ ، ص ٧٦ • السنكسار ج ٢ ، ص ٤٩ •

(٣٧٦) اندونة احدى قرى الجيزة • المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٣٥ •

(٣٧٧) ويقول المقريزى ان أندونة كان كاتبا لأحمد المدايني الذي كان يتقلد ضياع موسى بن بغا ، فقبض ابن طولون عليه وفرض عليه الغرامة المذكورة فى المتن · انظر : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٣٥ ــ ٣٣٦ ، ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٣٦ ·

(٣٧٨) البلوى : سيرة ابن طولون ، ص ١١٨ · ابن سعيد . المغرب فى حلى المغرب ، جـ ١ ، القسم الخاص بمصر ، ص ١٣٠ ·

(٣٧٩) البلوى . سيرة ابن طولون ، ص ٢١٧ ·

(٣٨٠) المصدر نفسه ، ص ١٨١ ــ ١٨٢ ·

(٣٨١) المصدر نفسه ، ص ١٨٢ ·

(٣٨٢) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٣٦ ·

(٣٨٣) المصدر نفسه ، ص ٣٦ ، البلوى سيرة ابن طولون ، ص ١٨٢ -

(٣٨٤) البلوى : سيرة ابن طولون ، ص ١٨٢ ــ ١٨٣ ·

(٣٨٥) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ٢٢١ ·

(٣٨٦) ساويرس : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ٧٧ ·

(٣٨٧) ساويرس : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ٧٨ ·

(٣٩٨) ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ٧٠ ــ ٧١. كان هذا الأسقف يدخل فى اختصاصه ضيعة دنوشر وبها كنيسة كبيرة · فذهب اليها البطرك والأساقفة لتكريزها ·· فلما جاء وقت تقديم القداس لم يحضر الأسقف المذكور · فأشار الأساقفة على البطرك ببدء القداس وعدم انتظار هذا الأسقف مما أثار غضب الأخير وجعله يلقى بالقربان على الأرض فقرر البطرك والأساقفة المجتمعون عزل هذا الأسقف من كهنوته ، ولذلك عمد الى السعاية بالبطرك عند الأمير · انظر المصدر نفسه ، السنكسار ، جـ ٢ ، ص ٤٨ ــ ٤٩ ·

(٣٨٩) ابن المقفع · سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ٧١ · ويشير الى قول ابن طولون للبطرك : « انت تعلم ما نحتـاج اليه من الأموال برسم الحمل الى الخليفة فى بغداد ، لأنه صاحب هذه الأرض ، وبخاصة لما علينا من الحروب ، وانتم يا مقدمى النصارى ، تحت سلامة وما تحتاجون اليه ذهب ولا فضة ·· وقد عرفت أن لك مال كثير وآنيـة لا تحصى ، ذهب وفضة وديباج ، وانواع الحرير للبيع ، وانا احبك واوقر شيخوختك وقد أحضرتك بغير اجحاف ، ولا عنف ، لانك يجب أن تكرم ولا تهان ، فادفع لى ما عندك لأحمله الى الخليفة ، فتجد به عنده وعندى نعمة » · المصدر نفسه والصفحـة ·

(٣٩٠) المصدر نفسه ، ص ٧١ وصاحب البطرك فى الحبس شماس يسمى ابن المنذر ويسميه ابن المقفع ابن المدبر • وكان يحب الصدقة وفعل الخير ، لزم البطرك وكان يصوم ويفطر معه • وأقام معه فى الحبس سنة • انظر ، المصدر نفسه ص ٧١ ــ ٧٢ • السنكسار ، ج ٢ ، ص ٤٩ •

(٣٩١) بتشر ، تاريخ الأمة القبطية ، م ٢ ، ص ٢٤٧ •

(٣٩٢) ابن المقفع • سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٧٢ ــ ٧٣ • وتذكر الرواية القبطية أيضا أن الكتاب القبط شكوا حال البطرك الى أم الأمير أحمد بن طولون وأخبروها بأنهم يريدون التماس الافراج عن البطرك وأخبروها أيضا بأنهم سيسألون الوزير أن يتوسط لهم لدى ابن طولون حتى يطلق سراح بطركهم •

(٣٩٣) المصدر نفسه ، ص ٧٣ •

(٣٩٤) المصدر نفسه ، ص ٧٣ ــ ٧٤ • ولما أحصيت الكراسى الخالية من الأساقفة وجدت أنها عشرة كراسى فعين البطرك أساقفة جددا لها نظير مبلغ معين من المال •

(٣٩٥) المصدر نفسه ، ص ٧٤ • ويشير الى اجتماع السنودس واستقرار رأيهم على أن يجمعوا من كل قرطى دينارا « ونقضوا بفعلهم هذا قانون الآباء الحواريين ، ومعلمى البيعة القديسين القائلين إن لا يؤخذ عن موهبة الله وهى الكهنوت ، لا ذهب ولا فضة ، أى الشرطونية » • ومضى البطرك الى وادى هبيب . تباع الرمارم التى هى موضع وقوف الرهبان فى البيعة للصلاة • وأخذ من كل راهب دينارا ثم مضى الى الاسكندرية وطلب من الكهنة السماح له بأخذ ما فى البيعة من الآلات والممتلكات على أن يعطيهم فى كل سنة ألف دينار • فاجتمع له من كل ذلك عشرة آلاف وهو يوازى المبلغ الذى اقترضه لسداد القسط الأول من الغرامة •

(٣٩٦) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٧٦ • ويذكر أن البطرك قصد مدينة تنيس لجمع الصدقات من القبط ولعل ذلك لكثرة عدد القبط بها ــ فلما وصل المدينة أسرع الشعب اليه ليتبارك به • وفى أثناء ذلك قال أحد الرهبان أنه لن يمضى اكثر من أربعين يوما حتى يعفى البطرك من باقى الغرامة ويمزق الايصال الخاص بها، وحدث ذلك فقد توفى أحمد بن طولون • وولى امرة مصر ابنه خمارويه فكان ما ذكرنا فى المتن وفى السنكسار أن البطرك قصد مدينة بلبيس وليست مدينة تنيس ، ج ٢ ، ص ٤٩ •

(٣٩٧) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ٧٦٠ . المتنكسار جـ ٢ ، ص ٤٩ . وتذكر بعض الروايات أنه لما مرض ابن طولون ، اشترك القبط واليهود مع المسلمين فى الدعاء له بالشفاء ، من أعلى جبل المقطم . وان وفاته كانت سنة ٢٧٠ هـ : انظر ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٧٠ ، الكندى . الولاة والقضاة ، ص ٢٣١ . أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ١٨ . ويذكر الأخير أنه كان له طبيب من القبط يسمى سعيد بن نوفيل ، ص ٩٧ .

(٣٩٨) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ٧٧ . ويشير الى أن خمارويه خرج الى وادى هبيب ، ودخل بيعة أبى مقار ، ومسك جسد هذا القديس ، فأغمى عليه ، وان الرهبان ، مسحوا جبينه بزيت قناديل هذه البيعة . كما يذكر أنه لما رأى صورة القديس تادرس رمى بحزمة ريحان اليها ، وقال « خذها يا فارس يا شجاع » .

(٣٩٩) الطبرى . تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٨ ، ص ٢٣٤ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ١٢٩ .

(٤٠٠) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ، جـ ٣ ، ص ١٣٤ . و
Stanley Lane-Poole : A History of Egypt, pp. 77-81.

(٤٠١) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ١٤٩ . ويسمى بعض المؤرخين هذا الوالى باسم الخليجى . كما يسميه آخرون (ابن الخليج) . انظر : الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٨ ، ص ٢٣٤ ، الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢٥٩ .

(٤٠٢) عريب بن سعيد : أصله ، تاريخ الطبرى ، ص ٣٠ . وقيل ان شكوى الناس للمقتدر كانت سنة ٢٩٥ وليست سنة ٢٩٦ هـ . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٣ ، ص ٣٦٨ .

(٤٠٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٣ ، ص ٣٦٨ ــ ٣٦٩ .

(٤٠٤) النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ١٦٥ .

(٤٠٥) جروهمان : أوراق البردى ، جـ ٣ ، ص ١٥٥ ــ ١٥٦ .

(٤٠٦) المصدر نفسه ، ص ١٥٩ ــ ١٦٠ .

(٤٠٧) المصدر نفسه ، ص ١٦٧ .

(٤٠٨) أصله من أولاد ملوك فرغانة . جاء جده من التركستان فى عهد الخليفة المعتصم . انظر ، أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ٢٣٦ ، ادم متز .

الحضارة الاسلامية ، جـ ١ ، ص ٥٢ ، ٥٣ . والاخشيد لقب ملوك فرغانة ، ومعناه ملك الملوك . كما أن أصبهبد لقب ملوك طبرستان ، وصول لقب ملوك جرجان وخاقان لقب ملوك الترك وقيصر لقب ملوك الروم ، وكسرى لقب ملوك الفرس ، والنجاشي لقب ملوك الحبشة وفرعون لقب ملوك مصر القدماء . انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ٢٣٧ . وهذا اللقب منحه الخليفة الراضى لمحمد بن طغج والى مصر فى سنة ٣٢١ هـ . انظر نفس المصدر ، ص ٢٥٢ .

(٤٠٩) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢٨٥ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ٢٥٢ .

(٤١٠) سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ١٧٧ .

(٤١١) أى صادقة . ويقال هو معسول الكلام : حلو النطق ، ومعسول المواعيد أى صادقها . الوسيط ، جـ ٢ ، ص ٦٠٧ .

(٤١٢) حوالة أو ايصال وهى كلمة فارسية معربة . ومعناها حوالة صادرة من دائن يكلف فيها مدينه بدفع مبلغ معين فى تاريخ معين لاذن شخص ثالث أو لاذن الدائن نفسه أو لاذن الحامل لهذه الحوالة . الوسيط ، جـ ١ ، ص ٤٣٤ .

(٤١٣) جروهمان : أوراق البردى ، جـ ٣ ، ص ١٨١ .

(٤١٤) سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ١٧٧ . ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٢٧ .

(٤١٥) سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ١٧٨ .

(٤١٦) أصله نوبى ، وكان من بين سبى بلاد النوبة . وقد سلمه الأخشيد لمن علمه الخط والأدب وغيره من العلوم ، وجعل له الوصاية على ولديه من بعده . انظر :

ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ٨٧ .

(٤١٧) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ٨٧ ــ ٨٨ .

(٤١٨) الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ١٩ . وكان يعقوب بن كلس من يهود بغداد ، ثم خرج منها الى بلاد الشام حيث نزل بمدينة الرملة وعاش فيها فترة من الزمن . وانتهى به الأمر الى أن صار وكيلا للتجار بها ، وأصبح عليه من الأموال ما صار عاجزا عن أدائه فهرب الى مصر فى عهد كافور الاخشيدى فنال اعجاب كافور . لما كان يتميز به من الفطنة ، وحسن السياسة ، انظر المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ٧ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢ .

ويذكر بعض المؤرخين الاخرين أن السبب الذى جعل كافور يقرب ابن كلس اليه ويعتمد عليه فى كثير من الامور، هو أنه كان قد عهد اليه بجلب مبلغ كبير من المال فى مكان معين بالرملة الى جانب النظر فى تركة بكين بن هارون التاجر، فقام بذلك على اكمل وجه الى جانب انه قد توفى احد اثرياء اليهود بالفرما، فأخذ ما عنده من أحمال الكتان والأموال، وحمل كل ذلك الى كافور، فأعجب به وأصبح لابن كلس مكانة عظيمة فى نفسه • انظر :

ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة، ص ١٩ ـ ٢٠ •

(٤١٩) ابن زولاق • أخبار سيبويه المصرى، ص ٧٤ •

سيدة كاشف • مصر فى عصر الاخشيديين، ص ١٧٧ • حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ •

(٤٢٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٢ •

المقريزى الخطط، جـ ٣، ص ٧ •

(٤٢١) ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة، ص ٢١، المقريزى • الخطط جـ ٣، ص ٧ •

وتذكر الرواية القبطية أن اسلام ابن كلس كان فى خلافة المعز لدين الله الفاطمى • انظر ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ٢، جـ ٢، ص ٩٢ • ونرجح الرواية الأولى القائلة بان ابن كلس أسلم فى امارة كافور حتى بدأ يخشاه كبار رجال الدولة من المسلمين، فترك مصر الى بلاد المغرب •

(٤٢٢) ابن بطريق : التاريخ المجموع، ص ٨٦ •

(٤٢٣) صلة تاريخ أوتيخا، ص ١٥ ـ ١٦ •

(٤٢٤) المصدر نفسه، ص ١٦ ـ ١٧ •

(٤٢٥) تاريخ ابن سعيد الانطاكى، ص ١٧ ـ ١٩، ابن العميد، تاريخ المسلمين، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩، المقريزى : الخطط، جـ ٤، ص ٣٩٨ •

(٤٢٦) تاريخ ابن سعيد الأنطاكى، ص ١٩ • ابن العميد • تاريخ المسلمين، ص ٢٠٩ • وباع الأسقف بعض ممتلكات الكنيسة، دون قيمتها، حتى يجمع المبلغ المطلوب منه • فلما علم بذلك الأمير، بعث من قبله رسولا، استحضر جميع المشترين، وأخذ منهم نصف الثمن زيادة، فمن كان اشترى شيئا قيمته مائة دينار، قبض منه خمسين دينارا فاجتمع له من ذلك أموال ضخمة •

(٤٢٧) صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٠ ـ ٢١ •

(٤٢٨) حسن ابراهيم حسن . تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٠٢ .

(٤٢٩) عبد المنعم ماجد . نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، ص ٩٩ .

(٤٣٠) حسن ابراهيم حسن . تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٦٣ .

(٤٣١) أصله من العراق : ثم خرج مع أبويه الى الشام ، واشتغل بالتجارة ثم انتقل الى مصر ، واتصل بخدمة كافور الاخشيدى — كما ذكرنا — وقال عنه كافور . لو كان مسلما لصلح أن يكون وزيرا . فلما سمع يعقوب ذلك اعتنق الاسلام في سنة ٣٥٦ هـ . وعظمت مكانته لدى كافور ، ثم خرج الى بلاد المغرب سنة ٣٥٧ هـ . واتصل بخدمة المعز الفاطمي ولعب دورا في فتح مصر ، ثم دخلها مع المعز لدين الله سنة ٣٦٢ هـ . انظر ، ابن زولاق . اخبار سيبويه ، ص ٧٤ — ٧٥ ، ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ١٩ — ٢١ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ١٥٨ .

المقريزى . الخطط ، جـ ٣ ، ص ٧ .

(٤٣٢) كان لمصر شرطة واحدة في العصر الأموى ، ومقرها الفسطاط ، فلما بنيت العسكر في العصر العباسي ، استحدثت الشرطة العليا تمييزا لها عن شرطة الفسطاط التى عرفت بالشرطة السفلى . كما أسس مركز للشرطة سنة ٢١٣ هـ . في جنوب شرق مسجد عمرو بن العاص ، وصار يعرف بدار الشرطة حتى القرن الرابع الهجرى . ولما فتح الفاطميون مصر ، وأسست مدينة القاهرة ، نقلت اليها شرطة العسكر ، وعرفت أيضا بالشرطة العليا ، انظر :

G. Wiet : Matériaux Inscriptionum pour un Carpus Arabicarum,, Egypt T. 2, pp. 47, 58.

وعلى حسنى الخربوطلى . مصر العربية الاسلامية ، ص ٢١٥ .

(٤٣٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ٧ . واتعاظ الحنفا ، ص ١٤٤ .

ابن ميسر : أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٤٥ .

(٤٣٤) نظام قبالات الأراضى ، هو نظام لجباية الخراج وغيره من الضرائب عرف في مصر منذ عصر الولاة العباسيين واستمر سائدا في مصر حتى ذلك العصر . ويعنى هذا النظام ضمان بعض الاشخاص الضرائب المقررة على كل ناحية من البلاد . فيتقبل الشخص — أى يضمن — خراج ناحية معينة لمدة أربع سنوات . وهذا النظام سنتناوله بالدراسة والبحث في الباب الثالث ، الفصل الخاص بالجزية والخراج وغيرهما من الضرائب التى التزم أهل الذمة بأدائها للحكام المسلمين .

(٤٣٥) ابن ميسر اخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٤٥ ، المقريزى · الخطط ، ج ٣ ، ص ٧ ، واتعاظ الحنفا ، ص ١٤٥ ·

(٤٣٦) المقريزى · الخطط ، ج ٣ ، ص ٨ ·

(٤٣٧) المصدر نفسه ، ص ٨ · ابن الصيرفى · الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢١ · ويقول ابن القلانسى · ان العزيز بالله جعل الوزارة لابن كلس سنة ٣٦٥ هـ ، وليس سنة ٣٦٧ هـ · انظر ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢ ويقول المقريزى – الخطط ج ٣ ، ص ٨ – انه دبر امور مصر والشام والحرمين وبلاد المغرب واعمال هذه الاقاليم كلها من الرجال والأموال والقضاء والتدبير · وجعل له اقطاعا كل سنة بمصر والشام ، مقداره ثلاث مائة الف دينار ·

(٤٣٨) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢ · أبو شجاع محمد بن الحسين الملقب بظهير الدين الروذرادى : ذيل تجارب الأمم ، ج ٣ ، ص ١٨٥ ·

(٤٣٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٢٦١ ·

(٤٤٠) ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٢١ – ٢٢ ·

ابن سعيد الانطاكى ، ص ١٦٤ · ابن العميد . تاريخ المسلمين ، ص ٢٤٧ · ويذكر ابن القلانسى أن سبب اعتقال ابن كلس ، هو غضب الخليفة منه ، لدسه السم لأحد قواده الترك ويسمى أبو منصور الفتكين ، لحنقه عليه ، لما صار له من محبة ومكانة لدى الخليفة ·

انظر ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١ ·

ويروى المقريزى لنا حدثا ، يدل على أن العزيز بالله ، كان يرجع الى وزيره ابن كلس فى كل صغيرة وكبيرة من شئون البلاد · فيقول انه فى سنة ٣٧٧ هـ ، أساء عمال الشرطة الى بعض التجار ، وقتلوا بعضهم ، واعتقلوا آخرين منهم · فرفع هؤلاء التجار شكوى الى العزيز بالله ، فرفعها بدوره الى وزيره ابن كلس ، وطلب منه استقصاء الحقيقة ، ومعاقبة المذنبين ، واطلاق سراح المعتقلين · كما عهد اليه بتولية عمال جدد لشرطة مصر السفلى وشرطة مصر العليا ، ويعزل عن الشرطتين من قام بهذا الجرم · انظر اتعاظ الحنفا ، ص ٢٦٥ – ٢٦٦ ·

(٤٤١) فكان هناك ديوان العزيزية وديوان الجيش ، وآخر للأموال ، وديوان الخراج ، وديوان للسجلات والانشاء وديوان للمستغلات · ذلك الى جانب خزائن الكسوة والمال ، والدفاتر والأشربة ، وكان لكل خزانة ناظر · انظر . المقريزى ! الخطط ، ج ٣ ، ص ٨ ·

(٤٤٢) Marin : The Jews in Egypt, Vol. I, p. 19.

(٤٤٣) ابن الصيرفى الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٢٣ · ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢ · ابو شجاع ذيل تجارب الأمم ، جـ ٣ ، ص ١٨٥ ·

(٤٤٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢ · ابو شجاع ذيل تجارب الأمم ، جـ ٣ ، ص ١٨٥ ويصف المقريزى ، كفن ابن كلس فيقول . ان نفقات هذا الكفن بلغت عشرة آلاف دينار فقد كفن فى خمسين ثوبا ، ما بين وشى ومثقل أى منسوجا بالذهب – وشرب دبيقى مذهب ، وجفت كافور ، وقارورتين من المسك ، وخمسين قنا ماء ورد · انظر : اتعاظ الحنفا ، ص ٢٦٨ ·

(٤٤٥) الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٢٣ ·

(٤٤٦) ابن المنفع : سير الاباء البطاركة ، م ٢ ، ٢ ، ص ٩٢ ·

(٤٤٧) هو ابو نصر عبد الله الحسين القيروانى وكان كاتبا للديوان الانشاء ·

(٤٤٨) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٧ ، ص ١٧٦ · أحمد أمين : ظهر الإسلام ، جـ ١ ، ص ٨٥ ·

(٤٤٩) ابن الأثير : الكامل : جـ ٧ ، ص ١٧٦ · أحمد أمين . ظهر الاسلام . جـ ١ ، ص ٨٦ ·

(٤٥٠) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٧ ، ص ١٧٧ ·

(٤٥١) المصدر نفسه ، والصفحة ·

(٤٥٢) ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٣٧ – ٣٨ · ابن ميسر : أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٢ ·

(٤٥٣) اشتهر أمر هذين اليهوديين ابو سعد وأخوه أبو نصر فى عصر الحاكم بأمر الله · فكان أبو سعد يشتغل بالتجارة فى حين كان أبو نصر يعمل فى أعمال الصيرفة : « واشتهر من أمرهما فى البيوع واظهار ما يحصل عندهما ، من الودائع الخفية ولمن يفقد من التجار ، فى القرب أو البعد ، وينشأ به جميل الذكر فى الآفاق فاتسع حالهما لذلك » · وفى عهد الخليفة الظاهر ، علا شأن أبى سعد ، واعتمد عليه الخليفة فى ابتياع ما يحتاج اليه من كل غال وثمين وقد باعه جارية سوداء لتزوجها الخليفة ، واعتز بها ، وانجبت له ولده المستنصر الذى ولى الخلافة من بعده ·

وكان طبيعيا أن يعظم شان ابى سعد وأسرته فى خلافة المستنصر تحت تاثير والدته ، التى عهدت الى ابى سعد بالاسراف على مصالحها وتولى خدمتها ۰ وكانت تعمل دائما على راحته ورعاية أمور أسرته فلما رغب الحسن بن على الانبارى فى الوزارة ـ بعد أحمد بن على الجرجرائى ـ قصده أبو نصر هارون أخو ابى سعد التسترى فاهانه أحد الغلمان وتوقع ابو نصر أن ابن الانبارى سيعاقب الغلام ولكن ابن الأنبارى شارك غلامه فى اهانته والاساءة اليه ۰

فاخبر أبو نصر أخاه بما حدث له وأدركا أن ابن الانبارى يكن لهما كل عداء ۰ واخبرا والدة المستنصر بذلك ۰ وهنا يظهر دور هذين اليهوديين الواضح فى عزل ابن الانبارى عن الوزارة وتحقيق رغبتها فى أن يتولى الوزارة أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحى ، انظر المقريزى : الخطط ، ج ۲ ، ص ۲۷۹ و
Mann : The Jews in Egypt, Vol. I, p. 79.
ويقول مان : ان اسم هذين اليهوديين يتكرر كثيرا فى Genizah fragments وان أبا سعد كان أكثرهما نفوذا واعلاهما شأنا عند الخليفة المستنصر ، فى حين كان أخوه اكثر نشاطا واهتماما بشئون جماعة اليهود ، وحياتهم الدينية والدنيوية ، وأنهما كانا من اليهود الربانيين ۰

(٤٥٤) ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ۳۸ ۰ المقريزى الخطط ، ج ۲ ، ص ۲۷۹ ۰

(٤٥٥) ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ۲ ، ص ۱ ـ ۲ ۰

(٤٥٦) ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٥٢ ۰

(٤٥٧) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، ج ۱ ، ص ۹۷ ۰ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ۱۷۰ ، ۲۱۱ ۰

(٤٥٨) ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٥٤ ۰

(٤٥٩) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة ، م ۲ ، ج ۲ ، ص ۸۸ ويصفه بأنه « كان رجلا دينا ، بتولا لم يتزوج قط ، ولم يسمع عنه أن له صبوة ، ويفعل الخير مع كل الناس ، ومشكور من كل أحد » ، المصدر نفسه ، ص ۹۸ ۰

(٤٦٠) المصدر نفسه ، ص ۹۸ ۰

(٤٦١) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة ، م ۲ ، ج ۲ ، ص ۹۸ ـ ۹۹ ، وخرج القرامطة فى ذلك الوقت الى بلاد الشام وبلغوا فى تقدمهم أعمال فلسطين ۰ فاخذ قرمان من مينا ما جمعه من الأموال ـ ومقدارها مائتا الف دينار ـ

وأخفاها فى أحد الأديرة فى الجبال ، وعاد الى عمله بفلسطين . وعاهد رئيس القرامطة الذى قال له : « لا تخف فما يلحقك منى شر ، وأنا أجعلك بصحبتى كما حنت مع المعز » وحانت بذلك الفرصة أمام الحاقدين عليه فوشوا به عند الخليفة المعز وقال ابن كلس للمعز : « هذا قزمان بن مينا الذى تقول انه ثقة ، مأمون ، قد صالح عدوك ودفع له المائتى ألف دينار التى استخرجها من بلادك ليقويه بها عليك » .

فغضب المعز لذلك أشد الغضب ، وحنق على قزمان ، ورأى الانتقام منه ، فقبض على أهله وأخذ أموالهم . ثم خرج لقتال القرامطة وغلبهم ، وعند ذلك أرسل قزمان بن مينا يعلم المعز بما حدث له مع القرمطى وكيف تلافى شره ، وخلص المائتى ألف دينار . وحضر الى الخليفة ومعه هذه الأموال فأعجب المعز لذلك وأحسن استقباله ، وزادت مكانة قزمان ، بذلك ، عند المعز ، فأطلق سراح أهله وأعاد اليهم أموالهم .

(٤٦٢) المصدر نفسه ، ص ٩٩ . أما البطرك افراهام فيسمى ابراهيم بن زرعة وهو سريانى الأصل وكان يشتغل بالتجارة ، كما كان كثير الصدقات ويساعد المحتاجين محبوبا من جميع القبط ورؤسائهم ، ولذا تم اختياره بطركا لهم . فلما أقيم بطركا ، أبطل الشرطونية وتصدق بجميع أمواله وكان المعز يحبه ويحرص على لقائه كما أنه كان يعمل برأيه فى بعض الأمور ، وطلب منه سكنى القاهرة ليكون بالقرب منه . انظر ، المصدر نفسه ، ص ٩١ ــ ٩٢ .

(٤٦٣) ابن سعيد الانطاكى ، ص ١٦٤ . آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٩٥ .

O'leary : A short history of the Fatimid Khalifate, p. 116.

(٤٦٤) سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١١٣ . فى حين يسميه ابن سعيد الانطاكى ، أرسانيوس ، ص ١٦٤ .

(٤٦٥) ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٠٠ .

(٤٦٦) ابن القلانسى . ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣ . أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ، ج ٣ ، ص ١٨٦ .

(٤٦٧) اتعاظ الحنفا ، ص ٢٧٧ .

(٤٦٨) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣ .

(٤٦٩) ابن سعيد الانطاكى ، ص ١٧٦ .

The Jews in Egypt ..., Vol. 1, p. 19. (٤٧٠)

(٤٧١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣ ٠ وعن أعمال منشا بن العزار واسمه ، انظر :

Mann : The Jews in Egypt, Vol. I, pp. 19-22.

(٤٧٢) ويقول ابن القلانسى) ان بعض المسلمين كتبوا هذه الرقعة وأعطوها لامرأته لتسلمها للخليفة وقد جاء فى هذه الرقعة : « يا امير المؤمنين ، بالذى عز النصارى بعيسى بن نسطورس ، واليهود بمنشا بن العزار ، واذل المسلمين بك ، الا نظرت فى امرى » ، انظر ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣ ٠ على حين يذكر ابن الاثير ، أن المسلمين عملوا صورة امرأة من الورق ، وجعلوها فى طريق الخليفة وفى يدها الرقعة المذكورة ، انظر : الكامل : ج ٧ ، ص ١٧٦ ٠

(٤٧٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣٣ ٠ أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ، ج ٣ ، ص ١٩٦ ٠

(٤٧٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣ ٠ أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ، ج ٣ ، ص ١٨٦ ٠

(٤٧٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ١٧٦ ٠ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١١٦ ٠ ويقول حسن ابراهيم حسن فى كتابه تاريخ الدولة الفاطمية حاشية ص ٢٠٣ عن ابن زولاق ، مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٨١٧ ورقة ٥٠ ا ـ ان العزيز ارسل فى الحال وأمر بصلب النصرانى على باب القصر ، وأرسل الى اليهودى بدمشق ، وصلبه على باب المدينة ٠ ويقول حسن ابراهيم حسن ، ان ابن زولاق لم يبين لنا ان كانت هذه المدينة القاهرة أم دمشق ، والواضح أن الصلب كان على باب مدينة القاهرة ٠ وان صلب ابن نسطورس لا يقتضى موته ، وانه عاش بعد ذلك ما يقرب من سبع سنوات ٠ ومات فى السنة نفسها التى مات بها ابن زولاق وهو عمدتنا فى هذه المسالة ؛ مما يجعل هذه الرواية اقرب الى الصحة من غيرها ٠

(٤٧٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣ ، أبو شجاع : ذيل تجـارب الأمم ، ج ٣ ، ص ١٨٧ ٠

Bar Hebraeus : The Chronography of Gregory Abu'l Farag, T. I, p. 117.

(٤٧٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٤٦ ٠ ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ، ص ٥٤ ٠

(٤٧٨) ابن سعيد الأنطاكى ، ص ١٨٠ ٠

(٤٧٩) ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٢٧ ٠ ويذكر ابن حجر العسقلانى فى كتابه ـ رفع الاصر عن قضاة مصر ، القسم الأول ، ص ٢٠٩ ـ موقف ابى العلاء فهد فى ذلك الوقت من شكوى تقدم بها بعض الناس ، الى القاضى الحسن بن على بن النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون المغربى ٠ وفحوى الشكوى أن لهم ودائع فى الديوان الحاكمى ٠ فأحضر القاضى بعض من لهم علم بهذه المسألة وسألهم عن حقيقة الامر ٠ فأخبروه بأن ابن عمه عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، قد تصرف فى هذه الأموال فى صورة قرض فأنكر ذلك ، واشتد القاضى بمطالبته بهذه الودائع ٠ وقام فهد بن ابراهيم النصرانى المذكور ـ كاتب برجوان فى ذلك الوقت ـ وفتش عليهم واضطر المتهم بذلك الى بيع كل أملاكه فأخذ منه سبعة آلاف دينار وحصل الكاتب قدر هذا المبلغ مرتين وأخبر القاضى بذلك ، واستدعى اصحاب الحقوق ، وأعطى كل منهم حقه ٠

(٤٨٠) ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٢٨ ٠
ابن الأثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ١٨٠ ٠
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٥٦ ٠

(٤٨١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٥٦ ، أبو شجاع : ذيل تجارب الامم ، ج ٣ ، ص ٢٣٢ ٠ ويقول ابن ميسر : فى كتابه مصر ، ج ٢ ، ص ٥٦ ـ وخلع الحاكم على فهد ، وحمل على بغلة ، وجعل بين يديه بغلة أخرى ، وأعطاه عشرين ثوبا ٠ وجعله خليفة القائد حسين بن جوهر ٠ فى حين يصف ابن الصيرفى ـ فى كتابه الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٢٨ ـ هدية الحاكم الى وزيره فهد فيقول : « وجعل الى الرئيس هدية ، هى عشرة آلاف دينار ، وسفط فيه حلة لا حمل لها ، ودرك فيه جوهر ، وخواتم وطيب ، وأسفاط وخمسون رأسا من الخيل والبغـال » ٠

(٤٨٢) ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٢٨ ٠

(٤٨٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٥٨ ـ ٥٩ ٠

(٤٨٤) المصدر نفسه ، ص ٥٩ ـ ٦٠ ٠

Bar Hebraeus : The Chronography of Gregory Abul Farag, p. 182.

ويذكر ساويرس رواية أخرى فيقول ان سبب قتل فهد بن ابراهيم هو رفضه اعتناق الاسلام ، فقد قال له الحاكم بأمر الله : « انت تعلم أننى اصطفيتك وقدمتك

على كل من فى دولتى ، فاسمع منى وكن معى فى دينى فأرفعك أكثر مما أنت فيه ، وتكون لى مثل أخ » . وقد ذكرنا فى المتن انه قدمه على سائر المستخدمين وجعله وزيرا له . ولكن أبى العلاء فهد لم يستجب لرغبة الخليفة ، وأصر على تمسكه بدينه المسيحى . عند ذلك امر بضرب عنقه واحراق جسده بالنار . واستمرت النار مشتعلة فى جسمه ثلاثة ايام دون أن تحترق جثته . ويقول ابن المقفع . « وكانت هذه آية من الله سبحانه لانه كان رجلا دينا ، فيه رحمة عظيمة ، ولم يرد قط من يطلب منه شيئا ، حتى انه كان يجتاز الشوارع راكبا فيلقاه من يطلب الصدقة فيمد يده الى كمه ، ويظن أن ليس فيه شىء فيجد ما يدفعه للسائل » . انظر : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(٤٨٥) ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦١ ــ ٦٢ . والروزبارى ، مشتقة من كلمة روذبار وتطلق على أماكن معينة ، تقع فى جهات مختلفة على الأنهار الكبيرة ، كما يطلق هذا اللفظ على قرى كثيرة تقع على مقربة من أصبهان ، وعلى قرية قريبة من بغداد . انظر ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، حاشية ، ص ٢٠٧ .

(٤٨٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٢ ، ٦٤ . ابن سعيد الأنطاكى ، ص ١٩٦ ، ١٩٨ ــ ١٩٩ (ويجعل ذلك فى سنة ٤٠١ هـ . ويتفق معه فى ذلك ابن الصيرفى فيذكر : أنه فى المحرم سنة ٤٠١ هـ ، رد النظر الى زرعة ابن نسطورس والسفارة ، ولقب بالشافى ، واستمر فى ذلك حتى توفى فى سنة ٤٠٣ هـ . وكان يشتغل بتثمير الأموال ، وتدبير الاعمال . انظر ، الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٢٨ .

(٤٨٧) ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٣٣ .

(٤٨٨) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١١٥ .

(٤٨٩) جروهمان : أوراق البردى ، ج ٣ ، ص ١٦٣ ــ ١٦٥ .

(٤٩٠) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ١٦٩ .

(٤٩١) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ١٨٠ .

M. George Solomon : Un Texte Arabe Indédit pour servir à l'histoire des Chéteins d'Egypte, p. 2.

(٤٩٢) George Solomon, Op. Cit., p. 2.

(٤٩٣) George Solomon : Op. Cit., ص ٣ ــ ٤ . وقد أجاب الخليفة على هذا الأمير « انا اريد أن يكون نصرانيا لأن النصرانى يخاف على عرضه ،

ويخشى عليه دينه ، ولا يستجرى أن يقع فى مكروه » فأجاب الأمير ، بأنه مهما كان فهو عدو الاسلام ، وأنه ان تمكن من ضرر الاسلام والمسلمين ، لفعل ذلك • وقد أغاظ هذا الكلام الخليفة فأمر بانفضاض الجميع من حوله • وقد ندم الأمير سهم الدولة على ما بدر منه ، كما لامه الأمراء المسلمون الباقون ، وقالوا له : كل كلامك فى عرض هذا النصرانى •• دليل حسدك ، وشرك يقع على رأسك • واعلم أن من جملة أدب الأجناد ، خدام الملوك ، متابعتهم على هواء نفوسهم ، والامتثال لأوامرهم ، والسكون فى وقت غضبهم ••• ورد جوابهم بما يلائم أغراضهم •• » وزادوا على ذلك انهم قالوا له ، انه قام بعكس ذلك ، ففى حين كان الخليفة يمتدح وزيره ، كان يحط هو من شأنه • فادرك الأمير عند ذلك خطورة الموقف ، وأسرع الى منزله وأعلم زوجته بما حدث فبادرت بأخذ هدية ثمينة الى زوجة أبى السرور يوحنا ، لتطلب منها السماح والعفو من زوجها ، حتى يطيب خاطر الخليفة • فوعدها أبو السرور بذلك ، الا أنه رد لها الهدية وطمأن نفسها ووعدها ببذل أقصى جهده فى العفو عن زوجها الأمير • انظر • ص ٥ ــ ٦ •

(٤٩٤) المصدر نفسه ، ص ٥ •

(٤٩٥) جورج سليمان . المصدر نفسه ، ص ٦ ــ ٨ • وتوضح الرواية التاريخية ما كانت عليه نفس هذا الأمير من الكراهية الشديدة لأبى السرور والحقد عليه لما وصل اليه من مكانة دونه • وكان الأمراء المسلمون كثيرا ما يزورونه لتطييب خاطره الا أنه كان يقول لهم : « يا مسلمين هذا كله من تحت رأس نصرانى ، والله ان هذه •• مصيبة عظيمة » فأجابه الحاضرون بأن هذه هى رغبة الخليفة ويجب طاعته ، ثم ان أبا السرور ، رجل طيب الخلق ، محبا لفعل الخير دائما ، وأعلموه بمساعيهم من أجل خلاصه من يد الخليفة • وقالوا له . « كف لسانك ، وأمسك فمك عن ذكر هذا النصرانى ، لئلا تشنق فى هذه الدفعة • واعلم لو تولى أحد من المسلمين موضع هذا النصرانى ما جرى علينا خير ، وهذا النصرانى أخير لنــا من المسلمين ، لأنه يحقر نفسه لعلمه أنه ذمى ذليل وليخاف على نفسه ودينه • والله ما فينا من يضمر لهذا النصرانى ضميرا نجسا ، وأنت من حسدك تعمل هذا كله وحسدك يرجع عليك » •

واتفقوا على عدم زيارة سهم الدولة بعد هذا اليوم •

(٤٩٦) المصدر نفسه ، ص ٨ ــ ١٠ •

(٤٩٧) المصدر نفسه ، ص ١٠ ــ ١١ • وقال هذا الأمير للمستنصر : « •• تمهل قليلا ، واكشف وفتش ••. وأين هو هذا الملعون ، ان شنق شنقت كلبا •

وقبل هذا وبعده ، هذا عنده أموال تسد الفضاء وعين الشمس ، وهذا العسكر يحتاج فى هذا الوقت النفقة ، ومتى يشنق هذا النصرانى ذهبت أمواله » · ومن ناحية أخرى فان دفاتر الحساب عنده ، وان شنقه فيه ضرر على الاسلام والمسلمين ، والأفضل مصادرة كل أمواله وما له من ذهب وفضة ثم يشنق بعد ذلك · وكان الأمير يهدف من وراء ذلك نجاة ابن الأيح واستقصاء الحقيقة ·

وتظاهر أمام الخليفة بأنه سيلحق به أشد ألوان العذاب ، وأنه أيضا سيلحق كل اهانة ممكنة بالقبط جميعا وقال له فى حضرة المستنصر : « احمل الاموال يا كلب يا ملعون ، اقسم بالله ، وحياة رأس مولانا الخليفة ، متى لم تحمل الى فى ثلاثة أيام مائة ألف درهم ، نقوى بها العسكر ، وقوم الاسلام المجاهدين ، والا عذبتك ، بعذاب لم يكن مثله وأطعمك من لحمك ، ولا أشنقك ، لأن شنقك ساعة وتموت وتستريح ، وانما أميتك كل يوم ألف موتة » · وفى الحقيقة أن هذا الأمير كان يحصر أبا السرور اليه فى السر ، ويتحدث معه حتى يعرف منه حقيقة هذا الحدث · وحصل منه فى خلال ثلاثة أيام على خمسة آلاف دينار ، وقام بتوزيعها على الأمراء والجند بأمر من الخليفة وكان من بين من كان له نصيب فى هذه الأموال ، الأمير سهم الدولة الذى قص القصة على الأمير المكلف بأبى السرور ، وأبان له حقيقة الأمر ، ولكنه أخفى الأمر عن الخليفة وجمع المسلمين ، حرصا على وحدة المسلمين فى ذلك الوقت وحتى تتم الغلبة على الافرنج ·

انظر المصدر نفسه ، ص ١١ ــ ١٣ ·

(٤٩٨) جورج سليمان : ص ١٤ ــ ١٥ · وتشير الرواية التاريخية الى أن الأمير المكلف بأبى السرور استفتى الخليفة قائلا : « ماذا يقول مولانا أعزه الله ونصره على أعدائه ، وبلغه منام فى رجل ذمى قد عمل عليه انسان مسلم وظلمه ، وسعى فى هلاكه وهلاك كل جنسه ·· ، والمسلم المذكور يظن أن جميع ما يعمله مع النصرانى الذمى من المكروه له فيه أجر وثواب ، لأنه عدو فى الدين · وهذا الذمى برىء من جميع ما نسب اليه ، وعرضه نقى نظيف ، أبيض مثل الشمس ، عرفنا يا خليفة الله فى أرضه ، هل يجوز للمسلم أن يتسبب فى هلاك الذمى من غير ذنب · أفتنا فى هذا رحمة الله عليك وعلى آبائك وأجدادك الطاهرين آمين » فكتب الخليفة على ظهر هذه الفتوى : « لا يجوز للمسلم أن يتعدى على الذمى ، وان تعدى عليه بغير حق ، ينتقم الله تعالى من المسلمين ، لأن أهل الذمة النصارى واليهود تحت زمام المسلمين وفى حميتهم ، لأنهم يزنوا الجزية ، فمن تعدى على أحد

من الذميين ، أخذنا حق الله منه والسلام » فسر الأمير لذلك ، واحتفظ بهذه الفتوى في خزانتـه •

انظر ، المصدر نفسه ، ص ١٣ ــ ١٤ •

(٤٩٩) المصدر نفسه ، ص ١٥ ــ ١٦ •

(٥٠٠) المصدر نفسه ، ص ١٧ •

(٥٠١) المصدر نفسه ، ص ١٩ ، وكان هذا الابن دون سن البلوغ الا أن الخليفة لمس فيه أدب أبيه وحسن أخلاقه وقال له • « يا ولدى ان كان أبوك مات ، فأنا من اليوم أبوك » •

(٥٠٢) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٣ ، ص ٢٠٩ •

ونرى أن المقصود بديوان الصناعة هو صناعة المراكب والسفن المختلفة وكان هناك صناعة بالمقس انشاها المعز لدين الله ، وعمل ابنه العزيز بالله • أما صناعة الجزيرة ، فكانت أول صناعة عملت بمصر سنة ٥٤ هـ • واستمرت قائمة حتى امارة محمد بن طغج الاخشيد الذى أنشأ صناعة لساحل الفسـطاط ثم أمر في سنة ٣٢٥ هـ ، بنقل صناعة الجزيرة الى صناعة مصر وكان موضعها بمصر في دار حرم ابن طولون • وبالرغم من ذلك استمرت مراكب الأسطول تعمل بالجزيرة حتى خلافة الآمر بأحكام الله الذى أمر أن تكون صناعتها بدار الصناعة بمصر • انظر : الخطط ، جـ ٣ ، ص ٣١٧ ، ٣١٩ ــ ٣٢٠ •

(٥٠٣) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٣ ، ص ٢٠٩ •

(٥٠٤) أما عن ديوان المجلس فيقول ابن الطوير انه أصل الدواوين قديما ، فيه معالم الدولة بأجمعها ويضم هذا الديوان عددا لا يستهان به من الكتاب • وصاحب هذا الديوان هو المتحدث في الاقطاعات ، ويكتب له سجلا بذلك ، كما يخلع عليه • وينظر فيما ينفق في الأعياد ، وعلى أولاد الخليفة وأقاربه ، وأرباب الرواتب على اختلافهم وما يرد من الملوك من الهدايا ، وما يرسل اليهم وغير ذلك من الأمور المهمة ، ليعلم ما بين السنة والأخرى من التفاوت • انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٩٣ ــ ٤٠٤ • المقريزى • الخطط ، جـ ٣ ، ص ٢٣٦ ــ ٢٣٧ •

(٥٠٥) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٣ ، ص ٢٢٣ •

(٥٠٦) المصدر نفسه ، ص ٢٢٤ •

(٥٠٧) المصدر نفسه ، ص ١٦٤ •

(٥٠٨) ابن النقاش : الذمة فى استعمال أهل الذمة ورقة ٩١ •
القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٣ ، ص ٣٦٩ •

(٥٠٩) ابن المقفع • سير الآباء البطاركة ، م ٣ ، جـ ١ ، ص ٣ •

(٥١٠) المصدر نفسه ، ص ٣ •

وانبا مقاره ، هو البطرك التاسع والستون فى العدد • ولى البطركية بعد أنبا ميخائيل وكان قسا بدير أبى مقار ويعرف بالمصور • وكان جيد الكلام ، حافظا لقوانين الرهبنة ، وأراد الا يلى هذا المنصب فادعى أنه ابن ثانية ولا علم له بالكهنوت ، الا أن القبط ورؤساءهم والكهنة والأساقفة ، أصروا على اقامته بطركا وذلك فى ١٣ هاتور سنة ٨١٩ ش = ٤٩٢ هـ • وانظر المصدر نفسه ، ص ١ ـ ٢ •

(٥١١) المصدر نفسه ، ص ٣ •

(٥١٢) Maurice Fargon : Les Juifs en Egypte, p. 120.

(٥١٣) Maurice Fargon ; Op. Cit., p. 121, et Mann : The Jews in Egypt, T. I, p. 215, and The Jewish Encyclopedia, Vol. V, p. 62.

(٥١٤) ديوان المكاتبات كان يتولاه أجل كتاب البلاغة ويخاطب صاحب هذا الديوان بالشيخ الأجل ، ويقال له كاتب الدست الشريف • ويسلم المكاتبات الواردة المختومة ، فيعرضها على الخليفة من بعده ، وهو الذى يأمر بتنزيلها والاجابه عنها للكتاب • والخليفة يستشيره فى اكثر أموره ، ولا يحجب عنه متى قصد المثول بين يديه وله حاجب من الأمراء الشيوخ وفراشون • انظر ، المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٤٤ •

(٥١٥) ابن المقفع • سير الآباء البطاركة ، م ٣ ، جـ ١ ، ص ٢٥ ـ ٢٦ •
وقد اختير بعد ذلك بطركا وسمى أنبا غبريال وكان اكبر المساعدين على اقامته بطركا ، الشيخ أبا البركات يوحنا بن أبى الليث ، صاحب ديوان التحقيق •

(٥١٦) ابن ميسر . أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٤٢ • المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ورقة ١١٤ ب • وديوان التحقيق مهمته المقابلة على الدواوين ، وكان يتولاه انسان خبير ، ويكون له حاجب بين يديه • انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٩٢ • المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٤٢ •

(٥١٧) المقريزى • اتعاظ الحنفا ، ورقة ١١٥ ا •

(٥١٨) أبو صالح الأرمنى ، ص ٥٤ ·

(٥١٩) The Jews in Egypt, T.I., pp. 211-212.

وذلك كما كان يفعل كل من ابن الأسقف وأبو اليمن وزير من قبل ·

(٥٢٠) ابن ميسر . أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٧١ · وأصل الراهب من أشمون طناح ترهب على أيدى أبى اسحق بن أبى اليمن وزير بن عبد المسيح ، متولى ديوان أسفل الأرض · ثم قدم الى القاهرة ، واتصل بخدمة أبى البركات ثم اتصل بخدمة الخليفة الآمر · كما ذكرنا فى المتن ·

انظر أيضا : المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ورقة ١٣١ ب ·

(٥٢١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ورقة ١٣٠ أ ·

(٥٢٢ ، ٥٢٣) ابن ميسر ، أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٧١ ·

(٥٢٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ورقة ١٣٠ أ ·

(٥٢٥) المصدر نفسه ، ورقة ١٣٠ أ · القلقشندى . صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٩ · ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢٢٦ ·

(٥٢٦) زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس ، يلبس تحت القلنسوة أو رداء لغطاء الرأس ويتدلى حتى الوسط ، انظر الوسيط ، ج ٢ ، ص ٦٦٣ · والمعنى الأخير هو المقصود هنا ·

(٥٢٧) جمع مثقال ومثقال الشىء مثله فى الوزن · وفى القرآن (ان الله لا يظلم مثقال ذرة) الوسيط ، ج ١ ، ص ٩٨ ·

(٥٢٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ورقة ١٣١ ب ، ابن ميسر · أخبار مصر ج ٢ ، ص ٧١ ·

(٥٢٩) اتعاظ الحنفا ، ورقة ١٣٠ أ ·

(٥٣٠) الذمة فى استعمال أهل الذمة ، ورقة ٩١ ·

القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ، ص ٣٦٩ · ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢٢٦ ·

(٥٣١) ابن النقاش : الذمة فى استعمال أهل الذمة ، ورقة ٩١ · القلقشندى صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٩ · ابن قيم الجوزية ، ق ١ ، ص ٢٢٦ ·

(٥٣٢) ابن النقاش : الذمة فى استعمال أهل الذمة ورقة ٩١ · القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ · ابن قيم الجوزية ; أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ·

(٥٣٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٣ ، ص ٣٧٠ . ابن قيم الجوزية . أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢٢٧ . ويختلف البيت الثانى الذى ذكره ابن قيم عن ذلك الذى ذكره القلقشندى ، ومهما كان الأمر فالمعنى واحد وان إختلف التعبير . وذكر ابن قيم البيت الثانى على هذا النحو :

ثم عادوا وحكموا فيهم . ولنـــــاهيك بخصـــم يحتـــكم

(٥٣٤) صبح الأعشى ، جـ ١٣ ، ص ٣٧٠ . ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ص ٢٢٧ .

ويقول ابن ميسر عند حديثه عن حوادث سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٨/١١٢٩ م) ان الراهب استدعى يوما ما ، أحد كبار الدولة ويسمى ابن الفرس ، وكان له مكانة عظيمة بين الناس فأهانه ، وتشدد معه فى الكلام . فانتهز ابن الفرس صلاة الجمعة ، وقال فى جامع عمرو بن العاص : « يا أهل مصر ، انظروا عدل مولانا الآمر ، فى تمكينه النصرانى من المسلمين » ، فأثار هذا الكلام ، الحشد المجتمع ، وكادت تقع فتنة آنذاك فى البلاد المصرية . انظر ، ابن ميسر ، أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٧١ ـ ٧٢ .

فى حين يذكر المقريزى رواية أخرى عن نهاية الراهب وزوال أمره ، فيقول انه ألزم شخصا ما ـ لم يذكر اسمه ـ بسبعين ألف دينار ، ثم طلبها منه مائة ألف دينار . وكان هذا الشخص واسع التجارة . فوصل خبره رجال القصر ، الذين تمكن أحدهم من شرح ما يقوم به الراهب للخليفة الآمر وانه يشاركه فى هذا السوء صاحب الديوان جعفر بن عبد المنعم المعروف بابن أبى قراد أو تراد (ابن أبى قيراط) وأبو يعقوب ابراهيم السامرى ، الكاتب . وأخبر الأمير بكل ما أنزله الراهب والمتعاونون معه بالمسلمين من ضرر وسوء . فأجابه الخليفة أنه لا يعلم شيئا من ذلك ، فقال له : « يا أمير المؤمنين انهم قد اتفقوا على أذى الناس ، وقد جعلك الله خليفة فى الأرض ، واسترعاك على عباده ، وكل راع مسئول عن رعيته » .

فغضب لذلك الآمر ، وأمر بعزل الراهب وغيره من الموظفين القبط عن وظائفهم ، واحلال المسلمين محلهم . انظر اتعاظ الحنفا ، ورقة ١٣١ أ ، ب .

(٥٣٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ورقة ١٣١ ب ، ابن ميسر : أخبـار مصر ، جـ ٢ ، ص ٧٢ .

ابن الدريهم . منهج الصواب فى قبح استكتاب أهل الكتاب ، ورقة ٩٠ ب .

(٥٣٦) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة ، م ٣ ، ط ، ص ٢٩ • ابن ميسر : أخبار مصر جـ ٢ ، ص ٧٨ •

ونلاحظ اختلاف الروايات التاريخية فى كيفية توليه الوزارة • يذكر ابن ميسر (٧٨ ــ ٧٩) أن السبب فى قدوم بهرام الى مصر ، هو غضبه لعدم توليه رئاسة الأرمن فى بلاده بأرمينيا • وان الخليفة الحافظ ، لما سمع به أراد استوزاره • ولكن بعض رجال الدولة رفضوا ذلك بحجة أنه مسيحى فلا يرضاه المسلمون ، ولأنه من شروط الوزير ، صعود المنبر فى الاعياد مع الامام ليزور المزرة الحاجزة بينه وبين الناس ، وأخيرا لأن القضاة منذ وزارة بدر الجمالى فى عهد الخليفة المستنصر كانوا يذكرون أسماء الوزراء نيابة عنهم فى الكتب الحكمية النافذة الى الافاق • ولكن الحافظ أصر على استوزار بهرام • وتذكر الرواية القبطية (سير الآباء البطاركة ، م ٣ ، جـ ١ ، ص ٢٨ ــ ٣٠) أن بهرام قدم مصر مع بدر الجمالى فى عهد الخليفة المستنصر وأنه قد تولى أمر الأرمن فى مصر كما استخدم فى بعض الوظائف وهو محتفظ بدينه المسيحى ، وتدرج فى الوظائف حتى تولى أمر الضريبة ولقب بتاج الدولة فلما ولى الحافظ للخلافة وثار عليه ابنه الحسن ، استنجد الجند ببهرام ، فقدم اليهم ، وخشيه الحسن ، واختفى ، وخلص الأمر للخليفة الحافظ ، فاستوزر بهرام •

(٥٣٧) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٣ جـ ١ ، ص ٣٠ ــ ٣١ •

وتذكر المصادر التاريخية المختلفة ، ان بهرام استدعى أهله ، وأصدقاءه من بلاد الأرمن ، حتى بلغ عدد الارمن فى مصر ، ثلاثين الفـا • واستعان بالكثير منهم فاستطالوا على المسلمين ، وألحقوا كثيرا من الأذى والضرر بهم • وبنى هؤلاء الأرمن كثيرا من الكنائس ، حتى خشى منهم أهل مصر ، وكثرت الشكاية منهم ، وخشى المسلمون منهم على الاســلام • وكان الباساك أخو بهرام ، يتولى حكم قوص فاستباح أموال النـاس وجار جورا عظيما فى البلاد • انظر ، ابن ميسر : أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٧٩ • المقريزى: اتعاظ الحنفا ، ورقة ١٣٧ أ •

(٥٣٨) الدراعة : ثوب من صوف ، مشقوقة المقدم ، الوسيط ، جـ ١ ، ص ٢٨٠ •

(٥٣٩) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٣ ، جـ ١ ، ص ٣١ •

(٥٤٠) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ١ ، ص ٣٠ •
ابن ميسر : أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٧٩ ــ ٨٠ •
المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ورقة ١٣٧ أ •

(٥٤١) إبن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٣ ، جـ ١ ، ص ٣٠ ـ ٣١ ٠ ويقول ابن ميسر (ص ٨٠) ان الخليفة هو الذى اشار عليه بالخروج من القاهرة الى أخيه الباساك ٠

(٥٤٢) ابن المقفع ، سير الآباء البطاركة ، م ٣ ، جـ ١ ، ص ٣١ ٠ ويذكر أن الحافظ أحضره الى القاهرة فى رمضان سنة ٥٣٣ هـ وأسكنه القصر ، وأنه لما زال أمر ابن ولخشى ، عرض عليه الوزارة ثانية ، ولكنه رفض قائلا : « أنا راهب ما أنا جندى » (ص ٣٣) ويقول ابن ميسر (ص ٨٤) : مات بهرام فى ربيع الآخر سنة ٥٣٥ هـ وحزن عليه الحافظ أشد الحزن ، وأمر باغلاق الدواوين ثلاثة أيام ٠ وأحضر بطرك الملكانيين وأمره بتجهيزه ، وجعل على تابوته الديباج ، وخرج الخليفة فى جنازته ، وبكى عليه بكاء شديدا ٠

(٥٤٣) ابن المقفع ٠ سير الآباء البطاركة ، م ٣ ، جـ ١ ، ص ٣١ ٠

(٥٤٤) انظر : Jews and Arabes, p. 82.

(٥٤٥) A Short history of the Fatimid Khalifate, p. 114.

(٥٤٦) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ، جـ ٤ ، ص ١٣٨ ٠

(٥٤٧) كان الأب زخارياس ، قيم كنيسة الاسكندرية ٠ وقد طمع فى البطركية ـ بعد وفاة الاب فيلاثاوس احد تجار مصر الاثرياء ، ويسمى ابراهيم بن بشر ، وكان له شأنه عند الأمراء ومقدمي مصر من القبط ٠ وتمكن بمساعيه لدى هؤلاء ، من الحصول على سجل يخول له أمر البطركية ، وذهب الى الاسكندرية لاتمام ذلك ٠ فرفض الأساقفة أقامته ، لأن ذلك مخالف لقوانين الكنيسة ٠ وواصل الأساقفة والكهنة اجتماعاتهم حتى يتم لهم اختيار بطركهم ولم يكن أحد يفكر فى القس زخارياس قيم الكنيسة حتى حدث بينما القوم مجتمعون أن صعد هذا القس الى أعلى البيعة ، فزلت قدمه على السلم دون أن ينكسر ما معه ، عند ذلك قال المجتمعون : هذا هو الذى يستحق هذا الأمر ، فتم ذلك ونصحه القوم بتطييب خاطر ابراهيم بن بشر ، واقامته أسقفا حتى يامنوا جانب الخليفة ، فجعله أسقفا على كرسى منوف ، وخلصت البطركية لأنبا زخارياس ٠ انظر : ابن المقفع ، سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ١١٦ ـ ١١٧ ٠

(٥٤٨) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ١٥١ ـ ١٥٢ ٠ وهذه الطريقة تقتضى ، أن يختار القبط من الديارات مائة رجل ٠ ثم يختار

القوم منهم خمسين ، ومن الخمسين يختاروا خمسة وعشرين ، ومن هؤلاء يختاروا عشرة ، ثم يستقر رأى القوة على ثلاثة من هؤلاء العشرة . ويكتب اسم كل واحد منهم فى رقعه ، وفى الرقعة الرابعة اسم الأب ، وتشمع كل ورقة من الورقات الأربع ، وتوضع على الهيكل . وبعد الصلاة والانتهاء من القيداس يأتى المجتمعون ، بطفل صغير ، ليختار واحد من الرقاع الأربع : فاذا كان فيها اسم من الأسماء الثلاثة ، كان هذا هو الشخص الذى أراده الرب ليكون لهم بطركا ، وان كان فيها اسم الرب ، علموا أنه لا يوجد بين الأسماء الثلاثة أحد يصلح للبطركية ، وعليهم أن يختاروا ثلاثة آخرين .

(٥٤٩) المصدر نفسه ، ص ١٥٢ . وأصل الراهب شنودة من أهل تلبانة عدى ترهب وعمره أربع عشرة سنة .

(٥٥٠) المصدر نفسه ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

وانبا كيرلص هو الراهب جرجة ، وكان قسا فى دير أبى مقار ، واقيم بطركا بعد الأب اخريسطوذولس فى خلافة المستنصر ووزارة أمير الجيوش بدر الجمالى . وقد أراد الهروب من هذا المنصب ، ولكن القوم أصروا عليه ، وأقاموه بطركا لهم . انظر : المصدر نفسه ، ٢٠٧ ــ ٢٠٩ .

(٥٥١) ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ٢١٠ .

(٥٥٢) المصدر نفسه ، ص ٢١٠ .

(٥٥٣) المصدر نفسه ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٣٨ . وكان الأب ميخائيل راهبا فى دير دنشترى بدير القديس أبى مقار . وكان حسن الوجه والهيئة ، يتصف بالوقار والعفة وكان لا يعرف القراءة والكتابة . لزم قانون الرهبنة ولم يطمع فى كهنوت ولا طقش . فلما توفى انبا غبريال ، بقى كرسى البطركية خاليا أربعة أشهر ، وطمع فى البطركية راهب آخر يسمى يونس بن كوران ، وأيده فى طلبه جماعة من الرهبان والأساقفة ، وكان يجيد القبطية عالما بالكتب الكنسية طيب الخلق ، حلو الكلام . ولكن القبط رفضوه بطركا لهم . ورأوا اتباع طريقة الرقعة فى اختيار بطركهم فكتبوا أسماء : يونس بن أبى الفتح ، وميخائيل بن دنشترى وراهب ثالث من دير البراموس ، فى رقاع ثلاث وفى الرقعة الرابعة اسم السيد المسيح . وأقاموا القداس ثلاثة أيام ، ثم جاءوا بطفل ليختار رقعة من الرقاع الأربع ، فكانت الرقعة المختارة تحمل اسم ميخائيل ، فوافق الجميع عليه ليكون بطركا لهم آنذاك . انظر المصدر نفسه ، ص ٣٦ ــ ٣٨ .

(٥٥٤) المصدر نفسه ، ص ٤٠ .

(٥٥٥) المصدر نفسه ، ص ٤٠ ـ ٤١ .

(٥٥٦) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٤١ ـ ٤٢ .

(٥٥٧) ويسمى هذا البطرك ايضا باسم ارمانيوس وارسانيوس . ابن المقفع . سير الاباء البطاركة م ٢ ، ج ٢ ، ص ١١٣ . آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٩٥ .

(٥٥٨) ابن سعيد الانطاكى ، ص ٢٣٧ .

(٥٥٩) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٨ .

(٥٦٠) المصدر نفسه ، ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩ .

(٥٦١) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢١ . وكان برجوان يسميه فى صغره الوزغة ، فارسل اليه احد خواصه ، يقول له : « الوزغة الصغيرة ، قد صار تنينـا عظيما وهو يدعوك » وأمره بقطع راسه وراس قائده . ويروى أنه اذا أراد أن يقتل شخصا انعم عليه بالمال والخلع ، ثم يرسل اليه من يضرب عنقه عقب ذلك .

واستمر على ذلك حتى افنى خواصه ومقدمى جيشه . المصدر نفسه ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

(٥٦٢) Goitein : Jews and Arabes, p. 83.

(٥٦٣) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ . ويذكر أن أبا نجاح طلب أن يشرب فى أثناء الضرب فأذن له الخليفة الحاكم بأمر الله ، على أن يكون رهينة اعتناقه الاسلام ، فقال أبو نجاح لهم : « أعيدوا له ماءه فانى غير محتاج اليه ، لان سيدى يسوع المسيح قد أسقانى » ويقال ان البعض شهدوا الماء وهو يتساقط من لحيته . ونرى فى ذلك مبالغة شديدة .

(٥٦٤) المصدر نفسه ، ص ١٢٣ .

(٥٦٥) نفس المصدر ، ص ١٢٣ .

(٥٦٦) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، ص ٩٩ .

(٥٦٧) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٤ .

(٥٦٨) المصدر نفسه ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ويذكر ابن سعيد الانطاكى أن هذه الاوامر أصدرها الخليفة الحاكم فى سنة ٤٠٢ هـ . انظر صلة تاريخ أوتيخا ، ص ٢٠٣ .

(٥٦٩) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ٠ ابن سعيد الأنطاكي ، ص ١٨٧ ٠

المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٩ ٠ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٥٩ ٠ ابن على الاسحاقي : أخبار الأول فيمن تصرف في أمور مصر من أرباب الدول ، ص ١٧١ ٠ ويذكر أبو المحاسن ـ النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٧٧ ـ أنه ألزم اليهود بلبس العمائم السود ، ولم يذكر أنه ألزم القبط بذلك أيضا ٠

(٥٧٠) ابن سعيد الانطاكى ، ص ٢٠٠ ٠

(٥٧١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ ٠ المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٩ ٠

(٥٧٢) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ٠

المقريزى ، الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٩ ٠

القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٠ ٠

(٥٧٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٠ ٠ المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٩ ٠

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٧٧ ٠

(٥٧٤) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ٠ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٠ ٠ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٧٨ ٠ ويذكر ابن سعيد الانطاكى أن القبط قد ألزموا بذلك أولا ثم فى سنة ٤٠٢ هـ ألزم اليهود بأن يعلقوا فى رقابهم الأكر الخشب ٠ انظر : صلة تاريخ أوتيخا ، ص ٢٠٣ ٠

(٥٧٥) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ٠
القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٠ ٠

(٥٧٦) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٠ ٠ المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩٩ ٠ ابن على الاسحاقى ٠ أخبار الاول فيمن تصرف فى أمور مصر من أرباب الدول ، ص ١٧١ ٠

(٥٧٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٧٨ ٠

(٥٧٨) تاريخ ابن سعيد الانطاكي ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ ٠

(٥٧٩) انظر : The Jews in Egypt, T. I, pp. 35-36, 37.

(٥٨٠) تاريخ ابن الراهب ، ص ٨٢ · ويروى ساويرس أنهم عملوا أكثر من صورة لامرأة ، وكرروا ذلك مرارا ، انظر سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٧ ·

(٥٨١) الخطط ، ج ٣ ، ص ٦ ، ٧ · ويروى أن الحاكم أسكن اليهود فى حارة زويلة ، وهددهم بالقتل ان لم يعتنقوا الاسلام · فاضطر كثير منهم الى اجابته ، ثم أمرهم بالعودة الى دينهم فارتد منهم فى يوم واحد سبعة آلاف وقيل انه عاد بعد ذلك وأمر بهدم معابدهم ، ثم أمر باعادة بنائها · انظر ، ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦ · حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٠٩ · عن ابن زولاق ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ·

(٥٨٢) ابن سعيد الأنطاكى ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ ، المقريزى . الخطط ، ج ٤ ص ٣٩٩ ·

(٥٨٣) يذكر ابن سعيد أن هدم دير القصير كان فى سنة ٤٠٠ هـ · وهو أحد الأديرة الملكانية بمصر ويقع فى جبل المقطم · وكان يقيم فيه البطرك الملكانى أرسانيوس ، فأخرج منه مع كل من كان فيه من الرهبان ، وخرب ، ونبش جميع ما فيه من القبور · كما خربت فى ذلك الوقت كنيسة مارى مريم بدمياط ، وكانت تعرف بكنيسة العجوز ، وخربت خرابا عظيما ، كما قتل البطرك أرسانيوس سرا ، انظر ، صلة تاريخ أوتيخا ، ص ١٩٧ ·

(٥٨٤) The Jews in Egypt, T. I, p. 34.

وتقول الرواية القبطية ان الحاكم « أنفذ سجلات الى سائر أعمال مملكته ، بأن تهدم البيع ، وأن يحمل ما فيها من الآنية الذهب والفضة الى قصره ، وأن يطالب الأساقفة فى كل مكان ، وأن لا يبايعوا النصارى ولا يشاروا من المواضع ، انظر سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ، ١٣٧ ·

(٥٨٥) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ، ١٣٧ ·

(٥٨٦) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ ·

(٥٨٧) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ · ويضيف ابن المقفع أن بقيرة قد تنبأ بزوال اضطهاد الحاكم لهم واصلاح أمورهم بعد ثلاثة أيام من خروجه من السجن وحدث فعلا فى اليوم الرابع لخروجه من السجن ، أن أمر الحاكم بأمر الله « بأن يبايع النصارى ويشاروا كما جرت عادتهم

وكتب سجلا بأنه من أراد من النصارى يمضى الى بلاد الروم أو بلاد الحبشة أو النوبة وغيرها ، لا يمنعهم أحد ، وكانوا قبل ذلك ممنوعين منه » .

(٥٨٨) المقريزى . الخطط ، جـ ٤ ، ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠ · ميخائيل شاروبيم : الكافى جـ ٢ ، ص ٣٠٥ ·

(٥٨٩) Mann ; The Jews in Egypt, T. I, pp. 37-38.

(٥٩٠) ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ١٢٠ ، كان الأب زخارياس عفيفا ، وكان يتحكم فى اهله وتلاميذه وكانوا يبيعون الدرجات الكهنوتية لمن يرغب فيها ، وكان لا حول ولا قوة له معهم ، حتى انه لا يتمكن من اطعام أحد أو قضاء حاجته بدون اذن منهم بل كان لا يملك حرية غذاء نفسه · فلما قدم اليه الراهب يونس آملا فى الأسقفية بعث به الى تلاميذه ، وأهله كعادته فتعرض يونس لاهانة أحدهم ويسمى خايال وكان اسقف مدينة سخا ، وهدده اذا هو فكر ثانية فى الأسقفية · فغضب يونس اشد الغضب وقرر أن يشكوهم الى الحاكم بأمر الله ، ولكن بعض الرؤساء القبط هدءوا من روعه ، ووعدوه بمساعدته · وكتبوا له كتابا الى البطرك ، الذى كان متغيبا فى ديارات وادى هبيب · فتسلم هذا الكتاب الأسقف أنبا خايال ، فرأى أن ينتقم منه ، وأثار عليه العرب خفر الديارة · فغضب البطرك لذلك وأرسل من أسرع بانقاذ الراهب يونس ، ووعده البطرك بالأسقفية عند خلو أى كرسى ولكنه تعذر عليه تنفيذ ذلك · انظر المصدر نفسه ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ ·

(٥٩١) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ١٢٧ · ويضيف أن الحاكم أمر بالقائه فى السجن امام السباع لتاكله ولكن هذه السباع لم تقترب منه ، فاشتد غيظ الحاكم ، واتهم سايس السباع بأنه اشبعها طعاما حتى لا تقترب من البطرك مقابل مبلغ من المال · وأمره بحرمان السباع من الطعام لفترة ، ولكن حدث مثل ما حدث فى المرة الأولى ، ولم تمس السباع البطرك بسوء ·

(٥٩٢) المصدر نفسه ، ص ١٣١ · وكان مع البطرك فى الحبس رجل مسلم ، فقال له : « يا شيخ السوء اما تسلم حتى يخلوك ، وتنال منهم الكرامة الكبيرة » فأجابه البطرك : « اعتمادى على الله الذى له القدرة وهو يعيننى » فضربه بأحد القائمين على حراسته عندما سمع منه ذلك · فقال له البطرك : « أما الجسد فلكم عليه السلطان ، تهلكونه كما تريدون · وأما النفس فانها بيد الرب » ·

(٥٩٣) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ١٣١ ـ ١٣٢ ·

(٥٩٤) المصدر نفسه ، ص ١٣٢ ·

(٥٩٥) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٣٢ ·

(٥٩٦) تاريخ ابن الراهب ، ص ٨٢ ـ ٨٣ ·

(٥٩٧) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٧ ·
O'Leary : A short History of the Fatimid Khalifate, p. 134.

(٥٩٨) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٣٥ · محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ٧٢ ·

(٥٩٩) ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، م ٢ ج ٢ ص ١٣٥ ، ابن سعيد الانطاكى ، ص ٢٢٨ ·

(٦٠٠) ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٧ · ابن سعيد الأنطاكى ، ص ٢٣١ · ويقول الاخير ، ان الحاكم لقى فى هذه السنة الأب سلمون رئيس دير طور سيناء فسأله الأب سلمون فى السماح له باعادة بناء دير القصير « وان يرى رأيه بالمسامحة به ، وعودة الرهبان الى سكناه ، واجتماع النصارى فيه للصلاة ، واطلاق ما يرسمه من الأوقاف » فاجابه الخليفة الحاكم بأمر الله الى ما أراد ، وكتب له سجلا بذلك يحول له بمقتضاه اعادة بناء دير القصير الى ما كان عليه قبل الهدم ، والسماح للرهبان بسكناه ، وتزويده بكل ما يلزمهم فيه ـ ونص هذا السجل ، سنكتبه فى الملاحق فى نهاية الرسالة ـ انظر صلة تاريخ أوتيخا ، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ ·

(٦٠١) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٣٥ · ابن سعيد الانطاكى ، ص ٢٣١ ·

(٦٠٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٠٩ ·
عن ابن زولاق مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ·

(٦٠٣) ابن سعيد الأنطاكى ، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ · ويضيف أن الحاكم انس بالأب سلمون وكان لا يؤخر له طلبا بشأن اصلاح حال الكنائس والقبط وكثيرا ما كان يلقاه عند خروجه الى الصحراء ، حتى شنع عليه بعض عوام المسلمين لما عرفوه من ميله ومشاركته الرهبان فى لباس الصوف فقالوا انه قد تتلمذ لأنبا سلمون · وكان كثيرا ما يتردد على دير القصير ويشاهد عمارته ويستحث الصناع على الفراغ منه واطلق لهم كثيرا من الدنانير اسهاما منه فى البناء ومساعدة الرهبان · انظر : المصدر نفسه ، ص ٢٣٣ ·

(٦٠٤) ابن سعيد الأنطاكى ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ ٠

(٦٠٥) والبطرك آخرسطودلوس هو البطرك السادس والستون ٠ صار بطركا بعد وفاة الأب شنودة فى خلافة المستنصر بالله ٠ اذ اجتمع أهل الاسكندرية والكهنة للتشاور فيمن يلى كرسى البطركية بعد البطرك شنودة ، فرشح بعضهم القمص يونس بن تيروس ، من دير الاب ساويرس ـ غربى الاسكندرية ـ ولكن بطل أمره ٠ فاجتمع القوم بعد ذلك لاختيار آخر يصلح للبطركية فذكر لهم الأب أخرسطودلوس وكان قسيسا أصله من بورة ، وكان بدير وادى هبيب ثم أقام فى صومعة على البحر فى نستروه وحبس نفسه فيها ٠ وانتهى الأمر باقامته بطركا فى الاسكندرية فى كيهك سنة ٧٦٣ ش ٠ انظر : ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٣ ، ص ١٦٣ ـ ١٦٥ ٠

(٦٠٦) المصدر نفسه ، م ٢ ، جـ ٣ ، ص ١٧٦ ٠

(٦٠٧) المصدر نفسه ، ص ١٧٦ ٠

(٦٠٩) المصدر نفسه ، ص ١٧٦ ـ ١٧٧ ، ١٩٨ ٠ وكان البطرك أخرسطودلوس يقول للأساقفة هذه كراسى مرقص الانجيلى ، فيكون نصف دخل الكرسى لمارى مرقص والنصف الآخر للأسقف ويقول لهم : « فاقرضنى عن النصف الذى لمارى مرقص البشير ، كذا وكذا ، واجب أنت الى أن تستوفى قرضك ، وبعد هذا مهما حصل فى الكرسى ، احمل النصف الذى منه لمارى مرقص الى القلاية » وكان يفعل ذلك حتى لا يتهمه القبط بأنه يأخذ الشرطونية ٠ ويبيع الرتب الكهنوتية ٠

(٦٠٩) المصدر نفسه ، ص ١٩٨ ٠

(٦١٠) المصدر نفسه ، ص ١٧٨ ٠

(٦١١) ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٣ ، ص ١٧٨ ٠

(٦١٢) ابن المقفع) سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٣ ، ص ١٧٩ ٠ ويذكر ساويرس أن قبط الاسكندرية شكوا الى حصن الدولة أحوالهم وما هم فيه من انقطاع الدعاء فى الصلوات والقيام بالقداس بسبب غلق الكنائس ، فأعطاهم مفتاح كنيسة مارى جرجس التى كانت بيتا لأول بطاركة مصر ، وهو الأب أنبانو ٠ وقال لهم : « امضوا وافتحوا هذه الكنيسة وصلوا فيها سرا وادعوا لى »٠

(٦١٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٩ ٠

(٦١٤) المصدر نفسه ، ص ١٨٢ ــ ١٨٣ ٠

(٦١٥) المصدر نفسه ، ص ١٨٣ ٠ وتقول ان سبب هزيمة جند المستنصر هو كثرة عدد القواد ، فكان عليها أمين الأمناء أبو اليمن ساويرس بن مكراوة ابن زينور ، والأستاذ عزيز الدولة زمام العبيد ونجاح الدولة وناصر الجيوش بن أسد الدولة ٠ وقد اختلف الرأى بينهم ، ولم تتوحد كلمتهم ، مما ساعد على نجاح ناصر الدولة بن حمدان وجنوده وغلبته على بلاد الشرقية والغربية ٠

(٦١٦) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ١٨٣ ــ ١٨٤ ٠

(٦١٧) المصدر نفسه ، ج ٣ ، م ١ ، ص ٢٨ ٠

(٦١٨) المصدر نفسه ، ص ٢٥ ٠

وقد اتهم رهبان وادى هبيب بأنهم يعلمون علوما وملاحم بمقتضاها يعرفون ما يجرى للملوك وكيف يتم تغلب دولة على أخرى ، وأنهم « يجمعون الدنانير وغيرها من قنايا الذهب والفضة والمصاغ ، ويخالفون بهذا مذهبهم ، وكلام انجيلهم ووصية المسيح لهم ، وأن عندهم صورة ساقية بللور لا يوجد عند أحد من ملوك الدنيا مثلها » ٠

(٦١٩) المصدر نفسه ، ص ٣٥ ــ ٣٦ ٠

(٦٢٠) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٤٣ ــ ٤٤ ٠

(٦٢١) المصدر نفسه ، ص ٤٤ ٠

(٦٢٢) المصدر نفسه ، ص ٥٤ ٠

(٦٢٣) المصدر نفسه ، ص ٥٣ ــ ٥٤ ٠

(٦٢٤) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٥٤ ــ ٥٥ ٠

(٦٢٥) المصدر نفسه ، ص ٥٥ ــ ٥٦ ٠

(٦٢٦) المصدر نفسه ، ص ٥٦ ٠

(٦٢٧) المصدر نفسه ، م ٣ ، ج ٢ ، ص ٥٢ ٠

(٦٢٨) المصدر نفسه ، ص ٦٢ ــ ٦٣ ٠

(٦٢٩) الشماس منسى القمص : تاريخ الكنيسة القبطية ، ص ٥٤٥ ٠

(٦٣٠) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٣ ، ج ٢ ، ص ٦٤ ٠

البـــاب الثـانى : ___________________________

أهل الذمة فى المجتمع المصرى

١ ـ أحكام أهل الذمة فى الاسلام ومدى تطبيقها فى مصر الاسلامية حتى نهاية العصر الفاطمى .

٢ ـ الاحتفالات الدينيـــة والقوميـــة .

٣ ـ الأخـلاق والعـادات .

٤ ـ العلاقات بين أهل الذمة وسائر عناصر المجتمع .

١ ـ أحكام أهل الذمة فى الاسلام ومدى تطبيقها فى مصر الاسلامية حتى نهاية العصر الفاطمى

أهل الذمة هم المستوطنون من غير المسلمين ، فى البلاد التى فتحها المسلمون ، وصاروا سادتها وحكامها (١) • والذمة فى اللغة هى العهد والأمان والضمان ، والمنتفعون بهذا العهد يسمون (أهل الذمة ، أو الذميون) (٢) • وأهل الذمة هم أهل الكتاب ـ أى أصحاب الكتابين السماويين ، التوراة والانجيل ـ وهم اليهود والمسيحيون ، ومن فى حكمهم ممن لا كتاب سماويا لهم وهم المجوس والسامرية والصابئة (٣) •

أصبح المصريون من القبط واليهود بعد الفتح العربى لمصر ، أهل ذمة ـ شأنهم شأن سكان البلاد الأخرى التى فتحها العرب المسلمون ، فأصبحوا فى ذمة المسلمين بعد اعطائهم العهد والأمان على أنفسهم وأملاكهم ، ونسائهم وأطفالهم ، وحرياتهم الدينية والمدنية، ويذب المسلمون عنهم • وهذه الحقوق التى حصل عليها أهل الذمة فى مصر ـ وغيرها من البلاد الاسلامية ـ كانت فى مقابل بعض الواجبات التى التزموا بها ، أو الأحكام التى فرضت عليهم ، وأصبح لزاما عليهم أن يقوموا بها • وكان فى مقدمة هذه الواجبات ، أداء

الجزية وضيافة المسلمين ، وأداء الخراج · كما كانت هناك حدود رسمتها الحكومة العربيــة الاسلاميــة ، وترتبط ببنـاء الكنائس والدور ، والملابس ، وبمعـاملة الذميين للمســلمين ، والطقـوس الدينية ، وغير ذلك مما سنتناوله بالبحث والدراسة ·

تحدث القرآن الكريم عن الجزية فى قوله سبحانه وتعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمـون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق ، من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (٤)·ونستخلص من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى ، قد خص أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، بدفع الجزية دون غيرهم من غير المسلمين · وعليه، كانت أول جزية أخـذت فى الاســلام ، من أهـل نجران وهـم نصارى (٥) ·

واذا كان هذا هو أساس أخذ الجزية من اليهود والنصارى فما أســـاس أخذ الجزية مــن غيرهم من المجوس والســـامرية والصـــابئة ؟

وفى الواقع أن أخذ الجزية من المجوس ، لم ينص عليه فى القرآن الكريم ، وانما كان سنة ، من سنن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ اذ يشهد بعض الصحابة أن النبى عليه الصلاة والسلام ، كان يأخذ الجزية من المجوس ، وأنه أخذها من مجوسيى هجر (٦) وقال : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » (٧) ·

كما أجمع الفقهاء والعلماء على أخذ الجزية ، من السامرية والصابئة ، استـنادا الى ما فعله النبى صلى الله عليه وسـلم ، مع المجوس ، وتشبيها بهم · لأن المسلمين أو أكثرهم ــ مع كراهية

ذبائحهم ، ومناكحتهم ـ يعتبرونهم فى حد المجوس (٨) . وقد روى عن الأوزاعى أنه قال : « كل دين بعد الاسلام ، سوى اليهود والنصرانية فهم مجوس ، أحكامهم كأحكامهم » (٩) .

ويقول الماوردى (١٠) ، بشأن أخذ الجزية من المجوس والسامرية والصابئة : « يجرى المجوس مجراهم (أى مجرى أهل الكتاب) فى أخذ الجزية منهم ، وان حرم أكل ذبائحهم ، ونكاح نسائهم ، وتؤخذ من الصابئين والسامرة ، اذا وافقوا اليهود والنصارى فى أصل معتقداتهم ، وان خالفوهم فى فروعه . ولا تؤخذ منهم اذا خالفوا اليهود والنصارى فى أصل معتقداتهم .. » .

وهكذا يتفق الفقهاء فى أن الجزية حق واجب للمسلمين على أهل الذمة ، وهم أقل أهل الكتاب ومن فى حكمهم من المجوس والسامرة والصابئة . وقال أبو يوسف (١١) : « والجزية واجبة على جميع أهل الذمة فى السواد ، وغيرهم من أهل الحيرة ، وسائر البلدان ، من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والسامرة ما خلا نصارى بنى تغلب » .

والجزية تعنى ، الضريبة المفروضة على رؤوس أهل الذمة ، واسمها مشتق من الجزاء ، اما جزاء على كفرهم ، لأخذها منهم صغارا ، واما جزاء على أمان المسلمين لهم ، لأخذها منهم رفقا (١٢) . ويقول ابن قيم الجوزية (١٣) ان كلمة جزية ، مشتقة من كلمة (جزاة ، بمعنى « قضاة ») . وذلك اعتمادا على قوله سبحانه وتعالى : (لا تجزى نفس عن نفس شيئا) . وقد اختلفت الآراء فى تفسير قوله تعالى : (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) واتفقت جميعها فى أن الجزية وضعت اصغارا ، واذلالا ، لأهل الذمة ، المقيمين فى دار الاسلام ، وليست أجرة مقابل اقامتهم (١٤) .

أما عمن تجب عليهم الجزية ، فقد أجمعت آراء الفقهاء والعلماء على أن الجزية واجبة على الرجال البالغين ، القادرين على العمل دون النساء والأطفال ، والشيوخ والعاجزين عن الكسب والرهبان الا اذا كان لديهم يسار ، يدفعونها منه (١٥) ٠

بعد دراستنا لفقه الجزية ومن يجب عليهم أداؤها من غير المسلمين، نبحث في مقدار الجزية ، وتفاوتها ، بتفاوت ثراء الذميين٠ وقد اختلف الفقهاء والعلماء في تحديد مقدار الجزية ٠ فذهب فريق منهم ، الى أن الجزية ليست قدرا ثابتا على جميع أهل الذمة ، وانما هي متروكة لاجتهاد الولاة والأمراء ، وانها تختلف باختلاف الزمان والمكان (١٦) ٠ في حين يرى آخرون أن الحد الأدنى للجزية يجب ألا يقل عن دينار عملا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حينما فرض على كل بالغ من أهل اليمن دينارا أو ما يعادله من المعافر ، وانه لا مكروه في الزيادة حسب حال الذميين من اليسار (١٧) ٠

ويرى فريق ثالث أن الجزية مقدرة على ثلاث درجات ، حسب حالة الذميين من اليسار أو الفقر ٠ ففرض على الموسرين منهم ، ثمانية وأربعون درهما، وعلى المتوسط الحال ، أربعة وعشرون درهما، وعلى من دون ذلك ، اثنا عشر درهما (١٨) ٠

ونحن نرجح الرأي القائل بأن الجزية لم يكن لها حد ثابت ، وأنها كانت متروكة لاجتهاد الولاة والأمراء ٠ وأن مقدار الجزية يختلف من مكان الى آخر ، ومن عصر الى عصر آخر ، حسب حالة البلاد من اليسر أو العسر ٠ فنجد الجزية في بلاد الشام ، مثلا ، تختلف في مقدارها عن الجزية في البلاد المصرية ٠ كما أن الجزية تختلف في مصر من عصر الى عصر آخر ، حسب حالة البلاد من

العسر أو اليسر ، وأيضا حسب سياسة الولاة والأمراء الحكام فى مصر ازاء أهل الذمة • وسنعرض لذلك بالبحث والدراسة فى الباب الثالث ، الفصل الخاص بدراسة الجزية والخراج وغيرهما من الضرائب التى يلتزم أهل الذمة بأدائها •

ثم نتساءل ، هل كانت الجزية تدفع نقدا أم عينا ؟ يقول ابن قيم الجوزية (١٩) : « ولا يتعين فى الجزية ذهب ولا فضة ، بل يجوز أخذها مما يتيسر من أموالهم من ثياب ، وسلاح يعملونه ، وحديد ونحاس ، ومواشى ، وحبوب ، وعروض وغير ذلك » والواقع أن ذلك كان عملا بما سنه الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، حينما فرض على أهل اليمن دينارا ، أو ما يعادله من المعافر أى الثياب •

وكان الحكام المسلمون يلزمون ــ فى الغالب ــ سياسة العدل والرحمة عند جباية الجزية من الذميين ، ويرفقون بهم ، وخاصة فى فجر الاسلام • وينصح قاضى القضاة أبو يوسف (٢٠) ، بالرفق بأهل الذمة ، فيقول : « ولا يضرب أحد من أهل الذمة فى استيدائهم الجزية ، ولا يقاموا فى الشمس ولا غيرها ، ولا يجعل عليهم فى أبدانهم شىء من المكاره ، ولكن يرفق بهم ، ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم ، ولا يخرجون من الحبس ، حتى تستوفى منهم الجزية » ويروى عن الرسول ، صلى الله عليه وسلم انه قال : « من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته ، فأنا حجيجه » (٢١) • فقد كان النبى عليه الصلاة والسلام ، يدعو دائما الى الرفق بأهل الذمة ، والتزام الرحمة معهم ، وعدم تكليفهم ما لا يقدرون عليه أو ظلمهم • وعمل الخلفاء الراشدون بسنة النبى صلى الله عليه وسلم ، فنرى الخليفة عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، يوصى بأهل الذمة ، ويحسن معاملتهم فيقول : « أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله ، أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفون فوق

طاقتهم » (٢٢) وكان هذا الخليفة شديد الرفق بالذميين ، يمنع عماله فى الأقاليم الاسلامية من تعذيب أهل الذمة من أجل الجزية أو تكليفهم بما لا يطيقون (٢٣) ، وبلغ به الأمر أنه كان يتصدق على المحتاجين منهم من بيت مال المسلمين (٢٤) ٠

أما ما تشير اليه بعض المصادر العربية من أن الخليفة عمر ابن الخطاب قد أمر عماله فى العراق ، وفى مصر ، بختم رقاب أهل الذمة (٢٥) ٠ فنرى أن هذه السياسة لم تستمر طوال العصور التاريخية الاسلامية ، والدليل على ذلك ، أن ختم رقاب أهل الذمة فى مصر ، لم يحدث الا فى فترات محدودة ، وهى بعض الفترات التى تعرض فيها الذميون لبعض المضايقات وان الختم أو بمعنى آخر الوسم لم يكن يتم دائما على رقاب أهل الذمة ، وانما كثيرا ما كان يحدث وسم أيديهم ، وخاصة القبط منهم ، كما سنرى عند دراستنا للجزية وغيرها من الضرائب فى الباب التالى ٠

والواقع أن ختم الرقاب ، كان وقت جباية الجزية فحسب ، فيقول أبو يوسف (٢٦) : « ينبغى أن تختم رقابهم ، فى وقت جباية جزية رؤوسهم ، حتى يفرغ من عرضهم ، ثم تكسر الخواتم » ومما تجدر الاشارة اليه أن ختم الرقاب عادة بيزنطية ، اقتبسها العرب من الرومان ، وكانوا يقومون بها وقت جباية الضرائب ٠ ومما لاشك فيه أن الهدف من ذلك ، كان سهولة التمييز بين الذين دفعوا الضرائب ، وبين الذين لم يؤدوها (٢٧) ٠

أما عن موعد أداء الجزية من أهل الذمة ، فقد اختلف العلماء والفقهاء فى تحديده فيرى كل من الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، أن الجزية تجب فى آخر الحول (٢٨) ٠ على حين يرى أبو حنيفة أنها تجب فى أول الحول ، وانها تؤدى على أقساط شهرية ، كما يرى

انها من نوع العقوبة ، فاذا اجتمعت على الذمى جزية عده سنين ، تداخلت ، كما تتداخل العقوبات واذا أسلم وعليه جزية سنين سقطت كلها • كما انه اذا مات الذمى قبل اداء الجزية وبعد أول الحول سقطت عنه (٢٩) •

وهل تسقط الجزية عن الذمى اذا اعتنق الاسلام ؟ كان الذمى اذا ترك دينه واعتنق الاسلام ، يجب رفع الجزية عنه ، لأنه ليس هناك جزية على المسلمين الذين يؤدون الزكاة • وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ليس على مسلم جزية »(٣٠) ويقول مالك : « الصواب ان يوضع عمن أسلم الجزية ، حين يسلم ، ولو لم يبق عليه من السنة الا يوم واحد » (٣١) فقد قال تعالى ، فى سورة الأنفال : (قل للذين كفروا ، ان ينتهوا يغفر لهم ، ما قد سلف ، وان يعودوا فقد مضت سنة الأولين) (٣٢) وهكذا يرى الامام مالك اسقاط الجزية عن الذميين عند اسلامهم ، كما تؤكد ذلك الآية الكريمة ، وأن كل من أسلم ، يغفر الله له كل ما قام به من اثم وذنب قبل اسـلامه •

وتشير المصـادر التـاريخية الى مدى حرص بعض الخلفاء المسلمين على تطبيق هذه القواعد ، ومعاقبـة عمالهم فى الأقـاليم المختلفة ، لعدم رفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة • ومن هذه الأقاليم مصر ، وخاصة عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (٣٣) •

وأخذ بعض أمراء بنى أمية الجزية من الذميين ، بعد اعتناقهم الاسلام ، على أساس أنها بمنزلة الضرائب على العبيد ، فلا يسقط اسلام العبـد عنه ضريبته (٣٤) • ويقول ابن قيم الجوزية (٣٥) ــ تعليقا على الآراء المختلفة حول هذا الموضوع ــ ان سقوط الجزية بالاسلام ، مذهب فقهاء المدينة ، وفقهاء الرأى والحديث ، ما عدا

الشافعى وأصحابه الذين يذهبون الى أن اسلام الذمى بعد بدء الحول لا يسقط عنه الجزية ، باعتبارها دينا يجب عليه الوفاء به ·

وفى الحقيقة أن الذمى ، اذا ترك دينه ، واعتنق الاسلام ، يكون له ما للمسلمين من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات ، كقوله تعالى : (فان تابوا وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، فاخوانكم فى الدين ، ونفصل الآيات لقوم يعلمون) (٣٦)· ومن ثم ترفع عنهم الجزية التى لا يلتزم بها المسلم لأنه يؤدى الزكاة (٣٧) ·

أما بالنسبة لأخذ الجزية من الذمى بعد وفاته ، فقد انقسم العلماء والفقهاء الى فريقين فيذهب فريق – ومنهم الشافعى – الى أنه اذا مات أحد الذميين ، أخذت الجزية من تركته بقدر الفترة التى عاشها خلال السنة ، فان مر عليه نصفها ، ولم يؤد الجزية ، يؤخذ من أمواله نصف الجزية المقررة عليه (٣٨) · بينما يرى الفريق الآخر – مثل أبى حنيفة – ان الجزيه تسقط بموت الذمى ، لأنها وضعت فى الأصل ، اذلالا ، وصغارا له ، وهذا الوضع بطبيعة الحال ينتهى بموته (٣٩) ·

كتب حيـان بن سريج عامل مصر ، الى الخليفة عمر بن عبد العزيز ، يسأله أن يجعل جزية الموتى من القبط على أحيائهم · ويبدو أن الخليفة عمر بن عبد العزيز ، تردد فى الموافقة ، فسأل عراك بن مالك ، عما اذا كان لأهل الذمة فى مصر عهود ، فأجابه عراك بن مالك : « ما سمعت لهم بعقد ولا عهد ، وانما أخذوا عنوة بمنزلة العبيد » عند ذلك كتب عمر بن عبد العزيز الى عامله بمصر ، أن يجعل جزية أموات أهل الذمة ، على الأحياء منهم (٤٠) · ولكن هناك رواية أخرى ، تذكر رأيا مناقضا ، وتشير الى أن عمر بن عبد العزيز قال : « ليس على من مات ، ولا من أبق جزية » بمعنى

أنها لا تؤخذ من ورثته بعد وفاته ، لأنها ليست بمثابة الدين ، ولا من أهله اذا هرب عنهم ، لانهم لم يكونوا ضامنين له (٤١) ·

ويجدر بنا أن نشير الى تعليق أحد الكتاب القدماء عن اختلاف الآراء بشأن أخذ الجزية من موتى أهل الذمة ، فنراه يقول : « قال الآخذون لها ، هي دين وجب عليه في حياته ، فلم يسقط بموته كديون الآدميين · وقال المسقطون لها : هي عقوبة فتسقط بالموت كالحدود ولأنها صغار واذلال ، تزول بزوال محله · وقولهم انها دين ، فلا تسقط بالموت ، انما تتأتى على أصل من لا يسقطها بالاسلام ، وأما من أسقطها بالاسلام فلا يصح منه هذا الاستدلال ، ولا ريب أن الجزية عقوبة وحق عليه ، ففيها أمران : فمن غلب جانب العقوبة ، أسقطها بالموت ، كما تسقط العقوبة الدنيوية عن الميت ، ومن غلب فيها جانب الدين لم يسقطها » (٤٢) ·

وتعددت الآراء ، في أخذ الجزية من أهل الذمة ، عينية مما يحوزون من الخمر والخنازير مما يحرمه الاسلام · فيرى البعض انه يجوز للذمي أن يؤدي ما عليه من الجزية أو الخراج أو الدية أو الدين وغيره ، من الخمر والخنازير ، وغيره مما يكون محرما في اعتقادنا (٤٣) · بينما يذهب الفريق الآخر الى انه لا يجوز ذلك اطلاقا ، وخاصة في دفع ما عليهم من الجزية (٤٤) ·

وقد ألزم الذميون الى جانب الجزية، بضيافة المسلمين وأرزاقهم · وقد اختلفت الآراء أيضا حول ذلك · فمنهم من قال : انه على الذمي، ضيافة المسلم يوما واحدا ، ومنهم من ذهب الى ضيافة المسلم ثلاثة أيام (٤٥) · بينما يقول الشافعي : انه لا يعلم يقينا ، من جعل عليه عمر بن الخطاب الضيافة ثلاثة أيام ، ولا من جعل عليه يوما وليلة ، ولا من جعل عليه الجزية ولم يفرض عليه ضيافة (٤٦) ·

ونلمس من دراستنا لتاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية ، أن عمرو بن العاص لما صالح المقوقس ، بعد استيلاء العرب على حصن بابليون ، اشترط على القبط ، ضيافة المسلمين ثلاثة أيام . فقد جاء فى صلحهم : « على أن للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم ، حيث نزلوا ، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين ، أو أكثر من ذلك ، كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم .. » (٤٧) .

ويجدر بنا الاشارة الى كيفية أداء الذمى للجزية ، كما تصوره بعض الروايات . فكان المحتسب يصاحب العامل المختص بجباية الجزية ، فيحضر الذمى بين يديه ، ثم يلطمه بيده على صفحة عنقه ويقول له : « أد الجزية يا كافر » ويخرج الذمى يده من جيبه ، وهى مطبوقة على الجزية فيعطيها له بذلة وانكسار » (٤٨) .

وتذهب بعض الروايات الى أنه ، كان يجب على جابى الجزية ألا يستعمل العنف ، أو الضرب فى جمعها من أهل الذمة ، وألا يضطر الذمى الى بيع ما يملك من الماشية والدواب والأغنام وغيرها ، لسداد ما عليه من جزية . وكان الأمر يقتضى أن يكون الذمى واقفا ، وقت أداء الجزية ، أما الجابى لها فيكون جالسا . وعليه أن يشعر الذمى بأنه شخص حقير حين يدفعها وانه لا يقابل بالاحترام (٤٩) .

وتذكر بعض الروايات الأخرى ، « أنه كان يتعين على الذمى — يهوديا كان أم نصرانيا — أن يذهب بشخصه فى يوم معين ، الى الأمير المخول حق تسلم الجزية . ثم ينصب الأمير عرشا ، مرتفعا ، يجلس عليه ، ويمثل أمامه الذمى . ويقدم اليه الجزية على كفه وهى مبسوطة ، ويتناولها الأمير ، بصورة ، تكون يد الأمير فيها هى العليا ويد الذمى هى السفلى . وحينذاك يصفعه الأمير على عنقه ، ثم يخرجه الشخص ، الواقف أمام الأمير فى غلظة .. وكانت العامة تدعى لمشاهدة هذا المنظر » (٥٠) .

ونحن نرى فى ذلك مبالغة واضحة فى تصوير اذلال أهل الذمة، ومدى ما تعرضوا له من اهانة فى العصور الاسلامية . اذ إننا لم نلاحظ خلال دراستنا لتاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية ـ من الفتح العربى الى سقوط الدولة الفاطمية ـ ما يؤكد ذلك ، أو حتى يشير اليه من قريب أو بعيد . وعليه فمن العسير ، ان نسلم بما جاء فى هذه الروايات ـ فى مصر الاسلامية وخاصة اذا تذكرنا ، ان جباة الجزية ، كانوا فى الغالب ـ من الذميين وخاصة القبط ، فلا يعقل ، ان يلحق الذمى ، مثل هذه الاهانات ، باخوانه الذميين مهما كان الأمر .

أما الخراج ، فهو الضريبة التى يدفعها أهل الذمة للمسلمين عن أرضهم . ويقول الماوردى (٥١) : الخراج هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنه . وانه يعتمد على اجتهاد الامام أو الوالى . قال الله تعالى : (أم تسألهم خرجا ، فخراج ربك خير) .

ويقول الشافعى (٥٢) فى تعريف الخراج : انه كراء الأرض، وليس فيه صغار ولا ذلة أهل الذمة كالجزية . وهناك أمور تتفق فيها الجزية مع الخراج ، وأمور أخرى تختلف فيها . فنجد أن الجزية تتفق مع الخراج فى أنها تؤخذ من غير المسلمين ، صغارا لهم ، واذلالا ، وأنهما يصرفان فى أهل ألفىء ، وأنهما يجبيان ، مرة فى كل سنة (٥٣) . ويرى بعض العلماء : انهما يسقطان بالاسلام (٥٤)، بينما يرى آخرون ان الجزية تسقط بالاسلام ، بينما الخراج يؤخذ فى جميع الأحوال . ومن وجوه الاختلاف أيضا أن الجزية نص ، وأن الخراج اجتهاد ، وأن أقل الجزية ، مقدر بالشرع ، وأكثرها مقدر بالاجتهاد . وأما الخراج ، فأقله وأكثره ، مقدر بالاجتهاد (٥٥) .

ولما كان الخراج ضريبة عينية أو نقدية ، على الأرض التى بيد أهل الذمة ، يجدر بنا أن نشير الى أحكام الأرض المختلفة فى الاسلام . وقد اختلف العلماء فى ذلك ، فمنهم من يقسمها الى أربعة

أو ستة أنواع ، لكل نوع حكمه المستقل به . أما التقسيم الرباعى ، فيشمل الأرض التى أحياها المسلمون ، وهذه لا خراج عليها ، وانما هى ارض عشر . والأرض التى يعتنق اصحابها الاسلام ، وتكون أرض عشر ، لا يجوز أن يوضع عليها الخراج . والأرض التى يستولى عليها المسلمون عنوة وقهرا . وفيها اختلف الفقهاء ، يقول الشافعى انها غنيمة تقسم بين المسلمين ، وتكون أرض عشر لا خراج عليها . بينما جعلها مالك وقفا على المسلمين ، بخراج يوضع عليها . أما أبو حنيفة ، فقد جعل للامام الخيار فى تعيين أحد الأمرين . والأرض التى صولح المشركون عليها بوضع الخراج ، وهى نوعان : أحدهما ما تركه أصحابه ، فخلص للمسلمين دون قتال ، فتصير الأرض وقفا على مصالح المسلمين ويضرب عليها الخراج كالأجرة الى الأبد ، والآخر الأرض التى أقام فيها أصحابها وصالحوا المسلمين ، على خراج يؤدونه ، وهى صنفان أيضا : الأول أن يتنازل أصحابها عنها للمسلمين فتصير وقفا على مصالحهم ، وخراجها أجرة لا تسقط باسلامهم . والثانى أن يحتفظ أصحابها بها ويصالحوا عنها المسلمين ، بخراج يوضع عليها ، وهذا الخراج يسقط باسلامهم ويجوز لهم بيعها (٥٦) .

أما التقسيم الثانى للأرض وأحكامها فيتفق مع الأول فى الأنواع الثلاثة الأولى ، أما النوع الرابع من الأرض ، فيقسمه هؤلاء ثلاثة أقسام ، لكل قسم حكمه : الأول ما صولح عليه المشركون من أرضهم ، على أن تظل فى أيديهم ، مقابل خراج يضرب على الأرض ، ويسقط باسلامهم ، ولهم الحق فى بيع هذه الأرض ، والتصرف فيها كيفما شاءوا . والثانى . أرض جلا عنها أصحابها ، فخلصت للمسلمين بغير قتال ، وحكمها حكم الأرض العنوة ، ويكون عليها الخراج ولا يسقط بالاسلام . والثالث ، أرض صالحهم المسلمون عليها ، وتقر فى أيديهم بالخراج ، وحكمها حكم العنوة (٥٧) .

ونحن نرى أنه فى الحقيقة أن التقسيم الثانى هو نفس التقسيم الأول ، مع اختلاف فى الشكل ، فمنهم من جعل أقسام الأرض الرئيسية أربعة الى جانب تصنيف داخل هذه الأقسام ، بينما الفريق الآخر ، جعلها جميعا أقساما رئيسية لكل منها حكمها المستقل ·

وفى الواقع ان مقدار الخراج ، المفروض على أهل الذمة ــ على أرضهم ــ كان يختلف من جهة الى أخرى ، كما أنه قد يكون نقدا ، وقد يكون عينا · وكان أول من وضع الخراج فى الاسلام عمر بن الخطاب · يقول الماوردى (٥٨) : « أول من مسح السواد ، ووضع الخراج ، وحدد الحدود ، ووضع الدواوين ، وراعى ما تحتمله الأرض من غير حيف بمالك،ولا اجحاف براع،وأخذ كل من جريب قفيزا ودرهما » ·

وهناك أمور يجب أن تراعى عند تقدير الخراج ، منها جودة التربة الزراعية أو رداءتها ومنها أنواع الزرع من الحبوب والثمار حيث تختلف أسعارها · والأمر الثالث ، الطريقة التى تروى بها الأرض (٥٩) · ومما لا شك فيه ، أن ذلك كله له علاقة بتقدير قيمة الخراج الواجب على أصحاب هذه الأرض ، وانه ينتج عن ذلك اختلاف مقدار الخراج من بلد الى آخر ، وفى البلد الواحد من جهة الى أخرى · ومن الأمور التى يجب أن تكون فى الاعتبار عند تقدير الخراج ، هو قرب الأرض المفروض عليها الخراج من البلدان والأسواق أو بعدها ، مما يؤثر فى زيادة أثمان المحصولات أو نقصانها (٦٠) ·

وتكون جباية الخراج على أسس ثلاثة ، اما مساحة الأرض واما مساحة الزرع ، واما مقاسمة · وفى الحالة الأولى يؤخذ الخراج

طبقا للسنة الهلالية ، وفى الحالة الثانية وفقا للسنة الشمسية ،
أما فى الحالة الثالثة فيكون الخراج بتمام الزرع (٦١) .

ويختلف مقدار الخراج ، اذا ضعفت الأرض ، وتأثرت الحاصلات الزراعية بضعفها ، ويرى العلماء فى ذلك رأيين : اما أن يكون ضعف الأرض ناتجا عن اهمال لها ، وهم قادرون على اصلاحها ، وفى هذه الحالة لا يسقط الخراج عن الأرض ، ويلتزم القائمون عليها بدفع ما عليهم من الخراج . واما أن يكون ذلك الضعف ناتجا عن أسباب خارجة عن ارادة أصحابها ، كانقطاع الماء ، أو اجلاء العدو لهم عن أرضهم ، أو جور العمال ، وظلمهم لهم ، أو تخريب الأمطار والسيول للأرض . وفى هذه الحالة يسقط الخراج عن الأرض ، حتى تعود الى حالتها الأولى ، ويتمكن أصحابها من الانتفاع بها ، وعند ذلك يلتزمون بما عليهم من خراج (٦٢) .

أما خراج الأرض التى تزرع ، مرة واحدة كل عامين ، فكان على العمال مراعاة حالها ، عند وضع الخراج منذ بداية الأمر . فعلى أولى الأمر اختيار أمر من أمور ثلاثة : اما أخذ الخراج عن هذه الأرض ، أسوة بغيرها ، فيؤخذ عنها الخراج عن المزروع والمتروك . واما أن يمسح كل جريبين منهما بجريب ، ليكون أحدهما للمزروع ، والآخر للمتروك ، واما أن يضعه بكماله على مساحة المزروع والمتروك ، ويستوفى من أربابه الشطر من زراعة أرضهم (٦٣) .

ونلمس فى هذه السياسة عدالة الاسلام ، وتساهل أحكامه ، وعدم اجحافها ، بأهل الذمة . وقد أجمعت الآراء ، على أن أرض الخراج لا تصير أرض عشر ، كما أن الأرض العشر لا تنتقل الى أرض الخراج (٦٤) . لأن لكل منهما أحكامه ، وظروف زراعته ، ويستمر الخراج على الأرض فى حالة بناء أصحابها فيها الدور

والحوانيت (٦٥) • وفى حالة ايجار الأرض ، أما فى حالة الاعارة، فيكون الخراج على المستعير للأرض (٦٦) •

ويشترط فى عامل الخراج ، الحرية والأمانة والكفاية، واذا تولى وضع الخراج يشترط الى جانب ذلك أن يكون فقيها ، أما اذا ولى جباية الخراج فقط فلا يجب مراعاة ذلك • ويأخذ عامل الخراج راتبه من مال الخراج ، كما هو الحال بالنسبة لعامل الصدقة • وكذلك أجور مساح الأرض • أما أجرة القسام ، فقد اختلف بشأنها الفقهاء والعلماء • فمنهم من يرى أنها حق على السلطان ، يجب عليه أن يدفعها مما يستوفيه من الأموال • بينما يقول آخرون ، ان أجور من يقسم غلة العشر ، وغلة الخراج وسط من أصل الكيل ، أى تؤخذ من غلة أو مال الخراج (٦٧) • ولما كان الخراج حقا معلوما ، على مساحة معلومة ، اعتبر فيه ثلاثة مقادير : مقدار الجريب بالذراع المسموح به ، ومقدار الدرهم المأخوذ به ومقدار الكيل المستوفى به (٦٨) •

اتفق الفقهاء والعلماء ، على كراهية شراء أرض الخراج من أهل الذمة • فيقول أبو عبيد (٦٩) : « تتابعت الآثار ، بالكراهة لشراء أرض الخراج ، وانما كرهها الكارهون من جهتين : احداهما أنها فىء للمسلمين ، والأخرى أن الخراج صغار » وقد أثر عن الخليفة عمر بن الخطاب أنه أمر بذلك فقال : « لا تشتروا رقيق أهل الذمة ، فانهم أهل خراج ، وأرضوهم فلا تبتاعوها ، ولا يقرن أحدكم بالصغار ، بعد اذ نجاه الله منه » (٧٠) •

بينما اختلف الفقهاء فى حكم أرض العشر اذا اشتراها الذمى ، وهى الأرض التى يمتلكها المسلمون ،ويؤدون عنها العشر صدقة • فهل يدفع الذمى العشر أيضا ؟ أم يدفع خراجها عنها ؟

يرى بعض الفقهاء أن الذمى ـ فى حالة شرائه أرض العشر ـ لا يدفع صدقة لأن الصدقة على المسلمين ، زكاة لأموالهم، وتطهيرا لنفوسهم. وانه يجب الزامه بيعها لأنه فى هذه الحالة ، ابطال للصدقة . بينما يرى آخرون ، أنه يجوز شراء الذمى أرض العشر دون الزامه بدفع الخراج أو العشر . ويذهب فريق ثالث الى انه اذا اشترى الذمى أرض العشر ، فعليه أن يدفع عنها خراجا (٧١) .

كان من بين الواجبات المادية أيضا على أهل الذمة ، التى يؤدونها للمسلمين العشر فى تجاراتهم . وأول من وضع العشر فى الاسلام عمر بن الخطاب ، فجعل على تجارة المسلمين ربع العشر ، أى درهما من كل أربعين درهما . بينما جعل على تجارة أهل الذمة نصف العشر ، أى درهما من كل عشرين درهما ومن لا ذمة له ، أى المحاربين ، فجعل على تجاراتهم العشر ، أى درهما عن كل عشرة دراهم (٧٢) . ويكون أداء هذه الضرائب مرة واحدة فى كل سنة ـ كالجزية والخراج والزكاة ، مهما تعددت مرات مرور الذمى على المكان الذى يوجد فيه العاشر (٧٣) . ومتى أخذ منهم مرة ، كتب لهم حجة بأدائهم ، لتكون وثيقة لهم ، وحجة على من يمرون به ، فلا يعشرهم مرة ثانية ، وان مر ثانية بأكثر من المال الذى أخذ منه ، أخذ من الزيادة وحدها ، لانها لم تعشر (٧٤) وسنتحدث عن الخراج والعشر ، المفروضين على أهل الذمة فى مصر فى الباب التالى عند دراستنا لدور أهل الذمة فى الحياة الاقتصادية فى مصر .

ومن الأحكام الخاصة بأهل الذمة ، السماح لهم بالاقامة فى سائر أرجاء العالم الاسلامى عدا البلاد المقدسة ـ أى مكة والمدينة . وقد نص القرآن الكريم على ذلك وأشارت اليه الأحاديث النبوية . قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس ، فلا يقربوا

المسجد الحرام ..) (٧٥) . وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا ينبغى لمسلم أن يؤدى الخراج ، ولا لمشرك أن يدخل الحرم »(٧٦) .

أما بخصوص أحكام الكنائس والصلبان وما يرتبط بالشئون الدينية لأهل الذمة ، فيشير أبو يوسف (٧٧) الى أن الصلح كان بين المسلمين وأهل الذمة على أداء الجزية ، وعلى ألا تهدم البيع والكنائس ، القائمة فى المدن وخارجها . كما اشترط عليهم ألا يحدثوا ببناء بيعة أو كنيسة . وكانت هذه السياسة عملا ، بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد أثر عنه انه أوصى بعدم بناء كنائس وبيع فى الاسلام ، أو تجديد ما تهدم منها أو أصابه تخريب .. وله صلى الله عليه وسلم فى ذلك بعض الأحاديث ، نذكر منها : « لا خصاء فى الاسلام ولا كنيسة » (٧٨) . وأيضا « لا تبنى بيعة فى الاسلام ، ولا يجدد ما خرب منها »(٧٩) .

أمر الخليفة عمر بن الخطاب بهدم ما عمر من الكنائس بعد الاسلام ، وان يمنع أهل الذمة من احداث الكنائس والبيع واظهار الصلبان خارج الكنيسة . وشدد فى ذلك الخليفة الأموى ، عمر ابن عبد العزيز، الذى أمر بألا يترك فى دار الاسلام بيعة ولا كنيسة « بحال قديمة ولا جديدة » وكتب الى مختلف الأمصار « أن امنعوا النصارى من رفع أصواتهم فى كنائسهم ، فانها أبغض الأصوات الى الله تعالى ، وأولاها ان تخفض » (٨٠) ، ويجمع العلماء والفقهاء على أنه لا يجوز احداث كنيسة ، ولا بيعة فى المدن والأمصار بدار الاسلام (٨١) .

وفى الواقع كان هناك اختلاف بين أحكام أهل الذمة بشأن الكنائس فى المدن التى أنشأها المسلمون ، عنها فى المدن التى فتحوها صلحا أو عنوة . وتتفق الآراء فى أنه لا يجوز احداث

كنيسة في المدن ، التى أنشأها المسلمون بعد الفتوحات كالبصرة والكوفة والفسطاط ، وبغداد والقاهرة · كما لا يجوز ذلك في بلاد أسلم أهلها كالمدينة ومكة واليمن · وأيضا لا يجوز ذلك في البلاد التي فتحت عنوة ، أما البلاد والمدن التى فتحت صلحا ، فيجوز فيها احداث الكنائس ، والابقاء على القديم منها ، وذلك تبعا لما ينص عليه في العهد الذى عقد بين المسلمين وأهل الذمة (٨٢) وفى ذلك تقول بعض الروايات : « أى مصر ، مصرته العرب ، فليس لهم أن يحدثوا فيه بناء بيعة ولا كنيسة ، ولا يضربوا فيه بناقوس ، ولا يظهروا فيه خمرا ، ولا يتخذوا فيه خنزيرا ، وكل مصر كانت العجم مصرته ، ففتحه الله على العرب ، فنزلوا على حكمهم ، فللعجم ما في عهدهم ، وعلى العرب أن يوفوا لهم بذلك »(٨٣) ·

أما بالنسبة للكنائس والأديرة ، وما يرتبط بها من طقوس دينية ، في مصر ، فقد جاء ، فى عهد عمرو بن العاص ، لأهل مصر ــ أى صلح بابليون ، وصلح الاسكندرية ــ ان لأهل الذمة ، الأمان على كنائسهم والتعهد بعدم تدخل المسلمين فى شئونهم الدينية (٨٤) · ونلاحظ أنه لم يكن فى هذه العهود ، ما يشير الى هدم الكنائس الموجودة ، أو عدم جواز احداث كنائس وأديرة جديدة بالبلاد المصرية · ومن ثم نجد أن احداث بناء الكنائس والأديرة أو هدمها ، يختلف من عصر الى آخر · وفى الحقيقة لم يتعرض الذميون لهدم كنائسهم وأديرتهم الا فى فترات محدودة · وهى تلك الفترات التى اشتد فيها الحكام على أهل الذمة،وتشددوا فى تطبيق الأحكام الاسلامية ، كما رأينا فى دراستنا للباب الأول ·

ونلمس من دراستنا لتاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية ، أنه قد بنيت عدة كنائس فى ظل الحكم العربى ، كما جددت كنائس أخرى ، وشهدنا ذلك منذ فجر الاسلام فى مصر فقد بنيت كنيسة

مارى مرقص بالاسكندرية ، فى ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر ـ فى عهد الخليفة الأموى ، معاوية بن أبى سفيان (٨٥) ٠ وفى بطركية الأب أغاثو (٤١ ـ ٥٨ هـ = ٦٦١ ـ ٦٧٧ م) عمرت كنيسة أبى مقار ، كما بنيت كثير من القلالى بوادى هبيب (٨٦) ٠

وبنيت أول كنيسة فى مدينة الفسطاط الاسلامية ـ التى أسسها عمرو بن العاص عقب الفتح العربى لمصر فى ولاية مسلمة ابن مخلد (٨٧) (٤٧ ـ ٦٢ هـ = ٦٦٧ ـ ٦٨٢ م) فى حـارة الروم (٨٨) ٠

وقد ذكرنا فى الفصل الثانى من الباب الأول ، ان القبط اليعاقبـة والملكانيين ، كانوا يشـغلون مكانة عظيمة ، فى ولاية عبد العزيز بن مروان ٠ فكان يقربهم اليه ويعمل على تحقيق رغباتهم ، وأذن لهم ببناء عدة كنائس فى العاصمة الاسلامية ، الفسطاط ، وحلوان ، وهى مدينته الجديدة ٠ وبذلك تمكن بعض الأساقفة فى ذلك العصر ، وفى بطركية الأب اسحق والأب سيمون ، من بناء بعض الأديرة فى مدينة حلوان ، وكان يشرف على بنائها الأسقف اغريفوريوس (٨٩) ٠ كما سمح الأمير عبـد العزيز بن مروان ، لكاتبه القبطى ، اثناسيوس ببناء كنيسة فى قصر الشمع ، سماها كنيسة مار جرجس ، كما أقام كنيسة أخرى أيضا ، سماها كنيسة أبى قير (٩٠) ٠

ولم يقتصر تسامح والى مصر ، عبد العزيز بن مروان ، فى بناء الكنائس الجديدة على القبط اليعاقبة فحسب ، بل سمح أيضا للملكانيين بذلك ، فبنى حرسه الملكانيون ، كنيسة مار جرجس ، « وكانت هذه البيعة ، لطيفة وتعرف ، بكنيسة الفراشين » (٩١) ٠

ويذكر كاترمير (٩٢) أن عبد العزيز بن مروان ، كـــان يقـربه المسيحيين اليه ، وبنى فى مدينته الكنائس والأديرة ٠

أذن والى مصر الوليد بن رفاعة ــ فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك ــ فى سنة ١٠٦ هـ ، للقبط باعادة بناء دير الشهيد أبى مينا بخط الحمراء (٩٣) ــ بظاهر الفسطاط ــ لأنهم شكوا اليـه ما يتعرض له نساؤهم ، وأطفالهم ، عندما يمضون الى الكنائس بداخل مصر ــ ذهابا وايابا ــ من قبل المسلمين ، وخاصة فى أيام صوم الأربعين (٩٤) ولهذا السبب قتل كثير من العرب ، وأذن للقبط بتجديد بعض كنائسهم بخط الحمراء ، الى جانب كنيسة أبى مينا ، ومنها كنيسة مار جرجس وكنيسة أبى يحنس وغيرها (٩٥) ٠

وهكذا شهد عصر الولاة الأمويين ، بناء كثير من الكنائس للقبط اليعاقبة والملكانيين على حد سواء ، واستمرت هذه السياسة فى معظم فترات عصر الولاة العباسيين عدا بعض الفترات المحدودة، والتى كانت لا تلبث أن يعقبها فترة يسودهـا تعمير الكنائس ، واستحداثها ٠ ففى خلافة هارون الرشيد ٠ كان على بن سـليمان (١٦٩ ـ ١٧٠ هـ = ٧٨٥ ـ ٧٨٦ م) يتولى امارة مصر ، وكان يبغض القبط ، فأمر بهدم جميع الكنائس المستحدثة ، ومنها كنيسة القديسة مريم ، وكنائس محرس قسطنطين ٠ وحاول القبط اغراءه بالأموال ، حتى يعدل عن رغبته هذه ، فقدموا له خمسين ألف دينار، ولكنه رفض ذلك ، وأصر على موقفه (٩٦) ٠

وفى الحقيقة ، أن هذا الموقف من جانب ولاة مصر فى ذلك العصر ، لم يستمر طويلا فلما ولى مصر ، موسى بن عيسى (١٧١ ــ ١٧٢ هـ = ٧٨٧ ـ ٧٨٨ م) رفع من شأن القبط اذ كان يعطف كثيرا على القبط وكنائسهم ، فأذن لهم باعادة بناء الكنائس التى

هدمها سلفه على بن سليمان واستشار فى ذلك فقهاء مصر ، وخاصة، الليث بن سعد ، وعبد الله بن لهيعة ، فأجازا له ذلك ، وقالا : ان بناء الكنائس هو من أعمال عمارة البلاد ، وان كل كنائس مصر لم تبن الا فى الاسلام فى عصر الصحابة والتابعين (٩٧) ٠

وكان يعمل فى خدمة المأمون ، عندما قدم الى مصر فى سنة ٢١٧ هـ ، فراشون من المسيحيين الملكانيين ، وكانت الكنائس التى فى داخل العاصمة الاسلامية ، تبعد عنهم كثيرا ، ولذلك استأذنوا الخليفة العباسى المأمون فى تجديد بناء كنيسة السيدة مريم على جبل المقطم بالقرب من قبة الهواء (٩٨) ، حتى يتمكنوا من أداء صلاتهم ، ومباشرة طقوسهم الدينية ٠ وقد اشتهرت هذه الكنيسة باسم كنيسة الفراشين ـ على غرار كنيسة الفراشين فى مدينة حلوان فى ولاية عبد العزيز بن مروان ـ ثم عرفت بعد ذلك باسم كنيسة الروم (٩٩) ٠ وفى ذلك العصر أيضا ، أقام بكام القبطى ـ والى كورة بورة ـ كثيرا من الكنائس التى اشتهرت بروعة البناء وجمال الشكل (١٠٠) ٠

وكان عصر الخليفة المتوكل (٢٣٣ ـ ٢٤٧ هـ = ٨٤٨ ـ ٨٦١ م) أشد العصور تضييقا على أهل الذمة ٠ فقد أمر عماله فى مختلف أنحاء الدولة الاسلامية بهدم جميع الكنائس والبيع المستحدثة فى الاسلام ، كما نهى عن استحداث كنائس جديدة (١٠١) ٠ ومما لاشك فيه أن هدم الكنائس أو السماح ببنائها ، كان يختلف من حاكم الى آخر ، وأنهم لم يتبعوا جميعا مبدأ واحدا ٠ ويمكننا أن نقول ، ان بناء الكنائس الجديدة ، أو تجديد ما أصابه التخريب ، استمر طوال العصور الاسلامية فى مصر ، مهما صادف ذلك من صعوبات ، والتى كانت سرعان ما تزول ، ويعقبها فترة هدوء وسلام للذميين ٠ فعصر المتوكل سرعان ما أعقبه

عصر الخلفاء ، وولاة اشتهروا بالسماحة ازاء أهل الذمة ، فقد أذنوا لهم بتجديد كنائسهم او استحداث كنائس جديدة ٠

ويذكر ترتون (١٠٢) أنه لم يكن أمر المتوكل ، القاضى بتحريم استحداث الكنائس، ختام تلك السياسة ، فقد كان الناس، ينفذونها احيانا ، ويتغافلون عنها أحيانا أخرى ٠ كما ان العامة طالما قامت بأخذ الأمر فى يدها ، ذلك أنه قد حدث لما هدمت الكنيسة التى فى خارج حصن تنيس فى سنة ٢٣١ هـ ، وتسمى كنيسة أبى ثور ، أن أعاد القبط بناء الكنيسة فى داخل المدينة ، ولكن ما كاد بناؤها يشرف على النهاية ، حتى أضرم المسلمون فيها النار وهدموها ، فاستعان القبط بأولى الأمر فى المدينة ، حتى أكملوا البناء (١٠٣) ٠

والحقيقة التى لا يمكن تجاهلها ، ان بناء الكنائس وتعميرها أو هدمها وتخريبها من الأمور التى لم يكن للمسلمين فيها سياسة واضحة ، كما لمسنا فى دراستنا لتاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية ٠ فكان يسمح للقبط فى بعض الأحيان ، ببناء كنائس جديدة،وأحيانا أخرى كانوا يمنعون من اصلاح الكنائس القديمة ٠ ففى عهد الاخشيد ، انهدم جزء من كنيسة أبى شنودة فى سنة ٣٢٦ هـ ، وأراد القبط عمارتها ، وبذلوا له فى سبيل ذلك كثيرا من الأموال والهدايا ٠ ولكن الاخشيد رأى انه من الأفضل أخذ رأى الفقهاء فى هذا الأمر (١٠٤) ٠

أشار بعض الفقهاء آنذاك ، بألا تعمر الكنيسة المذكورة ، ومن هؤلاء أبو بكر بن الحداد ، بينما رأى فريق آخر أن للقبط الحق فى تعميرها ، وترميم ما تهدم منها ٠ ومنهم محمد بن على الذى ثار عليه المسلمون ، عندما سمعوا رأيه فى هذا الشأن، وأرادوا قتله واحراق

داره ، وثار عامة المسلمين لذلك ، وأحاطوا بالكنيسة • فلما بلغ الاخشيد هذه الأخبار ، بعث بالجند لتهدئة الحال • ثم أمر بمعاينة حالة الكنيســة ، واذا كان من الممكن أن تظـل قـائمة على حالتها أو تهدم (١٠٥) • وانتهى الأمر بابقاء الكنيسة على حالتها ، دون تعمير أو ترميم ، حتى جددت فى سنة ٣٦٦ هـ (١٠٦) •

أما عصر الدولة الفاطمية ، فقد شهد عمارة واسعة للكنائس والأديرة ، باستثناء فترات محدودة ، تعرضت فيها الكنائس والبيع للهدم والتخريب • ففى خلافة المعز لدين الله تمكن القبط من بناء كثير من الكنائس وتعميرها • اذ كتب المعز للبطرك أنبا افراهام السريانى سجلا يخول له بناء كنيسة أبى مرقورة التى كانت قد هدمت قبل ذلك ، وصارت شونة للقصب ، وكذلك الكنيسة المعلقة بقصر الشمع ، كما أطلق المعز للبطرك أموالا من بيت المال ، مساعدة له فى بناء هذه الكنائس ، الا أن البطرك رد الأموال للخليفــة ، واكتفى بأخذ السجل الذى يحق له بناء هذه الكنائس (١٠٧) •

ولكن عامة المسلمين تعرضوا للبطرك عند بنائه كنيسة أبى مرقورة ، وحاولوا أن يحولوا بينه وبين هذا البناء • وعند ذلك تقدم البطرك بشكواه منهم للخليفة المعز الذى تولى بنفسه مباشرة البناء ، وصحب معه فرقة من الجند ، الى جانب استدعائه البنائين من كل مكان • وتعهد له بالحماية • ولم يجسر أحد من المسلمين بعد ذلك على الاعتراض • وكمل بناء هذه البيعة ، وأيضا الكنيسة المعلقة بقصر الشمع • كما قام البطرك بتعمير كافة الكنائس التى تحتاج الى العمارة دون أن يتعرض له أحد • الى جانب تعمير عدة كنائس فى مواضع مختلفة بالاسكندرية ، وأنفق البطرك فى ذلك أموالا كثيرة (١٠٨) • ومن الكنائس التى جددها أنبــا أفراهام ،

كنيسة أبى سيفين فى الفسطاط فى خلافة العزيز بالله الفاطمى (١٠٩) ٠

وقد تعرض أهل الذمة جميعا ، لكثير من المضايقات فى خلافة الحاكم بأمر الله ٠ فقد أمر بهدم جميع البيع والكنائس ، فى جميع أنحاء الأقاليم المصرية ، والاستيلاء على جميع ما فيها من الأوانى الذهبية والفضية ، وحول الكثير منها الى مساجد المسلمين (١١٠)٠ وقد تساوى فى ذلك القبط واليهود على حد سواء ٠ ولكن عاد الحاكم بعد ذلك ، وأذن لأهل الذمة، باعادة بناء كنائسهم وتعميرها٠ وكتب لهم سجلا بذلك ، وأمر أيضا باعادة ما أخذ من هذه الكنائس من الذهب والفضة والأخشاب والعمد والرخام وغيرها (١١١) ٠ واستمرت عملية ترميم الكنائس وتعميرها فى خلافة الظاهر لاعزاز دين الله ، دون اعتراض أحد من الحكام والعوام ، حتى أعيدت الكنائس الى ما كانت عليه وأفضل (١١٢) ٠

وفى خلافة المستنصر ، بنيت كنائس كثيرة ، الى جانب ترميم بعض الكنائس الموجودة وتجديدها ٠ فى سنة ٤٢٩ هـ ، بنى البطرك الملكانى سطوديس فى القاهرة ، كنيسة مرقورة ، وكنيسة السيدة بحارة الروم ، كما أعيد ترميم كنيسة جرجيس بخط الحمراء ، وقد حاول المسلمون منع ذلك ، الا أنهم تمكنوا من اتمام البناء (١١٣) ٠

كذلك تمكن كاتب سر الخليفة المستنصر، ووزيره أبو السرور يوحنا بن الأيح من الحصول على سجل يحق له بناء بعض الكنائس ، وعقوبة من يتعرض له من المسلمين فبنى كنيستى بربارة وسرجيوس (١١٤) ٠

وجددت كنائس وأديرة كثيرة فى خلافة الآمر ، الذى استخدم القبط فى حكومته على نطاق واسع ، فارتفع شأنهم ،

مما عزز جانبهم ، فأخذوا فى تجديد كنائسهم ، وتعمير أديرتهم ، ونذكر من ذلك دير النسطور ، ويسمى دير القديس مارى جرجس ، حتى صار من المتنزهات المشهورة فى ذلك العصر (١١٥) . كذلك بيعة المرتوتى على اسم السيدة العذراء ،التى أصابها التدمير والتخريب فعنى بتجديد عمارتها الشيخ أبو اليمن وزير ، متولى ديوان مصر السفلى ، وجعل لها بستانا حسنا وزودها بمختلف الأوانى اللازمة لتقديم القربان والبخور ، وكل ما تحتاج اليه البيعة (١١٦) . كما جدد أبو اليمن بيعة أبى قدامة ، وكان ذلك العمل بدون الحصول على اذن من الخليفة ووزيره الأفضل شاهنشاه الذى أمر بهدمها ، وتحويلها الى مسجد فى سنة ٤٩٠ هـ (١١٧) . وجدد أيضا دير طموية ، الذى كان يأنس اليه الأفضل كثيرا ، وكان له بستان عظيم زوده بجميع أنواع الأشجار والنخيل (١١٨) .

وكان يوجد فى مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، الى جانب القبط اليعاقبة والملكانيين جماعة من الأرمن المسيحيين ، الذين دخلوا مصر منذ خلافة المستنصر ووزيره بدر الجمالى ، وكثر عددهم وعظم شـأنهم فى خـلافة الحافظ ، الذى استوزر بهرام الأرمنى . وقد تمكنت هذه الطائفة من بناء عدة كنائس فى وزارة الجمالى ، وخاصة عندما قدم مصر زائرا ، بطرك آرمينيا أغريغوريس الثانى Gregory (١١٩) . وفى خلافة الحافظ ووزارة بهرام الأرمنى : بلغ عدد الأرمن فى مصر حوالى ثلاثين ألفا وكثر بناؤهم للكنائس والأديرة حتى « صار كل رئيس من أهله — أى من أهل بهرام — يبنى له كنيسة » (١٢٠) .

أما بالنسبة لمعابد اليهود فلا نجد الا اشارات طفيفـة فى المصادر التاريخية القديمة والحديثة ، العربية والافرنجية ، ولعل

ذلك راجع الى قلة عددهم فى مصر بالنسبة لعدد القبط اليعاقبة والملكانيين الذين كان لهم أهميتهم فى المجتمع المصرى ومن ثم جذبوا انظار الكتاب منذ فجر الاسلام فى مصر للكتابة عنهم . ويشير المقريزى إلى كنائس اليهود فى مصر الاسلامية وبعضها كان قديما ، وبعضها كان مستحدثا فى العصر الاسلامى وخاصة الموجود منها فى القاهرة (١٢١) . ويبدو أن كنائس اليهود لم تتعرض لما تعرضت له كنائس وأديرة القبط من الهدم والتخريب ، اللهم الا فى عصر الحاكم بأمر الله فى سنة ١٠١٢ م (١٢٢) .

والحقيقة أن أهل الذمة فى مصر قد تمتعوا بحرية كامله فى القيام بطقوسهم الدينية اللهم الا فى فترات محدودة ، وهى الفترات التى اشتد فيها بعض الحكام ، فى تطبيق الأحكام الاسلامية بشأن الذميين ، والتى سرعان ما يعقبها فترة يتمتع فيها الذميون بالأمن والسلام ويمارسون فيها حياتهم الدينية وغير الدينية فى حرية واطمئنان . وقد لمسنا ذلك عند دراستنا لدور أهل الذمة فى الحياة السياسية فى مصر الاسلامية حتى نهاية العصر الفاطمى .

اذا كان ذلك هو شأن كنائس أهل الذمة وبيعهم ، فاننا نتساءل عن حكم أبنيتهم ودورهم . فيقول ابن قيم الجوزية (١٢٣) عنها : « فان كانوا ـ أى أهل الذمة ـ فى محلة منفردة عن المسلمين لا يجاورهم فيها مسلم ، تركوا ، وما يبنونه كيف أرادوا ، وان جاورهم المسلمون لم يمكنوا من مطاولتهم فى البناء ، سواء أكان الجار ملاصقا أم غير ملاصق ، بحيث يطلق عليه اسم الجار ». والواقع ، أن آراء الفقهاء والعلماء تتفق فى ذلك ، وأن أهل الذمة لا يجوز لهم بناء أو سكنى منازل أعلى من منازل المسلمين ، حتى لا يكشفوا عوراتهم ، ولا يعلوا عليهم . كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام :«الاسلام يعلو ، ولا يعلى عليه »(١٢٤)، وعلى ذلك يجب أن

يكون المسلمون فى رتبة أعلى من الذميين · ولا يجوز للذميين ـ كما ذكرنا ـ سكنى دار أعلى من دور المسلمين المجاورة لهم · ويقول الشافعى : « ولا يحدثون بناء يطولون به بناء المسلمين » (١٢٥) وفى الوقت نفسه يذهب الى انهم ، ان كانوا يسكنون قرى أو أحياء منفردين بها دون المسلمين ، فلهم ما شاءوا · كما أنهم لو كانوا فى بلد فتحت صلحا · ولم ينص الصلح على شىء من هذا ، يكون لهم حرية السكنى والبناء (١٢٦) ·

ولم نجد فى المصادر التاريخية المختلفة ، ما يشير الى وصف دور ومنازل أهل الذمة فى مصر ، وهل كانت دورهم أعلى من دور المسلمين أو أقل ارتفاعا · كما أننا لا نجد فى العهود التى عقدت بين عمرو بن العاص والمصريين ، ما يشير الى ذلك ، أو ينص على شىء خاص بدورهم فى الأحياء والمدن الخاصة بهم أو فى تلك التى يسكنونها مع المسلمين ·. ونحن نرجح أن أهل الذمة كانوا يمنعون من سكنى الدور والمنازل التى تعلو دور المسلمين ومنازلهم ، وخاصة فى الفترات التى تعرضوا فيها لبعض المضايقات ، والتى كان يتشدد الحاكم فيها فى تطبيق أحكام الاسلام العامة على أهل الذمة فى مصر ·

ويتفق الفقهاء والعلماء على ضرورة التمييز بين أهل الذمة والمسلمين فى الملبس وان كنا لا نجد اشارة الى ذلك فى القرآن الكريم ، ولا فى السنن والأحاديث النبوية (١٢٧) · والواقع ، أن التمييز بين أهل الذمة والمسلمين فى الملبس ، والركوب ، والهيئة ، راجع الى ما اشترطه الخليفة عمر بن الخطاب على أهل الذمة فى البلاد التى فتحها المسلمون ·

يقول أبو يوسف (١٢٨) : « لا يترك أحد منهم ، يتشبه بالمسلمين فى لباسه ، ولا فى مركبه ولا فى هيئته · ويؤخذون بأن

يجعلوا فى أوساطهم الزنارات ــ مثل الخيط الرفيع ، يعقده كل واحد منهم فى وسطه ــ وبأن تكون قلانسهم مضربه ، وأن يتخذوا على سروجهم فى موضع القرابيس مثل الرمانة من خشب ، وبان يجعلوا شراك نعالهم مثنية ، ولا يحذوا حذو المســـلمين ، ويمنع نساؤهم من ركوب الرحائل • كما يشير الى أن الخليفه عمر بن الخطاب قد أمر عماله بذلك ، حتى يمكن معرفة زى أهل الذمة من زى المسلمين ، ومن ثم يمكن التمييز بينهم بسهولة •

وكان على أهـــل الذمة أيضـــا ، ألا يلبســوا العمائـــم والطيلسان (١٢٩) • ولا يركبوا الخيــل وانما يركبون البغــال والحمير بالأكف عرضــا (١٣٠) ــ أى تكون أقدامهم من جـــانب واحد ــ وتشير بعض المصـــادر الى أنه كان على أهل الذمة ارتداء ألوان مميزة ، خاصة بهم دون المسلمين • وقد اختلفت الآراء حول ذلك ، فيرى البعض أن اللون الأسود كان خاصا بالمسيحيين ، وأن اللون الاصفر كان خاصا باليهود • بينما يرى آخرون ان اللونين الأزرق والرمادى كانا من سمات المسيحيين والأحمر والأسود كانا من علامات السامرة والمجوس • أما اليهود فكان يميزهم اللون الأصفر ، ويرى فريق ثالث أن اللون الأحمر كان من السمات المميزة لأهل الذمة عامة (١٣١) •

ونحن نرجح ، ما ذهب اليه ترتون ، من حيث انه لم يكن هناك ثمة ضرورة فى عصر الفتح ، لالزام أهل الذمة بلبس نوع معين من الثياب ، يخالف ثياب المسلمين • لأنه مما لا شك فيه ، انه كان لكل فريق ثيابه الخاصة به ، وأن الذميين من المسيحيين واليهود وغيرهم ، كانوا يرتدون ملابسهم الخاصة بهم ، من تلقاء أنفسهم دون الزام لهم بذلك • الا أن الحاجة الى هذا التمييز ظهرت ، بعد ذلك ، حينما أخذ العرب بحظ من المدنية والحضارة ، وخالطوا

أهل البلاد المفتوحة، وعمد بعض الذميين الى التشبه بهم فى لباسهم، فأصبح من الضرورى ، التمييز بين هؤلاء وأولئك ، حتى يمكن التعرف على كل منهم بسهولة ، ومعرفة دين هذا عن ذاك (١٣٢) ٠

ونحن نرى أيضا ، أن هذه الالتزامات ، لم يؤخذ الذميون بها، الا فى الفترات التى تشدد فيها بعض الخلفاء والحكام ، بتطبيق أحكام الاسلام ، والتشديد على أهل الذمة ، والالتزام بها ٠ وهذا كان بالنسبة لأهل الذمة عامة فى البلاد الاسلامية ٠ أما فى مصر الاسلامية ، فسنعرض لملابس أهل الذمة عند دراستنا لأخلاق وعادات أهل الذمة فيها ٠ ونلاحظ أن أهل الذمة لم يلزموا بذلك ـ كما تذكر المصادر التاريخية ـ الا فى فترات معينة ومحدودة ، وخاصة فى خلافة عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى ، وفى عهد الخليفة العباسى المتوكل ، وأخيرا فى عهد الخليفة الفاطمى ، الحاكم بأمر الله ٠

والى جانب ما تقدم ، من أحكام خاصة بأهل الذمة ، عليهم الالتزام بها ، نجد أحكاما أخرى ، منها ما يتعلق بالمجتمع ، وعلاقة المسلم بالذمى ، ومنها ما يتعلق باستخدام أهل الذمة فى شئون الحكم والادارة ٠ وقد أثر عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أنه دعا الى عدم القاء السلام على أهل الذمة عند لقائهم فى الطريق ، فاذا هم ألقوا السلام ، رد عليهم المسلم٠وله فى ذلك بعض الأحاديث الشريفة نذكر منها : « لاتبدأوا اليهود والنصارى السلام ، فاذا لقيتم أحدهم فى الطريق ، فاضطروه الى أضيقه » (١٣٣) ، ومنها « من صافح مشركا، فليتوضأ أو ليغسل كفيه » (١٣٤)٠ وهكذا كان رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، يضع أهل الذمة فى درجة دون درجة المسلمين ٠

ويقول ابن الدريهم (١٣٥) : ان من لطف الله بالمسلمين ، ورأفته بهم أن حذرهم من اعدائهم ــ ويقصد بذلك أهل الذمه ــ ونهاهم عن وصلهم ، وأمرهم بمقاطعتهم ، لعلمه تعالى بقبح سرائرهم ، واضمارهم للمسلمين العداوه والبغضاء ، وفساد نياتهم ، وغشهم للمسلمين · وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه فسر قوله تعالى : (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) بأن المغضوب عليهم هم اليهود ، وان الضالين هم النصارى ·

وتعددت الآيات الكريمة فى النهى عن استخدام أهل الذمة أو استكتابهم قال تعالى : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين ، أولياء من دون الله ، ومن يفعل ذلك ، فليس من الله فى شىء ، الا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه والى الله المصير) ، وقال تعالى : (يأيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا بطانة من دونكم ، لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم ، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون) · وقال تعالى أيضا : (يأيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين) (١٣٦) ·

كما روى عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أيضا بعض الأحاديث فى هذا الشأن ، منها « انا لا نستعين بمشرك » (١٣٧) وغير ذلك من الأحاديث · وكان الغرض منها عدم الاستعانة بأحد من أهل الكتاب ، ومن فى حكمهم ، فى تصريف أمور البلاد ، وأن لا يكون لهم سلطان على المسلمين · وقد حرص الخليفة عمر ابن الخطاب ، على اتباع ما جاء فى القرآن ، وما سنه رسول الله ، فنهى عن استخدام الذميين ، وكتب الى عماله بذلك ، وقال : « لا أكرمهم اذ أهانهم الله ، ولا أعزهم اذ ذلهم الله ، ولا أدنيهم اذ أقصاهم » (١٣٨) ·

والحقيقة أن استخدام أهل الذمة ، كان شائعا فى البلاد الاسلامية فى مختلف الدواوين والأعمال ، اللهم الا فى فترات محدودة ، تشدد فيها بعض الخلفاء فى تطبيق أحكام الاسلام ، وكان ذلك فى الواقع ، نتيجة لضجر المسلمين ، وثورتهم على تحكم الذميين فيهم وتسلطهم عليهم • وحدث ذلك فى خلافة عمر بن عبد العزيز والمتوكل والمقتدر • وكانت أحكامهم خاصة بجميع أنحاء المملكة الاسلامية • ولكن مثل هذه الفترات ، كان ما يلبث ان تعقبها ، فترات استخدم فيها الذميون ، وخاصة المسيحيين منهم على نطاق واسع • وقد تحدثنا عن دور أهل الذمة فى مصر الاسلامية ، وأدركنا مدى استخدامهم فى الحكومة ، اذ كان منهم الوزراء والكتاب وعمال الدواوين ، وحكام الأقاليم ، وجباة الخراج وغيره من الضرائب • وأشرنا الى أن استخدام أهل الذمة ، وخاصة القبط فى مصر ، كان منذ السنوات الأولى للاسلام فى مصر فقد أبقى عمرو ابن العاص على كثير من الموظفين ، والحكام القبط ، بالرغم من نهى الخليفة عمر بن الخطاب عن ذلك • وقد أقصى الذميون من وظائفهم فى الدولة ، فى بعض الفترات ، ومنها عهد الخليفة الأموى عمر ابن عبد العزيز ، وعهد الخليفة العباسى المتوكل ، وكلاهما نهى عن استخدام الذميين فى الأقاليم الاسلامية ومنها مصر • كما دعا الى ذلك بعض الوزراء ، ومنهم رضوان بن ولخشى وصلاح الدين فى عهد كل من الخليفة الفاطمى الحافظ والخليفة العاضد ـ كما ذكرنا آنفا فى الباب الأول ، الفصل الرابع •

أما أحكام معاملة أهل الذمة ، فى البيع والشراء ، فقد روى عن رسول الله أنه كان يشترى من اليهود ، وأنه فى يوم ما ، أخذ من أحد اليهود ، ثلاثين وسقا من شعير ورهنه درعه • وانقسم العلماء والفقهاء الى فريقين ، أحدهما يرى أنه لا بأس من مشاركة الذمى فى البيع والشراء والآخر يكره ذلك ، لأنهم يميلون للرشوة

والربا ، وانهم يتجرون أيضا فى الخمر والخنزير ، وهى من الأمور المحرمة على المسلمين (١٣٩) ٠

ونص القرآن الكريم ، على أنه يجوز للمسلم نكاح نساء أهل الذمة ٠ قال تعالى : (اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) (١٤٠) بينما لا يحل للمسلم نكاح اماء أهل الذمة (١٤١) ٠

ومن أحكام أهل الذمة فى الاسلام أيضا ، انه لا يتوارث المسلم الذمى ، أو العكس ٠ كما انه لا يتوارث اليهودى النصرانى أو العكس ٠ قال رسول الله عليه الصلاة والسلام ، « لا يرث المسلم الكافر ، ولا الكافر المسلم » ، كما قال أيضا : « لا يتوارث أهل ملتين شتى » (١٤٢) ٠

واختلف الفقهاء فى دية أهل الذمة ، اليهود والنصارى وغيرهم ٠ فهى عند أبى حنيفة مثل دية المسلم ، فحياة الذمى ، تكافىء حياة المسلم ٠ أما مالك ، فيرى أن دية اليهودى أو النصرانى يجب أن تكون نصف دية المسلم ٠ ويرى الشافعى أن دية الذمى يجب أن تكون ثلث دية المسلم (١٤٣) ٠ أما دية الكتابية ، فيرى البعض منهم ان دية نساء أهل الذمة تكون نصف دية رجالهن سواء بسواء (١٤٤) ٠

ومما هو جدير بالذكر ، الأمور التى يجب على الذميين تركها ، وفيها ضرر على المسلمين فى نفس أو مال ، وان القيام بها يعتبر نقضا لعهودهم ، وما جاء فيها ، وهى : الاعانة على قتال المسلمين ، وقتل المسلم والمسلمة ، وقطع الطريق على المسلم ، وايواء جاسوس

على المسلمين ، واعانة أعداء المسلمين ، بدلهم على عورات البلاد ، أو مكاتبة المشركين بأخبار المسلمين أو أن يزنى الذمى بمسلمة ، أو يصيبها باسم نكاح ، وان يفتن مسلما عن دينه (١٤٥) ٠

يقول الشيرازى (١٤٦) : « فان امتنع الذمى عن لزوم الأحكام ، أو قاتل المسلمين أو زنا بمسلمة ، أو أصابها باسم نكاح أو فتن مسلما عن دينه أو قطع الطريق على مسلم ، أو آوى المشركين أو دلهم على عورات المسلمين ، أو قتل مسلما ، انتقضت ذمته فى ذلك جميعا وقتل فى الحال ، وغنم ماله » ٠

كذلك ينقض عهد الذمى ، اذا فعل أو قال شيئا فيه غضاضة ونقيصة على الاسلام من ذلك ذكر الله عز وجل بما لا يليق ، أو ذكر كتابه الكريم أو دينه القويم ، أو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لا ينبغى (١٤٧) ٠

هذه هى خلاصة لأحكام أهل الذمة فى الاسلام ، وهى أحكام عامة بشأن أهل الذمة فى جميع أنحاء البلاد الاسلامية ٠ وقد أشرنا الى مدى تطبيقها فى مصر الاسلامية حتى نهاية العصر الفاطمى ٠ وقد لمسنا من كتابات مؤرخى مصر الاسلامية ، أن هذه الأحكام جميعها ، لم ينص عليها فى العهود ، التى منحت للمصريين عند الفتح ، اللهم الا ما يتعلق بالجزية ٠ وفيما عدا ذلك منحوا الأمان ـ كما ذكرنا ـ على أنفسهم وأموالهم ، وأملاكهم وأطفالهم وكنائسهم ٠ ولم يشترط عليهم فى هذه العهود شىء فى لباسهم ، أو بناء كنائسهم أو ركوبهم ، وغير ذلك من الالتزامات الاجتماعية والأدبية عليهم تجاه المسلمين ٠

بينما تشير بعض المصادر التاريخية الى أن عمر بن الخطاب كتب الى فاتح مصر عمرو بن العاص ، « أن يختم فى رقاب أهل

الذمة بالرصـــاص ، وأن يظهروا مناطقهم ، ويجزوا نواصيهم ، ويركبوا على الأكف عرضا ، ولا يضربوا الجزية الا على من جرت عليه المواسى ، ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ، ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين فى لباسهم » (١٤٨) ٠

ويمكن القول بصفة عامة ، ان هذه الشروط والأحكام ، لم يتحدث مؤرخو مصر الاسلامية عن تطبيقها على أهل الذمة فى مصر ، الا فى فترات محدودة ، تلك الفترات التى يتعصب فيها الخلفاء والحكام ، وفيها يتعرض الذميون لبعض المضايقات ٠

٢ ــ الاحتفالات الدينية والقومية

بعد دراستنا لأحكام أهل الذمة فى الاسلام ، وما لهم من حقوق ، وما عليهم من واجبات ، ندرس دورهم فى المجتمع المصرى ، والصور الاجتماعية لاحتفالاتهم الدينية بأعيادهم ، ومدى مشاركة أمراء مصر ، وسائر أفراد المجتمع وخاصة المسلمين منهم فى هذه الاحتفالات ٠

والواقع أن الأعياد تدل عند المسلمين على مقدار رقة المظهر الاسلامى الذى يحيط بالحياة العامة ، فقد كان المسلمون يحتفلون بجميع الأعياد النصرانيـــة طول العام ٠ وكان معظم هذه الأعياد النصرانية تتجلى فيها عادات أقدم من ذلك ، وان المواضع التى كان يحج اليها القبط فى مصر ، انما كان معظمها مقدسا عند الوثنيين من قبل ٠ ولم تكن أعياد القديسين التى كانت تعمل فى الأديرة الناشئة الا تجديدا لأعياد الآلهة القدماء ٠ ولم يرض الذين دخلوا فى الاســـلام بأن يحرموا من الاحتفال بهذه الأعياد ٠ فقد ترك المسلمون القبط يتصرفون فى أمورهم الدينية كيفما شاءوا ، بينما اشتركوا فى الجانب الاجتماعى المسلى من تلك الأعياد ٠ وكانت أعياد القديسين فى مختلف الأديرة ، أكثر الأعياد نصيبا من احتفال الناس (١٤٩) ٠

وقبل ان نخوض البحث فى الاحتفالات الدينية والقومية لأهل الذمة ، تجدر بنا الاشارة الى أن أهل الذمة فى مصر الاسلامية ، كانوا من المسيحيين واليهود • أما المسيحيون فكانوا من القبط اليعاقبة ، أصحاب المذهب المونوفيزيتى أو من الملكانيين أصحاب المذهب الدوفيزيتى • ويمثل القبط اليعاقبة ، الأغلبية العظمى بين أهل الذمة فى مصر ، بينما كان الملكانيون أقلية ضئيلة وحتى عصر المقدسى ، كان القبط هم غالبية أهل الذمة فى مصر ، فنراه يقول عن اقليم مصر : « وعامة ذمته نصارى ، يقال لهم القبط ، ويهود قليل » (١٥٠) • وقد ظهرت فى مصر طائفتان أخريان من المسيحيين اليعاقبة وهما ، السريان من سكان بلاد الشام ، والأرمن من سكان أرمنيا • وأما اليهود ، فكان منهم الربانيون ، والقراءون •

دخل المسيحيون السريان ، الأراضى المصرية لأغراض شتى ، فمنهم من دخلها بغرض التجارة ، ومنهم من قدم الى مصر لزيارة كنائسها وأديرتها ، وتقديم القربان فيها ، وقد استقر المقام ببعضهم فى الأراضى المصرية ، واختلطوا بالقبط اخوانهم فى المذهب الدينى • ولم يأنف قبط مصر من اختيار بعض بطاركتهم من هؤلاء السريان المتفقين معهم فى المذهب المونوفيزيتى ومن أبرز هؤلاء البطاركة ، الأب سيمون ، الذى تذكر الرواية القبطية عنه ، أنه كان من أهل المشرق ، وقد قدم به أبواه الى الاسكندرية ، حيث قدماه قربانا للكنيسة • وعاش سيمون بدير الزجاج ، حيث أقامه البطرك أنبا أغاثو ، قسيسا ، وكان يأتى بعد الأب يوحنا فى المرتبة فى هذا الدير • وتولى البطريركية ، فى ولاية الأمير الأموى عبد العزيز ابن مروان على مصر • وقد تعجب هذا الأمير ، من اختيار الأساقفة والكهنة والشعب القبطى لسيمون السريانى ، ليكون بطركا لهم (١٥١) •

وتكرر هذا الحدث مرة أخرى فى عصر الخلافة الفاطمية ، فقد استقر رأى اكليروس الكنيسة القبطية ، وشعبها على اختيار أنبا افراهام السريانى ، ليكون بطركا لهم • وكان ناجرا ويسمى ابراهيم ابن زرعة ، واشتهر بتصدقه على الفقراء والمساكين والضعفاء من القبط • كما كان على علاقة طيبة بالخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، وكبار رجال دولته • فكان يحمل اليهم أجود البضائع والأمتعة ، كما كان هذا التاجر السريانى يحظى أيضـــا ، بحب كبار رجال القبط ، واكرامهم له • وبعد وفاة البطرك الأب مينا ، رأى الأساقفة والكهنة وكبـار القبط ، صـــلاحية هذا التاجر السريانى ليتولى البطركية ، ونجحوا فى تنصيبه ، وتصدق بجميع أمواله ، وأصلح أمور القبط ، وأبطل الشرطونية التى كان يأخذها البطاركة ، مقابل منح الرتب الكهنوتية • وعظم شأن هذا البطرك وارتفع قدره عند الخليفة ، الذى طلب منه سكنى مصر ــ أى الفسطاط ــ ليكون قريبا منه (١٥٢) •

ودخل مصر ، بعض التجار السريان ، قادمين من تكريت ، فى عهد الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله ، وقد قرب الخليفة اليه ، أحد هؤلاء ويسمى طيب بن يوسف ، وكان يحمل كثيرا من بضائع الهند واليمن ، فقدم للخليفة أجود هذه البضائع وأفخرها ، وأحسن اليه الخليفة اذ أعجبه كلامه وحسن منطقه ، وطلب منه الاقامة فى مصر ، وأنعم عليه ومنحه بعض الضياع ، وترك له الحرية الكاملة فى ممارسة نشاطه التجارى ، واستمر هذا الشيخ السريانى مقيما بالقاهرة ، حتى وفاة الخليفة الآمر ، فسكن بعض القرى المصرية ، وتزوج باحدى نساء القبط (١٥٣) •

وكان من الطبيعى أن يكون لهذه الطائفة أماكن خاصـــة بهم للعبادة والصلاة ، وخاصة من أراد منهم حياة الرهبنة • فكان من

الأديرة المشهورة فى وادى هبيب فى صحراء مصر الغربيه . دير السريان . وقد أقامه ، أحد التجار السريان القادمين من تكريت ، لينزل به الرهبان السريان (١٥٤) . وكان أول من أقام فى هذا الدير ، الراهبان متى وابراهام Mathew and Abraham وذلك فى بداية القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) وكانا أصلا من تكريت (١٥٥) . وهناك ما يدل على وجود الرهبان السريان فى وادى هبيب فى ذلك الوقت اذ يوجد بهذا الدير ، مخطوط سريانى يرجع تاريخه الى القرن التاسع الميلادى . وقد كتب فى أول هذا المخطوط العبارة التالية : « اترك كل من يقيم الصـلاة لاسحق ودانيل وشلمون ، الرهبان الطاهرين بوادى الأب يوحنا السريانى ، الذى منح هذا الكتاب ، وتسعة كتب أخرى لدير السريان فى صحراء غرب مصر ، فى بطركية الأب قزما ، بطرك الاسكندرية ٨٥١ ــ ٨٥٩ م ، والأب يوحنا بطرك انطاكيا ٨٤٦ ــ ٨٧٣ م . وفى حضور الراهب أنبا أديا Bar Idai رئيس الدير » (١٥٦) .

عظمت مكانة هذا الدير ، فى القرن الرابع الهجرى ، والقرن العاشر الميلادى وصار فى حوزة البطركية القبطية . فكتب البطرك القبطى الأب فيلوثاوس ، كتابا (سنوديقا) الى الأب أثناسيوس ، بطرك انطاكيا ، أشار فيه ، الى أن دير السريان فى وادى هبيب قد صار تحت سيطرة البطركية القبطية ، وحماية القبط (١٥٧) . وقد تزايد عدد الرهبان بهذا الدير على مر السنوات والأيام ، حتى صار لدير السريان ، المركز الثالث بين أديرة وادى هبيب الآهلة بالرهبان فى القرن الخامس الهجرى ، والحادى عشر الميلادى . ففى الاحصاء الذى قام به الشماس موهوب بن منصـــور بن مفرج الاسكندرانى ، لرهبان أديرة وادى هبيب ، بلغ عدد الرهبان فى دير السريان ستين راهبا (١٥٨) .

وكان لهؤلاء الرهبان السريان بعض العادات الخاصة بهم ، فقد جرت العادة بينهم ، بمنع الوافدين والزوار ، من دخول ديرهم هذا ، فى الايام السابقة لعيد الميلاد ، وعيد احياء ذكرى صوم جمعة هرقل ، وأيضا قبل الصوم الكبير وعيد العنصرة (الخماسين) وأيضا فى الأيام السابقة للاحتفال بعيد السيدة العذراء (١٥٩) ٠

واشتهر من الرهبان السريان فى هذا الدير ، فى القرن السادس الهجرى ، والثانى عشر الميلادى ، القديس الأب أبو يوسف الذى اشتهر ببركته ، وعلمه بالغيب (١٦٠) ٠ وكان القبط يؤمنون بأن لبعض رهبانهم وبطاركتهم بركة خاصة ، وان لهم بعض المعجزات وسنشير الى ذلك فى الفصل التالى ، عند دراستنا لأخلاق القبط وعاداتهم ٠

ويبدو أنه كان هناك جماعة من السريان يسكنون القاهرة ، فى عهد الخليفة الفاطمى ، المستنصر بالله ، ووزيره أمير الجيوش بدر الجمالى ، وأنهم كانوا يقيمون فى حى الحسينية بظاهر القاهرة ، وهو المكان الذى خصصه الوزير أمير الجيوش لاقامة جماعة الأرمن العسكريين ٠ فطلب ، أمير الجيوش من جماعة السريان وكان رئيسهم آنذاك يسمى ابن الطويل — ترك هذا المكان حتى يكون مسكنا مقصورا على جماعة الأرمن ٠ فطلب ابن الطويل وقومه من السريان ، من أمير الجيوش ، اعطاءهم بعض كنائس دير الخندق ليقيموا فيها ، فأجابهم الى ذلك ٠ ويبدو من هذه الرواية ان ابن الطويل ، كان أسقفا لهؤلاء المسيحيين السريان المقيمين بالقاهرة (١٦١) ٠

أما جماعة الأرمن اليعاقبة ، فكانوا طائفة لها شأنها ، ومكانتها فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، ووزيره أمير الجيوش بدر الجمالى ٠ وكانوا يسكنون حى الحسينية بظاهر القاهرة ٠

ولا غرو ، فى أنهم كانوا يتمتعون بمكانة عظيمة لدى الوزير بدر الجمالى حتى انه اضطر جماعة السريان الى ترك هذا المكان ، وجعل مسكنه مقصورا على جماعة الأرمن . كما تشير بعض الروايات القبطية الى أنه أخذ بعض الكنائس ، من جماعة السريان وجعلهـا خاصـة بالأرمن (١٦٢) .

ولم تكن جماعة الأرمن المسيحيين فى مصر ، فى ذلك العصر ، مقصورة على الأرمن العسكريين، فحسب، بل قدم الى الأراضى المصرية فى ذلك العصر أيضـا ، بعض الأرمن الذين أرادوا الرهبنة فى الصحراء الغربية ، وعلى قمم الجبال ، واشتهر أمرهم بين المصريين اليعاقبة ، ونذكر من هؤلاء الراهب القديس ، الذى عرف باسم المناكيس وكان قدم الى مصر من أرمنيا ، فى عهد الخليفة المستنصر ، ودخل وادى هبيب ، واتصل برهبان دير أبى مقار ثم قدم الى الاسـكندرية ، حيث آمن البعض بمعجزاته ، وذاع صـيته بين القبط (١٦٣) .

وقدم الى مصر فى ذلك العصر أيضا، بطرك الأرمن أغريفوريس وقد أحسن أمير الجيوش لقاءه ، ورحب به وأكرم وفادته ، وأنزله كنيسة السيدة مريم عند القنطرة ـ بين القاهرة ومصر ـ فسكنها ، واجتمع بالبطرك القبطى أنبا كيرلص الذى رحب به وأكرمه (١٦٤) . وهكذا توثقت العلاقة بين القبط والأرمن ، وكلهم من أصـحاب المذهب اليعقوبى . وعليه يقول المؤرخ القبطى ساويرس (١٦٥) : « واشتهر عند جميع الناس ، صحة اجتماع القبط والأرمن والسريان والحبشة والنوبة على الأمانة المستقيمة الصحيحة التى اتفق عليها الآباء القديسون الفضلاء وخالفها نسطور ولاون، ومجمع خلقدونية» .

شارك البطرك أغريفوريس القبط فى أحزانهم وأفراحهم . فنراه يشارك فى جنائزهم وخاصة جنائز الأساقفة منهم ، فلما

توفى انبا سنهوت أسقف مصر . حضر هذا البطرك الأرمنى لتجنيزه والصلاة عليه ، وسار فى جنازته بصحبة القبط والأساقفة والكهنة (١٦٦) . كما شارك البطرك أغريفوريس فى تعيين الأساقفة الجدد . ذلك أنه لما خلا كرسى أسقفية مصر بعد وفاة هذا الأسقف ، رغب كبار القبط ، فى اقامة الراهب يونس بن سنهوت ، أسقفا على كرسى مصر وكتبوا الى بطركهم أنبا مقارة بذلك ، فوافق ، على أن ينوب عنه البطرك أغريفوريس ، فى اختبار أمانة هذا الراهب ،والكشف عن حاله وعمله ، فان وجده صالحا لذلك أقامه أسقفا . فلما علم بذلك أنبا أغريفوريس ، أرسل الى الراهب يستدعيه الى مصر ، وأقام عنده اياما فوجده « كما يجب فى كل ما يحتاج اليه منه » وأمر بتعيينه أسقفا لمصر (١٦٧) .

والى جانب هذا الدور الذى لعبه جماعة الأرمن المسيحيين فى الكنيسة المصرية ، قاموا أيضا بدور له أهمية فى تاريخ مصر السياسى، فعظم شأنهم ، وتقلدوا أعلى المناصب فى الدولة ، وخاصة فى عهد الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله ، الذى استوزر أحد الأرمن وهو بهرام فى سنة ٥٢٩ هـ . فخدم أحوانه القبط والأرمن على حد سواء ، واستخدم منهم النظار والمشرفين ، وحكام الأقاليم وكتاب الدواوين (١٦٨) .

وتشير بعض المصادر التاريخية الى أن الوزير بهرام الأرمنى، سيطر على كل الأمور فى مصر ، فاستدعى أسرته وأهله من أرمنيا ، حتى بلغ عدد الأرمن فى البلاد المصرية ثلاثين ألفا ، وقاموا ببناء عدد كبير من الكنائس (١٦٩) . فلما انتهى أمر بهرام وزالت عنه الوزارة فى سنة ٥٣١ هـ ، لجأ الى الدير الأبيض بمصر العليا ، حيث فضل حياة الرهبنة على الحياة العلمانية . ثم استدعاه رضوان بن لخشى

أهل الذمة ج ١ ــ ٣٣٧

ـ بناء على رغبة الخليفة ـ الى القاهرة حيث أقام بها الى وفاته (١٧٠) .

وانتشر الأرمن فى ذلك العصر فى كل أرجاء مصر ، وكان لهم فى القاهرة بوابة تعرف باسمهم « باب الأرمن » وبلغ عدد أديرتهم وكنائسهم خمسة وثلاثين على وجه التقريب (١٧١) . ونذكر من هذه الكنائس والأديرة ، كنيسة مار جرجس ، بناحية طرا ، على ساحل البحر الأحمر التى أقطعها أمير الجيوش ، لهم عندما وصل بطركهم أغريغوريس الى مصر ، فهدمها الأرمن ، وأقاموا مكانها كنيسة كبيرة ، وجعلوا لها عدة قباب ، وكرزت باسم مار جرجس ، وجعلوا فى أعلى هذه الكنيسة جوسقا بابه من الداخل . وأقاموا حول الكنيسة حصنا دائرا ، كما جعلوا فيها بئرا ، وساقية ، وطاحونا وأنشأوا لها بستانا كبيرا (١٧٢) .

ومن كنائس الأرمن بمصر أيضا كنيسة مارى يعقوب بناحية البساتين . وكانت مزينة بالأقباء ، والعقود ، والأبواب الكبار ، كما كانت تتوسط الرياض والمزروعات . ومن ثم صارت من أحسن وأجمل المتنزهات فى مصر ، فلما دخل الغز الأكراد ، وأنصار نور الدين زنكى مصر ، فى عهد الخليفة العاضد ، آخر الخلفاء الفاطميين فى سنة ٥٦٤ هـ ، أخذوا من الأرمن هذه الكنيسة ، وجعلوا للأرمن كنيسة يوحنا المعمدان بحارة زويلة ، حيث سكنها البطرك الأرمنى (١٧٣) .

ولم نجد فى المصادر التاريخية المختلفة ما يشير الى أن الحكومة فى مصر الاسلامية ـ طوال العصر الذى نحن بصدد البحث والدراسة فيه من الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى ـ قد ألزمت القبط وغيرهم من المسيحيين بسكنى مدن أو أحياء معينة ،

بل نجدهم ينتشرون فى مختلف المدن المصرية ، فى الوجهين البحرى والقبلى • وبالرغم من ذلك ، فاننا نجد أن بعض المدن كانت أغلبية سكانها من القبط ، ومن أمثلة ذلك ، مدينـة تنيس التى بلغ عدد المسيحيين بها فى عهد الخليفة المأمون فى بداية القرن الثـالث الهجرى ، ثلاثين ألفا يدفعون الجزية (١٧٤) • ونستنتج من ذلك أن هذا العدد يضم الرجال البالغين القادرين على أداء الجزية ، دون النساء والأطفال والشيوخ والعجزة وغيرهم ممن أعفوا من دفـع الجزيـة •

أما مدينة القيس ، فكان يسكنها اثنا عشر ألفا من القبط ، وكان لهم بها أربع وعشرون كنيسة وديرا • وتشير بعض المصادر الى أن هؤلاء القبط فى كل عيـد من أعيـاد القديس ميخائيل ، يذبحون اثنى عشر ألف خروف ، ثم اقتصر هذا العدد على أربعمائة واستمروا على ذلك حتى سـقوط الدولة الفاطمية فى سـنة ٥٦٩ هـ (١٧٥) • وهناك بعض المدن التى كان كل سكانها من القبط ، ليس بينهم مسلم أو يهودى فى عصر الولاة الأمويين ، واستمرت كذلك حتى عهد آخر الخلفاء الأمويين ، حينما أرسـل مروان بن محمد بعض قواده ، فقتـل كثيرا من القبط وخـرب كنائسهم (١٧٦) •

ومن هذه المدن أيضا مدينة دميرة • وتقول الرواية القبطية ان « كل من يسكن بها نصرانى » وقد سكنها البطرك أنبا قزما وهو الرابع والخمسون من بطاركتهم (١٧٧) كما كان يكثر سكنى القبط ، بالصعيد ، وكانت توجد بعض القرى التى لا يسـكنها سواهم ، ومنها قرية ادرنكة ، التى اشتهر أهلها بالعلم والتعمق فى العلوم الدينية ، وباتقانهم اللغة القبطية (١٧٨) •

والآن نتساءل ، هل كان يوجد بين القبط ، رؤساء دينيون يمثلونهم ، ويراعون شئونهم ؟ وهل كانت لهم دور عبادة خاصة بهم دون سواهـم ؟

كان من بين القبط من يتولى الوظائف الدينية الروحانية ، وتسمى عندهم بالرتب أو الدرجات الكهنوتية ، وهي أحد أسرار الكنيسة السبعة (١٧٩) • وهذه الدرجات هي : البطرك ، والمطران، والأسقف ، والقمص ، والقسيس ، والأرش دياقن رئيس الشمامسة والشماس ، والقارىء أو الانجيلي والراهب • ثم يأتي بعد ذلك جماعة الملحنين (المرنمين) أو المغنين (Rubrios) وقندلقت الكنيسة الكنيسة أو بوابها Orsacristan (١٨٠) •

أما البطرك أو (البطريرك) فهو رئيس الكنيسة والشعب القبطي عامة ، أو بعبارة أخرى هو صاحب المذهب ، والقائم بأمور دين المسيحيين (١٨١) • وكان مقر اقامته بالاسكندرية ثم أصبح يقيم في العاصمة الاسلامية ، وخاصة في حالات الاضطراب ، اذ كان يقيم في الكنيسة المعلقة أو كنيسة أبي سرجة أو كنيسة أبي سيفين (١٨٢) • وتشير الرواية القبطية الى أنه لم يكن أحد من البطاركة ، مقيما بالاسكندرية منذ عهد البطرك أنبا خايال الذى باع أملاك بعض الكنائس ورباعها (١٨٣) • وكان ذلك في عهد الأمير أحمد بن طولون ، الذى ألزم هذا البطرك بدفع غرامة مالية ، قدرها عشرون ألف دينار ، ولم يكن لديه ما يدفع منه هـذا المبـلغ ، مما اضطره الى بيع بعض الكنائس وأملاكها لليهود وأيضا اضطر الى بيع الرتب الكهنوتية لمن أرادها ، كما ذكرنا في الفصل الثالث من الباب الأول • وهكذا لم يعد البطرك منذ ذلك الوقت ، يستطيع الاقامة في الاسكندرية •

ويشترك فى اختيار البطرك وتعيينه ، كل من الأساقفة والكهنة ، أو ما يعبر عنه بأكليروس الكنيسة ، كما كان يختاره كبار رجال القبط والشعب أيضا • ويشترط فى البطرك أن يكون بتولا غير متزوج (١٨٤) وأن يكون من بين الرهبان ، ولا يتجاوز سنه الخمسين عاما وأن يكون عالما ، طاهرا (١٨٥) • ويشير ساويرس (١٨٦) الى أنه عندما اجتمع الأساقفة والكهنة وكبار القبط لاقامة بطرك لهم بعد وفاة الأب كيرلس ، قالوا : « ما نقدم علينا الا من نعرف غزارة علمه ، ونزاهة نفسه وطهارته ، ونسكه ، واستقامة أمانته » •

وكثيرا ما كان البطرك يوصى قبل وفاته بمن يتولى البطركية من بعده • وكان أكليروس الكنيسة شديد الحرص على تنفيذ وصية بطركهم ، كما كان يحرص على ذلك فى بعض الأحيان ولاة مصر المسلمون ، الذين كانت موافقتهم على اقامة البطرك ضرورية لاتمام تعيينه بطركا •

ونذكر من الأمثلة على ذلك أن البطرك يوحنا – فى امارة عبد العزيز بن مروان – كان قد أوصى فى حياته ، بأن يكون الراهب اسحق خلفا له • وكان اسحق راهبا بأديرة وادى هبيب ، عالما ، حاذقا ، ملما بالكتب الدينية والانجيل ، وما جاء فيه ، ويحسن الكتابة ويجيد النسخ ، وقد أحضره يوحنا فى حياته ، وأشركه فى جميع أعماله حتى توفى (١٨٧) •

ثم اجتمع الأساقفة والكهنة واتفقوا على اقامة آخر غير اسحق الموصى به بطركا • لكن أمرهم ما لبث أن انكشف ، ورفض الأمير عبد العزيز ، اقامة بطرك غير اسحق ، الذى قد أوصى به البطرك

السابق يوحنا (١٨٨) • وقد جرت العادة بأن يكون اتمام تنصيب البطرك في يوم الأحد (١٨٩) •

واتبع القبط ، طريقة التقريع فى اختيار البطرك ، فى بعض الأحيان ، وخاصة فى العصر الفاطمى • وتذكر الرواية القبطية أن بعض الوزراء المسلمين ، قد أشاروا على القبط باتباع هذه الطريقة، وهو الوزير ، على بن أحمد فى خلافة الظـــاهر لاعزاز دين الله الفاطمى • وهذه الطريقة تتضمن اختيار مائة راهب من الديارات ، ثم يقدم من هؤلاء خمسون ، ومن الخمسين يختار الحاضرون خمسة وعشرين ، ثم يختارون من هؤلاء عشرة ، وأخيرا يختار القوم من هؤلاء ثلاثة رهبان ، ثم تكتب أسماؤهم فى رقاع الثلاث ، وفى رقعة رابعة يكتب اسم الرب • وتشمع هذه الرقاع وتوضع على الهيكل حتى تقام عليها الصلاة والقداس • ثم يأتون بطفــل صغير ليس عليه خطية ، فيأخذ واحدة من هذه الرقاع الأربــع ، فان كانت تحمل اسم أحد الرهبان الثلاثة ، أوسموه بطركا وان كان فيها اسم الرب ، فمعنى ذلك أنه ليس من بين هؤلاء الثلاثة من يصلح للبطركية • وعليهم آنذاك اختيار ثلاثة آخرين من الرهبان ، وهكذا حتى يتم اختيار البطرك (١٩٠) •

ويتضـــح من الروايات التاريخية أن البطرك ، كان يختاره الأساقفة والكهنة والشعب القبطى عادة • ولا يكون هو الذى يسعى الى البطركية ، مما يحول دون تنصيبه بطركا لمخالفة ذلك لقانون الكنيسة القبطية • نذكر من الأمثلة على ذلك الراهب يونس بن كدران الذى تطلع الى البطركية بعد وفاة البطرك غبريال بن تريك ، الا أن مساعيه قد باءت بالفشل • ولكنه جدد مساعيه مرة أخرى بعد وفاة البطرك أنبا ميخائيل ، واستعان بالخليفــة فى ســـبيل وصوله الى كرسى البطركية • وقد أمر الخليفة بعقد مجلس من

الأســـاقفة وخواص الدولة للنظر فى الأمر • وقد رفض الكهنة والأساقفة بشدة تنصيبه بطركا • وقالوا : انهم لا يقيمون بطركا الا الشخص الذى يختاورونه هم بأنفسهم ، ويرغبون فيه ولا يكون طامعا فى البطركية • وقد أقاموا يونس بن أبى الفتح بطركا لهم باسم يوحنا ، وذلك فى عهد الخليفة الفاطمى الحافظ (١٩١) •

وكان البطرك بعد اختياره ، يأتى به الكهنة من الدير الذى يقيم فيه الى الكنيسة التى يتم فيها تنصيبه بطركا ، مقيـدا بالحديد (١٩٢) • ولعل ذلك لامتناع الكثير عن تولى هذا المنصب الدينى الخطير ، وتفضيلهم حياة النسك والعبادة ، والتفرغ للعلم على هذه المسئولية الكبيرة •

وكان القبط ، يحتفلون بتنصيب بطركهم ، احتفـالا دينيـا عظيما • ونذكر من أمثلة هذه الاحتفالات ، الاحتفال بتعيين البطرك اسحق – فى ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر – فقـد نظم القبط موكبا رائعا، يتوسطه البطرك اسحق، وساروا به من بابليون الى الاسـكندرية مقر البطركيـة المرقسية ، حيث انضمت جموع القبط المؤمنين الى هذا الموكب • وكان يتقـدم الموكب الكهنـة ، يحملون مجامر البخور ، بينما يرفع الشمامسة الصلبان عليه ، ويتبع هؤلاء جمهور الشعب حاملين الشموع الموقدة • وأخذ الجميع يترنمون بالمزامير والتسابيح الى أن وصلوا الى كنيسة مار مرقص حيث أقيم الاحتفال برســامته ، وأصــبح البطرك الحـادى والأربعين (١٩٣) •

وكان البطرك هو الذى يضـع القوانين الكنسـية (١٩٤) • وكان يخاطب ببعض ألقاب التشريف والتكريم • فمثلا يقال له : « البطرك الجليل ، القديس ، الخاشع ، قدوة النصرانية » (١٩٥) •

وقد ذكرنا من قبل — فى البـاب الأول — أن موافقة أمراء مصر وخلفائها ، على البطرك الجديد ، كان أمرا ضروريا لاتمام مراسيم تعيينه • ومن كان يكتب له توقيع أو سجل ، يتضمن موافقة والى مصر أو خليفتها على اقامته بطركا ، ويوصـيه فيه باتباع العدل والانصاف بين رعيته من القبط ومراعاة أمور الكنائس والأساقفة والقسس والرهبان وأديرتهم ، ولا يعترض عليه أحد فى شىء (١٩٦) • وسـنذكر نص توقيع للبطرك ، ووصـية له ، ضمن الملاحق فى نهاية الرسالة •

يلى البطرك فى الدرجات الكهنوتية ، المطران ويسمى أيضا كبير الأساقفة (١٩٧) وكان هذا الاسم فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، يطلق على البطرك (١٩٨) • وتشير بعض المصادر المصرية الى أن بطرك القبط اليعاقبة ، كان يقال له عند الفتح العربى كبير الأساقفة (١٩٩) • ثم صار المطران أو كبير الأساقفة له السلطات القضائية فى الاقليم ، وهو الذى يفصل فى الخصومات بين القبط ، وينظر فى شكواهم (٢٠٠) • وكان على رأس كل عشرة أساقفـة مطران ، يكون له السلطة القضائية عليهم ، واذا توفى أحد هؤلاء الأساقفة ، كان له حق تنصيب آخر مكانه (٢٠١) • وكان البطرك رئيسـا لكل المطارنة فى مصر ، ويوجد أربعـة مراكز للمطارنة ، الاسكندرية والمنوفية وأورشليم والحبشة ، وكلها تحت رئاسة البطرك القبطى ، الذى يختارهـم بنفسـه ، ويرأس احتفـالات تنصيبهم (٢٠٢) •

يأتى بعـد المطران ، الأسـقف ، وهو نـائب البطرك بالمدينة (٢٠٣) • ولا يشترط فيه ألا يكون متزوجا ، وانما يكون متزوجا من زوجة واحدة ، كما يجب أن يكون وقت اختياره أسقفا

عزباً (٢٠٤) • ويختاره رجال الكنيســة والعلمانيون ، ويقيمه البطرك أسقفا ويباركه (٢٠٥) •

وكان من عادة القبط الاحتفال بتنصيب أسقف مصر ، وذلك بأن يسير الأسقف الجديد في موكب حافل من المكان الذى يوجد فيه الى أن يصل الى الكنيســة التى يقــدس له فيها • نذكر من الأمثلة على ذلك ، ما حدث عندما أقيم الراهب يونس بن سنهوت ، أسقفا على مصر ، فى بطركية الأب مقارة ، وفى عهد الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله ، ووزارة الأفضل بن أمير الجيوش • فقد أبلغ الكهنة وكبار القبط والموظفون منهم ، متولى المعونة فى مصر ، أنه قد أقيم لهم أسقف جديد، عوضا عن الأسقف المتوفى أنبا سنهوت ، وأنهم يريدون أن يسيروا به فى موكب من حيث هو ، الى كنيسة أبى سرجة بقصر الشمع ــ كما جرت العادة ــ ويبدو انهم كانوا يخشون تعرض عامة المسلمين لهم فى الطرقات • وقد أرسل لهم الوالى نائبا وجماعة من العسكر ؛ ليحققوا لهم الأمن والهدوء • وركب الأسقف بغلة عاليــة من دواب بعض أصحاب الدواوين ، وســار فى موكب حافــل بالقراءة ، وبين يديه الشموع الموقدة ، والأناجيل ومجامر البخور حتى وصل الموكب كنيسة أبى سرجة ، حيث قدس وقرئ تقليد الأسقفية عليه • كما أعيد له هذا الموكب فى يوم الأحد التالى عند خروجه الى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة ليقدس فيها أيضا (٢٠٦) • وكان للأسقف الحق فى تعيين القسس والشمامسة وغيرهــم من الرتب الكهنوتية داخل دائرة أسقفيتهم (٢٠٧) •

أما القمص Gommos, Kummus فيكون من بين القسس ، ويوجد فى الكنيسة والدير على حد سواء • ويكون القمص فى الكنيسة

رئيسا للكهنة بها ، ويخضع له القسس والشمامسة · بينما القمص فى الدير ، يكون أب الدير ، أو بمعنى آخر رئيسه (٢٠٨) ·

ويشترط في القسيس أن يكون على أخلاق حميدة ، خاليا من العيوب الجسمانية ، ولا يتجاوز عمره ثلاثا وثلاثين سنة (٢٠٩) · ويجوز له الاستمرار مع زوجته الى حين وفاتها ، ولا يجوز له اتخاذ زوجة ثانية (٢١٠) · ويشترط أن يكون شماسا قبل تعيينه قسيسا، فان لم يكن كذلك فعليه أن يقوم بأعمال القارىء والشماس فى الأيام السابقة لتعيينه قسيسا (٢١١) · ويكون القسيس من بين الصناع والخياطين والنساج وغيرهم ، من أصحاب الأعمال اليدوية · ولا يشترط فيه أن يكون عالما ، حاذقا · ويجب أن يكون على علم باللغتين العربية والقبطية ، حتى يتمكن من اعلان القداس وقراءة الصلاة فكتب القبط الدينية ، تحتوى على ترجمة عربية الى جانب النص القبطى · ويباشر بعض القسس أعمالهم القديمة ، بينما يختص آخرون بتعليم الأطفال القراءة بالعربية والقبطية ، وتعليمهم الديانة المسيحية وان كان لا يمكنهم أن يصلوا الى درجة الوعظ بين القبط (٢١٢) · ويقول القلقشندى (٢١٣) ، ان القسيس هو القارىء الذى يقرأ عليهم الانجيل والمزامير وغيرها ·

ومن الدرجات الكهنوتية التالية لذلك ، الأرش دياقن Archdeacon وواجباته واسعة ، ويكون عادة مسئولا عن النظام فى خدمة الكنيسة · كذلك يكون من مهماته الاشراف على أملاك الكنائس ، وهو رئيس الشمامسة فى نطاق عمله · وعليه أيضا مساعدة الأسقف فى أعماله · وهو الذى يسمح لوكلاء الكنائس بالدخول الى كنيسته (٢١٤) ·

ويبدو أن كل مدينة كان لها أرش دياقن واحد ، من واجبه الحرص على مراعاة التقاليد والعادات والقوانين الكنسية ، ويكون له شأن وأهمية فى تقديم القداس · يدلنا على ذلك ، ما حدث ، بعد وفاة البطرك يوحنا — فى امارة عبد العزيز بن مروان على مصر — حينما أراد الأساقفة والكهنة ، فى الاسكندرية ، تقديم الشماس جرجة بطركا لهم فى يوم دون يوم الأحد من أيام الأسبوع، فمنعهم من ذلك أرش دياقن المدينة ويسمى مرقص وقال لهم : « ان لم تجيئوا يوم الأحد وعلى ما جرت به العادة فى القوانين ، وتجتمع جميع أهل المدينة ، والا لما أوسمه » (٢١٥) ·

أما الشمامسة فأعدادهم كثيرة (Schamas, diacres, deacons) ويكونون فى الغالب ، صغار السن ، ويستخدمون فى خدمة الكنيسة ، ومساعدتهم ضرورية أثناء القيام بالقداس (٢١٦) · ويقول القلقشندى (٢١٧) : ان الشماس هو قيم الكنيسة كما يذكر من بين الوظائف الدينية فى الكنيسة ، صاحب الصلاة ، ويسميه الجاثليق ، ويشترط فى الجاثليق أن يكون طويل القامة ، جهير الصوت ، جيد الخلق ، وافر اللحية وعظيمها ، وأن يكون أيضا زاهدا فى الرياسة (٢١٨) ·

يأتى بعد ذلك الراهب ، وهو الذى « حبس نفسه على العبادة فى الخلوة » (٢١٩) · ولا يبغى شيئا من متاع الدنيا ، وأملاكها · ويحيا حياة هادئة ، خالية من المسئوليات ، ومشاغل الحياة · والرهبانية يقصد بها ، طريقة المعيشة المنعزلة عن الناس فى خلوة فردية تامة ، بغرض التفرغ للعبادة (٢٢٠) · ولا يشترط فى الراهب أن يكون بتوليا ، غير متزوج اطلاقا ، اذ يقبل فى الرهبنة المتزوجون ، الذين تركوا زوجاتهم نهائيا ، عند طلبهم لرتبة الرهبنة ، ولا يشترط للراهب سن معينة (٢٢١) ·

يعيش الراهب ، حياة قاسية ، صارمة ، يقتات البقول ، كالفول والعدس ، الى جانب الأسماك • ولا يمكنه تناول شيء من اللحوم فى طعامه الا فى أيام الأعياد • أما حياته اليومية فتشير بعض الروايات الى أن الراهب يذهب ثلاث مرات ـ فى أثناء اليوم الواحد ـ الى الكنيسة لقراءة المزامير • أما بقية اليوم ، فيقضيه الراهب فى دراسة كتب الطقوس الدينية وتفسيرها (٢٢٢) • وكما يقبل كثير من رجال القبط على حياة الرهبنة كذلك نجد بعض النساء يرغبن فى الرهبنة ، وحياة النسك والعبادة ، وكان لكل من الرهبان والراهبات أماكن خاصة بهم (٢٢٣) •

ومساكن الرهبان نوعان : الأول القلالى ، ومفردها قلاية ، وهى عبارة عن مغاير منفردة للمتوحدين ، المنعزلين بعيدا عن السكن (٢٢٤) • والقلاية تعد أصلا ، ليسكنها راهب واحد • ويقوم الرهبان أنفسهم بحفر القلاية فى الصحراء ، ومغاير الجبال • أو بنائها من الطوب (٢٢٥) • أما النوع الثانى من المساكن التى يقيم فيها الرهبان للتعبد والنسك ، فهى الأديرة ، ويقال لها : كينوبيون ، وهى كلمة يونانية ، معناها المعيشة المشتركة (٢٢٦) •

وقد تعددت الأديرة فى جميع أنحاء البلاد المصرية • واشتهر من بين هذه الأديرة فى مصر الاسلامية أديرة وادى هبيب (٢٢٧) • ونجد له أسماء كثيرة منها وادى النطرون ، وبرية شيهات ، وهى التسمية القبطية لهذه المنطقة ، ومعناها ميزان القلوب ، لأنه مكان عبادة ونسك واصلاح السيرة والسريرة ، كما سميت هذه المنطقة باسم الاسقيط أى الناسك أو النساك أو محل النسك (٢٢٨) •

وكان يوجد فى هذا الوادى عدد كبير من الأديرة ، الا أنها خربت عند غزو الفرس لمصر فى عصر الرومان ، ولم يبق منها

الا سبعة أديرة فقط • وتشير الرواية التاريخية الى أنه بعد أن تم لعمرو بن العاص فتح مصر ، وزال الحكم البيزنطى ، خرج الرهبان من هذه الأديرة ، وعددهم سبعون ألفا ، لمقابلة عمرو بن العاص ، وعقد الأمان معه ، فسلموا عليه ، وكتب لهم كتابا حفظوه عندهم (٢٢٩) • وهذا الكتاب بدون شك ، كان يتضمن التعهد بسلامتهم وأمانتهم ، وحريتهم الدينية •

وكانت هذه الأديرة محل عناية واهتمام البطاركة طوال تاريخ مصر الاسلامية ، يضعون لها القوانين ـ كما فعل البطرك بنيامين ـ ويعنون بتعمير الأديرة فيها وتنظيمها ، وتحقيق الأمن والسلام لرهبانها • ونذكر من الأمثلة التى تدل على مدى اهتمام البطاركة بهذه الأديرة وعنايتهم بها ما حدث فى بطركية أنبا شنودة ، فى القرن الثالث الهجرى (٨٥٩ ـ ٨٨١م) فقد تعرضت أديرة وادى هبيب لغارات جماعة الأعراب فى صحراء مصر الغربية • ولما علم هؤلاء ، بعزم البطرك على الذهاب الى هذه الأديرة لقضاء أيام الصوم المقدس ، وعيد الفصح ، بادروا الى دير أبى مقار واستولوا على جميع ما كان فيه ، كما تعرضوا أيضا لبعض الأديرة الأخرى فى هذه المنطقة ، وكان هؤلاء الأعراب ينتهزون فرصة خروج الرهبان من قلاليهم وأديرتهم فينقضون عليهم ، ويجردونهم مما معهم حتى ملابسهم • وحاول القبط منع البطرك شنودة من الذهاب الى وادى هبيب خوفا عليه من هؤلاء الأعراب ، ولكنه أصر على تحقيق ما جرت به العادة ، وذهب الى هذه البرية ، وقوى الرهبان بها وخرج يتقدمهم لمواجهة هؤلاء الأعراب ، الذين لاذوا بالفرار من وجه البطرك شنودة ، فقضى هذا البطرك أيامه فى أديرة وادى هبيب فى هدوء وسلام • وقام بالقداس بها (٢٣٠) •

اهتم البطرك شنودة بعد ذلك ، بترميم وتعمير دير القديس أبى مقار ، وأحاطه بسور منيع ، لحماية الرهبان من أى أذى

أو خطر قد يهددهم (٢٣١) . وتقول الرواية القبطية : « ومن كثرة اهتمامه بالبرية المقدسة ، أقام فى بيعة أبى مقار تذكارا جيدا ، وهو أنه لما ذكر فعل الرب بالرهبان والبيعة ، عول على بناء سور حصين على البيعة » وتشير هذه الرواية أيضا الى أنه جمع الأحجار ، وشارك فى عملية البناء بنفسه (٢٣٢) . وقد اتخذ بعض البطاركة أديرة وادى هبيب مقرا لهم بدلا من الاسكندرية التى لم يعد أحد يقيم فيها منذ عهد البطرك أنبا خايال — فى عهد الأمير احمد ابن طولون — ومن هؤلاء البطاركة ، أنبا غبريال (٢٣٣) .

كان من عادة البطاركة القبط بعد اختيارهم أن يقيموا القداس فى الاسكندرية ومصر ودير أبى مقار . فلما تم اختيار أنبا مقار بطركا ، فى عهد الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله ووزارة الأفضل بن أمير الجيوش ، أقام القداس فى الاسكندرية ثم قدم الى مصر لاقامة القداس فيها . فاعترض على ذلك جماعة من الرهبان الذين حضروا الاحتفال والقداس فى الاسكندرية ، وقالوا : ان ذلك مخالف للعادة ، التى تقضى باقامة القداس فى دير أبى مقار فى وادى هبيب بعد اقامته فى الاسكندرية ، واضطر البطرك الى تأجيل القداس فى مصر ، وذهب الى دير أبى مقار ، وأقام به القداس ، ثم عاد الى مصر حيث أقام القداس فى الكنيسة المعلقة (٢٣٤) .

وبلغ عدد الرهبان فى أديرة وادى هبيب فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله وبطركية أنبا كيرلص ، سبعمائة راهب . كان منهم فى دير أبى مقار أربعمائة ، وفى دير أنبا يوحنا مائة وستون راهبا ، ودير لبوكا كان به خمسة وعشرون راهبا ، ودير البراموسى ، عشرون ، ودير أنبا بشاى أربعون ، ودير السريان ، ستون ، أما دير أنبا موسى ، فكان لا يوجد به فى ذلك الوقت سوى راهبين احدهما سريانى الأصل ، والثانى قبطى ، وذلك سوى

الزائرين والسياح . وكان هذا الاحصاء في سنة ٤٨٠ هـ = ٨٠٤ م (٢٣٥) .

كانت الأديرة منتشرة فى جميع أرجاء مصر . وكان أكثر هذه الأديرة خاصا بالرهبان بينما يوجد عدد قليل منها خاص بالراهبات . ومن الأديرة الخاصة بالراهبات دير الراهبات بحارة زويلة ، ودير البنات بحارة الروم ، ودير المعلقة بمصر ودير بربارة (٢٣٦) وقد تعددت كتابات المؤرخين عن الأديرة فى مصر عامة . ونستخلص منها ، أن هذه الأديرة ، كانت كثيرة القلالى يحرص الرهبان على تزيينها بالقناديل والصلبان الذهب ، كما انه كان يلحق بها البساتين والطواحين والسواقى . كما كان كثير من هذه الأديرة متنزها ، ومكانا لأهل اللهو والخلاعة حيث يكثر بها الشراب . وقد شارك المسلمون القبط فى اتخاذ كثير من هذه الأديرة متنزهات لهم ، ومكانا لاشباع هواياتهم فى صيد الطيور أو الأسماك . كما اهتم كثير من الأمراء والخلفاء ، بعمارة الأديرة وتزويدها بالبساتين الآهلة بالأشجار المتنوعة ، وأيضا اطلاق وقف لها من الأراضى الزراعية . وتغنى بعض الشعراء بهذه الأديرة ، وما يدور بداخلها من الشراب واللهو (٢٣٧) .

وهل كان شأن الكنائس هو شأن الأديرة فى مصر الاسلامية ؟ فى الواقع أن الكنيسة كانت تختلف عن الدير ، من حيث الغرض الذى يؤديه كل منهما . فبينما كان الدير مسكنا للرهبان أو الراهبات ، نجد الكنيسة هى المكان الذى تجتمع فيه عامة القبط للصلاة وأداء الطقوس الدينية المختلفة (٢٣٨) .

وقد لمسنا من دراستنا لدور أهل الذمة فى تاريخ مصر السياسى ، ان الكنائس قد لقيت عناية كبيرة من القبط ورؤسائهم

المدينيين ، كما شاهدت تعميرا واسعا خلال العصور التاريخية المختلفة بتأييد من الحكومة نفسها ، وان الكنائس لم تتعرض لمحاولات التخريب والتدمير الا فى فترات محدودة ، وهى فترات الضيق التى تعرض لها القبط وقاسوا فيها بعض الشدائد ، كما ذكرنا من قبل .

تعددت كنائس القبط فى مصر ، وانتشرت فى جميع البلاد فى الوجهين البحرى والقبطى ونذكر من كنائس الفسطاط : كنيسة أبى سيفين، وكنيسة أنبا شنودة ، وكنيسة السيدة مريم ، وكنيسة مارى مينا ، وكنيسة أبى سرجة ، وكنيسة القديسة بربارة وغيرها (٢٣٩) كما تعددت الكنائس فى القاهرة فى حارات زويلة وحارات الروم (٢٤٠) . كذلك تعددت الكنائس فى صعيد مصر ، ونالت كثيرا من التعمير (٢٤١) .

ونذكر من أمثلة اهتمام البطاركة بالكنائس ، اهتمام البطرك أنبا شنودة الذى أخذ يتفقد شئون الكنائس بنفسه فى كل مكان. فبدأ بكنائس وأديرة صعيد مصر ، واتصل بالقبط هناك وزادهم من علومه ووصاياه ، ثم عاد الى الاسكندرية لبحث شئون كنائسها أيضا ، وبنى مكان القلاية البطركية ــ وتسمى باليونانية قسطوريون ــ موضعا يأوى اليه المساكين والضعفاء من القبط . كما حفر قناة لتصل اليهم المياه العذبة ، بدلا من المياه الملحة التى كانوا يشربونها . وحفر كثيرا من الآبار ، وعمل على توصيل هذه المياه أيضا الى ضواحى مدينة الاسكندرية وما يجاورها من الضياع والأقاليم (٢٤٢) .

بعد أن أشرنا الى جماعات اليعاقبة والوظائف الدينية بين القبط وأماكن عباداتهم من الأديرة والكنائس ، تجدر بنا الاشارة

الى ما يسميه القبط بأسرار الكنيســة السبعة Seven Canonical Sacriments وهى التعميــد ، والتثبيت ، والقـربان أو تقـديم القداس ، والعقوبة الدينيــة أو الاعتراف ، والرتب الكهنوتيــة ، والزيجة ، وأخيرا الميرون أو زيت المرضى ٠

أما التعميد والتثبيت ، فيتضمن تنصير الأطفال الجدد ، ولم يحدث أن خالف القبط هذه التقاليد ، أو تراجعوا عن القيام بها وطوال العصور التاريخيــة الاســلامية كما أن قوانين التعميد ، أو المعمودية لم تلغ اطلاقا ٠ ولا يجوز تعميد الأطفال فى أيام الصوم الكبير ، والأسبوع المقدس ، ولا فى عيد القيامة ٠ ويرى البعض أن التعميد لا يجـوز الا مرة واحـــدة فى الســـنة فى يوم الجمعة العظيمة (٢٤٣) ٠

وتشير الرواية القبطية الى أن البطرك أنبا خريسطودولس ـ فى عهد الخليفة المستنصر ـ كتب قانونا للكنيسة القبطية (فى ٨ مسرى ، سنة ٧٦٤ ش) ويتضمن هذا القانون ، ألا يعمد ذكر وأنثى فى معمودية واحدة ، وانه لا يجوز أن تتم المعمودية فى يوم الجمعة الكبير ، ولا فى أيام الخماسين ٠ واذا عمد الطفل ، فليصم الى أن يتقرب اذا قدر ، ولا يجوز معمودية بدون قربان (٢٤٤) ٠

أما القداس أو تقديم القربان ، فيقوم به البطرك أو الأسقف فى دائرة أسقفيته ويرتدى رجال الكنيسة ، فى أثنــاء القداس ، فى الأيام العادية التونيــة dalmatic والطيلســان Amice بينما فى أيام الأعياد ، كان عليهم أن يرتدوا الملابس الدينية كلها ـ سنشير الى هذه الملابس فى الفصل التالى ـ ويستخدم للقربان، الخبز من الدقيق الفاخر ٠ ويقوم بصناعته قيم الكنيسة ويعده فى صباح يوم القداس (٢٤٥) ٠ ويكون هذا الخبز عادة غير مختمر ،

وبدون ملح وخاليا من المواد الدهنية أيضا ، ومختوما بختم باللغة القبطية فيه شكر لله ». (٢٤٦) .

أما الخمر اللازمة للقربان – وهي من ضروريات القداس – فيصنعها القبط من عصير العنب ، أو الزبيب المجفف ، المنقوع في الماء لبعض الوقت . وكانت الخمر تعد بكميات كبيرة تكفي السنة كلها ، ونصنع عادة في القاهرة ، ومنها توزع على مختلف الكنائس في جميع أنحاء البلاد المصرية (٢٤٧) . وقد أمر عبد المسيح بن اسحق – نائب الخليفة المتوكل في مصر – بمنع صنع النبيذ في جميع أنحاء البلاد المصرية وخاصة الفسطاط وحذر من بيع وشراء الخمر . وكان يرمي من وراء ذلك الى عدم توافر الخمر اللازمة لرفع القداس عند القبط . الا أن القبط حرصا منهم على تقديم القربان ، عمدوا الى عيدان النرجون ، فكانوا ينقعونها في الماء ، ثم يعصرونها ، ويكون هذا العصير عوضا عن الخمور المصنوعة من العنب والزبيب ، وذلك حتى لا يعدموا القربان والقيام بالقداس (٢٤٨) . ويكون القداس عادة في يوم الأحد من كل أسبوع ، الى جانب أيام الأعياد (٢٤٩) .

ويجدر بنا أن نشير الى الأواني التي كان القبط يستخدمونها في أثناء القداس وهي : الكأس Chalice والصينية Paton والقبة dome والملعقة spoon والعلبة ، وتسمى أيضا كرسي الكأس Ark or tabernacle والحصيرة أو الطبق Matar or plate وتكون دائرية الشكل يتوسطها صليب كبير الى جانب الصلبان الصغيرة في الجوانب وتعمل عادة من الحرير . وكان يجب اعداد هذه الأواني قبل القيام بالقداس وتغطيتها جميعا بغطاء من الحرير الأبيض أو الملون الذي يتوسطه صليب ، ويسمى هذا الغطاء Veil or Corporal ويستخدم في القداس أيضا مروحة من

الفضة أو الذهب ، ذات يد خشبية وتسمى Fan or Flabellum ويستخدم أيضـا الابريق والطست ، لغسل الأيدى عند القداس . وكان القبط يصنعونهما من المواد الثمينة كالبرونز والفضة . ومن ضروريات القداس أيضا ، الميرون أو الزيت المقدس والصليب ونسخة من الانجيل (٢٥٠) .

وتذكر الروايات التاريخية أن هذه الأوانى المستخدمة فى القداس ، كانت فى الغالب مصنوعة من الذهب والفضة . ولكنها فى القرن الأول الهجرى (القرن السابع الميلادى) استبدلت بها الأوانى الزجاجية والخشبية ، بعد أن امتدت أيدى المسـلمين الى الكنائس لتخريبها والاستيلاء على ما فيها (٢٥١) . ففى بطركية الاكسندروس استولى قرة بن شريك والى مصر على أوانى الكنائس الذهبية والفضية ؛ مما اضطر البطرك الى أن يستخدم فى القداس كأسا من الزجاج ، وصينية من الخشب (٢٥٢) .

وكان البخور من ضروريات القداس وتقديم القربان (٢٥٣) ، وكانت الرسائل والتعاليم التى تتلى أثناء القداس ، تقرأ بالقبطية ثم بالعربية (٢٥٤) . وكان لا يجوز لأحد من القبط تناول القربان مرتين فى اليوم الواحد (٢٥٥) .

وفى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وضع البطرك خريسطودولس بعض القوانين الخاصة بالقداس وتقديم القربان . وقد جاء فى هذه القوانين ، ألا يدخـل أحـد الكنيسـة الا حافى القدمين مكشوف الرأس . وأن يكون وقوفهم فى الكنائس ، وقت القداس فى أيام الآحاد والأعياد فى خشوع بين يدى الله حتى يغفر لهم الخطايا ، ويضمن لهم النجاة من مكائد العدو . وألا يتكلم أحد فى وقت الصلوات والقداس . كما أوصى فى هذه القوانين

بأن تقف النساء فى مواضعهن بعفاف ولا يختلطن بالرجال . وبعد فراغ القداس فى يوم عيد الزيتونة يقرأ انجيل ترحيم الموتى . ويكون القداس يوم الخميس الكبير برهبة وخشوع بغير تقبيل ولا مصافحة . كما أشار هذا البطرك فى قوانينه الى أنه لا يجوز لأحد من الأساقفة والقسس والشمامسة الغرباء فى مدينة الاسكندرية أن يقدسوا فى كنائسها (٢٥٦) .

كما تضمنت قوانين هذا البطرك ، أنه لا يجوز لأى شماس أو قسيس أن يتأخر عن القداس . كما لا يجوز أن يخرج القسيس مجمرة البخور بعد قراءة الانجيل ، وسط الشعب بل يبخر بها حول المذبح . ثم قال : انه يجوز للقبط عمل القربان فى المنازل ، وحمله الى الكنيسة حتى يكون لهم الأجر والثواب ، ويكون عمله على ما جرت به العادة ، وذلك تخفيفا لأعباء الكنيسة المالية (٢٥٧) .

وكان من عادة رهبان دير أبى مقار وكهنة الاسكندرية ، أن يتركوا قربان أحد الزيتونة الى يوم الأربعاء الكبير . فلما زار البطرك خريسطودولس ، أديرة وادى هبيب ، وأدرك هذه العادة ، أمر الرهبان بابطالها ، لما يصيب القربان نتيجة لذلك من العفن والتغيير وغيره . كما هدد بحرمان من يفعل هذه العادة بعد ذلك . فثار الرهبان واختلفوا مع البطرك ، فأخرج البطرك ، من خزانة الكتب الموجودة بدير أبى مقار ، من الكتب ما يثبت خطأ هذه العادة وبطلانها . ومنذ ذلك الوقت لم يجرؤ أحد من القبط أن يترك قربانا (٢٥٨) .

أما الاعتراف السرى أمام الكاهن ، فتقول تبشر (٢٥٩) : إنه كان عادة بين جميع المسيحيين . ثم صار فريضة الزامية فى أواخر القرن الرابع الميلادى ، بعد أن أدرك الرؤساء الدينيون أن

الاعتراف علنا ، يؤدى الى بعض الأخطار • ونستخلص من ذلك أنه كان من قوانين الكنيسة المسيحية ، أن يعترف المسيحى علنا بين جمهور الحاضرين فى الكنيسة بأخطائه وذنوبه • ومما لا شك فيه أن ذلك كان ينتج عنه بعض الأخطار ، كأن تعترف زوجة مثلا ، بذنوبها أمام زوجها • ولذلك سار الاعتراف سرا ، أمام الكاهن الذى كان عليه أن يميز بين الخطايا الواجب الاعتراف بها علنا ، وتلك التى يجب الاعتراف بها سرا (٢٦٠) • وكان المذنبون بعد الاعتراف بخطاياهم العلنية ، التى لا يخشون من الافضاء بها ، يركعون أمام الهيكل ويعترفون فى سرهم بالخطايا التى لا يمكنهم التصريح بها ، وفى أثناء ذلك يطوف الكاهن بالبخور فى أرجاء الكنيسة ، وحول الهيكل (٢٦١) •

أما الكهنوت ، أو بمعنى آخر الدرجات الكهنوتية ، فقد تحدثنا عنها فى بداية هذا الفصل ، باعتبارها ، الوظائف الدينية فى الكنيسة • ويأتى بعد ذلك الزيجة أو الزواج ، ولا يجوز الاحتفال به فى أيام الصوم الكبير • وانما جرت العادة على أن يتم الزواج فى بداية العيد• ويمتاز هذا الاحتفال فى الكنيسة بالوقار• وكان يجب على القسيس أن يتأكد من أن الزوجين يقبلان على الزواج بارادتهما دون ارغام أو ضغط من أحد • ويلبس جميع أكليروس الكنيسة يوم حفل العرس ، اللون الأبيض • وكان من الملبوسات ، الخاصة بالزواج ، صليب من الذهب وخاتم من الذهب ، والمنطق • وكان من عادة القبط أن يعطى الزوج هذه الأشياء للبطرك ليباركها ، ويقوم عليها بطقوس الخدمة ، قبل ليلة الاحتفال (٢٦٢) •

وكان حفل الزواج ، يبدأ بقراءة مزامير التوبة والغفران ، ويشعل القسيس البخور وبعد ذلك يبدأ جماعة المرنمين فى الغناء • يلى ذلك قراءة الانجيل بالقبطية ثم العربية ، ويقوم الحاضرون

بالصلاة • وكان الزوج يلبس أثناء الاحتفال ، تونية بيضاء من الحرير ، تصل الى القدم ، ويشد وسطه بالمنطق ، ويلبس على رأسه غطاء أبيض ويضع البطرك الخاتم فى يده اليمنى ويباركه ، وبعد ذلك يقف العروسان وعلى رأسهما الصلبان الذهبية ، ويعلن القسيس براءتهما ، ويقدم العروس للعريس ، ويمنحهما بركاته • ثم تضاء جميع أرجاء الكنيسة ، .ويعلن القداس ، ويقدم القربان • وبعد الانتهاء من هذه المراسيم ، يخرج العروسان من الكنيسة الى منزلهما الخاص (٢٦٣) •

وآخر أسرار الكنيسة السبعة ، هو ما يسمى بالميرون أو الزيت المقدس ، كما يسمى أيضا زيت المرضى ، ويسميه العرب زيت القناديل • وكان القبط يعتقدون أن هذا الزيت له أسرار عجيبة فى شفاء المرضى والمخبولين (٢٦٤) •

ثم ننتقل الى أعياد القبط ، واحتفالاتهم الدينية والقومية ، وطريقة احتفالهم بها • كان القبط فى مصر الاسلامية ، يحتفلون بأربعة عشر عيدا دينيا ، منها سبعة تسمى (الأعياد الكبار) وسبعة تسمى (الأعياد الصغار) الى جانب الأعياد القومية ، عيد النوروز ، واحتفال وفاء النيل •

أما الأعياد الكبار فهى : عيد البشارة La fête de l'Annonciation ويكون فى ٢٩ من شهر برمهات • ويحتفلون فيه بذكرى بشارة جبريل — أو غبريال كما يسمونه أحيانا — لمريم عليها السلام ، بميلاد المسيح (٢٦٥) •

وعيد الزيتونة ، ويسمى أيضا عيد الشعانين ، أى التسبيح La fête des Rameaux ويحتفل به القبط فى يوم الأحد

السابق لعيد الفصح • وسنتهم فيه أن يخرجوا بسعف النخيل من الكنيسة • ويقولون ان هذا العيد ، ذكرى ركوب المسيح العنو أو اليعفور (الحمار) في القدس ، ودخوله الى صهيون ، وهو راكب والناس بين يديه ، يسبحون وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحث على فعل الخير • وهذا العيد من الأعياد التى تزين فيها الكنائس فى مصر (٢٦٦) •

أما عيد الفصح La fête de Pâquea ويسمى العيد الكبير – كما يعرف أيضا بعيد القيامة ، فيحتفل به بعد عيد الصليب – أو الصلبوت – بثلاثة أيام • ويزعمون أن المسيح قام فى هذا اليوم من القبر ، بعد ادعاء اليهود صلبه ، وأقام فى الأرض أربعين يوما ثم صعد الى السماء (٢٦٧) •

ومن الأعياد الكبار أيضا ، خميس الأربعين ، ويسمى عيد الصعود La Fête de l'Ascension ويذكر القبط ان المسيح بعد أربعين يوما من قيامته ، خرج مع تلاميذه ، ورفع يديه وبارك عليهم، ثم صعد الى السماء ، بعد أن وعدهم باشتهار أمرهم (٢٦٨) •

أما عيد الخماسين ، ويسمى أيضا عيد العنصرة La Fête de la Pentecôte فيحتفل به القبط بعد خمسين يوما من عيد القيامة • ويزعمون أنه فى ذلك اليوم ، حلت روح القدس فى تلاميذ عيسى عليه السلام ، وتكلموا بجميع اللغات السائدة آنذاك وأخذ كل منهم يدعو الى دين المسيح حسب لغة الذين يعيش معهم (٢٦٩) •

وعيد الميلاد Noel هو ذكرى ميلاد عيسى المسيح عليه السلام، ويحتفل به القبط عشية الأحد ٢٩ من شهر كيهك • ومن مظاهر

الاحتفـال بهذا العيـد فى مصر ، تزيين الكنائس وكثرة الوقود بها (٢٧٠) . وكان المسيحيون فى هذا العيد ، يلعبون بالنار حتى تغنى بذلك الشعراء . قال بعضهم :

فاللعب بالنـار فى الميـلاد من سـفه
وانما فيـــه للاسـلام مقصـــود

ففيـــه بهت النصـــارى أن ربهم
عيسى بن مريـــم مخلوق ومولـــود

ويتميز يوم الاحتفال بهذا العيد أيضا ، بكثرة بيع الشموع الملونة ، والتماثيل البديعة الشكل ، حتى بلغ الأمر بالناس ، أنهم كانوا يتنافسون فى المغالاة بأثمانها (٢٧١) .

وآخر الأعياد الكبار ، هو عيد الغطاس ، ويسمى أيضا عيد المعمودية La fête de l'Epipanie or du Baptême ويحتفل به فى ١١ من شـهر طوبة . وهو احيـاء ذكرى تعميد يوحنـا المعمدانى المسيح ، أو بمعنى آخر غسله فى مياه بحيرة الأردن ، اذ حينما خرج من الماء اتصل به روح القدس . واعتاد القبط فى هذا اليوم النزول فى الماء رغم برودة الجو فى هذا الشهر (٢٧٢) .

وتشير بعض المصـــادر الى أن القبط كانوا يقيمون بعض الشعائر الخاصة بهم فى عشية عيد الغطاس وهو يوم ذكرى معمودية السيد المسيح . وكانت كنائسهم ـ فى معظم الأحيان ـ بها أحواض كبيرة ومملوءة ماء ، يباركهـا الكاهن ويغطس فيها الجميع كبارا وصغارا . واذا لم يكن بالكنائس أحواض أو خزانات مياه كان الكاهن يبارك الماء فى طست كبير يغطس فيه القبط لتحقيق نفس الغرض . وكان بعض القبط يحتفلون بهذا العيد على شاطىء النيل ويغطسون فيه (٢٧٣) .

هذه هى الأعياد السبعة الكبار عند القبط ، أما الأعياد الصغار فمنها : عيد الختان ويحتفل به فى السادس من شهر بؤونة ، وفيه ختن السيد المسيح • وعيد الأربعين وهو ذكرى دخول السيد المسيح الهيكل ، ويحتفل به فى الثامن من شهر أمشير (٢٧٤) •

وخميس العهد ، ويقال له أيضا خميس العدس ، لأن القبط كانوا يأكلون فى هذا اليوم العدس المطبوخ • ويحتفل به القبط قبل عيد الفصح بثلاثة أيام • وقد جرت العادة أن يملأ اناء كبير بالماء ، ويزمزم عليه البطرك ، ويغسل منه أرجل سائر القبط الحاضرين • ويذهبون الى أن ذلك احياء لما فعله المسيح مع تلاميذه فى مثل هذا اليوم ، ليبث فيهم روح التواضع وأخذ عليهم العهد بألا يتفرقوا ، وأن يتواضعوا • ومما لا شك فيه أنه سمى لذلك خميس العهد (٢٧٥) • وكان من عادة أهل الاسكندرية فى هذا العيد أن يخرجوا الى المنارة بمأكلهم ، فمنهم من يذكر الله ، ومنهم من يصلى ، ومنهم من يلهو ، ولا يزالون هناك الى نصف النهار (٢٧٦) •

أما سبت النور ، فيحتفل به قبل عيد الفصح بيوم واحد • ويذهبون الى أن النور يظهر على قبر المسيح فى ذلك اليوم فى كنيسة القيامة ببيت المقدس ، ومن هذا النور تشتعل كل قناديل الكنيسة (٢٧٧) •

ومن الأعياد الصغار أيضا أحد الحدود ، ويسمى فى بعض الأحيان ، الأحد الجديد • ويأتى هذا العيد بعد عيد الفصح بثمانية أيام ، ويوافق أول يوم أحد بعد الفطر ، لأن الآحاد التى قبله كانت كلها صوم • وكان من عادة القبط فى مثل هذا اليوم ، تجديد الأثاث ، وتنظيم المنازل ، والاهتمام بحياتهم الدنيوية • أما عيد

التجلى فيحتفلون به فى الثالث عشر من شهر مسرى ويقولون ان المسيح ، تجلى لتلاميذه فى هذا اليوم بعد أن رفع · وتمنوا أن يحضر اليهم ايليا وموسى فتم لهم ذلك فى مصلى بيت المقدس ثم صعد الى السماء وتركهم (٢٧٨) ·

أما عيد الصليب ، فيوافق اليوم السابع عشر من شهر توت · وهو عيد مستحدث عند المسيحيين فى القرن الرابع الميلادى ، وفى عهد الامبراطور الرومانى قسطنطين ابن هيلانة · وكان قسطنطين أول أباطرة الرومان ، الذين اعترفوا بالمسيحية ، واعتنقوها · والسبب فى الاحتفال بهذا اليوم ، ظهور الصليب فى بيت المقدس على يد السيدة هيلانة أم الامبراطور قسطنطين · ذلك أنها ذهبت الى بلاد الشام ، ودلها الأسقف مقاريوس على الخشبة التى يذهب المسيحيون الى أن المسيح قد صلب عليها ، وقص عليها ما فعله اليهود · وقد وجدت فى المكان الذى أشار اليه الأسقف ثلاث خشبات على شكل الصليب ، وكان ذلك فى اليوم السابع عشر من شهر توت ، ومن ثم سموا هذا اليوم عيد الصليب أو الصلبوت ، وصاروا يحتفلون به كل سنة · وكان هذا الحدث بعد ميلاد المسيح بثلاثمائة وثمان وعشرين سنة · وقد أمرت السيدة هيلانة ببناء كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، وبعد ذلك عادت الى ابنها وحملت معها الصليب · وصار لهذا العيد فى مصر موسم عظيم يخرج القبط فيه الى ظاهر الفسطاط ، للهو والشراب وغير ذلك (٢٧٩) ·

أما الأعياد القومية التى يحتفل بها قبط مصر ، فيأتى فى مقدمتها عيد النوروز · ويوافق هذا العيد رأس السنة القبطية ، وهو أول يوم من شهر توت · ويحرص القبط فى هذا اليوم على اشعال النيران ، والتراش بالماء ، وفى الحقيقة أن هذا العيد صار من مواسم لهو المصريين (٢٨٠) ·

أما العيد القومى الثانى فهو ، عيد وفاء النيل ، ويوافق اليوم الثانى عشر من شهر بؤونة • وكان من عادة المصريين فى مثل هذا اليوم قبل الاسلام ، القاء فتاة بكر ، مزينة بأجمل الحلى والثياب ، فى النيل ، هدية منهم اليـه حتى تفيض ميـاهه ، ومن ثم تزيد خيراته (٢٨١) • والواقع أن مسألة عروس النيل هذه ، كانت شيئا رمزيا ، ولا يمكن أن تكون حقيقة اذ انه لا يعقل أن يرمى القوم بفتاة فى قيد الحياة فى النيل • ومن المرجح أنهم كانوا يلقون فى النيل بعض الأشياء الثمينة ، لتكون بمثابة هدية منهم الى النيل الذى يجلب لمصر والمصريين الخيرات الواسعة •

ويشير ابن عبـد الحـكم (٢٨٢) ، المؤرخ المصرى ، الى ان المصريين أرادوا القيام بعادتهم هذه ، عقب فتح المسلمين لمصر مباشرة، وقالوا لعمرو بن العاص : ان النيل لا تفيض مياهه الا بالقيام بهذه السـنة ، التى اعتـادوا عليها • ولكن عمرو رفض الاسـتجابة لطلبهم وقال لهم : ان الاسلام لا يقبل ذلك اطلاقا ، وانه يهدم ما كان قبله • ثم حدث انخفاض فى مياه النيل ، ولم تفض مياهه ، طوال ثلاثة الأشهر التالية ، وهى : بؤونة ، وأبيب ، ومسرى • مما كان له أثره فى حياة المصريين ، لارتباط النيل باقتصادياتهم • وأصبح المصريون على وشك ترك أراضيهم ، لعدم تمكنهم من زراعتها بدون فيضان النيل • فلما أدرك عمرو بن العاص ذلك ، كتب الى الخليفة عمر بن الخطاب ، يطلعه على حقيقة الموقف ، فأرسل الخليفة اليه بطاقة وأمره بالقائها فى النيل • وقد جاء فى هذه البطاقة :

« من عبد الله عمر ، أمير المؤمنين ، الى نيل أهل مصر ، أما بعد ، **فان كنت تجرى من قبلك ، فلا تجر ، وان كان الله الواحد القهار** الذى يجريك ، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » • ففاض النيل على أثر ذلك ، ومن ثم بطلت ، منذ ذلك الحين عادة القاء فتاة أو خلافه فى النيل بين المصريين •

استمر القبط يحتفلون ، بأعيادهم الدينية والقومية ، فى مصر ، طوال عصر الولاة حتى قيام الدولة الطولونية — أولى الدول المستقلة فى مصر — دون محاولة من جانب الولاة والحكام المسلمين ، لمنعهم من ذلك أو التضييق عليهم فى احتفالاتهم ، اللهم الا فى عهد الخليفة العباسى المتوكل على الله ، حينما أصدر أوامره المتتالية بشأن أهل الذمة فى سنة ٢٣٥ ، ٢٣٩ هـ • وكان من بينها « ألا يطلق لهم ، أن يظهروا فى شىء من أعيادهم صليبا ولا يشعلوا فى الطرقات » (٢٨٣) •

وقد احتفل القبط بعيد الميلاد ، عقب الفتح العربى ، دون أى تدخل من عمرو بن العاص وحكومته • وتشير الرواية القبطية الى أن البطرك بنيامين ، وجميع كهنة الاسكندرية اجتمعوا فى كنيسة السيدة مريم ، للاحتفال بهذا العيد • وقد اجتمع معهم مقدمو المدينة وجميع القبط رجالا ونساء ، أطفالا وشيوخا ، كعادتهم عند احتفالهم بهذا العيد (٢٨٤) • ويذكر أبو صالح الأرمنى (٢٨٥) : انه كان من عادة أهل مصر من القبط والمسلمين فى هذا العيد ، ان يوقدوا الشموع والمصابيح ، والأحطاب على نطاق واسع • ونستخلص من روايته هذه ، ان المسلمين قد شاركوا القبط فى الاحتفال بأعيادهم منذ السنوات الأولى للفتح العربى لمصر • ومما لا شك فيه أنهم اعتبروا هذه الأعياد مواسم للهو والشراب •

ويشير ابن المقفع (٢٨٦) : الى احتفال قبط مصر بسبت النور فى عهد الوالى عبد العزيز بن مروان • ويبدو أنه كان من عادة قبط مصر فى مثل هذا اليوم كل سنة ، تزيين الكنائس والأديرة • كما جرت العادة أيضا بين القبط ، على تزيين الكنائس والأديرة فى يوم عيد الشعانين ، بأغصان الزيتون ، وقلوب النخيل ، ويفرق منها

على الناس ، على سبيل التبرك ، وقد استمرت مثل هذه العادات طوال عصر الولاة وما بعده (٢٨٧) ٠

والواضـــح من بعض الروايات التاريخية أن كل اقليم من الأقاليم المصرية ، كان له طابع مميز فى الاحتفال بهذا العيد ـ اى عيد الشعانين ، أو كما يسمى أحيانا عيد الزيتونة ـ والدليل على ذلك ما ذكره المقريزى من أن قبط أخميم ، كان من عادتهم ، بعد الاحتفال بعيد الزيتون أن تخرج القسس والشمامسة ، بالمجامر والبخور ، والصلبان والأناجيل والشموع الموقدة : فيجربون أرجاء المدينة ويقفون على باب القاضى ، ثم أبواب أعيان المسلمين، ويبخرون ويقرأون ، فصلا من الانجيل ، ويمدحون هؤلاء الأشخاص (٢٨٨) ٠

بينما نجد أن قبط الاسكندرية كان من عادتهم فى مثل هذا اليوم ، أن يخرجوا ليلا وفى أيديهم أغصان الزيتون ، ويشقوا بها الطرقات والسوق من بيعة القديس أبى سرجة الى بيعة السطير ، وهم مواصلون القراءة والدعاء (٢٨٩) ٠

أما عيد الغطاس ، فكان من مظاهر احتفال قبط مصر به فى هذا العصر ـ أى طوال تاريخ مصر الاسلامية حتى سقوط الدولة الفاطمية ـ أن يركب متولى الشرطة فى أول الليل ـ ويسمونها ليلة الحميم ـ فى موكب كبير ، مرتديا أجمل الثياب وأفخرها ٠ ويوقد بين يديه الشموع والمشـاعل ، ويطوف الشوارع ، وينـادى فى الناس ، ألا يختلط المسـلمون بالقبط فى تلك الليلة ، ويتركوا للقبط فرصة الاحتفال بعيدهم ٠ اذ كان فى سحر تلك الليلة ، يخرجون الى شاطىء النيل ، ويغطس كثير منهم فيه ٠ وكان من عادة الملكانيين خاصة فى هذه الليلة ، أن يخرجوا من كنيستهم فى قصر الشمع ، فى جمع عظيم بالقراءة الملحنة ، والنغمات المعلنة ،

والصلبان المشهورة ، والشموع الموقدة الى شاطىء النيـل حيث يخطب فيهم الأسقف المرءوس عليهم باللغة العربية ، ويدعو للحاكم وكبار رجال الدولة ، ثم يعودون فى نفس الوضع ، الى كنيستهم حيث يتمون صلواتهم هناك (٢٩٠) .

ونستخلص من هذه الرواية التاريخية ، أن المسلمين ، فى مصر الاسلامية ، كانوا يشاركون القبط فى الاحتفال بهذا العيد . وأن حكام مصر فى معظم الأحيان ، كانوا يميلون الى وضـع حد لاختـلاط المسلمين بالقبط فى هـذه الليلة . ونرى ان المسلمين الذين كانوا يشاركون القبط فى مثل هذه الاحتفالات هم — فى الواقع — القبط الذين أسلموا وأرادوا فى الوقت نفسه مشاركة اخوانهم القدامى فى حياتهم الاجتماعية وخاصة فى اللهو والشراب.

أما فى عيد النوروز ، فكان العامة من المصريين ، ينتخبون رجلا يسمونه أمير النوروز ، ويطلى وجهه بالدقيق أو الجير ، ويركب على حمار ، ويسير فى الطرقات ، وعليه ثوب أحمر أو أصفر ، ويسير معه جمع كبير وفى يده دفتر مثل دفتر المحتسب. فمن لم يدفع مبلغا من المال يرش بالماء ممزوجا بالأقذار . وكان الناس يضرب بعضهم بعضا بالجلود والأنطاع ، ورجال الشرطة لا يعترضون على ذلك . وان خرج أحد من كبار رجال الدولة من بيته ، لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ، ويستخف بحرمته ، فاما أن يفتدى نفسه ، واما أن يفضح . وهكذا كان الناس يقومون بالمنكرات فى كل مكان ، حتى ان التلاميـــذ فى مكتبـهم كانـوا يهجمون على معلمهم ، وكثيرا ما يضطرونه الى أن يفتدى نفسه (٢٩١) .

ويمكن القول ان القبط فى مصر الاسلامية قد تمتعوا بحرياتهم الكاملة فى الاحتفال بأعيادهم ، وان كنا نلمس من دراستنا لدور

أهل الذمة فى تاريخ مصر ، فى عصر الولاة ، عدم اشتراك الولاة المسلمين في الاحتفالات بهذه الأعياد الدينية جميعها ، مجاملة منهم للقبط ، وذلك مثلا بعكس ما كان يحدث فى عهد الأمراء الاخشيديين أو الخلفاء الفاطميين ، اذ شارك كثير من هؤلاء الأمراء والخلفاء القبط فى الاحتفالات الرسمية بكثير من أعيادهم، بل صار للدولة رسوم ــ نحرص تماما على القيام بها ، كما سنرى • ولعل السبب فى ذلك ان مصر فى عصر الولاة ، كانت تابعة للخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية • وكان الولاة مشغولين بجمع الأموال ، ومحاولة ارضاء الخلفاء ، ولم يحرصوا غالبا على التقرب من القبط سكان مصر ، ومشاركتهم فى الاحتفال بأعيادهم •

وقد روى عن الخليفة عمر بن الخطاب ، أنه قال : « اجتنبوا عيد اليهود ، والنصارى ، فان السخط ينزل عليهم فى مجامعهم ، ولا تتعلموا رطانتهم فتتخلقوا ببعض خلقهم » (٢٩٢) • ولعل هذا القول كان له أثره فى نفوس ولاة مصر فى ذلك العصر ، وانهم رأوا العمل به ، بالرغم من أننا نلاحظ أنهم لم يكونوا حريصين دائما على تنفيذ أحكام عمر بن الخطاب بشأن أهل الذمة • فقد استخدم كثير من الولاة الذميين فى الدواوين وأعمال الحكومة ، بالرغم من أنه نهى عن استخدامهم ، كما سمحوا لهم ببناء الكنائس الجديدة ، وتعمير الكنائس القديمة الموجودة كما ذكرنا •

كان العيد الوحيد الذى شارك فيه ولاة مصر القبط ، هو الاحتفال بعيد وفاء النيل ، وهو عيد قومى • وأقدم وصف وصل الينا عن احتفال سكان مصر بوفاء النيل ، ماكتبة ابن رسته فى كتابه الأعلاق النفسية فى القرن الثالث الهجرى ، اذ قال : « وقد اتخذت علامات تعرف بها زيادة الماء ونقصانه ، ووكل به جماعة يتعهدونه ويثبتونه ، فاذا زاد نظروا الى بعض تلك العلامات، فوقفوا

على مقدار تلك الزيادة ، لأن الزيادة فى الخراج على حسب الزيادة فى الماء ، فيصير هؤلاء الموكلون ، الى المسجد الجامع ، بأيديهم الرياحين ، ويقفون على حلقة حلقة ، ويرمون بما معهم من الرياحين اليهم ، وينادون ان الله عز وجل ، قد زاد فى النيل كذا ، وكذا . فيستبشر الناس ، ويكثرون حمد الله والشكر له ، وانه اذا زاد الماء ، أفاض على أراضيهم ، فغرقها حتى يختلفوا الى القرى فى الزوارق . فاذا نضب ذلك الماء زرعوا أراضيهم ، فيبلغ خراجهم ألفى ألف دينار » (٢٩٣) .

وقد استمر الاحتفال بوفاء النيل ، ومشاركة الحكومة الاسلامية للقبط فى هذا الاحتفال طوال تاريخ مصر الاسلامية . وقد شاهد الرحالة ناصر خسرو ، فى القرن الخامس الهجرى ، هذه الاحتفالات فقال : « ... ومنذ أول يوم للفيضان يطوف منادون فى المدينة ، منادين بأن الله تعالى ، قد زاد النيل كذا اصبعا ، ويذكرون مقدار زيادته كل يوم . وحين تبلغ الزيادة ذراعا كاملا ، تضرب البشائر ويفرح الناس ، حتى تبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا . وهى الزيادة المعهودة ، يعنى أنه كلما قلت الزيادة عن ذلك ، قيل ان النيل ناقص ، فتصدقوا ونذروا النذور ، وعلاهم الغم . فاذا زاد على هذا القدر فرحوا وأظهروا الغبطة .. » (٢٩٤) .

وكان اذا بلغت زيادة النيل ستة عشر ذراعا ، ساد الفرح والسرور بين المصريين جميعا ، حتى ان الوالى كان يركب فى خواص دولته وكبار الأمراء ، الى المقياس ، ويعد سماطا يأكل منه جميع المصريين الخواص منهم والعوام ، كما كان يخلع على المقياس ، ويصله بصلة مقررة له فى كل سنة (٢٩٥) .

وكثيرا ما كان الولاة المسلمون ، يشتركون مع القبط ورؤسائهم الدينيين فى الصلاة من أجل زيادة النيل ، اذا كان

ناقصا فى موعد فيضانه مما يهدد البلاد بالقحط والجدب • وقد حدث مثل ذلك فى ولاية حفص بن الوليد الثانية على مصر ، فنقصت مياه النيل وتعرضت البلاد للقحط . فصلى من اجل زيادة النيل المسلمون ، صلاة الاستسقاء ، كما صلى القبط أيضا من أجل ذلك (٢٩٦) • وحدث ذلك مرة اخرى فى مطلع الخلافة العباسية فى ولاية أبى عون على مصر (٢٩٧) (١٣٣ ـ ١٣٦ هـ) فقد نقص النيل فى عهد هذا الوالى ، فخشى القبط من الآثار السيئة التى تترتب على ذلك ، من ضعف الانتاج وبالتالى نقص الخراج • فلما كان يوم ١٧ من شهر توت ، الموافق لعيد الصليب عند المسيحيين ، اجتمع كهنة الجيزة ، والأساقفة والشعب القبطى ، وحملوا معهم الأناجيل ومجامر البخور ، وذهبوا الى كنيسة القديس بطرس بالجيزة ، وهى تشرف على النيل وضاقت الكنيسة بالموجودين ، وانتشروا فى الحقول والأماكن المجاورة ، وحضر معهم فى ذلك اليوم ، البطرك أنبا خايال الذى تقدم الجميع حاملا الصليب ووقف الجميع على شاطىء النيل ، واقاموا الصلاة ، وأخذ الجميع يصيح « كيريا لصون » ـ وهذا نداء مشهور عندهم يتضرعون به الى الله ـ وزاد النيل فى ذلك اليوم ذراعا (٢٩٨) •

ثم خرج فى اليوم التالى ، والى مصر ـ آنذاك ـ أبو عون ، وجميع المسلمين ، واجتمعوا على شاطىء النيل ، وصلوا وتضرعوا الى الله عز وجل ، ليزيد لهم فيضان النيل وكانوا يقولون : « هكذا يا الله ، الواحد القهار الذى لا نظير له ، يا خالق السماء والأرض ، أنت تعلم أنا لا نشرك بك ، ولا نعبد معك أحداً ، ولا نقبل مثل النصارى ، أنك لك ولد ، ولا أنك مولود ، بل نوحدك ونعبدك بالتوحيد • نريد أن ننظر عجائبك اليوم الذى أنت عاملها لتعلم وتتحقق ، انه ليس دين مثل ديننا ، الذى ورثناه عن آبائنا ونسألك أن تفعل معنا أعجوبة ، كما فعلت مع النصارى أمس ، الذين هم

أعداؤنا ، وأعداء مذهبنا ، الذين يجعلون معك الها آخر ، مولودا منك ، ويسمى المسيح ٠٠٠ ويقولون انه ابنك وروح القدس ثالثهم ٠٠ ونسألك أن تصنع لنا علامة وآية فى هذا الماء » (٢٩٩) ٠

وكان القبط يزعمون ، أن النيل لا يزيد ، ولا يرتفع ماؤه ، الا اذا ألقوا فيه ، عند شبرا صندوقا من الخشب فى داخله اصبع أحد شهداء القبط ٠ وفى هذا اليوم الذى يسمونه عيد الشهيد ويوافق اليوم الثامن من شهر بشنس ، يخرج جميع سكان مصر على اختلاف طبقاتهم الى شبرا حيث يحتفلون على شاطىء النيل ، وغيره من الأماكن بحضور المغنين ، وأصحاب الآلات الموسيقية ٠ وكثيرا ما كانوا ينتهزون ذلك للقيام ببعض المحرمات والمنكرات ، وتنفق فى مثل هذا اليوم الأموال بدون حساب ، وأحيانا تحدث مشاجرات بين بعض القبط تراق فيها الدماء ، ويفرط القبط ومن يكون فى صحبتهم من المسلمين فى شرب الخمور ، وقد يصل الانفاق على الخمور وحدها ، مائة ألف درهم ، فى بعض الأحيان ٠ وتشير بعض الروايات الى أن بعض القبط قد باع خمرا فى ذلك اليوم قيمته ما يزيد على اثنى عشر ألف درهم ٠ وكان أهل شبرا يدفعون ما عليهم من الجزية وغيرها من الضرائب ، من ايراد بيع الخمور فى مثل ذلك اليوم ٠ واستمر الاحتفال بهذا العيد حتى القرن الثامن الهجرى ، حينما أبطل الظاهر بيبرس الاحتفال به فى سنة ٧٠٢ هـ (٣٠٠) ٠

أما فى عصر الأمراء الطولونيين فالواضح أن القبط ، قد استمروا يحتفلون بأعيادهم الدينية والقومية فى حرية كاملة ، دون محاولة من جانب هؤلاء الأمراء للتضييق عليهم ، أو منعهم من الاحتفال بها ٠ ولم تشر مصادر تاريخ مصر الاسلامية ، الى كيفية احتفال القبط بأعيادهم فى هذا العصر ٠ والحقيقة ، انهم استمروا

على عاداتهم فى هذه الاحتفالات · ولعل السبب فى ذلك أن القبط قد صاروا ، أقلية قليـلة ، بالنسـبة للمسلمين فى ذلك العصر ، ولذلك لم يعن مؤرخو مصر الاســلامية بالاشــارة الى حياتهم الاجتماعية ، وخاصــة أعيادهــم ـ بما فى ذلك المؤرخون القبط أنفسـهم ·

ولم نجد الا اشارة واحدة الى احتفالات القبط بأعيادهم فى عصر الأمراء الطولونيين ، وذلك فى كتاب « سير الآباء البطاركة » · قال ساويرس (٣٠١) عند حديثه عن أحوال القبط فى عصر الأمراء الطولونيين : « وأطلقوا النصارى ، أن يعيدوا أعيادهم ، ظاهرا ، وعلانية» وعليه فقد ترك أحمد بن طولون للقبط حرياتهم الاجتماعية، وأفسـح لهم المجال للاحتفال بأعيادهـم الدينية كيفما شـاءوا ، وممارسة عاداتهم التى اعتادوا عليها فى مثل هذه الأعياد من اظهار الصليب ،وحمل الأناجيل ، ومجامر البخور ، والمشـاعل الموقدة وخلاف ذلك · هذا ، رغم أننا لم نعلم شيئا عن تدخل الحكومة للحد من احتفالات القبط بأعيادهم منذ عهد الخليفة المتوكل · ولعل المضايقات التى تعرض لها القبط فى ولاية ابن مدبر لخراج مصر ، وما كان من فرضـه الضرائب البـاهظة عليهم ، وعلى الكنائس والأديرة (٣٠٢) · كل ذلك جعل القبط يحتفلون بأعيادهم فى الخفـاء بعيدا عن أعين هذا الوالى الذى جعـل جل اهتمامه جمع الأموال والاجحاف بأهل الذمة جميعا ·

واذا كان الأمراء الطولونيون لم يحـاولوا اطلاقا مشـاركة القبط فى أعيادهم ، نجد الأمراء الاخشيديين كانوا على العكس من ذلك · اذ مال بعض هؤلاء الأمراء الى مشاركة القبط فى الاحتفال ببعض أعيادهم الدينية · وتشير بعض المصادر التاريخية الى مشاركة الأمير محمد بن طغج الاخشيد لهم فى الاحتفال بعيد الغطاس ·

وكان « لليلة الغطاس شأن عظيم عند أهلها ، لا ينام الناس فيه
وهى ليلة الحادى عشر من طوبة الموافق السادس من كانون (٣٠٣)
وكان أهل مصر فى ذلك اليوم على اختلاف مللهم ومذاهبهم وأ
على اختلاف طبقاتهم، يبدون فرحهم، ويظهرون الطيب مما لا ينح
لهم فى سائر أيام السنة وأعيادهم (٣٠٤) .

وقد احتفل اهالى مصر فى سـنه ٣٢٠ هـ بليلة الغطـ
احتفالا رائعا ، وقد شارك فى هذا الاحتفال الأمير محمد بن ط
الاخشيد أمير مصر فى ذلك الوقت ، كما شارك المسلمون فى ه
الاحتفال . ويصف لنـا المسعودى (٣٠٥) . هذه الليلة فيقول
جلس الأمير محمد بن طغج الاخشيد فى قصره بالجزيرة وأو
حوله الشموع والقناديل التى بلغ عددها ألف قنديل . هذا
ما أوقده الشـعب من المسلمين والقبط من القناديل والمشـ
والشموع . وحضر هذا الاحتفال مئات الآلاف من الناس ،
يعد يوجد مكان لقدم واحد ، اذ ملأ الحاضرون شواطىء النيل
وأسطح الدور والمنازل المجاورة ، كما وجد كثير من الحاضرين
مكانه فى القوارب وسط النيل . وارتدى الجميع افخر الملا
وتزينوا بأجمل الحلى وأحضروا معهم صنوفا متنوعة من الط
والشراب فى أوان من الذهب والفضة . وأحضر الكثير منهم أ
العزف واللهو ، وغطس كثير من الحاضرين فى هذه الليـــلة
النيل ، وهم يزعمون أن فى ذلك أمانا لهم من الأمراض ، كما
مبرىء للداء . ويقول هذا المؤرخ ان هذه الليلة من أحسن الل
فى مصر ، وأشملها سرورا ، وفرحا . ولا تغلق فيها الدروب

ومما تجدر الاشارة اليه ، أن احتفال هذه الليلة هو الاحـ
الوحيد الذى ذكرت المصادر التاريخية فيه ، أن الأمراء الاخشيدي
قد شاركوا القبط فيه ، ولم تشر الى غيره من الأعياد فى عصر

الأمير أو حلفائه . ويبدو أن القبط كانوا يبالغون فى ذلك العصر فى الاحتفال بعيد النوروز ويكثرون من التراش بالماء بعضهم فوق بعض ، مما كان يؤدى الى بعض الاضطرابات ، ولذلك تدخل بعض الأمراء الاخشيديين لمنع القبط من ذلك فقد ذكر الكندى (٣٠٦) : انه فى امارة أبى القاسم آنور جور بن محمد بن طغج الاخشيد ، أصدر هذا الأمير أمرا فى يوم السبت الموافق الثامن والعشرين من المحرم سنة ٣٣٥ هـ — وكان يوافق ذلك يوم عيد النوروز ، بمنع الناس من صب بعضهم الماء ، فوق بعض فى هذا اليوم ، كما جرت العادة بينهم .

وكان عصر الدولة الفاطمية فى مصر ، هو أكثر العصور تسامحا بالنسبة لأهل الذمة جميعا بصفة عامة ، وبالنسبة للقبط بصفة خاصة . فقد تمتع القبط فى هذا العصر بكامل حرياتهم الاجتماعية والدينية ، واحتفلوا بأعيادهم فى أروع صورة ممكنة كما شاركهم بعض الخلفاء الفاطميين فى الاحتفال بكثير من هذه الأعياد . وعلى الرغم من ذلك تدخل بعض هؤلاء الخلفاء ، للحد من بعض العادات التى كان القبط يمارسونها فى الاحتفالات ببعض الأعياد أو منعهم من اظهار احتفالاتهم كلية . وكان ذلك يحدث فى الغالب ، فى فترات محدودة وخاصة ، فى عهد الخلفاء الثلاثة الأول فى مصر ، المعز والعزيز ، والحاكم بأمر الله .

ويبدو أن المصريين فى الاحتفال بعيد النوروز فى عهد الخليفة المعز ، قد ارتكبوا كثيرا من المنكرات ، وقاموا بأفعال قبيحة ، ولذلك عمد المعز فى سنة ٣٦٣ هـ . الى منع القبط ومن يشاركهم فى الاحتفال بهذا العيد ، من ايقاد النيران فى الطرقات ، ومن صب الماء بعضهم فوق بعض أيضا (٣٠٧) .

ويقول ابن زولاق ، بشأن هذه الأوامر : « لما تولى المعز مصر ، منع القبط من صب المياه فى يوم النوروز فى الطرقات ، ووقود النار فى تلك الليلة ، ومن النزول فى المراكب ، وضرب الخيام على شاطىء البحر عند المقياس ، لأنه كان تحصل بسبب ذلك مفاسد عظيمة . فأبطل ذلك جميعه ، ونادى أن كل من يفعل ذلك يصلب » (٣٠٨) ولكن هذا المنع لم يدم طويلا . ففى عيد النوروز فى السنة التالية ، أى فى سنة ٣٦٤ هـ ، قام المحتفلون به ، بما اعتادوا القيام به من عادات صب الماء ، وايقاد النيران ، منذ القدم . بل توسعوا فى ذلك ، فزادوا من اللعب بالماء والتراش به ، وايقاد النيران فى الطرقات وطافوا بالأسواق ، وخرجوا الى القاهرة يمرحون ، واستمروا على احتفالهم ثلاثة أيام ارتكبوا فيها المنكرات فى الأسواق ، مما آثار غضب الخليفة المعز لدين الله ، فأمر بايقاف هذا الاحتفال ، وأمر بمنع ايقاد النيران ، وصب الماء . وقبض على بعض المحتفلين فى ذلك الوقت ، فحبس قوم منهم ، وطيف بآخرين فى الطرقات على ظهور الجمال (٣٠٩) .

كان الاحتفال بعيد النوروز فى عهد بقية الخلفاء الفاطميين من المواسم التى تعطل فيها الأسواق ، ويقل فيها سعى الناس فى الطرقات ، وتوزع الملابس والأموال على رجال الدولة وأولادهم ونسائهم ، الى جانب توزيع الفواكه والمأكولات مثل البطيخ والرمان واللوز والتمر والسفرجل ، والهريسة المصنوعة من لحوم الدجاج والضأن والبقر . كما كان يكثر الناس فى ذلك العيد من شرب الخمور ، ومن رش الماء والأقذار على الناس . وبلغ الأمر الى درجة أن كثيرا من الناس فضل الاقامة فى منازلهم ، فى مثل هذا اليوم عن الخروج للمشاركة فى الاحتفال به . وكان الفاطميون يتخذون أميرا ، يسمونه أمير النوروز ، ويخرج فى موكب حافل فى ذلك العيد لتوزيع الهدايا على رجال الدولة على اختلاف درجاتهم (٣١٠) .

وكان عيد النوروز هو الاحتفال الوحيد الذى عمد الخليفة المعز لدين الله الى الحد من بعض عادات القبط فيه ، ومنعهم من القيام ببعضها ، بينما من الواضح أن القبط قد باشروا الاحتفال بأعيادهم الأخرى فى حرية وهدوء تام فى عهد هذا الخليفة .

أما الخليفة الفاطمى الثانى فى مصر وهو العزيز بالله ، فقد تدخل فى تحديد احتفال القبط بعيدين من أعيادهم الدينية ، أولهما عيد الغطاس ، فقد منع فى سنة ٣٦٧ هـ القبط من اظهار ما كانوا يفعلونه فى ذلك اليوم من الاجتماع للهو والمرح ونزول الماء ، وخلاف ذلك من المنكرات ، وبلغ به الأمر أنه حذر من يحاول أن يعود الى فعل ذلك من القبط والمسلمين ، وهددهم بالنفى بعيدا عن القاهرة (٣١١) . ومما لا شك فيه أن ذلك كان ناتجا عن مغالاة القبط فى اظهار المنكرات والمجون ، لأننا نعرف الكثير عن تسامح هذا الخليفة مع المسيحيين جميعا القبط والملكانيين ، لأنه كان متزوجا من مسيحية .

أما العيد الثانى ، فهو عيد الصليب ، حيث يخرج الناس فيه الى ظاهر الفسطاط ، ويقومون بكل ما هو منكر من المحرمات والمنكرات ، ولذلك أمر الخليفة العزيز بالله سنة ٣٨١ هـ ، بمنع الناس من الخروج الى ظاهر الفسطاط ، وبضبط الطرق والدروب . ولم يلبث أن عاد القبط ومن يشاركهم فى الاحتفال بعيد الصليب الى عاداتهم التى اعتادوا عليها منذ القدم فى مثل هذا اليوم فى السنة التالية ، أى فى سنة ٣٨٢ هـ ، وخرجوا الى ظاهر الفسطاط ، وجروا على عاداتهم فى الاجتماع واللهو (٣١٢) .

أما الخليفة الفاطمى الثالث فى مصر ، وهو الحاكم بأمر الله ، المعروف بسياسته المتقلبة ، فقد منع القبط من الاحتفال بكثير

من أعيادهم الدينية . ونلاحظ أن موقفه هذا من أعياد القبط ، لم يكن على هذا النحو في مبدأ توليه الخلافة ، فقد احتفل القبط بأعيادهم في حرية كاملة . وكان الخليفة الحاكم بأمر الله يخرج بنفسه لمشاهدة الاحتفال بهذه الأعياد وما يجرى فيها من الآثام . وفعل المنكرات ، ويبدو أنه كان يقدم لمشاهدة الاحتفال متنكرا حتى يتمتع المحتفلون بكامل حرياتهم ، ويتصرفوا على سجيتهم . ويذكر ابن سعيد الأنطاكي (٣١٣) ان الخليفة الحاكم بأمر الله ، قد حضر بنفسه احتفال القبط بعيد الغطاس في كثير من السنوات . وكان متنكرا لا يعلم به أحد من المحتفلين .

وأول خطوة أقدم عليها الحاكم بأمر الله ، لمنع احتفالات القبط ، كانت في سنة ٣٩٨ هـ . فقد كان من عادة المصريين من القبط وغيرهم في الاحتفال بيوم الشعانين ، تزيين الكنائس بأغصان الزيتون ، وسعف النخيل ، كما كان يفرق منها على الناس قبطا ومسلمين على سبيل التبرك . وقد أمر الحاكم بأمر الله في هذه السنة بمنع مظاهر الاحتفال على هذا النحو في مثل هذا العيد في جميع أنحاء دولته ، ونهى عن حمل أوراق الزيتون وسعف النخيل في الكنائس أو الطرقات ، وحذر الذميين ، وهددهم أشد التهديد ، بل وقبض على المخالفين لهذه الأوامر (٣١٤) .

وفي سنة ٤٠٠ هـ ، أمر الخليفة الحاكم بأمر الله بمنع القبط ومن يشاركهم من عامة المسلمين من الاحتفال بليلة الغطاس ، على ما جرت به العادة بين القبط ، وما كانوا يظهرونه من الاجتماع على شاطيء النيل ، واللهو في مثل هذه الليلة ، وكان ذلك بعد أن شاهد بنفسه ـ كما ذكرنا ـ الاحتفال بهذا العيد سنوات متكررة وأمر « ألا يتعرض أحد من سائر الناس كافة الى فعل شيء من ذلك في تلك الليلة أو ذلك اليوم ، وأن يعرض عنه ، ويصرف عن ذكره ، ويجري مجرى سائر الأيام ، ولا يستعد له ولا يحتفل به » (٣١٥) .

وفى سنة ٤٠٢ هـ كتب الحاكم بأمر الله سجلا ، وأمر بقراءته فى الجامع العتيق ، وفى جميع الطرقات ، يتضمن منع القبط من الاحتفال بعيد الصليب ، وأن يحول دون اجتماعهم من أجل ذلك : وألا يظهروا زينتهم فيه ، وألا يقدسوا فى الكنائس وألا يجتمعوا فيها (٣١٦) .

والواضح من الروايات التاريخية المختلفة ، ان الحاكم بأمر الله ، قد منع القبط من الاحتفال بأعيادهم الدينية جميعها ، فأبطلت رسومها واحتفالاتها فى جميع أنحاء الدولة . وكان النصارى فى غير عهده ، يحتفلون بها فى بذخ عظيم ، ويتخذونها فرصة لاقامة المظاهرات الدينية العظيمة ، فيشهرون الصلبان فى مواكب احتفالاتهم ويضجون بالترتيل ، والصلوات ، والقراءات من الانجيل ، ولا سيما على شواطئ النيل ، ويهرع الكثير من المسلمين لمشاهدتها فى كل مكان . فأبطل الحاكم بأمر الله ذلك جميعه (٣١٧) .

وباستثناء هذه الفترات المحدودة ، التى ضيق فيها الخلفاء الفاطميون الأوائل على القبط فى الاحتفال ببعض أعيادهم ، نجد ان القبط تمتعوا بكامل حرياتهم فى الاحتفال بأعيادهم الدينية ، والقيام فيها بما اعتادوا القيام به من الطقوس الدينية ، والمواكب الفخمة . كما صار للحكومة فى ذلك العصر عادات ورسوم فى مثل هذه الأعياد تحرص أشد الحرص على القيام بها كما سنرى .

يحتفل القبط فى مصر ، بعيد الميلاد فى اليوم التاسع والعشرين من شهر كهيك من كل عام . وقد جرت العادة فى مثل هذا اليوم ، بتزيين الكنائس ، وكثرة القناديل الموقدة فيها ، كما كانوا فى مثل هذا اليوم يلعبون بالنار ، ويتهادى فيها الأطفال الشموع الملونة بألوان زاهية متعددة ، والتماثيل البديعة الشكل .

وقد شاركت الحكومة الفاطمية ، القبط فى الاحتفال بهذا اليوم . وصـار من رسوم الدولة وعـاداتها ، فى ذلك اليوم ، توزيـع الجامات (٣١٨) المملوءة بالحلاوة القاهرية والمشارد (٣١٩) التى فيها السـمك ، وقرامات الجلاب (٣٢٠) وطيافير الزلابية (٣٢١) والبورى ، على أرباب الدولة من أصحاب السيوف والقلم (٣٢٢) .

أما خميس العهد أو خميس العدس ، كما يسميه المصريون أحيانا ، فقد شارك فى الاحتفال به الخلفاء والحكام الفاطميون . وأصبح من رسوم الدولة فى هذا اليوم توزيع الأموال والهدايا أيضا على كبار رجال الدولة . وبلغ الأمر الى حد أنه كان يضرب خصيصـا لهذا اليوم خمسمائة دينار من الذهب ، وعشرة آلاف خروبة (٣٢٣) . وكان القبط يتهـادون فى هذا العيـد ، يهادى بعضهم بعضا ، كما كانوا يهادون المسلمين أيضا بأنواع السمك المختلفة والعدس والبيض وخلاف ذلك (٣٢٤) .

وتشير بعض المصادر التاريخية الى أنه كان كثيرا ما يشارك الخليفة الفاطمى وكبار رجال دولته فى هذه الأعياد ، ويحضرون بأنفسهم احتفالات القبط بها . نذكر من الأمثلة على ذلك ، ما حدث فى الاحتفال بعيد الغطاس فى بداية عهد الخليفة الحاكم بأمر الله فى سنة ٣٨٨ هـ . فقد نصبت الخيام والمضارب والأسرة على شاطئ النيل وأقيمت مجالس خاصة للرئيس فهد بن ابراهيم النصرانى وكان يعمل فى ذلك الوقت كاتبـا لبرجون الوصى على الخليفـة الحاكم . وقد أوقدت فى هذا اليوم الشموع والقناديل ، واجتمع المغنون حول الرئيس فهد وكان فى صحبته أهله ، وشرب الجميع فى هذه الليلة الخمور ، وغطسوا فى النيل ثم انصرف الرئيس فهد الى داره وتفرق الحاضرون (٣٢٥) .

وشارك الخليفة الظاهر ، القبط ، الاحتفال بعيد الغطاس فى سنة ٤١٥ هـ ٠ اذ ضربت له خيمة خاصة به وبأهله على شاطىء النيل لمشاهدة الاحتفال بهذا العيد ، وقد أمر الخليفة فى هذه الليلة ألا يختلط المسلمون بالقبط عند نزولهم الى النيل ليلا ٠ ومن مظاهر الاحتفال فى هذه الليلة ، ايقاد المشاعل والنار ، ويكثر الناس من شراء الفواكه واللحوم ٠ كما قدم الى شاطىء النيل ، كثير من الرهبان والقسس يحملون الصلبان والنيران ومجامر البخور والأناجيل وأكثروا من الصلوات والقراءات حتى جاء وقت الغطس فى النيل ، فغطسوا ، وانصرف الحاضرون ٠ وكان من رسوم الحكومة الفاطمية فى ذلك العصر أن يوزع على سائر أهل البلاد وخاصة الموظفين فى الدولة ، الفواكه من النارنج والليمون ، والقصب ، وكذا السمك وخاصة البورى منه (٣٢٦) ٠

ويقول ابن سعيد الأنطاكى (٣٢٧) عن أعياد القبط فى عهد الخليفة الظاهر : « عاد النصارى الى التظاهر بأعيادهم ، وخروج البواعيث الى كنائسهم التى فى ظاهر المدينة ، والتظاهر بذلك ، والظاهر يحضر لمشاهدة اجتماعاتهم ، ويتقدم بصيانتهم » ٠

وشارك الخليفة الآمر بأحكام الله فى احتفال بعيد النوروز فى سنة ٥١٦ هـ ، وقد حمل اليه فى هذا اليوم أفخر الثياب وأجودها ٠ وكان من رسوم الدولة الفاطمية فى مثل هذا العيد توزيع الكسوات ، وكثير من أنواع الطعام والفواكه ، والأموال على جميع الناس ٠ وكانت تضرب دنانير ودراهم خصيصا لمثل هذا اليوم ٠ يقول المقريزى (٣٢٨) : « وأحضر كاتب الدفتر ، الاثباتات بما جرت العادة به من اطلاق العين ، والورق ، والكسوات على اختلافها فى يوم النوروز ، وغير ذلك من جميع الأصناف ، وهو أربعة آلاف دينار وخمسة عشر ألف درهم فضة ٠ والكسوات عدة

من شعق (٣٢٩) دبيقى مذهبات ، وحريريات ، ومعاجر ، وعصائب رشنيخ وفوط دبيقى حريرى ..» .

ومما تجدر الاشارة اليه ، أنه كان يحدث فى بعض الأحيان أن يخشى القبط من تدخل بعض المسلمين لافساد احتفالاتهم والحاق الاهانة بهم ، لذلك كانوا يطلبون من حاكم اقليمهم أو مدينتهم أن يساعدهم فى الحيلولة دون حدوث ذلك . ونستدل على ذلك بما حدث فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى ، حينما سمح أمير الاسكندريه فى ذلك العصر ويسمى حصن الدولة بن ميرو الكتامى ، الدمشقى ، للقبط بالاحتفال بعيد الشعانين كعادتهم وجعل فى صحبة المحتفلين طائفة من جنده الخاص وأصحابه ، وأوصاهم بالمحافظة على سير الاحتفال ، واذا حاول أحد من المسلمين القاء حجر على المحتفلين ، يختم بابه ، واذا تكلم مسلم بما فيه اهانة للقبط يقبض عليه فى الحال ويساق الى الحبس ، ونادى بذلك فى جميع أرجاء مدينة الاسكندرية (٣٣٠) .

وازاء عطف هذا الأمير المسلم ، خرج القبط فى مدينة الاسكندرية كعادتهم فى ليلة الشعانين من كنيسة أبى سرجة الى كنيسة السطير ، وطافوا بأنحاء المدينة يحملون الصلبان ومجامر البخور ، وأغصان الزيتون وسعف النخيل ، وصاحبهم حرس الأمير ليمنع الحاق أى أذى أو اهانة بهم فى هذا العيد (٣٣١) .

والى جانب هذه الأعياد الدينية الرسمية التى كان القبط يحتفلون بها منذ ظهور المسيحية ، وطوال العصور الاسلامية ، نجدهم أيضا يحتفلون بأعياد بعض القديسين والشهداء فى الكنائس والأديرة الخاصة بهم ، أو بمعنى آخر التى تسمى بأسمائهم تكريما لهم واعترافا منهم بصدق ايمانهم . ونرى أن هذه الأعياد لم تكن

عامة يشترك فيها جميع القبط ، وانما كانت أعيادا خاصة بناحية معينة حيث يوجد الدير أو الكنيسة . فيحتفل بهـ ـ فى الغالب ـ سكان هذه الناحية من القبط ، وقد يشارك فى هذه الأعياد بعض القبط من المناطق الأخرى •

ونذكر من أمثلة هذه الأعيـاد ، عيد دير شـعران (٣٣٢) ـ بناحية طرا ـ ويحتفل به فى الجمعة الخامسة من الصوم الكبير ، ويحضر هذا الاحتفال البطرك وكبار القبط ، وينفقون فيه أموالا كثيرة (٣٣٣) •

ومنها عيد مغارة شقلقيل ، الذى يجتمع فيه كثير من القبط لاحياء ذكرى يومينا ، أحد الجند الذين عاقبهم ، وعذبهم دقلديانوس ، ليرجع عن دين المسيح ويعبد الأصنام ، الا أنه ثبت على دينه فقتله فى اليوم العاشر من شهر حزيران (يونيو) الموافق اليوم السادس عشر من شهر بابه (٣٣٤) •

وأيضـا نذكر عيـد دير سرياقوس الذى يعرف بأبى هور ، ويجتمع القبط فى الدير ، للاحتفـال بالعيد (٣٣٥) • ومن هذه الأعياد أيضا عيـد دير المغطس • ويوجد هذا الدير بالقرب من بحيرة البرلس عند الملاحات ، ويذكر المقريزى (٣٣٦) أن النصارى تحج الى هذا الدير من الدلتا والصعيد ، مثل حجهم الى كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، ويكون هذا العيد فى شهر بشنس ، ويسمى عيد الظهور ويذهبون الى أن السيدة مريم تظهر لهم فى هذا اليوم •

ومنها أيضا عيد الشهيد ، الذى يحتفل القبط به ، اذا حان زمن الفيضان وزيادة النيل • ويخرجون فيه تابوتا ، وضع فيه اصبع أحد الشهداء القبط ، ويلقى به فى النيل (٣٣٧) • أما عيد

ماري جرجس ، الذى يحتفل به قبط الواحات ، فقد جرت العادة فيه ، أن يخرج القبط فيه تابوتا فيه جسد هذا الشهيد بعد لفه في كسوة جديدة ، ويطاف به البلد جميعه بالشموع والصلبان والقراءة ، ثم يعودون به الى كنيسته (اى كنيسه ماري جرجس) (٣٣٨) ٠

ومن أعياد القديسين المشهورة فى مصر ، عيد القديسة بربارة فى ليلة اليوم الرابع من شهر كانون ٠ وفيه يجتمع جميع القبط فى مصر والقاهرة فى كنيسه القديسة بربارة ، وكثيرا ما يشاركهم المسلمون فى الاحتفال بهذا العيد لمشاهدة ما يقوم به القبط على سبيل الترفيه عن أنفسهم ٠ وكان من عادة القبط ان يقدموا الى هذه الكنيسة فى السر ، التماسا للبركة ، ويدهنوا أجسامهم من زيت القناديل ٠ كما كان كثير من القبط يسمون بناتهم على اسمها (٣٣٩) ٠

ومن الأعياد الكبرى عند القبط أيضا ، عيد سرعان ما اتخذه المسلمون أيضا عيدا لهم ، وهو عيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة ٠ وقد جرت عادة العامة فى هذا اليوم ، من كل سنة ان يطوفوا قبل الخروج للسجن ، أسواق البلد بالطبول والبوقات ، ليجمعوا من التجار ماينفقونه فى خروجهم ٠ ولكن حدث فى سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٥ م) ان اشتد الغلاء فى البلاد ، فامتنع التجار عن دفع ما اعتادوا عليه فى مثل هذا اليوم من كل عام ٠ فأمر الخليفة الفاطمى الظاهر لاعزاز دين الله ، التجار ، بأن يدفعوا للمحتفلين ما جرت به العادة ، بل وأن يطلق لهم ضعف ما أطلق لهم فى السنة الماضية ٠ فخرجوا الى سجن يوسف بالجيزة ، ومعهم التماثيل وغيرها مما يثير الضحك ، ويوفر لهم سبل اللهو ٠ وقد شاركهم الخليفة آنذاك فى هذا الاحتفال ، فخرج مثلهم الى الجيزة وأقام

يومين وشـــارك المحتفلين فى ضـــحكهم ولهوهم ، واستظرف احتفالهم (٣٤٠) ٠

أما الطائفة الأخرى من أهل الذمه فى مصر ، وهم اليهود ، فقد لمسنا من دراستنا لتاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية ـ من الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى ـ عدم اهتمام المصـادر التاريخية المختلفة بهم ، وخاصة فى عصر الولاة ، بل ويمتد ذلك أيضـا فى عصر الدولتين الطولونية والاخشيدية ، ما عدا بعض الاشارات البسيطة اليهم ٠ كما لم تشر مصـادر تاريخ مصر من قريب او بعيد الى السبب الذى أدى الى اهمال الحديث عن هذه الطائفة ٠ ونحن نرجح أن ذلك ، كان راجعا الى قلة عدد اليهود فى مصر بالنسبة الى عدد القبط بها ٠ الى جانب عدم تدخل اليهود فى الحياة السياسية ، وانصرافهم الى مباشرة نشاطهم الاقتصادى فى هدوء وسلام بعيدا عن المشاكل السياسية ٠ ونلاحظ أنه عندما قدم عمرو بن العاص فاتحا لمصر ، لم يحدث اطلاقا ان تعرض له اليهود ، أو أبدوا أية مقاومة تحول دون اتمام الفتح ، ولذلك نجده يكافىء اليهود ، خاصة يهود مدينة الاسكندرية ٠ فجعل بين شروط العهد الذى منحه لسكان هذه المدينة ، شرطا يتضمن السـماح لليهود بالاقامة فى الاسكندرية مقابل دفع الجزية للمسلمين (٣٤١)٠ ومما لاشك فيه أنهم تمتعوا ، بكافة حقوقهم وحرياتهـم الدينيـة والاجتماعية مع الالتزام بأحكام الاسلام الأخرى بشأن أهل الذمة من ناحية الملبس والمسكن والركوب وغير ذلك ٠

كما يبدو من الكتابات المتبادلة بين عمرو بن العاص ، والخليفة عمر بن الخطاب ، أن عدد اليهود ، كان قليلا فى مصر ، وأنهم كانوا يتركزون فى مدينة الاسكندرية بصفة خاصة ٠ فنجد عمرو بن العاص يكتب الى الخليفة عمر ، عند وصفه مدينـة الاسـكندرية له عقب

الفتح ، أنه وجد بها حوالى اربعين ألف يهودى (٣٤٢) • وكان ذلك الحديث هو كل ما ذكرنه المصادر عن اليهود فى عصر عمرو يلى وطوال عصر الولاة ، فلم يأت لهم بعد ذلك ذكر فى الحياة السياسية أو الاجتماعية طوال هذه الحقبه من التاريخ •

ثم جاء ذكر اليهود بعد ذلك فى المصادر التاريخية فى عصر الدوله الطولونيه ، حينما ألزم الأمير أحمد بن طولون بطرك القبط أنبا خايال (او ميخائيل) بدفع غرامة مالية قدرها عشرون ألف دينار ، ولم يكن لديه من الأموال ، ما يمكنه من دفع هذه الغرامة ، مما اضطره الى بيع بعض الكنائس القبطية فى مصر القديمة ، وأيضا بعض أملاك الكنائس الأخرى ، وقد اشترى اليهود منه كل ما أراد بيعه فى ذلك الوقت (٣٤٣) • ونستدل من ذلك على ثراء يهود مصر ، وأن اليهود فى مصر لم تكن سكناهم مقصورة على الاسكندرية ، وانما انتشر اليهود – فى ذلك العصر – فى غيرها من المدن المصرية ، ومنها الفسطاط •

ونرى أن اليهود لم يأت لهم ذكر بعد ذلك فى المصادر التاريخية حتى زوال الدولة الطولونية ، وقيام الدولة الاخشيدية • ونجد اشارة واحدة نفيد أن كافور الاخشيدى ، قد استخدم منهم ، يعقوب بن كلس الذى اعتنق الاسلام فيما بعد ، وخدم الدولة الفاطمية ويبدو ان اليهود طوال هذه العصور التاريخية كانوا يمارسون أعمالهم ، وحرفهم المختلفة دون تدخل فى السياسة ، مما لم يجذب انتباه المؤرخين ومما أدى الى اهمال المصادر التاريخية لهم •

بينما كان العصر الفاطمى – فى الواقع – أزهى العصور التاريخية بالنسبة لليهود فى مصر • ونلاحظ ان كل ما كتب عن

مجتمعهم وتنظيمه مما كان لهم من رؤساء دينيين وقواد روحانيين يرجع الى هذا العصر · ونحن نرجح ان السبب فى ذلك ، هـو اشتراك بعض اليهود فى الحياة السياسية ، وقيامهم بدور فعال فى ادارة شئون البلاد · فقد قرب بعض الخلفاء الفاطميين كثيرا من اليهود اليهم واستخدموهم فى الحكومة ـ كما رأينا ـ وكان هؤلاء الموظفون يرعون شئون اخوانهم فى الدين وينظمون أمورهم ، ومن ثم صار لهم مجتمع منظم له رؤساؤه وقواده الروحانيون ؛ مما كان له أثره فى المجتمع المصرى ·

كان اليهود ينقسمون الى فرق وأحزاب مختلفة ـ شأنهم فى ذلك شـأن القبـط ـ وهى ، الربانيـون والقراءون (٣٤٤) والسامرة (٣٤٥) ، وقد انتشر اليهود فى كثير من المدن المصرية فى العصر الفاطمى ، ولم تكن اقامتهم مقصـورة على الاسـكندرية ، او القاهرة وهى العاصمة الفاطمية الجديدة · والدليل على ذلك الاحصاء الذى قام به الرحالة بنيامين التوديلى الذى زار مصر فى عهد الخليفة العاضـد ـ آخر الخلفـاء الفاطميين فى مصر ـ فى سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٤ م) ·

وقد ذكر هذا الرحالة أنه يوجد فى مدينة قوص (Kous-Kuts) على حـدود مصر ـ ثلاثة آلاف يهـودى ، وفى الفيـوم عشرون يهوديا ، وهذا العدد يعتبر قليلا بالنسبة لسـكان المدن الأخرى من اليهود · بينما كان يعيش بالفسـطاط ألفـا يهودى ، ولهما معبدان ، أحدهما لجماعة اليهود الفلسـطينيين ، ويسمى المعبد السريانى ، والآخر لجماعة اليهود العراقيين أو البابليين · وكان فى بلبيس فى ذلك الوقت ثلاثة آلاف يهودى ، الى جانب سكانها من المسلمين والقبط · وفى مدينة زفتى يسكن مائتا ألف يهودى ، بينما كان يسكن مدينة دميرة سبعمائة من اليهود · كما كان يعيش

حوالى خمسمائه يهودى فى مدينه المحلة . كما كان يعيش فى مدينه الاسكندرية آنذاك حوالى ثلاثه آلاف من اليهود . أما يهود دمياط فكانوا مائتى يهودى ، بينما كان لايوجد فى مدينه تنيس سوى اربعين يهوديا (٣٤٦) .

ونلاحظ أن عدد جميع هؤلاء اليهود ، يعتبر قليلا بالنسبه لعددهم زمن الفتح العربى . كما نلاحظ انتشارهم فى المدن المصرية فى الوجهين البحرى والقبلى ، بينما كانوا يتركزون فى الاسكندرية زمن الفتح . أما عن نقص عدد اليهود فى العصر الفاطمى ، عما كان عليه عند الفتح العربى لمصر ، فذلك راجع الى اسلام الكثير منهم . واما انتشارهم فى المدن المصريه ، فذلك راجع الى حب اليهود الهجرة من أجل التجارة . والى جانب ذلك نلاحظ هجرة عدد من يهود الشام وأيضا يهود العراق الى مصر . فصار لهم جماعات مميزة باسم جماعة الفلسطينيين وجماعة البابليين .

وتشير بعض الروايات التاريخية الى تركز اليهود فى بعض أحياء القاهرة . نذكر من ذلك سكناهم حارة الجودرية التى امر الخليفة الحاكم بأمر الله ، باحراقها ، وكان لهم فيها معبد (٣٤٧) . وسكنوا أيضا سويقة اليهود بقصر الشمع ، حيث كانت توجد دار رئيس اليهود ويوجد لهم فيها أيضا حانوت للجزارة ، ومعبد بجوار درب القرامطة . ويبدو أن عددا كبيرا من اليهود تركز فى حارة زويلة ، بدليل اقامتهم خمسة معابد لهم فى هذا المكان (٣٤٨) .

وكان لليهود رؤساؤهم الدينيون ، وقوادهم الروحانيون ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء الناجد (Nagide) وهو ما يسمى فى العربية برئيس اليهود . ومهمته رئاسة سياسة المجتمع اليهودى فى مصر (٣٤٩) .

وأصل هذه الوظيفه فى المجتمع اليهودى المصرى غامض ، وظهرت لاول مرة فى تاريخ مصر فى العصر الفاطمى . واول من شغل هذه الوظيفه بالتيل — (Paltiel) وكان رئيس اليهود فى المغرب وشمال افريقيه ومصر . وقد خلفه فى رئاسه اليهود ابنه صمويل Samuel (٣٥٠) الذى باشر هذه المهمه عده سنين ، وتمكن من الحصول لليهود ، على تصريح يسمح لهم بالسير فى الطرقات ليلا ، وهم يحملون الفوانيس . كما انه اشترى مقبرة لدفن موتى اليهود فيها (٣٥١) . وبعد وفاة هذا الناجد ، صار لكل من مصر وشمال افريقيه ناجد ، مستقل عن الآخر (٣٥٢) .

ويشير بنيامين التوديلى (٣٥٣) فى رحلته أيضا الى ان رئيس كل جماعات اليهود فى مصر كان فى ذلك الوقت يسمى ناثانيل — R. Nathanel وانه هو الذى كان يعين موظفى المعـــابد . وان الكراهية والتنافس بين بغداد والقاهرة ، او بعباره اخـــرى بين الخلافتين العباسيه والفاطميه ، كانت سببا فى وجود رئيس ليهود مصر ، مستقلا عن رئيس اليهود فى بغـــداد ، وأنه كان فى مصر يسمى « أمير الأمراء » . ويقول آدم متز (٣٥٤) : ان رئيس اليهود فى القاهرة كان يسمى سرهسساريم (ويبــدو ان هذا اللفظ ، عبرانى ، معناه أمير الأمراء) وانه كان يعين أحبار اليهود فى مصر والشام وهى البلاد التى كانت فى حوزة الخلافة الفاطمية . وأن الفاطميين قد تكلفوا ايجـــاد هذه الطائفة الخاصـــة من الأمراء (ناجد — أمير) بالقــاهرة ، رغبــة منهم فى معارضــة كل ما هو بغدادى .

وجرت العادة فى مصر ، أن يكون الناجد من طائفة اليهــود الربانيين دون غيرهم ، ويكون له الحكم على طوائف اليهود الأخرى ، والقرائين والسامرة (٣٥٥) ويشترط أنه يكون من أكبر الكهنة ، وأكثر الأحبار علما ، وأن يكون متعمقا فى الدين اليهودى ، كما يكون

سياسيا محنكا . فيقول القلقشندى (٣٥٦) : « وكان الذى يختار لذلك ، ينبغى ألا يكون الا من أكبر الكهنة ، وأعلم الأحبار ، وممن عرف من دينهم ما لأجله يصطفى ، ولمثله يختار ، وممن فيه سياسة تحجزه عن المضار ، وتحجبه عن الاستنفار » :.

اما عن مهام الناجد وواجباته ، فى المجتمع اليهودى فى مصر ، ازاء اليهود على اختلاف مذاهبهم ، فاهمها مراعاة مصالح اليهود ، والحرص على الوحدة والألفه بينهم . وأيضا الحكم بينهم ، طبقا لقوانينهم وما تمليه عليهم التوراه . ويقوم بعقود الزواج . وقوانين العقوبة والحرمان على كل من يستحق ذلك من اليهود ، ويراعى ان تكون قبله اليهود فى الصلاه الى القدس . كما كان عليه ، الى جانب ذلك ، الزام اليهود بمراعاة أحكام الاسلام بشأنهم ، والالتزام بها شأنهم فى ذلك شأن القبط . ويقوم الناجد أيضا بتنظيم المجتمع اليهودى ، وقواده كل حسب درجته وطبقته ويكون له الحديث فى جميع المعابد اليهوديه (٣٥٧) .

وهكذا كان الناجد فى جماعة اليهود ، شأنه شأن البطرك فى جماعه القبط وهو عند المسلمين ، بمثابة الحامى لليهود ، والمدافع عنهم ، والمطالب بحقوقهم . ومما لاشك فيه ان هذا الرئيس الدينى كان اسمه يسجل فى الديوان ، كما كان يكتب له توقيع أو سجل بولايته هذا المنصب ، الى جانب وصيته بما يجب عليه أثناء قيامه بهذه المهمة الخطيرة (٣٥٨) . وسنورد ضمن الملاحق نصا ، يتضمن توقيعا برئاسة اليهود ، ووصية له بما يجب عليه مراعاته .

وكان الناجد يقيم غالبا فى القاهرة ، وبصفة خاصة فى قصر الشمع (٣٥٩) . الا انه كان فى بعض الأحيان ، يضطر الى الاقامة فى الفيوم والاسكندرية لفترة محدودة . وتذكر بعض الروايات ان

الناجد ميبوراك بن سعد Meborak B. Saadia المعاصر لوزارة الأفضل بن أمير الجيوش ، وخلافة الآمر بأحكام الله الفاطمى ، اضطر الى الاقامه بعض الوقت فى الفيوم والاسكندرية ، هربا من بعض المضايقات التى تعرض لها فى القاهرة نتيجة لسعاية بعض خصومه به (٣٦٠) .

ويبدو أنه كان يوجد بين اليهود رئاسه عليا أخرى ، يحمل صاحبها لقب جون (Gaon) ويبدو ان هذه الوظيفة كانت دينيه بحتة وليس لها علاقه بالحياة العلمانية ومن العسير تحديد العلاقه بين هذه الرئاسة الدينية وبين الناجد الأكثر علمانيـة ودنيوية لقلة ما لدينا من الوثائق التى توضح لنـا ذلك . ويبدو ان هذا المنصب الدينى ، قد تنازع عليه كل من اليهود البابليين واليهود الفلسطينيين فى مصر . وكثيرا ما كانت الحكومة الفاطمية وناجد اليهود فى مصر ، يتدخلان ، لتأييد جماعة ضد أخرى . كما حدث فى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، حينما أيدوا أحد اليهود من الجماعة الفلسطينيين للحصول على هذا اللقب ومباشرة هذا المنصب دون منافسه من البابليين . وقد انعكس موقفهما فى مرة أخرى ، فساعدت كل من الحكومة الفاطميـة ، وناجد اليهود ، أحد اليهود البابليين فى حمل هذا اللقب أيضا ، فصار له نفوذ على اليهود فى الاسكندرية ودمياط والفسطاط حيث أثقل كاهل اليهود بالضرائب . كما كان له نفوذ أيضا على يهود عسقلان وقيسارية وحيفا وبيروت وصيدا .

وهكـذا نجد أن هذا اللقب ـ أى لقب Gaon ـ منح لأكثر من شخص فى وقت واحد ، كما يبدو انه لم يكن له شروط محددة بدليل تنافس البابليين والفلسطينيين من أجل الحصول عليـه . ولكن ما لبث ان تبين الناجد ميبوراك خشـونه طبع الجـون

البابلى ، فبذل اقصى جهده فى حرمانه من هذا اللقب ، ومن مباشرة نفوذه ، واستعمل ابياثر Abiathar الفلسطينى بهذه المهمة ، وصار رئيس اليهود فى مصر ، الذى يحمل لقب جون ، وذلك فى سنة ١٠٩٤ م (٣٦١) . ونستخلص من هذه الروايــات ان وظيفة الجون كانت دون وظيفة الناجد وان الأخير له الرئاسة على الأول .

يأتى بعد ذلك الحزان Hazzan . ويتولى رئاســة جماعة اليهود فى عدة اماكن(٣٦٢) ويقول القلقشندى(٣٦٣) : ان الحزان يكون بين اليهود بمثابة الخطيب فيصعد المنبر ويعظهم . ويشترط فيه أن يكون متعمقا فى العلم ، وخاصة العلوم الدينية ، وأن يكون حسن الصوت ، لديه القدرة على المخاطبة وجذب انتباه مستمعيه . وكان من أهم واجباته القراءة الملحنة للمصلين أثناء أدائهم للصلاة فى احد المعابد (٣٦٤) .

أما الشليحضبور (Sheliah-Sibbur) أو القارىء ، فهو بمثابة الامام الذى يــؤم جماعة اليهود للصـــلاة بهم (٣٦٥) . اما مايسمى برناس Parnas فكان من مهماته جمع الصدقات والاشراف على أموال المعابد وأملاكها (٣٦٦) . وكان من بين الوظائف الروحانية بين اليهود ، وظيفة الناسى (The Nasi) وسلطانه أدبى أكثر منه سياسى ، وكان – فى بعض الأحيان – يخلف الناجد الغائب (٣٦٧) .

والواقع ان كل طائفة من طوائف اليهود الثلاث : الربانيون والقراءون والسامرة ، كانت تنقسم بدورها الى فرق أو مذاهب ، وهم جماعة البابليين وجماعة الفلســطينيين ولكل فريق من هذه الجماعات رئيسها الدينى ويسمى « حبر » **Haber** ويشترط فيه ان يكون متبحرا فى العلوم ، ومتمكنا من التلمود (٣٦٨) . نذكر

من الامثلة على ذلك ان رئيس جماعة البابليين فى مصر ، فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، كان يسمى ابراهيم بن سهلان ، ويحمل لقب حبر الوف Haber Alluf (٣٦٩) . بينما كان رئيس جماعة الفلسطينيين او جدها فى ذلك الوقت هو ابراهيم بن شماريا ، الذى كان يسكن الفسطاط ، ويباشر مهامه كرئيس روحى لجماعة الفلسطينيين . وقد جاء اسمه فى كثير من الوثائق التى يرجع تاريخها الى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى . كما كان اسمه يذكر فى المعابد فى أيام السبت والاعياد (٣٧٠) .

وكان من بين الرؤساء او الموظفين الدينيين لليهود ، جماعة القضاة ورئيس المحكمة اذ كان لليهود محاكم خاصة بهم ، تسمى بيت الدين — Bet-Din وكان يوجد فى القاهرة محكمة رئيسية . تسمى بيت الدين الأعظم وتوجد فى معبد جماعة الفلسطينيين ويكون لها السلطة والرئاسة على المحاكم أو بيوت الدين المحلية ، التى توجد فى الأقاليم الأخرى . وكان رئيس بيت الدين الأعظم يسمى ديان — Dayyan — وكان الديان يختار اثنين من كبار اليهود ، ليكونا بمثابة معاونين له ، أو وكلاء له فى بيت الدين . أما بيوت الدين المحلية فكثيرا ما كان يرأسها الحبر ، الذى يكون قد حصل على شهادة — أو اجازة — من الأكاديمية الفلسطينية ، وليس من الضرورى ، دائما أن يكون القضاة من الأحبار (٣٧١) .

والى جانب هذه الدرجات أو الوظائف الدينية عند اليهود والتى كانت تضفى على أصحابها ، اجلالا واحتراما ، كان هناك بعض كبار رجال اليهود الذين يتمتعون باحترام اخوانهم اليهود ، وكانوا يمنحونهم بعض ألقاب التبجيل والاحترام ، فيقال لهم مثلا : الشيخ فلان أدين المذهب وأفضله ، أو سيد بيت اسرائيل ، وغير

ذلك من عبارات التعظيم . وكان لمثل هؤلاء الاشخاص شأن عظيم فى المجتمع اليهودى فى مصر ، وخاصة فى العصر الفاطمى (٣٧٢) .

ثم ننتقل بعد ذلك ، الى الحديث عن أماكن عبادة اليهود . وقيامهم فيها بصلواتهم وطقوسهم الدينية . وكانت هذه الأماكن تسمى المعابد Synagogues تمييزا لها عن كنائس القبط . واكثر معابد اليهود فى مصر كانت قديمة ، وبنيت قبل الفتح العربى . ولم يستحدث منها فى الاسلام الا المعابد التى أقيمت لهم فى القاهرة الفاطمية ، وقد انفرد المقريزى دون غيره من مؤرخى مصر الاسلامية بذكر معابد اليهود فى مصر .

وكان أعظم هذه المعابد وأكبرها مكانة لدى اليهود ، معبد دموه بالجيزة . ويزعمون ان مكان هذا المعبد ، هو المكان الذى كان موسى عليه السلام ، يبلغ منه رسالات ربه الى فرعون مصر ، حتى خرج بنو اسرائيل من الأراضى المصرية . ويذهب اليهود أيضا الى ان هذا المعبد قد تم بناؤه ، بعد خراب بيت المقدس (٣٧٣) .

ومن معابد اليهود أيضا ، معبد جوجر بالغربية . ويذهب اليهود الى ان النبى الياس عليه السلام ، قد ولد بهذا المكان ، وأنه هو الذى بنى هذا المعبد الذى ظل فى مكانه الى هذا العصر (٣٧٤) .

أما معبد المصاصة ، فيوجد فى درب الكرمة بمصر . وتشير بعض الروايات الى ان هذا المعبد قد أصلحه اليهود ، ورمموا بناءه عقب الفتح العربى لمصر فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب (٣٧٥) . بينما كان يوجد فى قصر الشمع معبدان لليهود أحدهما للفلسطينيين أو بعبارة أخرى لأهل الشام ، والثانى لجماعة البابليين وهم أهل العراق (٣٧٦) . وقد مر بنا ، ان اليهود قد

اشتروا من القبط احدى كنائس القبط اليعاقبة فى هذه المنطقة فى القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى ، فى عهد الأمير أحمد بن طولون ، وبطركية الأنبا خايال (٣٧٧) ٠

كما كان لليهود بحارة الجودرية معبد ، ولكنه صار خرابا منذ عهد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، الذى أمر باحراق هذه الحارة بما فيها من يهود (٣٧٨) ٠ وكان لهم فى حارة زويلة معبد دار الخدرة (٣٧٩) الى جانب أربعه معابد أخرى ، اثنان منها للقرائين ويسميان باسمهم ، والثالث خاص باليهود الربانيين ٠ أما المعبد الرابع فيخص جماعة السامرة (٣٨٠) ٠

وكان لليهود فى مصر ، أعيادهم الدينية الخاصة بهم ، والتى يحرصون على الاحتفال بها ، والقيام بما يتطلبه هذا الاحتفال من مراسيم دينية ٠ ونستنتج من الروايات التاريخية المختلفة أن اليهود كانوا ينفردون ، بالاحتفال بأعيادهم الدينية دون مشاركة القبط أو المسلمين لهم ٠ وكان موقف المسلمين من احتفالات اليهود الدينية ـ فى الواقع ـ يختلف عن موقفهم من احتفالات القبط ، طوال تاريخ مصر الاسلامية ٠ كذلك لم يشارك أمراء مصر وخلفاؤها اليهود فى احتفالاتهم بأعيادهم ، وذلك أيضا عكس ما لمسناه عند دراستنا لاحتفالات القبط الدينية ، وخاصة فى العصر الفاطمى ، الذى يعتبر أزهى العصور بالنسبة لليهود ، ودورهم فى الحياة السياسية ، والاجتماعية فى مصر ولعل ذلك راجع الى رغبة الخلفاء الفاطميين فى استمالة القبط وهم أكثر عددا من اليهود ٠ فكان الخلفاء الفاطميون الشيعة ، يشاركون القبط فى حياتهم الاجتماعية كسبا لتأييدهم ونصرتهم ضد خصومهم السنيين ٠

وكان لليهود فى مصر الاسلامية خمسة اعياد دينيه هى : عيد الفطير ، ويحتفل به اليهود فى اليوم الخامس عشر من شهر ابريل (نيسان) ويستمر الاحتفال بهذا العيد سبعه أيام لا يأكل فيها اليهود شيئا سوى الفطير ، ولذلك كانت تسميته بهذا الاسم . ويزعم اليهود ان هذه الأيام السبعة هى الأيام التى تخلصوا فيها من فرعون مصر ، اذ أغرقه الله (٣٨١) . ويسمى هذا العيد ايضا عيد الفصح (٣٨٢) . ويكون هذا العيد دائما فى يوم سبت دون سواه من أيام الاسبوع ويكون سابقا لعيد الفصح عند القبط (٣٨٣) .

ومن أعياد اليهود ، عيد الأسابيع ، ولعله سمى بذلك لأنه يأتى بعد عيد الفطير بسبعه أسابيع . ويذهبون الى أنه ، اليوم الذى كلم فيه الله بنى اسرائيل من طور سيناء (٣٨٤) ويسمى هذا العيد أيضا باسم عيد العنصرة وعيد الخطاب. ويقول اليهود انه كان من جملة الخطاب ، الوصايا المتضمنة الأمر والنهى والتوفيق . ويعد هذا العيد من أعظم أعياد اليهود ويكثرون فيه من عمل الحلاوى وأكلها (٣٨٥) . وجرت عادة اليهود فيه أن يخرجوا الى معبد دموه ، ويجعلون ذلك بدلا من حجهم الى القدس (٣٨٦) .

أما عيد رأس الشهر ، فيسمى أيضا عيد رأس السنة ، ويوافق هذا العيد اليوم الأول من شهر تشرين (أكتوبر) . ويذهب اليهود الى أنه هو اليوم الذى افتدى فيه ابراهيم ابنه اسحق عن الذبح . ويسمونه عيد رأس هشايا (٣٨٧) . وجرت عادة اليهود فى هذا العيد أن يكثروا من النفخ فى البوق والسوافر ، وهى قرون الكباش ، ويبطل فيه العمل ، كما تعطل الأعمال فى يوم السبت من كل أسبوع (٣٨٨) .

ومن أعياد اليهود أيضا عيد صومارياً ، وهو عيد الصـــوم الكبير (أو العظيم) ، ويسمى هذا العيد ايضــا باسـم الكبـــور أو العاشور (٣٨٩) · ولا يجوز لليهود الاحتفال به فى أيام الأحد أو الثلاثاء أو الجمعة من أيام الاسبوع (٣٩٠) · ويلتزم جميع اليهود بهذا الصـــوم ، ومدته خمس وعشرون ساعة ، تبدأ قبل غروب الشمس فى اليوم التاسع من شهر تشرين · ويختم هذا الصوم بمضى ساعة بعد غروبها من اليـــوم العاشر ، ويشترطون رؤيـه ثلاثه كواكب عند الافطار ، وهو عندهم تمام الأربعين الثالثة التى صام فيها موسى عليه السلام · ويزعمون أن الله سبحانه وتعالى ، يغفر لهم فيه جميع الذنوب التى ارتكبوها طوال حياتهم (٣٩١) :

أما عيد المظله ، فقد سمى بذلك لأنهم يستظلون فى هذا العيد ومدته سبعة أيام ، بأغصان القصب والآس والخلاف (٣٩٢) · ويبدأ الاحتفال بهذا العيد فى اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين · ويعد هذا العيد من الاعياد المقدسة عند اليهود ويؤدون فيه الحج · ويزعمون ان هذا العيد عندهم تذكار منهم لاظلال الله تعالى اياهم فى التيه بالغمام ·

وفى هذا العيد ، تعطل الأعمال ، وقد جاء فى التوراة ــ السفر الثالث ــ « وفى خمسة عشر من الشهر الســابع ، عيد المظال ، فلا تعملوا سبعة أيام ، وحجوا قدام الله حجا ، وأجلسوا فى المظال بيت آل اسرائيل كلهم ، سبعة أيام ، ليعلم أحقابكم أنى أجلست بنى اسرائيل فى المظال . اذ أخرجتم من مصر ، ويستعمله جماعة اليهود » (٣٩٣) ·

وآخر يـوم من أيـام هذا العيد ، يسمى عرافا ، وفيه وقف الغمام على رءوس بنى اسرائيل فى التيه (٣٩٤) · وقد جرت العادة

بين اليهود بأن يضع كل من امكنه ، في بيته طارمة من قصب ، وسقفها من الجريد الأخضر وسعف النخيل ، ويبرك داخلها اسفار التوراه • بينما كان بعض الأثرياء من اليهود يؤزرها بالديباج • كما كان كل يهودى يعمل فى أول أيـام هذا العيد قبضة فيها ثلاثة عيدان ، وفى كل عود ثلاثة أغصان بعضها أعلى من بعض • وفى كل غصن ثلاث أوراق ، وفى وسطها قلب من سعف النخيل ، وعود من الصفصاف ، وأترجة سـالمة من الخدوش لم يصبها أى عفن ، ويسير بهذا كله الى المعبد حيث يتركها هناك • وقبل نهاية أيام العيد يذهب كل يهودى الى المعبد حيث يؤدى الصلاة ، ويباركه قيم المعبد ، ثم يســلم الحزان عليهم ، ويقــرأ عليهم شـيئا من التـوراه (٣٩٥) •

والى جانب هذه الأعياد الدينية لليهود ، نجد بعض الأعياد الأخرى المستحدثة ، والتى اســتمروا يحتفلون بها فى مصر الاسلامية حتى القرن التاسع الهجرى • ونذكر فيها عيد الغوريم وعيد الحنكة • أما عيد الغوريم ، ويسمى أيضا عيد الفوز ، وعيد المجلة ، فقد جرت العادة بينهم على صوم الأيام الثلاثة السابقة لهذا العيد • ويسود الفرح والسرور أثناء الاحتفال بهذا العيد • ويقوم اليهود فى هذا العيد بكثير من أعمال اللهو والخلاعة • كما جرت العادة فيه بين اليهود أن يهادى بعضهم بعضا كما كانوا يصورون ، هامان ، وزير كسرى فارس أردشير ، ويعملون له تمثالا من الورق المحشو بالنخالة والملح ، ثم يلقون به فى النار حتى تحترق • وكان الغرض من وراء فعلهم هذا خدعة أولادهم الصغار (٣٩٦) •

وكان اليهود يحتفلون بعيد الحنكة ثمانية أيام • وكان من عادة اليهود فى هذا العيد ، ان يوقدوا القناديل والسروج على أبواب المنازل • وكانت هذه القناديل يزيد عددها ، يوما بعد يوم ، حتى

يصبح على باب كل دار ثمانية قناديل فى الليلة الثامنة . ويسمى اليهود هذا العيد ، أيضا ، عيد التبريك لأنهم يخرجون فى أيام هذا العيد كتابهم المقدس (التوراة) ويتباركون به (٣٩٧) . ويبدو أن اليهود فى مصر قد استمروا ، يحتفلون بهذا العيد حتى القرن التاسع الهجرى . فقد شاهد القلقشندى (المتوفى سنة ٨٢١ هـ) الاحتفال بهذا العيد (٣٩٨) .

وهكذا كان لأهل الذمة من القبط واليهود فى مصر دورهم فى الحياة العامه ، طوال تاريخ مصر الاسلامية ، منذ الفتح العربى حتى سقوط الدولة الفاطمية وقد تمتعوا فى معظم الأحيان بكامل حرياتهم الاجتماعيه والدينية فى الاحتفال بأعيادهم الدينيـــة والقوميـة ، وأيضا الاحتفال بتولية رؤسائهم وقوادهم الدينيين ، كما لمسنا فى دراستنا فى هذا الفصل .

والواقع ان طوائف أهل الذمة فى مصر ، وخاصة القبط منهم ، لم تكن فى عزلة تامة عن المسلمين . فنجـد ان المسلمين كانـــوا يشاركون القبط فى الاحتفال بكثير من أعيادهم الدينية المختلفه طوال هذا العصر . وكان ذلك ، بطبيعة الحال ، مجاملة من المسلمين لهؤلاء القبط الذين يكونون طبقة لها شأنهـــا فى المجتمع المصرى آنذاك . ومما لاشك فيه ، ان كثيرا من هؤلاء المسلمين كانوا قبطا فى الأصل قبل اعتناقهم الاسلام ولذلك كانوا دائما يتوقون الى ممارسة بعض عاداتهـم القديمـة التى اعتادوها قبل اسلامهم ، مثل اللعب بالنار ، والتراش بالماء ، والتزين بسعف النخيل ولبس الفاخـــر من الثياب ، وتبـــادل الهدايا وغير ذلك مما اعتـــاده القبط فى أعيـــادهم .

كذلك نجد بعض أمراء مصر وخلفائهـــا ـ خاصة فى عصر الاخشيديين والفاطميين ـ يشاركون القبط دون اليهود فى الاحتفال

بكثير من أعيادهم الدينية ، بل أصبح للدولة في مثل هذه الاعياد عادات ورسوم ، لايمكنها التخلي عنها . وكان ذلك مجاملة منهم لهذه الطبقة القليلة العدد من السكان كسبا لتأييدهم لهم ضد الخلافة العباسية فى بغداد . الى جانب اعتماد هؤلاء الأمراء والخلفاء على عدد كبير من القبط فى ادارة البلاد وشـــئون الحكم . فكان من الطبيعى اذن ان يشاركوا فى أعياد القبط مجامله منهم لهؤلاء الموظفين وان كنا لا نلمس مثل هذه الروح بالنسبة لجماعة اليهود فى مصر ، حتى ولا فى العصر الفاطمى الذى كان بمثابة العصر الذهبى لجماعة اليهود ، ونجد اهمال المصادر التاريخية الاشارة الى ذلك . ونلاحظ ان القبط واليهود لم يمنعوا من الاحتفال بأعيادهم هذه ، الا فى فترات محدودة ، وهى الفترات التى تعرض فيها أهل الذمة لبعض المضايقات وخاصة فى عهد الخليفة العباسى المتوكل ، وعهد الخليفه الفاطمى ، الحاكم بأمر الله .

وكان لكل من اليهود والقبط ، الى جانب أعيـــادهم الدينيه هذه ، عادات وتقاليد اجتماعية وخلقيــة ، خاصـــة بهم ، استمروا يحافظون عليها ، ويتحلون بها طوال تاريخ مصر الاسلامية ، حتى نهاية العصر الفاطمى .

أ ـ الأخلاق والعادات

شارك أهل الذمة ، من القبط واليهود ، بدورهم في حياة المجتمع المصرى • وكان لكل منهم رؤساؤهم الدينيون ، الذين يحكمون بينهم ، وينظمون شئونهم ، ويراعون مصالحهم ، ويدافعون عن حقوقهم • كما كان لكل من اليهود والقبط طقوسهم الدينيه واعيادهم التى احتفلوا بها فى حرية كاملة ، منذ الفتح العربى لمصر حتى نهاية العصر الفاطمى ، باستثناء فترات محدودة • وقد شاركهم المسلمون فى كثير من هذه الاحتفالات ، كما شارك بعض أمراء مصر وخلفائها فى بعض هذه الأعياد ، وخاصة أعياد القبط • ومما لاشك فيه انه كان لكل طائفة من هذه الطوائف ، أخلاق يتميزون بها ، وعادات يختصون بها ، ويحرصون على القيام بها ، كما كان لكل منهما أزياؤها الخاصة والتى تميزها عن المسلمين فى مصر •

ولما كان البطاركه هم رؤساء القبط الدينيين والمسئولين عنهم • كان من الطبيعى أن يكونوا قدوة ومثلا أعلى للقبط ، يسايرونهم فى أخلاقهم وطبائعهم ويتطلعون الى التشبه بهم • ونلمس من دراستنا لتاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية ، أن أهم ما كان يميز حياة هؤلاء البطاركة القبط ، الزهد والتقشف وخاصة اذا تذكرنا أن هؤلاء البطاركة كانوا رهبانا أصلا • وكان هؤلاء البطاركة يكثرون

من الصلاة والدعاء لله من أجل شعبهم القبطي . كما اشتهر هؤلاء البطاركة بالتواضع ، وعدم الاشتغال بالحياة الدنيا ، وترفعا ، فكان طعامهم يتألف ، في الغالب ، من البقول والخبز .

وتشير بعض الروايات التاريخيه الى طعام البطرك أنبا سيمون ــ الذى عاصر ، والى مصر عبد العزيز بن مروان ــ وتقول : « كان في زمانه كله غذاؤه خبز ، وملح مدقوق بكمون ، وبقل ، وما يشبه ذلك ، ليضعف شهوات الجسد ، ويجعله عبدا للروح « (٣٩٩) .

ونستخلص من الروايات التاريخيه المختلفه ان البطاركة كانوا ، دائما ، يميلون الى توفير الحريه والسلام لاخوانهم القبط ، كما كان هؤلاء البطاركة يتميزون بالرحمة والرفق باخوانهم القبط ومساعدة العوزة والمحتاجين منهم فى كل زمان ومكان ، وخاصه فى أوقات الأزمات الاقتصادية التى تعرضت لها أحيانا البلاد المصرية . وكتب التاريخ القبطية حافلة بالأمثلة العديدة على ذلك . ونذكر من هذه الأمثلة التى تدل على رفق البطاركة برعاياهم وحرصهم على تمتعهم بالحرية ، وتوفير سبل الأمن والاستقرار لهم ، ماحدث فى بطركية الأب أغاثو ــ فى القرن الأول الهجرى ــ اذ حارب المسلمون الرومان فى عهده ، واستولوا على جزيرة صقلية ، وحملوا الكثير من أهلها المسيحيين أسرى الى مصر وكان هذا البطرك يبدى ألمه ، من أجل هؤلاء الأسرى ، فبادر الى شرائهم من المسلمين ، ومنحهم حرياتهم ، فمن أراد الاقامة فى مصر ، أذن له بذلك ، ومن أراد منهم العودة الى بلاده ساعده فى ذلك (٤٠٠) .

ومن الأمثلة على ذلك أيضا البطرك أنبا مرقص (الثالث) ــ الذى عاصر النزاع بين الأمين والمأمون من أجل الخلافة ، وتنافس

الزعماء السياسيين فى مصر من أجـل النفوذ والسـيادة ـ وقد حـدث فى ذلك العصر أن استولى جمـاعه من الأندلسيين على الاسكندرية وجاءوا اليها يحملون عددا كبيرا من الأسرى ، وكان من بينهم كثير من الرهبان والقس والشمامسة والنساء والأطفال • فاشترى البطـرك مرقص أعدادا كبيرة من هؤلاء الأسرى ، اذ بلغ عددهم سـتة آلاف أسير ، وقد منحهم حرياتهم ، وخيرهم بين البقاء فى مصر ، فيصبحون من ضـمن رعاياه القبط ، أو العودة الى بلادهم • وقد رغب كثير منهم فى البقاء فى مصر بين القبط بعد أن لمسوا فى البطرك مرقص ، حبه للخير ، واقبـاله على الاحسان اليهم • فكان يعهد بهم الى معلمين لتعليمهم العلوم الدينية المختلفة أما من رغب منهم فى العودة الى بلادهم ، فكان البطـرك مرقص يزودهم بالمؤونة ، ويدفع لهم من الأموال ما يحتاجون اليه حتى يصلوا الى أهلهم ، وقد اشتهر هذا البطرك ـ نتيجة لأفعاله ـ باحسـانه وانسانيته بين الملوك والأمراء المعاصرين له (٤٠١) •

وكان البطاركة يبادرون الى مسـاعدة شـعبهم من القبط ، وتقديم المساعدات المادية لهم ، خاصة فى أوقات الغلاء والأزمات الاقتصادية التى قد تتعرض لها أحيانا البلاد المصرية • وتحفظ لنا المصادر التاريخية القبطية كثيرا من الأمثلة على ذلك •

نذكر من ذلك الغلاء الذى تعرضت له مدينة الاسكندرية ، فى بطركية أنبا يوحنا الثالث ، المعاصر لوالى مصر عبد العزيز بن مروان ـ وقد استمر هذا الغلاء ثلاث سنوات متتالية ، لم يتردد ، أثناءها ، البطرك يوحنا ، فى امداد القبط بالطعام ، وكل ما يحتاجون اليـه حتى نجوا من المجاعة • ويقول سـاويرس (٤٠٢) : « كان يدفع لهم قوتهم دفعتين فى كل جمعة ، ويدفع لهم أيضا دراهم ، وكانت طاحون الكعك لا تبطل لا ليل ولا نهار ، بل تعمـل للمنقطعين •

وكانت عينه ملآنة ، وكان كثير الصدقة ، وكان يدفع صدقات كثيرة مثل البحر » ٠

كما عانى صعيد مصر ، ومدينة الاسـكندرية ، فى بطركية أنبا يوحنا الرابع من الأزمة الاقتصادية ، ومات كثير من الناس من شدة الجوع والحاجة ٠ فحزن لذلك البطرك يوحنا : أشد الحزن ، وأخذ يتضرع الى الله بالصلوات والدعاء ليلا ونهارا وكان يقول فى صلواته ودعائه : « يارب ارحم خليقتك وعمل يديك ، لا تصنع بنا مثل خطايانا ٠ فنحن مستحقون لكل أدب ، لأنا لم نسلك فى طريق وصاياك ٠٠ » (٤٠٣) ونستنتج من هذا الدعاء أن القبط ، كانوا يعتقدون ان كل شدة تنزل بهم أو أزمة يتعرضون لها سواء أكانت سياسية أم اقتصادية ، كانت دليلا على غضب الله عليهم ، وعقابا لهم ، على أخطائهم الدنيوية ٠

كانت مخازن الكنيسة القبطية بالاسكندرية تحفل بالخيرات فى ذلك الوقت فأمر البطرك يوحنا ، الشماس مرقص ــ وكان يده اليمنى فى القيام بأمور البيعة ــ بأن يقـدم الطعام الى كل جائع بالمدينة ، وكان يقدمه الى المحتاجين فى الصباح والمساء من كل يوم ٠ ولما علم القبط بذلك ، أسرعوا الى مقر البطرك يوحنـا ، ليحصلوا منه على ما يحتاجون اليه من الطعام والأموال ، واشتهر هذا البطرك بأعماله الحسنة ، وذاع صيته فى غير مصر من البلاد الاسلامية ولم يقف الأمر عند حد مساعدة القبط فى هذه الأزمة ، بل نجده يكثر من وصاياه لكبار القبط وأغنيائهم ، يحثهم فيها على مداومة الصدقة ، والتزام الرحمة والرفق بالضعفاء والمحتاجين ، وكان يقرأ لهم ما يشير الى ذلك ويؤيده من الكتب المقدسة (٤٠٤) ٠

ولما كان البطرك دائما قدوة للقبط ، وخاصة كبارهم ، فقد كانوا يحذون حذوه فى فعل الخير ، وعمل الحسنات • فكان أعيان القبط فى مدينة الاسكندرية يقومون بتفقد الفقراء والأيتام والأرامل والمساجين من القبط ، ويقدمون اليهم كل ما يحتاجون اليه من الطعام والكسوة • ومما تجدر الاشارة اليه ان بعض الرؤساء والقواد القبط ، قد أصابه العوز والفقر ، خلال الأزمة الاقتصادبة التى نزلت بمدينة الاسكندرية • فكان البطرك ومن تشبه به من القبط لا يترددون فى مساعدة المحتاجين • كما كان هذا البطرك يؤوى الغرباء القادمين الى الاسكندرية ، واستمر على هذه السياسة الرحيمة حتى انتهت الأزمة الاقتصادية (٤٠٥) •

وكان الأساقفة فى مناطق أسقفيتهم ، يكثرون من فعل الخير والصدقة والاحسان الى الفقراء والمحتاجين من اخوانهم القبط • ومن هؤلاء نذكر الأسقف أنبا باسيايوس أسقف أرمنت ، ويحكى عنه أنه كان فى زمن الغلاء والشدة الاقتصادية ، لا يترك فى بيته خبزا الا وتصدق به (٤٠٦) • كما اشتهر بعض المستخدمين من القبط بحب الاحسان والصدقة على المحتاجين من اخوانهم ، تشبها بما كان يفعله البطاركة والأساقفة ، ومن هؤلاء الشماس بقيرة الرشيدى الكاتب ، وكان مستخدما فى عهد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، فترك الخدمة فى الديوان ، وبدأ يتفقد أحوال اخوانه القبط ، خاصة المساجين منهم بسبب الضرائب المفروضة عليهم ، فكان يضمنهم ويدفع الأموال عنهم حتى يطلق سراحهم • كما كان يتصل بأثرياء القبط وأغنيائهم ، ليأخذ منهم ما يقدرون على دفعه ويتصدق به على الفقراء والمحتاجين من القبط (٤٠٧) ، خاصة أنهم قد قاسوا فى هذا العصر ، كثيرا من الشدائد •

الواقع أن حب الصدقة وفعل الخير ، لم يكن مقصورا على البطاركة والأساقفة وبعض المستخدمين من القبط في المدن المصرية ، بل كان يشاركهم في ذلك كثير من عامة القبط في الريف المصري . فتشير بعض أوراق البردى الى أن بعض القبط باحدى قرى الفيوم ، قد أوصى بثلث أمواله وأملاكه المختلفة ، لفتاة من القبط ، قد تولى تربيتها . وكان هذا الحدث معاصرا للأمراء الاخشيديين . كما اننا نستدل من هذه البردية على ثراء بعض القبط في بعض قرى الريف المصري . ويجدر بنا أن نشير الى نص ما جاء في البردية التي تتضمن هذه الوصية ، والمؤرخة في شهر شوال سنة ٣٤٨ هـ (ديسمبر ٩٥٩ / يناير سنة ٩٦٠ م) .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، شهد الشهود المسمون في آخر هذا الكتاب على اقرار يحنس بن شنودة بن بطرس.. من سكان ططون من كورة الفيوم ، أقر عندهم ، وأشهدهم على نفسه في صحة عقله وبدنه ، وجواز أمره ، طائع غير مكره ، ولا مجبر ، ولا مضطهد طالب ، راغب ، انه تصدق على سميه دركة ، الصبية التي رباها ، بثلث ما تملكه يمينه من دينار أو درهم أو ثوب أو نحاس أو منزل أو شيء مما يساوي درهما واحدا ، صدق عليها ذلك صدقة لوجه الله لا يريد بذلك جدى ولا شكورا . فمتى ما أدى يحنس بن شنودة أو أحد أنسابه بدعوى ، أو احتج بحجة ، بوجه من الوجوه ، ولسبب من الأسباب ... فدعواه في ذلك باطل وزور ، وافك وعدوان . شهد على اقرار يحنس بن شنودة بجميع ما في هذا الكتاب ، بعد أن قرىء عليه وعرفه ، وأقر بفهمه في صحة عقله وبدنه وجواز أمره طائع غير مكره ولا مجبر ، ولا مضطهد .. وذلك في شوال سنة ٣٤٨ هـ . شهد ابراهيم بن أحمد بن رزق على اقرار يحنس بن شنودة ، شهد عبد الصمد بن يوسف بجميع ما في هذا الكتاب ، وكتب شهادته بخطه على اقرار يحنس بن

شنودة ، شهد حي بن الدياس على اقرار يحنس بن شنودة ، بجميع ما فى هذا الكتاب وكتب شهادته بخطه، وكتب عنه بأمره » (٤٠٨) ٠

وكان القبط ، يعتقدون أن كل ما ينزل بهم من صعاب ويحل بهم من أزمات وكوارث راجع الى غضب الله عليهم ، ومن ثم كانوا يلجأون الى الصلاة والدعاء لله حتى تزول عنهم هذه الشدائد ٠ وعليه كان كثيرا ما يحدث ان يستعين البطاركة بالصلوات والدعاء على انفراج الكروب وزوال الشدائد ، خاصة انه كان يحدث بعض الأزمات التى لا تفيد فيها المساعدات المادية ٠

نذكر من الأمثلة على ذلك ، البطرك مرقص ، حينما تعرضت أقاليم البحيرة فى عهده الى هجوم أسراب الجراد على أراضيها ، فأكل جميع ثمار الأرض والكروم ، وساءت الأحوال الاقتصادية ٠ فحزن البطرك مرقص لذلك ، وطلب من القبط الأرثوذكس الخروج معه بالبخور والصلبان وهم يحملون الأناجيل ، توسلا وتضرعا الى الله ليزيل عنهم هذه الشدة (٤٠٩) ٠

كان القبط ، وخاصة البطاركة يحرصون أشد الحرص على وحدة الكنيسة القبطية وتماسكها، وضم الخارجين عنها ، والمخالفين لمذهبها مهما كان أمر هؤلاء ٠ وقد حدث فى بطركية أنبا مرقص الثالث أن انضمت الى الكنيسة جماعة من المخالفين لها ، وهم جماعة البرشنوفيين ، الذين كانوا يسمون أيضا (من ليس لهم رأس) وكانت هذه الجماعة توجد فى مصر منذ بطركية الأب بطرس ٠ وقد حاول البطرك مرقس جاهدا هداية هذه الجماعة ، وتضرع الى الله بالصلوات والدعاء ، من أجل ذلك ، وكان يقول : « والآن يارب ، اسمع صلاة عبدك ، وليدخل دعائى أمامك ، بسبب هذه الخراف

الضالة ، ولتجتمع أعضاء بيعتك ، ليكونوا قطيعا واحدا ، وراعيا واحدا » (٤١٠) ٠

وسرعان ما سعى رؤساء هذه الجماعة الى البطرك مرقص ، الذى رحب بهم ، وقبلهم أعضاء فى الكنيسة القبطية ، على ألا يكون لهم درجة أو رتبة من الكهنة فأجابوه الى ذلك ، بل وكتبوا له تعهدا بذلك ٠ ولكن بعد أن تحقق البطرك مرقص من صدق أمانتهم وحسن نياتهم ، رأى تعيينهم أساقفة لبعض المناطق ، وصاروا من المقربين اليه ٠ وعندما شعرت جماعة البرشنوفيين بالاطمئنان ، أسرعت باعلان انضمامها الى الكنيسة القبطية ، فرحب البطرك بها ، وعم البلاد الفرح والسرور (٤١١) ٠

ويحدث ما يشبه ذلك فى بطركية آنبا شنودة ـ فى أواخر عصر الولاة ـ فقد خرج عليه بعض سكان صعيد مصر ، فخرج اليهم بنفسه ، وبذل أقصى جهده من أجل هدايتهم ، ونجح فى ابطال ما شاع بينهم من مقالة وآراء خاطئة، لا تتفق وآراء القبط الأرثوذكس كما انه أكثر من وصاياه اليهم ، مستشهدا فى ذلك بأعمال الرسل وبعض البطاركة الصالحين حتى يهتدوا ويعدلوا عما كانوا عليه من أخطاء (٤١٢) ٠

وكان القبط بصفة عامة ، يكنون كل حب وتقدير لبطاركتهم ، ويبذلون أقصى جهدهم فى سبيل توفير الأمن والاستقرار لهم ؛ كما كانوا يعاونونهم فى الشدائد التى قد يتعرضون لها ٠ والباب الأول من هذا البحث ، يتضمن كثيرا من الأمثلة التى تدل على مدى مساعدة القبط على اختلاف طبقاتهم للبطاركة ، وخاصة فى دفع ما كان يفرض على بعضهم من غرامات مادية ، وخاصة فى عصر الولاة وعصر الأمراء الطولونيين ٠

تعرض القبط ــ كما ذكرنا ــ لكثير من الشدائد ، فى أثناء النزاع بين الأمين والمأمون من أجل الخلافة ، وما كان يسود مصر من تنافس بين الزعماء السياسيين على الاستئثار بالنفوذ والسيادة على البلاد . كما تعرض القبط لبعض المضايقات الشديدة فى مدينة الاسكندرية خاصة ، من جراء ما فعله الأندلسيون بها ، وأصاب البطرك مرقص كثير من السوء فرأى أحد البطاركة ، ويسمى مقارة بن ثابت النبراوى ــ من أهل سمنود ــ أن ينقذ البطرك ويخلصه من أفعال الأندلسيين بالمدينة . وسعى من أجل ذلك ، لدى أحد زعماء مصر آنذاك وهو عبد العزيز الجروى ، الذى استأثر بالنفوذ والسلطان ، فى الأقاليم الواقعة شرق مصر ، والتمس منه احضار البطرك أنبا مرقص ليقيم بينهم بعيدا عن مدينة الاسكندرية ، فأجابه عبد العزيز الى ذلك وكتب له سجلا لتدعيم مركز البطرك (٤١٣) .

ولكن ساءت العلاقة ، بعد ذلك ، بين عبد العزيز الجروى وبين البطرك أنبا يعقوب ــ خليفة البطرك مرقص ــ وطلب عبد العزيز من البطرك يعقوب مقابلته ، وهدده ان امتنع عن لقائه ، بإقدامه على هدم الكنائس والأديرة ، وقتل الأساقفة ، وأبدى مقارة ابن ثابت ، ألمه لموقف الجروى من البطرك ، وكتب الى البطرك يعقوب ، يلتمس منه لقاء عبد العزيز الجروى ، ووعده بتوفير الأمن والسلام له ، وبدفع كل ما قد يلزمه به من غرامات مالية (٤١٤) .

عندما كان القبط ، يحتفلون بعيد الشهيد مارى مينا فى سنة ٥٦٧ للشهداء (حوالى سنة ٨٥١ م) فى بطركية الأب قزما الثانى ، حدثت فتنة بينهم ، مما نتج عنها قتل أحد القبط . فغضب أحمد بن دينار ، حاكم الاسكندرية ، وأمر بالقبض على البطرك قزما وانتزع منه كل ما جمعه من الأموال والصدقات من القبط فى هذا

العيد ، كما ألزمه بعدم مغادرة الاسكندرية الى أى مكان آخر . وعلم بعض المستخدمين القبط بما نزل ، بالبطرك ورأى مقارة بن يوسف ، كاتب صاحب الديوان ، وكان له نفوذ عند ولاة مصر ، وابراهيم بن ساويرس ، صاحب بيت المال ، انقاذ البطرك من براثن حاكم الاسكندرية (٤١٥) فتقدما الى والى خراج مصر عبد الواحد بن يحيى الوزير ، يلتمسان أن يأذن لهما باحضار البطرك قزما من الاسكندرية الى الفسطاط ، ليكتب له ما عليه من الخراج ، لأنه قد ولى البطركية متأخرا ، ولا علم له بخراج الكنائس . وبهذه الحيلة ، تخلص البطرك من قسوة حاكم مدينة الاسكندرية وتقررت اقامته فى مدينة دميرة ، وكان كل سكانها حينئذ من القبط (٤١٦) .

ويقول ابن المقفع (٤١٧) : « وكان من نعمة الله أن جماعة من المؤمنين متولون ديوان السلطان ، وجميعهم يبذلون أنفسهم على البيعة ، شهوة واجتهادا عن أمانتهم وأراحوا البطرك والبيعة والمؤمنين ، وصاروا تحت هدوء وسلامة ، ولا موضع واحدا كان فيه اضطراب فى تلك الأيام ، وهم مواصلون الصلوات والقداسات لله على ما أنعم به عليهم » .

كما نلمس حرص القبط ، على ايواء البطرك ، وتقديم كل مساعدة مادية ممكنة له ولتلاميذه فى وقت الغلاء ، والأزمات الاقتصادية ، كما حدث عقب فتح الفاطميين لمصر وما تبعه من أزمات استمرت ، سبع سنوات متواصلة ، ومات فى أثناء ذلك كثير من الناس من شدة الجوع والحاجة . فقد استضافت احدى شهيرات نساء القبط الثريات وتسمى دينا — وهى من سكان قرية بلقونة (٤١٨) — البطرك ، ومن كان فى صحبته ، حتى انتهت سنوات الغلاء وعاد الرخاء الى البلاد (٤١٩) . وكتاب سير البيعة

المقدسة ملىء بالأمثلة التى تشير الى مدى عناية القبط ببطركهم ، وتوفير الأمن والاستقرار له وللكنيسة ٠

ويبدو أن بعض القبط ــ بالرغم من ذلك ــ كان يميل الى الخداع والغدر ، والسعايه بعضهم ببعض ، لدى الرؤساء والحكام المسلمين فى مصر ٠ ونلمس ذلك كثيرا فى دراستنا لتاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية ٠ وكانت معظم هذه السعايات ، والوشاية ، ضد البطرك نفسه الذى هو الرئيس الدينى لهم ، وبمثابة الأب الروحى لهم ٠ ومما تجدر الاشارة اليه أن بعض السعايات بالبطرك ، كانت من جانب الملكانيين ، نكاية منهم للقبط اليعاقبة الذين قد ارتفع شأنهم فى ظل الحكم الاسلامى ، وغلبوا على معظم الكنائس والأديرة ، وذلك بالرغم من اتفاقهم معهم فى الدين المسيحى وان اختلفوا فى المذهب ٠

ومهما كانت هذه السعايات ، سواء أكانت من جانب القبط أنفسهم أم من جانب الملكانيين ، فكثيرا ما كانت تؤدى الى ســوء معاملة الولاة أو الخلفاء للبطاركة ، ووضعهم فى الحبس ، وفرض الغرامات المادية عليهم ، مما كان يضطرهم الى فرض الشرطونية ، أى بيع الدرجات الكهنوتية ، وبيع أملاك بعض الكنائس فى بعض الأحيان ، لعجزهم عن سداد ما فرض عليهم من غرامات ٠ وبالتالى تعرضت الكنيسة القبطية لكثير من الشدائد والمضايقات من جراء هذه السعايات ٠ ويجدر بنا أن نذكر بعض الأمثلة لهذه السعايات ٠

لما خرج والى مصر عبد العزيز بن مروان الى الاسكندرية ، لتفقد الأمور بها لم يخرج البطرك أنبا يوحنا لاستقباله والسلام عليه ، وذلك لعدم علمه بقدومه فسعى به بعض الملكانيين ، وعلى رأسهم تاوفانيس ، حاكم مريوط ، وقالوا لعبد العزيز : « انه

ما خرج ولا تلقاك لكثرة تجبره وكبريائه ، وكثرة ماله » فغضب الأمير لذلك أشد الغضب وقبض على البطرك يوحنا ، وأمر بوضعه فى الحبس ، وفرض غرامة مالية عليه (٤٢٠) ٠

أما البطرك أنبا يوساب ، فى عهد الخليفة العباسى المأمون ، فقد سعى به بعض الأساقفة القبط ٠ وهما : الأسقف اسحق أسقف تنيس ، والأسقف تادرس ، أسقف مصر ، اللذان حنقا على البطرك ، لعزله اياهما من كراسيهما (٤٢١) ٠

وفى امارة أحمد بن طولون على مصر ، سعى بالبطرك أنبا خايال ، أحد الأساقفة وهو أسقف مدينة سخا ، وأعلم الأمير ان البطرك يمتلك أموالا كثيرة ، وأوانى من الذهب والفضة ٠ فطمع أحمد بن طولون فى الحصول على بعض الأموال من البطرك ، فاستدعاه اليه ، الا أن البطرك أعلمه ، أنه لا يمتلك شيئا ، وانتهى الأمر بفرض غرامة مالية قدرها عشرون ألف دينار (٤٢٢) ٠

ويقول البلوى (٤٢٣) : ان القبط لا يحسنون أكثر من سعايه بعضهم ببعض ويذكر لنا مثلا على ذلك مما حدث فى بعض جهات الريف المصرى ٠ فقد بعث أحمد بن طولون ، أحد قواده الى بعض القرى ، لجمع ما عليها من الأموال ، وتفقد أحوالها ، فجاء الى هذا القائد ، أحد القبط بها ، وسعى لديه ، براهب ، فى هذه القرية، كان يحقد عليه ، ويريد التشفى منه والايقاع به ، فأخبر القائد بأن هذا الراهب قد عثر على كنز عظيم ٠ فأحضر القائد الراهب ، وهدده ، وألزمه بدفع خمسمائة دينار ، مما أحزن الراهب أشد الحزن ٠ وهكذا لم تقتصر السعاية والوشاية على العاصمة ، بل امتدت أيضا الى القرى المصرية ٠ وأيضا لم تكن السعاية مقصورة على البطرك ، بل أيضا كان يسعى القبط بعضهم ببعض على اختلاف طبقاتهم ٠

ولم تكن سعاية القبط وغدرهم ببطركهم لدى ولاة مصر وحكامها ، فحسب بل عمدوا فى بعض الأحيان الى اثارة بعض الأساقفة ضد البطرك ، ففى خلافة المستنصر بالله ، قامت خصومة بين البطرك خريسطودولس ، والأسقف يوحنا أسقف مدينة سخا . فجمع الأسقف بعض الأساقفة ، وأثارهم ضد البطرك ، واتفق الجميع على عزل البطرك من البطركية . عند ذلك سعى القبط المصلحون فى تهدئة الأمور ، وتحسين العلاقة بين الأساقفة والبطرك (٤٢٤) .

وامتدت سعايات القبط الى الأساقفة نواب البطرك . فقد اتهم أحد الرهبان ويسمى فرج ، جماعة من الأساقفة ، وسعى بهم لدى الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى ، واتهمهم بحيازة ودائع وأموال كثيرة لبعض الأثرياء فى مصر . وسأله أن يأذن له باستخراج ما لدى الأساقفة فأذن له بذلك . وانتهى الأمر بالزام الأساقفة فى الوجهين القبلى والبحرى بدفع أربعة آلاف دينار . وكتب أمير الجيوش منشورا ، لفرج الراهب يتضمن الزام كل أسقف من أساقفة الوجه البحرى بدفع خمسة دينارات ، فى كل سنة ، لفرج الراهب كما الزم أساقفة الوجه القبلى بدفع خمسمائة دينار (٤٢٥) .

وسعى بعض الرهبان لدى الخليفة الفاطمى ، الحافظ ، برهبان دير أبى مقار وذهبوا الى أنه لديهم من الملاحم والعلوم ما يمكنهم من التنبؤ بما يجرى للموك ولدولهم ، وأنهم يمتلكون الكثير من الذهب والفضة ، مما أثار الخليفة الحافظ ، فأرسل بعض رجاله لاكتشاف حقيقة الأمر ، فأساءوا معاملة الرهبان بدير أبى مقار ، وألحقوا بهم كثيرا من الاهانات كما قبضوا على كثير منهم ، وحملوهم الى القاهرة . الا أن الخليفة الحافظ تبين حقيقة الأمر ، فأحسن لقاء رهبان دير أبى مقار ، وأكرمهم ، وأعادهم الى أديرتهم سالمين (٤٢٦) .

والحقيقة ان الروايات القبطية ، تقدم لنا كثيرا من الأمثلة على سعايات بعض القبط باخوانهم ، وخاصة بالأساقفة والرهبان • نلمس من دراســـتنا ، لتاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية ، أن الأمر لم يقف عند حد السعاية بالبطرك والأساقفة لدى المسئولين ، بل عمد بعض القبط الى سم البطرك تخلصا منه ، ومن رياسته الدينية • فقد كان البطرك أنبا سيمون ، فى ولاية عبد العزيز بن مروان — يفضل الانفراد بنفسه دائما لمواصلة القراءات والصلاة ، ولا يجتمع كثيرا بالأساقفة والكهنة فى مدينة الاسكندرية فبغضه قبط الاسكندرية ، وفكروا فى الخلاص منــه بالسم • ولما فطن عبد العزيز بن مروان الى هذه المؤامرة ، أمر بالقبض على المتهمين ، واحراقهم وهم أحياء ، الا أن البطرك أنبا سيمون التمس منه العفو عن الكهنة ، فأطلق سراحهم (٤٢٧) •

ويمكننا أن نقول ، ان العلاقة بين القبط ورؤسائهم الدينيين ، كان يسودها ، غالبا — الديمقراطية ، فلم يكونوا يشعرون بالخوف أو الرهبــة من البطرك ، حتى انهم كانوا يسعون به أحيــانا عند الحكومة ، كما انه لم يكن هناك عقوبة جسدية ينزلها البطرك بمن يسيء التصرف من القبط • ولعل ذلك كان من أكبر العوامل المشجعة على السعاية بالبطاركة لدى الرؤســاء والخلفــاء ، أو التجرؤ فى مخاطبتهم أو التطاول عليهم (٤٢٨) •

ومن أبرز أخلاق القبط فى ذلك العصر ، ميلهم الى الاعتقاد فى الخرافات والايمان بأن البطاركة والقسس ، يستطيعون القيام بالمعجزات التى لا تخضع للمنطق أو العقل كاحيــاء الموتى ، وشــفاء المرضى ، وذلك نتيجة رغبــة القبط فى احاطــة هؤلاء البطــاركة والقسس بهــالة من العظمة والاجــلال • وتحفل الروايات القبطية بكثير من الأحداث التى يعتمد نسيجها على الخيال •

فكان القبط يلجأون الى البطاركة والأساقفة لشفاء مرضاهم (٤٢٩) • كما كانوا يلجأون اليهم حينما يتوقف سقوط الأمطار مما يؤدى الى قلة الانتاج الزراعى (٤٣٠)•الى جانب ايمان بعض القبط بأن لرؤسائهم الدينيين العلم بالغيب والمستقبل (٤٣١) وبقدرتهم على تخليص أجساد القبط من الأرواح الشريرة (٤٣٢) •

اشتهر كثير من القبط فى مصر بالثراء الواسع ، وكان كثير منهم يتبرعون ببعض أموالهم لاخوانهم القبط المحتاجين والفقراء • كما كانوا ينفقون كثيرا من أموالهم فى تعمير الكنائس والأديرة ، وتزويدها بكل ما يلزمها•ومن أشهر هؤلاء الأثرياء مقارة بن ثابت النبراوى•وأيضا بكام ، عامل كورة بورة فى عهد الخليفة المأمون، الذى أنفق كثيرا من أمواله فى بناء قبة كنيسة القيامة فى بيت المقدس وفى بناء كثير من الكنائس فى كورته (٤٣٣) •

وتذكر بعض الروايات أن الخليفة المأمون العباسى ، حينما زار مصر ، كان يمر بالقرى فيقيم فى كل قرية يوما وليلة ، وخالف هذه القاعدة عند قرية « طاء النمل » فلما تجاوزها ، خرجت اليه عجوز تسمى مارية القبطية ، صاحبة هذه القرية ، وهى تصيح به : « يا أمير المؤمنين ، نزلت فى كل ضيعة ، وتجاوزت ضيعتى ، والقبط تعيرنى بذلك وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفنى بحلوله فى ضيعتى ، ليكون لى الشرف ، ولعقبى من بعدى ، فلا تشمت بى الأعداء » فقبل المأمون دعوتها وضيافتها له • وكان يصاحب المأمون فى هذه الضيافة ، أخوه المعتصم وابنه العباس ، وأولاد أخويه الواثق والمتوكل ، ويحيى بن أكثم والقاضى أحمد بن داود • وأعدت السيدة مارية الطعام والهدايا لهم جميعا • ولما عزموا على الرحيل فى اليوم التالى ، قدمت لكل منهم طبقا فيه كيس من النقود (٤٣٤). • مما يدل على الثراء الذى اشتهرت به هذه السيدة القبطية •

والواضح من كثير من الروايات التاريخيــة أن معظم أغنياء القبط ، كانوا يتركزون فى الريف المصرى بصفة خاصة • وتحدث ابن الداية (٤٣٥) عن أحد هؤلاء الأثريــاء فقــال : « كان ببعض أرياف مصر نصرانى من أهلها ، كثير المال ، فاشى النعمة ، سمح النفس • وكانت له دار ضيافة وجرايات واسعة على ذوى الستر بالفسطاط » •

واشتهرت بعض نســـاء القبط فى الريف المصرى بالثراء الواسع ، ومنهن السيدة دينا التى استضافت البطرك أنبا مينا ، عندما اشتد الغلاء فى البلاد المصرية ، عقب دخول الفاطميين مصر ، واستمر ســبع ســنوات • وقد أنفقت هذه السيدة على البطرك وتلاميذه وكل من كان فى صحبته من أموالها الخاصة (٤٣٦) •

كذلك تشير بعض أوراق البردى الى ثراء بعض القبط فى قرية ططون بكورة الفيوم فهنــاك ثــلاث أوراق بردية ، يرجــع تاريخها الى سنة ٣٤١ هـ (٩٥٢ م) تتضمن عقود بيع ثلاثة منازل من ثلاثة أشخاص ، اثنان منهم من القبط ، والثالث من المسلمين ، والمشترى شخص واحد من القبط ، ويسمى يحنس بن شــنودة ، وقد دفع الثمن المحدد لهذه المنازل قبل تسلمها (٤٣٧) • مما يدل على ثراء هذا الشخص ، وتوافر المال عنده •

واشتهرت بعض المدن بثراء أهلها القبط ، نذكر منها ، مدينة عين شمس ، وكانت غالبية سكانها من القبط ، حتى القرن الرابع الهجرى ، ولهم كنائس واسعة وكثيرة وكان يشتهر كثير من أهلها باليسار ، وســعة الحال • وكان هؤلاء يتبرعون ببعض أموالهم لاخوانهم القبط ، بل للمسلمين (٤٣٨) أحيانا •

وقد أشار الرحالة ناصر خسرو ، الذى زار مصر فى القرن الخامس الهجرى ، الى ثـراء بعض القبط • فتحدث عن قبطى كان يملك من المراكب والأموال والأملاك ما لا يمـكن عده واحصــاؤه • ويذكـر أنه قد حـدث فى بعض السنوات أن نقص ماء النيـــل ، وانعدمت الغلال في البلاد ، فكتب الوزير الى ذلك القبطى قائلا : « ليست السنة رخـاء ، والسلطان مشفق على الرعيـــة فأعط ما استطعت من الغلة ، اما نقدا واما قرضـا » فأجـابه القبطى : « أسعد الله السلطان ، والوزير ، ان لدى من الغلة ما يمكننى من اطعام أهل مصر الخبز ست سنوات » (٤٣٩) •

ومما لا شك فيه أن المقصود بأهل مصر ، هم سكان القاهرة وضواحيها وليست البلاد المصرية كلها • ونتبين من هذا النص ما كان عليه هذا القبطى من ثراء وكيف انه كان يمتلك من الغلة ما يكفى غذاء سكان العاصمة لبضع سنوات •

كانت حياة القبط ، وخاصة الرؤساء منهم ، والكتاب ، فى منازلهم ودورهم تتميز بالترف والرفاهية • أما فى خارجها ، فقد كان القبطى يرتدى فى ديوانه أبسط اللبـاس ويتقشف فى طعـامه ، ويركب الحمار (٤٤٠) • فقـد كان القبط يميلون الى التواضـع والتقشف فى خارج دورهم حتى اذا صار الواحد منهم فى داخل منزله ، كان له كامل الحرية في اللباس الفاخر ، والطعام المتنوع الى جانب التمتع بكل وسائل الترف والرفاهية •

وتقول الرواية القبطية : « ولما صار جميع مقدمى المملكة ، والناظرين فى دواوينها وتدبير أمورها ، كلهم نصارى ، وهم الملاك النافذ أمرهم ، طغوا وعتوا ، وبذخوا هم وجميع النصـارى بديار مصر ، وتكبروا وعزت نفوسهم ، ووقع بينهم البغضة والحسد ،

وبين مقدميهم ، وصار أكثر اهتمامهم بالأمور الدنيوية ، والتجمل ، والتفاخر والكبرياء على بعضهم بعض » (٤٤١) ٠

وبالرغم من ذلك ، كان هناك بعض القبط الذين يعانون من الفقر والبؤس فى بعض المدن المصريه ، وخاصة قبط تنيس : اذ كان أكثر سكان هذه المدينة من القبط ، وكانوا أكثر قبط مصر فقرا وبؤسا ٠ فمدينة تنيس تحيط بها المياه من كل ناحية ، وليس لهم حقول يزرعونها أو أى مصدر آخر للثروة والرزق ، ولا تصلح مدينتهم لتربية الماشية ٠ بل ان الماء الذى يشربونه يضطرون الى نقله من مكان بعيد ، ويشترون كل أربع جرار ماء بدرهم ٠ وكان العمل الوحيد الذى يمكنهم القيام به ، هو نسج الكتان ، الذى تقوم نساؤهم بغزله ٠ وكانوا مثقلين بالضرائب ، فكان على كل واحد منهم ، دفع خمسة دنانير ٠ واستعمل جباة الضرائب معهم العنف والشدة ، وكثيرا ما كانوا يحبسونهم لعجزهم عن سداد ما عليهم ؛ مما كان يضطرهم الى رهن أولادهم ونسائهم فيعملون كالعبيد ٠ وكان يحدث قبل حلول وقت تحرير هذه الرهائن أن يطالبوا بجزية السنة التالية (٤٤٢) ٠

ولما علم البطرك ديونيسيوس ، بطرك أنطاكيا بحالة قبط تنيس ، عندما قدم مصر للمرة الأولى فى امارة عبد الله بن طاهر ، وخلافة المأمون العباسى ٠ أبدى أله ، وعطفه على هؤلاء القبط الأرثوذكس ، ورأى ضرورة مساعدتهم ، والتخفيف من شدة البؤس الذى يقاسون منه ، فحدث عبد الله بن طاهر ، أمير مصر ، فى شأنهم ٠ وكان عبد الله بن طاهر يعطف على القبط ، ومن ثم أمر بتخفيف الجزية المفروضة على قبط تنيس ، وتحديدها بثمانية وأربعين درهما على الأغنياء ، وبأربعة وعشرين درهما على متوسطى الحال ، واثنى عشر درهما على الفقراء (٤٤٣) ٠

يذهب بعض الكتاب المحدثين الى أن الجماعات شأنها شأن الأفراد ، لها طابعها المميز وكان الطابع المصرى ، هو الحرص الشديد على العادات والتقاليد ، وخاصة ما يتعلق منها بالدين • لأن الميل الى الروحانيات ميزة أصيلة فيه • وهذه النزعة تنعكس فى العادات التى اعتاد القبط ممارستها جيلا بعد جيل ؛ وكان من أهم هذه العادات والتقاليد ، المواظبة على قراءة الكتاب المقدس يوميا ، حتى صار فى امكانهم تلاوة أجزاء كثيرة منه غيبا • والمواظبة على الصلاة ، وتكريس ركن معين من البيت يضعون فيه أيقونة ، امامها قنديل والغرض من ذلك أن يكون هذا الركن منبها لهم الى الحياة الروحية التى يجب عليهم السعى نحوها يوميا ؛ وحتى يجد كل من فى البيت ركنا يستطيع الالتجاء اليه ورفع صلواته الى الله • كما كان من عادات القبط احترام القربان احتراما بالغا (٤٤٤) •

واشتهر عن القبط ، اقبالهم على الصيام ، وخاصة فى مواسم الصيام الأربعة الرئيسية • وأولها الصوم الكبير ، ويسمى أيضا صوم الأربعين المقدس (٤٤٥) • ويكون هذا الصيام ، فى الأيام الخمسة والخمسين السابقة لعيد الفصح • وكان من عادة القبط خلال هذا الصيام ، أن يمتنعوا عن أكل الأسماك والبيض والألبان ومنتجاتها ، بينما يجوز لهم تناول الخضراوات والفواكه والبقول المعدة بالزيت كما كانوا يمتنعون عن الشراب بعد ساعتين من حلول المساء وحتى منتصف الليل ، وبعد ذلك يجوز لهم الشراب والأكل (٤٤٦) وكان من عادة البطاركة فى أيام صوم الأربعين ، أن يخرجوا ، الى ديارات وادى هبيب – أو بمعنى آخر برية أبى مقار المقدسة ، ويقيموا بين الرهبان هناك الى عيد الفصح (٤٤٧) •

أما الصوم الكبير الثانى ، فيكون قبل عيد الميلاد ، ويسمى صوم الميلاد • وكان من عادة قبط مصر فيه صوم ثلاثة وعشرين

يوما ، بينما كان رجال الكنيسة يصومون ثلاثة وأربعين يوما . أما الصوم الثالث ، فيكون قبل عيد القديسين بطرس وبول Apôtre Pierre et Paul ومدته ثلاثة عشر يوما ، ويكون بعد عيد العنصرة (الخماسين) ويصومه رجال الكنيسة ثلاثين يوما . أما الصوم الرئيسى الرابع للقبط ، فيسبق عيد صعود السيدة العذراء ، ويكون الصوم فيه لمدة خمسة عشر يوما . وأحيانا يشارك المسلمون القبط فى هذا الصيام احتراما وتبجيلا للسيدة مريم (٤٤٨) .

وجرت عادة القبط فى هذه المواسم الثلاثة الأخيرة على الامساك عن تناول اللحوم والبيض والألبان ومنتجاتها . والى جانب هذه المواسم الكبرى للصيام ، كان القبط يصومون يومى الأربعاء والجمعة من كل أسبوع . وكان يلزم الأطفال القادرون على الصيام ، ويعفى من الصيام المرضى وغير القادرين عليه (٤٤٩) .

هناك أيضا صوم الغطاس ، ويكون فى اليوم العاشر من شهر طوبه . ويتناول فيه القبط ألوان الأطعمة المسموح لهم بها ، فى صوم الأربعين المقدس . وقد نشأ الصيام فى هذا اليوم لأن « الرسل القديسين ، رسموا أن يفطر فى يومى الأربعاء والجمعة ، اذا اتفق فيهما عيد الميلاد والغطاس ، ويؤكل فيهما — فى هذين العيدين — سائر الأطعمة المحللة فى أيام الخمسين ، من انها عيدان للرب — لئلا يظن بنا انا نهمين ، منهمكين فى لذات العالم الزائلة ، كأعياد اليهود والصابئة ، رسم لنا أن يتقدم هذين العيدين بالصوم ، فيكون عوضهما ، ويكمل لنا القصدان ، قصد الصوم وقصد العيد » (٤٥٠) .

كما جرت العادة فى الكنيسة القبطية أنه اذا وافق يوم البرمونى يوم سبت أو أحد ، يجب صوم الجمعة الذى قبله حتى

المساء (٤٥١) . وكان من القوانين التى وضعها البطرك أنبا خرسطودولس ، للكنيسة القبطية فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، قوانين خاصة بالصيام ، منها أنه لا يجوز أن يتم زواج فى صوم الأربعين المقدسة على الاطلاق(٤٥٢) . كذلك كان من بين هذه القوانين ما يتعلق بفترات الصيام الأخرى (٤٥٣) .

وكان من عادة القبط أيضا ، أن يصوموا أسبوعا ، يعرف باسم صوم أسبوع هرقل ، أو (صوم جمعة هرقل) وبدأت هذه العادة ، منذ الامبراطور هرقل . اذ انه حينما دخل مدينة القدس ، فى بلاد الشام ، استقبله المسيحيون بها بالصلبان والأناجيل والبخور والشموع المشتعلة ، الا أنه وجد المدينة خرابا ، وعلم من هؤلاء المسيحيين أن اليهود هم الذين قاموا بهذا الخراب والتدمير ، كما كان اليهود ، يقدمون كل مساعدة ممكنة الى الفرس خصوم الرومان . وألح هؤلاء المسيحيون على هرقل ، فى ضرورة الانتقام من هؤلاء اليهود وابادتهم فاعتذر عن ذلك ، لأنه سبق له أن منحهم أمانا وعهدا . الا أن البطاركة والأساقفة الموجودين آنذاك ، قد برروا له ابادة اليهود بأن العهد والأمان كان سابقا لما قاموا به من الخراب والتدمير . كما تعهد هؤلاء البطاركة والأساقفة بأن يقوموا عنه بكفارة يمينه ، وذلك بأن يلتزموا ، ويلزموا المسيحيين جميعا ، بصوم جمعة كل سنة على مر الزمان والدهور . فأوقع باليهود وقيعة شنعاء ، وأبادهم جميعا حتى انه لم يبق بمصر والشام منهم الا من تمكن من النجاة . وكتب البطاركة والأساقفة آنذاك الى جميع البلاد بالزام المسيحيين بصوم أسبوع من كل سنة عرف عندهم بصوم جمعة هرقل (٤٥٤) . وتقول تبشر (٤٥٥) : انه لا تزال الكنيسة القبطية وكنائس الشرق بأسره تصومه سنويا الى يومنا هذا .

وكان من عادات القبط أيضا ، الذهاب الى الكنيسة من غير تناول أى طعام على الاطلاق ، حتى اذا كان الشخص عازما على عدم التناول من الأسرار الالهية (أو القربان) وهذا فى الواقع تعبير عن احترامهم لبيت العبادة ، وللشعائر التى سيحضرونها ، لأن الامتناع عن الأكل يتضمن تهيئة الروح وتقويتها ، ولهذا أيضا جرت عادة ما تزال معمولا بها فى بعض الجهات هى « الأغابى » أو وجبة المحبة ــ وهذه وجبة يتناولها المصلون جميعا بعد الانتهاء من القداس فى قاعة ملحقة بالكنيسة • وتتناوب العائلات ــ كل بدورها ــ اعداد الطعام لهذه الوجبة ، وتقديمه للكنيسة • كما كان من عادة القبط بعد تناول الأسرار المقدسة أن يجتمعوا مع بعضهم فى قاعة ملحقة بالكنيسة يتسامرون ، ويأنس بعضهم ببعض (٤٥٦) •

كان من العادات الشائعة أيضا بين القبط فى ذلك العصر ، تخصيص أماكن فى الدور الأعلى للسيدات • ذلك أنه فى العصور الوسطى الاسلامية لم تكن سياسة التسامح ازاء القبط مكفولة دائما ، ولا الأمان مستقرا لهم • ومتى كان الوالى كارها ، مبغضا للقبط كان يأمر جنوده بالهجوم على الناس حتى وهم يصلون فى الكنيسة • فرأى القبط أن يخصصوا لنسائهم أماكن عالية لها ممرات مؤدية الى المنازل مباشرة • وكان هناك أشخاص مخصصون للحراسة ، فاذا ما رأوا ، الجند آتين من بعد ، أعطوا الاشارة فتنسحب السيدات فى سكون الى الممرات المؤدية الى بيوتهن فى أمان وسلام (٤٥٧) •

وكان من عادة القبط من سكان مدينة الاسكندرية ، عند الاحتفال بأعيادهم ، الدينية دعوة المخالفين لهم فى المذهب الدينى ، الى دورهم وكنائسهم ، ليشاهدوا احتفال القبط بأعيادهم وعظمة بطاركتهم ، وأعمال آبائهم الصالحين • ولكن البطرك أنبا يعقوب منعهم من ذلك ، فكان لا يسمح للمخالفين للكنيسة القبطية بدخول الكنيسة وقت الاحتفال بالأعياد طوال مدة بطركيته (٤٥٨) •

كما جرت العادة بين قبط الاسكندرية أيضا ، الا يقوموا بأى عمل ، ولا يزاولوا أى نشاط فى يوم الجمعة العظيم (٤٥٩) .

وكان من عادة كثير من قبط مصر ، الذهاب الى برية أبى مقار المقدسة فى أعياد الميلاد والغطاس والفصح من كل سنة (٤٦٠). كما اعتاد القبط تعميد أطفالهم قبل الختان كما جعل تقديم القداس فى الكنائس بالبخور والصلاة ويستعمل البخور وقت التكليل (٤٦١) .

ومن عادات القبط فى مصر الاسلامية، أيضا ، الحج الى كنيسة القيامة فى بيت المقدس لزيارتها ، تلك الكنيسة التى كانوا يعظمونها كثيرا . واستمر القبط حريصين على ذلك حتى عهد الخليفة الفاطمى، الحاكم بأمر الله . يقول ابن القلانسى (٤٦٢) : « ان العادة جارية بخروج النصارى بمصر ، فى كل سنة فى الغيارات الى بيت المقدس ، بحضور فصحهم فى بيعة قمامة ، فخرجوا فى سنة ٣٩٨ هـ على رسمهم فى ذلك ، متظاهرين بالتجمل الكبير على مثل حال الحاج فى خروجهم » .

وأبدى الحاكم بأمر الله دهشته من هذا التقليد ، ومن خروج النصارى الى كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، دون غيرها من الكنائس ، وتساءل عن أصل هذه العادة ، وعن صفة هذه الكنيسة . وقد أجابه عن تساؤله أحد مستخدميه ويسمى ختكين العضدى الداعى فقال : « هذه البيعة تقرب من المسجد الأقصى ، تعظمها النصارى أفضل تعظيم ، وتحج اليها عند فصحهم من كل البلاد ، وربما صار اليها ملوك الرومان وكبراء البطاركة متنكرين، ويحملون اليها الأموال الجمة والثياب والستور والفروش ، ويصوغون لها القناديل والصلبان والأوانى من الذهب والفضة . وقد اجتمع فيها

من ذلك على قديـم الزمان وحديثـه الشيء العظيم قدره لمختلف أصـنافه . فاذا حضروا يوم الفصـح فيها ، وأظهروا مطرانهم ، ونصبوا صلبانهم ، وأقاموا صلواتهم ونواميسهم ، فهذا الذى يدخل فى عقولهم ، ويوقع الشبهة فى قلوبهم . ويعلقون القناديل فى بيت المذبح ، ويحتالون فى ايصال النار إليها ، بدهن البلسان وآلته ، ومن طبيعته حدوث النار فيه مع دهن الزئبق ، وله ضياء ساطع ، واظهار لامع ، يحتالون بحيلة يعملونهـا بين كل قنديل وما يليـه حديدا ممدودا ، كهيئة الخيط متصلا من واحد الى آخر ويطلونه بدهن البلسان ، طليا يخفونه عن الأبصار ، حتى يسرى الخيط الى جميع القناديل فاذا صلوا وحان وقت النزول فتح باب المذابح وعندهم أن عهد عيسى عليه السلام فيه ، وأنه عـرج به الى السماء منه . ودخلوا وأشعلوا الشموع الكثيرة ، واجتمع فى البيت من الناس الخلق الكثير ، .. ويتوصل بعض القوم الى أن يقرب النار من الخيط ، فيعلق به ، وينتقل بين القناديل من واحد الى آخر ، ويشعل الكل ، ويقدر من يشاهد ذلك ان النار قد نزلت من السماء، فاشتعلت تلك القناديل » (٤٦٣) .

فلما سـمع الخليفة الحاكم بأمر الله ذلك ، استدعى كاتب الانشاء بشر بن سور وأمره أن يكتب الى والى الرملة كتابا يأمره فيه بأخذ كل ما فى كنيسة القيامة من أوان وأمتعة ثم هدمها (٤٦٤) ، وقد جاء فى هذا الكتاب : « خرج أمر الامامة اليك بهدم قمامة ، فاجعل سماءها أرضا ، وطولها عرضا » (٤٦٥) . فلما علم بذلك قبط مصر ، كتبوا الى قيم البيعة بذلك فأخرج بعض ما كان فيها من الذهب والفضة والجواهر والثياب . ثم وصـل أصحاب الحاكم بأمر الله فاستولوا على ما بقى بها ، وهدموا أبنيتها (٤٦٦) .

... ولكن ما لبث أن أعيد بناء هذه الكنيسة مثل سائر الكنائس في مصر وبلاد الشام وباشر القبط عادتهم في زيارة هذه الكنيسة في بيت المقدس. وقد حدث في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، أن استولى الغز الأكراد على بيت المقدس ، وأنكروا ما كان يدعيه القسس بشأن ايقاد قناديل هذه الكنيسة دون تدخل منهم ، وان النار نازلة اليها من السماء . الا أنه بعد مشاهدتهم ذلك في كل سنة ، بدأوا يرعون شئون المسيحيين ، واستخدموهم في ادارة شئون المدينة ، وخاصة منصور البلباني الذي كان هو وزوجته يقدمان كل معونة ممكنة لكل من يصل الى القدس من المسيحيين من مصر وغيرها من البلاد . كما أنه بذل قصارى جهده في تعمير كنيسة اليعاقبة الأرثوذكس بالمدينة ، وكتب الى البطرك كيرلص يسأله أن يرسل اليهم من يكرزها لهم (٤٦٧) .

ولما سيطر الصليبيون على بيت المقدس في عهد الخليفة المستعلي ، ووزارة الأفضل بن أمير الجيوش في سنة ٤٩٢ هـ . لم يعد القبط يخرجون الى بيت المقدس كعادتهم . فتقول الرواية القبطية : « وصرنا معشر النصارى اليعاقبة القبط ، لا نصل الى الحج اليها ولا نتمكن من الدنو من ذلك،لأجل ما هو ، من بغضهم لنا ، وهو اعتقادهم فينا ، وتكفيرهم ايانا » (٤٦٨) .

وكان القبط في مصر يتشبهون أحيانا بغيرهم من عناصر المجتمع فانتشرت بينهم عادة اتخاذ السراري الى جانب زوجاتهم . وظهر ذلك في عهد البطرك الأب سيمون - في ولاية عبد العزيز ابن مروان - وقد حارب الأساقفة انتشار هذه العادة ، وكانوا يمنعون من يتخذ السراري من حضور القداسات . فلجأ هؤلاء الى عبد العزيز ، وشكوا اليه الأساقفة وانهم قد منعوهم عن الزواج ، مما اضطرهم الى الانحراف الخلقي ، مما أغضب عبد العزيز بن مروان

وعقد اجتماعا حضره أربعة وستون أسقفا وعلى رأسهم البطرك أنبا سيمون ، وبعد مناقشات وجدال، حكموا بحرمان هؤلاء من الكنيسة، ان لم يتخلوا عن السرارى (٤٦٩) ٠

ويبدو أن هذه العادة ، انتشرت بين القبط مرة أخرى ، فى عهد الخليفه الفاطمى المعز لدين الله ، وعهد بطركية أنبا افراهام ٠ فقد أدرك هذا البطرك ، ان كثيرا من كبار القبط ، يتخذون عدة سرارى ، وينجبون منهم الاولاد ، فانزعج لذلك ، وهدد بالحرمان والمنع من القداسات ، وتقديم القربان ، كل من يتخذ سريه ، وتشدد البطرك فى ذلك ٠ فخاف القبط من غضب الله عليهم ومن حرمان البطرك لهم ، فتخلوا عن سراريهم ، وتابوا بين يدى البطرك وقبل توبتهم ، وغفر لهم خطاهم ٠ بينما خالف البطرك فى ذلك أحد كبار القبط ، وكان له مكانة عظيمة بين أصحاب الدواوين والمستخدمين ، ولم يخش من حرمان البطرك له من الكنيسة ، وغضب عليه ، فوعظه البطرك كثيرا دون جدوى ، فأعلن البطرك حرمانه (٤٧٠) ٠

وقد جرت عادة القبط فى مصر أيضا ، على اتخاذ أسماء القديسين والقديسات أسماء لأولادهم وبناتهم ٠ ومن أوضح الأمثلة على ذلك اسم القديسة بربارة ٠ وتشير بعض الروايات الى أن نصف نساء مصر ، اتخذن اسم بربارة ، طمعا فى بركاتها (٤٧١) ٠

واقبل القبط ، على شرب الخمور ، وخاصة غداة عيد الفصح وغيره من الأعياد (٤٧٢) والدليل على ذلك ما جاء فى وصف بعض الأديرة ، وما كان من اشتهار رهبانها وزوارها ، بالاغراق فى

ليخمر . وكثيرا ما كان بعض المسلمين يترددون على هذه الأديرة من جل هذا الغرض . وكثيرا ما كان الشعراء يتغنون بمثل هذه الأديرة رما يدور فيها . من ذلك ما قاله ابن عاصم عن دير مرحنا :

فاچثث كؤوسك يا غـــلام واعفنى
فلقد سكرت وخمر طرفك مسكرى

فاشرب على حسن الرياض وغننى
وانظر الى الساقى الأغن الأحور(٤٧٣)

ومن الأديرة التى تغنى بها الشعراء ، دير نهيا ، وما يدور فيه من شرب كؤوس الخمر . فقال ابن البصرى :

أتنشـــط للشرب ياســـــيدى
فيومـــك هـــذا دقيق الدروز

وتقصــــــد نهيا وديرا لهـــا
بـــه منبت الورد والمرمجـــوز

ونشرب فيها برطـــل وجـــام
وطاس وكاس وكوب وكوز (٤٧٤)

والأديرة المشهورة بالشراب واللهو ، كثيرة فى مصر ، وقد تغنى الشعراء بالكثير منها ، كما أطنب المؤرخون المختلفون فى الكتـــابة عنها .

اصطلح القبط المستخدمون على ألقاب يتخذونها ، ويتصدرها لفظ (الشيخ) وقد ظهرت هذه الظاهرة وتبلورت بصفة خاصة فى عصر الفاطميين . ونذكر من هذه الألقاب « الشيخ أبو اليمن » ، وهو

لقب اتخذه قزمان بن مينا ، الذى اشتهر أمره فى عهد الخليفة المعز لدين الله (٤٧٥) • وتعددت مثل هذه الألقاب ، فى عهد الخليفة المستنصر ، فنجد مثلا ، الشيخ أبو زكريا ، والشيخ أبو البشر ، والشيخ أبو السرور والشيخ أبو البدر ، والشيخ أبو الطيب،والشيخ أبو الفضل،والشيخ أبو مليح ويلقب أيضا بالشيخ الأثير نجيب الدولة ومكينها (٤٧٦) • وظهرت فى هذا العصر أيضا ، ألقاب خالية من لفظ الشيخ ، منها أمين الأمناء أبو اليمن ، والسيد الأوحد سيد رؤساء السيف والقلم (٤٧٧) • واستمرت هذه الألقاب ، وأمثالها شائعة بين القبط طوال عصور مصر الاسلامية •

ويقول القلقشندى (٤٧٨) ، بشأن تلقب القبط المستخدمين بالألقاب المختلفة : « وقد اصطلحوا على ألقاب يتلقبون بها ، غالبا مصدرة بالشيخ ، ثم منهم ما يجرى على الرسم الأول فى التلقيب بالاضافة الى الدولة فيتلقب بولى الدولة ونحوه ، ومنهم من يحذف المضاف اليه فى الجملة ويعرف اللقب بالألف واللام فيقولون الشيخ الشمس ، والشيخ الصفى والشيخ الموفق ، وما أشبه ذلك » •

أما ملابس القبط فى مصر الاسلامية ، حتى نهاية العصر الفاطمى ، فاننا نلمس اغفال المصادر التاريخية ، الى حد كبير ، الحديث عن ملابس القبط ، اللهم الا فى فترات التضييق عليهم • ونحن نتساءل : هل كان للقبط فى مصر الاسلامية ملابس مميزة خاصة بهم دون غيرهم من المسلمين أو اليهود ؟ ومما لاشك فيه أنه كان للقبط ملابسهم الخاصة ، بعد فتح العرب لمصر وكانت مختلفة بطبيعة الحال عن ملابس الفاتحين العرب المسلمين ، ومن ثم لم يكن

هناك ضرورة ملحة بالزامهم بلبس نوع معين من الثياب حتى يسهل التمييز بينهم وبين المسلمين ٠٠

كان من بين أحكام الدولة الاسلامية – كما ذكرنا – فى معاملة أهل الذمة ضرورة لبس الغيار ، والتمييز بين أهل الذمة وبين المسلمين فى الملابس ٠ وفى الحقيقة أن هذا التمييز ، كان سائدا بطريقة طبيعية ، عقب الفتح العربى لمصر ، فقد كان للفاتحين العرب أزياؤهم المميزة والتى تختلف عن أزياء المصريين ٠ ولكن عمر بن الخطاب ، حرص على ألا يتشبه المصريون الذميون بالعرب المسلمين فكتب الى عمرو بن العاص : « ان يختم فى رقاب أهل الذمة بالرصاص ، ويظهروا مناطقهم ، ويجزوا نواصيهم ، ويركبوا على الأكف عرضا ٠٠ ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين فى لبوسهم » (٤٧٩) ٠

وهكذا كان على عمرو بن العاص ، عقب فتح مصر ، أن يمنع أية محاولة ، من جانب القبط للتشبه بالمسلمين فى لباسهم ، وأن يلزمهم بشد المنطق – وهو حزام جلد – حول وسطهم وأن يحلقوا مقدمة رءوسهم ، وأن تكون أقدامهم من جانب واحد عند ركوبهم ٠

كانت هذه – فى الحقيقة – الاشارة الوحيدة ، الخاصة بلباس القبط وهيئتهم فى مصادر تاريخ مصر الاسلامية ، حتى نهاية القرن الأول الهجرى ٠ ويبدو أن القبط طوال هذا القرن ، كانوا حريصين على ارتداء ملابسهم الخاصة بهم ، دون القيام بأدنى محاولة للتشبه بالمسلمين ، وارتداء ملابسهم ٠ فلما أصبح العرب على جانب كبير من الحضارة والتمدن ، ورسخت أقدامهم فى البلاد ، رأى القبط أن يتشبهوا بهم ، وتطلعوا الى ارتداء ملابسهم ٠ ولذلك أصبح من الضرورى أن يتيقظ الحكام والخلفاء لذلك ، ويبادروا

الى وضع حد لهذه الظاهرة • وبدا ذلك واضحا فى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز ، الذى اشتهر بتشدده فى تطبيق الأحكام الاسلامية ، بشأن أهل الذمة فى جميع الميادين • فنراه يكتب الى عماله فى مختلف الأقاليم الاسلامية ، بما فيها مصر ، بضرورة الزام الذميين بعدم التشبه بالمسلمين فى لباسهم •

ونلاحظ تعدد الروايات التاريخية عن أوامر عمر بن عبد العزيز ، بشأن ملابس أهل الذمة ، ومنها أن الخليفة عمر بن عبد العزيز ، حرم على جميع الذميين لبس العمائم والتشبه بالمسلمين فى لباسهم ، وانه منعهم من ارتداء ملابس الجند العرب (٤٨٠) • كما جاء فى بعض كتبه الى ولاته : « ألا يمشى نصرانى ، الا مفروق الناصية ، ولا يلبس قباء (٤٨١) ولا يمشى الا بزنار من جلود ، ولا يلبس طيلسانا ولا سراويل ذات خدمة ، ولا نعلا لها عذبة ، ولا يوجد فى بيته سلاح ، الا انتهب » (٤٨٢) ومما لا شك فيه ، أن تلك الأوامر كانت نتيجة اهمال الذميين للبس الزنار أو المنطق الذى يشد أوساطهم ويميز بينهم وبين المسلمين، واقدامهم على وضع العمائم على رؤوسهم •

والملاحظ أن (المنطق) كان أهم ما يميز القبط بصفة خاصة ، ويبدو انه كان من اللباس الرسمى لهم • فكان بكام القبطى ، حاكم كورة بورة ، فى عهد الخليفة المأمون ، فى يوم الجمعة ، وفى وقت الصلاة يلبس السواد — شعار العباسيين — ويتقلد السيف ويشد وسطه بالمنطق ويركب برذونا (٤٨٣) ، وبين يديه أصحابه متجهين الى المسجد • ثم يقف بكام عند باب المسجد ، بينما يدخل نائب عنه من المسلمين ليؤم المصلين (٤٨٤) •

ثم اننا لم نجد فى المصادر أية اشارة عن ملابس القبط منذ عصر المأمون حتى عصر الخليفة العباسى ، المتوكل ، الذى تشدد مع

الذميين ، والزمهم بكثير من الأمور ، وهدد من يحاول عدم تنفيذها . فكتب فى سنة ٢٣٥ هـ الى مختلف الأقاليم الاسلامية بما فيها مصر ، يوصى عماله بضرورة التمييز بين المسلمين فى الملابس والركوب والزامهم ببعض الأمور فى هذا الشأن وتحذيرهم بمخالفة ذلك . ويجدر بنا الاشارة الى بعض هذه الكتب وقد جاء فيها :

« وقد رأى أمير المؤمنين ، وبالله توفيقه وارشاده ، أن يجعل أهل الذمة جميعا بحضرته فى نواحى أعماله ، أقربها وأبعدها ، وأخصهم وأحسبهم ، على تغيير طيالستهم التى يلبسها من لبسها من تجارهم وكتابهم وكبيرهم وصغيرهم ، ملونة كالوان الثياب العسلية لا يتجاوز ذلك متجاوز منهم الى غيره . ومن قصر عن هذه الطبقة من اتباعهم ، وارذالهم ، ومن سعد به حاله من لبس الطيالسة ، أخذ بتركيب خرقتين ، صبغهما ذلك الصبغ ، تكون استدارة كل واحدة منهما شبرا تاما فى مثله ، على موضع أمام ثوبه الذى يلبسه تلقاء صدره ، ومن وراء ظهره . وان يؤخذ الجميع منهم فى قلانسهم تركيب أذرة عليها تخالف الوانها ، ألوان القلانس ، وترفع فى أماكنها التى يقع بها منها ، لئلا يلصق بها فيستتر ولا يكون مايركب منها على احساك فيخفى . وكذلك فى سروجهم باتخاذ ركب خشب لها ونصب أكر على قرابيسها تكون نائية عنها ، ومرفعة عليها لا يرخص لهم فى ازالتها عن أعلى قرابيسهم ، ومواخير سروجهم الى جوانبها ، بل يتفقد ذلك منهم ليتبع ما وقع من الذى أمر أمير المؤمنين بحملهم عليه ، ظاهرا ، يثبته الناظر من غير تأمل ، وتأخذه الأعين من غير طلب . وأن تؤخذ من أمهاتهم وعبيدهم من يلبس المناطق من تلك الطبقة بشد الزنانير مكان المناطق التى كانت فى أوساطهم ... » (٤٨٥) .

كانت هذه أول مرة يتشدد فيها الحكام المسلمون على الذميين بشأن الملابس لأن أوامر عمر بن عبد العزيز ، كانت لا تتعدى - كما ذكرنا - المنطق وقص مناطق الشعر وغير ذلك من الأمور البسيطة • بينما نرى المتوكل توسع فى ذلك ، اذ حدد أوصاف ثيابهم وحدد لهم طريقة ركوبهم • والرواية القبطية لا تعطينا تفصيلات عن مدى تطبيق أهل الذمة فى مصر لهذه الأوامر ، وان كنا نرى أنهم وضعوها موضع التنفيذ ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الذميين فى مختلف الاقاليم الاسلامية خاصة فى العراق • واقتصرت الرواية القبطية على الاشارة الى أن المتوكل أمر القبط بعدم لبس الثياب ذات اللون الأبيض وأن تكون ثيابهم مصبوغة (٤٨٦) •

كما أمر المتوكل نساء أهل الذمة بلبس ازار عسلى اللون (٤٨٧) • وتشير بعض المصادر الى أن المرأة الذمية كانت تتدثر بالدثار الأصفر ، حين تغادر بيتها الى الخارج وتضع المنطق حول وسطها (٤٨٨) • وبعد بضع سنوات ، وفى سنة ٢٣٩ هـ ، ألزم الخليفة المتوكل أهل الذمة بلبس دراعتين (٤٨٩) عسليتين ، وأمرهم بالاقتصار على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين (٤٩٠) • ومنذ ذلك العصر ، وحتى عهد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، لا نجد أية اشارة الى ملابس القبط فى المصادر التاريخيه المختلفة •

ألزم الحاكم بأمر الله القبط فى مصر، بلبس الثياب والعمائم السود ، وأمر بضرورة التمييز بينهم وبين المسلمين فى لباسهم • كما ألزمهم بحمل صلبان طولها ذراع وعرضها ذراع أيضا ، ووزنها خمسة أرطال أيضا ، وهى من الخشب ومختومة بخاتم رصاص عليه اسم الخليفة ، وتعلق فى أعناقهم بحبال من الليف • كما أمرهم الخليفة أيضا بشد الزنار فى أوساطهم (٤٩١) •

وأمر الخليفة الحاكم بأمر الله ، نساء القبط بألا يلبسن نعالا ، كنعال المسلمات • كما كان على المرأة القبطية أن تضع فى قدمها اليمنى نعلا أحمر اللون ، بينما تضع فى قدمها اليسرى نعلا أسود اللون (٤٩٢) • ومنع الخليفة القبط من ركوب الخيل ؛ وسمح لهم بركوب الحمير والبغال ، بسروج ولجام غير محلاة بذهب أو فضة ، بل تكون السروج من الخشب عليها سيور من الجلد الأسود خالية من كل حلية (٤٩٣) • وسبق لنا أن أشرنا تفصيلا ، الى هذه القيود بالفصل الرابع ؛ من الباب الأول ، عند دراستنا لموقف الخلفاء الفاطميين من أهل الذمة •

فلما كانت خلافة الظاهر الفاطمى ، تحرز القبط كثيرا من هذه الأحكام ، وغيروا كثيرا من ملابستهم ، بعد أن يسمح لهم الخليفة بذلك ، وترك لهم حرية اللباس • فاقتصر ؛ أكثر القبط فى مصر ؛ فى ذلك الوقت ، على شد الزنار فى أوساطهم ، ولبس العمائم السوداء اللون (٤٩٤) • ويبدو أن شد الزنار كان أمرا حتميا ، فكان جميع الحكام والخلفاء يتمسكون بضرورة التزام القبط به ؛ حتى فى الأوقات التى تمتع فيها القبط بتسامح الحكام وعطفهم •

والدليل على ذلك ما حدث فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، ووزيره أمير الجيوش بدر الجمالى ؛ ففى سنة ٤٧٥ هـ (٨٠٢٠ ش) صدر سجل ، يضمن الزام القبط جميعا بشد الزنانير السوداء اللون (٤٩٥) • وفى عهد الخليفة الفاطمى الظافر أبى منصور بن الخليفة الحافظ ، ألزم القبط أيضا بشد الزنار ولم يسمح لهم بلبس الطيالسة ، وان كانت هذه الأوامر لم تدم طويلا وسرعان ما زالت (٤٩٦) •

أما الوزير الصالح طلائع بن رزيك ـ فى عهد الخليفة الفائز الفاطمى ـ فكان شديد الكراهية للقبط وأمر بالا يكون لعمائمهم ذوائب (٤٩٧) • وفى عهد الخليفة العاضد ـ آخر الخلفاء الفاطميين فى مصر ـ أمر وزيره أسد الدين شيركوه فى سنة ٥٦٤ هـ ، بأن يرفع القبط عذب (٤٩٨) عمائمهم ، وأن يشدوا الزنار فى أوساطهم (٤٩٩) •

ومما تجدر الاشارة اليه ، أن رجال الكنيسة القبطية أو بمعنى آخر اكليروس الكنيسة كان لهم ملابس كنسية خاصة بهم فكان لا يمكنهم دخول الكنيسة وعمل القداس الا بها • وقد حاول بعض الكتاب المحدثين ، دراسة الملابس الكنسية لرجال الدين القبط • الا أنهم واجهوا صعوبات كثيرة ، ولم يمكنهم الوصول الى صورة دقيقة واضحة لهذه الملابس • ونذكر من الكتاب الذين عنوا بدراسة الملابس الكنسية « بتلر » الذى ضمن كتابه عن كنائس مصر ، عدة فصول عن الملابس الكنسية للقبط ، وأورد فيه ، بعض الروايات التى تتضمن وصف هذه الملابس ثم ناقشها جميعا وحاول المقارنة بينها وبين الملابس الكنسية فى الكنائس الأخرى غير المصرية .

ونلاحظ أن هذه الروايات ، تشترك فى ذكر خمسة أنواع من الملابس الكنسية التى يجب على رجال الدين ارتداؤها وهى : البرنس (٥٠٠) أو الشملة ، ويكون من الحرير الأبيض (٥٠١) • ويسمى أيضا البلينة أو الابهنسى • فقد جاء فى الرواية القبطية عند الاشارة الى القوانين التى وضعها البطرك بنيامين لدير أبى مقار : ألا يصعد قس الى هيكل هذا الدير الا بعد أن يرتدى بلينة ولا يتقرب فيه قس ولا شماس الا بعد ارتدائه الابهنسى أوبلين (٥٠٢) • أما التونية ،فهى عبارة عن رداء طويل ، يصل الى القدم ، محلى بالجواهر ، فى شكل علامة الصليب أو بخيوط

من الحرير (٥٠٣) والمنطق (٥٠٤) ، ويمكن القول ان المنطق كان من أهم أنواع الملابس التى تميز القبط جميعا عن المسلمين وانه لم يكن خاصا برجال الكنيسة وحدهم • ثم هناك الحبرية Chasnale or Cope (٥٠٥) والبطرشبل Stale (٥٠٦) •

بينما تنفرد بعض الروايات بذكر ما يسمى الكمان Sleeves وهو غطاء للأذرع (٥٠٧) • وتشير روايات أخرى الى ما يسمى المانبل Maniple وينفرد بلبسها أصحاب الرتب الكهنوتية بعد الشمامسة ، أو من هم دونهم من الكهنوت (٥٠٨) •

وكان كل من البطاركة والأساقفة يمسكون عكازا فى أيديهم (٥٠٩) • كما كان البطاركة والأساقفة والقسس يضعون صلبانا من الفضة حول أعناقهم تتدلى على صدورهم (٥١٠) ويذكر الجاحظ (٥١١) أن الجاثليق — وهو صاحب الصلاة — كان يميزه القناع والمظلة والبرطلة والعكاز •

وتشير بعض المصادر الى أنه قد صار للبطرك ثياب خاصة مميزة فى عهد الخلفاء الفاطميين فيقول المقريزى (٥١٢) ان البطرك أنبا كيرلص المتوفى فى سنة ٣٨٥ هـ ، والمعاصر للخليفة المستنصر بالله « عمل بدلة للبطاركة من ديباج أزرق وبلارية من ديباج أحمر بتصاوير ذهب » • وكانت هذه هى أول محاولة لعمل كسوة خاصة بالبطاركة دون غيرهم من رجال الدين فى الكنيسة القبطية •

أما الرهبان فى الأديرة المصرية ، فكانت ملابسهم عبارة عن ثوب قصير من الكتان بدون أكمام بحيث تصل الى أسفل المرفقين • وكان الراهب يغطى كتفه ورقبته بفراء مدبوغ من جلد الغنم أو الماعز (٥١٣) • أما الرداء الخارجى للراهب فيسمى ، اسكيم

الرهبان وهو رداء قصير من الكتان تمر فوقه خيوط صوفية مجدولة تنزل من أعلى العنق وتتدلى على جانبي الرقبة وتصل الى الكتفين وتحيط بأسفل الابطين بحيث يعقد طرفاهـا وتترك الأيدى طليقة (٥١٤) . ويتصل بالاسكيم قلنسوة أو غطاء للرأس من الوبر ، رسمت عليه بعض الصلبان . وأخيرا ، يشد الراهب وسطه بمنطق من الجلد (٥١٥) كما كان الراهب يمسك بيده عكازا (٥١٦) . ولا يرتدى الألوان المصبوغة (٥١٧) .

وكان الرهبان وقت القداس ، يحرم عليهم تغطية رؤوسهم أو لبس الصنادل أو ارتداء السراويل التى تغطى القميص فتصل الى الأرض (٥١٨) . ومن الواضح أن الرهبان كانوا لا يبدون أى اهتمام بملابسهم ، ولذلك كانت بسيطة ورخيصة اذ لا يعنون بحياكتها . كما ان الراهب منهم كان لا يمتلك عادة ، أكثر من رداء واحد ، اذا غسله بقى فى قلايته حتى يجف . كما كان الراهب حريصا على بقاء الأردية فترة طويلة ، وكثيرا ما أصلحها عدة مرات ، وربما يتوارثها الرهبان تبركا بصاحبها ، وكل ذلك — فى الواقع — امعانا فى النسك ، ومحاربة لشهوات الجسد ، وكراهية لترف الدنيـا (٥١٩) .

أما عن أخلاق وعادات الطائفة الثانية من أهل الذمة ، وهم اليهود ، على اختلاف مذاهبهم وفرقهم ، فقد واجهتنا نفس الصعوبة التى واجهتنا عند دراستنا لدورهم فى الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر الاسلامية ، وذلك نتيجة ما كتبه المؤرخون المختلفون عن اليهود فى مصر فى ذلك العصر ، واهمال دورهم ، ومركزهم فى المجتمع المصرى فلم يمدونا بما كان يتميز به اليهود من الأخلاق والعادات ، ولا نجد فى المصادر المختلفة الا أخبارا قليلة متناثرة ، تتضاءل كثيرا أمام حديث المصادر عن حياة القبط الاجتماعية .

ونستخلص من بعض الروايات التاريخية ، أن وجوه اليهود فى مصر كانوا يشتهرون ، بالكرم وحبهم لضيافة اخوانهم اليهود ، ومد يد المعاونة الى المحتاجين منهم ، وقد ظهر ذلك واضحا فى العصر الفاطمى (٥٢٠) اذ اننا نجد فى المصادر التاريخية ما يشير الى ذلك، قبل هذا العصر • كما نلاحظ ان اليهود الذين كان لهم شأن فى الادارة والحكم ، كانوا يبذلون أقصى الجهد فى سبيل مساعدة اخوانهم فى الدين، وتحقيق مطالبهم، وتوفير سبل الأمن والاستقرار لهم • وظهر من بين جاليات اليهود فى الاسكندرية والفسطاط ، خاصة ، بعض الأفراد ، الذين كرسوا جهودهم ، من أجل توفير الرخاء والسعادة لاخوانهم اليهود ، وتقديم كل مساعدة ممكنة لهم • وكانت مثل هذه الخدمات تتزايد على مر الأيام والسنوات، وخاصة منذ القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى عندما بدأ بعض القراصنة العرب يصلون الى الموانى المصرية ، ومعهم الأسرى اليهود من الرحالة والتجار وغيرهم (٥٢١) ، وخاصة الى ميناء الاسكندرية ، حيث يبيعونهم لأهلها • وكان اليهود المصريون ، يبادرون الى شرائهم واطلاق حرياتهم • وكانت فدية اليهودى تبلغ ثلاثة وثلاثين وثلث دينار (٥٢٢) •

والواقع أن وصول القراصنة المستمر ، يحملون الأسرى اليهود ، قد أثقل كواهل اليهود فى الاسكندرية ، مما اضطرهم الى طلب المساعدة والعون من الجاليات اليهودية فى المدن المصرية الاخرى ، وضرورة مشاركتهم فى القيام بهذا الواجب • فوصلت رسائلهم الى جماعات اليهود بالفسطاط ، وتنيس ودمياط وغيرها من المدن التى تنتشر فيها جماعات اليهود الربانيين والقرائين ، تحمل طلب يهود الاسكندرية المعونة والمساعدة فى جمع فدية الأسرى اليهود (٥٢٣) •

وحفظت بعض المصادر التاريخية ، أخبار جهود اليهود فى العمل على فداء الأسرى اليهود ، وذكرت لنا كثيرا من أسماء هؤلاء اليهود ، ونخص بالذكر منهم دافيد بن اسحق David B. Isaac ونيتانيل بن هاكوهين Net anneel B. Elazar Hakkohen Hallevi وكانت أسماؤهما تذكر دائما كل يوم سبت فى الصلوات فى المعابد اليهودية المختلفة ، اعترافا بجهودهما وخدماتهما المتكورة لاخوانهم اليهود (٥٢٤) . ومن هؤلاء اليهود أيضا ابراهيم بن شماريا الذى قام بدور كبير فى سبيل فداء الأسرى اليهود . فكان دائما يستجيب لنداء يهود الاسكندرية (٥٢٥) .

ولم يقف الأمر عند حد ، طلب المساعدة والعون ، من جاليات اليهود المصرية ، بل أرسل يهود الاسكندرية ، بعض وجوه اليهود الى الدولة البيزنطية لجمع الأموال اللازمة لفدية الأسرى اليهود البيزنطيين ، لعجزهم عن سداد فديتهم . ومما تجدر الاشارة اليه أن كثيرا من هؤلاء اليهود ، كانوا يفضلون الاقامة بين اليهود المصريين فى ظل الحكم الاسلامى (٥٢٦) .

ويذكر موريس فارجون (٥٢٧) أن الجاليات اليهودية فى العصر الفاطمى ، كانت فى حالة يسر ورخاء ، وقد اشتهر من بينها بعض الأفراد ، وذاع صيتهم ، فى الكرم والسخاء . وكانوا يمتلكون ثروات عظيمة ، وان هذه الجاليات قد لعبت دورا عظيما ، بين المجتمعات اليهودية على شواطىء البحر المتوسط ، وخاصة منذ أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وعندما أخذ القراصنة العرب ، ينزلون الموانى المصرية ، ويحملون معهم عددا كبيرا من اليهود الأسرى ، فكان يهود الاسكندرية ، وغيرها من المدن المصرية ، يبذلون أقصى جهدهم فى سبيل اطلاق سراحهم وفدائهم . ومن مظاهر اليسر والثراء بين اليهود ، أنه قد جرت العادة بينهم على الخروج للحج الى بيت المقدس فى كل سنة (٥٢٨) .

وكان المستخدمون من اليهود ، شأنهم فى ذلك شأن القبط ، يتخذون بعض الألقاب ، فسادت فى عهد الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله ألقاب : عميد الدولة وأمير الملك ، وسعد الملك ، وكاتم سر المملكة ، ودعامة الدولة (٥٢٩) .

أما من ناحية ملابس اليهود ، فلا نجد وصفا لها ، أو اشارة اليها فى المصادر التاريخية المختلفة . ونرى انه لابد انه كان لهم ثياب خاصة بهم قبل الفتح العربى لمصر ، شأنهم فى ذلك شأن القبط ، وانهم حرصوا عليها فى عصور مصر الاسلامية ، كما كانت ملابسهم تختلف عن ملابس القبط ، وأنه كان ينظر اليها نظرة احتقار فى مصر الاسلامية ، والدليل على ذلك ان سمد فى ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر ، عندما أراد عقاب البطرك يوحنا . هدده بأن يرغمه على ارتداء الملابس اليهودية والتشهير به فى الطرقات (٥٣٠) . ولم نجد فى المصادر المختلفة أية اشارة الى هذه الملابس ، اللهم الا اشارة واحدة عند ، الكندى ، حينما ذكر أن لباس الرأس عند اليهود ، يسمى برطلة (٥٣١) . كما أن المصادر لم تذكر شيئا عن الملابس الدينية لرجال المعابد اليهودية . وكل ما نجده فى مصادر تاريخ مصر الإسلامية ، يتعلق بالزام اليهود ، شأنهم شأن القبط ، — فى فترات الضيق المحدودة — بلبس الغيار وعدم التشبه بالمسلمين فى لباسهم .

ونلاحظ أن أحكام وأوامر الخلفاء فى عصر الولاة ، كانت تصدر باسم أهل الذمة أو باسم النصارى دون ذكر لليهود . ورأينا ذلك فى أوامر الخليفة الأموى : عمر بن عبد العزيز ، والخليفة العباسى المتوكل . وقد ألزم اليهود فى عهد الخليفة المتوكل بعدم ارتداء الملابس البيضاء اللون (٥٣٢) .

ولم تذكر المصادر والتاريخية شيئا عن الزام اليهود بنوع خاص من الملابس منذ عصر المتوكل ، حتى عهـد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، الذى أمر فى سـنة ٣٦٢ هـ ، بألا يظهر يهودى الا بالغيار ، وهى الملابس التى يظهرون بها وتختلف عن ملابس المسلمين (٥٣٣) .

ثم أمر الخليفة الحاكم بأمر الله ، اليهود ، بشد الزنار فى أوساطهم ولبس الغيار ، وصبغ أطراف عمائمهم . كما ألزمهم ، بأن يعلقوا ، فى أعناقهم ، كبة خشب على شكل رأس العجل وزنها خمسة أرطال ، ومختومة بخاتم رصاص عليه اسم الخليفة ، وتعلق فى أعناقهم بحبال ليف . كما ألزم اليهود ، فى ذلك العصر ، بنفس الأوامر التى ألزم بها القبط بشأن الركوب وغيره (٥٣٤) .

وفى عهد الخليفة المستنصر بالله ، ألزم وزيره أمير الجيوش ، اليهود فى سـنة ٤٥٧ هـ ، بأن يشدوا الزنار فى أوساطهم ، وأن يكون لونها أسود ، وأن يصبغوا أطرافها باللون الأصفر ، ليتميزوا عن القبط (٥٣٥) . ثم أمر الصالح طلائـع بن رزيك ، فى عهد الخليفة الفائز ، اليهود بألا يكون لعمائمهم ذوائب (٥٣٦) . وبعد ذلك ألزمهم أسد الدين شيركوه ، بأن يجعلوا فى عمائمهم خرقة صفراء حتى يتميزوا بها عن القبط (٥٣٧) .

ومما تجدر الاشارة اليه أنه كان لكل من القبط واليهود ، مدافن خاصة بهم وكانت هذه المدافن متجاورة ، وان كان لا يسمح لليهود بدخول مدافن القبط ، أو للقبط بدخول مدافن اليهود . وتوجد مدافن القبط اليعاقبة وأساقفتهم فى مصر بأرض الحبش ، وفيها علامة الصليب منقوشة على حجر صوان (٥٣٨) . والى الشمال

من هذه المقابر ، توجد مقابر اليهود والسامرة • أما مدافن النصارى الملكانيين والأرمن فتوجد فى كنائسهم (٥٣٩) •

وخلاصة القول ، كان لكل من القبط واليهود أخلاقهم وتقاليدهم التى اشتهروا وتمسكوا بها ، سواء أكانوا من الرؤساء الدينيين أم من عامة الناس • ونلاحظ أن كلا من القبط واليهود ، كانوا حريصين على وحدة كنيستهم القبطية ، أو معبدهم اليهودى ، والحيلولة دون حدوث أى انشقاق • كما نلاحظ تعاطف أبناء كل طائفة فكان أغنياء الطائفة يعاونون الفقراء والمحتاجين من اخوانهم فى الدين ، ولكن هذا التعاطف لم يمنع حدوث بعض الخلافات بين أبناء الطائفة الواحدة أحيانا ، أو حدوث شقاق بين الرؤساء الدينيين ورعاياهم •

وقد اختلفت العادات والتقاليد ، تبعا لدرجة الثراء أو تنوع المهن والحرف كما خضعت هذه العادات لسنة التطور ، وتأثرت بتطور الحياة الاجتماعية فى مصر الاسلامية ، أو بعلاقة الذميين بسائر أفراد المجتمع المصرى ، الى جانب تأثرها بسياسة الخلفاء أو السلطات الحاكمة فى مصر •

٤ ـ العلاقات بين أهل الذمة وسائر عناصر المجتمع المصرى

لم تكن العلاقات بين أبناء الطائفتين المسيحيتين فى مصر ، أى بين القبط اليعاقبة والملكانيين ، علاقة ود وصفاء ، فى أغلب الأحيان · فقد عظم شأن القبط ، وارتفع ذكرهم فى ظل الحكم الاسلامى ، بعد فترة طويلة من المعاناة فى ظل الحكم الرومانى ، الذى ألحق بالقبط كثيرا من الظلم والتعسف ، بينما أحسن الرومان معاملة جماعة الملكانيين ، أتباع مذهب الامبراطورية الدينى · فأساء الملكانيون الى القبط اليعاقبة ، واستولوا على كنائسهم وأديرتهم ، حتى انتهى حكم الرومان فى مصر ، وزال سلطانهم بها ، فتنفس القبط اليعاقبة الصعداء ، واستعادوا ما كان لهم من كنائس وأديرة من أيدى الملكانيين ، كما صاروا مقربين من الولاة المسلمين بل الخلفاء أيضا · وعليه رجحت كفة القبط اليعاقبة على الملكانيين ، الذين صاروا أقلية بالنسبة للقبط فى مصر الاسلامية ·

ولذلك أصبح الملكانيون لا يترددون فى الايقاع بالقبط ، عندما تحين لهم الفرص نكاية فيهم وانتقاما منهم · واستمرت هذه الروح ، سائدة بين الملكانيين طوال تاريخ مصر الاسلامية فمن صار بيده السلطة منهم ، بذل قصارى جهده فى الاساءة الى القبط والحاق كل أذى وضرر ممكن بهم · والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها

ما حدث في بطركية الأب أغاثو في عهد الخليفة الأموى يزيد بن معاوية ـ حينما تمكن أحد الملكانيين ، ويسمى تيودوسيوس ، من تولى الحكم في مدينة الاسكندرية ، وأقاليم مريوط والبحيرة ، فنصب العداء للقبط ولبطركهم ، وأساء اليهم كثيرا ، وأثقل كاهل البطرك بالضرائب والغرامات المالية ، وبلغ به الأمر أن هدد البطرك الأب أغاثو بالقتل اذا هو خرج من قلايته ليلا أو نهارا • وبعد وفاة الأب أغاثو ، حجز تيودوسيوس على كل أموال الكنائس وأملاكها بالاسكندرية ، مما نتج عنه سوء أحوال القبط ، وسادت المدينة وما حولها ، مجاعة استمرت حتى توفى تيودوسيوس وخلص القبط من نواياه السيئة نحوهم ، وما كان ينزله بهم من سوء وضرر (٥٤٠) •

وكان بعض الملكانيين أيضا يقدم ، على السعاية ببطرك القبط عند الحكام المسلمين ، والايقاع بينه وبينهم • ونذكر من الأمثلة على ذلك أنه حينما خرج هذا الأمير الى مدينة الاسكندرية لتفقد الأمور بها ، لم يخرج البطرك أنبا يوحنا لاستقباله والسلام عليه كما جرت العادة بين البطاركة في مصر الاسلامية • فوجد بعض كبار الملكانيين وعلى رأسهم تاوفانيس حاكم مدينة مريوط ، في هذا الحدث فرصة للايقاع بالبطرك القبطى وأيضا رعاياه من القبط • ولذا بادروا الى السعاية به لدى عبد العزيز بن مروان وأوغروا صدره عليه ، وزعموا له أن البطرك يوحنا لم يخرج للقائه لتجبره وكبريائه واتساع ثرائه (٥٤١) •

كذلك لم تكن العلاقة بين القبط واليهود في مصر ، غالبا ، علاقة طيبة ، اذ كان اليهود ينقمون على القبط ، لكثرة عددهم وغلبتهم على الحكام ، وتمكينهم من البلاد دونهم • فقد كان القبط هم سكان البلاد الأصليين ، قبل الفتح الاسلامى ، ولذلك نظر

القبط الى اليهود على أنهم طبقة اجتماعية أدنى منهم · ويذكر ترتون ان الصلات بين القبط واليهود لم تكن ودية على الدوام ، ويفسر ذلك بأن المسلمين كانوا يرون فى صدر العصر الاسلامى انه من الممكن الاعتماد على اليهود ، لمواجهة الغالبية المسيحية · ولقد لمسنا فى دراستنا لموقف القبط واليهود من الفتح العربى ، ان اليهود لم يقوموا بأدنى محاولة لصد العرب المسلمين أو حتى معاونة الرومان وبعض القبط فى مقاومة الفاتحين العرب · ولذلك أحسن عمرو بن العاص معاملتهم ، وأقرهم فى مناطق سكناهم مع أداء الجزية (٥٤٢) ·

واستمرت روح العداء ، سائدة بين القبط واليهود فى مصر الاسلامية · وكثيرا ما كان بعض اليهود يحاول الايقاع بالبطرك القبطى وأساقفته ، ونذكر من الأمثلة على ذلك ما حدث فى عهد الأمير أحمد بن طولون ، وبطركية أنبا شنودة ، حينما تعاون بعض اليهود مع أحد القبط ، وكتبوا رقاعا ضد البطرك ، من أجل الايقاع به وبأساقفته · ومن سوء حظ هؤلاء المتآمرين ، ان الأمير أحمد ابن طولون ، اكتشف كذبهم ، وتبين حقيقة مؤامرتهم ، ونجا البطرك وأساقفته (٥٤٣) ·

وقد ظهرت البغضاء بين اليهود والقبط واضحة فى عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، الذى قرب اليه كثيرا من اليهود ، وفى مقدمتهم يعقوب بن كلس اليهودى الأصل والذى كان رغم اسلامه يخدم مصالح اليهود غالبا ، ويقرب الكثير منهم · وكان له صديق يهودى يسمى موسى ، تمتع بمكانه عظيمة لدى الخليفه المعز لدين الله · وقد تعاون كل من يعقوب بن كلس وصديقه موسى ، على الايقاع بالبطرك القبطى أنبا افراهام ورعاياه القبط ، لحقدهما عليه ، لما تمتع به من منزلة كبيرة عند الخليفة ، حتى ان

المعز كان يطلب منه التردد عليه دائما • فطلب الصديقان من الخليفة المعز أن يستدعى البطرك أنبا أفراهام ، لكى يناظره فى بعض الأمور الدينية ، حتى يتبين له ضعف المامه بدينه ، فطلب الخليفة المعز من البطرك أنبا أفراهام أن يبعث برجل من القبط ليناظر موسى اليهودى ، ولكنه حدث أن تفوق القبطى عليه فى المناظرة (٥٤٤) •

وكان الموظفون القبط ، يميلون الى ابعاد اليهود عن الوظائف العامة وشئون الحكم والادارة • وظهرت هذه الروح واضحة فى عصر الدولة الفاطمية التى بدأ اليهود فيها يتولون بعض أعمال الدواوين ، والوظائف المختلفة (٥٤٥) •

وتشير الرواية القبطية الى تحول بعض اليهود الى الدين المسيحى ، تذكر من هؤلاء ، أبا الفخر بن أزهر • وكان من كبار رجال اليهود ، وأكثرهم علما وخبرة ، فى عهد الخليفة الفاطمى الفائز ، وبطركية أنبا يوحنا فى سنة ٥٥٤ هـ • ودرس أبو الفخر كتب الدين المسيحى وتعمق فيها ، كما أتقن اللغة القبطية فى وقت قصير ، فكان يجادل اليهود بالعبرية ، ويفسره للقبط بالقبطية • وقد ألحق المسلمون واليهود به كثيرا من الأذى • وبذل اليهود كثيرا من الأموال للخلفاء والحكام ليقتلوه ، لكنه نجا من كل هذه المحاولات ، واحتفظ بالعقيدة المسيحية حتى وفاته (٥٤٦) •

أما عن العلاقات بين اليهود والقبط من جهة وبين المسلمين من جهة أخرى ، فكانت يسودها السلام فى معظم الأحيان • فلم تحدث بينهم فتن ، أو مشاغبات ، فى عصر الولاة ، أو فى عصر الأمراء الطولونيين • ولكن ظهرت هذه الفتن وخاصة بين المسلمين ، والقبط ، فى فترات محدودة فى عصر بعض الأمراء الاخشيديين ، وفى عصر بعض الخلفاء الفاطميين ، كما سنرى •

والحقيقة أن المسلمين لم يكونوا فى عزلة تامه عن اهل الذمه فى المجتمع المصرى ، وبصفة خاصة عن القبط . فقد رأينا المسلمين . يشاركون القبط فى الاحتفالات بأعيادهم الدينية المختلفه ، وما يسودها من اللهو والشراب ، وارتداء الملابس الجديدة . وتناول بعض المأكولات الخاصة بالأعياد . كما كانوا يتبادلون الهدايا مع القبط ، بينما كان المسلمون يتركون القبط وشأنهم عند القيام بالمراسيم الدينية الخاصة بأعيادهم فى الكنائس .

والحقيقة التى لا يمكن تجاهلها ، أيضا ، أن القبط فى مصر ، كان لهم نصيب واضح فى حياة المسلمين الاجتماعية . نذكر مثلا أنه قد جرت العادة بين المسلمين فى مدينة اسنا بصعيد مصر أنهم فى أفراح عرسهم ، يدعون بعض القبط الذين يحسنون الغناء والتلحين باللغة القبطية ، ويشركونهم فى احياء احتفالاتهم . فيتقدم هؤلاء المغنون القبط موكب العروس فى شوارع المدينة وأسواقها (٥٤٧) .

كما كان سكان هذه المنطقة من المسلمين ، يشاركون القبط فى استقبال أسقفهم الجديد عند تعيينه . فجرت العادة ، ان يحمل رجل من المسلمين ، الأسقف الجديد من خارج مدينة اسنا ، حتى يصل به الى قلايته التى يسكن فيها طوال مدة توليه الأسقفية (٥٤٨) .
وقد جرت العادة أيضا ، بين سكان هذه المنطقة ، أنه فى ليلة عيد الميلاد من كل سنة يشارك المسلمون القبط فى ايقاد الشموع والقناديل والحطب (٥٤٩) .

وبالرغم من أن عدد اليهود والقبط ، كان يتناقص تدريجيا فى مصر الاسلامية نتيجة لتحول الكثير منهم الى الاسلام ، فانه لم تكن الهوة سحيقة بين الأكثرية الاسلامية ، وبين الأقلية من أهل

الذمه . اذ كانـــوا كثيرا مايتعاونون في حياتهم الاجتماعيـــة ، والاقتصادية · كمـــا كان بعض أثرياء القبط ، يستخدمون بعض المسلمين في أعمـــال ضـــياعهم في الريف المصرى · روى ابن الداية (٥٥٠) : « كان ببعض أرياف مصر نصرانى من أهلها ، كثير المال ، فاشى النعمه وسمح النفس ، وكانت له دار ضيافة وجرايات واسعة على ذوى الستر بالفسطاط » ·

وقد شهدت أواخر القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث الهجرى صورا كثيرة لعلاقات الود بين المسلمين والقبط ، وخاصـة الرهبان منهم ، نذكر منها صورة تبرز أحـد العلمـاء المتصوفين ، وهو أبو الفيض ثوبان بن ابراهيم الذى كان يتصل بالرهبان في الأديرة ، ويأخذ عنهم الزهد ، والانقطاع عن ملاذ الحياة ، والاقبال على العبادة ، والتفانى في الحب الالهى كما أخذ عن هؤلاء الرهبان بعض العلوم الفلسفية · وكان بعض هؤلاء الرهبان يتمكنون من قراءة النقوش المصرية القديمة ، وكانوا لا يبخلون بتعريف ذى النون مايصلون اليه من معرفة بهذه النقوش وغيرها (٥٥١) ·

ونذكر أيضا من الأمثلة التى أشـــارت اليهـا بعض المصادر التاريخية ، والتى تدل على علاقة الود ، والوئام ، بين بعض القبط والمسلمين في مصر ، ماكان من حسن معاملة أحد كبار المستخدمين القبط وهو أبو السرور يوحنا بن الأيح ، كاتب سر الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ووزيره ، للمسلمين عامة · فكان يحسـن اليهـم جميعا ، ويساعد المحتاجين منهم · وقد نعم هذا المستخدم القبطى بحب واحترام جميع المسلمين (٥٥٢) ·

كما نلاحظ مشاركة اليهود والقبط ، المسلمين في أحزانهم ، والدعاء للمرضى من الأمراء المسلمين · كمـــا حـدث عنـد مرض

أحمد بن طولون ، فقد خرج المسلمون واليهود والقبط الى جبل المقطم للدعاء لأحمد بن طولون بالشفاء (٥٥٣) ٠

وتشير كثير من الوثائق ، وخاصـــة التى ترجـع الى عصر الدولتين : الاخشيدية والفاطميـــة ، أن القبط كانــوا يشركون المسلمين معهم فى الشهادة ، والتوقيع على عقـود البيع والشراء ، وحجج الوصايا ، وعقود الزواج ٠ نذكر من هذه الوثائق ، وثيقتين يرجع تاريخهما الى سنة ٣٤١ هـ (٩٥٢ م) وتتضمن الأولى عقـــد بيع بين يحنس بن شنودة ومقطلتى ابنة شـــنودة ، من ســـكان احدى قرى كورة الفيوم ٠ وهذه الوثيقة تتضمن وصفا كاملا للمنزل المباع ، وحدوده ، كما تشير الى أن دفع الثمن قد تم بالدينار(٥٥٤)٠

أما الوثيقـــة الثانيـــة فهى عبـــارة عن عقـــد بيع بين يحنس بن شنودة وكل من موسى بن سكريس ، وصـــمويل بن شنودة ، من سكان نفس القرية ٠ وفيها أيضا وصف للمنزل ، وأنه دفع الثمن تم نقدا بالدينار ٠ والملاحظ ان هذه العقود ، كانت تتم على شروط بيع المسلمين (٥٥٥) ٠

كما تشير بعض الوثائق الأخـرى ، الى أنه كثيرا ما كانت عمليات البيع والشراء تتم بين القبط والمسلمين فى عصر الدولتين : الاخشيدية والفاطمية بصـــفة خاصـــة ٠ فهناك وثيقـــة ترجـع الى سنة ٣٤١ هـ ٠ وتتضمن عقد بيع منزل بين يحنس بن شـــنودة وعبد العزيز بن مقبل وكلاهما من سكان بعض قرى كورة الفيوم وتتضمن الوثيقة وصفا كاملا للمنزل وحدوده من كل جانب ، وثمن البيع وتوقيع من اشترك فى الشهادة على عقـد البيع من المسلمين والقبط (٥٥٦) ٠ ونستخلص من هذه الوثائق أيضا دليلا على ثراء بعض القبط بقرى الفيوم وقدرتهم على دفع قيمة مشترياتهم نقدا ، ومقـــدما ٠

وكما كانت عمليات البيع والشراء تتم بين المسلمين والقبط ، فى عصر الأمراء الاخشيديين كان يتم ذلك أيضا فى عصر الخلفاء الفاطميين • فنجد بعض الوثائق التى تؤكد ذلك ، ويرجع تاريخها الى القرن الخامس الهجرى ، وتتضمن عمليات البيع والشراء المتبادله فى مدينه الأشموين (٥٥٧) •

ونذكر أيضا وثيقة يرجع تاريخها الى سنة ٣٤٨ هـ (ديسمبر ٩٥٩ / يناير ٩٦٠ م) وتتضمن وصية بعض القبط ، بثلث ممتلكاته ، من كل صنف لاحدى الفتيات القبط أيضا ، وأنه أشرك فى الشهادة على هذه الوصية بعض المسلمين (٥٥٨) •

كذلك نجد كثيرا من الوثائق التى ترجع الى عصر الدوله الفاطمية ، وخاصة فى القرن الخامس الهجرى • وتتضمن هذه الوثائق جميعها عقود بيع بين نفر من القبط ، واشراكهم المسلمين فى الشهادة على عقود البيع والشراء ، والتوقيع عليها • ونلاحظ أن هذه الوثائق جميعها كانت خاصة بكورة الفيوم ومدينة الاشمونين (٥٥٩) •

وتم تزاوج بين المسلمين والذميات ، وخاصة فى عصر الأمراء الطولونيين حيث ظهر الاندماج بين المسلمين والمصريين واضحا • وتؤكد ذلك بعض الوثائق ، نذكر منها واحدة تتضمن زواج بونة ابنة خليص من يزيد بن قاسم (٥٦٠) •

وبالرغم من هذه الصور التاريخية التى تعبر عن المحبة ، والود ، والسلام بين المسلمين وأهل الذمة ، فاننا نجد فى المصادر التاريخية ، صورا مضادة ، ونلمسها فى عهد بعض الأمراء الاخشيديين ، وأيضا فى عصر بعض الخلفاء الفاطميين • وتوضح

هذه المصادر نفور المسلمين أحيانا من الذميين ، وثورتهم عليهم ، وشغبهم بهم . ومما لاشك فيه أن هذه الصور كانت رد فعل ، لما صار لأهل الذمة من أهمية ومكانة في المجتمع المصري فقد تولى الكثير منهم أعمال الدواوين وشئون الحكم ، وخاصة الوظائف المالية ، مما أثار حنق بعض المسلمين ، الذين آلمهم تسلط الذميين على مصالحهم . كما حنق المسلمون أيضا على أهل الذمة ، نتيجة الحرية الواسعة التي تمتعوا بها ، والسماح لهم ببناء الكنائس الجديدة أو تعمير الكنائس القديمة . كما أن أخبار انتصارات الرومان المتوالية في بلاد الشام ونجاحهم في الاستيلاء على بعض المدن بها ، كانت تثير شعور الغضب والكراهية ضد الذميين وخاصة القبط منهم ، مما نتج عنه شغب المسلمين وثورتهم ضدهم . وسنشير فيما يلي الى بعض الحوادث التي تؤكد هذه الظاهرة ، وتوضح جوانبها في عصر الأمراء الاخشيديين ، ثم في عصر الخلفاء الفاطميين .

ثار المسلمون في عهد الأمير محمد بن طغج الاخشيد ، في سنة ٣٢٦ هـ ، عندما اذن للقبط بتجديد كنيسة أبي شنودة . فأفتى بعض الفقهاء بأحقية القبط في ذلك ، بينما أنكر فريق آخر من الفقهاء ذلك . فثار المسلمون ، وأرادوا اشعال النيران في منازل الفقهاء الذين رأوا أحقية القبط في تجديد الكنيسة المذكورة ، وتعميرها ، وأرادوا قتلهم . كما أحاط المشاغبون بالكنيسة ، مما اضطر الاخشيد الى التدخل لتهدئة الأمور فبعث بجنده لصرف المتظاهرين ، الا أنهم رموهم بالحجارة . فأرسل الاخشيد الفقيه أبا بكر بن الحداد ، مع أحد المهندسين ، لدراسة حال الكنيسة ، فأقرا بقاءها دون تعمير (٥٦١) .

كذلك ثارت عامة المسلمين ضد القبط ، وغيرهم من المسيحيين ، وخربوا بعض الكنائس ، عندما وصلتهم أنباء انتصـــارات الرومان فى بلاد الشام فى اليوم الثالث من المحرم سنة ٣٤٩ هـ (٥٦٢) .

وعاود المسلمون ثورتهم فى العـــام التالى ، عندما وصلتهم الأخبـار ، بغزو الرومان ، بقيـــادة الامبراطور نقفور ، جزيرة اقريطش ، وتحريب مافيها من المساجد ، الى جانب سبى كثير من أهلها المسلمين . وكان ذلك اليوم ، يوافق عيد العازر ، قبل عيد الشعانين بيومين . فتجمع كثير من المسلمين ، وارادوا تخريب بعض الكنائس الملكانية واليعقوبية ، والاستيلاء على ما فيها من الأوانى والأمتعة . فركب أحد قواد الاخشيد فى جموع من الجند ، وفرق جماعة المتظاهرين ، وتمكن من القضاء على هذه الفتنة (٥٦٣) .

وتشير بعض المصـادر الحديثـة ، الى أن العوامل الرئيسية لاثارة الفتنه أحيانا بين المسلمين والذميين ، هى انتصار الرومان فى بلاد الشام ، وما كان يكتبـه الشعراء المسلمون ، من قصائد ينسبونها الى المسيحيين . يذكرون فيها ما فعله الرومان المسيحيون فى المدن الاسلامية وأهلها ، مما كان الغرض منه استنهاض همم المسلمين ، ولكنه كان يؤدى فى بعض الأحيان الى توتر العلاقات بـين المسـلمين والمسيحيين فى مصر ، وغـــيرها من البـــلاد الاسلامية (٥٦٤) .

ولكن هذه المشاغبات التى كانت بين المسلمين والقبط فى عصر الأمراء الاخشيديين ، كانت لفترات محدودة ، بينما كانت العلاقة ، غالبا ، طيبة بين الفريقين فعاشوا جميعا فى وئام وســـلام ، معظم سنوات هذا العصر .

أما فى عصر الخلفاء الفاطميين ، فقد تكررت المشاغبات بين عامة المسلمين وأهل الذمة من القبط واليهود نتيجة تسامح الخلفاء الواضح مع الذميين ، واستخدامهم لهم فى الحكومة على نطاق واسع ، مما لم يسبق له مثيل فى تاريخ مصر ، وسائر البلاد الاسلامية الأخرى . مما مكنهم من التسلط على مصالح المسلمين ، مما أثار شعور الكراهية أحيانا ضد الذميين وما ترتب عليه من قيام المسلمين بالثورة ضدهم ، فى الطرقات والتعرض لنسائهم وأطفالهم وهم فى طريقهم الى الكنائس .

وعارض المسلمون رغبة الذميين فى بناء الكنائس ، بالرغم من حصولهم على تصريح من الخلفاء . فقد اذن الخليفة المعز لدين الله ، للبطرك أنبا افراهام ببناء بعض الكنائس فى مصر . فلما شرع البطرك ورعاياه القبط فى البناء ، حالت عامة المسلمين دون ذلك . فاشتكى البطرك للخليفة ، الذى سارع بارسال فرقة من جنده لتفريق المتظاهرين وارغامهم على السكون والهدوء ، وتهديدهم بالعقاب اذا تعرضوا للقبط بسوء ، أثناء بنائهم للكنائس . وكتب الخليفة المعز للقبط ، سجلا يسمح لهم فيه ببناء بعض الكنائس وتجديد البعض الآخر (٥٦٥) .

وحدث فى سنة ٣٨٦ هـ ، أن احترق الأسطول الذى أمر الخليفة العزيز بالله ، ببنائه للخروج به الى بلاد الشام ، لقتال الرومان به ، فاتهم المسلمون التجار الرومان ، الذين قدموا الى مصر ببضائعهم المختلفة . فثارت عامة المسلمين من المصريين والمغاربة ، وقتلوا من هؤلاء التجار أعدادا كبيرة ، نحو مائة وستين ، كما هجم المسلمون على دور هؤلاء الرومان ، واستولوا على محتوياتها كما امتدت أيديهم الى بعض الكنائس الملكانية بمصر ، وخربوا بعضها ، واستولوا على ما فيها من الأوانى الذهبية

والفضية والأمتعة . وتدخل الوزير المسيحى عيسى بن نسطورس ، ووضع حدا لهذا الاعتداء على الملكانيين وأمر برد كل ما أخذه المسلمون الى التجار والكنائس (٥٦٦) .

والواقع أن شعور الكراهية لدى المسلمين لم يكن موجها نحو القبط وحدهم ، بل نحو اليهود أيضا . ويبدو أن المسلمين كانوا يحتقرون اليهود ، ويستهزئون بهم ويعترضون تجمعاتهم فى مختلف الظروف والمناسبات . فقد حدث فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، حينما كان اليهود يشيعون جنازة احد اعيانهم ، أن اعترضت عامة المسلمين طريقهم ووجهوا اليهم الاهانات ، ورجموهم بالحجارة . وكان المسلمون يحرضون ، أحيانا ، أصحاب السلطة فى البلاد ، على الحاق الأذى باليهود ، ويوجهون اليهم كثيرا من الاتهامات . ونتج عن ذلك القبض على بعض اليهود ، ووضعهم فى السجن ، بعد أن لحقهم كثير من الاهانات من المسلمين وهم فى طريقهم الى السجن (٥٦٧) .

وفى الحقيقة ، وجد المسلمون فى عصر الخليفة الحاكم بأمر الله فرصة للتعبير عن شعورهم ازاء الذميين جميعا . فقد شاركوا فى هدم الكنائس والأديرة ، والاستيلاء على امتعتها كما تمادوا فى اهانة الذميين ، وشجعهم على هذه السياسة كراهية الحاكم بأمر الله للذميين وانقلابه عليهم خلال عدة سنوات . فلما أمر الحاكم بهدم دير القصير ، أسرعت عامة المسلمين الى الدير ، ونبشوا قبور الموتى ، واستولوا على التوابيت الخشبية (٥٦٨) . وأبدى المسلمون فرحهم ، لهدم كنيسة القيامة فى بيت المقدس . ويصف ابن القلانسى (٥٦٩) شعور المسلمين آنذاك فيقول :«وشاع الخبر ، فسر المسلمون به ، ودعوا للحاكم دعاء كبيرا على ما فعله

ورفع اصحاب الأخبار اليه ، ما الناس عليه من هذه الحالـــة ، ففرح بذلك ، وتقدم بهدم ما يكون فى الأعمال من البيع والكنائس».

ويذكر ابن سعيد الأنطاكى (٥٧٠) أن المسـلمين فى هــذا العصر ، قد انتهزوا هذه الفرصة للاساءة الى القبط خاصة ، فهدموا بعض الكنائس فى القاهرة وضواحيها واقامـوا مكانهـا مساجد لهم . وتصف بعض الروايات القبطية شعور المسلمين آنذاك نحو القبط ، فتقول : « وكان على النصارى فى هذه التسع سنوات ضيق عظيم ، وطرد وشتم ولعن من المسلمين ويبصقون فى وجوههم ، وكان اكثر ذلك بمدينة تنيس واعمالها . واذا جــاز نصرانى عليهم ، يشتمونه ويقولون له ، اكسر هذا الصليب ،وادخل فى الدين الواسع ، وان نسى نصرانى صليبه ، ومشى بلا صليب لقى هوانا كثيراً » (٥٧١) .

ويبدو أن عامة المسلمين ، وأطفالهـم ، كانـوا يعترضـون أحيانا نساء القبط ، وهن فى الطريق الى الكنائس وخاصة فى ايام صوم الأربعين ، وعيد الفصح بصفة خاصة ، كما حدث فى عهد الخليفة المستنصر بالله ، اذ اشتكى بعض كبار موظفى القبط من أن بعض الصبية المسلمين قد اعترضوا طريق نسائهم ، ورجموهن بالحجارة ، وسبوهن (٥٧٢) .

وفى عهد الخليفة الفاطمى الحافظ ، اهتم بعض الاساقفـــة بكنيسة مدينة زفتى ، واكملوا بناءها ، واحتفلوا بافتتاحها ، وسموها كنيسة مارى جرجس . فثار المسلمون ، والحقوا بهذه الكنيســـة الخراب والتدمير ، وحولوها الى مسجد (٥٧٣) . وحدث مثل هذا الحدث فى عهد الخليفة الظافر ، اذ عمر القبط كنيسة مارى جرجس بالمطرية ، فهدمها المسلمون ، واقامـوا لهم مسجــدا ، فى نفس المكان (٥٧٤) .

وفى الحقيقة لم يكن سخط المسلمين ، أحيانا ، على القبط واليهود ، نتيجة تعصب دينى ، انما هو رد فعل لتسلط أهل الذمة على أمور الدولة ، وخاصة فى عصر الخلفاء الفاطميين ، حتى إن بعض الشعراء تغنوا بذلك فى بعض القصائد ، فقال ابن بشر الدمشقى :

تنصر فالتنصر دين حق   عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا   وعطل ماسواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب وهذا العزيز ابن وروح القدس فضل (٥٧٥)

كما قال الحسن بن خاقان :

يهود هذا الزمان قد بلغوا   غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم   ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر انى نصحت لكم   تهودوا قد تهود الفلك (٥٧٦)

وبالرغم من استخدام اليهود فى بعض نواحى الادارة ، كان المسلمون — فى رأى ترتون — ينظرون اليهم نظرتهم الى فئة دونهم مكانة ، لا يحق لهم أن يتطاولوا لأكثر من تناول الفتات المتساقط من موائد سادتهم (٥٧٧) . وربما كان هذا الشعور من جانب المسلمين ، هو السبب فى عدم مشاركة المسلمين لليهود فى الاحتفال بأعيادهم ، مثلما كانوا يشاركون القبط ، ولعل هذا الشعور أيضا كان سبب قلة ما وصلنا من الأخبار عن اليهود ، وخاصة فى المصادر الاسلامية اذا قارنا ذلك بما وصلنا من أخبار وروايات عن القبط .

بعد دراستنا للعلاقة بين عامة المسلمين وأهل الذمة فى مصر الاسلامية ندرس علاقة حكام مصر فى ذلك العصر بالذميين ، ومدى تسامحهم معهم .

تمتع اهل الذمة فى الحقيقة ، بتسامح حكام مصر ، طوال هذا العصر الذى نحن بصدد البحث والدراسة فيه . اذ كان الحكام المسلمون يعطفون عليهم ، ويستخدمونهم فى الدواوين المختلفة وفى ادارة البلاد المصرية . كما تركوا لهم حرياتهم الدينية والاجتماعية ، فباشروا طقوسهم الدينية فى حرية تامة فى معظم الأحيان ، واحتفلوا بأعيادهم الدينية والقومية ، بل شارك كثير من حكام مصر فى هذه الاحتفالات . كما نلاحظ ان كثيرا من حكام مصر ، كان يحول دون تعرض عامة المسلمين للقبط وغيرهم من الذميين ، عندما يشرعون فى بناء كنائس جديدة ، أو تجديد وتعمير القديم منها . كما أنس بعض حكام مصر ببعض الأساقفة والرهبان القبط ، فكثيرا ما كان هؤلاء الحكام يحرصون على الاجتماع بهم ، واستشارتهم فى أمورهم . كما اهتم كثير من حكام مصر بالأديرة ، واتخذوها متنزها لهم ، وجعلوا لها الأراضى ، وقدموا لها المعونة المادية لرهبانها كما سنرى .

اشتهر عمرو بن العاص ، أول ولاة مصر من المسلمين ، بحسن معاملته للقبط واليهود ، وتسامحه معهم ، وتركه الحرية الدينية والاجتماعية لهم . وليس أدل على ذلك من كتابة الأمان للبطرك القبطى بنيامين . كما انه كان ، دائما ، يستشير الخليفة عمر بن الخطاب فى بعض الأمور الخاصة بالقبط ورهبانهم ، حتى يستنير برأيه ، ويسترشد بسياسته فأجابه الخليفة عمر ، بأن من يموت من أهل الذمة ويكون له عقب ، يكون ميراثه وكل ما يملكه

لعقبه من بعده ، أما من يموت منهم وليس له وارث شرعي،فميراثه يصير الى بيت مال المسلمين ، لأن ولاءهم يكون للمسلمين (٥٧٨).

وبالرغم من سيابسة عمرو بن العاص المتسامحة ، وحسن معاملته للقبط ، فانه كان لا يتوانى فى عقاب من يتهم منهم بسوء النية نحو العرب والاسلام . وتشير بعض المصادر الى انه صادر أموال أحد القبط ، عندما علم انه كان ينقل للرومان أخبار المسلمين ويدلهم على عوراتهم ، ويكتب لهم بذلك . فاستحل عمرو بن العاص أموال هذا القبطى ، وبلغ ما صادره ثلاثة عشر مليـــون دينار (٥٧٩) .

وعلى الرغم من أننا نلمس فى عصر الولاة ، إجحاف بعض الولاة المسلمين بالذميين ، والتشدد معهم فى جمع الضرائب ، واتبـــاع وسائل مختلفة فى سبيل ذلك ـــ كما سنرى فى البـــاب الثالث ـــ فقد احسن كثير من الولاة ، فى هذا العصر ، معاملة أهل الذمة ، واشتهرت سياستهم نحوهم بالتسامح والعطف ، وخاصة بالنسبة لرجال الدين القبط . وتحفظ لنا المصادر التاريخية وخاصة القبطية منها كثيرا من الأمثلة على ذلك . منها ما حدث فى ولاية مسلمـــة ابن مخلد (٤٧ ـــ ٦٢ هـ) الذى كان أول من اذن ببناء كنيســـة بالفسطاط (٥٨٠) . فقد اتهم بعض الموظفين القبط باقليم سخا ، وقرر حكام هذا الاقليم حرقهم بالنار ، الا أن الوالى مسلمة بـــن مخلد بعث الى اقليم سخا سبعة من الأساقفة ، للتحقيق فى هذا الحدث ، وابداء رايهم فى الحكم على المتهمين (٥٨١) .

وكانت تسود علاقات الود والمحبـــة أيضـا بين أمير مصر عبد العزيز بن مروان وبطرك القبط يوحنا الثالث . ولما أشـــار الأطباء على عبد العزيز بن مروان بالإقامة فى حلوان ، نزل فى دير

طمويه ومنح الرهبان عشرين الف دينـــار فى هذه الزيارة ، وتم شفاء الأمير ، مما كان له أثره فى ازدياد حبه للرهبان القبط واجلال بطركهم (٥٨٢) . ومما تجدر الاشارة اليه ، أن العملة الأولى لمصر الاسلامية قد ضربها عبد العزيز ، وهو مقيم فى هذا الدير (٥٨٣) .

وكان بعض الولاة المسلمين يحبون الاجتماع بكبار رجـــال القبط واعيانهم . ويؤكد ذلك ما جاء فى ترجمة البطرك أنبا اسحق ، ذلك أن والى مصر عبد العـــزيز بن مروان كان كثيرا ما يجتمـــع بالموظفين القبط ، كما كان يأنس كثيرا ببطركهم أنبا اسحق ، حتى بلغ به الأمر انه كان كثيرا ما يدعوهم الى تناول الطعام معه فى قصره ، ويتجاذبون أطراف الحـــديث أثنـــاء ذلـــك فى مختلـــف النواحى (٥٨٤) .

كما كان هذا الوالى يجتمع بكبار القبط فى أعيادهم الدينية ، فتذكر الرواية القبطية أن الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، لمـــا دخل على أبيه عبد العزيز ، وجده مجتمعا مع بعض المسلمـــين وجماعة من كبـــار القبـــط ، وكان ذلك اليـــوم يوافـــق عيـــد الفصح (٥٨٥) .

وبالرغم من زيادة عبيد الله بن الحبحاب ، الخراج على أهل الذمة ، وتشدده فى جبايته (٥٨٦) ، نجد بعض أوراق البردى التى تشير الى تسامحه ورفقه بالذميين ، عند جباية الجزيـــة وغيرها من الضرائب . فهناك بردية تتضمن رخصة بالسمـــاح لشخص بترك قريته والذهاب الى قرية أخرى ، والاقامة فيها وقتا معينا ، ويرجع تاريخ هذه البردية الى شهر ذى الحجـــة سنة ١١٢ هـ (فبراير ٧٣١ م) وفيها يسمح والى مصر عبيد الله بن الحبحاب ، لرجل من القبط بالانتقال من قريته الى قرية أخرى ،

والاقامة فيها ، والعمل بها حتى يتمكن من دفع ما عليه من الجزية ، وأمهله شهرين ، وكتب يأمر عماله الا يتعرضوا له بسوء (٥٨٧) .

واظهر بعض الولاة المسلمين صداقته ، لبعض رؤساء القبط الدينيين ، من هؤلاء ابو القاسم بن عبيد الله ، الذى كان صديقا للبطرك أنبا تادرس ، وللأسقف أنبا مسيس ، فكان يطلب الاجتماع بهما . كما كان يحضر سراريه الى البطرك انبا تادرس ليباركهن له ، وفعل ذلك مرات كثيرة (٥٨٨) .

وكان ابو القاسم صديقا ، للأسقف افراهــام ، أسـقف الفيوم . وكانت كنائسه وأديرته كثيرة الأموال والأملاك فطلب منه ابو القاسم ، ان يعطيه ثلاثمائة دينار ، وقال له : انه يعلم محبته الشديدة له منذ ولاية ابيه عبيد الله ، وانه كان يبذل قصــارى جهده فى تحقيق كل ما يرمى اليه ، ويطلب من أبيه عبيد الله . كما قدم أبو القاسم للأسقف أنبا افراهام احدى سراريه وكانت مغربية الأصل ، وقال له : هذه ابنتك ، وجعل يده فى يدها ، ثم قال له ابو القاسم أيضا : « أنا اكرمك بهذه الكرامة العظيمة ، حتى انني جعلت زوجتى لك ابنة ، ولا تدفع لها شيئا تكرمها به » (٥٨٩) .

واشتهر والى مصر حسان بن عتاهية (١٢٧ هـ = ٧٤٥ م) بتكريمه للقبط ولرؤسائهم الدينيين ، وخاصة الاساقفة والرهبان ، كما كان يعطف كثيرا على الكنائس وكان يقــرب إليــه البطرك أنبا خاييل ، وكثيرا ما كان يطلب منه الحضور اليه والتحدث معه ، وكان يستشيره فى كثير من الأمور ، ويأخــذ بآرائــه فى معظــم الأحيان (٥٩٠) .

كما كان والى مصر عبد الملك بن مروان ـ آخــر الولاة الأمويين ـ يحب البطرك انبا خاييل ويدعوه كثيرا الى قصره ،

ويتحدث اليه ويطلب منه الدعاء له ولأهله . كما تشير بعض الروايات القبطية الى انه كان لعبد الملك ابنه مريضة ، في الرابعة من عمرها ، فسأل البطرك انبا خاييل الدعاء لها بالشفاء والصلاة عليها ، ففعل البطرك ذلك ، ومسح جسدها بالزيت المقدس ، فتم شفاؤها ، ولذا أصبح عبد الملك يعطف على القبط وأساقفتهم منذ ذلك الحين (٥٩١) .

وأحسن بعض ولاة مصر فى العصر العباسى ، معاملة اهل الذمة ، وتركوا لهم حرياتهم الدينية والاجتماعية ، وخاصة الولاة الأتراك منهم ، الذين كرهوا العرب ، ومن ثم قربوا اليهم القبط ، وأعادو إليهم كثيرا من أراضيهم وممتلكاتهم المصادرة . كما أذن الكثير منهم للقبط باعادة بناء كنائسهم وتجديد الكثير منها (٥٩٢) .

واشتهر الأمراء الطولونيون بعطفهم على أهل الذمة ، وخاصة القبط ، واشتهرت سياستهم نحوهم ، بالتسامح ، وتركوا لهم الحرية الدينية والاجتماعية كاملة . وكان أحمد بن طولون يأنس ببعض رهبان دير القصير ، ويعطف على رهبان هذا الدير جميعا ، كما كان يكثر من زيارته لهذا الدير . وقد قال هؤلاء الرهبان : « كان كثيرا ما يطرقنا الأمير أحمد بن طولون ويخلو فى بعض قلالينا يفكر ، وكان يأنس براهب منا ، يقال له اندونة . فشكونا اليه يوما أمر ابن المدبر ، صاحب خراج مصر ، وقلنا له : انه يطالبنا بجزية رؤوسنا وقد أسقطت عن أمثالنا على مر السنين . فوقع اليه بخطه توقيعا ، وقال لنا : احذروا أن تجعلوا توقيعى هذا كالسيف الذى يصول به صاحبه ، ولكن استعملوا الاستكانة عند إيصالكم إياه والمسألة ، وحسن التصرف » (٥٩٣) .

وكان أحمد بن طولون ، أيضا ، يقتص للقبط من قواده ، اذا أساءوا اليهم ، مهما علت مكانة هؤلاء القواد . فقد حدث أن ارسل

أحمد بن طولون أحد قواده الى بعض القرى فى الريف ، لتفقد أحوالها ، وجمع ما على أهلها من الأموال ، فأساء هذا القائد الى بعض الرهبان ، واجبرهم على دفع خمسمائة دينار له . وحزن الراهب ، فقيل له : لا تحزن ولا تبك ، ولنا أمير عادل منصف . واشار البعض عليه ، بالخروج الى أحمد بن طولون ، وتقديم شكواه اليه ، من هذا القائد ، وما عمله معه . فلما علم ابن طولون بقصة هذا الراهب أمر بالقبض على القائد ، وباعتقاله . بينما قال للراهب : « كان سبيلك أن تدعى عليه بثلاثة آلاف دينار ، حتى آخذها لك منه ، وأجعل ذلك تأديبا له ولغيره » (٥٩٤) .

وقد سار خمارويه على نهج أبيه ، فأحسن الى أهل الذمة ، وعطف كثيرا على القبط بصفة خاصة ، واهتم بمصالحهم ، وخاصة الرهبان والأساقفة منهم . وكان يأنس ببعضهم ويميل الى الاجتماع بهم ، والاعتماد عليهم فى تفقد أحوال البلاد . ومن هؤلاء الأسقف أنبا بخوم ، أسقف مدينة طما (٥٩٥) .

أما أكثر حكام مصر تسامحا مع الذميين ، سواء القبط ، أو اليهود ، فهم الخلفاء الفاطميون أصحاب المذهب الشيعى ، المخالف لمذهب المصريين السنى ، ولمذهب الخلافة العباسية أيضا . ولما كان من الصعب على الخلفاء الفاطميين الشيعة الاعتماد على المصريين السنيين ، فقد قربوا اليهم أهل الذمة واظهروا لهم الكثير من التسامح والعطف ، وتوسعوا فى استخدامهم فى أهم شئون الدولة ودواوينها (٥٩٦) .

ويقول آدم متز (٥٩٧) : ان الخلفاء الفاطميين قد أظهروا تسامحا نعجب له ، وانه لم يكن ينتظر ذلك من قوم لهم مذهبهم الخاص الذى انفردوا به ، وخالفوا جمهور المسلمين . وكان أطباء

الخلفاء من اليهود الذين لم يحتاجوا الى تغيير دينهم ، ولم يضطرهم أحد الى ذلك . وقد عظم نفوذ اليهود ، فى بلاط الخليفة المعز ، الى حد كبير ، فصار لا يعمل شيئا الا بمعونتهم وابداء رأيهم .

والواقع أن نفوذ اليهود ، لم يكن واضحا فى عهد الخليفة المعز فحسب ، بل اتسع نفوذهم أيضا ، وزادت مكانتهم ، فى عهد الخليفة المستنصر بالله ، بفضل جهود أبى سعد بن سهل التسترى الذى نجح فى استخدام كثير من اليهود فى ذلك العصر . ويمكن القول — اذا استثنينا الخليفة الحاكم بأمر الله — ان الخلفاء الفاطميين جميعا قد أحسنوا معاملة أهل الذمة فاستخدموهم على نطاق واسع ، لم يسبق له مثيل من قبل . فصار منهم الوزراء والكتاب وعمال الدواوين وعمال الخراج ، وحكام الأقاليم وخواص الخليفة .

ولكننا نلاحظ أيضا ، ان هؤلاء المستخدمين الذميين ، كان معظمهم يسىء الى المسلمين ، ويبعدونهم عن الدواوين والأعمال المختلفة ، ويستخدمون مكانهم اخوانهم فى الدين سواء أكان هؤلاء المستخدمون من القبط أم اليهود . ومن الأمثلة على ذلك ، ما حدث فى عهد الخليفة الحافظ ، حينما أصبح الاكرم بن زكريا القبطى رئيس الدواوين ، فأقدم على عزل المسلمين من أعمالهم وجعل القبط مكانهم . فظهرت عليهم دلائل النعمة ، وارتدوا أجمل وأفخم الملابس كما ركبوا البغال الحسنة ، والخيول المزينة ، بالسروج ، وبالغوا فى الشدة مع المسلمين ، وضايقوهم فى أرزاقهم واستولوا على الأحباس الدينية ، والأوقاف الشرعية بل اتخذوا العبيد والمماليك والجوارى من المسلمين والمسلمات ، وبلغ بهم الأمر انهم اضطروا ، أحد الكتاب المسلمين الى بيع أولاده ، وبناته لغرامة فرضوها عليه (٥٩٨) .

وبالرغم من سوء معاملة القبط ، وغيرهم من الذميين ، أحيانا للمسلمين ، فقد أظهر الخلفاء الفاطميون ، تسامحا عظيما معهم . فأذنوا لهم ببناء الكنائس والقيام بالطقوس الدينية فى حرية تامة ، والاحتفال بأعيادهم ، بل عمد كثير من هؤلاء الخلفاء الى مشاركة القبط فى الاحتفال بها ، وجعلوا للدولة رسوما تحرص على القيام بها فى مثل هذه الأعياد كل سنة ، كما أشرنا من قبل فى الفصل الثانى من هذا الباب .

بل اننا نلاحظ أن الحاكم بأمر الله الذى اشتهر بقسوته أحيانا ، على الذميين وتضييقه الشديد عليهم ، قد أظهر تسامحا كبيرا فى أواخر أيامه ، فأذن لهم باعادة بناء كنائسهم وتعمير ما خرب منها . كما اذن لمن اعتنق الاسلام ، رغما عنه ، بالعودة الى دينه اذا رغب فى ذلك . وكتب لهم سجلات بالأمان على أنفسهم وكنائسهم. كما انه صار يأنس ببعض رهبانهم ، وخاصة أنبا سلمون ، رئيس دير طور سيناء . فكان يستجيب الى كل ما يطلبه منه ، بشأن اصلاح حال القبط ، وتعمير كنائسهم وأديرتهم . كما كان يحرص على لقائه يوميا عند خروجه الى الصحراء ؛ مما أطلق ألسنة بعض عامة المسلمين ، فعابوا عليه ميله الشديد لأنبا سلمون ومشاركته للرهبان فى ارتداء الصوف ، وزعموا انه أصبح تلميذا لانبا سلمون . كما كان الحاكم يتردد كثيرا على دير القصير ، ويشاهد عمارته بنفسه ، ويستحث العمال على الفراغ من البناء ، كما قدم الى هذا الدير كثيرا من الأموال ، مساعدة منه فى عملية البناء ، وليستعين بها الرهبان فى الانفاق منها على أنفسهم (٥٩٩). ونضيف الى ذلك أن الخليفة الحافظ ، كان شديد الحرص على الالتقاء بالبطرك الأرمنى كل يوم خميس واثنين من كل أسبوع(٦٠٠).

تمتع رهبان دير طور سيناء بتسامح الخلفاء الفاطميين ، بعد الحاكم بأمر الله ، وحظوا بكثير من عطفهم ، ورعايتهم . ويدلنا على ذلك ، ما وجد من وثائق ترجع الى القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر الميلادى ، فى مكتبة دير سانت كاترين بسيناء (٦٠١) . وهذه الوثائق توضح كثيرا من جوانب العلاقة بين رهبان هـذه المنطقة ، وبين الحكومة الفاطمية ومصر آنذاك . وتشير أيضا الى أن رهبان طور سيناء كثيرا ما كانوا يبعثون بالتماسهم الى السلطات المسئولة فى الديار المصرية فى ذلك الوقت ، بطلب رعايتهم وحمايتهم من المضايقات التى كانوا يتعرضون لها من العربان المجاورين لهم ، وان الحكومة الفاطمية كانت تسرع فى اصدار المنشورات التى تقضى بحمايتهم ورعاية شئونهم .

وقد جاء فى احدى هذه الوثائق ، ويرجع تاريخها الى مستهل القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) أن أسقف دير سيناء ، ويسمى نيفرى ، يلتمس من الخليفة الفاطمى فى مصر ، الآمر بأحكام الله (٤٩٦ — ٥٢٤ هـ) اصدار أوامره برعايته ، هو ورهبانه . وسرعان ما استجاب الخليفة الآمر ، لهذا الالتماس ، وأصدر منشورا يأمر فيه « بمضاعفة الاحسان اليهم ومتابعة الانعام عليهم ، وبتوفير حظوظهم من الرعاية ، واجزال نصيبهم من العناية والحماية وتعمونهم بالعدل العميم الشامل ، وبالانصاف المتكامل » (٦٠٢) .

كما جاء فى هذه الوثيقة أيضا ، أمر الخليفة الآمر ، « بصرف العناية الى ما يستتب من حال هذا الأسقف والمقيمين معه فى الطور من طائفته ، وأهل ملته ، ونحلته ، وليجرى احوال جميعهم على السداد فى الاقامة هنالك ، والاستقرار » (٦٠٣) .

ومما لا شك فيه أن أسقف هذا الدير ، ورهبانه ، قد قدروا هذا الموقف من جانب الخليفة الفاطمى الآمر ، وما انطوى عليه هذا الموقف من حسن المعاملة . ويؤكد لنا ذلك ، ما جاء فى الوثيقة المذكورة « .. انهى أسقف طور سيناء المعروف بنيفزى وجماعة الرهبان والنصارى المقيمين معه ، انهم فى ظل الدولة الحافظية (لا شك أن المقصود الدولة الفاطمية ولعل ذلك ناتج عن خطأ فى الطبع) آمنون ، وفى وطن عدلها ساكنون ، وأنهم مالكون فى زمانها يفتخرون ، وبما يخرج من أوامرها يتشرفون » (٦٠٤) .

كانت اهم منتجات هذا الدير ، القمح والشعير ، وغيرهما من الحبوب والنخيل والكروم . وكانت هذه المنتجات تثير كثيرا من الخلافات بين الرهبان والعربان . وكان الرهبان بدورهم يرفعون شكواهم ، بشأن ذلك ، ألى الحكومة الفاطمية ، التى كانت تحاول وقف هذا الخلاف . وهناك وثيقة تتضمن منشورا ، صادرا ، من ديوان الانشاء ، بتاريخ ٣ رجب سنة ٥٢٩ هـ (أبريل ١١٣٥ م) وفيه أمر ، بمنع كل من يتعرض لاسقف الدير ورهبانه ، ما يختص بهم من القمح والشعير ، وغيرهما من الحبوب والكروم ، وما يعتصر منها جميعا (٦٠٥) .

وجاء فى وثيقة أخرى بتاريخ ، ذى الحجة ، سنة ٥٤٨ هـ (فبراير / مارس سنة ١١٥٤ م) أنه قد صدر منشور من القاهرة « برعاية الرهبان المقدم ذكرهم ، ومن ينتجع اليهم ، ويطرا عليهم ، وأصحابهم ، وأهل ملتهم ، والتابعين ، والمتصرفين فى تحصيل أقواتهم ، وغير ذلك من مصالحهم التى لا غنى عنها لأمنهم وحفظهم ، وحياطتهم ، وصونهم فى أنفسهم ، وأصحابهم ، السالكين سبيلهم . وكف الأيدى من الحاضرة ، والبادية عن أذيتهم ، وعن الامتداد بسوء اليهم » (٦٠٦) .

كما تضمنت هذه الوثيقة أيضا ، أمرا من الحكومة الفاطمية يقضى بازالة الأعباء والرسوم التى كان يلزمهم بها حكام هذه المنطقة وذلك نصه : « .. بحسم مواد الضرر عنهم ، وإعفائهم من كل ما لزمون به ، ويطالبون به ، ويكرهون على أدائه ، والقيام به من الرسوم والمؤن ، والغرامات وسائر الكلف التى لم تجر العادة بها ، حملا لهم على عدل الدولة ورفقا بهم ، ورعاية لذمة الاسلام فيهم ، وعملا بقضايا السجلات التى بأيديهم » (٦٠٧) .

وهناك أيضا وثيقة (سنذكر نصها فى الملاحق) يرجع تاريخها الى ربيع الثانى سنة ٥٥١ هـ (مايو / يونيو سنة ١١٥٦ م) فى عهد الخليفة الفائز بنصر الله . وتتضمن هذه الوثيقة ، أوامر هذا الخليفة ، برفع بعض الأعباء والغرامات عن رهبان هذا الدير ، والتى الزمهم بها النواب والحكام بالحصون الطورية . وفيها أيضا ، يأمر الخليفة الفائز بالابقاء على العرف الجارى ، المستقر بينهم ، وعدم المساس به ، والواضح من نص الوثيقة أن ذلك جاء بعد التماس رفعه أسقف الدير الى الخليفة المذكور . وقد جاء فى هذه الوثيقة ، « ... أنهى الى حضرتنا ، استضرار أنطون ، أسقف طور سيناء ، بما يقصده به الولاة من الاجحاف ، ويلتمسونه من جهته ، من رسم أحدثوه ، وهو عشرة دنانير وبساطان .. ، أنكرنا ذلك على معتمديه .. وخرج أمرنا بايداع هذا المنشور الآمر ، بازالة هذا الرسم وتعقيبه ، والمنع من التماسه من هذا الاسقف ، والحذر من تناوله من جهته .. واعتماده بالرعاية ، والملاحظة ، والمعونة والمرافدة ، والمبالغة فى اعزاز جانبه ، وتسهيل مطالبه ، والتحذير من تكليفه ، أو أحد من رهبانه ، أو جاره ، واجرائه على القوانين المرضية والأوضاع المختارة .. » (٦٠٨) .

والحقيقة التى لا يمكن تجاهلها أن هذه الوثائق المختلفة توضح وتؤكد سياسة ، التسامح التى انتهجها الخلفاء الفاطميون ،

نحو أهل الذمة فى مصر بصفة عامة ، والقبط منهم بصفة خاصة ، فى مختلف الأقاليم المصرية البعيدة عن القاهرة أو القريبة منها . فقد لمسنا من دراسة هذه الوثائق ، ان رهبان دير طور سيناء النائى ، كانوا يعيشون فى هدوء وأمن دون أن يلحقهم أذى ، أو يصيبهم مكروه من جانب الحكومة الفاطمية أو عمالها ، وخاصة فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) .

والى جانب ذلك تأمين طريق الحجاج الى بيت المقدس . ولا غرو فقد اشتهر المسلمون بسعة صدرهم ، وتسامحهم الصادق فى شئون الدين ، وفى الحريات الشخصية . وكل ذلك ، فى الواقع ، يرجع الى ما انطوى عليه الدين الاسلامى ، من روح التسامح والمحبة مع غير المسلمين : وجاء فى احدى الوثائق ، السابق الاشارة اليها ، والتى ترجع الى منتصف القرن السادس الهجرى ، « ... انه لما كان من شيمنا ازالة المحرمات وتعقب آثارها ، والمنع من الاستمرار عليها ، وتأكيد انكارها ، ورعاية من يحتوى عليه ، نطاق مملكتنا من أهل الذمة واعتمادهم بما يسبغ عليهم ، ملابس الحنو والرحمة ، تتساوى فى عدلنا الصغير والكبير ، وشملهم من حسن نظرنا ما يسهل عليهم من المطالب كل مستصعب عسير ... » (٦٠٩) .

لم تقتصر العلاقات بين حكام مصر الاسلامية ، وبين أهل الذمة ، وخاصة القبط منهم ، على تسامح هؤلاء الحكام ، وحسن معاملتهم لهم ، واستخدامهم فى شئون الحكم والادارة ومشاركتهم فى الاحتفال بأعيادهم الدينية والقومية ، بل كثيرا ما كان بعض هؤلاء الحكام ، يغشون اديرتهم ، ويتخذونها متنزها لهم ، ومكانا للهو والشراب . وقد ظهر ذلك بصورة واضحة ، منذ عصر الأمراء الطولونيين . فقد كانت هذه الأديرة ، ببساتينها الفسيحة ،

وقاعات شرابها الباردة ، مجمع اهل البطالات ، ومقصد طلاب اللذات . وكان أقرب هذه الأديرة لنفوس الأمراء والمسلمين المعاصرين ، دير القصير على جبل المقطم (٦١٠) .

ذكرنا من قبل ، أن احمد بن طولون ، كان يتردد كثيرا على رهبان دير القصير ، وانه كان يأنس لبعض الرهبان فيه ويتخذ من دير القصير ، متنزها له ، يتردد عليه بين الحين والآخر ، ويشارك رهبانه فى لهوهم وشرابهم . وكان ابنه خمارويه أيضا ، يكثر غشيان دير القصير ، اذ كان شديد الاعجاب بما فيه من صور . كما كان يشارك الرهبان فيه ، فى شرابهم ولهوهم . وبنى لنفسه فى هذا الدير غرفة (أو قبة) ذات أربع طاقات ، ليجلس فيها عند حضوره الى هذا الدير . ويتخذونه متنزها لهم ، اقربه من مدينة الفسطاط (٦١١) .

كذلك شارك الخلفاء الفاطميون وعامة المسلمين فى العصر الفاطمى القبط فى اتخاذ الاديرة متنزهات لهم ، ومكانا للشراب واللهو . ومن هذه الأديرة التى اشتهرت فى هذا العصر دير مرحنا ، بالقرب من النيل ، على بركة الحبش (٦١٢) . ويعد هذا الدير من بين الديارات التى اتخذها الخلفاء الفاطميون وعامة الناس ؛ متنزها لهم ، للتمتع باللهو ، والطرب لاجتماع طيب الشراب فيه الى جانب طيب الهواء ، وحسن المنظر ، واشرافه على بركة الحبش احدى بقاع مصر المشهورة بالقصف والبطالة . وقد تغنى بعض الشعراء بهذا الدير ، وما كان يدور فيه من اللهو والشراب :
فقال أمية بن عبد الصلت المغربى :

يا دير مرحنا لنا ليلة   لو شربت بالنفس لم تبخس (٦١٣)

وكان الخليفة الفاطمى العزيز بالله ، يكثر غشيان هذا الدير وقضاء كثير من الأوقات فيه . وقد أمر العزيز بالله بأن يقام لهذا الدير ، بعض البساتين ، كما جعل فيه مجلسا له على عمد من رخام جميلة المنظر . ويوجد بالقرب من هذا الدير ، بئر ماء ، عليها شجرة جميز ، وكثيرا ما يجتمع عندها الناس ، ويقضون بها كثيرا من أوقات اللهو والشراب (٦١٤) .

ويقول الشابستى (٦١٥) فى وصف هذا الدير ، « هذا الموضع من مواضع اللعب ، ومواطن اللهو والطرب ، نزه فى أيام النيل وزيادته ، وامتلاء البركة ، حسن المنظر ، نزه البقاع وكذلك فى أيام الزرع ، والنوار . ولا يكاد يخلو من المتطرحين والمتنزهين . وقد ذكرت الشعراء حسنه وطيبه » كما أنشد العزيز بالله بعض أبيات من الشعر عن هذا الدير ، فقال :

أيا دير مرحنا سقتك رعود   من الغيم ،يهمس حزنها ويجود (٦١٦)

كما حظى دير نهيا ، باهتمام كثير من الخلفاء الفاطميين ، الذين ترددوا عليه كثيرا ، وشاهدوا رهبانه ، وشاركوهم فى لهوهم وشرابهم . كما كان البعض منهم يقصد هذا الدير بغرض الصيد ، ويوجد دير نهيا بالجيزة ، وهو من أحسن الديارات بمصر وأطيبها موضعا ، وأجلها موقعاً ، عامر برهبانه وسكانه . وله فى النيل منظر عجيب ، لأن الماء يحيط به من جميع جهاته فاذا انصرف الماء ، وزرعت الأرض ، ظهرت أنواع الأزهار المختلفة . وله خليج يجتمع حوله أنواع مختلفة من الطيور ، لذلك فهو متصيد أيضا لمن يهوى الصيد (٦١٧) .

وقد تغنى الشعراء بهذا الدير ، ومنهم ابن البصرى المعاصر للأمراء الاخشيديين ، ونذكر من اشعاره ، ما يلى :

أتنشط للشرب يا سيدى فيومك هذا دقيق الدروز
فعندى لك اليوم مشويتان سرقتهما من دجاج العجوز
أتنشط عندى على نبقتين على لوزتين ، على فطرميز
وتقصد نهيا وديرا لها به منبت الورد والمرجوز
واتشرب فيها برطل وجام وطاس وكاس وكوب وكوز
(٦١٨)

وتشير بعض المصادر التاريخية الى أن الخليفة المعز لدين الله ، نزل بدير نهيا عندما قدم الى مصر ، ليقيم بها ، ويتخذها مقرا للخلافة الفاطمية ، وانه أقام بهذا الدير سبعة أشهر ، أمر أثناءها باقامة بستان أمام هذا الدير ، كما جعل له حوض سبيل ، وبئر ساقية (٦١٩) . وكان ذلك كله ، فى الواقع ، مكافأة من الخليفة لرهبان هذا الدير ، على حسن ضيافتهم اياه ، وكرم استقبالهم له .

وكان دير نهيا من بين الأديرة ، التى أصابها التخريب فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله . فلما كانت سنة ٤١١ هـ حينما أطلق الحاكم الحرية لأهل الذمة لاعادة كنائسهم وأديرتهم اهتم بعمارة هذا الدير ، أحد القبط ، من سكان بلدة وسيم ، من كورة الجيزة . كما أطلق الحاكم بأمر الله ، لرهبان هذا الدير بعض الرزق (٦٢٠) . وهذا يشبه ما فعله نفس الخليفة مع رهبان دير القصير .

أما الخليفة الآمر بأحكام الله ، فكان يتردد على دير نهيا كثيرا ، بغرض التنزه والصيد . ومما يذكر انه عندما ذهب اليه

لأول مرة ، وجد بابه قصيرا ، ولا يمكنه الدخول منه الا منكس الرأس ، فدخله بظهره . ولما وصل الى الهيكل بداخل الدير ، سأل عن مكان وقوف القسيس ومكان وقوف الشمامسة . وطاف بأرجاء الدير جميعها . وقد أحسن الرهبان بدير نهيا استقباله ، وأكرموا ضيافته ، ودفع اليهم ألف درهم ، وقضى بقية نهاره يتصيد أمام الدير (٦٢١) .

. . . .

واستمر الخليفة الآمر بأحكام الله ، يتردد على هذا الدير ، ويقضى بعض الوقت فيه مع الرهبان . وكان يركب اليه فى مواكبه وعساكره . ومما يجدر بنا ذكره ، انه أقام له مجلسا فى دير نهيا ، عبارة عن منظرة عالية ، كما عمل قبة بابها من خارج الدير ، ولها سلم من الحجارة يصعد اليها منه (٦٢٢) . ويقول أبو صالح الأرمنى (٦٢٣) ، ان الآمر « قد بات فى الدير ليلتين متفرقتين . وصار فى كل يوم يتردد للصيد ، ويضيفونه الرهبان ، فجعل لهم فى كل ركبة ، يطرق الدير فيها ألف درهم ، فحصل لهم من ذلك خمسة وعشرون ألفا » وقد استعان رهبان هذا الدير بهذا المال فى تجديد سور الدير ، وكان عدد الجمال التى تحمل الطوب والحجر الى دير نهيا ، فى كل يوم ، أربعين جملا » .

وبمضى الزمن ، صار رهبان دير نهيا ، مقربين الى الخليفة الآمر بأحكام الله ، لا يترددون فى سؤاله ، قضاء بعض ما يحتاجون اليه . فقد سألوه أن يجعل لهذا الدير وقفا من الأرض الزراعية ليزرعه الرهبان فى كل سنة ، ويستغلوه فى نفقاتهم ، ونفقات ديرهم . فأجابهم الخليفة الى ذلك وجعل لدير نهيا مساحة تقرب من ثلاثين فدانا ، ظلت بأيدى الرهبان حتى سنة ٥٦٤ هـ . حينما استولى عليها الغز الأكراد ، أتباع نور الدين زنكى ، عندما دخلوا مصر

ــ فى عهد الخليفة العاضد ــ ولم يتركوا لرهبان دير نهيا سوى المصيدة ، لينتفعوا بها فى صيد الطيور والحيوانات (٦٢٤) ٠

واشتهر من اديرة مصر فى هذا العصر ايضا ، دير طمويــه ، الذى قصده كثير من الخلفاء والوزراء ، ويقع فى غرب مصر ازاء حلوان (٦٢٥) ٠ ويحيط بهذا الدير سور منيع ، ويطل على البحر ، ويجاوره جوسق ، يتوصل اليه من بيعة القديس مرقوريوس ، وتكثر به أشجار الكروم ٠ وتوجد به جماعة من الرهبان (٦٢٦) ٠ ويعد دير طمويه أحد متنزهات مصر المشهورة ومواضع لهوهــا المعروفة ، وخاصة حين يخضر الزرع ، وقد تغنى بدير طمويه كثير من الشعراء ، فقال فيه ابن عاصم المصرى :

أقصرا من ملامى اليوم انى ... غير ذى سلوى ولا اقصار

فسقى الله دير طمويه ، غيثــا ... بغـــواد موصـــولة بســوار

واشرب بطمويه من صهباء صافية ... تزرى بخمر قرى هيت وعانات

على رياض من النوار زاهيــة ... تجرى الجداول فيها بين جنات

منازل كنت مشغوفا بها كلفا ... وكن قدما مواخيرى وخاناتى

كأنما النيل فى مر النسيم به ... مســتلئم فى دروع ســابريات (٦٢٧)

وكان الوزير الأفضل بن أمير الجيوش ــ فى عهد الخليفــة الآمر بأحكام الله ــ يكثر من التردد على هذا الدير ، ويتخذه متنزها له ٠ وقد أحاطه برعايته وعنايته ، فانشأ بجواره بستانا كبيرا ، غرس فيه جميع أنواع الأشجار والنخيل ، وحفر له الآبار وجعل لها السواقى كما جعل حول البستان سورا عظيما (٦٢٨) ٠

أما دير شهران الذى جدده بمين الراهب ، فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، فكان به جوسق كبير ٠ وله أيضا بستان مساحته حوالى ستة أفدنة ، فيه أنواع مختلفة من الأشجار والنخيل ٠ وكان الخليفة الحاكم بأمر الله ، يتردد عليه كثيرا ، ومنه يخرج الى الجبل ، ويسير فى البرية (٦٢٩) . والواقع أن مصر الاسلامية ، كانت حافلة بالأديرة المزودة بالبساتين الفسيحة ، الزاهرة ، المثمرة ، والمصايد الكبيرة ، والتى كانت من أهم متنزهات المصريين على اختلاف طبقاتهم، ومعتقداتهم الدينية ٠

وأخيرا ، نشير الى العلاقة بين أهل الذمة وبين القضاة المسلمين والواقع أنه بالرغم من أن الذميين من القبط واليهود ، كانت لهم محاكمهم الكنسية الخاصة بهم ، والتى كانت تتكون عادة من رؤسائهم الدينيين ، فيفصلون بينهم فى المنازعات ، ومسائل الميراث والزواج وخلاف ذلك من القضايا . وبالرغم من ذلك ، كان يجوز للذمى أن يلجأ الى القضاة المسلمين ؛ ولكن الكنائس لم تكن تنظر الى ذلك بعين الرضا (٦٣٠) ٠

ويبدو أن القضاة المسلمين ، فى العصور الاسلامية الأولى ، كانوا ينظرون فى خصومات أهل الذمة ، وقضاياهم فى منازلهم . فلما ولى القضاء خير بن نعيم سنة ١٢٠ هـ (٧٣٨ م) كان يقضى فى المسجد بين المسلمين ٠ وبعد العصر يجلس على باب المسجد على المعارج ، ليقضى بين الذميين سواء اكانوا من القبط أم اليهود (٦٣١) . أما القاضى محمد بن مسروق الذى ولى قضاء مصر سنة ١٧٧ هـ ، فكان أول من أدخل أهل الذمة المسجد ليحكم بينهم وينظر فى قضاياهم (٦٣٢) .

ومهما كان الأمر ، فقد أجاز بعض الفقهاء ، تقليد الذمى القضاء بين أهل دينه ٠ وهذا ان كان العرف به جاريا ، فهو تقليد زعامة

ورياسة ، وليس تقليد حكم وقضاء ، وانما يلزمهم حكمه ، لالتزامهم له ، واذا امتنعوا من التحاكم اليه ، لم يجبروا على ذلك ، فاذا رجعوا الى قاضى المسلمين ، فانه يقضى بينهم بحكم المسلمين أو بمعنى آخر شريعة الاسلام (٦٣٣) .

وهكذا نلمس من دراستنا ، لتاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية أن أهل الذمة لم يكونوا فى عزلة تامة عن المسلمين فى المجتمع المصرى ، الذى صار بمرور الزمن أغلبيته من المسلمين ، بينما صار أهل الذمة فيه يكونون طبقة اجتماعية قليلة العدد . ومع ذلك ، كانت تسود بين المسلمين والذميين ، فى أغلب الأحيان ، علاقات الود والسلام ، كما كانت تسود علاقات الصداقة والمودة ، بين الحكام المسلمين ، وكبار الذميين فى البلاد المصرية فى مختلف العصور الاسلامية . وسنرى أنه كان لأهل الذمة أيضا دور واضح فى الحياة الاقتصادية فى مصر الاسلامية .

الهـــــوامش

(١) Antoine Fatial : Le Statut Legal des non-Musulmans en pays d'Islam, p. 72.

وعلى حسنى الخربوطلى · الحضارة العربية الاسلامية ، ص ١٣٦ · الاسلام وأهل الذمة ، ص ٦٥ ·

حورجى زيدان . تاريخ التمدن الاسلامى ، ج ٤ ، ص ١٥٣ ·

(٢) انظر القواميس العربية ·

(٣) الماوردى · الأحكام السلطانية ، ص ١٣٧ · ابن الفراء . الأحكام السلطانية ص ١٣٨ ·

الشعرانى · الميزان ، ج ٢ ، ص ١٤٥ · ترتون أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٤ ·

(٤) سورة التوبة ، الآية ٢٩ ·

(٥) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٣ ·

(٦) نفس المرجع ، ق ١ ، ص ١ ·

(٧) نفس المصدر ، ص ٢ · وقد اتفق الفقهاء والعلماء على أخذ الجزية من أهل الكتاب ـ أى اليهود والنصارى ـ ومن المجوس ، ومن فى حكمهم · ولكنهم اختلفوا فى معنى أخذ النبى عليه الصلاة والسلام الجزية من المجوس فهل أخذها منهم ، لأن لهم كتابا ؟ أم هناك معنى آخر لأخذها منهم ؟ فقال مالك : « أخذت منهم الجزية لأنهم من العجم » وقال الشافعى . فكل من دان

ودان آباؤه بنفسه وان لم يدن آباؤه دين أهل الكتاب ، أى كتاب كان قبل نزول الفرقان ، وخالف دين أهل الأوثان · وعلى الامام اذا أعطاه الجزية وهو صاغر أن يقبلها منه عربيا كان أو عجميا ، وهكذا لم يحدد الشافعى أهل الكتاب باليهود والنصارى فقط ، بل ذكر أى كتاب كان قبل ذلك غير التوراة والانجيل ·

وبينما نرى الشافعى يذهب الى أخذ الجزيه من المجوس لانهم اهل كتاب ، نرى أبا حنيفة وأصحابه يؤيدون ما ذهب اليه مالك من احد الجزيه منهم لانهم عجم · ونحن نؤيد الرأى القائل بأنهم ليسوا بأهل كتاب ، ولو كانوا اهل كتاب لجاء ذكرهم فى القرآن الكريم · قال تعـالى : (ان يقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنـا ، وان كنا عن دراستهم لغافلين) وانما اعتبرناهم أهل ذمة ، يدفعون الجزية ، عملا بسنة الرسول عليـه الصلاة والسـلام – ويقـول أبو عبيد : « خص النبى عرب أهل الكتاب بالجزية دون من لا كتاب لهم منهم ، ثم لم يرض من سائرهم الا بالاسلام أو القتل ، وعم العجم من ذوى الكتاب ومن لا كتاب له بقبول الجزية منهم وهم المجوس ، انظر الشافعى : الام ، جـ ٤ ، ص ٩٧ ·

الطبرى : كتاب الجهاد ، وكتاب الجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء ، ص ٢٠٠ ، ٢٠٣ ·

ابو عبيد : الأموال ، ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤ · ابن قيم الجوزية · أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢ ·

(٨) أبو عبيد . الأموال ، ص ٥٤٥ ـ ٥٤٦ ·

(٩) نفس المصدر ، ص ٥٤٦ ·

(١٠) الأحكام السلطانية ، ص ١٣٨ ·

(١١) الخراج ، ص ١٢٢ ·

(١٢) الماوردى . الاحكام السلطانية ، ص ١٣٧ ، ابن الفراء . الأحكام السلطانية ، ص ١٣٧ ·

(١٣) أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢٢ ـ ٢٣ ·

(١٤) تعددت الأقوال بشأن المعنى المقصود من « عن يد وهم صاغرون » ، منها أن أهل الذمة يعطون الجزية وهم أذلاء مقهورون · ومنها أنهم يعطون الجزية من يد الى يد نقدا غير نسيئة · وقال آخرون · من يد الذمى الى يد

الآخذ لها باعثا بها ولا موكلا في دفعها . ومنها أن معناها على اعسام حكم عليهم ، باقراركم لهم وبالقبول منهم . وقيل عن قدرة على أدائها ، فلا تؤخذ من عاجز عنها . وقول آخر ، ان يدفعها الذمي وهو قائم ويكون الآخذ لها جالسا ، أو أن يأتي بها بنفسه ماشيا لا راكبا ، ويطال وقوفه عند اتيانه بها ويجر الى الموضع الذى تؤخذ فيه بالعنف ، ثم تجريده ويمتهن - ونرى أن هذا كله لا يوجد دليل عليه ، ولا هو مقتضى الآية ، ولا نقل عن الرسول ولا عن الصحابة أنهم فعلوا ذلك . وهكذا كان موقف البعض شديدا من أهل الذمة ، ويبالغ فى اذلالهم وامتهانهم فى الوقت الذى كان الاسلام يدعو فيه الى المعاملة الحسنة ، عملا بسياسة النبى صلى الله عليه وسلم ، والصحابة من بعده ، ورفق الخلفاء الراشدين بهم .

ويرى البعض أن الجزية ليست اجرة عن سكنى الدار ، لأنها لو كانت اجرة لوجبت على النساء والصبيان والزمنى والعميان ، ولو كانت أجرة لدفعها بنو تغلب وغيرهم والتزموا بضعف ما يؤخذ من المسلمين من زكاة أموالهم . ولو كانت أجرة لكانت مقدرة بالمدة كسائر الاجارات ولو كانت أجرة لما وجبت بوصف الاصغار والاذلال ، ولكانت مقدرة بحسب المنفعة . فان سكنى الدار قد تساوى فى السنة أضعاف الجزية المقدرة ، ولكان الواجب فيها ما يتفق عليه المؤجر والمستأجر . انظر ابن قيم الجوزية . احكام أهل الذمة ، ق ١ - ص ٢٣ - ٢٦ . ابن الدريهم . منهج الصواب فى قبح استكتاب أهل الكتاب . ورقة ٢٧ أ ، ب .

(١٥) ابو يوسف : الخراج ، ص ١٢٢ . ويقول . « انما تجب الجزية على الرجال منهم دون النساء والصبيان .. ولا تؤخذ الجزية من المسكين الذى يتصدق عليه ولا من أعمى ولا حرفة له ولا عمل ولا من ذمى يتصدق عليه ولا من مقعد ، والمقعد والزمن اذا كان لهما يسار أخذ منهما ، وكذلك الأعمى ، وكذلك المترهبون الذين فى الديارات ، اذا كان لهم يسار ، أخذ منهم وان كانوا انما هم مساكين يتصدق عليهم أهل اليسار منهم ، لم يؤخذ منهم . وكذلك أهل الصوامع ان كان لهم غنى ويسار » ويقول الماوردى فى الأحكام السلطانية ، ص ١٣٩ : « لا تجب الجزية الا على الرجال الأحرار العقلاء ، ولا تجب على امرأة ولا صبى ، ولا مجنون ولا عبد ، لأنهم أتباع وذرارى . ولو تفردت منهم امرأة على أن تكون تبعا لزوج أو نسيب لم تؤخذ منها جزية لانها تبع رجال قومها .. ولا تؤخذ الجزية من خنثى مشكل » ويقول الشعرانى فى الميزان . حـ ٢

ص ١٤٠ — « واتفقوا على أن الجزية لا تضرب على نساء أهل الكتاب مطلقا ، ولا على صبيانهم حتى يبلغوا ، ولا على عبيدهم ولا على مجنون وأعمى وشيخ فان ، ولا على أهل الصوامع » . انظر أيضا الشافعى . الأم ج ٤ ، ص ٩٨ . الطبرى . كتاب الجهاد وكتاب الجزية ، ص ٢٠٤ — ٢٠٨ . أبو عبيد الأموال ، ص ٤٥ . ابن الفراء . الأحكام السلطانية ، ص ١٣٩ . والنهاية ج ٣ ، ص ٩٦ .

(١٦) الماوردى . الاحكام السلطانيه ، ص ١٣٦ . ابو عبيد . الاموال ، ص ٤١ . ويقول : « ان الجزية والخراج على قدر الطاقة من أهل الذمة بلا حمل عليهم ولا اضرار بفىء المسلمين ، ليس فيه حد مؤقت . الا ترى أن رسول الله انما كان فرضه على اليمن دينارا ، على كل حالم وقيمة الدينار انذاك ، عشرة أو اثنا عشر درهما . فهذا دون ما فرض عمر بن الحطاب على أهل الشام وأهل العراق ... انما زاد عليهم بقدر يسارهم وطاقتهم » كما أن الجزية فى مصر يختلف مقدارها عنها فى هذه البلاد ، بل يختلف مقدارها من عصر الى آخر كما سنرى فى الباب الثالث .

(١٧) الشافعى : الأم ، ج ٤ ، ص ١٠١ — ١٠٢ . ويقول . « الدينار أقل ما يقبل من أهل الذمة » كما يقول : « فان بدل أهل الذمة أكثر من دينار ، بالغا ما بلغ ، كان الازدياد أحب الى ، ولم يحرم على الامام مما زاده شىء » . بينما يقول مالك . « لا أرى أن يزاد عليهم ، ولا يؤخذ منهم الا ما فرضه عمر ابن الخطاب ، لأنه خطب الناس ، فقال . قد فرضت لكم الفرائض ، وسننت لكم السنن ، وتركتكم على الواضحة » انظر أيضا ، الطبرى : كتاب الجهاد وكتاب الجزية ، ص ٢٠٨ . والماوردى الأحكام السلطانية ، ص ١٣٩ .

(١٨) أبو يوسف . الخراج ، ص ١٢٢ — ١٢٤ . ويشير الى أن الموسر مثل الصيرفى والبزار ، وصاحب الضيعة ، والتاجر والمعالج الطبيب ، وكل من كان منهم بيده صناعة أو تجارة يحترف بها . أما الطبقة الثالثة فهم العمال الذين يعملون بأيديهم ، مثل الخياطين والصياغين ، والاسكافيين والجزارين . ومما لا شك فيه أن متوسط الحال هو فى حالة وسط بين هاتين الطبقتين . انظر أيضا . أحكام أهل الذمة . ق ١ ، ص ٢٦ — ٢٧ . ابن الفراء : الأحكام السلطانية ، ص ١٣٩ . الشعرانى : الميزان ، ج ٢ ، ص ١٤٥ . الابشيهى . المستطرف فى كل فن مستطرف ، ج ١ ، ص ١١٢ .

(١٩) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢٩ . وقد روى عن علي بن ابى طالب أنه كان يأخذ الجزية « من كل ذى صنع . من صاحب الإبر ابرا ، ومن صاحب المسان مسان ، ومن صاحب الحبال حبالا ، ثم يدعو العرفاء فيعطيهم الذهب والفضة فيقتسمونه ثم يقول . خذوا هذا فاقتسموه ، فيقولون : لا حاجة لنا فيه . فيقول أخذتم خياره وتركتم على شراره لتحملنه » . وهكذا كان علي بن ابى طالب يرفق بأهل الذمة ، ويأخذ الجزية مما هو موجود لديهم دون ارغام أو ارهاق . انظر . أبو عبيد : الأموال . ص ٤٤ .

(٢٠) الخراج ، ص ١٢٣ . بينما يقول ابن قيم الجوزية (ق ١ ، ص ٣٤) « ولا يحل تكليفهم مالا يقدرون عليه ، ولا تعذيبهم على ادائه . ولا حبسهم ولا ضربهم » هذا بينما يذهب أبو يوسف الى حبسهم حتى يؤدوا الجزية ، يرفض ذلك ابن قيم الجوزية . كما تشير روايات كل منهما .

(٢١) أبو يوسف . الخراج ، ص ١٢٥ .

(٢٢) ابو يوسف . الخراج ، ص ١٢٥ .

(٢٣) نفس المصدر ، ص ١٢٥ . ويذكر أنه عندما كان عمر بن الخطاب راجعا من الشام ، مر في طريقه ، بقوم يعذبون فى الشمس ويصب فوق رؤوسهم الزيت . فسال عن أمرهم . فقيل له ، انهم لم يؤدوا الجزية ، فهم يعذبون حتى يوفوا بما عليهم . فسال عن حججهم فى ذلك ، فاجابوه بأن ليس لديهم ما يدفعون منه جزية رؤوسهم . فأمر باطلاقهم وعدم تعذيبهم ، قائلا : انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « لا تعذبوا الناس ، فان الذين يعذبون الناس فى الدنيا ، يعذبهم الله يوم القيامة » .

(٢٤) نفس المصدر ، ص ١٢٦ . مر هذا الخليفة يوما ، بشيخ ضرير يسأل حاجة ، وعلم انه ذمى ، فأمر صاحب بيت المال ، باعطائه شيئا من الصدقة . وقال : « انما الصدقات للفقراء والمساكين » يعنى بالفقراء المسلمين ، أما المساكين فهم المحتاجين من أهل الذمة . وأمر بوضع الجزية عن هذا الشيخ وأمثـاله . وكان سميه عمر بن عبد العزيز يفعل مثل ذلك . فكتب الى عامله على البصرة « انظر من قبلك من أهل الذمة ، قد كبرت سنه ، وضعفت قوته ، وولت عنه المكاسب ، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه » انظر ، أبو عبيد الأموال ص ٤٥ ـ ٤٦ .

(٢٥) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٣٥ · على حسنى الخربوطلى الاسلام وأهل الذمة ، ص ٧١ ـ ٧٢ · فقد بعث عمر بن الخطاب عماله لجباية خراج العراق فختموا رقاب الذميين ، كما بعث الى عمرو بن العاص فى مصر بختم رقابهم عند جباية جزية رؤوسهم ·

(٢٦) الخراج ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ ·

(٢٧) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام · ص ١٢٣ · على حسنى الخربوطلى . الاسلام وأهل الذمة ، ص ٧٢ ·

(٢٨) الشعرانى : الميزان ، جـ ٢ ، ص ١٤٦ · ابن قيم الجورية . احكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٣٩ ·

ويقول : « واختلف أصحاب الشافعى ، فقال بعضهم . تجب بأول السنة دفعة واحدة ولكن تستقر جزءا بعد جزء ، وقال بعضهم : معنى اضافة الوجوب الى أول السنة ، انبساطه على جميع الأوقات . لا أنها تجب دفعة واحدة بأول السنة ، وبنوا على ذلك الأخذ بالقسط اذا أسلم أو مات أو جن · وقال بعضهم : انما يدخل وقت وجوبها عند انقضاء السنة » ·

انظر · المصدر الأخير ، ص ٤٢ ؟

(٢٩) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٣٩ ·

(٣٠) أبو عبيد . الأموال ، ص ٤٧ · ويقول فى تأويل هذا الحديث ، ان الذمى اذا أسلم فى آخر السنة سقطت عنه الجزية ، لأن المسلم لا يؤدى الجزية . ولا تكون دينا عليه ، كما لا تؤخذ منه بعد الاسلام · وقد روى عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، وعمر بن عبد العزيز ، ما يقوى هذا المعنى ·

(٣١) الطبرى : كتاب الجهاد وكتاب الجزية ، ص ٢١١ ·

(٣٢) الاية ٣٨ ·

(٣٣) تذكر بعض المصادر التاريخية أن رجلا من الأعاجم أتى عمر بن الخطاب وقد أسلم وكانت تؤخذ منه الجزية وشكا له ذلك ، فرفع عنه الجزية ·

كما أسلم أحد الذميين على عهد على بن أبي طالب ، فقال على له : « ان أقمت فى أرضك ، رفعنا عنك جزية رأسك ، وأخذناها من أرضك ، وان تحولت عنا فنحن أحق بها » ·

وكتب عمر بن عبد العزيز : « من شهد شهادتنا ، واستقبل قبلتنا ، واختتن ، فلا تأخذوا منه جزية » ، انظر : أبو عبيد ، الأموال ، ص ٤٨ · ابن قيم الجوزية · أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٥٨ ـ ٥٩ ·

(٣٤) ابو عبيد : الأموال ، ص ٤٨ · كان الحجاج بن يوسف الثقفي اول من ابقى الجزية على من اسلم من اهل الذمة ، فقد لاحظ اسلام الكثير منهم وانتقالهم الى المدن ، لذلك أمر بعــدم اعفائهم من الجزية واجبارهم على العودة الى قراهم · انظر ، على حسنى الخربوطلى . الاسلام وأهل الذمة ، ص ٧٤ ·

(٣٥) أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٥٧ ·

(٣٦) سورة التوبة ، الآية ١٠ ·

(٣٧) عبد الله بن عبد الحكم سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٧٨ ·

(٣٨) الشافعى · الأم ، جـ ٤ ، ص ١٠٢ ·

(٤٢) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٦٠ ، ٦١ ·

(٤٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٨١ ، ابو عبيد : الأموال ص ٤٩ ·

(٤١) أبو عبيد . الأموال ، ص ٤٩ ·

(٤٢) ابن قيم الجوزية · أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٦٠ ، ٦١ ·

(٤٣) نفس المصدر ، ص ٦١ ·

(٤٤) الطبرى . كتاب الجهاد وكتاب الجزية ، ص ٢١١ · وقد منع عمر بن الخطاب أخذ الجزية من الخمر والخنازير وقال له بلال « ان عمالك يأخذون الخمر والخنزير فى الخراج · فقال : لا تأخذوا منهم ، ولكن ولوهم بيعها ، وخذوا أنتم من الثمن » ويعنى ذلك أن المسلمين كانوا يأخذون من أهل الذمة الخمر والخنزير فى جزية رؤوسهم وخراج أرضهم · فهذا ما أنكره بلال ، ونهى عنه عمر بن الخطاب ، ثم رخص لهم أن يأخذوا ذلك من أثمانها ، اذا كان أهل الذمة المتولين لبيعها ، لأن الخمر والخنازير من أموال أهل الذمة ، ولا تكون من أموال المسلمين · انظر ، ابو عبيد : الأموال ، ص ٥٠ ·

(٤٥) جعل عمر بن الخطاب ضيافة نصارى الشام للمسلمين ثلاثة أيام مما يأكلون ، ولا يكلفونهم ذبح شاه أو دجاجة ، بينما جعل ضيافة أهل السواد بالعراق للمسلمين ، يوما وليلة وأن يصلحوا لهم القناطر · وقيل انه اشترط على أهل الذمة ضيافة المسلمين يوما وليلة ، فاذا حبسهم مطر أو مرض فيومان ، فاذا أقاموا أكثر من ذلك ، انفقوا من أموالهم ·

انظر ، ابن الفراء الأحكام السلطانية ، ص ١٤٠ ــ ١٤١ ٠
ابو عبيد . الاموال ، ص ٣٩ ٠

(٤٦) الطبرى . كتاب الجهاد وكتاب الجزية ، ص ٢١٤ ٠ ويقول الشافعى ولا اجد احد الذين وصلوا الصلح عليها باعيانهم لانهم قد ماتوا كلهم ٠ فاى قوم من اهل الذمة اليوم ، أقروا ، أو قامت على اسلامهم بينة بأن صلحهم كان على ضيافة المسلمين ضيافة معلومة وانهم رضوها ٠٠ انظر نفس المصدر والصفحة ٠

(٤٧) ابن عبد الحكم فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٤ ٠

(٤٨) ابن الرفعة . الرتبة فى الحسبة ، ورقة ٢٣ ب ٠ الشيرازى . نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، ص ١٠٧ ٠

(٤٩) ترتون أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٢٥١ ٠

(٥٠) ترتون . اهل الذمة فى الاسلام ، ص ٢٥١ ــ ٢٥٢ ٠

(٥١) الاحكام السلطانية ، ص ١٤١ ٠ ويرى فى قوله تعالى (تسالهم خرجا) وجهين . الأول أجرا والثانى نفعا ٠ وفى قوله (فخراج ربك خير) رأيان أيضا : أحدهما فرزق ربك فى الدنيا خير منه والثانى فاجر ربك فى الآخرة خير منه ٠

(٥٢) ا.م ج ٧ ، ص ٣٢٠ ٠ ويقول ابن قيم الجوزية ــ ق ١ ، ص ١٠٠ ــ ان الخراج هو ضريبة الأرض ٠

ويقول أبو عبيد ــ الأموال ، ص ٧٣ . « معنى الخراج فى كلام العرب ، انما هو الكراء والغلة ٠ الا تراهم يسمون غلة الأرض والدار والمملوك خراجا ومن حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قضى أن الخراج بالضمان » ٠

(٥٣) الماوردى ٠ الاحكام السلطانية ، ص ١٣٧ ٠

(٥٤) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة . ق ١ ، ص ١٠٠ ٠

(٥٥) نفس المصدر ، ص ١٠٠ ــ ١٠١ ٠
الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٣٧ ٠

(٥٦) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٤١ ــ ١٤٢ ٠
ابن الفراء : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٦ ــ ١٤٩ ٠

(٥٧) ابن قيم الجوزية . أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ١٠٥ ــ ١٠٦ ٠

(٥٨) الأحكام السلطانية ، ص ١٤٢ ٠ والقفيز يساوى ثمانية أرطال وثمنه ثلاثة دراهم بوزن المثقال ٠

ويجدر بنا الاشارة الى حديث النبى عليه الصلاة والسلام . « منعت العراق درهما وقفيزها ومنعت الشام دينارها ومديها ، ومنعت مصر دينارها واردبها ، وعدتم كما بدأتم » وترى أنه فى ذلك حدد موازين ومكاييل كل من هذه البلاد . انظر ، أبو عبيد : الأموال ، ص ٧١ .

ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ص ١١٣ .

(٥٩) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٣ . ابن الفراء : الأحكام السلطانيه ، ص ١٥١ . وطرق الرى ووسائله مختلفه منها « ما يروى بغير آلة من الانهار والعيون » ، ٢ – ما يروى من نواضح ودوالى ، ٣ – ما يروى عن طريق المطر والثلج ويسمى القذى ، ٤ – ومنها ما سقته الأرض بنداوتها ، وما أسكن من الماء قرارها فشرب زرعها ويسمى البعل . أما الفيل فهو ما شرب من القناة . وهذه كلها أمور تجب مراعاتها عند تقدير الخراج .

(٦٠) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٤ .

(٦١) نفس المصدر ، ص ١٤٤ . ابن الفراء : الأحكام السلطانية ، ص ١٥٢ . بينما يجعل ابن قيم الجوزية ، ق ١ ، ص ١١٦ ، الخراج على أساسين . اما على مساحة الأرض واما على الزرع . وفى الحالة الأولى يكون الخراج بالسنة الهلالية وفى الحالة الثانية يكون على أساس تمام الزرع .

(٦٢) ابن قيم الجوزية أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ١١٦ – ١١٧ .

(٦٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٦ – ١٤٧ . ابن قيم الجوزية أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ١١٨ .

(٦٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٦ – ابن الفراء . الأحكام السلطانية ، ص ١٥٤ .

ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ١١٩ .

(٦٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٦ . ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ١٢٠ .

(٦٦) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٦ . ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ١٢١ – ١٢٢ .

(٦٧) الماوردى : الأحكام السلطانية : ص ١٤٧ . ابن الفراء . الأحكام السلطانية ، ص ١٥٧ .

(٦٨) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٧ . ابن الفراء : الأحكام السلطانية ، ص ١٥٧ .

والجريب عشر قصبات في عشر قصبات ، والقفيز عشر قصبات في قصبة والعشير قصبة في قصبة والقصبة ست أذرع ، فيكون الجريب ثلاثة آلاف وستمائة ذراع · والقفيز ثلاثمائة وستون ذراع ، والعشير ست وثلاثون ذراعا · وكان هناك سبع أذرع أقصرها القاضية ثم اليوسفية ثم السوداء ثم الهاشمية الصغرى وهي البلالية ثم الهاشمية الكبرى ثم العامرية ثم الميزانية · أما القاضية فقد وضعها ابن أبي ليلى القاضي · واليوسفية نسبة الى أبي يوسف القاضي ، أما السوداء فقد وضعها الرشيد والهاشمية الصغرى بلال بن أبي بردة ، والهاشمية الكبرى المنصور ، أما الذراع العمرية فهي ذراع عمر بن الخطاب ، والذراع الميزانية وضعها المأمون · انظر الماوردي . الأحكام السلطانية ، ص ١٤٨ ـ ١٥١ ·

(٦٩) الأموال ، ص ٧٦ ·

(٧٠) نفس المصدر ، ص ٧٧ ·

(٧١) الطبري : كتاب الجهاد وكتاب الجزية ، ص ٢٧٧ ·

(٧٢) أبو يوسف : الخراج ، ص ١٣٥ · ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ١٥٥ ·

(٧٣) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ١٦٢ ·

(٧٤) نفس المصدر ، ص ١٦٢ ·

(٧٥) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ص ١٧٥ ·

(٧٦) الشافعي : الأم ، ج ٤ ، ص ٩٩ ·

(٧٧) الخراج ، ص ١٣٨ ·

(٧٨) أبو عبيد : الأموال ، ص ٩٤ ·

(٧٩) ابن الدريهم : منهج الصواب في قبح استكتاب أهل الكتاب ، ورقة ٤٥ أ ابن زبر القاضي : شروط النصارى ، ورقة ١ ·

(٨٠) ابن الدريهم : منهج الصواب في قبح استكتاب أهل الكتاب ، ورقة ٤٥ أ ، ب ·

الابشيهي : المستطرف في كل فن مستطرف ، ج ١ ، ص ١١٢ ·

(٨١) الشعراني : الميزان ، ج ٢ ، ص ١٤٥ ·

(٨٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ · ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ٢ ، ص ٦٦٩ ، ٦٨٩ ـ ٦٩٢ ويقول بشأن الأماكن المقدسة عند اليهود والنصارى : أما الدير فللنصارى خاصة يبنونه

للرهبان خارج البلد يجتمعون فيه للرهبانية والتفرد عن النـاس ٠ اما القلاية فيبنيها رهبانها مرتفعة كالمنارة والفرق بينها وبين الدير ان الدير يجتمعون فيه والقلايه لا تكون الا لواحد ينفرد فيها بنفسه ولا يكون لها باب بل فيها طاقه يتناول منها طعامه وشرابه وما يحتاج اليه ٠ أما الصومعـة فهى كالقلاية تكون للراهب وحده ٠ ويرى البعض أن القلاية تكون منقطعة فى خلاة من الأرض والصومعـة تكون على الطريق ٠ اما البيع فجمع بيعة وهى متعبد النصارى ٠ وأما الكنائس فجمع كنيسة وهى لأهل الكتابين ـ اليهود والنصارى ـ ولليهود خاصة الفهر ، ومفردها فهر ، وتعنى بيت المدارس الذى يتدارسون فيه العلم ٠ ومن أقوال مالك بن أنس المشهورة « كانهم اليهود حين خرجوا من فهرهم » وحكم هذه الاماكن جميعها فى الاسلام هو حكم الكنائس ٠ انظر ، ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ق ٢ ، ص ٦٦٨ ـ ٦٦٩ ٠

(٨٣) أبو يوسف : الخراج ، ص ١٤٩ ٠

(٨٤) Chronique de Jean, p. 455. ٠ الطبرى تاريخ الامم والملوك ، جـ٣ ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ ٠

ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ١ ، ص ٢٤ ـ ٢٥ ٠ تحصيل الاستيفاء فى مغازى المصطفى ، ورقة ١٠٩ أ ، ب ـ القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٣ ، ص ٣٢٤ ٠

(٨٥) ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٥٠ ٠

المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٩٢ ٠

سيدة كاشف / مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٩٢ ٠

ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٤٥ ٠

Marcel : Egypte depuis la Conquete, p. 286.

(٨٦) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، جـ ١ ، ص ١٩٢ ٠

سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٩٢ ٠

(٨٧) أبو صالح الارمنى ، ص ٣٠ ٠

(٨٨) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٤٥ ٠

(٨٩) أبو صالح الارمنى ، ص ٦٧ ٠

(٩٠) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٤١ ٠

Chronique de Michel, Vol. 2, fasc. 3, p. 476.

(٩١) ابن بطريق . التاريخ المجموع ، ص ٤١ .

أبو صالح الأرمنى ، ص ٦٧ . ويقول انه اكراما لهؤلاء الملكانيين القائمين على خدمته ، اذن لأساقفتهم ببناء كنيسة أخرى .

(٩٢) Memoires géographiques et historiques . ., T. I., p. 25.

(٩٣) الكندى . الولاة والقضاة ، ص ٧٧ . أبو صالح الأرمنى ، ص ٣٨ . ويسميه صاحب الأكاليل الثلاثة النازلة له من السماء وهو من أهل نقيوس . انظر أيضا ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٦٥ . ويسميها كنيسة يوحنا ولعله يقصد كنيسة أبى يحنس التى جددت فى ذلك الوقت أيضا .

(٩٤) وهو الصوم الكبير عند القبط ، ويكون فى الأيام الخمسة والخمسين السابقة لعيد الفصح . وقد سمى بصوم الأربعين ، لأن عدة هذا الصيام ينقص عددها الى أربعين يوما فقط اذا استثنينا أيام الآحاد والسبت من كل أسبوع ، وهى الأيام التى لا يجوز للقبط الصيام فيها . انظر :
Autefage : Lès Coptes, pp. 29, 30.

(٩٥) أبو صالح الأرمنى ، ص ٣٨ ــ ٣٩ . ويقول : « فى هذا الصقع جماعة من رؤساء النصارى ، ففسح لهم فى تجديد كنائسهم فابتدروا بعمارة الحمراء ، وتجديد ما هدم منها ، فجددوا البيعة وعملوا لهم أوانى حسنة من الفضة وغيرها . وابتاعوا عدة أملاك ، وبستانا ، وفيه بئرا ساقية وكان جميع ذلك مسكونا ــ وبه مغطس كبير ، وجدد فى علوها كنائس عدة » .

وفى هذا الوقت أيضا شيد دمسيوس Damisius وهو من أهل كورة انصنا بمصر العليا ــ ديرا كبيرا فى الجبال . وكان صيادا يعمل فى النبال ، ويتم قانون الرهبنة . انظر ، ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٤٨ ــ ٤٩ .

(٩٦) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١٣١ .

المقريزى : الخطط : ج ٢ ، ص ٩٥ ، ج ٤ ، ص ٣٩٦ . ابن على الاسحاقى : أخبار الأول فيمن تعرف فى مصر من أرباب الدول ، ص ١٥٨ .

(٩٧) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١٣٢ . المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٥ ، ج ٤ ، ص ٣٩٦ .

ابن على الاسحاقى : أخبار الأول فيمن تعرف فى مصر من أرباب الدول ، ص ١٥٨ .

(٩٨) بناها والى مصر حاتم بن هرثمة (١٩٤ ـ ١٩٥ هـ) فوق سفح المقطم ليقيم فيها ، وموضعها الآن القلعة الحالية تقريبا • انظر : سيدة كاشف مصر فى فجر الاسلام ، حاشية ، ص ١٩٣ •

(٩٩) ابن بطريق . التاريخ المجموع ، ص ٥٨ • أبو صالح ، ص ٦٦ •

(١٠٠) ابن بطريق . التاريخ المجموع ، ص ٥٨ •

(١٠١) ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٤ •

الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٧ ، ص ٣٥٤ • ابن زبر القاضى : شروط النصارى ، ورقة ١٣ •

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٨٥ •

(١٠٢) أهل الذمة فى الاسلام ، ص ٥٤ •

(١٠٣) ابن بطريق • التاريخ المجموع ، ص ٨٢ •

(١٠٤) ابن سعيد . المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ، من القسم الخاص بمصر ، ص ١٨٣ •

(١٠٥) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ، ص ١٨٣ ، آدم متز . الحضارة الاسلامية • ج ١ ، ص ٧٤ •

(١٠٦) نفس المصدر ، ص ١٨٣ ـ ١٨٤ • ويذكر ابن سعيد أن الاخشيد قد عهد الى أبى بكر بن الحداد الفقيه بتعيين حال الكنيسة • وقد صحب الأخير معه المهندس على بن عبد الله البواش وبعد أن طافا بجميع أجزاء الكنيسة قرر ابن عبد الله البواش بقاء الكنيسة وقال : « تبقى كذلك خمسة عشر عاما ثم يسقط منها موضع • ثم تقيم الى تمام أربعين سنة ، وتسقط جميعها » وأعلم ابن الحداد ، الأمير الاخشيد بذلك فأمر بترك الكنيسة على حالها • كما ذكرنا •

(١٠٧) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٩٦ • ويسميها أبو صالح بيعة مرقوريوس ، ويذكر أن هذا الخليفة هو العزيز بالله ، وليس والده المعتز ، ونحن نرى أن الرواية الأولى اقرب الى الصدق لمعاصرة المصدر وقربه من الأحداث • تاريخ أبو صالح ، ص ٥٤ ـ ٤٩ • وكان السبب فى سماح الخليفة للبطرك بهذا البناء هو انه اراد اختبار اعتقاد القبط بايحاء من اليهود فخرج ومعه جميع المسلمين واليهود ، وعلى رأسهم يعقوب بن كلس وصديقه موسى الى جبل المقطم فصلى المسلمون وكبروا ، فلم تظهر لهم آية وكذلك اليهود • ثم

تقدم البطرك أنبا ابراهام وجميع الشعب الأرثوذكسى فدعوا الى الله ، وصلوا ورفعوا البخور وهتفوا « كيريا ليصون » ثلاث مرات · فتحرك الجبل · وخاف المعز والمسلمون وقالوا : الله اكبر لا اله غيرك وقال المعز للبطرك بعد أن شاهد ذلك ثلاث مرات حسبك يا بطرك ، قد عرفت صحة دينكم ، وسأله عما يتمناه ويطلب منه فسأله البطرك فى السماح له ببناء الكنائس فكان ذلك ·

انظر ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٩٤ ـ ٩٦ ·
أبو صالح : ص ٤٤ ـ ٤٥ ·

(١٠٨) ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٩٧ · أبو صالح ص ٤٥ ـ ٤٦ ، ٤٧ ·

ويقول ابن المقفع ، انه لما اعترض أحد المسلمين عند بناء الكنيسة فى حضور المعز ، أمر الخليفة برمى الحجارة عليه ، والبناء فوقه · وعلى ذلك لم يجرؤ أحد على اعتراض البناء بعد ذلك ·

O'Leary : A short history of the Fatimid Khalifate, (١٠٩)
p. 116

(١١٠) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ، ١٣٢ ·
المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٩ · وذكر أبو صالح كثيرا من البيع والأديرة التى أصابها الهدم والتخريب فى ذلك العصر ، نذكر منها فى بلاد الصعيد بيعة القديس أنبا يخوم وفى كورة الأشمونين بيعة السيدة مريم التى حولها الى مسجد للمسلمين · ودير القصير وما به من كنائس · انظر ، ص ٦٣ ، ٩٦ ، ١٣١ · ويقول ابن سعيد الانطاكى ، ص ١٩٧ ، ان دير القصير كان للملكانيين · وقد أمر الحاكم بهدمه فى سنة ٤٠٠ هـ · وكان يقيم فيه البطرك الملكانى أرسانيوس ، فأخرج منه وقتل ، كما طرد من هذا الدير جميع من كان فيه من الرهبان ، ونبشت قبور الموتى به ، وأخذ ما فيها من توابيت خشب وتركت الجثث ملقاة على الأرض · وفى ذلك الوقت أيضا هدمت كنيسة مريم الشهيرة بكنيسة العجوز بدمياط · وكانت للملكانيين أيضا · وصارت خرابا ، واستولى المسلمون على آلاتها وسائر أوقافها ·

(١١١) ابن المقفع · سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٣٧ · ابن سعيد الانطاكى ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ · ومن البيع والأديرة التى أذن لهم الحاكم باعادة بنائها ، دير القصير ، الذى رتب الباساك له ـ بعد ذلك ، ستة عشر فدانا وقفا عليه · ومن الأديرة التى شيدت فى هذا العصر دير شهران · انظر :

أبو صالح ، ٦٣ ، ٦٥ • ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ١٣٥ •

(١١٢) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ١٣٧ •

(١١٣) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ،ص ٥٨ ـ ٥٩ •

(١١٤) George Solimon : Un texte Arabe Inédit pour sérvir à histoire des Ghétein d'Egypte, p. 16.

وطلب أبو السرور السماح له ببناء هذه الكنيسة لان زوجته وأولاده ، كانوا يتعرضون لشتائم أطفال المسلمين وعوامهم ، عند خروجهم فى الأعياد الى الكنائس فرأى أن يجنبهم ذلك ببناء كنيسة بالقرب من داره التى يقيم فيها • فأجابه المستنصر الى ذلك وقال له : « خذ خط الحكام ، وتعال الى اكتب خطى ، فوق خط الحكام ، وكل من تعرض لك قطعت رقبته » وتم ذلك وبنى الوزير كنيستين فاراد المستنصر هدم احداهما ، ولكن أبو السعود توفى قبل أن يتم ذلك ، فأبقى الخليفة عليهما • انظر نفس المصدر ، ص ١٦ ـ ١٨ •

(١١٥) أبو صالح الأرمنى ، ص ٥٤ •

(١١٦) نفس المصدر ، ص ٥٧ •

(١١٧) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٣ ، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ •

(١١٨) أبو صالح الأرمنى ، ص ٩٥ • ويشير أيضا الى بيعة القديس مارى سابا الاسكندرانى التى اهتم بتجديدها ، الشيخ أبو البركات يوحنا بن أبى الليث فى خلافة الآمر ، والذى كان يتولى ديوان التحقيق • نفس المصدر ، ص ٦٤ ـ ٦٥ •

(١١٩) أبو صالح الأرمنى ، ص ٦١ ـ ٦٢ و
Meinardus : Christian Egypt, pp. 401-402.

(١٢٠) ابن ميسر : اخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٧٩ •

(١٢١) المقريزى : الخطط ، جـ ٤ ، ص ٣٤٩ ـ ٣٦١ • وهذه الكنائس هى كنيسة دموه بالجيزة ، كنيسة جوجر بالغربيـة وكنيسة المصاصة بالفسطاط وكنيستا الشاميين والعراقيين بقصر الشـمع وبالقـاهرة فى باب زويلة خمس كنائس وبحارة الجودرية كنيسة أحرقها الحاكم بأمر الله •

(١٢٢) Mann : The Jews in Egypt, Vol. I, p. 34.

(١٢٣) أحكام اهل الذمة ، ق ٢ ، ص ٧٠٥ •

(١٢٤) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ٢ ، ص ٧٠٥ ·

(١٢٥) نفس المصدر ، ص ٧٠٥ · القلقشندى · صبح الأعشى ، جـ ١٣ ص ٣٦٤ ·

(١٢٦) الطبرى : كتاب الجهاد وكتاب الجزية ، ص ٢٣٦ ·

(١٢٧) ويرى بعض الفقهاء والعلماء انه يوجد بين أحاديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما يشير الى ضرورة الغيار بمعنى أن يكون لباس الذمى مغايرا ومخالفا للباس المسلمين · واعتبر هؤلاء الحديث الذى يدعو الى ذلك ، هو قوله عليه الصلاة والسلام : « بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله ، لا يشرك به ، وجعل الذل والصغار على من يخالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم » ·

واعتبر هؤلاء قوله عليه الصلاة والسلام : « وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى » موجبة لاذلالهم بتغيير لباسهم عن لباس المسلمين ، ويستدلون على ذلك بقوله : « ومن تشبه بقوم فهو منهم » وكانت هذه هى حجة من يقول ان الزام أهل الذمة بمخالفة المسلمين فى لباسهم سنة من سنن رسول الله ·

انظر . ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ٢ ، ص ٧٣٥ — ٧٣٦ ·

(١٢٨) الخراج ، ص ١٢٧ · ويقول أبو حنيفة وأصحابه · « ينبغى ألا يترك أحد من أهل الذمة يتشبه فى لباسه ولا مركبه ولا فى هيئته بالمسلمين · وينبغى أن يؤخذوا حتى يجعل كل انسان فى وسطه كستيجا مثل الخيط الغليظ يعقده على وسطه · وان يؤخذوا بأن يلبسوا ، قلانس مضربة . وأن يركبوا بسروج على قربوس السرج مثل الرمانة · وأن يجعلوا شرك نعالهم مثنية ، وألا يحذوها على حذو المسلمين ، وألا يلبسوا طيالسة مثل طيالسة المسلمين ولا أردية مثل أرديتهم ·

انظر : الطبرى : كتاب الجهاد وكتاب الجزية ، ص ٢٤٠ ·

والأردية هى زى العرب قديما ، وقد لبسها رسول الله والصحابة من بعده والمسلمون ·

انظر : ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ٢ ، ص ٧٥٢ ·

أما الكستيج فيسمى أيضا كستجة وهى كلمة فارسية الأصل ، والمقصود بها ، ما يسمى فى اللغة العربية بالمنطق · انظر ، ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٣٤ — ١٣٥ ، حاشية ص ١٣٤ ·

(١٢٩) الطرطوشى · سراج الملوك ، ص ٢٥٦ · ابن قيم الجوزية أحكام أهل الذمة ق ٢ ، ص ٧٣٩ ·

ويقول ان العمائم لباس العرب قديما ، ولباس الرسول والصحابة من بعده ، فهى لبـاس الاسلام ·

(١٣٠) الشيرازى . نهاية الرتبة فى طلبة الحسبة ، ص ١٠٦ ــ ١٠٧ ·
القلقشندى · صبح الأعشى ، جـ ١٣ ، ص ٣٦٣ ·

(١٣١) الشيرازى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، ص ١٠٦ · النهاية ، جـ ٣ ، ص ٩٩ ــ ١٠٠ ·
القلقشندى . صبح الأعشى ، جـ ١٣ ، ص ٣٦٤ ·
Antoine Fattal : La statut legal des non-Musulmans en pays d'Islam, p. 111.

(١٣٢) ترتون . أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٢٢ ــ ١٢٣ ·

(١٣٣) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ١٩١ ــ ١٩٢ ·

ابن الدريهم . منهج الصواب فى قبح استكتاب أهل الكتاب ، ورقة ٣٥ ب ·

وكان عليهم أيضا أن يجعلوا للمسلمين صدر المجالس ، وصدر الطريق · انظر : القلقشندى . صبح الأعشى ، جـ ١٣ ، ص ٣٦٤ ·

(١٣٤) ابن الدريهم : منهج الصواب فى قبح استكتاب أهل الكتاب ، ورقة ٣٦ ب ·

(١٣٥) نفس المصدر ، ورقة ١٠ ب ، ١١ أ ، ب ·

(١٣٦) انظر : ابن الدريهم : منهج الصواب فى قبح استكتاب أهل الكتاب ، ورقة ١٢ ب ، ١٤ ب ، ١٨ أ · ابن النقاش : المذمة فى استعمال أهل الذمة ، ورقة ٧٩ ، ٨٠ ·

ابن العربى : أحكام القرآن ، ق ١ ، ص ٢٦٧ ــ ٢٦٨ ، ٢٩٥ ، ق ٢ ، ص ٦٢٩ ·

(١٣٧) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ ·
ابن النقاش : الذمة فى استعمال أهل الذمة ، ورقة ٨٠ · ابن الدريهم · منهج الصواب ، ورقة ٣٤ أ ، ب ·

ويروى أن الرسول لما خرج الى بدر ، لحق به رجل من المشركين ، وأراد مشاركتهم فى القتـال ، فرفض الرسول وقال له : تؤمن بالله ورسوله · فرفض ،

فقال له الرسول ارجع فلن أستعين بمشرك • وتكرر هذا الموقف بينهما ثلاث مرات وانتهى باسلام الرجل المذكور •

(١٣٨) ابن النقاش : المذمة فى استعمال أهل الذمة ، ورقة ٨٢ •
ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة : ق ١ ، ص ٢١١ •

(١٣٩) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٢٦٩ ــ ٢٧٤ •
(١٤٠) نفس المصدر ، ص ٤١٩ ــ ٤٢٠ •

(١٤١) مالك بن أنس : الموطأ ، جـ ٢ ، ص ٥٤٠ ــ ٥٤١ •

(١٤٢) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة : ق ٢ ، ص ٤٤٢ ، مالك بن أنس : الموطأ ، جـ ٢ ، ص ٥١٩ •

ويذكر انه قد حدث فى خلافة عمر بن الخطاب أن محمد بن الاشعث كان له عمة من الذميات ، توفيت ، فسأل الخليفة عمن يرثها ، فأجابه بأنه لا يرثها سوى أهل دينها • وكذلك كان رأى عثمان بن عفـان •

(١٤٣) محمد بن عبد الرحمن الدمشقى • رحمة الأمة فى اختلاف الائمة ، حاشية ، ص ١١٥ •

• مالك بن أنس . الموطأ ، جـ ٢ ، ص ٨٦٤ • ادم متز : الحضارة الاسلامية ، جـ ١ ، ص ٦٩ •

(١٤٤) محمد بن عبد الرحمن الدمشقى • رحمة الأمة فى اختلاف الائمة • حاشية ، ص ١١٥ •

(١٤٥) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ٢ ، ص ٧٩٧ • الشعرانى : الميزان ، جـ ٢ ، ص ١٤٧ •

(١٤٦) نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، ص ١٠٧ • القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ، ص ٣٦٥ •

(١٤٧) الشعرانى : الميزان : جـ ٢ ، ص ١٤٧ • سـواء اكان ذلك نص عليه فى العهد ، أم لم ينص عليه ويقول الشافعى ، ان العفـو جـائز على النادم من اهانة النبى • وحينئذ يرد له اعتباره وامتيازاته ، وان كان ابن تيمية قد ذهب الى وجوب قتل مثل هذا الشخص •

انظر ، ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٨ •

(١٤٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٥١ ، طبعة تورى •

(١٤٩) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦ ٠

(١٥٠) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٢ ٠

(١٥١) ابن المقفع · سير الآباء البطاركة ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ١٣٢ ـ ١٣٣ ٠ السنكسار ، جـ ٢ ، ص ٢٣٧ ٠

(١٥٢) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ٩١ ـ ٩٢ ٠

(١٥٣) ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٢٩٩ ٠

(١٥٤) Meinardus : Christian Egypt, p. 160.

(١٥٥) Ibid., p. 160, and Monks and Monasteries of the Egyptian desert, p. 246.

(١٥٦) Meinardus : Monks and Monasteius ..., p. 246.

ويبدو انه كان يوجد رهبان سريان فى صحراء وادى هبيب قبل هذا التاريخ يكثير وانه كان لهم دير فى القرن الرابع الميلادى ، كما تشير بعض المصادر الى وجود جماعة من السريان فى وادى هبيب فى سنة ٥٧٦ م ٠ انظر نفس المصدر ، ص ٢٤٧ ٠

(١٥٧) Ibid., p. 248.

(١٥٨) ابن المقفع · سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ١٦٠ ٠ عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ، ص ١٧١ ٠

(١٥٩) Meinardus : Christian Egypt, p. 162.

(١٦٠) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٣ ، جـ ١ ، ص ٢٦ ٠ ويشير الى بعض الأمثلة الدالة على بركة هذا القديس وعلمه ما فى الغيب فذكر انه بعد وفاة البطرك أنبا مقارة ـ فى القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى ـ بقى كرسى البطركية خاليا بضع سنوات ، ثم ذهب بعض كبار القبط الى أديرة وادى هبيب لطلب بطرك من بين الرهبان هناك فلما وصلوا دير السريان تحدثوا الى القديس أبى يوسف بشأن البطركية ومن يصلح لها ٠ فقـال لهم : ارجعوا الى منازلكم فقد تعبتم فى مجيئكم الى هنا فان بطرككم فى مصر ، وسماه لهم ، وهو غبريال بن تريك ٠

(١٦١) نفس المصدر ، م ٢ ، جـ ٣ ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ٠

(١٦٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ٠ ابن ميسر . اخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٨٠ ٠

وتشير الرواية القبطية الى أن جماعة الأرمن فى مصر قد طمعوا فى بعض الكنائس التى بيد السريان ، وسألوا الوزير أمير الجيوش فى ذلك ، وقالوا له : ليس لنا بيعة نصلى فيها • بينما اتخذ أسقف السريان احدى الكنائس مخزنا للقرط لدابته • فلما كشف أمير الجيوش عن حقيقة الأمر ، أمر الأسقف ابن الطويل بنقل القرط من الكنيسة المشار اليها ، وجعلها لجماعة الأرمن ، لكى يعمروها ، ويتخذوها متعبدا لهم ، يؤدون فيها طقوسهم الدينية ، انظر : ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ •

(١٦٣) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ٢١٩ • ويروى أنه كان يرتدى الحديد على جسمه ومن فوقه مسح شعر وحدث أن حضر له فى الاسكندرية شاب يعذبه الشيطان كل يوم • فأحضر المناكيس قسيسين من الارمن وقرأ على الشاب كتب وانجيل يوحنا على وعاء به ماء ثم صب الماء على الشاب ، فبرىء مما أصابه •

(١٦٤) نفس المصدر ، ص ٢١٩ • ويقال ان هذا البطرك كان ابن أخت البطرك السابق لارمنيا ، وان خاله فوض اليه البطركية ، وأرسله الى مصر ، وجعل فى صحبته بعض القديسين الفضلاء ، كما أعطاه صلبانا ذهبا • بينما يقول « ميناردوس » ان هذا البطرك قدم الى مصر فى القرن ٥ هـ ــ ١١ م • وان اسمه St. Vahram ثم عرف باسم جريجورى الثانى Gregory II وانه أراد أن يعيش فى عزلة على قمم الجبال ؛ لذلك ترك كرسى البطركية فى أرمنيا • وقد حاول ملك أرمنيا ردعه عن ذلك الا أنه فشل فى مساعيه ويبدو أن هذا البطرك ، خرج الى القسطنطينية ثم الى روما ومنها الى مصر وزار الصحراء الغربية وأقام له بطركية فى البلاد المصرية ، انظر :

Monks and Monasteries, pp. 248-249.

(١٦٥) سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ •

(١٦٦) نفس المصدر ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٧ •

(١٦٧) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٣ ، ج ١ ، ص ١٥ ــ ١٦ ، ٢٠ ــ ٢١ •

(١٦٨) نفس المصدر ، ص ٢٨ ــ ٣٠ •
ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٧٨ ــ ٧٩ •

(١٦٩) ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٧٩ • المقريزى : اتعاظ الحنفا ورقة ١٣٧ أ •

(١٧٠) ابن ميسر : اخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٨١ ، ٨٣ · ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ١ ، ص ٢٣ و

Meinardus : Christian Egypt, p. 201.

ويعرف الدير الأبيض بدير بوشنودة في صعيد مصر ، وهو عظيم البنـاء واسع الأهنيه بنى من الحجر الأبيض ، وزين أحسن زينة · ويقع غربى النيل مقابل أخميم · ويجرى بالقرب منه خليج · ويعد هذا الدير من أجمل المتنزهات فى مصر فى فصلى الشتاء والربيع حين يخضر الزرع ، وتنبت الزهور ، وتكثر مصايد الطيور · ويصبح الدير فى موضع فى غاية الحسن وجمال بديع ، انظر · العمرى . مسالك الأمصار ، جـ ١ ، ص ٣٧٤ ــ ٣٧٥ ·

(١٧١) Meinardus : Op. Cit., p. 401.

(١٧٢) أبو صالح الأرمنى ، ص ٦١ و ٦٢ ·

(١٧٣) نفس المصدر ، ص ٣ ــ ٤ ·

(١٧٤) Quatremére : Memoires Géographiques et histoiriques, T. I, pp. 220-221.

ويذكر أنه كان بها اثنتان وخمسون كنيسة هدمها الحاكم ، وجعل مكانها مساجد ·

(١٧٥) ابو صالح الأرمنى ، ص ١١٦ ·

(١٧٦) Quatremére : Memoires Géographiques, —, T. I, pp. 567 - 368.

(١٧٧) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ١ ، ص ٣ ·

(١٧٨) المقريزى : الخطط ، جـ ٤ ، ص ٤١٦ ·

(١٧٩) Seven Canonical sacrements وهى المعمودية Baptism والتثبيت Confirmation والقربان Euckarist والعقوبة Penance والرتب الكهنوتية Orders والزيجة Matrimony ثم الميرون أو مسح المرضى بزيت القناديل Unointing or unaction of the sick · انظر ·

Butler : Ancient Coptic Churches, Vol. 2, pp. 262.

(١٨٠) Ibid. p. 301.

(١٨١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٧٣ ، جـ ١٣ ، ص ٤٧٤ ويسميه البطريك ·

(١٨٢) Butler : Op. Cit., p. 303, Autefage : les Coptes, p. 31.

(١٨٣) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ٨٢ .

(١٨٤) والدليل على وجوب هذا الشرط ما جاء فى سير البيعة بشأن البطرك انبا مينا فى عصر الأمراء الاخشيديين . وكان والداه قد الزماه بالزواج فلما خلا بزوجته طيب خاطرها ، واتفق معها على الخروج الى دير ابى مقار للترهب فيه وطلب منها ألا تعلم احدا بذلك واستمر راهبا فى هذا الدير حتى توفى البطرك تاوفانيوس . فاجتمع الأساقفة والكهنة لإقامة بطرك مكانه واستقر رأيهم على أن يكون انبا مينا هذا بطركا . فأخذوه مقيدا بالحديد الى الاسكندرية حيث اقيمت المراسيم الخاصة بذلك . ثم علم بعض الأساقفة انه متزوج فقالوا له : « وقد فعلنا معك مالا يجوز ، وما هو مخالف القانون فاصدقنا عن نفسك » فأجابهم بأن ذلك صحيح وكلفهم باحضار المرأة التى قد زوجها ابواه له ، فسمعوا منها حقيقة أمره فحمدوا الله على ذلك . انظر :

ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ٨٤ ـ ٨٦ .

(١٨٥) Butler : Ancient Coptic Churches, T. 2, p. 202, and Autefage : Les Coptes, p. 31.

(١٨٦) سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ .

(١٨٧) نفس المصدر ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ١٢٨ . ومن الأمثلة التى أوصى فيها البطرك القائم بمن يلى البطركية بعده ما حدث فى خلافة هارون الرشيد حينما أوصى للبطرك يوحنا بالقس مرقص ليكون بطركا من بعده . انظر نفس المصدر ، ص ٢٣٧ .

(١٨٨) نفس المصدر ، ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

(١٨٩) نفس المصدر ، ص ١٣٠ .

(١٩٠) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ١٥١ ـ ١٥٢ .

وتشير بعض المصادر الى أن الرقاع الاربع يقام عليها الصلاة والقداس ، ثلاثة أيام متتالية ثم يأتى القوم بعد ذلك براهب او شماس لأخذ احدى هذه الرقاع . انظر : Autefage : Les Coptes, p. 31.

وقد اتبع القبط هذه الطريقة فى عصر الولاة العباسيين . فلما توفى البطرك انبا مينا فى خلافة ابى جعفر المنصور ، واراد القبط اقامة بطرك آخر خلفا له اتبعوا طريقة التقريع ، وتم لهم تنصيب انبا يوحنا فيم بيعة ابى مينا بطركا .

بعد ان كانت الرقعة التى يتم اختيارها فيها اسمه فى المرات الثلاث · انظر ، ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ٢٧٧ ·

كما اتبعت هذه الطريقة فى اقامة البطرك ميخائيل بن دنشترى فى خلافة الحافظ ·

انظر ، ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ١ ، ص ٣٦ ـ ٣٨ ·

(١٩١) ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، م ٣ ، جـ ١ ، ص ٣٦ ـ ٣٨ ، ٤٠ ـ ٤٢ ·

(١٩٢) Butler : Ancient Coptic Churches, T. 2, pp. 307-309.

والمصادر القبطية مليئة بالامثلة على ذلك · منها أنه بعد وفاة البطرك يوحنا ـ فى خلافة هارون الرشيد ـ أراد الشعب تعيين الأب مرقص خلفا له ولكنه امتنع عن ذلك وهرب الى أديرة وادى هبيب ولكن تمسك القبط به ، وتمكن بعض الكهنة من احضاره مقيدا بالحديد الى الاسكندرية حيث تمت مراسيم تعيينه بطركا ·

انظر ، ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ١ ، ص ٣٦ ـ ٣٨ ·

كذلك تم الاتفاق على اقامة الأب مينا بطركا ـ وكان راهبا بدير أبى مقار بوادى هبيب ـ ذهبوا اليه ، وأخذوه من الدير بالقوة ، وقيدوه بالحديد فى رجليه ، وحملوه الى الاسكندرية وذلك فى عصر الأمراء الاخشيديين · انظر : نفس المصدر ،م ٢ ، جـ ٢ ، ص ٨٦ · ومن الأمثلة على ذلك أيضا البطرك أنبا افراهام وقد أتوا به مقيدا وساروا به الى الاسكندرية · انظر نفس المصدر ، ص ٩١ ·

(١٩٣) Amélineau : Histoire de P. Coptic Isaac, pp. 49-50.

(١٩٤) نجد الأب بنيامين الذى عاصر الفتح العربى لمصر ، قد وضع بعض القوانين الخاصة ببيعة أبى مقـار فى وادى هبيب · وهذه القوانين تتضمن الا يصعد أى قس الى الهيكل الا بعد أن يلبس البلينة أولا وقبل أن يحمل البخور عليه ولا يتقرب فيه قس أو شماس الا بعد لباسه البلينة (البرنس) ولا يتكلم أحد فى هذه البيعة حديثا بطالا ولا يجلس فيها يقرأ كتابا من الكتب ، ومن خالف ذلك يكون محروما · كما لا يدخل أى كاهن من كهنة هذا الموضع بكاهن غريب من كهنة مصر أو رئيس الى هذه القبة المقدسة ، ولا يدخل اليه بجاه ولا برشوة · انظر ، ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، جـ ١ ، ص ١١٨ · السنكسار ، جـ ٣ ، ص ٥٢٣ ·

ومن الأمثلة على ذلك البطرك اخرسطودولس في خلافة المستنصر بالله الفاطمى ، الذى وضع بعض القوانين الكنسية أيضا فى المعمودية، وتقديم القربان ، وما يجب على القبط ورؤسائهم الدينيين فى أيام الآحاد والأعياد ، وأوقات القداس ، وأيام الصوم المختلفة . انظر ، ابن المقفع . سير الآباء البطاركة . م ٢ ، جـ ٣ ، ص ١٦٦ ـ ١٦٨ .

(١٩٥) القلقشندى . صبح الاعشى ، جـ ٢ ، ص ١٧٣ . وكان القبط فى المراسلات مع بطركهم يراعون هذه الديباجات ، تشريفا وتكريما لبطركهم ، من امثلة ذلك . « ... الى الحضرة السامية . القديسة النفيسة . البطركية الفاضلة ، الرئيسة فخر الله ، اليعقوبية ، وضياء البيعة الأرثوذكسية سيد الاباء ورئيس الرؤساء ... » ابن المقفع : سير الاباء البطاركة ، م ٣ ، جـ ١ ، ص ٧ ، ١٠ ، ٢٦ .

(١٩٦) القلقشندى . صبح الأعشى ، جـ ١١ ، ص ٣٩٥ ـ ٣٩٧ .

(١٩٧) Primate, archbishop, Metropolitan.

(١٩٨) The Oxford dicctionary of the Christian Church, p. 78.

(١٩٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ص ٥٣ ـ ٥٤ .

(٢٠٠) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٧٣ .

(٢٠١) Chronique de Mihcel, le Syrien, T. 3, fasc. 1, p. 68.

(٢٠٢) Butler · Ancient Coptic Churches, T. 2, pp. 212 - 313.

(٢٠٣) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٧٣ ، جـ ١١ ، ص ٢٧٤ .

(٢٠٤) Autefage : Les Coptes, p. 32, Butler : Op. Cit., p. 313.

(٢٠٥) Butler : Op. Cit., p. 313.

(٢٠٦) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٣ ، جـ ١ ، ص ٢١ ـ ٢٢ .

(٢٠٧) Chronique de Michel, T. 3. fasc. 1, p. 68.

(٢٠٨) Butler : Ancient Coptic Churches, T. 2, pp. 318-319.

(٢٠٩) Ibid., p. 319 and Autefage : Les Coptes, p. 32.

(٢١٠) Autefage : Op. Cit., p. 32.

(٢١١) Butler : Op. Cit., p. 319.

(٢١٢) Autefage : op. Cit., pp. 32-33.

(٢١٣) صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٧٣ .

(٢١٤) The Oxford dictionary of Caristian Church, p. 79.

(٢١٥) ابن المقفع سير الآباء البطاركة ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ١٣٠ .

(٢١٦) Autefage : Les Coptes, p. 33.

(٢١٧) صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٧٤ .

(٢١٨) الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ ١ ، ص ٧١ .

(٢١٩) صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٧٤ . ويسمى الراهب فى اللغـة اليونانيه موناخوس وهى كلمة مشتقة من الواحد ، لأن الراهب يتوحد وينقطع للعبـادة . والدير الذى يقيم فيه الراهب يسمى موناستيريون ومعناه محل التوحيد . أما فى اللغـة العربية فالراهب اسم فاعل ، مشتق من الرهبنـة اى الخوف ، بمعنى انه يخاف الله . انظر ، عبد المسيح البرموسى ، تحفة السائلين ، ص ٢١٥ .

(٢٢٠) حكيم أمين : دراسات فى تاريخ الرهبانية والديرية المصرية ، ص ١ . ولم تكن المسيحية هى الديانة الوحيدة التى تنفرد بالدعوة الى المبادىء النسكية . ففى الديانات السابقة للمسيحية جماعات وطوائف كرست نفسها لحياة انعزاليـة أو نسكية على درجات متفاوتة من القسوة البدنية ، ولذلك شواهد فى كتابات الصين والهند ، وشعوب آسيا الغربية ، وكذلك الأدب المصرى القديم .

(٢٢١) نفس المصدر ، ص ٩٥ ، ٩٦ . وكان الطالب للرهبنـة ، يتعرض قبل رسامته لبعض الاختبـارات القاسية ثلاث سنوات ، وقيل ثلاثة أيام . يختبر فيها قدرته على تحمل المشاق والأعبـاء ، وقدرته على التواضع واحتقاره لذاته ، وعدم اهتمامه بجسده . كما أن الطاعة كانت شرطا أساسيا لقبول الراغب فى الرهبنة . انظر نفس المصدر ، ص ٩٨ .

ويقول بتلر ان طالب الرهبنة يقضى ثلاث سنوات تحت التجربة والاختبار ، وبعدها تتم رسامته راهبا وذلك بأن يقف أب الدير أى رئيسه ، عند باب الهيكل ، ويدعو طالب الرهبنـة الى الجلوس ساجدا على الأرض ويقرأ عليـه الصـلاة الجنائزية ، ثم يعمل له اكليل الاكليروس ، بمعنى أن يحلق له قمـة رأسـه ، ثم يلبسه الملابس الكهنوتية . ثم يسال طالب الرهبنـة عن الاسكيمو وهو اللباس المميز للراهب ، ويباركه رئيس الدير ، ويقرأ عليه ، ما يفسر له الأعباء الشاقة ، والواجبات الصعبة التى تفرضها عليه هذه الملابس فى الحياة النسكية ، انظر .
Ancient Coptic Churches, T. 2, pp. 322-323.

ويقول حكيم أمين : ان الراهب بعد ذلك يصبح مقطوعا عن العـالم الخارجى ، كما يحرم عليه مقابلة والديه واقاربه مدة طويلة ، ويطلق لحيتـه • ويصـير من الضرورى عليه القيـام بالأعمال اليدوية ، كعمل السلال والحصير ، وغزل ونسج الكتان ، كما تخصص بعضهم فى بناء الصوامع ، انظر ، دراسات فى تاريخ الرهبانية والديرية المصرية ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ • وعن الأعمال اليدوية للرهبان انظر ، عزيز سوريال : نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر ، ص ١٦٩ ـ ١٧٠ (رسالة مارمينا ، سنة ١٩٤٨ م) •

(٢٢٢) Autefage : Les Coptes, p. 33.

(٢٢٣) Autefage : Les Coptes, p. 34.

(٢٢٤) عبد المسيح البرموسى : تحفة السائلين ، ص ١٧ •

(٢٢٥) حكيم أمين : دراسات فى تاريخ الرهبانية ، ص ١٣٨ • ويضيف الى ذلك انها تحاط من الخارج بحائط صغير ويسدها باب خشب يغلق بمفتاح من الداخل ، ويتكون بعض القلالى من حجرتين وأكثرها بدون نوافذ أما اثاثها فعبارة عن حصير وغطاء من جلد الحيوان أو الصوف وفيهـا صوان حفر فى الحائط لوضع الكتب الدينية • وكان الراهب يخزن ما يحتاج اليه من الماء لمدة أسبوع فى جرة من الفخار • كما يوجد فى داخل القلاية ابر وحبال وخيوط ، وسعف نخيل وغيرها من الأدوات اللازمة لعمل السلال ، كما أن بعض القلالى كان يمتلك انوالا يدوية للنسيج • ويحتفظ الراهب بسلة من الخبز ، وعلبة ملح وبعض الأوانى من الفخار • انظر ، نفس المصدر ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ •

(٢٢٦) عبد المسيح البرموسى : تحفة السـائلين ، ص ١٧ ، ٣٢ • ويقول المقريزى (الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٠٩) : ان الدير هو خان النصارى وانه يختص بالنساك المقيمين به • بينما الكنيسة يجتمعون فيها للصلاة • فى حين يقول ياقوت الحموى (معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٤٩٥) أن الدير عبارة عن بيت يتعبـد فيه الرهبان ، ولا يكاد يكون فى المصر الأعظم ، انمـا يكون فى الصحـارى والجبال • وجمع دير اديار ، والديرانى هو صاحب الدير كما يجمع هـذا اللفظ على ديار ودور وأدور وأديرة ، وادورة • واصل الكلمة الدار ، ثم خصص الموضع الذى يسكنه الرهبان أو الراهبات ، وصار علما بهم •

(٢٢٧) ويقع هذا الوادى غرب مصر ، بين مريوط والفيوم • وقد سمى بوادى هبيب نسبة الى هبيب بن محمد بن معقل بن عفان الغفارى ، أحد الصحابة • وكان

هبيب هذا قد اعتزل مصر أثناء الفتنة ضد عثمان بن عفان ، ولجأ الى هذا الوادى واقام فيه · وقد نسب اليه هذا الوادى ، وصار يسمي باسمه · انظر .
عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه واديرته ، ص ٣٩ ·

(٢٢٨) عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ، ص ٣٩ · عبد المسيح البرموسى : تحفة السائلين ، ص ٤٤ · المقريزى . الخطط ، ج ٤ ، ص ٤١٩ ·

(٢٢٩) المقريزى . الخطط . ج ٤ ، ص ٤١٩ · ويرى عمر طوسون ، ص ٤٠ أن المقريزى مبالغ فى ذكر عدد رهبان وادى هبيب الذين خرجوا الى مصر لمقابلة عمرو بن العاص القائد العربى عقب الفتح ويذكر انه لم يكن يوجد بهذه الاديرة فى أواسط القرن السادس الميلادى سوى الفى وخمسمائة راهب · وانه لما زاره البطرك بنيامين حوالى سنة ٦٣٠ م · أى قبل الفتح العربى لمصر بحوالى عشر سنوات ، كان به عدد قليل من الرهبان · ونحن نرى انه قد يكون عدد الرهبان قد زاد فى السنوات التالية لهذه السنة خاصة أن قبط مصر اليعاقبة كانوا يلجأون الى الرهبنة والعزلة بعيدا عن حياة المدن وما فيها من اضطهاد وقسوة ، املتها عليهم سياسة المقوقس حاكم مصر فى إمبراطورية هرقل وهربا من دفع الضرائب الثقيلة التى فرضتها عليهم حكومة الرومان فى ذلك الوقت ، ولذلك لابد أن عدد الرهبان فى أديرة وادى هبيب فى القرن السابع ، قد زاد كثيرا عما كان عليه فى القرن السادس الميلادى ونستدل على ذلك من الرواية القبطية التى تصف جماعة الرهبان فى هذه الأديرة عند استقبالهم للبطرك بنيامين بعد الفتح العربى لمصر ، عندما دعاه هؤلاء الرهبان لتكريز هيكل أبى مقار هناك . انظر ، ابن المقفع · سير الآباء البطاركة ، م ١ ، جـ ١ ، ص ١١٣ ـ ١١٤ ·

وأما أسماء أديرة هذا الوادى فهى دير أبى مقار ودير أنبا بشاى ودير السريان ودير يوحنا كاما ودير البراموس ودير موسى ودير يوحنا القصير · انظر : المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤١٩ ـ ٤٢٠ · عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ، ص ٤٥ ·

(٢٣٠) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣٦ ـ ٣٨ ·
عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ، ص ٤٤ ·
(٢٣١) عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ، ص ٤٤ ·
(٢٣٢) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٤٧ ·

(٢٣٣) نفس المصدر ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ٧٠ ·

(٢٣٤) نفس المصدر ، م ٢ ، جـ ١ ، ص ٤ ·

(٢٣٥) نفس المصدر ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ١٦٠ ·

(٢٣٦) المقريزى : الخطط ، جـ ٤ ، ص ٤٢١ ·

(٢٣٧) الشابستى · الديارات ، ص ١٨٤ وما يليها ·
ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ ٨ ، ص ٤٩٦ وما يليها ·
المقريزى الخطط ، جـ ٤ ، ص ٤٠٩ ـ ٤٢٣ ·
العمرى : مسالك الأبصار ، جـ ١ ، ص ٣٦٠ ـ ٣٨١ ·
الصفدى · تاريخ الفيوم ، ص ٢٢ · واتظر أيضا أبو صالح الأرمنى تاريخ أديرة وكنائس مصر · وكله يدور حول الأديرة والكنائس المصرية من النواحى المعمارية والهندسية والتاريخية والاجتماعية ·

(٢٣٨) المقريزى الخطط ، جـ ٤ ، ص ٤٢٣ · وذكر بعض الشعراء العرب لفظ كنيسة فى اشعارهم فقال العباس بن مرداش السلمى ·

يدورون بى فى ظل كل كنيسة وما كان قومى يبتنون الكنائسـا

وقال ابن قيس الرقيات أيضا :

كأنها دمية مصـــورة فى بيعة من كنائس الروم

ويشير المقريزى فى موضع آخر الى أماكن عبادة اليهود والقبط فيقول · قال الله تعـالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا) فقال المفسرون . الصوامع للصابئة ، والبيع للنصارى ، والصلوات هى كنائس اليهود · أما المساجد فهى للمسلمين · ويقول ابن قتيبة : ان الكنيسة كلمة عبرانية الأصل معناها الموضع الذى يجتمع فيه للصلاة · انظر نفس المصدر ، ص ٢٤٩ ·

(٢٣٩) المقريزى : الخطط ، جـ ٤ ، ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥ و

Butler : Ancient Coptic Churches,
T. 1, pp. 247-249, and Meinardus : Christian Egypt, pp. 186-206.

(٢٤٠) المقريزى الخطط ، جـ ٤ ، ص ٤٢٣ و

Butler : Op. Cit., pp. 271-285.
Meinardus : Op. Cit., pp. 208-209.

(٢٤١) المقريزى . الخطط ، جـ ٤ ، ص ٤٢٤ ـ ٤٢٧ و
Butler : Op. Cit., pp. 341-372.
أما كنائس الوجه البحرى والاسكندرية ، فانظر ، المقريزى . الخطط
جـ ٤ ، ص ٤٣٧ .
و
Meinardus : Op. Cit., pp. 114-115.

(٢٤٢) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ١ ، ص ١٨ ـ ١٩ .

(٢٤٣) Butler : Ancient Coptic Churches, T. 2, pp. 263-271 .

ويبدأ الاحتفال بان يخلط القسيس الماء بيده ويشعل البخور مع الصلاة . ويصلب القسيس على الماء ثلاث مرات . ويعمل بعد ذلك علامة الصليب على وجه الطفل بدون زيت ، ، ثم يعوذ عليه ويعزم مع التصليب على الوجه . ثم يحرك الطفل فى الماء شرقا وغربا ، ثم يصلب على وجهه بالزيت ، ويسمى زيت التنصر او المعمودية ، ويتم ذلك ثلاث مرات .

ويقول البيرونى ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ص ٢٩٤ ـ ان أبا الحسن الأهوازى قد ذكر أنه يقرأ على المتنصر « سبعة أيام فى البيعة ، غدوا وعشيا ، فاذا كان السابع عرى ودهن جسده كله بالزيت . ثم صب الماء الساخن فى آنية رخام منصوبة فى وسط البيعة ، وينقط القس على وجه الماء بالزيت خمس نقط على مثال الصليب ، أربعا وواحدة وسطها . ثم يشال ويحط رجلاه جميعا فوق النقطة الوسطى ويجلس فى الماء . ويأخذ القس من أحد جوانبه ملء كفه ماء فيصبه على رأسه ثم من جانب آخر الى أن يأتى على الجوانب الأربعة على مثال الصليب . ويتنحى القس عنه ويجيء من يريد أن يأخذه من الماء وهو الذى أجلسه فيه فيغسله القس وجميع من فى البيعة يقرأون ثم يخرج من الماء ويوشح بازار ويحمله جمل لئلا تمس رجله الأرض ويصيح أهل البيعة كلهم سبع مرات كيريالسن أى يارب ارحمنا . ويلبس ثيابه وهو محمول ثم يحط عنه ويلزم البيعة أو يتردد اليها سبعة أيام فاذا كان اليوم السابع غسله القس بلا زيت ولا فى تلك الآنية الأولى » وفى معنى المعمودية انظر .
Martimiano Rancaglia : Histoire de L'Eglise Copte, T. 1, p. 116, et, Vocabulaire de théologie Biblique, pp. 82-83.

(٢٤٤) ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٣ ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٢٤٥) Butler : Ancient Coptic Churches, T. 2, pp. 276-278.

ويكون شكل الخبز دائريا ، وعرض كل قطعة منه ثلاث بوصات ، وتكون سميكة جدا ، ويرسم عليها شكل صليب ٠

(٢٤٦) تبشر : تاريخ الأمة القبطية ، جـ ٣ ، ص ٤٤ ٠ بينما كان من عادة السريان أن يضعوا الملح والزيت فى خبز القربان ٠ ولذلك حدث خلاف بينهم وبين البطرك خرسطودولس ـ فى عهد الخليفة المستنصر ـ عندما كان هذا البطرك يقوم بالقداس فى كنيسة أبى مرقورة بمصر ، حيث دارت مناقشة شديدة بين البطرك وبين أحد السريان الموجودين فى ذلك الوقت ويسمى الشيخ أبو البشر ـ وكان يعمل طبيبا ومقربا من الخليفة المستنصر ـ وقد منحه البطرك من القربان وأمر تلاميذه باخراجه من الكنيسة ٠

انظر ، ابن المقفع ٠ سير الأباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٣ ، ص ١٦٩ ٠

(٢٤٧) Butler : Op cit., p. 281.

(٢٤٨) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ١ ، ص ٥٠

(٢٤٩) Butler : Op. cit., p. 281.

(٢٥٠) Ibid., pp. 37-56. وكان من عادات القبط فى قداس الزواج ، استخدام تاج من الفضة والذهب منقوش عليه بعض الكتابات ومرسوم عليه صلبان وغير ذلك من النقوش الملائمة ٠ ويشاركهم فى ذلك الأرمن ٠ انظر نفس المصدر ، ص ٦٣ ٠

(٢٥١) Butler : Op. cit., p. 38.

(٢٥٢) تبشر ، تاريخ الأمة القبطية ، جـ ٢ ، ص ١٧٦ ٠

(٢٥٣) Butler : Op. Cit., p. 285.

وتقول تبشر ، ان استعمال البخور عادة وثنية ، وان المسيحيين لم يكونوا يستخدمون البخور فى كنائسهم فى القرون الثلاثة الأولى للمسيحية ، ثم بدأوا استعمال البخور بعد القرن الرابع الميلادى بحجة أنه يطرد الروائح الكريهة الناتجة عن ازدحام جمهور المصلين ٠ وصار له أهمية كبيرة فى القداس بعد القرن السادس الميلادى ، فصار طقسا دينيا عظيم الأهمية ٠

وانظر : تاريخ الأمة القبطية ، جـ ٣ ، ص ٩٧ ، ٩٨ ـ ٩٩ ٠

(٢٥٤) Butler : Op. Cit., p. 285.

(٢٥٥) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ١٩٧ ٠

ويشير الى أن البطرك أنبا خايال - فى خلافة مروان بن محمد - كان يقوم بالقداس فى كنيسة الشهيد سرجيوس ، فجاءه رجل مبطى يريد تنـاول القربان ، مثل سائر اخوانه القبط ، الا أن البطرك منعه من ذلك عدة مرات • فلمـا انتهى البطرك من القداس سأله الرجل عن السبب فى حرمانه من تناول القربان • فطلب البطرك منه الاعتراف بخطئه وذنبه حتى لا يقع فيه سواه بعد اليوم • فاعترف بأنه تنـاول افطار منزله ثم أتى الكنيسة ليتناول القربان فيها ، دون أن يعلم خطأ ذلك وأنه مخالف لقوانين الكنيسة • وكان كثير من قبط الصعيد يفعلون مثل ذلك • فكتب أنبا خايال الى جميع البلاد المصرية ، يدعو القبط الى عـدم تنـاول القربان مرتين فى اليوم الواحد •

انظر ، نفس المصدر ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ •

(٢٥٦) ابن المقفع : سـير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ •

(٢٥٧) نفس المصدر ، ص ١٦٨ •

(٢٥٨) نفس المصدر ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ •

(٢٥٩) تاريخ الأمة القبطية ، ج ٣ ، ص ٩٧ •

(٢٦٠) تبشر تاريخ الأمة القبطية ، حـ ٣ ، ص ٩٧ ، ٩٨ •

(٢٦١) نفس المصدر ، ص ٩٨ •

(٢٦٢) Butler : Ancient Coptic Churches, T. 2, pp. 323-324.

وفى اليوم المحدد للعرس يخرج العروسان كل منهما على انفراد ، تتقدمهما الموسيقى ويسيران فى الطرقات حتى يصلا الكنيسة المحدد اقامة العرس فيها ، ويتقدمهما الشمامسة بالشموع الموقدة والأجراس • وفى داخل الكنيسة يجلس الزوج وسطه جماعة المرنمين • أما الزوجة فتجلس فى الجانب المخصص للنساء •

(٢٦٣) Butler : Op. Cit., pp. 324-326.

(٢٦٤) Ibid, pp. 326-327.

(٢٦٥) النويرى نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٥١ •

المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٤ • محمود شكرى الألوسى البغدادى : بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العـرب ، ج ١ ، ص ٣٥٧ •

Autefage : Les Coptes, p. 29. و

(٢٦٦) النويرى . نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٩٢ · المقريزى . الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٤ ·

الألوسى البغـــدادى . بلوغ الأرب ، جـ ١ ، ص ٣٥٧ ·

و Au efage : Les Coptes, p. 29.

(٢٦٧) الألوسى . بلوغ الأرب ، جـ ١ ، ص ٣٥٧ · ويقول المقريزى (الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٥) . انه لما تمالأ اليهود على عيسى عليه السلام واجتمعوا على صلبه وقتله ، قبضوا عليه وصلبوه على خشبة مع لصين · ويرى المسيحيون أن الحقيقة ، أن الله رفعه ولم يصلب وأن الذى صلب شخص آخر غير المسيح ألقى الله عليه شبه المسيح · كما يزعمون أن الجند قد اقتسموا ثيابه وساد الأرض ظلمة أثناء النهار ، وذلك فى يوم الجمعة ١٥ نيسان = ١٩ برمهات · وقد دفن الشبيه فى أخر النهار فى هذا اليوم وأطبق عليه حجر عظيم وختم عليه رؤساء اليهود كما أقاموا عليه الحرس حتى لا يجرؤ أحد على سرقته · ويزعمون أن المقبور خرج من القبر ليلة الأحد التالى · ولما مضى بطرس ويوحنا التلاميذ الى القبر ، وجدوا الثياب بدون ميت ، وعلى القبر ملاك الله بثياب بيضاء اللون أخبرهم بقيام المقبور من القبر · ثم قالوا فى عشية يوم الأحد المذكور دخل المسيح على تلاميذه وسلم عليهم وأكل معهم وكلمهم وأوصاهم وأمرهم بأمور تضمنتها الانجيل ·

وفى بطركية أنبا شنودة — فى عهد الخليفة العباسى . المستعين بالله — ذهب بعض القبط الى أن عيد الفصح كان فى نفس السنة التى صلب فيها يسوع وقد أظهر لهم البطرك شنودة صواب هذا الامر وأعلمهم أن الصلبوت كان فى يوم الجمعة ٢٧ برمهات ، وأن القيامة كان فى ٢٩ من نفس الشهر يوم الأحـــد · انظر ، ابن المقفع . سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ١ ، ص ٣٣ — ٣٤ ·

وقع بين المسيحيين فى سنة ٣٩٧ هـ ، خلاف فى سائر الاقاليم فى حساب عيد الفصح ويوم الاحتفال به ، فرأى البعض أن هذا العيد يكون فى ٦ من شهر نيسان الموافق ٢٨ رجب من نفس السنة · والسبب فى ذلك أن حساب فصح المسيحيين مستخرج من حساب فصح اليهود · بمعنى أنه اذا كان يوم فصح اليهود فى أى يوم من أيام الأسبوع كان يوم الأحد الذى يليه هو فصح المسيحيين · فمثلا اذا وافق عيد الفصح عند اليهود يوم سبت ، كان عيد الفصح عند القبط يوم الأحد غده أو يكون فصح اليهود موافقـــا يوم الأحد فيكون ذلك اليوم هو أحد الزيتونة والأحد الذى يليه يكون عيد الفصح عند القبط · ومهما كان الامر

فقد اتفق جميع المسيحيين فى مصر من الملكانيين واليعاقبة والنساطرة ، على أن فصح اليهود يكون فى يوم السبت ٥ نيسان وفصح القبط وجميع المسيحيين يوم الأحد غده • وكتب البطرك أرسانيوس البطرك الملكانى بذلك الى أهل بيت المقدس فقبلوا مذهب أهل مصر ، كما أيدهم فى ذلك مسيحيو انطاكيا واحتفل جميع المسيحيين بعيد الفصح يوم ٦ نيسان ما عدا نفرا قليلا من قبط صعيد مصر الذين احتفلوا به يوم الأحد التالى • انظر ابن سعيد الانطاكى . ص ١٩٢ ـ ١٩٣ •

(٢٦٨) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٩١ • المقريزى الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٥ • الألوسى • بلوغ الأرب ، جـ ١ ، ص ٣٥٧ ، ويذكر المقريزى أن أهل الشام يسمونه عيد المسلاق ، بينما يذكر النويرى والألوسى انهم يسمونه السلاق بدون الميم •

(٢٦٩) النويرى نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٩١ • المقريزى : الخطط . جـ ٢ ، ص ٢٥ • الألوسى : بلوغ الأرب جـ ١ ، ص ٣٥٨ • ويقول المقريزى ، ان القبط يزعمون ان هذا العيد يكون بعد الصعود بعشرة أيام ، وبعد القيامة بخمسين يوما ، حين اجتمع التلاميذ وتجلى لهم روح القدس فى شبه السنة من نار فامتلأوا من روح القدس وتكلموا بجميع الألسـنة فظهرت على أيديهم آيات كثيرة وعاداهم اليهود ، الا أن الله نجاهم منهم • وخرجوا من سجن اليهود وتفرقوا يدعون الناس الى دين المسيح •

(٢٧٠) النويرى . نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٩٢ • المقريزى . الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٥ • الألوسى • بلوغ الأرب ، جـ ١ ، ص ٣٥٨ • والسبب فى ايقاد النيران ليلة عيد الميلاد ، هو أن مريم لما جاءها المخاض ، لجأت الى جذع النخلة واشتد عليها البرد فعمد يوسف النجار الى حطب فجعله حولها كالحظيرة ثم أشعل فيها النيران فأصابتها سخونة الوقود من كل ناحية حتى شعرت بالدفء وكسر لها سبع جوزات وجدهن فى خرجه ، فأطعمها • ولذلك يوقد النصارى النار ليلة عيد الميلاد ويلعبون بالجوز • انظر آدم متز : الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٢٨١ •

(٢٧١) المقريزى • الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٥ ـ ٢٦ •

(٢٧٢) نفس المصدر ، ص ٢٦ • النويرى نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٩٢ • الألوسى : بلوغ الأرب جـ ١ ، ص ٣٥٨ و Autefage : Les Cop'es p. 29.

ويسمى هذا العيد فى اليونانية الابيغافيا ومعناه عيد الظهور لان فيه ظهر سر الثالوث المقدس ، الآب ينادى من السماء هذا هو ابنى الحبيب ، والابن قائم على نهر الاردن وروح القدس قائمة عليه شبه حمامة • كما شاهد المعمدان أن المسيح لما اعتمد وصعد من الماء انشقت له السماء ونزل عليه روح القدس فى شبه حمامة وأتى صوت من السماء قائلا : « هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت » • وفى هذا اليوم أيضا ظهر السيد المسيح بعد ثلاثين سنة ولذلك صار هذا العيد عظيما عند المسيحيين جميعا يتطهرون فيه من خطاياهم وذنوبهم بالماء المقدس • انظر :

(٢٧٣) Le Synaxaire Arabe Jacobite, T. 3, pp. 539-541.
Autefage : Les Coptes, p. 29.

(٢٧٤) النويرى • نهاية الارب ، جـ ١ ، ص ١٩٢ • المقريزى • الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٧ •
الالوسى : بلوغ الارب ، جـ ١ ، ص ٣٥٨ •

(٢٧٥) النويرى . نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٩٢ ـ ١٩٣ •
المقريزى • الخطط : جـ ٢ ، ص ٢٧ •

الألوسى : بلوغ الأرب ، جـ ١ ، ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ • ويسميه أهل الشام خميس الأرز وخميس البيض بينما أهل الاندلس يسمونه خميس أبريل • انظر : نفس المصادر •

(٢٧٦) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٢٧٩ •

(٢٧٧) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٩٣ • المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٧ ـ ٢٨ • ويذكر كل من النويرى (جـ ١ ، ص ١٩٢) والالوسى (جـ ١ ، ص ٣٥٩) أن هذا الاجراء من أعمال القسس ، رغبة منهم فى استمالة أصحاب العقول الضعيفة • فكانوا يعلقون القناديل فى بيت المذبح ، ويعملون على ايصال النار اليها وذلك بمد شريط من حديد دقيق جدا ، مدهون بدهن البلسان والزئبق ، وبعد انتهاء الصلاة واقتراب وقت الزوال يفتح الهيكل ويدخله الناس ، فاذا به وقد اشتعلت فيه الشموع ، يعتقد الحاضرون ، عند ذلك ، أن النار قد نزلت من السماء وأوقدت جميع القناديل بالكنيسة •

(٢٧٨) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٩٣ • المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٨ • الالوسى : بلوغ الأرب ، جـ ١ ، ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ •

(٢٧٩) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٨ ـ ٢٩ . ويذكر كل من النويرى (نهاية الارب ، جـ ١ ، ص ١٩٣ ـ ١٩٤) والبيرونى (الاثار الباقية ، ص ٢٩٦) والألوسى : بلوغ الارب ، جـ ١ ، ص ٣٦٠ ـ ٣٦١ . ان النصارى يزعمون أن الامبراطور قسطنطين أعتنق دين المسيح وبنى كنائس ببلاد الشام عامة لأنه كان على عداء مع بعض الرومان ، وضاق بهم ذرعا حتى اضطر الى مصانعتهم ، ودفع ضريبة سنوية لهم . ثم ظهرت له ملائكة من السماء تحمل أعلاما عليها علامة الصليب ، حاربت الرومان وهزمتهم ، فعمل الامبراطور مثل هذه الأعلام وحارب بها خصومه وغلبهم . ثم علم من بعض التجار أن علامة الصليب هى علامة دين المسيح الذى مركزه بأرض الشام . ولذلك اعتنق المسيحية ، كما أمر قومه باتباع هذا الدين . ثم خرجت أمه الى بلاد الشام ، ووصلت الى بيت المقدس حيث تمكنت من العثور على الخشبة التى زعم المسيحيون أن المسيح قد صلب عليها ، وحملتها الى القسطنطينية واتخذ يوم رؤيتها لها عيدا عظيما عند المسيحيين جميعا .

(٢٨٠) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٠ . ويقول النويرى (نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦) ان أول من اتخذ هذا العيد جمشيد أحد ملوك الفرس الأوائل . وكان من عادة القوم فيه أن يحضر الملك فى الليل ، رجلا جميل الوجه قد أرصد لما يفعله ، فيقف على الباب حتى الصباح ثم يدخل على الملك بدون استئذان ، فيقول له الملك : من أنت ؟ ومن أين اقبلت ؟ وأين تريد ؟ وما اسمك ؟ ولأى شىء وردت ؟ وما معك ؟ فيجيب الرجل : أنا المنصور واسمى المبارك ، ومن قبل الله اقبلت ، والملك السعيد اردت ، وبالهناء والسلامة وردت ومعى السنة الجديدة . ثم يجلس ، ويدخل بعده رجل معه طبق من الفضة وفيه حنطة وشعير وحمص وسمسم وأرز ـ من كل صنف سبع سنابل وتسع حبات ـ وقطعة سكر ودينار ودرهم جديدان ، فيضع الطبق بين يدى الملك . ثم تدخل عليه الهدايا ، ويكون أول من يدخل عليه الوزير ثم صاحب الخراج ثم صاحب المعونة ثم الناس على طبقاتهم ومراتبهم . ويقدم للملك بعد ذلك رغيف كبير مصنوع من تلك الحبوب ، فيأكل منه ويطعم من حضر . ثم يقول : هذا يوم جديد ، من شهر جديد ، من عام جديد ، ومن زمان جديد . وكانت عادة عوام الفرس فيه رفع النار فى ليلته ورش الماء فى صبيحته .

ويقول المقريزى (الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٠ ـ ٣١) النوروز أول سنة الفرس ، الموافق ١٤ من آذار ويزعم البعض أنه اليوم الذى تم فيه شفاء أيوب عليه

السلام . وقال الله سبحانه وتعالى له اركض برجلك هذا مغتسل بارد وماء فصار ذلك اليوم عيدا ، وسنوا فيه رش الماء · ويذهب البعض الى أنه كان بالشام بعض بنى اسرائيل ، أصابهم الطاعون ، فصاروا الى بلاد العراق وبلغ عددهم أربعة الاف ، وماتوا هناك ثم احياهم الله بأن أمطرهم فى ليلة من الليالى · فلما بلغ الخبر ملك الفرس قال · تباركوا بهذا اليوم ، وليصب بعضكم على بعض الماء ، وكان ذلك اليوم هو يوم النوروز · ويوافق عند الفرس يوم الاعتدال الربيعى ، كما أن المهرجان أول الاعتدال الخريفى · ويقال ان أول من احتفل بالنوروز فى مصر أحد ملوك القبط القدماء ويسمى مناوش بن منقاوش · وكانوا يقومون سبعة أيام يأكلون ويشربون اكراما للكواكب · ·

وقد اسنن ملوك خراسان فى هذا العيد ، سنة جديدة ، اذ انهم اتخذوا هذا اليوم موسما يلبس فيه جنودهم ملابس الربيع والصيف · ويقول أحد المؤرخين : ان جمشيد (أو جمشيذ) هو سليمان بن داود · وان أصل الاحتفال بهذا اليوم يرجع الى انه لما فقد سليمان بن داود خاتمه ، ذهب عنه ملكه · ومالبث أن عاد اليه بعد أربعين يوما كما عاد اليه ملكه · فقال الفرس آنذاك « نوروز امذ » أى جاء اليوم الجديد ، فسمى هذا اليوم النوروز · وأمر سليمان الرياح فحملته ، وراه خطاف ، فقال له . « أيها الملك ان لى عشا فيه بيض فاعدل لا تحطمها » فعدل سليمان عن الطير · فلما نزل على الأرض ، حمل طائر الخطاف فى منقاره ماء ، ورش بين يدى الملك ، كما أهداه رجل جرادة · ولذلك سادت عادة رش الماء فى مثل هذا اليوم ، وتبادل الهدايا ، بين الناس · انظر ، البيرونى : الآثار الباقية ، ص ٢١٥ ·

حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٦٥٩ ـ ٦٦١ ·

(٢٨١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٠٣ (طبعة لجنة البيان العربى) محمد الشطيبى المغربى . الجمان فى أخبار الزمان ، ورقة ١٢٩ أ · (مخطوط بدار الكتب) ·

(٢٨٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ · السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤ · المغربى : الجمان فى أخبار الزمان ، ورقة ١٢٩ أ ·

(٢٨٣) ابن زبر القاضى : شروط النصارى ، ورقة ١٢ ، ١٣ · مخطوط بدار الكتب ·

(٢٨٤) ابن المقفع : سير الاباء البطاركه ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ٠
(٢٨٥) تاريخ ابو صالح ، ص ١١٦ ٠
(٢٨٦) سير الاباء البطاركه ، م١ ، ج ١ ، ص ١٤١ ٠
(٢٨٧) ابن سعيد الانطاكى ، ص ١٩٤ ٠
(٢٨٨) المقريزى ، الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٢٤ ٠ ويخص بالذكر مسيحى كنيستى اسبوطير وميخاييل ٠
(٢٨٩) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٧٩ ٠
(٢٩٠) ابن سعيد الانطاكى ، ص ١٩٦ ٠
(٢٩١) آدم منز الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ ٠
(٢٩٢) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٤ ٠ ويقول ابن عباس فى قوله سبحانه وتعالى « والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما » ان المقصود بالزور واللغو هو اعياد المشركين من اليهود والمسيحيين ٠
(٢٩٣) ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، ص ١١٦ ٠
(٢٩٤) ناصر خسرو : سفر نامة ، ص ٤٢ ٠
(٢٩٥) النويرى ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ٢٦٤ ٠
(٢٩٦) سيدة كاشف : مصر فى فجر الأسلام ، ص ١٩٦ ٠
(٢٩٧) ويسميه ابن المقفع باوون ، انظر سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ ٠
(٢٩٨) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ ٠
(٢٩٩) نفس المصدر ، ص ٢٠٨ ٠ ويشير الى أن اليهود والسامرة قد شاركوا المسلمين والقبط فى الصلاة والدعاء من أجل زيادة النيل كما صلى القبط ثانية ، انظر نفس المصدر ، ص ٢٠٩ ٠
(٣٠٠) العمرى : مسالك الأبصار ، ج ١ ، ص ٣٦٠ ــ ٣٦١ ٠ المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ١١٠ ، سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٩٦ ٠ ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١١٧ ــ ١١٨ ٠
(٣٠١) ابن المقفع) سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٤٦ ــ ٤٧ ٠
(٣٠٢) نفس المصدر ، ص ٢٤ ــ ٢٨ ، ٤٤ ٠
(٣٠٣) المسعودى : مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٣٤٣ ٠
(٣٠٤) سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ٢٥١ ٠
(٣٠٥) مروج الذهب : ج ١ ، ص ٣٤٣ ــ ٣٤٤ ٠

(٣٠٦) الولاة والقضاة ، ص ٢٩٤ ·

(٣٠٧) ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٤٦ · المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣١ ، ٢٨١ ·

(٣٠٨) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٦٦١ · عن مخطوط لابن زولاق ·

(٣٠٩) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ ·

(٣١٠) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ · على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٥٢٢ ·

(٣١١) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٦ · اتعاظ الحنفا ، ص ٢٤٢ ·

(٣١٢) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٩ ·

(٣١٣) يحيى بن سعيد الانطاكى ، ص ١٩٦ ·

(٣١٤) نفس المصدر ، ص ١٦٤ · المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٤ ·

كما أبطلت رسوم الشعانين فى بيت المقدس ، وكان الاحتفال بهذا اليوم يتم فى ضجة عظيمة وتزين جميع الكنائس فى مثل هذا اليوم من كل عام ، بأغصان الزيتون وسعف النخيل · انظر ، محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، ص ٧٠ · آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ ·

(٣١٥) يحيى بن سعيد الانطاكى ، ص ١٩٦ – ١٩٧ ·
المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٧ ·

(٣١٦) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٩ – ٣٠ ·

(٣١٧) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ٧٠ ·

(٣١٨) الجامات : المكاييل ، والفعل جم ، وجمم · انظر المنجد ، ص ٩٦ ·

(٣١٩) المثارد : أوان خاصة فيها قليل من الماء · المنجد ، ص ٦٧ ، الوسيط ، ج ١ ، ص ٩٤ ·

(٣٢٠) الجلاب والجلاب : العسل أو السكر عقد بماء الورد ، المنجد ، ص ٩٢ ·

(٣٢١) الزلابية : عجين يقلى بالسمن أو الزيت ، المنجد ، ص ٣١ ، الوسيط ، ج ١ ، ص ٢٩٨ ·

(٣٢٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٥ ـ ٢٦ ، ٣٩١ .

(٣٢٣) الخروبة : حبة الخروب ، ويوزن بها ـ الوسيط ، جـ ١ ، ص ٢٢٢ .

(٣٢٤) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٧ ، ٣٩٢ .

(٣٢٥) المقريزى . الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٦ ـ ٢٧ ، ٣٩١ ـ ٣٩٢ .

(٣٢٦) نفس المصدر ، ص ٢٧ ، ٣٩٢ .

(٣٢٧) تاريخ ابن سعيد الانطاكى ، ص ٢٣٨ .

(٣٢٨) المقريزى . الخطط ، جـ ٢ ، ٣١ ـ ٣٢ ، ٣٨٩ ـ ٣٩٠ .

(٣٢٩) شقق : مفردها شقة ، وهى قطعة من الثياب مستطيلة . الوسيط ، جـ ١ ، ص ٤٩١ .

(٣٣٠) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٣ ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

(٣٣١) نفس المصدر ، ص ١٨٠ . وتذكر أن المدينة كانت تعانى من الغلاء وارتفاع الأسعار فلما احتفل القبط بهذا العيد وصل الى المدينة كثير من القمح وانخفضت الأسعار وزال الغلاء ، وساد الرخاء وتحقق المسلمون أن ذلك من بركة خروج الزيتونة وطواف القبط بها فى المدينة . وعليه صاروا يشاركون القبط فرحتهم فى الاحتفال به فى كل عام . ونرى فى هذه الرواية بعض المبالغة من جانب المؤرخ القبطى .

(٣٣٢) ويقال له دير شهران نسبة الى أحد حكماء القبط وكان قديما يعرف بدير مرقوريوس الذى يقال له أيضا مرقورة أو أبو مرقورة . ولما سكنه برصوما ابن البنان ، عرف باسم دير برصوما . ومرقوريوس أحد شهداء القبط فى عهد الامبراطور دقلديانوس . انظر : المقريزى . الخطط ، جـ ٤ ، ص ٤٠٩ .

(٣٣٣) نفس المصدر ، ص ٤٠٩ .

(٣٣٤) المقريزى : الخطط ، جـ ٤ ، ص ٤١٢ . وهذا الدير نحت فى الجبل ، فقد حفر فى الصخر وليس له باب وانما جعلت له نقور فى الجبل ومن أراد دخوله أرخيت له سلبة فأمسكها بيده وجعل رجليه فى تلك النقور وصعد . ولهذا الدير طاحونة يديرها حمار واحد . ويطل هذا الدير على النيل ناحية منفلوط وأمام جزيرة يقال لها شقلفيل بها قريتان احداهما تسمى شقلفيل والأخرى تسمى بنى شقير .

(٣٣٥) نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ٤١٨ . وتشير بعض المصادر الى اعجوبه تحدث فى هذا الدير ونعتقد انها من صنع الخيال وضعها القبط الذين عرف عنهم الاعتقاد فى الخرافات . وتتضمن هذه الاعجوبة أن من به الم ومرض يذهب الى هذا الدير ، فيضجعه رئيس الدير ، ويأتى بخنزير يتلمس مواضع الالم ثم يأكل هذا الموضع دون أن يلمس الموضع السليم من الجسم . ثم يذر رئيس الدير على موضع الالم رماد خنزير فعل مثل ذلك من قبل ثم حرق . ويدهنه رئيس الدير بزيت القناديل ، وبذلك يبرى الشخص من الألم الذى يشكو منه . وبعد ذلك يذبح الخنزير ويحرق ، ويعده رئيس الدير رمادا يستعمل فى مثل هذه الحالات . انظر ، نفس المصدر ، ص ٤١٨ ــ ٤١٩ .

الشابستى : الديارات ، ص ٢٠١ .

العمرى . مسالك الابصار ، جـ ١ ، ص ٣٦٠ .

ياقوت الحموى . معجم البلدان ، جـ ٨ ، ص ٤٩٧ .

(٣٣٦) الخطط ، جـ ٤ ، ص ٤١٩ .

(٣٣٧) العمرى : مسالك الأبصار ، جـ ١ ، ص ٣٦١ .

(٣٣٨) أبو صالح الارمنى ، ص ١١٨ .

(٣٣٩) George Salomon : Un Texte Arabe Inédit pour sérvir à l'histoire des Christiens d' Egypte, p. 18.

(٣٤٠) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٢٨٥ ــ ٢٨٦ .

والمقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٣٤ ــ ٣٣٥ .

(٣٤١) Chronique de Jean, p. 455.

(٣٤٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٤ . ابن بطريق . التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ص ٢٦ . ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٣٠ . بينما تذكر بعض المصادر أن عدد اليهود فى الاسكندرية عند الفتح كان حوالى ستمائة الف . وقد هرب كثير منهم الى بلاد الرومان فبلغ عدد من بقى منهم نحو خمسين الفا يؤدون الجزية . انظر ، ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٢٢ .

(٣٤٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٤ ، ص ٣٩٧ .

Maurice Fargon : Les Juifs, p. 114, et Mann : The Jews, T. 1, p. 14, and Zaky Hassan : Les Tulunides, p. 220.

وميخائيل شاروبيم : الكافى ، جـ ٢ ، ص ٢٣٣ .

(٣٤٤) ويتفق الربانيون والقراءون فى ايمانهم بالتوراة ولا نجد بينهم ـقا فى أصل اليهودية · وقد اتفق جميعهم على استخراج ستمائه وثلاث ـرة فريضة من التوراة يتقيدون بها ، كما أنهم يتفقون على نبوة موسى وهارون ـشع عليهم السلام وعلى نبوة ابراهيم واسحق ويعقوب والأسباط ـثنى عشر كما يتفقون فى استقبالهم صخرة بيت المقدس فى صلاتهم ـجهون اليها موتاهم وان الله سبحانه وتعالى كلم موسى على طور سيناء بينما ـتلف كل من الربانيين والقرائين فى أمرين :

الاول · القول بالظاهر والجنوح الى التأويل · فالقراءون يقفون على ظواهر ـوص التوراة فيحملون ما وقع منها منسوبا الى الله تعالى ، كما تقول ـلاهرية من المسلمين والربانيون يذهبون الى تأويل ما جاء فى التوراة كما ـل الأشعرية من المسلمين ·

ثانيا : القول بالقدر · فالربانيون يقولون بأن لا قدر سابقا كما تقول القدرية المسلمين · والقراءون يقولون بسابق القدر كما تقول الأشعرية · انظر : ـلقشندى . صبح الاعشى ج ١٣ ، ص ٢٥٦ ــ ٢٥٨ ويبدو ان اليهود الربانيين ـكنوا مصر قبل القرائين · تقول بعض المصادر التاريخية انه لا يعرف تماما متى ـتقر بالقرائين المقام فى مصر · وان عددهم فى أوائل القرن العاشر الميلادى ـغ كبيرا لا يستهان به وأنهم كانوا يستخدمون أدوات مصنوعة من الـ Courds — ـيشون قريبا من النيل على بعد عشرين فرسخا من الفسطاط وانهم من نسل ـحنا بن قارىء Johanan b. Kareah · الذى هاجر الى مصر · والقراؤون ـتفلون بأيام الآحاد الى جانب ايام السبت من كل أسبوع · وأقدم وثيقة بالفسطاط يرجع تاريخها الى سنة ١٠٣٠ م وصار لمجتمعهم ومدارسهم أهمية شأنها فى القرن الثانى عشر الميلادى · وكانت أهم مراكزهم القاهرة ـلاسكندرية الى جانب انتشارهم فى المدن الأخرى حيث يوجد غيرهم من اليهود · ـظر : The Jewish Encyclopedia, Vol. V., p. 70.

(٣٤٥) أما السامرة فهم يؤمنون بالتوراة وبموسى وبالميعاد وبالجنة ـلنار ويصلون صلاة اليهود ويصومون صومهم ويستنون بسنتهم ويقرأون ـتوراة ، ويحرمون ما يحرمه اليهود الآخرون · بينما لا يخالفون غيرهم من ـهود فى الايمان بالرسل ، فالسامرة لا يؤمنون بنبى غير موسى وهارون ويوشع ـبراهيم فقط · كما يخالفونهم فى القبلة فاليهود الآخرون يصلون الى بيت المقدس ـسامرة تصلى الى جبل عزون بنابلس وهو عندهم الطور الذى كلم الله عليه

موسى • انظر ، ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ق ١ ، ص ٩١ ـ ٩٢ •
القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٣ • ص ٣٦٩ • ويقول ان التوراة التى بيد السامرة ، تختلف عن توراة الربانيين والقرائين •

(٣٤٦) The Itinerary of Rabbi Benjamin, T. I., pp. 146, 147, 149 158, 159.

وانظر أيضا : The Jewish Encyclopedia, Vol. V. p. 62.

آدم متز : الحضارة الاسلامية ، جـ ١ ، ص ٦٥ ـ ٦٦ •

(٣٤٧) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٦ ، جـ ٤ ، ص ٣٦١ •

M. P. Casanova : Essai reconstitution topographique de la ville d'al Fostat ou Misr, p. 19.

ويقول وومان Waman ، يوجد حى اليهود فى قصر الشمع حيث يوجد لهم معبدان وبيت رئيس اليهود • انظر : حاشية نفس الصفحة •

(٣٤٨) المقريزى : الخطط جـ ٤ ، ص ٣٥٠ •

(٣٤٩) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٧٢ •

Mann : The Jews, T.I., p. 251,

(٣٥٠) Mann : The Jews. T I. p. 252 and The Jewish Encyclopedia, Vol. V., p. 68.

(٣٥١) The Jewish Encyclopedia, Vol. V., p. 68.

(٣٥٢) Mann : Op. Cit., T. I, p. 252.

(٣٥٣) The Itinerary of Rabbi Benjamin, T. 2., pp. 197 - 198

(٣٥٤) الحضارة الاسلامية ، جـ ١ ، ص ٦٣ • وكان رئيس اليهود فى بغداد يسمى رأس الجالوت ، ويسميه المسلمون سيدنا • وكلمته وأوامره لا تنفذ الا شرقى الفرات • وكان ينافس ناجد اليهود فى مصر •

(٣٥٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١١ ص ٣٨٥ •
و Mann : Op. Cit., p. 255.

(٣٥٦) صبح الأعشى ، جـ ١ ، ص ٣٨٩ •

(٣٥٧) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١١ ، ص ٣٩٠ ـ ٣٩١ •

Mann : The Jews, T. I, p. 255.

(٣٥٨) القلقشندى : صبح الأعشى : جـ ١١ ، ص ٣٨٨ ـ ٣٩١ •

(٣٥٩) Casanova : Essai reconstitution topographique de la ville d'al Fustat, p. 19.

(٣٦٠) The Jewish Encyclopedia, Vol. I., p. 68.

(٣٦١) The Jewish Encyclopedia, Vol. V., p. 69.

(٣٦٢) Mann : The Jews, T. 1. p. 268.

(٣٦٣) صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٧٤ • ويقول مان ، انه من الخطأ أن يكون الحزان واعظا متميزا فى ذلك عن القارىء ، انظر :
Mann : Op. Cit., p. 268.

(٣٦٤) Mann : Op. Cit., pp. 268-269.

(٣٦٥) Ibid. p. 268.
والقلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٧٤ •

(٣٦٦) Mann : Op. Cit., p. 259.

(٣٦٧) Ibid., p. 254.

(٣٦٨) Ibid., pp. 257 - 258.

(٣٦٩) Mann : The Jews, T. 1., pp. 94, 96.

(٣٧٠) Mann : The Jews, T. 1, pp. 94-95.

(٣٧١) Ibid., pp. 264-267.

(٣٧٢) Ibid., pp. 259 - 262.

(٣٧٣) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٥٠ • ويوجد فى هذا المعبد شجرة يزعم اليهود انها موجودة منذ عهد موسى •

(٣٧٤) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٥٨ •

(٣٧٥) نفس المصدر ، ص ٣٦٠ ـ ٣٦١ •

(٣٧٦) نفس المصدر ، ص ٣٦١ •

(٣٧٧) Paul, E. Kahle : The Cairo - Geniza p. 1.

(٣٧٨) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٦١ •

(٣٧٩) نفس المصدر ، ص ٣٦١ •

(٣٨٠) نفس المصدر ، ص ٣٦١ .

(٣٨١) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٩٦ . المقريزى : الخطط ، جـ ٤ ، ص ٣٧٣ . الالوسى : بلوغ الأرب ، جـ ١ ، ص ٣٦٢ .

(٣٨٢) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٩٦ . الالوسى : بلوغ الأرب ، جـ ١ ، ص ٣٦٢ .

(٣٨٣) ابن سعيد الانطاكى ، ص ١٩٢ ـ ١٩٣ .

(٣٨٤) المقريزى . الخطط ، جـ ٤ ، ص ٣٧٣ .

(٣٨٥) النويرى . نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٩٦ . الالوسى : بلوغ الأرب . جـ ١ ، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣ .

(٣٨٦) المقريزى : الخطط ، جـ ٤ ، ص ٣٥٠ .

(٣٨٧) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٩٥ . المقريزى : الخطط ، جـ ٤ ، ص ٣٧٣ .

البيرونى . الآثار الباقية ، ص ٢٧٥ . الالوسى : بلوغ الأرب ، جـ ١ ، ص ٣٦١ .

وهكذا يرى اليهود أن الذبيح هو اسحق وليس اسماعيل .

(٣٨٨) البيرونى : الآثار الباقية ، ص ٢٧٥ .

(٣٨٩) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٩٥ .
المقريزى : الخطط ، جـ ٤ ، ص ٣٧٣ .

(٣٩٠) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٩٥ . الألوسى : بلوغ الأرب ، جـ ١ ، ص ٣٦١ .

(٣٩١) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٩٥ . البيرونى : الآثار الباقية ، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

(٣٩٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٤ ، ص ٣٧٣ . والآس والخلاف نوعان من الأشجار . النويرى : نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٩٥ . البيرونى : الآثار الباقية ، ص ٢٧٧ .

(٣٩٣) البيرونى : الآثار الباقية ، ص ٢٧٧ .

(٣٩٤) نفس المصدر ، ص ٢٧٧ .

(٣٩٥) الألوسى : بلوغ الأرب ، جـ ١ ، ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ .

(٣٩٦) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٩٦ ــ ١٩٧ . البيرونى : الآثار الباقية ، ص ٢٨٠ ــ ٢٨١ .

الألوسى : بلوغ الارب ، جـ ١ ، ص ٣٦٣ ــ ٣٦٤ . والسبب فى الاحتفال بهذا اليوم ، أنه لما أجلى بختنصر اليهود من بيت المقدس ، نزلوا احدى مدن أصفهان . فلما كان عهد كسرى فارس اردشير ووزيره هامان كان لليهود حبر يسمى مردخاى تزوج أردشير ابنة عمه . ومن ثم صار له ولليهود مكانة عند كسرى ؛ مما أثار حقد الوزير فعمد الى احتقاره والحط من شانه . وعزم على هلاك اليهود جميعا فى بلاد فارس . وحدد لذلك يوم منتصف شهر آذار نكاية فى اليهود الذين يزعمون أن موسى ولد وتوفى فى هذا اليوم . فلما علم مردخاى ، بهذا ، بادر باخبار ابنة عمه بما عزم عليه الوزير هامان وطلب اليها أن تعلم زوجها أردشير بذلك ، وتلتمس منه حماية اليهود وخلاصهم جميعا . فاستجاب كسرى لذلك ، وأمر بقتل وزيره بينما كتب لليهود عهدا بالأمان لهم جميعا بل زاد فى الاحسان والبر اليهم فى ذلك اليوم . ومنذ ذلك الحين صار اليهود يحتفلون بهذا اليوم من كل سنة واتخذوه عيدا لهم .

(٣٩٧) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٩٧ . البيرونى : الآثار الباقية ص ٢٧٨ .

الألوسى : بلوغ الأرب ، جـ ١ ، ص ٣٦٤ . وكان سبب احتفالهم بهذا العيد ، هو تغلب بعض الملوك على بيت المقدس ، وفتكه ببنى اسرائيل وانتهاك أعراض نسائهم فتصدى له بعض أولاد أحد الكهنة وعددهم ثمانية حتى تمكن أصغر هؤلاء الاخوة من قتله . ثم طلب اليهود زيتا لوقود الهيكل ، فلم يجدوا الا كمية بسيطة ورعوها على القناديل التى تسرج على ابواب دورهم فى كل ليلة لمدة ثمانى ليالى ، واتخذ اليهود هذه الأيام أعيادا وسموها عيد الحنكة بمعنى التنظيف والتطهير ، اذ خلصوا فيه الهيكل من أيدى الملوك الجبابرة .

(٣٩٨) ترترون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٢٠ .

(٣٩٩) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ١ جـ ٢ ص ١٣٤ . وبالرغم من ذلك لا تخلو المصادر التاريخية من الاشارة الى بعض البطاركة الذين كانوا على العكس من ذلك ، فاهتموا كثيرا بحياتهم وطعامهم وشرابهم الى جانب الحرص على جمع الأموال . ومن هؤلاء البطرك فيلا تاوس ــ الذى عاصر الخليفتين الفاطميين المعز ، وابنه العزيز ــ وتقول الرواية القبطية ، انه كان « مستمرا على جمع المال ، والأكل والشرب وقيل انه بنى حماما فى داره . وكان يدخله كل يوم ، واذا خرج يبخر ببخور

طايل جدا ، ثم يجلس يحكم ويأمر وينهى الى أربع ساعات من النهار ثم يقوم . واذا كانت سادس ساعة يهيأ له من الطعام والشراب ما يحتاج اليه وفواكه . ويقوم يدخل داره . ويحضر عنده قوم عاداتهم جارية ان يجالسوه ، وينادموه من أهل دمرو (دميرة) ومن أهله واقاربه ليأكل معهم ويشرب ولا يصل اليه أحد بقية النهار الى ثانى يوم ودفعات كثيرة يجلس للأكل والشراب من بكرة أو ثالث ساعة من النهار ماخلا الأيام التى يجب فيها الصوم » . وتضيف هذه الرواية انه قد وجد له بعد وفاته أموالا عظيمة جمعها أثناء توليه البطركية فاقتسمها أهله فيما بينهم . انظر ، نفس المصدر م ٢ ج ٢ ، ص ١١٣ ، ١١٥ .

(٤٠٠) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ١ ج ٢ ص ١٢١ ــ ١٢٢ . الانبا ايسيذورسى : الخريدة النفيسة ، ج ٢ ، ص ١٢٠ .

(٤٠١) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ١ ج ٢ ص ٢٤٩ .

(٤٠٢) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ١ ج ٢ ص ١٢٨ . تاريخ ابن الراهب ، ص ١٢٢ .

(٤٠٣) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .

(٤٠٤) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ــ ٢٣٢ . تاريخ ابن الراهب ، ص ١٢٧ .

(٤٠٥) نفس المصدر : ص ٢٣٢ .

(٤٠٦) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ٢ ج ٣ ص ١٨٤ ــ ١٨٥ . ويروى أنه حدث فى ليلة ما أن طرق بابه رجل محتاج فأمر بعض القسس الموجودين عنده باعطائه شيئا من الخبز ، ولم يبق عنده غير رغيفين فأعطاه احدهما ثم طرق بابه رجل آخر فأمر باعطائه جزءا من الرغيف الباقى لديه ثم طرقه رجل ثالث فأمر باعطائه ما بقى دون أن يأكل هو .

(٤٠٧) نفس المصدر م ٢ ج ٢ ص ١٢٩ . ويشير الى قصة حدثت له ذات يوم ، ذلك انه بعد ان اشترى الخبز ووزعه كعادته على المحتاجين والفقراء من القبط ولم يبق معه الا رغيف واحد أعده لافطاره دق الباب رجل وسأله شيئا من الطعام فدفعــه بقيرة له ، وبقى هو بدون طعــام حتى اليوم التالى .

(٤٠٨) جروهمان : أوراق البردى ، السفر الثالث ، ص ١٥٣ .

(٤٠٩) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ١ ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٤١٠) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ١ ج ٢ ص ٢٤٠ ــ ٢٤١ .

(٤١١) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ١ ج ٢ ص ٢٤١ ـ ٢٤٣ .
ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

(٤١٢) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ٢ ج ١ ص ٢١ ـ ٢٢ ، ٢٨ ، ٢٩ .

(٤١٣) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٥١ .

(٤١٤) نفس المصدر ، م ١ حـ ٢ ص ٢٦٢ .

(٤١٥) نفس المصدر م ٢ ج ١ ص ٢ ـ ٣ .

(٤١٦) نفس المصدر ص ٣ .

(٤١٧) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ١ ج ٢ ص ٣ ـ ٤ .

(٤١٨) بلقونة أو بلقينة : وهى قرية من قرى الحوف من كورة نبا . انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان : ، ج ٤ ، ص ٤٨٩ .

(٤١٩) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ٢ ج ٢ ص ٩٠ .

(٤٢٠) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ١ ج ٢ ص ١٢٦ .

(٤٢١) نفس المصدر ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ . وقد عزلهما البطرك بناء على طلب شعب تنيس ومصر ، والحاحهم على البطرك حتى انهم هددوه بالخروج على الكنيسة وقتل هذين الاسقفين اذا لم يعزلهما . وقد آثار ذلك غضب الأسقفين وفكرا فى السعاية بالبطرك لدى الأفشين قائد المأمون فى مصر . فذهبا اليه وادعيا أمامه أن البطرك يوساب هو الذى حرض البشموريين على الثورة والتمرد ، فأرسل الأفشين رسله لاحضار البطرك ، وألحقوا بالبطرك كل اهانة ممكنة أمام القبط . الا أن الأفشين مالبث أن تبين حقيقة الأمر فعفا عن البطرك ، وأراد فى الوقت نفسه عقاب الأسقفين ، الا أن البطرك يوساب التمس منه العفو عنهما . انظر ، نفس المصدر ، ص ٢٨٠ ـ ٢٨٢ .

(٤٢٢) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ٢ ج ٢ ص ٧١ . واضطر البطرك الى بيع بعض كنائس القبط بقصر الشمع ، وبعض أملاك الكنائس بالاسكندرية لليهود . كما انه اضطر الى بيع مناصب الأسقفية وفرض الشرطونية حتى يتمكن من دفع المطلوب منه .

واستمرت سعاية القبط ببطركهم فى عهد الخلفاء الفاطميين . فقد سعى أحد الرهبان ويسمى يونس بالبطرك انبا زخارياس ـ فى عهد الخليفة الحاكم ـ لرغبتـه فى الأسقفية وعدم تمكنه من الوصول اليها لما هو فيه من فقر وكانت الدرجات الكهنوتية تباع فى ذلك العصر ـ ولذلك فكر فى السعاية بالبطرك لدى الحاكم ،

ورفع اليه رقاعا ضد البطرك ، وزعم له فيها أنه ينافسه فى السلطان والنفوذ وأنه يمتلك اموالا كثيرة مما اثار غضب الخليفة فقبض على البطرك ووضعه فى السجن لمدة ثلاثة أشهر • انظر ، نفس المصدر ص ١٢٠ ـ ١٢١ ، ١٢٧ •

كما سعى بعض الأساقفة بالبطرك كيرلص ، وقدموا ضده رقاعا الى الوزير أمير الجيوش وزير الخليفة المستنصر • الا أن الوزير لم يعط هذه الرقاع شيئا من الاهتمام ودعا البطرك وجميع الأساقفة الى الاجتماع به وذلك فى سنة ٤٧٥ هـ = ٨٠٢ ش • واشتد فى كلامه مع الأساقفة ودعاهم الى حسن معاملة البطرك كما طلب منهم وضع قوانين لدينهم ، وعرضها عليه • ثم اجتمع مرة ثانية بالبطرك والأساقفة وأحسن مخاطبتهم ، وبالغ فى اكرامهم ، ثم قال لهم : « كونوا كلكم شرعا واحدا ، ولا تختلفوا ، وطيعوا مقدمكم وكونوا مثله ، ولا تكنزوا ذهبا ولا فضة ، وصدقوا بكل ما يحصل لكم ، كما أوصاكم المسيح • وهذه القوانين التى عملتوها ، مما احتاج اليها ، وانما طلبتها منكم ليتجدد عندكم علمها ، لما بلغنى من بعد عهدكم بها وبقراءتها » نفس المصدر م ٢ ج ٣ ص ٢١٣ ـ ٢١٦ •

(٤٢٣) سيرة أحمد بن طولون ، ص ٢٠٦ •

(٤٢٤) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ٢ ج ٣ ص ١٧٢ •

(٤٢٥) نفس المصدر ، ص ٢١٧ •

(٤٢٦) نفس المصدر م ٣ ج ١ ص ٣٥ ـ ٣٦ •

(٤٢٧) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ١ ج ٢ ص ١٣٤ •

(٤٢٨) نفس المصدر م ٢ ج ٢ ص ٧٠ ـ ٧١ ويتضح ذلك مما حدث فى ناحية دنوشر حينما دعا القبط البطرك لتكريز كنيسة جديدة هناك • فاجتمع البطرك والقبط ، ومن معهم من الأساقفة لاقامة القداس ، بينما تأخر أسقف سخا الذى تقع فى حوزته هذه الكنيسة بحجة انه يعد الطعام للبطرك انبا خايال ومن معه • فلما حان وقت القداس ولم يحضر الأسقف المذكور طلب الحاضرون من البطرك وضع القربان على الهيكل والبدء فى القراءات الى أن يحضر الأسقف الا انه لما قدم ووجدهم قد بدأوا القداس غضب أشد الغضب وأساء مخاطبة البطرك وتطاول عليه فرأى البطرك أن ينزل به العقوبة الدينيه فحرم هذا الأسقف وعزله من الأسقفية فسعى به هذا الأسقف لدى الأمير أحمد بن طولون كما ذكرنا •

(٤٢٩) والأمثلة على ذلك كثيرة فى كتاب « سير الآباء البطاركة » ، م ١ ، ج ٢ ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ، ص ٢٦٣ •

(٤٣٠) نفس المصدر م ٢ ج ١ ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٤٣١) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ١ ج ٢ ص ١٥٧ .

(٤٣٢) نفس المصدر ص ١٥٦ ، ص ٢١٢ .

(٤٣٣) ابن بطريق : التاريخ المجموع ص ٥٨ .

(٤٣٤) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ١٣٠ ـ ١٣١ . ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧ . الانبا ايسيذورس : الخريدة النفسية ج ٢ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ . ويشير المقريزى الى أن المامون قد كافأ هذه السيدة باقطاعها عدة ضياع ، واعفاء مائتى فدان من قريتها من الخراج جزاء على كبر مروءتها وسعة حالهـا .

(٤٣٥) المكافأة ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

(٤٣٦) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ٢ ج ٢ ص ٩٠ .

(٤٣٧) جروهمان : أوراق البردى ج ١ ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ، ١٥٨ ـ ١٥٩ ، ١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٤٣٨) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ص ١٥٠ .

(٤٣٩) ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ٢٢ .

(٤٤٠) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ص ١٥٩ .

(٤٤١) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ٢ ج ٣ ص ١٧٣ .

(٤٤٢) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ص ١٥٥ ـ ١٥٦ و
Chronique de Michel, T. 3, fasc. pp. 63-64.

(٤٤٣) Chronique de Michll, T. 3, fasc p. 64. وترتون : أهل الذمة فى الاسلام ص ١٥٦ ويذكر ان عبد الله بن طاهر قد جعل الجزية عليهم اثنين وعشرين درهما كما نصت قوانين أرض السواد . انظر أيضا :
Quatremére : Mémoires geographique et historiques, T. I, p. 321.

ويشير الى وجود اثنتين وخمسين كنيسة بتنيس وقد هدمها الخليفة الحاكم وجعل مكانها مساجد انظر : Ibid., pp. 329-330.

(٤٤٤) ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيســة القبطية الكتـاب الثـانى ص ٥٠٣ ـ ٥٠٤ .

(٤٤٥) سمى بصوم الأربعين لأن مدة هذا الصيام ينقص عددها الى أربعين يوما فقط ذلك اذا استخرجنا من المدة السابقة (٥٥ يوما) أيام الآحاد والسبوت من كل أسبوع والتى يجوز للقبط الصيام فيها • انظر :

Autefage : Les Coptes, p. 29.

(٤٤٦) Ibid., pp. 29-30.

(٤٤٧) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ١ ج ٢ ص ٢٦٠ •

(٤٤٨) Autefage : Les Copte, p. 30.

(٤٤٩) Ibid., p. 30.

(٤٥٠) Le Synaxaire Arabe Jacobite T. 3, p. 535.

(٤٥١) نفس المصدر ص ٥٣٦ • ويوم البرمونى يوافق اليوم السابق لعيد الغطاس •

(٤٥٢) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ٢ ج ٣ ص ١٦٦ •

(٤٥٣) نفس المصدر ص ١٦٧ ، ١٦٨ • وذاك نص ما قاله هذا البطرك فى قوانينه بشأن الصيام « ويجب على المؤمنين صيام الرسل الحواريين الذى هو بعد الخمسين شكرا لله على ما أنعم به علينا من موهبة الروح القدس صياما متصلا الى اليوم الخامس من أبيب ، ويعيدون فيه ، كما جرت العادة • وان وافق ذلك اليوم ، يوم ، الاربعاء فيفطروا فيه قبل وقت الصوم • وان كان يوم الجمعة فلا يفطرون فيه قبل وقت الصوم الجارى به العادة •

وكذلك صوم الميلاد المقدس ، يكون من عيد مارى مينا فى خمسة عشر يوما من هاتور الى تسعة وعشرين يوما من كيهك • وان وافق يوم عيد الميلاد الشريف يوم الاربعاء او الجمعة يفطروا فيه ولا يصومون بالجملة • وكذلك عيد الغطاس المقدس فى الحادى عشر من طوبة ، وان اتفق يوم اربعاء أو جمعة فيفطروا فيه أيضا ، ولا يصوموا • وان وافق العاشر من طوبة الذى فيه صوم الغطاس أن يكون يوم سبت أو يوم احد فلا يصام بالجملة بل يصومون يوم الجمعة الذى قبل ذلك عوض ليلة الغطاس ، ولا يجوز لأحد من المؤمنين أن يصوم يوم سبت الا السبت الواحد فى كل سنة وهو السبت الكبير ، الذى هو آخر الصوم ، ويوجب صوم الاربعاء والجمعة دائما طوال السنة الا أيام الخمسين فقط » •

(٤٥٤) المقريزى : الخطط ج ٤ ، ص ٣٩٢ ــ ٣٩٣ •

(٤٥٥) تاريخ الأمة القبطية م ٢ ص ١١٨ •

(٤٥٦) ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ، الكتاب الثانى ، ص ٥٠٤ ـ ٥٠٥ ٠

(٤٥٧) نفس المصدر ص ٥٠٦ ٠

(٤٥٨) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ١ ج ٢ ص ٢٥٨ ٠

(٤٥٩) نفس المصدر ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ ٠ ويروى لنا قصة تؤكد ذلك وتتضمن ما يلى : كان فى مدينة الاسكندرية فى بطركية الأب يوساب فى عهد الخليفة العباسى المأمون ، رجل من أتباع المذهب الخلقدونى ، وكان يشتهر بثرائه الكبير وأملاكه الواسعة ٠ وكان له فى ظاهر الاسكندرية كثير من حقول الكروم فحدث أن انكسرت بها احدى السواقى عند ذلك طلب من نجار قبطى أن يصلحها له ، وصادف ذلك يوم الجمعة العظيم عند القبط الارثوذكس فرفض النجار القبطى ذلك ، لأنه لا يجوز لهم القيام بأى عمل فى مثل هذا اليوم المبارك ٠

(٤٦٠) نفس المصدر م ١ ج ١ ص ١١٩ ، م ٢ ج ٢ ص ١٣٣ ٠

(٤٦١) ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٢٩٨ ٠
تاريخ ابن الراهب : ص ١٣٨٧ ـ ١٣٩ ٠

(٤٦٢) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٦ ٠

(٤٦٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٧ ٠

(٤٦٤) نفس المصدر ، ص ٦٧ ٠

(٤٦٥) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ٠ ويشير الى أن كاتب هذا الكتاب كان مسيحيا نسطوريا ويسمى ابن شيرين ٠

(٤٦٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٧ ٠

(٤٦٧) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ٢ ج ٣ ص ٢٢٩ ٠

(٤٦٨) نفس المصدر ص ٢٤٩ ٠

(٤٦٩) نفس المصدر م ١ ، ج ٢ ، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ٠ الشماس منسى القمص : تاريخ الكنيسة القبطية ص ٤٠٨ ٠

(٤٧٠) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ٢ ج ٢ ، ص ٩٢ و
Le Synaxaire Arabe Jacobite, T. 2, pp. 309-310.

ويذكران أن هذا القبطى قد افتقر ثم طرد من عمله بعد ان لحق به بعض الاهانات كما ابتلى جسمه بكثير من الامراض المزمنة ومات شر موتة عبرة ومثلا لكل القبط ٠

(٤٧١) George Solomon : Un Texte Arabe ..., p. 18.

(٤٧٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، جـ ١ ، ص ٨٦ ·

(٤٧٣) العمرى : مسالك الابصار ، جـ ١ ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ ·

(٤٧٤) الشابشتى : الديارات ص ١٩٢ ـ ١٩٣ · العمرى : مسالك الأبصار جـ ١ ، ص ٣٦٢ · ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ ٨ ، ص ٥٣٩ ·

(٤٧٥) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ٢ جـ ٢ ص ٨٧ ، ٩٨ ، أبو صالح الأرمنى ص ٤٦ ·

(٤٧٦) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ٢ جـ ٣ ص ١٦٩ ، ١٨٠ ، ١٨٨ ، ٢٠٩ ، ٢٢٠ ·

(٤٧٧) أبو صالح الأرمنى ص ٤٣ ·

(٤٧٨) صبح الأعشى ، حـ ٥ ، ص ٤٩٠ ·

(٤٧٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٠٥ ·

(٤٨٠) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٢٣ ·

(٤٨١) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب · والجمع اقبيــة · والقباء كالفرجية فى أيامنا ويلبس تحته الجبة · انظر ، سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام حاشية ، ص ٢١٠ ·

(٤٨٢) عبد الله بن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٣٦ · ابن كثير : عمر بن عبد العزيز ، ص ٢١ ·
Chronique de Michel : T. 2, fasc. 3, p. 489.

(٤٨٣) البرذون : نوع من الخيول ، تركى الأصل ·

(٤٨٤) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٥٩ ·
ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٢٥ ·

(٤٩٥) ابن زبر القاضى : شروط النصارى ورقة ١٤ ، ١٥ · مخطوط بدار الكتب· وانظر أيضا بشأن أوامر المتوكل هذه · المقريزى : الخطط ، جـ ٤ ص ٣٩٧ · سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٢١٢ ـ ٢١٣ · ونلاحظ انه حذر عماله من التوانى فى تطبق ما جاء فى كتابه اليهم « وأن توعز الى عمالك فيما أمر به أمير المؤمنين من ذلك ايعازا تحذرهم به على استقصاء ما تقدم فيه اليهم ويحذرهم به ويتقدم اليهم فى انزال العقوبة بمن خالف ذلك من جميع أهل الذمة الى غيره

ليقتص الجميع منهم على طبقاتهم وأصنافهم وسلوكهم السبيل الى أمير المؤمنين يحملهم عليها فأخذهم بها ان شاء الله تعالى فاعلم ذلك من أمر أمير المؤمنين وأنفذه الى عمالك فى نواحى عملك ٠٠ » ٠

(٤٨٦) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ٢ ، ج ١ ، ص ٤ ، ٥ ٠

(٤٨٧) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٧ ٠ والازار ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن والجمع أزر وأزرة ٠ الوسيط ، ج ١ ، ص ١٥ ٠

(٤٨٨) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٢٦ ٠

(٤٨٩) الدراعة : جبة مشقوقة من الأمام ، والجمع دراريع ٠

(٤٩٠) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٧ ٠ سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٢١٣ ٠

ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٢٦ ٠

(٤٩١) ابن سعيد الأنطاكى ص ٢٠٠ ٠ ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ٠

المقريزى : الخطط ج ٤ ، ص ٣٩٩ ٠ القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ، ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ ٠

ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ٠ محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٦٨ ، ٧٠ ٠

(٤٩٢) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٢٨ ٠

(٤٩٣) ابن سعيد الأنطاكى ، ص ٢٠٢ ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ٠

القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٠ ٠ المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٩ ٠

ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٢٨ ٠ محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ٧٠ ـ ٧١ ٠

(٤٩٤) ابن سعيد الانطاكى ، ص ٢٣٨ ٠

(٤٩٥) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ٢١٨ ٠

(٤٩٦) نفس المصدر ، م ٣ ، ج ١ ، ص ٤٤ ٠

(٤٩٧) نفس المصدر ، ص ٤٦ ٠

(٤٩٨) العذبة : طرف الشيء • عذبة العمامة أى طرفها • والجمع عذب • الوسيط ، جـ ٢ ، ص ٥٩٦ •

(٤٩٩) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٣ ، جـ ٢ ، ص ٦٣ •

(٥٠٠) البرنس كل ثوب رأسه منه ملتزق به • وأيضا لفظ يطلق على القلنسوة الطويلة ، والرداء ذى الكمين يلبس بعد الاستحمام والجمع برانس • الوسيط ، جـ ١ ، ص ٥٢ •

(٥٠١) ويسمى Eponnis or amice وتسميه بعض الروايات أيضا Woolen-ephod ويلبسه جميع الداخلين الى الكنيسة ، انظر :
Butler : Ancient Coptic Churches, T. 2, pp. 98, 99 - 100.

(٥٠٢) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ جـ ١ ص ١١٨ •

(٥٠٣) Butler : Ancient Coptic Churches, T. 2, pp. 98, 99, 100.

ويسمى أيضا قميص الكاهن Alb or dalmatic ويقول رءوف حبيب فى دليل المتحف القبطى (حاشية ص ١٢٣) ان لفظ التونية ، مشتق من الكلمة اليونانية خيتون ومعناها بالانجليزية Tunic أى قميص •

(٥٠٤) Butler : Op. Cit., pp. 98, 99, 100. ويسمى Girdle .

(٥٠٥) Butler, Op. Cit., pp. 99, 100.

(٥٠٦) Ibid., pp. 99, 100. ويسميه رؤوف حبيب فى دليل المتحف القبطى (حاشية ١٢٣) البدرشيل ويذكر انه لفظ مشتق من الكلمة اليونانية أبتراخيليون ومعناه ما يوضع حول العنق ، والبدرشيل يوضع حول العنق وينسدل على الصدر والظهر •

(٥٠٧) Butler : Op. Cit., pp. 99, 100.

(٥٠٨) Ibid., p. 98.

(٥٠٩) Ibid. p. 217.

(٥١٠) Ibid., p. 231 وكان رجال الكنيسة السريانية والأرمن دون القبط يلبسون صنادل خاصة Slippers نفس المصدر p. 233 .

(٥١١) البيان والتبيين جـ ٣ ص ٨٤ والبرطلة تشبه القلنسوة وهى كلمة قبطية معناها ابن الظل أو ابن المظلة ـ حاشية نفس الصفحة •

(٥١٢) الخطط جـ ٤ ص ٤٠٠ ، ميخائيل شاروبيم : الكافى جـ ٢ ص ٣٦٧ .

(٥١٣) حكيم أمين : دراسات فى تاريخ الرهبانية ص ١٤٤ . عزيز سوريال عطية : نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر ص ١٦٨ . ومما لا شك فيه ان هذه الملابس تطورت عما كانت عليه فى عصر الراهب أنطونيوس مؤسس الرهبنـة فى مصر والذى كان يلبس أردية من جلد الغنم ، ويجعلها بمثابة قميص ، ثم يرتدى فوقها مسحا من الكتان ، كما اتخذ قلنسوة من الوبر لغطاء رأسه (انظر المصدر الأول ص ١٤٣) ويشير ابن المقفع الى ملابس الرهبان ، فيقول ان اصطفن ابن أندونة الذى اعتنق الاسلام فى عهد المتوكل كان يقول : « ان النصارى قبل هذا اليوم لا يلبسون ثيابا لها اكمام بل يلبسون ثيابا بغير اكمام كما يلبس الرهبان الذين هم يدعونهم آباءهم . فاذا كان الاباء تلبس هذا اللباس فالأحرى أن تكون أولادهم مثلهم » . انظر سير الآباء البطاركة م ٢ جـ ١ ص ٦ .

(٥١٤) حكيم أمين : دراسات فى تاريخ الرهبانية ص ١٤٤. و
Autefage : Les Coptes, p. 34.
ويذكـر رؤوف حـبيب فى دليـل المتحـف القبـطى (حاشـية ص ١٢٣) ان الاسيكيم كلمة مشتقة من اللفظ اليونانى اسخيما ومعناه رداء الرهبان المتقدمين فى الفضيلة .

(٥١٥) حكيم أمين : دراسات فى تاريخ الرهبانية ص ١٤٤ . عزيز سوريال عطية : نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر ص ١٦٨ . ويقول ان هذه الملابس كان يرتديها الرهبان عند الخروج من الدير ، أما فى داخل الدير فكانوا يكتفون بالقميص القصير والحزام والطاقية .

(٥١٦) حكيم أمين : دراسات فى تاريخ الرهبانية ص ١٤٦ . الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٣ ص ٨٤ .

(٥١٧) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٣ ص ٨٩ .

(٥١٨) حكيم أمين : دراسات فى تاريخ الرهبانية ص ١٤٦ .

(٥١٩) حكيم أمين : دراسات فى تاريخ الرهبانية ص ١٤٦ ــ ١٤٧ .

(٥٢٠) Mann : The Jews, T. 1., p. 81.

(٥٢١) Ibid., p. 87.

(٥٢٢) Ibid., pp. 87-88.

(٥٢٣) Mann : The Jews, T. I., pp. 88-89.

(٥٢٤) Ibid., pp. 88, 90.

(٥٢٥) Ibid., p. 91.

(٥٢٦) Ibid., pp. 92-93.

(٥٢٧) Les Juifs en Egypte, p. 119.

(٥٢٨) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ص ١٠١ ·

(٥٢٩) Maurice Fargon : Les Juifs, p. 121.

(٥٣٠) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ١ ج ٢ ، ص ١٢٦ ·

(٥٣١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٤٢٤ · قال بعض الشعراء .

تحت اميـــــال طـــوال كبراطيـــــل اليهـــــود

(٥٣٢) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ٢ ج ١ ص ٤ ، ٥ ·

(٥٣٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ١٣٢ ·

(٥٣٤) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ٢ ج ٢ ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٩ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ · أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٧ ـ ١٧٨ · ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ص ١٢٧ ـ ١٢٨ · محمد عبد الله عنان ، الحاكم بأمر الله ص ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ·

(٥٣٥) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ٢ ، ج ٣ ، ص ٢١٨ ·

(٥٣٦) نفس المصدر ، م ٣ ج ١ ، ص ٤٦ ·

(٥٣٧) نفس المصدر ، م ٣ ج ٢ ، ص ٦٣ ·

(٥٣٨) تاريخ أبو صالح الأرمنى ، ص ٥٥ ـ ٥٦ · وقد أوصى البطرك زخارياس أن يدفن فى هذه المقابر بين القبط ، لما لمسه فى حياته من شدة ايمانهم وتقديرا لهم على ما قاسوه فى عهد الخليفة الحاكم ·

(٥٣٩) نفس المصدر ، ص ٥٦ ·

(٥٤٠) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ، ١٢٤ · السنكسار : ج ١ ، ص ١٢٧ ·

(٥٤١) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٦ ·

(٥٤٢) أهل الذمة فى الاسلام ص ٩٩ ـ ١٠٠ ويذكر انه لم يكد معاوية ابن أبى سفيان يتولى على طرابس حتى جلب اليهود اليها وأسكنهم فيها وفعل المسلمون فى الأندلس مثل ذلك · فاسكنوا اليهود المدن التى تم لهم فتحها · وكل

بذلك لأنهم كانوا يدركون عداوة اليهود للنصارى • ولما عزم الوليد بن عبد الملك على تحويل كنيسة يوحنا فى دمشق الى مسجد طلب من اليهود العمل فى هدم الكنيسة • نفس المصدر ص ١٠٠ •

(٥٤٣) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٤٧ ــ ٤٩ •

(٥٤٤) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٩٢ ــ ٩٦ •

(٥٤٥) Mann : The Jews, T. 1., pp. 211-212, and : Maurice Fargon : Les Juffs, p. 120.

(٥٤٦) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة م ٣ ، ج ١ ، ص ٥٣ • أبو صالح الأرمنى ، ص ٥٧ •

(٥٤٧) أبو صالح الأرمنى ص ١٣٩ • ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٥٩ ــ ١٦٠ •

(٥٤٨) أبو صالح الأرمنى ، ص ١٢٩ •

(٥٤٩) نفس المصدر ص ١٢٩ •

(٥٥٠) المكافاة ، ص ٣٦ • حسن محمود : حضارة مصر الاسلامية « العصر الطولونى » ص ٢١٧ •

(٥٥١) محمد كامل حسنين أدب مصر الاسلامية ، ص ٦٤ •

(٥٥٢) George Solomon : Un Texte Arabe, p. 2. وذكرنا من قبل بالفصل الرابع من الباب الأول موقف الأمراء المسلمين من هذا القبطى وردعهم لاحدهم حين حاول الايقاع بأبى السرور لدى الخليفة •

(٥٥٣) ابن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٧٠ و
Mann : The Jews, T. 1., p. 14.

(٥٥٤) جروهمان : أوراق البردى العربية ، السفر الأول ، ص ١٥٣ ــ ١٥٤ •

(٥٥٥) نفس المصدر ، ص ١٥٨ ــ ١٥٩ •

(٥٥٦) جروهمان : أوراق البردى العربية ، السفر الأول ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ •

(٥٥٧) نفس المصدر ص ٢١٤ ــ ٢١٧ ، ٢٢٠ ــ ٢٢١ •

(٥٥٨) نفس المصدر ، ص ١٥٣ •

(٥٥٩) نفس المصدر ، ص ١٣٣ ــ ١٣٤ ، ١٦٧ ــ ١٦٨ ، ١٧٣ ــ ١٧٤ ، ١٧٨ ــ ١٨٣ ــ ١٨٤ ــ ١٩٥ ــ ١٩٨ ، ٢٠٣ ــ ٢٠٦ ، ٢١٠ ــ ٢١١ ، ٢١٤ ــ ٢١٧ •

(٥٦٠) حسن محمود : حضارة مصر الاسلامية ، ص ٢١٧ والواقع أن زواج المسلمين من الذميات بدأ فى مصر الاسلامية منذ أن بدأ العرب ينزلون الريف والقرى المصرية ويعملون فى زراعة الأراضى • كما ان القبط الذين اعتنقوا الاسلام اختلطت انسابهم بانساب المسلمين العرب بعد نكاحهم المسلمات • انظر ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ١٣١ •

(٥٦١) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ من القسم الخاص بمصر ، ص ١٨٣ ــ ١٨٤ •

(٥٦٢) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ص ٨١ ، ٨٢ • ويصف المؤرخ موقف عامة المسلمين آنذاك ، فيقول : « فشغشت غواغى مصر ، ورعاعهم ، شغشا عظيما • وأغلق النصارى الكنائس ذلك اليوم سريعا وأصبح يوم الاثنين غده وقصدوا كنيسة ميخائيل التى للملكانيين بقصر الشمع ، وكسروا أبوابها ، وهتكوا الكنيسة ونهبوا ما ظفروا به منها ورجعوا الى كنيسة بوقير التى لليعقوبية بقصر الشمع ففعلوا بها مثل ذلك • فلما كان يوم الجمعة بعد صلاة الظهر الثامن من المحرم من السنة ، وقعت صيحة فى الجامع العتيق ، ورجفة ، فنهب عالم من الناس ، وأخذت ثيابهم ، وعاد الرعاع الى كنيسة ميخائيل ، وكسرت أبوابها أيضا ، ونهبت الكنيسة ، وشعثت • وكذلك أيضا كنيسة كانت لليعقوبية برأس الخليج ، فعل بها مثل ذلك » •

وتهيأ المسلمون لغزو بلاد الرومان ، وركب كافور الاخشيد لدار الصناعة وطرح مركبا عظيما واجتمع خلق عظيم ، ليشاهدوا تدشين هذا المركب ، فغرق كثير منهم كما غرقت بعض المراكب (٨ صفر سنة ٣٤٩ هـ) •

(٥٦٣) نفس المصدر ، ص ٨٤ ــ ٨٥ •

(٥٦٤) سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ٢٤١ • وتذكر من القصائد التى قيلت بشأن ذلك القصيدة المعروفة باسم القصيدة الأرمنية والتى تنسب الى شاعر ارتد عن الاسلام واتصل بالامبراطور نقفور ونظم هذه القصيدة حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ويقال انه أرسلها الى الخليفة العباسى المطيع لله ، ومن بين ما جاء فيها :

ثغوركم لم يبق فيها لوهنكم ... وضعفكم الا رسوم المعالم
فتحنا الثغور الأرمنية كلها ... بفتيان صدوا كالليوث الضراغم
والأريطش قد حازت اليها مراكب ... على ظهر بحر مزبد متلاطم

فحزتهم أسرى ويستقى نساؤهم	ذوات الشعور المسبلات النواعم
الى حلب حتى استبحنا حريمها	وهدم منها سورها كل هدم
ومصر سافتحها بسيفى عنوة	واخذ اموالا بها وبهائم
وأجزى كافور بما يستحقه	بمشط ومقراض وقصى محاجم

وتشير القصيدة الى المدن الاسلامية التى اعتدى الرومان عليها ، وتنتهى بهذه الأبيات :

هنالك تخلو الأرض من كل مسلم	لكل نقى الدين اغلف زاعم
سافتح ارض الله شرقا ومغربا	وابشر دينا للصليب بصارمى
فعيش علا فوق السموات عرشه	يفوز الذى والاه يوم التخاصم
وصاحبكم بالتراب أودى به الثرى	فصار رفاتا بين تلك الرمائم

انظر نفس المصدر ، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ . ونص القصيدة موجود أيضا فى كتاب السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ ٢ ، ص ١٥٩ ـ ١٧٩ .

(٥٦٥) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ٩٧ ، أبو صالح الأرمنى ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .

(٥٦٦) تاريخ ابن سعيد الأنطاكى ، ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .

(٥٦٧) Mann : The Jews, T. 1., pp. 31-32.

(٥٦٨) أبو صالح الأرمنى ، ص ٦٣ .

(٥٦٩) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٨ .

(٥٧٠) تاريخ ابن سعيد الانطاكى ، ص ١٨٦ .

(٥٧١) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ١٣٣ .

(٥٧٢) ص ٣ George Solomon : Un Texte Arabe, p. 3.

(٥٧٣) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٣ ، جـ ١ ، ص ٣٢ .

(٥٧٤) نفس المصدر ، ص ٤٤ .

(٥٧٥) ابن الأثير : الكامل : جـ ٧ ، ص ١٧٦ . أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جـ ١ ، ص ٨٦ .

(٥٧٦) السيوطي : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٢٠١ • آدم متز : الحضارة الاسلامية ، جـ ١ ، ص ١٠٠ •

(٥٧٧) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ص ١٠١ •

(٥٧٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٨١ ــ ٨٢ •

(٥٧٩) السيوطي : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ٥٧٩ •

(٥٨٠) أبو صالح الأرمنى ، ص ٣٠ •

(٥٨١) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ١٢٤ •

(٥٨٢) ايريس حبيب المصرى : تاريخ الكنيسة القبطية ، الكتاب الثانى ، ص ٢١٧ • و

Stanley Lane-Pool : History of Egypt in Middle Ages, p. 26.

(٥٨٣) ايريس حبيب المصرى : نفس المصدر ، ص ٢١٧ •

(٥٨٤) Anélienau : Histoire de P. Isaac, pp. 067-70.

(٥٨٥) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ جـ ٢ ، ص ١٤٣ •

(٥٨٦) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ١٥٩ •

(٥٨٧) جروهمان : أوراق البردى ، السفر الثالث ، ص ١١٨ ــ ١١٩ •

(٥٨٨) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ١٦٢ •

(٥٨٩) نفس المصدر ، ص ١٦٢ ــ ١٦٣ •

(٥٩٠) نفس المصدر ، س ١٧٣ •

(٥٩١) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ١٨٧ •

(٥٩٢) Stanley Lane-Péole : History of Egypt ..., p. 42.

(٥٩٣) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، ص ١١٨ • ابن سعيد ، المغرب ، جـ ١ ، ص ١٣٠ ــ ١٣١ •

(٥٩٤) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧ •

(٥٩٥) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، م ٢ ، جـ ١ ، ص ٧٧ •

ويقول ان السبب فى حسن معاملة خمارويه للقبط ورهبانهم انه لما سمع بأديرة وادى هبيب خرج اليها ، ودخل كنيسة أبى مقار ، ونظر الى جسد هذا القديس ، وطلب من الرهبان اخراج الجسد من الكفن ، فكان ذلك • ثم امسك بشعر لحيته ، ففتح عينيه فى وجهه ، فوقع خمارويه مغشيا عليه ، ثم افاقه

الرهبان بمسحه بزيت القناديل كما ظهرت له أعجوبة أخرى في هذا الوادي ، ذلك أنه لما شاهد صورة القديس تادرس رمى اليه بحزمة ريحان وكانت في يده ، وقال : خذها يا فارس يا شجاع ، فخرجت يده من الصورة ، وأخذت الريحان ، فخاف الأمير وبهت مما شاهده - ومنذ ذلك الوقت صار يراعي مصالح القبط في مصر ، ويحسن معاملتهم ٠

(٥٩٦) جمال سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، ص ٥٤ ٠

(٥٩٧) الحضارة الاسلامية ، جـ ١ ، ص ٩٤ - ٩٥ ٠

(٥٩٨) ترتون : أهل الذمة في الاسلام ، ص ٣٣ ٠

(٥٩٩) ابن سعيد الأنطاكي ، ص ٢٣١ - ٢٣٣ ٠

(٦٠٠) Stanley Lane-Pole ; Hist. of Egypt, p. 170.

(٦٠١) يرجع بناء هذا الدير الى عهد الامبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) وزوجته الامبراطورة تيودورا وهو آية من آيات الفن والمعمار البيزنطي من حيث جماله ، وما احتواه من المباني الرائعة والصور الجميلة والفسيفساء ذات الألوان البديعة الى جانب ما به من الكؤوس والأواني والذخائر المقدسة الذهبية والفضية ٠ انظر جوزيف نسيم : دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والأيوبي ، ص ١٧٩ (مجلة الآداب الاسكندرية ، م ١٨ ، سنة ١٩٦٤ م) ٠

M.H.P. Rabins : Le Monastére de Sainte Cathérine, p. 2.

ولمعرفة أهمية هذا الدير وشأنه في مصر الاسلامية ، انظر ، الشابستي : الديارات ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ ٨ ، ص ٥٢٠ ٠

العمري : مسالك الابصار ، جـ ١ ، ص ٣٧٢ ٠

(٦٠٢) جوزيف نسيم : دراسة في وثائق العصرين ، الفاطمي والأيوبي ، ص ١٨٤ (الوثيقة رقم ٦) ٠

(٦٠٣) نفس المصدر ، ص ١٨٨ ٠

(٦٠٤) نفس المصدر ، ص ١٩٠ ٠

(٦٠٥) نفس المصدر ، ص ١٨٥ - ١٨٦ (الوثيقة رقم ٨) ٠

(٦٠٦) جوزيف نسيم . دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والأيوبي ، ص ١٨٤ (الوثيقة رقم ٩) ٠

(٦٠٧) نفس المصدر ، ص ١٨٧ ٠

(٦٠٨) جوزيف نسيم : ص ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٥ (الوثيقة رقم ١٠) •

(٦٠٩) جوزيف نسيم : دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والأيوبي ، ص ١٨٩ •

(٦١٠) حسن محمود : حضارة مصر الاسلامية ، ص ٢٢١ • ويوجد دير القصير فى أعلى الجبل • وهو حسن البناء نزه البقعة • وله بئر منقورة فى الجبل • ولهذا الدير عيد عظيم يجتمع فيه خلق عظيم من المسيحيين • وكان هذا الدير بيد الملكانيين • وقد أنشأ به البطرك الملكانى اصطات Eustathus كنيسة الابسطلى • كما أنشأ فيه قلاية للأساقفة • ويعيد له فى كل سنة عيد القديس أرسانيوس فى الثالث عشر من شهر بشنس • وكان البطرك اصطات يعمل فى تجارة الكتان ثم ترهب فى هذا الدير وعمل على تعميره وتوسيعه • ثم أقيم بطركا للملكانيين ، واستمر فى هذا المنصب أربعا وستين سنة • وقد بلغت كنائس هذا الدير فى النصف الثانى من القرن الثاني عشر الميلادى عشر كنائس • كما يوجد بهذا الدير منظرة حسنة ، ومرافق للملكانيين • وقد أمر الحاكم بأمر الله بهدم هذا الدير فى سنة ٤٠٠ هـ • ثم رسم له بتجديد ما تشعث منه فى سنة ٤١١ هـ وقد رتب له الباساك أخو بهرام الارمنى ستة عشر فدانا وقفا له • ومن الطريف أنه كان يوجد بهذا الدير بغل ، لنقل المياه من البحر الى الدير فكان ينزل معه أحد الرهبان . ليملأ له الماء ، ويحمله اياه ، ويبقى الراهب المذكور عند البحر ، بينما يذهب البغل الى الدير ويعود الى البحر بمفرده • وقد أحيط هذا الدير بحصن منيع • ودبر بعض عامة المسلمين ، حيلة لرهبان هذا الدير حتى تمكنوا من دخوله والاستيلاء على ما فيه وقتل جماعة من الرهبان به ، انظر ، الشابستى : الديارات ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ • أبو صالح الأرمنى ، ص ٦٢ ـ ٦٦ • ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ ٨ ، ص ٥٢٦ • العمرى : مسالك الأبصار ، جـ ١ ، ص ٣٦٣ • المقريزى : الخطط ، جـ ٤ ، ص ٤١٠ ـ ٤١١ •

(٦١١) ياقوت الحموى • معجم البلدان ، جـ ٨ ، ص ٥٢٦ •

(٦١٢) نفس المصدر ، ص ٥٣٥ • العمرى • مسالك الأبصار ، جـ ١ ، ص ٣٦١ •وكان من أديرة الملكانيين بمصر ثم صار فى حوزة اليعاقبة فى عصر الولاة ثم عاد الى الملكانيين ثانية • وقد اهتم بتجديد عمارته أبو الفضل بن البغدادى وأبو نصر بن عبدون ـ ويعرف بابن العداس ـ فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله • وقد تعرض هذا الدير شأنه شأن غيره من الأديرة والكنائس ، لعمليات التخريب والتدمير آنذاك ، وكان بهذا الدير بعض الراهبات الى جانب وجود

الرهبان · وكان يرعى شئونهن أبو الفضل بن أبى الليث فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله · وكان لهذا الدير بستان جامع لمختلف أنواع الأشجار المثمرة · وضعف أمر هذا الدير على مر العصور ولم يهتم بعمارته حتى سنة ١١٦٨ م · لضعف الملكانيين بمصر وقلة عددهم · انظر ، الشابستى · الديارات ، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ ·

أبو صالح الأرمنى ، ص ٥١ ــ ٥٢ ويسميه المقريزى دير الطحين ، الخطط جـ ٤ ، ص ٤١١ ·

(٦١٣) الشابستى : الديارات ، ص ٢٥٦ ·

(٦١٤) نفس المصدر ، ص ١٨٧ ــ ١٨٨ · ياقوت الحموى · معجم البلدان ، جـ ٨ ، ص ٥٤٥ ·

المقريزى · الخطط ، جـ ٤ ، ص ٤١١ ·

(٦١٥) الديارات ، ص ١٨٨ ·

(٦١٦) نفس المصدر ، ص ٢٥٦ ·

(٦١٧) الشابستى · الديارات ، ص ١٩١ · ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٨ ، ص ٥٣٩ ·

العمرى : مسالك الأبصار ، جـ ١ ، ص ٣٦٢ · المقريزى . الخطط ، جـ ٤ ، ص ٤١٣ ·

(٦١٨) الشابستى : الديارات ، ص ١٩٢ ــ ١٩٣ · العمرى . مسالك الأبصار ، جـ ١ ، ص ٣٦٢ ·

(٦١٩) أبو صالح الأرمنى ، ص ٧٧ ·

(٦٢٠) نفس المصدر ، ص ٧٧ ·

(٦٢١) نفس المصدر ، ص ٧٧ ــ ٧٨ ·

(٦٢٢) أبو صالح الأرمنى ، ص ٧٨ ·

(٦٢٣) نفس المصدر ، ص ٧٨ ·

(٦٢٤) نفس المصدر ، ص ٧٨ ــ ٧٩ · ويذكر أن بعض الكتاب المصريين قد حفر بئرا على نفقته الخاصة لهذا الدير · وكان فى داخل بيعة هذا الدير جوسق كبير ، جدد الشيخ أبو البركات الكاتب المعروف بابن كتامة ، عمارته وكانت الأرضة قد أصابت أخشاب هذا الدير · فاهتم الشيخ أبو البركات بتجديد سقف الدير وأعمدته · وبلغ عدد الرهبان فى هذا الدير حتى عصر أبى صالح الأرمنى سبعة رهبان ·· انظر : نفس المصدر ، ص ٧٩ ــ ٨١ ·

(٦٢٥) الشابستى : الديارات ، ص ١٩٤ ، المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤١٤ .

(٦٢٦) أبو صالح الأرمنى ، ص ٨٥ .

(٦٢٧) الشابستى : الديارات ، ص ١٩٤ . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٥١٩ . العمرى : مسالك الابصار ، ج ١ ، ص ٣٧١ . والسابرى من الثياب ، يعنى الرقيق الجيد ، ومن الدروع الدقيقة النسيج فى احكام . الوسيط ، ج ١ ، ص ٤١٥ . وقد لقى دير طمويه عناية خاصة فى عهد الخليفة الامر ، اذ عنى بتجديده الشيخ أبو اليمن وزير ، متولى ديوان الوجه البحرى ، وابنـه الشيخ أبو المنصور ، الذى اهتم بتزويد هذا الدير ، بمختلف الأوانى من الفضة فعمل له صينيـة وكأسا وملعقة ومجمرة وصليبا . وايضا جعل لهذه الأوانى كسوة فاخرة من الحرير ، انظر : ابو صالح الأرمنى ، ص ٨٥ .

(٦٢٨) أبو صالح الأرمنى ، ص ٨٥ ـ وكان بهذا الدير معاصر للزيزت . كما كان له أراض واسعة تقـدر بسبعة وأربعين فدانا . وكان يدفع عنهـا الرهبان ، عشرة دنانير ، لبيت المال .

(٦٢٩) نفس المصدر ، ص ٦٠ .

(٦٣٠) ادم متز : الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٧٥ . وقد الف الجاثليق تيموتيوس Timotheus حوالى سنة ٢٠٠ هـ (٨٥٠ م) كتابا فى الأحكام القضائية للمسيحيين لكى يقطع كل عذر يحتج به المسيحيون الذين يلجأون الى القضاة المسلمين ، بدعوى نقصان القوانين المسيحية ...

(٦٣١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٣٥٩ .

(٦٣٢) نفس المصدر ، ص ٣٩٠ ـ ٣٩١ .

(٦٣٣) ادم متز : الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٧٦ . ويذكر أنه لا يوجد من القوانين التى وصفها البطاركة المسيحيون سوى بعض عقوبات دينية كنسـية منها ، التوبيخ أمام الناس ، والقيام على المسح والرماد أمام البيعة ، ودفع كفارة مالية للبيعة ، والمنع من دخولها ، ومن التمتع برسوم المباركة الدينية عند الموت ، ومن الدفن على الطريقة المسيحية ، ومن أمثلة العقوبة أن المعتدى الذى يضرب آخر ، يمنع من البيعة ومن رسوم المباركة من القسيسين شهرين ، ويقف كل يوم أحد على المسح والرماد ، وعليه أن يتصدق على الفقراء بحسب قدرته . انظر نفس المصدر ، ص ٧٦ ـ ٧٧ .

فهـــــرس

الموضـــوع | الصفحة

الباب الثانى

أهل الذمة فى المجتمع المصرى

صــدر من هذه السلسلة :

١ ـ **مصطفى كامل فى محكمة التاريخ •**
د• عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٢ ـ **على ماهــــر •**
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧

٣ ـ **ثورة يوليو والطبقة العاملة :**
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧

٤ ـ **التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة •**
د• محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧

٥ ـ **غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى •**
د • علية عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧

٦ ـ **هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ •**
لمعى المطيعى ، ١٩٨٧

٧ ـ **صـــلاح الدين الأيوبى •**
د • عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧

٨ ـ **رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية •**
د• على بركات ، ١٩٨٧

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل •

محمد أنيس ، ١٩٨٧

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية •

محمود فوزى ، ١٩٨٧

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية •

شكرى القاضى ، ١٩٨٧

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير •

د• نبيل راغب ، ١٩٨٨

١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان : رؤية تاريخية •

د• عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية •

د• سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامى •

د• على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر : دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ ـ ١٩٥٢) •

د• حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٨

١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى •

د• محمد نور فرحات ، ١٩٨٨

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية ٠
د٠ على السيد محمود ، ١٩٨٨

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين ٠
د٠ أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨

٢٠ ـ دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى ٠
د٠ محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨

٢١ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ ٠
د٠ توفيق الطويل ، ١٩٨٨

٢٢ ـ نظرات فى تاريخ مصر ٠
جمال بدوى ، ١٩٨٨

٢٣ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢ ، أمام التصوف فى مصر : الشعرانى ٠
د٠ توفيق الطويل ، ١٩٨٨

٢٤ ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) ٠
د٠ نجوى كامل ، ١٩٨٩

٢٥ ـ المجتمع الاسلامى والغرب ،
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين ، ترجمة : د٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩

٢٦ ـ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،
د٠ سعيد اسماعيل على ، ١٩٨٩

٢٧ ـ فتح العرب لمصر ، ج ١ ،

تأليف : ألفريد ج · بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
١٩٨٩

٢٨ ـ فتح العرب لمصر ، ج ٢ ·

تأليف : ألفريد ج · بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
١٩٨٩

٢٩ ـ مصر فى عصر الاخشيديين ،

د· سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩

٣٠ ـ الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،

د· حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٩

٣١ ـ خمسون شخصية مصرية وشخصية ،

شكرى القاضى ، ١٩٨٩

٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،

لمعى المطيعى ، ١٩٨٩

٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الأفريقى : نظرة على الأوضاع الراهنة ورؤية مستقبلية ،

د· خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩ ·

٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،

د· يونان لبيب رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

٣٥ ـ اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠

٣٦ ـ المجتمع الاسلامى والغرب ، ج ٢ ،
تأليف : هاملتون بووين : ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٩٠

٣٧ ـ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ،
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠

٣٨ ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ،
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠ .

٣٩ ـ قصة احتلال محمد على اليونان (١٨٢٤ ـ ١٨٢٧) ،
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠

٤٠ ـ الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى ، ١٩٩٠

٤١ ـ محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١

٤٢ ـ تكوين مصر عبر العصور ،
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠

٤٣ ـ رحلة فى عقول مصرية ،
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠

٤٤ ـ **الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى ،**
د ٠ محمــد عفيفى ، ١٩٩١

٤٥ ـ **الحروب الصليبية ، ج ١ ،**
تأليف : وليم الصــــورى ، ترجمــة وتقديم : د ٠ حسن حبشى ، ١٩٩١

٤٦ ـ **تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ ـ ١٩٥٧) ٠**
ترجمة : د ٠ عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١

٤٧ ـ **تاريخ القضاء المصرى الحديث ،**
د ٠ لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١

٤٨ ـ **الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاســـلامى ،**
د ٠ زبيدة عطا ، ١٩٩١

٤٩ ـ **العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ ـ ١٩٧٩) ،**
د ٠ عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٠ ـ **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ،**
د ٠ سهير اسكندر ، ١٩٩٣

٥١ ـ **تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقـــافة ، فى ابريـــل ١٩٩١) أعــدها للنشر : د ٠ عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٢ ـ **مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن الثامن عشر ،**
د ٠ الهام محمد على ذهنى ، ١٩٩٢

٥٣ ـ **أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسه .**
د . محمد كمال الدين عز الدين على ، ١٩٩٢

٥٤ ـ **الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى ،**
د . محمد عفيفى ، ١٩٩٢

٥٥ ـ **الحروب الصليبية ج ٢ ،**
تأليف : وليم الصورى ، ترجمـــة وتعليق : د . حسن حبشى ، ١٩٩٢

٥٦ ـ **المجتمع الريفى فى عصر محمـد على : دراســة عن اقليم المنوفيــة ،**
د . حلمى أحمد شلبى : ١٩٩٢

٥٧ ـ **مصر الاسلامية وأهل الذمة ،**
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢

٥٨ ـ **احمد حلمى سجين الحرية والصحافة ،**
د . ابراهيم عبد الله المسلمى ، ١٩٩٣

٥٩ ـ **الرأسمالية الصناعية فى مصر ، من التمصير الى التـأميم (١٩٥٧ ـ ١٩٦١) ،**
د . عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣

٦٠ ـ **المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٣

٦١ ـ **تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث ،**
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٢ - **هؤلاء الرجال من مصر ج ٣ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٩٣

٦٣ - **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،**
تأليف : د. سيده اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ، وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣ .

٦٤ - **مصر وحقوق الانسان ، بين الحقيقة والافتراء دراسه وثائقية ،**
د . محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣

٦٥ - **موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ - ١٩١٧)**
سهام نصار ، ١٩٩٣

٦٦ - **المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى**
د . نريمان عبد الكريم احمد ، ١٩٩٣

٦٧ - **مساعى السلام العربية الاسرائيلية : الأصول التاريخية ،**
(أبحاث الندوة التى اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس ، فى ابريل ١٩٩٣) ، أعدها للنشر : د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣؛

٦٨ - **الحروب الصليبية ، ج ٣ ،**
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د . حسن حبشى ، ١٩٩٣

٦٩ - **نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ - ١٩٥١)**
د . محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤

٧٠ ـ **أهل الذمة فى الاسـلام ،**
تأليف : أ· س· ترتون ، ترجمة وتعليق : د· حسن حبشى
ط ٢ ، ١٩٩٤

٧١ ـ **مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،**
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د · عبد الرؤوف أحمد
عمرو ، ١٩٩٤

٧٢ ـ **رؤية الرحالة المسلمين للأحوال الماليـة والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ) ،**
أمينة أحمد امام ، ١٩٩٤

٧٣ ـ **تاريخ جامعة القاهرة ،**
د · رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤

٧٤ ـ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، جـ ١ ، فى العصر الفرعونى**
د · سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤

٧٥ ـ **اهل الذمة فى مصر ، فى العصر الفاطمى الأول ،**
د · سلام شافعى محمود ، ١٩٩٥

٧٦ ـ **دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى (زمن الاحتـلال البريطانى) ،**
د · سعيد اسماعيل على ١٩٩٥

٧٧ ـ **الحروب الصليبية ، جـ ٤ ،**
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د · حسـن
حبشى ، ١٩٩٤

٧٨ ـ **تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ ـ ١٨٩٩) ،**
نعمات أحمد عتمان ، ١٩٩٥

٧٩ ـ **تاريخ الطرق الصوفية في مصر ، في القرن التاسع عشر ،**
تأليف : فريد دى يونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٥

٨٠ ـ **قناة السويس والتنافس الاستعمارى الأوربى (١٨٨٢ ـ ١٩٠٤) ،**
د . السيد حسين جلال ، ١٩٩٥

٨١ ـ **تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى نصر أكتوبر ،**
د . رمزى ميخائيل ، ١٩٩٥

٨٢ ـ **مصر فى فجر الاسلام ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية ،**
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٣ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ، ج ١ ،**
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٤ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،**
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥

٨٥ ـ **تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ ـ ١٩٥٢)،**
د . حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٥

٨٦ ـ **تاريخ التجارة المصرية فى عصر الحرية الاقتصادية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤) ،**
د . أحمد الشربينى ، ١٩٩٥

٨٧ ـ **مذكرات اللورد كلين ، جـ ٢ . (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،**
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د . عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٥

٨٨ ـ **التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥

٨٩ ـ **تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى ،**
د . عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥

٩٠ ـ **معاملة غير المسلمين فى الدولة الاسلامية ،**
د . نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦

٩١ ـ **تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،**
تألىف : بيتر مانسفيلد ، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٦

٩٢ ـ **الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) جـ ٢ ،**
نجوى كامل ، ١٩٩٦

٩٣ ـ **قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ ـ ١٩٥٨)**
د . نبيه بيومى عبد الله ، ١٩٩٦

٩٤ ـ **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) جـ ٢ ،**
د . سهير اسكندر ، ١٩٩٦

٩٥ ـ **مصر وأفريقيا ٠٠ الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة)
اعدها للنشر د ٠ عبد العظيم رمضان

٩٦ ـ **عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠) ٠**
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة : د ٠ عبد الرؤوف أحمد عمرو

٩٧ ـ **العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ،**
د ٠ ايمان محمد عبد المنعم عامر

٩٨ ـ **هيكل والسياسة الأسبوعية ،**
د ٠ محمد سيد محمد

٩٩ ـ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى ـ الرومانى) ج ٢ ،**
د ٠ سمير يحيى الجمال

١٠٠ ـ **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ٠**
أ٠ د٠ عبد العزيز صالح ، أ٠ د٠ جمال مختار ، أ٠ د٠ محمد ابراهيم بكر ، أ٠ د٠ ابراهيم نصحى ، أ٠ د٠ فاروق القاضى ، أعدها للنشر : أ٠ د ٠ عبد العظيم رمضان

١٠١ ـ **ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،**
اللواء / مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء / عبد الحميد كفافى ، اللواء/سعد عبد الحفيظ ، السفير/جمال منصور

١٠٢ ـ **المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢.**
د. تيسير أبو عرجة

١٠٣ ـ **رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره ،**
د . على بـركات

١٠٤ ـ **تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ ـ ١٩٥٢) .**
د . فاطمة علم الدين عبد الواحد

١٠٥ ـ **السلطة السياسية فى مصر وقضية الديمقراطية (١٨٠٥ ـ ١٩٨٧) .**
د . أحمد فارس عبد المنعم

١٠٦ ـ **الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ، ج ٢ ،**
د . سليمان صـــالح

١٠٧ ـ **الأصولية الاسلامية فى العصر الحديث ،**
تأليف : دليب هيرو ، ترجمـة : عبد الحميد فهمى الجمال

١٠٨ ـ **مصر للمصريين ، ج ٤ ،**
سليم خليل النقاش

١٠٩ ـ **مصر للمصريين ، ج ٥ ،**
سليم خليل النقاش

١١٠ ـ **مصادرة الأملاك فى الدولة الاســلامية (عصر سلاطين المماليك) ، ج ١ ،**
د . البيومى اسماعيل الشربينى

١١١ ـ **مصادرة الأملاك فى الدولة الاسلامية (عصر سلاطين المماليك) ، ج ٢ ،**
د . البيومى اسماعيل الشربينى

١١٢ ـ **اسماعيل باشا صدقى ،**
د . محمد محمد الجوادى

١١٣ ـ **الزبير باشا ودوره فى السودان (فى عصر الحكم المصرى) .**
د . اسماعيل عز الدين

١١٤ ـ **دراسات اجتماعية فى تاريخ مصر .**
أحمد رشدى صالح

١١٥ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٣ ،**
أحمد شفيق باشا

١١٦ ـ **اديب اسحق (عاشق الحرية) ،**
علاء الدين وحيد

١١٧ ـ **تاريخ القضاء فى مصر العثمانية (١٥١٧ ـ ١٧٩٨) .**
عبد الرازق ابراهيم عيسى

١١٨ ـ **النظم المالية فى مصر والشام زمن سلاطين المماليك .**
د . البيومى اسماعيل

١١٩ ـ **النقابات فى مصر الرومانية ،**
حسين محمد أحمد يوسف

١٢٠ ـ **يوميات من التاريخ المصرى الحديث**
لويس جرجس

١٢١ ـ الجلاء ووحدة وادى النيل (١٩٤٥ ـ ١٩٥٤ .
د • محمد عبد الحميد الحناوى

١٢٢ ـ مصر للمصريين ج ٦
سليم خليل النقاش

١٢٣ ـ السيد أحمـــد البدوى •
د • سعيد عبد الفتاح عاشور

١٢٤ ـ العلاقات المصرية الباكستانية فى نصف قرن
د • محمد نعمان جلال

١٢٥ ـ مصر للمصريين ج ٧
سليم خليـــل النقاش

١٢٦ ـ مصر للمصريين ج ٨
ســليم خليل النقاش

١٢٧ ـ مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ ـ ١٩٥٨)
ابراهيم محمد محمد ابراهيم

١٢٨ ـ معارك صـــحفية
جمـــال بدوى

١٢٩ ـ الديـن العـــام (وأثـــره فى تطـــور الدين المصرى)
(١٨٧٦ ـ ١٩٤٣)
د • يحيى محمد محمود

١٣٠ ـ تاريخ نقابات الفنانين فى مصر (١٩٨٧ ـ ١٩٩٧)
سمير فريد

١٣١ - **الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ (١٩٥٢ - ١٩٥٨)**
تأليف جايل ماير ، ترجمة عبد الرءوف أحمد عمر

١٣٢ - **دار المندوب السامي في مصر جـ١ ، (١٩١٤ - ١٩٢٤)**
د . ماجدة محمد حمود

١٣٣ - **دار المندوب السامي في مصر جـ٢ (١٩١٤ - ١٩٢٤)**
د. ماجدة محمد حمود

١٣٤ - **الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني للدارندلي**
بقلم / عزت حسن أفندي الدار ندلي
ترجمة / جمال سعيد عبد المغني

١٣٥ - **اليهود في مصر المملوكية (في ضوء وثائق الجنيزة)**
(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
د. محاسن محمد الوقاد

١٣٦ - **اوراق يوسف صديق تقديم / د. عبد العظيم رمضان**

١٣٧ - **تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي**
د. محمد عبد الغني الأشقر

١٣٨ - **الاخوان المسلمون وجذور التطرف الديني والارهاب في مصر**
السيد يوسف

١٣٩ - **موسوعة الغناء المصري في القرن العشرين**
محمد قابيل

١٤٠ ـ **سياسة مصر فى البحر الأحمر**
فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ـ طارق
عبد العاطى غنيم ٠

١٤١ ـ **وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك**
لطفى أحمد نصار ٠

١٤٢ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ج ٤**
أحمد شفيق باشا ٠

١٤٣ ـ **دبلوماسية البطالمة فى القرنين الثانى والأول ق٠م٠**
د٠ منيرة محمد الهمشرى ٠

١٤٤ ـ **كشـــوف مصر الأفريقية**
فى عهـــد الخـــديوى اسماعيـــل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) ـ
د٠ عبد العليم خلاف ٠

١٤٥ ـ **النظام الادارى والاقتصادى فى مصر**
فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) ـ
د ٠ منيرة محمد الهمشرى ٠

١٤٦ ـ **المرأة فى مصر المملوكية**
د٠ أحمد عبد الرازق

١٤٧ ـ **حسن البنا [متى ٠٠ كيف ٠٠ ولماذا ؟)**
د٠ رفعت الســـعيد

١٤٨ ـ **القديس مرقس وتاسيس كنيسة الاسكندرية**
تأليف / د٠ سمير فوزى
ترجمة / نســـيم مجلى

١٤٩ ـ العلاقات المصرية الحجازية فى القرن الثامن عشر

حسام محمد عبد المعطى

١٥٠ ـ تاريخ الموسيقى المصرية (أصولها وتطورها) ٠

د٠ سمير يحيى الجمال

١٥١ ـ جمال الدين الأفغاني والثورة الشاملة

تأليف / السيد يوسف

١٥٢ ـ الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية

(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)

د ٠ محاسن محمد الوقاد

١٥٣ ـ الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)

د ٠ علية عبد السميع الجنزورى

١٥٤ ـ هجمات الروم البحرية على شـواطىء مصر الاسلامية فى العصور الوسطى

د ٠ علية عبد السميع الجنزورى

١٥٥ ـ عصر محمد على ونهضة مصر فى القرن التاسع عشر

(١٨٠٥ ـ ١٨٨٣)

د٠ عبد الحميد البطريق

١٥٦ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية جـ ٣ فى العصر الاسلامى

د٠ سمير يحيى الجمال

١٥٧ ـ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية ج ٤ فى العصر الاسـلامى والحديث**

د٠ سمير يحيى الجمال

١٥٨ ـ **نائب السلطنة المملوكية فى مصر**

(من ٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)

د٠ محمد عبد الغنى الأشقر

١٥٩ ـ **حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢ م) الجزء الأول**

د٠ محمد فريد حشيش

١٦٠ ـ **حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢ م) الجزء الثانى**

د٠ محمد فريد حشيش

١٦١ ـ **السيف والنار فى السودان**

تأليف/سلاطين باشا

١٦٣ ـ **السياسة المصرية تجاه السودان**

(١٩٣٦ ـ ١٩٥٣)

د ٠ تمام همام تمام

١٦٣ ـ **مصر والحملة الفرنســـية**

المستشار / محمد سعيد العشماوى .. ٠

١٦٤ ـ **الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ**

(أعمال نـدوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافـة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعـة القاهرة « ٢٠ ـ ٢١ ديسمبر ١٩٩٧ ») ٠

اعداد / د٠ عبد العظيم رمضان

١٦٥ ـ التعليم والتغيير الاجتماعى فى مصر فى القرن التاسع عشر
سامى سليمان محمد السهم

١٦٦ ـ مذكرات معتقل سياسى
صفحة من تاريخ مصر السيد يوسف

١٦٧ ـ الحركة العلمية والأدبية فى الفسطاط منذ الفتح العربى
الى نهاية الدولة الاخشيدية
د. صفى على محمد

١٦٨ ـ مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات
يسرى عبد الغنى

١٦٩ ـ مدن مصر الصناعية فى العصر الاسلامى الى نهاية عصر
الفاطميين (٢١ ـ ٥٦٧ هـ / ٦٤٢ ـ ١١٧١ م)
د. صفى على محمد عبد الله

١٧٠ ـ القرية المصرية فى عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ ـ
٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)
مجدى عبد الرشيد بحر

١٧١ ـ تاريخ الجالية الأرمنية فى مصر (القرن التاسع عشر)
محمد رفعت

١٧٢ ـ تاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية (من الفتح العربى
الى نهاية العصر الفاطمى ج ١)
د. فاطمة مصطفى عامر

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



رقم الايداع بدار الكتب ١٦٦٧٣/١٩٩٩

ISBN — 977 — 01 — 6551 — 4

الدراسة التى بين أيدينا هى دراسة علمية موسعة نشرها على جزءين: الجزء الأول ويتناول بابين، الأول عن دور أهل الذمة فى الحياة السياسية فى مصر، والثانى يتناول أهل الذمة فى المجتمع المصرى.

والباب الأول ينقسم إلى أربعة فصول تتناول: موقف القبط واليهود من الفتح العربى، ودور أهل الذمة فى الحياة السياسية فى عصر الولاة، وأهل الذمة فى عصر الدولتين الطولونية والأخشيدية، وموقف الدولة الفاطمية من أهل الذمة.

أما الباب الثانى، وهو يضم أربعة فصول أيضاً، فيتناول أحكام أهل الذمة فى الإسلام، ومدى تطبيقها فى مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمى، ثم الاحتفالات الدينية والقومية، والأخلاق والعادات، وعلاقات أهل الذمة بسائر عناصر المجتمع المصرى.

٦٥٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب